البحوث الكيفية في العلوم الإجتماعية

تأليف
شارلين هس - بيبر
باتريشيا ليڤي

ترجمة
هناء الجوهري

مراجعة وتقديم
محمد الجوهري

1783


سلسلة العلوم
الاجتماعية للباحثين
3

المشروع القومي للترجمة
المركز القومي للترجمة

البحوث الكيفية
فى العلوم الاجتماعية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 1783
- البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية
- شارلين هس- بيبر، وباتريشيا ليفى
- هناء الجوهرى
- محمد الجوهرى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Practice of Qualitative Research, 2nd edition,
By Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Leavy
Copyright © 2006 by Sage Publications, Inc.
This translation is published by arrangement with the proprietor:
Sage Publications, Inc. and it is the original publisher in the
United States, London and New Delhi

تصدر هذه الترجمة بالتنسيق مع Sage Publications, Inc. وهى الدار المالكة للحقوق والناشر الأصلى للكتاب فى الولايات المتحدة الأمريكية ولندن ونيو دلهى.

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

البحوث الكيفية
فى العلوم الاجتماعية

تأليف

شارلين هس-بيبر   باتريشيا ليفى

ترجمة: هناء الجوهرى

مراجعة وتقديم: محمد الجوهرى



2011

بيير، شارلين هسى.
البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية/ تأليف: شارلين هسى ـ بيير، باتريشيا ليفى؛ ترجمة: هناء الجوهرى؛ مراجعة وتقديم: محمد الجوهرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٦٣٢ص : ٢٤سم . ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٠ ٨٧٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ العلوم الاجتماعية ـ طرق البحث.
أ ـ ليفى، باتريشيا. (مؤلف مشارك)
ب ـ الجوهرى، هناء. (مترجم)
جـ ـ الجوهرى، محمد. (مراجع ومقدم)
د ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨٥٠/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -876 - 0
ديوى ٣٠٠,٧٢

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

القسم الأول

نموذج البحث الكيفى

القسم الثانى
طرق جمع البيانات

القسم الثالث

التحليل والعرض

مقدمة الترجمة العربية

محمد الجوهرى

هذا الكتاب حلقة من سلسلة كتب تمثل مشروعاً طموحاً لترجمة أمهات الكتب العلمية التأسيسية فى مجالات فروع العلوم الاجتماعية. وهو المشروع الذى يجرى تنفيذه بهمة فى رحاب المركز القومى للترجمة بالقاهرة. وتتركز الأعمال المترجمة فيه على محور المناهج وطرائق البحث فى تلك العلوم. ويشترط فيما يترجم أن يخدم الباحثين فى تلك التخصصات وكذلك طلاب الدراسات العليا فيها، بحيث تمثل كتب هذا المشروع نافذة أولئك الباحثين والطلاب على اتجاهات العلم الحديث فى العالم. وقد صدرت منه بالفعل سبعة كتب، شارك فريق العمل فى هذا الكتاب بثلاثة منها.

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ يمثل أشمل وأوفى نص عربى يتناول البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية بطرائقها المختلفة، المألوف منها: كالملاحظة، والمقابلة، والبحث الإثنوجرافي، وتحليل المضمون، وجماعات المناقشة المركزة. كما يولى اهتماماً خاصاً لطرق البحث الكيفى المستحدثة: كالتاريخ الشفاهى، وطرق البحث غير التدخلية، كتلك التى تجرى على المادة الغزيرة المتجددة المتاحة فى مواقع الإنترنت وقاعات المناقشة والفيسبوك واليوتيوب وغيرها.

وهو لا يكتفى بالحديث عن الطرق، ولكنه يمهد للعمل بنظرة طائرة إلى ميدان البحوث الكيفية نفسه كنشاط ذى طبيعة خاصة يتطلب فيمن يمارسه مهارات خاصة، ويفرض عليه شروطا بعينها، لأن البحث الكيفى فى نظر المؤلفتين "مهارة" خاصة تحتاج إلى "براعة وحنكة" فيمن يمارسها. وفى هذا القسم التمهيدى أيضاً يركز الكتاب على قضية الأخلاق فى البحث الكيفى، وهى مسألة سوف نتوقف عندها فى حديثنا هنا قليلاً. ذلك أن أى بحث كيفى إنما هو ثمرة علاقة "شراكة" بين الباحث والمبحوث، لا بل هو ثمرة علاقة "حميمة" بينما تتطلب التزامات أخلاقية صارمة تراعى حرمات المبحوث وخصوصياته، وكذلك رؤيته للموضوع المدروس ووجهة نظره فيه.

وبعد أن يفرغ الكتاب من استعراض مختلف الطرق (فى القسم الثانى الذى يمثل أكثر من ثلثى الكتاب) ينتقل فى الخاتمة ليستوفى مرحلة ما بعد جمع البيانات، وأعنى بها عمليات التصنيف، والتفسير (التأويل) والعرض (أو كتابة تقرير البحث).

واضح إذن أن الهدف الأول والرئيسى لكتابنا هذا هو دراسة طرق البحث الكيفية دراسة شاملة متكاملة. غير أن الكتاب لم يتجاهل أو ينسى أن طرق البحث الكمية كانت موجودة على الساحة العلمية - بل ومسيطرة عليها- فى مراحل تاريخية سابقة، وستظل موجودة بعدها.

وبغض النظر عن اعتبارات المجاملة التى لا مكان لها فى التناول العلمى الصارم للمناهج خصوصاً، فإن نوعى الطرق: الكمية، والكيفية يمكن أن تتبادل المنافع والخدمات. وقد تناول الكتاب هذه القضية فى أكثر من موضع، ولكنى ألفت النظر خصوصاً إلى فقرة: **التصميمات المتعددة الطرق: الجمع بين البيانات الكيفية والكمية.**(فى الفصل التاسع من الكتاب). ووجهة النظر التى تدافع عنها المؤلفتان على امتداد الكتاب أن البحث الكيفى ليس مجرد زيادة تضاف إلى البحث الكمى. وإنما الأحرى أن البحث الكيفى يساعدنا على طرح تشكيلة متنوعة من أسئلة البحث ومن الإجابة عليها. وبذلك يضيف إضافة هائلة إلى رصيدنا من المعرفة عن أى موضوع من الموضوعات.

هذا الكتاب- أيضاً - نوع من التعويض

عن التدريب الميدانى على البحث

أوضحنا فى تقديمنا للكتاب الذى حررناه عن البحث الإثنوجرافى الميدانى فى العلوم الاجتماعية أنه لا يمكن للباحث المبتدئ أن يبلغ مستوى الإجادة فى إجراء البحوث الكيفية إلا بالتدريب العملى ميدانياً عليها تحت إشراف وتوجيه الأستاذ الباحث ذى الخبرة. ويمكن أن يتم هذا الإشراف عبر متابعة الأستاذ الدقيقة والآنية للمادة التى يحصل عليها الطالب/ الباحث من الميدان، ومراجعته لها، وتعليقه عليها، وتوجيه هذا الطالب لسبل تلافى أوجه القصور وتعظيم نواحى القوة فى عمله.

ومن هنا لا يتم تدريس أساليب البحث الميدانى نظرياً فقط، وإنما يكون التدريب العملى جزءاً لا يتجزأ من عملية إكساب هذه الخبرة للطالب وتدريبه على تجويدها والارتقاء بها. ومن أسف أن هذا الأسلوب كان هو المتبع فى جامعاتنا بالنسبة لتدريس مناهج البحث الميدانى، سواء فى الأنثروبولوجيا، أو فى علم الاجتماع، أو الخدمة الاجتماعية، أو فى غيرها من تخصصات العلم الاجتماعى عموماً. وكان التدريب الميدانى مجالاً لالتقاط وفرز الباحثين الموهوبين وفرصة لاختيار موضوعات لرسائل الماجستير والدكتوراه لطلاب الدراسات العليا (من المعيدين والمدرسين المساعدين وغيرهم) ممن يرافقون الرحلة الميدانية التى يقودها أستاذ أو عدد من الأساتذة.

وطبيعى أن هذا الأسلوب العملى قد شهد تراجعاً حاداً فى العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة نتيجة عوامل متعددة، من أبرزها قلة الموارد المالية المتاحة للإنفاق على مثل هذه الأنشطة المكلفة (من انتقالات، وإعاشة، ومبيت... إلخ) وكثرة عدد الطلاب فى جميع الكليات وفى كل التخصصات. وهذا بالطبع فضلاً عن قلة أعداد أعضاء هيئة التدريس المؤهلين للاضطلاع بهذا النشاط التعليمى الأساسى والمهم فى نفس الوقت.

ولهذا أعتقد أن إخراج مجموعة من الأعمال العلمية والمتميزة عن مناهج وطرق العمل الميدانى فى العلوم الاجتماعية- وهو الأمر الذى يكرس له نفسه مشروعنا هذا- سوف يسهم جدياً فى تلافى هذا النقص الخطير فى تأهيل طلابنا، خاصة فى مستوى الدراسات العليا، للقيام ببحوثهم الميدانية بالكفاءة المرجوة أو قريباً منها.

التوجه النقدى الإنسانى لهذا العمل

بعيداً عن دروس تعليم البحوث الكيفية، وعن استعراض الأسس والقواعد العلمية الواجب اتباعها، والتميز الواضح فى معالجة كل ذلك بأسلوب شديد الوضوح؛ بعيداً عن كل هذا يكشف لنا الكتاب ثراء إنسانياً هائلاً يغمر كل صفحة من صفحاته الكثيرة. وهذا التوجه الإنسانى الصريح- الناجم عن توجه نقدى قوى ومستنير- يتجلى فى:

- بداية فى الدفاع عن حقوق المبحوثين- فى أى زمان ومكان - فى أن يُسمع صوتهم، وتتاح لهم فرصة التعبير عن مكنون عواطفهم وآرائهم تجاه البحث ونتائجه، وتجاه الباحث وأساليبه.
- الدفاع المباشر الصريح دون أدنى مواربة عن الفئات المهمشة أو المقهورة التى تم التعتيم على آرائها ومشاعرها دهوراً طويلة، وآن الأوان لكى تخرج إلى السطح وتتنسم مشاعر الحرية والمساواة: المرأة، والسود، وذوى الاحتياجات الخاصة، والمهاجرين (الأجانب) فى كل مجتمع، والفقراء، والمهمشين...إلخ.
- يتطلب تبنى هذا التوجه النقدى **الإنسانى** ليس فقط كل هذا الحرص فى تخطيط المشروع البحثى أو تنفيذه، وإنما **يفرض على الباحث أن يناقش النتائج التى توصل إليها مع مبحوثيه الذين تدور حولهم تلك النتائج وتتحدث عن حياتهم**. إنهم خير من يعرف إن كان الباحث قد أصاب كبد الحقيقة، أم أنه حاد عن جادة الصواب. ومن خلال مثل هذا الحوار يتم تصحيح النتائج فتزداد رسوخاً وقوة وبالتالى فعالية على صعيد الواقع. ففى التقرير النهائى للبحث لا يجوز للباحث أن يتكلم نيابة عن الناس (الذين درسهم)، وإنما الناس هم الذين يتحدثون عن أنفسهم. وسوف أستعرض كل موضوع على حدة فيما يلى.

البحث الكيفى شراكة بين الباحث والمبحوث

ينطلق الكتاب الذى بين أيدينا من تصور كيفى لعملية البحث الاجتماعى تتسم بعدة ملامح بارزة، يأتى فى مقدمتها أن عملية توليد البيانات وبناء المعرفة هى شراكة وجهد تعاونى بين الباحث والمبحوثين، على نحو ما سنطالع تفصيلاً فى كل فصول الكتاب.

لهذا يجتهد الكتاب أن يبرهن لنا- فى كل مناسبة ممكنة- على أن الحقيقة التى يلتمسها الباحث فى العلم الاجتماعى لن تتولد إلا بالمشاركة بينه وبين مبحوثه (أو مبحوثيه). وعليه أن يُدخل كيانهم ومشاعرهم وآراءهم وخبراتهم وتصوراتهم فى الحسبان فى كافة مراحل البحث: منذ تصميم خطة البحث، مروراً بعمليات جمع المادة، وتصنيفها، وتحليلها، وحتى كتابة التقرير النهائى.

المبحوث هنا إنسان كامل الأهلية وصاحب حقوق مقدسة وكيانه مساو لكيان الباحث، وهو شريك فى توليد المعرفة لأنه شريك فى صنع حياتـه، أو هو يسعى - على الأقل- إلى ذلك لأنه يعى به تمام الوعى. ولا يقتصر الأمر على عملية البحث، وإنما تكون مسألة الانتفاع بنتائجه من الأمور التى تهمـه كما تهم الباحث، لأنه شريك فى صنع تلك النتائج، لذلك يتعين أن يكـون لـه رأى فى تطبيقها.

هذا علم حر لأناس أحرار، ولذلك قد يبدو بعض الكلام الذى يحويـه هذا الكتاب بين دفتيه عجيباً أو مثيراً للتساؤلات، أو حتى جديداً، لأننا كباحثين فى دول عالم ثالث ننظر إلى الناس من علٍ، فلا يكفى تعالى حكامهم علـيهم، وإنما نشارك نحن برؤيتنا الوضعية فى قهرهم كبشر. هـذا الكتـاب دعـوة تنويرية للدفاع عن كل المبحوثين من المقهورين، سواء وقع القهر عليهم مـن المجتمع أو من المشتغلين بالبحث الاجتماعى.

إذا كان المشروع البحثى يمثل عملاً تعاونياً يـشارك فيـه الباحـث المبحوث، فإنه يترتب على هذا التصور إثارة مشكلة القـوة بـين الطـرفين "المشاركين" فى توليد المعرفة (أى المشكلة السياسية)، والحاجة إلـى التأكيـد على اقتسام السلطة داخل الموقف البحثى برمته: منذ وضع الخطـة، وحتـى كتابة تقرير البحث. وهو ما يسميه الكتاب "الطابع التعاونى الكلى الشامل".

هذه نظرة تختلف اختلافاً حاسماً مع الموقف البحثى الوضعى، الذى لا يرى فى الفرد المبحوث سوى رقم من بين أفراد العينة، ولا يخطر ببال ذلـك الباحث أن يستمع لمبحوثه أو يتعمق فى فهم همومه ومشكلاته وسبر أغـواره خارج نطاق أسئلته المحددة... فتلك المسائل ليست مطروحة لديه أصلاً. هـو وراء المعلومة، يريد أن يقتنصها اقتناصاً ولا يبغـى بعـد ذلـك شـيئاً مـن المبحوث. فالباحث هو الذى سيقوم بعملية "تأويل" إجابات ذلك المبحوث، وهو الذى سيؤطرها ويحللها ويفسرها، هو وحده متعهد توليد المعنى والحديث نيابة عن كل مبحوثيه.

ولاشك أن أوهام الوضعية هى التى تصور للباحث فهمه لنفسه علـى هذا النحو المغلوط، فهو العارف، "والآخرون" (المبحوثون) هم مجرد مـادة،

وهو لا يريد زيادة عما فى استمارته ولا أنقص منها.. ويسمى ذلك انـضباطاً وضبطاً منهجياً. وهذا التصور خلاب فعلاً فى كل البـدايات الأولـى لنـشأة المنهج العلمى الاجتماعى، بعد ما كانت الكتابة عن البشر- أو عـن تطـور المجتمع- تتم فى الماضى فى غرف مكاتب وثيرة دون إقامـة أى صـلة أو احتكاك مع هؤلاء الناس الذين نتحدث عنهم وننظر لهم. وهذه هى فئة علمـاء الاجتماع فى القرنين الثامن عشر والتاسـع عـشر الـذين كـانوا يـسمون Armchair Sociologists (وهو ما يعنى علماء الاجتماع من فوق الكراسى الوثيرة، أو ما معناه العلماء المكتبيون الذين لم ينزلوا أبداً إلى النـاس الـذين يكتبون عنهم).

فى ضوء ما تقدم يهجر الكتاب الذى بين أيـدينا أو يكـاد- اسـتخدام مصطلح المبحوثين. فمنظوره الديموقراطى إلى عملية البحث يحارب كل مـا يُشتم منه تسلط الباحث على مبحوثه أو مبحوثيه. فهم الذين يعرفون وهم الذين نريد "سماع صوتهم" فى تقرير البحث، بل هم الذين يتعين- مثاليا- أن نعرض عليهم نتائج البحث لإقرار مدى صدقها فى التعبير عنهم.

هم-إذن- شركاء فى البحث أو مشاركون فى البحث Participants، وليسوا مبحوثين، هم فاعلون وليسوا مفعولاً بهم. وقد رأينا أن استخدام كلمـة مشاركين أو "شركاء" وحدها قد يوحى للقارئ العربى بأنهم باحثون آخـرون زملاء للباحث، فيحدث التباس يدمر الهدف كله من العرض. ولذلك ترجمنـا الكلمة- كلما كان ممكناً-بالمبحوث والمبحوثين، وتركناها فى عدد كبير مـن المواضع كما وردت: أى "مشاركين" أو "الأفراد المشاركين" وكتبنا بجوارهـا بين قوسين (المبحوثين). ونعتقد أننا نكون قد نقلنا بأمانة وجهة نظر المؤلفتين إلى طبيعة العلاقة المنشودة بين الباحث والمبحوث فـى المـشروع العلمـى الكيفى.

المهم أن هذه النظرة تلغى بقوة وبإصرار أى وضع متفـوق للباحـث على مبحوثيه، هو "لا يملك" الحقيقة، وإنما هذه الحقيقة لدى أولئك المبحوثين، وهو "يتعاون معهم" فى الكشف عنها. بل إن عليه أن يعرض عليهم ما انتهـى إليه من نتائج: "ولو فرض أننى أمارس شكلاً من أشكال الصدق التواصـلى،

فربما أطلب من الطلاب الذين قمت بمقابلتهم (المبحوثين) فى بحث ...... أن يعلقوا على نتائج بحثى. هل يوافقون على تفسيرى للمقابلات التى أجريت معهم؟ وماذا يكون إذا لم يوافقوا؟ ...... إلخ".

وكما أن ممارسة عملية البحث الكيفى تتجذر فى إيمان راسخ بالعدالة الاجتماعية، كذلك هى **تتوسل إلى تحقيق غايتها – وهى إنتاج معرفة ذات معنى– بممارسات بحثية ذات طبيعة ديموقراطية حقيقية.**

فمن مبادئ ممارسة البحث فى التاريخ الشفاهى– مثلاً– العمل على هدم تمركز السلطة فى الموقف البحثى (تقليديا فى يد الباحث)، والحرص على اقتسام تلك السلطة مع المبحوث. فقد ظل الباحثون– على امتداد التاريخ– يحظون بوضع فوقى بالقياس إلى المبحوث. وذلك باعتبار أن الباحث هو الطرف العارف، وهو الذى كان يحتكر السيطرة على عملية البحث وعلى المعرفة الناتجة عنه.

ثم جاءت الممارسة العلمية المعاصرة للتاريخ الشفاهى لتعلمنا "أن المبحوث له من الخبرات الحياتية، والأفكار، والمشاعر ما يمكنه أن يساعدنا على أن نفهم الحقيقة الاجتماعية، أو نفهم جانباً منها على أفضل وجه. أى أن لدى هذا المبحوث معرفة متميزة ذات قيمة غالية. وهذا الراوى– وحده– هو الذى يعرف قصته الشخصية، ومن ثم فإنه يؤدى دور الراوى. وبهذا تتيح طريقة البحث هذه للمبحوث أن يحتفظ بسلطته على معرفته أثناء جمع البيانات...".

من هنا نستطيع أن نفهم دعوة بعض المشتغلين بالتاريخ الشفاهى (من الناشطين الاجتماعيين خصوصاً) إلى اقتسام السلطة أثناء مراحل المشروع البحثى كلها من أجل الإنتاج الديموقراطى للمعرفة، والذى يمكنه أن ينفع الجماعات التى غالباً ما نجرى بحثنا من أجلها، وبأقصى درجات الفعالية والتأثير.

يتضح من هذا العرض أن مثل هذا النوع من البحوث التى يروج لها هذا الكتاب تنطلق من مواقف مبدئية، بعضها أخلاقى، وبعضها سياسى، وكثير منها علمى... إلخ. وقد تكرر التأكيد – فى غير موضع – على أن من أهم

منطلقات البحوث الكيفية أن الباحث لا يملك وحده الحقيقة، ليس لقصور فيه أو لنقص ما، وإنما لأنه لا يملك اليقين.إنها دعوة إلى التواضع الأخلاقى والعلمى فى نفس الوقت.

ولو نجح مثل هذا الكتاب في أن يقنعنا بقيمة التواضع الأخلاقى والعلمى، فإنه بذلك يبنى حجراً مهماً فى صرح نهضة مجتمعنا.. المجتمع الذى يعانى من سيطرة الاتجاهات المتطرفة على كل صعيد، فى الدين، كما فى السياسة، ثم فى العلم أيضا. فالتطرف عدو البحث الكيفى لأن المتطرف يدعى امتلاك اليقين، فهو- إذن- يملك الحقيقة. والباحث المتطرف (هو هنا الوضعى التقليدى) يدعى هو الآخر امتلاك اليقين، ويعرف أن الحقيقة موجودة، وأن كل ما عليه هو أن يبادر إلى التنقيب عنها والإمساك بها. البحث الكيفى ليس اختراعا هبط على تلك المجتمعات من السماء، وإنما هو ثمرة طبيعية لمجتمع يريد أن ينفض عن نفسه غرور القوة وتطرف الرؤية إلى العالم.

البحث الكيفى صوت من لا صوت لهم

استفاضت مؤلفتا الكتاب فى بيان أن الطرق الكيفية هى الوسيلة الأساسية لإسماع صوت من لا صوت لهم، أو الذين قهرتهم مجتمعاتهم وحجبت أصواتهم عن الآخرين، أو حجبت الدارسين منهم عن التناول الكيفى لشئون الحياة الاجتماعية. من هم هؤلاء المقهورين الذين لم يكن يُسمع صوتهم حتى سنوات قريبة. إنهم فى مجتمع مؤلفتى الكتاب: الملونون، والشواذ، والنساء، والمهاجرون، والأقليات العرقية، وكذلك نحن أبناء العالم الثالث (الأقليات الثقافية)، وكل أصحاب التوجهات المناوئة للتيارات السائدة عموما... إلخ.

وقد يبادر أحدهم إلى القول: إذا لم يكن فى بلادنا كل هذه الفئات، فليست بنا حاجة إلى بحث كيفى يأخذ بالتوجهات النقدية ويؤمن بالتعددية الثقافية. ولكنى أشدد إننا إن فعلنا هذا وخلصنا إلى هذه النتيجة، فنحن نحرم أنفسنا من رؤية جوهر الكلام المعروض علينا وضاع منا معناه. ففى

مجتمعاتنا من المهمشين والمقهورين أكثر مما فيها من الميسورين أو حتى من يحصلون على حقوقهم. ففى بلد كمصر يندرج ضمن هذه الشريحة- على أقل تقدير ومع إعمال حسن الظن- نصف السكان الذين يعيشون على أرضها. ولا حاجة إلى القول بأن هناك عشرات البلاد - حولنا أو على مسافات منها - تضاهينا وتزيد عنا فى نسبة المهمشين والمقهورين من أبنائها.

ولكن ليس لأحد أن يخاف أو يستشعر أى حرج: نحن لن نبث فيهم وعيا جديدا، أو نحثهم على التمرد على وضعهم، أو ندافع عن قضيتهم. ليس هذا هدف مؤلفتى الكتاب ولا هدف مترجميه، إنما القصة ببساطة هى: دعوة إلى النظر إليهم- عند إجراء بحث اجتماعى علمى- كبشر، ومعاملتهم على هذا الأساس، واتخاذهم شركاء لنا فى عملية بناء المعرفة.

فممارسة البحث الكيفى تستند إلى جذر راسخ يؤمن بالعدالة الاجتماعية ويمارسها على أرض الواقع. وعلى رأس الفئات المهمشة فى أى مجتمع- ولكن فى مجتمعاتنا العربية بشكل أخص- تأتى المرأة. ومن شأن تبنى أساليب البحث الكيفى بتوجهاتها الإنسانية التى أوضحناها أن يسمع الناس صوت النساء، وأن تتقدم الدراسات النسوية ويتقوى مركز الباحثات النسويات.

وقد يرد البعض- مدافعا - بالإشارة إلى حجم الدراسات التى أنجزت عن أوضاع المرأة وقضاياها ومشكلاتها، وربما لافتا إلى أن عددها ليس بالقليل. ولكن حقيقة الأمر أن الغالبية الغالبة من مثل هذه الدراسات كانت تتم من منظور ذكورى يرتبط حتما بالهيمنة والاستعلاء، هيمنة الباحث على المبحوث واستعلائه عليه. أو يتم من منظور طبقى اجتماعى لا يرى من النساء سوى نساء الطبقات العليا. ليس هذا فحسب ولكن المنظور المستخدم وطبيعية المشكلات التى تعالجها تلك الدراسات لم تكن تخدم فى النهاية سوى تأكيد تبعية المرأة ودونيتها، وبالتالى تساعد على الاستمرار فى هضم حقوقها. ولعلنا نكتفى فى هذا الصدد بالإشارة إلى عمل المرأة داخل المنزل، وكيف أن جميع الأطراف البحثية التى تناولته- بدءا من أجهزة الإحصاء والتعداد الرسمية مرورا بالبحوث الأكاديمية وانتهاء بالكتابات شبه العلمية- لا تدرجه ضمن أنواع العمل الذى يحقق قيمة اقتصادية مضافة، ولا تعطيه بالتالى أى

وزن بين أرقامها، وبذلك تغفل إسهاما اجتماعيا اقتصاديا للنساء، لو أنه أخذ حقه من الدراسة الموضوعية لكان إسهاما حقيقيا فى إنصاف المرأة (*).

ويأخذنا الكتاب- الذى بين أيدينا- إلى عالم السرد الشفاهى فى المقابلة، وتأثره الواضح بالأساليب الذكورية فى الحكى، وكذلك تبنيه أساليب الحوار والتواصل السائدة فى الطبقتين الوسطى والعليا. يقول الكتاب: " فى عالم يسوده الرجل، تكون أشكال التواصل الذكورية هى الأشكال المعيارية، كما يفترض فى التعبيرات المستخدمة فى التواصل والحوار- التى تختلف عن هذا النموذج- أن تكون أقل حظا فى القبول والاعتراف. والمقابلة الكيفية ليست محصنة من تأثير الثقافة التى تُمارس فيها. لذلك نجد أن الوسط الأكاديمى ما يزال غارقا فى الأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع بناء المعرفة. بل إن طرق البحث اللاوضعية نفسها مازالت متأثرة بالأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع اللغة، واللغة تتضمن إجراء المقابلة الكيفية.

إن ما يحتاج إلى تغيير فى مقابلات التاريخ الشفاهى – مثلا – مع النساء هو إطار التواصل والحوار، وليس المرأة. فقد ظهرت طريقة إجراء مقابلة التاريخ الشفاهى، والمتأثرة بارتباطاتها بالتاريخ الأكاديمى وبممارسة أسلوب المقابلة بصفة عامة؛ ظهرت وتطورت داخل سياق نظام التواصل الاجتماعى الذكورى. ونظراً لأن الكلام الذكورى يكون هو المعيار المتبع فى هذا العالم الذكورى، فإن أى نوع آخر من الكلام يُعد فى رتبة دون هذا المعيار.

ونظراً لأننا منغمسون كل الانغماس فى ثقافتنا، فإننا معتادون على الأشكال الذكورية فى الحوار والتواصل (ولا ريب أن هذا المعنى يمكن التوسع فى فهمه ليستوعب ذلك التفضيل الذى تحظى به كافة المثل الاستعلائية التى تتكلم من موقع الهيمنة، ومنها أساليب الحوار والتواصل السائدة فى الطبقتين الوسطى والعليا البيضاء اللون). لذلك فإنه لكى نؤدى دورنا فى

(*) ويرجع الفضل إلى بحوث المرأة التى جرت على امتداد ثلاثة عقود تحت إشراف علياء شكرى، وما تمخض عنها من رسائل للماجستير والدكتوراه تبنت جميعها منظورا معاصرا جديدا لقضايا المرأة استطاع أن يتجاوز الأطر التقليدية..

تمكين الآخرين من رواية حكاياتهم، يتوجب علينا أن نكون لَمّاحين للتنوع الموجود في أساليب الحوار والتواصل وفي أشكال السرد أيضاً، بما يتضمنه موقفنا هذا من إمعان النظر في مدى ما لثقافتنا من تأثير على ما عندنا من مسلمات تتصل "بمواصفات الطريقة السليمة التي يروى بها المرء حكايته".

ويوضح لنا كثير من العلماء أنه عندما نكون منخرطين في هذه العملية فإننا سوف نواجه بالفروق أو الاختلافات الموجودة في أساليب التواصل والقائمة على أساس النوع الاجتماعي. فالنساء بصفة خاصة، وباعتبار أنهن فاعلات يستوعبهن نظام اجتماعي عام، فإنهن يتحاورن أو يتواصلن فيما بينهن على نحو مختلف عن الرجال. زِدْ على ذلك أن أساليب التواصل النسائية لم تحظ بعد بالاعتراف من الأوساط الأكاديمية ولا من المجتمع بصفة عامة. وعلى هذا يتوجب على الباحث، عند قيامه بإجراء مقابلات مع النساء، أن يفهم عملية الحكي التي تتبعها المرأة المبحوثة في المقابلة وأن يعترف بها".

ولكن بعيداً عن قضايا الذكورة والنسوية التي قد لا يجد فيها البعض مشكلة حقيقية، ويعدونها مشكلة "مستوردة" لنا من الخارج (رغم أنها ليست كذلك وإنما هي مشكلتنا بحق).. بعيداً عن كل ذلك لنتأمل موقف البحث الكيفي الملتزم اجتماعياً وسياسياً من مشكلة مصرية "صميمة" ليست مستوردة وليست مفتعلة، وهي ليست محل خلاف من أحد؛ وأعني مشكلة أطفال الشوارع الذين تجاوزت أعدادهم المليونين ونصف المليون، من شتى الأوساط، والمناطق، والأعمار... إلخ، يوجه إليهم المجتمع أصابع الاتهام في اقتراف عشرات الأنواع من "الجرائم"، رغم أن المجتمع هو الذي "أجرم" في حقهم، حينما خلق بعض الأوضاع والظروف التي تقذف بهذه الأعداد الهائلة إلى الشوارع.

على أية حال نحن لسنا في موقف الحساب – العلمي والسياسي – ولا يتسع المجال للخوض فيه، ولكننا ننبه إلى إجماع كل الكتابات – العامة والعلمية المتخصصة – على فشل كل ما نفذ من حلول وإخفاق كل عمليات مواجهة هذه المشكلة، بل تحولت بعض مؤسسات إيواء أولئك الأطفال إلى "مدارس لتعليمهم فن الإجرام من مستوى أعلى". هل فكرنا في "استشارة" هؤلاء "المجرمين الصغار" في الحلول التي ندبرها لهم؟ هل سمعنا منهم

تصوراً لما يريدون هم لإصلاح أحوالهم، ولتصالحهم مع المجتمع؟ هل تجرأ بعض باحثينا وسألهم حتى عن سبل إصلاح دور الإيواء؟ هل سمعنا منهم عن طلباتهم من أسرهم؟ هل تحدثنا معهم عن إمكانيات إيوائهم فى أسر بديلة غير أسرهم الأصلية المأزومة؟

عشرات الأسئلة والحلول والبدائل كان يمكن مناقشتها معهم كجزء من البحوث التى تجرى عن أطفال الشوارع. ولكننا لم نفعل لأننا نتبنى طول الوقت نظرة وضعية عفا عليها الزمن تجعلنا نحن ملاك الحقيقة، أو نحن القادرون على امتلاك الحقيقة. وبديهى أننا نعرف ما فى صالح هؤلاء الصغار أكثر مما يعرفون هم. أليست تلك هى نظرية "المستبد العادل" بأوضح تجلياتها، الذى يعرف الخير لأهله بأكثر مما يعرفونه هم لأنفسهم!!

هنا أذكِّر البعض بحقيقة أن من أهم وأبرز سمات أطفال الشوارع سعة الخيال، والرغبة فى كسر المألوف والخروج عليه، والتطلع إلى عوالم وخبرات أخرى، وحب المغامرة... إلخ. ألا يستحق أصحاب هذه السمات أن نسألهم عن رؤيتهم لما نعده لهم من حلول لمشكلاتهم؟

ونحن لسنا ملزمين بالتفكير فى حلول "حكومية" لمثل هذه المشكلة الضخمة، حقيقة أن المشكلة برمتها هى إفراز لكثير من السياسات الحكومية الفاشلة، ولكن الحكومة لم تعد تملك من الإمكانيات – بعد أن تخلت عن الكثير من مسئولياتها وممتلكاتها – ما يتيح لها الإسهام فى تمويل أى حل. الحلول إذن فى رقبة المجتمع المدنى، وهذا المجتمع المدنى هو أداة المجتمع المصرى كله للمواجهة. ومن هنا فهو يحتاج إلى بحوث كيفية ديمقراطية إنسانية تنير فكره وترشد قراره وتشحذ إرادته وتعبئ موارده للمواجهة.

هذا درس من أهم الدروس التى نتعلمها من هذا الكتاب الذى صدر بلغة أجنبية، فى بلاد بعيدة، عن مجتمعات غريبة عنا، ولكن إنسانيته وبصيرته هى التى يمكن أن تعلمنا كيف يمكننا أن نحسن التفكير فى مشكلاتنا على أساس من العلم الجديد.

تحليل المضمون الكيفى

لا تعرف الغالبية العظمى من الباحثين الذين يستخدمون طريقة تحليل المضمون فى دراسات العلم الاجتماعى فى بلادنا (خاصة علم الاجتماع،

ودراسات الاتصال والإعلام)؛ لا تعرف سوى طريقة تحليل المضمون الكمى. ويقدم هذا الكتاب أوفى وأدق وأشمل عـرض- منـشور حتـى الآن باللغـة العربية- للأسلوب الكيفى فى تحليل المضمون.

وفضلا عن ذلك يتميز هذا العمل بإنجاز مهـم فـى حقـل دراسـات مضمون المادة الغزيرة على شبكة الإنترنت. فقد شهدنا مؤخرا انـدفاع عـدد غير قليل من الباحثين - فى علوم: الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والاتـصال- إلى إجراء دراسات تحليل مضمون للمادة التى تراكمت، وتتجدد كل سـاعة، على مواقع الإنترنت، سواء فـى قاعـات الدردشـة، أو علـى الفيـسبوك، واليوتيوب... إلخ. وبقدر ما أتيح لى متابعة بعضها، وجدتها تتعثر منهجيا فى التعامل مع هذه المادة الافتراضية، بل ومعاملتها أحيانا بوصفها مادة واقعيـة. هذا فضلا عن ضعف الدراية عموما بأساليب تحليل المضمون الكيفية. ويقـدم كتابنا هذا دراسة منهجية منظمة ومفصلة لخوض غمار هذا الميـدان الجديـد والمهم من ميادين البحث العلمى الاجتماعى.

تلك لمحات سريعة عن بعض جوانب ومبررات أهمية العمل الذى بين أيدينا، من المؤكد أن القارئ سوف يكتشف المزيد منها عند مطالعتـه لكامـل فصول الكتاب.

ولكن تبقى للبعض ملاحظات

حقا الكمال لله وحده، والجهد البشرى يبقى دائما جهدا ناقصا يتطلـب التصويب والاستكمال. ومسيرة العلم فى التحسين والتطوير لم ولـن تتوقـف أبدا. وما أتوقف عنده هو أقرب إلى الملاحظات والتنبيهات، وليس التحفظـات أو التصويبات.

• فهذا العمل يتبنى التوجهات المابعدية: ما بعد الحداثـة، ومـا بعـد البنيوية، وما بعد الوضعية ... إلخ. وقد سبق لكاتب هذه السطور أن أشار فى أكثر من مقال وكتاب إلى أخطار التبنى الحرفى لهذه التوجهات المابعدية فـى مجتمعات لم تترسخ فيها أصول الحداثة ولا البنيوية ولا الوضـعية. وأسـمح لنفسى بالقول هنا إنه من الجهل الأخذ بمضامين تلـك التوجهـات المابعديـة

وحدها ابتداء، واعتبارها بديلا كافيا عن الحداثة والبنيوية..... إلخ. ذلك أن البيئة التى أبدعت الاتجاهات "المابعدية" قد طبقت وهضمت ونفذت والتزمت بأصول تلك الاتجاهات أو سوابقها التى جاءت هى للثورة عليها. فمن يتبنى ما بعد الحداثة فى مجتمع غربى معاصر هو نفسه سبق له تبنى الحداثة وعاشها وتغلغلت فى عقله وقلبه.

ولكن لأن مثل هذا الهضم الكامل والالتزام الصارم من شأنه أن يخلق نوعا من الجمود، أو قل المحافظة؛ ولأن الدينامية والتغير هى سنة المجتمع المتطور الذى لا يتوقف عن الحركة؛ لذلك جاءت هذه التوجهات "المابعدية" لتحرك الجمود وتغير النظرة وتطور المعالجة، دون أن تعنى "كفرا" بالقديم أو تخليا كاملا تاما عنه.

• وقد يذهب البعض إلى التساؤل: أليس من الأجدر أن يكون كتابا أساسيا فى طرق البحث الاجتماعى باللغة العربية موضوعا بقلم عالم عربى استخلص خبراته وتجاربه من مجتمعه العربى؟

لا جدال أن الحق أحق أن يتبع، بمعنى أننا ندرك ونوافق على أن العمل العلمى التعليمى- خاصة فى مجال البحث العلمى الاجتماعى- من الواجب أن تكون استشهاداته وأمثلته ونماذجه مستمدة من بحوث عربية، عن مجتمعات عربية، باعتبار أن الكتابة موجهة إلى قراء للعربية. ولكن تأليف مثل هذا الدليل المنهجى العربى لا يمكن أن يتم إلا بعد الإحاطة الكاملة والاطلاع الجيد على مثل هذه الأعمال الكبرى فى التراث العالمى، التى يعد كتابنا المترجم هذا واحداً من أهم معالمه. ومعنى ذلك أن تقديم عمل عربى منهجى حديث يحتاج أولا إلى مراجعه التراث والإفادة منه واستخلاص ثمراته الموضوعية. وهذه المهمة تبدأ-إذن-بما فعلناه، أن ننقل تلك الأعمال الكبرى إلى العربية لإتاحتها للباحثين والكتاب والأكاديميين العرب. فترجمة هذا الكتاب وكذلك الأعمال المنهجية الأخرى الصادرة ضمن هذه السلسلة تمثل بداية قصة النهضة المنهجية المنشودة فى حقل العلوم الاجتماعية، وليست نهاية القصة.

• بل يمكن القول إن بعض نواحى تميز هذا الكتاب قد تكون هى نفسها مثاراً لبعض الجوانب الإشكالية عند ترجمته إلى العربية. فمجرد كون الكتاب- بحجمه الوفير هذا - يكرس نفسه كلية للبحث الكيفى، يمكن أن يصيب جانباً من القراء العرب- الذين لم تتح لهم فرصة كافية لمتابعة أحدث الاتجاهات المنهجية فى العلوم الاجتماعية- أن يجدوا فى كل هذا التوسع فى دقائق البحث الكيفى حديثاً خارج الميدان الرئيسى لطرق البحث الذى عرفوه فى مجالات تخصصهم: بحثاً وضعياً وكمياً فى الآن معاً. وأعتقد أن القراءة المتأنية المستوعبة لهذا الكتاب كفيلة بإزالة هذا التخوف، والانفتاح على البحث الكيفى بوجهه الإنسانى وروحه العصرية.

نظرة إلى المستقبل

خدمة البحث الكيفى وتطويره ونشره رسالة آمنت بها مؤلفتا هذا الكتاب. وهما تنطلقان فى هذا من الإيمان بأن حقل الطرق الكيفية حقل دائم التغير نظراً لأن التوجهات النظرية الجديدة، كالتحول نحو ما بعد الحداثة ونحو النزعات واسعة النطاق التي تتجه لبناء مجتمع تتم عَولمته ورقمنته بصورة متزايدة؛ هذه التوجهات النظرية الجديدة تطالب الباحثين أن يطرحوا أسئلة جديدة قد لا تطرحُها طرق البحث التقليدية على نحو ملائم. فطرق البحث تتسم بالدينامية الواضحة، وهى ليست كيانات ساكنة ثابتة - كما سبق أن بينا - إنما هى تتسم "بالمرونة والقابلية الشديدة للتغير".

وتحدثنا المؤلفتان عن مشروعهما الجديد - تحت الطبع - لدراسة الطرق الكيفية الجديدة: "وتوجد في وقتنا هذا **طرقٌ كيفية بازغة** (مستحدثة وقوية) قيدَ التأسيس تنتشر بين سائر التخصصات العلمية، وقد حاولنا الإشارة إلى بعضها في ثنايا كتابنا هذا. ونحن نسمى هذه الطرق "بازغة" emergent لأنها طرق جديدة أو صور مهجنة من تقنيات كيفية ثبتت صحتها بالتجربة. فتخيلْ مدى ما يُمكن لبعض هذه الطرق أن تقدمه لتواصل الإسهام في إثراء معرفتنا عن القضايا الاجتماعية المهمة. مثال ذلك، أن في كتابنا القادم بعنوان "الطرق البازغة في البحث الاجتماعي: النظريات، والطرق ومناهج البحث(*)".

(*) Emergent Methods in Sociol Research: Theories, Methods and Methodologies.

نتكلم عن طريقة تُسمى: "بحثُ المذكرات اليومية" التــي اســتحدثها هــايرز Hyers، وسويم Swim، وماليت Mallet(٢٠٠٥).

وبموجب هذه الطريقة يحتفظ المشاركون في البحــث (المبحوثــون) بمذكرة يومية يُسجلون فيها أفكارهم، ومشاعرهم وملاحظاتهم عن موضــوع معين. فتخيَّل مدى ما يمكن لهذه الطريقة أن تسهم به في فهمنا لرعاية طفلٍ أو شخص يعاني الموت لإصابته بالإيدز، أو فهمنا لخبرة المعيشة مــع شــخص مصاب بهذا المرض أو مثيله والتعامل مع ما يحدث كل يوم من التمييز فــي المعاملة (من محاباة أو تحامل). وهذه الطريقة مجرد واحدةٍ من الطرق الكيفية الكثيرة البازغة التي ستواصل توسيع نطاق قاعدتنا المعرفية. وتواصل هــذه الطرق تطورها لكي تعالج المخاوف، والأسئلة، والقضايا التي كــشفت عنهــا المواقف النظرية والإبستمولوجية الجديدة. وبهذا الأسلوب يتأكد لنا بوضوح أن البحث الكيفي عملية كلية شاملة، ليس فقط في الممارسة العملية، وإنما كــذلك من حيث تطورها، إذ يتم استحداث المزيد من الطرق لكي تقوم بعملهــا فــي إطار النظريات الجديدة".

وبعد: فمهما كثرت النصائح وتعددت وتنوعــت الإرشــادات، يظــل البحث الكيفى فناً بقدر ما هو علم. وأعنى أنه مهارة نكتسبها بالدرس والتعليم، ولكننا يجب أن نصقلها ونجودها بالممارسة والخبرات العلمية.

وفى مكان القلب من العمل الميدانى- كيفيا كان أو كمياً- تأتى علاقة الباحث بمصدر مادته الأهم: المبحوث. وهذه العلاقة البحثية تتطلب- فى كــل الأحوال- قدراً كبيراً من حسن الإدراك والتدبير وبراعة الباحث فــى إجــراء الحوار هى التى تفتح له مغاليق الراوى وتجعله يهب كل ما لديه عــن طيــب خاطر، إن لم يكن باستمتاع. فالمقابلة مثلاً ليست مجرد محادثة، ولكنها- فوق ذلك- حوار. ولابد للمقابلة- كى تلقى نجاحاً- أن توهب الحــرارة والتبــادل الشخصى اللذين يوهبان للحوار. ونلفت النظر إلى أن ذلك لا يعنى أن يفــرط الباحث فى التبسط والود حتى لا يفلت زمام المقابلة من بين يديــه. ولابــد أن يبقى بعض من الطابع الرسمى، وإلا صعب السيطرة على الــراوى المجيــب وفقد الباحث الثقة. على الباحث أن يحافظ على التوازن بــين: حــد التعامــل

الإنسانى الودود والتأكيد على أنه ليس أرفع من جمهور رواته، وحد التعامل الواضح من أنه فى النهاية لديه عمل لا بد أن ينجزه وبنجاح.

وتعبر المؤلفتان عن نفس المعنى بعبارة رقيقة ذات طابع أنثوى تقولان فيه: "في الوقت الذي نُزودك فيه ببعض "الخطوات" التي تُدخلها في حُسبانك وأنت ماضٍ في تحليلك، ينبغي ألا تتصور أن التحليل الكيفي يسير بطريقة تُشبه الطرق الواردة في كتب الطهي. إذ لا توجد طريقة صحيحة واحدة للقيام بالتحليل. فقد لاحظ سي. رايت ميلز C.Wright Mills منذ وقت مبكر، أن التحليل الكيفي إنما هو في النهاية "مهارة عقلية". وكما تُعلِّق ريناتا تش (١٩٩٠) فإن "التحليل الكيفي من المُمكن – بل وينبغي – أن يمارس بأسلوب فني، بل حتى بأسلوب "سلس"، إلا أنه يستلزم قدراً كبيراً من المعرفة المنهجية والكفاءة الفكرية". ويرى نورمان دنزين (٢٠٠٠) أنه يوجد "فن للتفسير". ويمكن أن يوصف هذا الفن بأنه انتقال من الميدانِ إلى النص إلى القارئ. وتتيح ممارسة هذا الفن للباحث الميداني بوصفه بنّاءً بارعاً ... أن يُترجم ما حصله من معلومات في صورة عَمَلٍ نصّي (مكتوب) ينقل هذا الفهم (فهمه للمعلومات) إلى القارئ".

القاهرة أول يوليو ٢٠١٠ محمد الجوهرى

شكر وتقدير

في أثناء إعدادنا لهذا الكتاب تلقينا عونا مشكورا من عدد من الناس الذين دعموا جهدنا. فشكرا لكثير من الأساتذة والباحثين الذين أطلعونا على "خلفيات" بحوثهم، ووقفنا منهم على حكاياتهم الشخصية عن عمليات البحث الكيفي التي اضطلعوا بها. كما ندين بكل العرفان للطلاب الذين درسوا معنا في كلية بوسطن وكلية ستونهيل، خاصة أولئك الذين درّسنا لهم مقررات عن طرق البحث الكيفي، لما قدموه لنا من إلهام ودعم مشكورين. ونود أن نثمن العون البحثي الذي تلقيناه من الكثيرين.

نخص بالشكر من خريجي كلية ستونهيل كلا من لورا كيلي ولورين كوشي اللتين قامتا بإعداد الأقسام الخاصة "بمواقع الإنترنت المقترحة" الملحقة بكل فصل من فصول الكتاب. ونشكر كذلك من خريجي ستونهيل لورين ساردي لمساعدتها في استعراض المؤلفات المنشورة الخاصة بفصلي التاريخ الشفاهي وتحليل المضمون، وتعريفنا بالباحثين الذين أطلعونا على "خلفيات" بحوثهم التي عرضنا لها في فصول هذا الكتاب. ونتقدم بأعمق الشكر والاعتراف بالجميل لعدد من طلاب ستونهيل، نخص بالذكر منهم: بول ساكو ولورا ماكفي لجهدهما الفعال والقيم في تجميع مختلف أجزاء هذا الكتاب. فشكرا لكما بول ولورا على مساعدتكما في إعداد عرض التراث المنشور عن موضوعات الكتاب، وعلى جهدكما في تصميم النص، وتصحيح بروفاته، وكل الجهود التي بذلتماها، بما ذلك طبيعتكما التي تتسم بالسماحة والمرح.

كما نشكر كل الشكر ما تلقيناه من عون من العاملين في كلية ستونهيل أساتذة وعاملين. نخص بالذكر منهم كلا من : بوني تروب وكاتي كونروي على إدارتهما برنامج الخبرة البحثية الميدانية لطلاب الليسانس (الصيفي)، وهو البرنامج الذي أتاح لنا فرصة الاستعانة بمساعدة بحثية من أوائل الطلاب على امتداد عامين كاملين. وشكراً لكاتي كونبوي نائب رئيس الشئون الأكاديمية بالكلية، وكارين تالنتينو عميدة الكلية لما قدمتاه من دعم لهذا المشروع ولمساعدتنا بمنح صغيرة وببعض لوازم المشروع. وشكرا لخبراء تكنولوجيا المعلومات بكلية ستونهيل: جاري هامون وجلين إيفريت، اللذان ساعدانا في

الجوانب الفنية لهذا المشروع، كإعداد الأشكال والرسوم البيانية الإيضاحية. ونود أن نقدم شكرا خاصا لستيفن فيدر خبير الاتصال بكلية بوسطن الذي عاوننا في إعداد الصور البيانية.

وتدين شارلين ناجي هيس-بيبر بالفضل خصوصا لأفراد أسرتها لما أبدوه من صبر، وما قدموه من حب وتفهم طوال كل مراحل إعداد هذا الكتاب. لهذا تهدي شارلين هذا العمل لابنتيها المتميزتين: ساره ألكسندرا وجوليا آريل. وتود شارلين تقديم الشكر لزوجها مايكل بيتر بيبر (دكتوراه في الطب) لما قدمه لها من عون وتشجيع.

وتدين باتريشيا ليفي بأعمق الشكر لأفراد أسرتها وأصدقائها لما قدموه لها من عون ودعم، وما أبدوه نحوها من صبر وروح طيبة طوال فترة إعداد الكتاب. وتتقدم باتريشيا بالشكر خاصة لـ D G R. وتهدى باتريشيا هذا الكتاب لا بنتها المتميزة مادلين كلير التي أسعدت كل يوم من أيامها وتذكرها الآن بأن "الأشياء الرائعة يمكن أن تتحقق". ونحن مدينون بالفضل لصديقتنا س. ديبورا لاوتون التى عاونتنا في إعداد المقترح الأولى للكتاب. كما نود أن نعبر عن تقديرنا للعون الجاد، والتشجيع، والنصح الذي تلقيناه من العاملين فى دار نشر سيدج. ونخص بالشكر والامتنان كلا من : أليسون ماديت، وليزا كوفاس شو، وكارين ونج، وبيتر ماكردي، ومارجوت بيت كروبين.

كما يستحق الشكر الوافر المراجعون التالية أسماؤهم لما قدموه من إسهام مقدر:

كمبرلي جريجسون	معهد بارك للاتصال بكلية إيتاكا
كاتي تشارماز	جامعة سونونا الحكومية
كارين كامنسكي (دكتوراه الفلسفة)	جامعة كلورادو الحكومية
مونيكا نادين	كلية غرب ميسوري الحكومية.
لويس باراديز (دكتوراه الفلسفة)	جامعة نيو أورلينز

* * *

موافقات مشكورة

جميع الأشكال والرسوم الواردة في هذا الكتاب أعدت بطريقة مايكروسوفت، واستخدمت هنا وفقا لشروط استغلالها.

مقدمة الكتاب

ملاحظات على الجانب التعليمي للكتاب

البحث الكيفي ليس بالشيء الذي يمكن تعلمه من الشروح والكتابات المنشورة وحدها. إذ يعرف كل ممارسي البحوث الكيفية والأساتذة المتخصصين فيها أن المطلوب لفهم عملية البحث الميداني يتجاوز كثيرا جدا ما يمكن التقاطه أو تجميعه من أي قائمة لتوصيف طرق البحث. فالبحث الكيفي عملية معقدة تتضافر فيها – بشكل وثيق- كل من: نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا)، والنظرية، والمنهج. ولكي نيسر هذا الكتاب للطلاب والباحثين على السواء، ونمكنهم من الوقوف على كنه عملية البحث الكيفي، ضمنا كتابنا بعض الملامح والأدوات المتميزة.

واستلهاما لمفهوم إرفنج جوفمان المبتكر عن "مقدمة المسرح"، و"خلف الكواليس)"؛ بدأنا نتبين أن المعلومات المتاحة في كثير من كتب طرق البحث إنما تمثل "مقدمة المسرح"، أو الواجهة الخارجية المعلنة والظاهرة لعملية البحث. إذ يمكن القول –بعبارة أخرى– أن الغالبية الغالبة من كتب طرق البحث تقدم تعريفات للمصطلحات والمفاهيم الأساسية متبوعة بتوصيف لكل طريقة من طرق البحث ولمختلف النماذج المعروفة لكيفية تصميم مشروع البحث. والأمر الذي يخفق مثل هذا الاتجاه في إدراكه هو **الطبيعة المعقدة لعملية البحث** الاجتماعي. وهو التعقيد الذي يظهر عندما نتساءل مثلاً:

- ما الذي يوجه الباحث في اختيار موضوعه؟
- كيف تؤثر المعتقدات الإبستمولوجية والالتزامات النظرية على عملية البحث؟
- ما هي القيم، والقضايا، والدوافع التي يحملها الباحثون معهم إلى مشروعاتهم البحثية؟
- كيف تتضرر الأخلاق أثناء الممارسة البحثية؟
- ما هي حقيقة الجوانب العاطفية لمشروع البحث؟

- لماذا يعمد بعض الباحثين إلى اختيار طرق بحث معينة، وكيف تمكّنهم تلك الطرق من تنفيذ بحوثهم؟

ومحاولة منا لفهم بعض هذه القضايا والتساؤلات قمنا بإجراء مقابلات شخصية (مباشرة)، واتصالات عبر البريد الإلكتروني، وبواسطة الهاتف مع مجموعة متنوعة من الباحثين والأساتذة ذوي السمعة العلمية المتميزة. وقد ضمنا كتابنا هذا المادة التي حصلنا عليها منهم –وكثير منها فقرات كتبها أصحابها بأنفسهم – ويجدها القارئ في شتى الفصول مطبوعة داخل إطارات (براويز) تحمل عنوان "خلف الكواليس مع..."(*). وتمدنا تلك "البراويز" (أو الأطر) بنظرة خاطفة على كواليس البحث الكيفي، فهي بمثابة نافذة على نقطة تميز الباحث الذي تحكي عنه.

وفضلا عن فقرات "خلف الكواليس" لدى عدد من الباحثين، حرصنا على أن نضمّن كتابنا المواد التالية:

- **مواقع مختارة على الإنترنت:** بحيث يستطيع الطلاب والدارسون أن يتابعوا موضوعات البحوث التي تهمهم، وأن يتعرفوا على أحدث ما يصدر في ميدان البحث من أعمال.
- **أسئلة للمناقشة:** وهي أسئلة اقترحها وقام بتجربتها عملياً بعض طلاب قسم الليسانس بهدف الحفز على مزيد من التفكير في القضايا والمسائل الأساسية، وجماعات المناقشة المركزة، والتطبيق العملي لمختلف طرق البحث والتوجهات البحثية التي يعرض لها الكتاب.

(*) هذا التعبير ترجمة للتعبير المستخدم Behind the Scenes، وهو مستمد من عالم المسرح، ليشير إلى مراحل الإعداد والتدريب وتنفيذ الإضاءة والديكور... إلخ قبل فتح الستارة ليشاهد الجمهور العرض المكتمل. وكنت ميالاً فى البداية إلى ترجمته: "خلف الستار"، أو "وراء الستار"، ولكنى صرفت النظر عنه سريعاً، لأنه يستدعى للذهن بُعد الإخفاء والستر، ثم أن المقصود – حتى لو أشرنا إلى المسرح – ليس ما وراء الستارة نفسها، وإنما كل ما يدور فى الكواليس. ورغم حرصى الدائم على استخدام اللفظ العربى الصحيح – قدر الإمكان – إلا أننى وجدت تعبير "خلف الكواليس" هو الأكثر دلالة على المعنى المقصود. وذلك طبعاً بعد مشورة أساتذة المسرح الذين أقروا هذه الترجمة. (المراجع)

- **تعريف بالمصطلحات:** وقد قصدنا به ترسيخ معرفة الدارسين والطلاب بالمفاهيم الأساسية التي يحتوي عليها كل فصل.
- **الأمثلة والنماذج المتعمقة:** يجدها القارئ في كل فصل من فصول الكتاب، مثل المثال الرئيس عن دراسة صورة الجسد باستخدام طرق بحث مختلفة ومن أطر نظرية متباينة. وذلك بهدف أن يلمس الطلاب والدارسون كيف أن الأساليب المختلفة في تناول موضوع معين يمكّن الباحث من أن يطرح أسئلة معينة، ويكتسب أنواعا معينة من الرؤى والفهم.

إننا نعتقد – بقوة – أن التعليم يستلزم أن يستغرق كل قارئ على عدة أصعدة مختلفة بمجرد أن يخطو خطواته الأولى داخل ميدان دراسي جديد، وكلنا أمل أن يفلح هذا الكتاب في تغذية روح المغامرة الكامنة داخل كل باحث. إننا نتصور أننا نأخذ قارئنا إلى رحلة عبر هذا الكتاب، رحلة تتحدى تفكيره، وتثير لديه عديدا من العواطف، وتزيد مهاراته الفنية والإبداعية، كما تنمي وتثري فهمه لطبيعة الواقع الاجتماعي.

فلنبدأ الرحلة معا.

القسم الأول

نموذج البحث الكيفي

الفصل الأول

براعة البحث الكيفِي

نظرة عامة وكلية

تَخيّلْ وَبَاءً يجتاح الكرة الأرضية، إلا أن هذا الوباء لا يُشبهُ أي وباءً عرفه الإنسان من قبلِ. والمَرَض المُسَبب لهذا الوباء له عواقب مُدَمِّرة للجسم، كما أنه، وخِلافاً لكثيرٍ من الأمراض الأخرى، يتضمن مرحلة كثيراً ما يُشَار إليها بوصفها مرحلة "المَيِّت الحيّ"، ومما يُؤْسَفُ له، أنه لا يُوجَدُ علاج لهذا المرض الذي يعصف بالقوة الجسمانية للمريض، وأن مُعَدَّل الوفاة يتزايد إلى درجة أن بعض المجتمعات تفقد أعداداً كبيرة من الأفراد. ولو ظل هذا المرض بلا علاج ناجع، فإن المُستقبل المُرتَقَب يبدو كئيباً. ولكنَّ الأمر الذي يكْمُنُ فِعْلاً وراء هذا الانتشار المُدَمِّر ومعدلات الوفيات العالية بسببه هو ما يجعلُ هذا المرض مختلفا فِعْلاً عن غيرِهِ مِن الأمراض: وهو ما يرتبط بالإصابة بِهِ مِن دَلالات وَوَصمة اجتماعية، وهي الأمور التي تختلف باختلاف الثقافات. إذ يوجد وراء العواقب الاجتماعية **غير المباشرة** لهذا المرض مجموعة مِن الحقائق التعليمية، والصحية، والاقتصادية التي لا ترتبط بهذه الأمراض الواسعة الانتشار -كالسرطان مثلاً- ولكنها ترافق هذا المرض الذي يدوم طويلاً في كثير من الأحيان. زِدْ على ذلك أن الأمر يصل إلى حدّ تَغَيُّر الأبنية الأُسرية بسَبَب هذا المَرض، حيث تنعكس الأدوار، فيصاب الشباب بالمرض، ويكون من اللازم على كبار السن والأطفال أحياناً أن يعتنوا بالمرضى الذين يُعانون سكرات المَوْت. وليست تلك الظروف سوى القِمَّة الظاهرة لجَبَل الجليد. ولا شك أننا نَعلمُ جميعاً أننا في غير حاجة لأن "نَتَخَيَّل" مثل هذه الوباء، إذْ أن لدَينا فعلا وباءً من هذا النوع هو: فيروس نقص المناعة لدى البشر، أو متلازمة نقص المناعة المكتسب (AIDS / HIV)، والذي لا توجد جَمَاعة مُحَصَّنة مِن الإصابة به.

والآن تَخيَّلْ مدى الحاجة المُلِحَّة التي يستشعرها الباحثون في مختلف فروع المعرفة (العلوم الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتعليم، والاتصالات) لبناء كيان متكامل من المعلومات عن هذا المرض بأنواعه ومراحله المختلفة، وهي معلومات تتضمن – من بين ما تتضمن- بُعْدَه الاجتماعي والاستراتيجيات الفعالة للوقاية منه وللتدخل في عِلاجِه. مثال ذلك، أن الأطباء قد توصلوا إلى معرفة كافية عن هذا المرض وعن انتقالِه من شخص لآخر بحيث أصبحنا الآن مُدرِكين أنه مرض يمكن الوقاية مِنه. ولكِنْ كيف يمكن توصيل هذه المعرفة بطرقٍ مختلِفة إلى الجماعات المختلِفة الموجودة في شتى بقاع العالم؟ زدْ على ذلك، أنه بالرغم من طبيعة هذا المرض القابلة للوقاية منها، فإننا نواجه وَبَاءً منتشرا على مستوى العالم. وهذا الوضع يثير حَشْداً مِن الأسئلة، مِنها مثلاً: لماذا يغامر بعض الناس بالتورط في سلوكٍ جِنسيٍّ محفوف بالمخاطر، وكيف تُشَكِّل الهويةُ الجِنسِية اتخاذ القرار الجِنسي، وكيف يؤثر السياق الاجتماعي (من حيث: التعليم، والجغرافيا، والانحياز الجنسي للرجل، واشتهاء الجنس المخالف) على العلاقات الحميمة للأفراد وعلى سلوكِهم الجنسي؟ ولماذا يَبْدو أن التعليم الخاص بالأمراض التي تنتقل عن طريق الجنس لا يؤتِي ثمرتَه؟ وهذه مجرد حفنة من الأسئلة القليلة التي تَثُور عند محاولة فَهْمِ وباء الإيدز. وهناك المزيد من الأسئلة البَحثيَّة التي تثور عِنْدَ إمعانِ النظر في "الخِبرة" (أي الإحساسات والمعايَشات) الخاصة بمرض الإيدز، مِن وجهة النظر البدنية ومِن وجهة النظر الاجتماعية. ومِن هذه الأسئلة مثلا: ما هو شعور المرء عندما تكون نتيجة الفحص المعملي إيجابية (أي عندما يتأكد من إصابته بالمرض)، وكيف يُشكِّل التشخيصُ الإيجابيُّ العلاقاتِ الشخصيةَ والجنسيةَ للفرد المريض وكيف يُشكِّل هَويتَه، وما هي الخبرة اليومية التي يمُر بها الفرد والناجمة عن هذا التشخيص الإيجابي فيما يتصل بالوصمة الاجتماعية المرتبطة بهذا المرض؟ هذا علاوة على موضوع الخبرة الخاصة برعاية الفرد من أحبَّاء الإنسان المُصاب بمرض الإيدز، وهي الرعاية التي تختلِف باختلاف الثقافات وتتضمن في كثير من الأحيان نَوْعاً مِن إعادة هيكلة الأسرة، وظهور بعض المشكلات المالية، وما إلى ذلك.

وتمثل الأسئلة السابقة مُجرَّدَ طرفٍ من الأسئلة التي تُواجهُ الباحثين فيما يحيط بهذه القضية الاجتماعية. وليس بالإمكان طَرْحُ مثل هذا النوع من الأسئلة ولا الإجابة عنها إلا بالعمل مِن خِلال النافذة الكيفية في بناء المعرفة. وهذه الأسئلة تبدأ بكلمات الاستفهام مثل "لماذا"؟ و "كيف"؟ و "ماذا"؟. وهي تتطلبُ الحصول على معرفةٍ معقدة تُستَمَدُّ مباشرةً من الأفراد الذين لهم صفاتٌ مُعَيَّنَة أو خِبرات حياتية مُعينة – أي معرفةٌ بِخِبْراتِهم والظروف أو السياقات التي تؤثر على علاقاتهم بالآخرين، وعلى خياراتهم السلوكية، وعلى اتجاهاتهم. ذلك هو نوع الأسئلة التي يمكن التوصل إلى إجابات عنها عن طريق الاتجاه الكيفي في البحث. وإلى أن يحين الوقت الذي نعُودُ فيه إلى هذا المثال في الفصل الأخير، نأمل أن تكونوا قد أدركتُم إلى أى مَدَىً يتكامل البحث الكيفي مع مَعْرِفتنا بمرضِ الإيدز ومع كثيرٍ مِن القضايا المهمة الأخرى.

مقدمة

تُقدم كثير مِن كُتُب البحث مجموعة من "الطُّرقُ" – أي وسائل أو أساليب جمع البيانات. ومع أن هذا الأمر يُعَدُّ عُنصراً مهمًا في العملية البحثية، إلا أن الاختيار المناسب لطُرق البحث لا يمكن أن ينفصل عن الاهتمامات النظرية للباحث ولا عن تَصَوُّرِه لعملية بِناء المعرفة. وعلى ذلك فإنَّ هذا الكتاب يختلف عن مُعْظم الكتُب الأخرى التي تتناول طُرُق البحث في أننا نبدأ نقاشاً متعمّقاً لعملية بناء المعرفة **من منظورٍ كُليٍّ**. ويعني هذا أن نبدأ بمناقشة جميع جوانب عملية بناء المعرفة، والتي تُشكل طريقة جمع البيانات جانباً واحداً منها. أمَّا الكلام عن طُرُق مُعَيَّنة لجَمع البيانات قَبْلَ الكلام عن الفُروض والمُسَلَّمات الخاصة بِما يُمْكِن معرفته ومن هو العارِف، وكيف نصل إلى المعرفة؛ فسيكون بمثابة وضع للعَرَبة أمام الحِصان. لذلك، وانطلاقاً من هذا التوجه العام سنعمد في هذا القسم الأول إلى مناقشةِ الاتجاهين الفِكريينِ الرئيسيين في بناء المعرفة، ثُم ندخل في مُناقشة لتصميم البحث، والذي يتضمن اختيار طريقة جمع البيانات، ونَختِم بعَرْضٍ لموضوع الأخلاقيات

والبحث العلمي. أضف إلى ذلك، أنه بالرغم من أن طرق البحث الكيفي تختلف عن بعضها البعض اختلافاً عظيماً، فإن الأمرَ الذي تشترك فيه المنظورات الفكرية التي يتناولها هذا الجُزْء، هو أنها تناوئ وجهات النظر الوضعية في بناء المعرفة. أمَّا القسم الثاني فمُخَصص لدراسة متعمقة لبعض طُرُق جمع البيانات.

إن البحْث الكيْفيَّ عبارة عن مجال فسيح رائع يقوم على تداخل فروع العلم، وهو مجال غَنيٌّ بالمنظورات الفكرية إلى بناء المعرفة، كما أنه يستمد قوَّتهُ مِن استعمالهِ لعددٍ كبيرٍ من الطرق والأساليب المتاحة لتوليد المعرفة. وتُوَفر الممارسة الكيفيةَ للمشتغلين بالبحث طائفةً من الإمكانيات الإبستمولوجية (أي المتعلقة بنظرية المعرفة)، والفكرية، والمنهجية. ونظراً لما تتَسِمُ به عملية بناء المعرفة من طبيعة كُليةٍ، فإن البحث الكيفي يكون بحثاً فريداً حقّاً سواء من حيث المحتوى، أو بؤرة الاهتمام، أو الشكل. وحين نقول إن بَرَاعةَ البحث الكيفي تتضمن اتجاهاً فكريا كُلياً، فإننا نَعْني أن ممارسة البحث الكيفي ممارسة انعكاسية (أي نقدية)، وخاضعة للتطوير والتعديل أثناء العمل، وأنها تنتهي إلى إنتاج معرفةٍ تحكمُها الاعتبارات الثقافية وتشتبك بالأفكار النظرية من خلال تفاعل مستمر بين النظرية وطرق البحث من ناحية، وبين الباحث والمبحوثين من ناحية أخرى. وعلى هذا يتعين الإشارة على وجه الخُصوص إلى أن البحث الكيفيُّ يختلف عن نماذج البحث التي تركز على خَلْق المعرفة باستعمال نَهج مَحدود وخاضع للأحداث.

وهذه الطبيعة الكلية لعملية البحث، والتفاعل القائم بين مراحلها، ابتداءً من مرحلة اختيار الموضوع وانتهاءً بكتابة التقرير النهائي للبحث، يَجْعلان البحثَ الكيفيَّ - كما سوف نبين فيما بعد - منظوراً فكرياً فذاً وتطبيقاً مهمّاً. زدْ على ذلك، أن البحث الكيفيَّ يُزودنا بمعرفة تفسيرية أو تعليلية وذات مستوى عالٍ من القدرة على التصوير الدقيق، من حيث إنه يُقلِّلُ من التأكيد على أهمية النماذج والتفسيرات القائمة على عِللٍ مُفردة، والتي سيطرت -تاريخيا- على عملية البحث في العلوم الاجتماعية.

فالبحث الكيفيُّ – إذن – ليس مجرد مفهوم عام، أو مجرد مجموعة من الأساليب التي يسهُل استعمالها، وإنما هو – فوق ذلك – مَهَارة عقلية، إبداعية دقيقة جداً، لا يكتفي مَنْ يمارسها بتعلُّمِها فقط بل إنه يسهم كذلك في تطويرها. ولكي نفهم ما يقوم بهِ الباحثون الملتزمون بالبحث الكيفي، ونفهم المهارة التي تتصف بها هذه الممارسة، لابُدَّ أن نكون –أولاً– قادرين على إدراك البحث الكيفي باعتبارهِ حقلاً من حقول المعرفة يتسم بالطبيعة الخاصة المتميزة. ولتحقيق ذلك، لابُدَّ من مُقارنة الاتجاه الكيفي بنظيره الاتجاه الكمي وكشف وجُوه التغاير بينهما. ورَغم وجود اختلافاتٍ وفروق نظرية وعملية كثيرة داخلَ **حقل البحث الكيفي**، فإننا سنفترض – مؤقتاً – أن الاتجاهين الكيفي والكمي وجهتَا نظر عامتان مختلفتان – أي أن لكل منهما أسسه الخاصة التي ينهض عليها ويستمد منها وجوده، ولكل منهما طريقته المختلفة في طرح الأسئلة، وأسلوبه المتميز في التفكير. وإنّ وضعَ هذين التصوُّرين الفكريين لبناء المعرفة بجانب بَعضِهِما سوف يكشف لنا عن وجود علاقة شد وجذب بين الأسس الكيفية والأسس الكمية في البحث. ويظلُّ هذا النزاع المتكرر بين هذين التصورُين عُنصرا ديناميا فيما يقدم عليه الباحثون من ممارسات عند اتخاذ القرارات بشأن إجراء بحوثهم. ومن خلال التمييز بين الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي سوف نشرعِ كذلك في تسليط الضوء على الإسهامات المتميزة للبحث الكيفي وخاصةً ما يتصل منها بمفاهيمنا عن المعرفة وعن خَلقِ المعرفة. فالبحث الكيفيُّ –كما سنوضح فيما بعد– يقدم أسلوباً جديداً تماماً للتفكير في الواقعِ الاجتماعي وظواهره.

ولكي نبين الفرق بين البحث الكيفي والكمي، قد يكون من المفيد تقديم مثالٍ إيضاحيٍّ على ذلك. وبعد أن نفرغ من الاستعراض المتعمق لهذا المثال، سوف نقوم بشرح الفروق الموجودة في الاتجاه الكيفي والكميّ، من خلال إلقاء الضوء على الفروض والخيارات الأساسية الموجودة في ثنايا هذا المثال، وكيف أنها تعكسُ صراعاً تاريخياً بين ما يبدو عليهما أنهما طريقتان متباينتانِ للوصول إلى المعرفة.

الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمّي في دراسة صورة الجسد

كثيرا ما يُنظَر إلى البحث الكمي باعتبار أنه يتميز بكونه علماً "ثابتاً" ينهض على أسس صلبة. فالباحثون الكَميون يعتمدون على الأرقام، والمعدلات، والنسب المئوية التي جرت العادة على عرضها في جدول، و مُخطّط شبكي أو شكل بياني من أجل توصيل المعنى أو المدلول. (Hesse-Biber & Leavy, 2004, p.1).

ولإيضاح ذلك سوف نعمد إلى استخدام "صورة الجَسَد" كموضوع للبحث. وهنا قد يتناول الباحث الكميُ موضوع صورة الجسد وعدم رضاء بعض الناس عن أجسادهم عن طريق تصميم مَسح اجتماعي مُكوَّنٍ من أسئلة ذات خيارات متعددة، لكل سؤالٍ منها عدد مُحَدد من الإجابات الممكنة (وكثيرا ما يُستعمل هنا المقياس المأخوذ من النمط الذي وضعه ليكرت Likert).(*) وحينئذٍ يتمُّ توزيع استمارة هذا المسح، وهي أداة كمية، على عينة سبق اختيارها من المبحوثين لكي يستوفوا الإجابة على أسئلته. ويَعتمد عملُ الباحث على تمييز مجموعة من العوامل التي "تحدد"، أو تقيس، مدى استياء الفرد من صورة جَسده، ثم تصميم الأسئلة المسحية التي تكشف عن البيانات الخاصة

(*) مقياس ليكرت Likert Scale: أسلوب واسع الاستخدام لقياس الاتجاهات. حيث يعرض على المستجيبين عددا من البنود المصاغ بعضها صياغة إيجابية والبعض الآخر صياغة سلبية. والتي وجد أنها تميز - بأكبر قدر من الوضوح- بين وجهات النظر المتطرفة حول موضوع الدراسة. فعلى سبيل المثال، قد يتم مواجهة المستجيبين في دراسة حول الإدراك الشائع للعدالة الاجتماعية بعدد من العبارات مثل عبارة: توزيع الدخل في بلد ما يتسم بعدم العدالة، وعبارة: "لكل فرد في مجتمعنا فرصة متساوية للحصول على تعليم جيد". ويطلب من كل واحد منهم أن يقدر كل عبارة في ضوء موافقته أو عدم موافقته عليها. ومن المألوف أن يتم تسجيل الاستجابات على مقياس ثنائي القطبية مكون من خمس درجات فئوية (أوافق بشدة، أوافق، لا رأي لي، لا أوافق، لا أوافق بشدة). ويتم ترميزها ٢، ١، صفر، -١، -٢. ثم تجمع هذه الدرجات لكي تكون تقديرات مجمعة أو درجات اختبار أو قد يتم ربطها بمتغيرات أخرى أو تحليلها باستخدام التحليل العاملي، لكي تمثل مقياسا رقميا أحادي البعد. انظر المزيد في موسوعة علم الاجتماع، تأليف جوردون مارشال، ترجمة محمد الجوهري وزملائه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٣٨٤ (المراجع)

بكل مؤشر تم تمييزُه من مؤشرات عدم الرضا عن صورة الجسد. بعد ذلك يعمد الباحث الكمي إلى عرض البيانات التي تضمنها هذا المسح في صورة إحصائية تظهر على شكل بياني أو رسم إيضاحي. ويقوم التفسير الذي يقدمه الباحث لهذه الإحصائيات على أساس نجاحهِ في تمييزِ مجموعة من المتغيرات التي تساهم في رضاء الفرد عن صورة جَسَدِه.

مثال ذلك، أنَّ بانفيلد Banfield وماكيب McCabe قاما بالبحث عن تعريفٍ دقيق لمصطلح **صورة الجسد**، وتَوصلا إلى البيانات المتعلقة بالأبعاد الخاصَّة بصورة الجسد (Banfield and McCabe, 2002, p. 373). ووفقاً للأهداف التي حدداها لبحثهما، وضعا مَسْحَينِ مُصَمَّمَينِ لقياس أربعة عوامل افترضا سلفا أنها تكوِّن صورة الجسد لدى صاحبهِ (انظر بحثهما: ٢٠٠٢، صفحة ٣٧٣). وبناءً على ما قاما به من مراجعة للمؤلفات المنشورة في هذا الموضوع، توصلا إلى تحديد أربعة عوامل رئيسية لصورة الجسد، هي:

(١) الإدراك الحسي،

و(٢) الاستجابة الانفعالية أو التأثر،

و(٣) المعرفة،

و(٤) السلوك.

كما اعتمد تحليلهما لهذا العمل فيما بعدُ على طرح أسئلة تهدف للوصول إلى البيانات الخاصة بكلِّ بُعدٍ من هذه الأبعاد على حدة. وقد جُمِعت هذه الأسئلة باستخلاصها من بين عشرِ أدوات لقياس صورة الجسد سَبقَ البرهنة على صدقها (ص٣٧٥). وكان هذا المقياس من نوع الأسئلة المقفلة، كما اعتمد على "مقياس ليكرت" الذي يُتاحُ فيه للمبحوثين خمسة اختيارات ممكنة للإجابة. وقد قام بانفيلد وماكيب بتقديم ما توصلا إليهِ من بيانات في جداول إحصائية متعددة.

أما الباحث الملتزم بالاتجاه الكيفي فإنه يتناول موضوع صورة الجَسَد بطُرق في غاية الاختلاف. مثال ذلك، أن الباحث الكيفي قد يكون مهتماً بإجراء مقابلات شخصية متعمقة مع الإناث اللاتي في سِنِّ الدراسة الجامعية بُغية الوصول إلى فهمٍ أفضلَ للكيفية التي بمُقتضاها يَشْعُرْن بصورة الجسد،

وللطرق التي تشكلت بها الهوية الجسدية عندهن، والتي مازالت تعمل على تشكيل حيواتهن. وفي مثل هذه الحال، يطرح الباحث الكيفي سلسلة من الأسئلة ذات النهايات المفتوحة عن الصورة الذاتية التي تراها هؤلاء الإناث لأنفسهن، مثل السؤال عن: كيف تبلورت وظهرت صورتهن الذاتية، **وعما يرون أنه** يمثل العوامل الثقافية والعلاقات الاجتماعية المهمة التي تؤثر على صورة الجسد عندهن، وما هي مواضع وتجليات الضغوط التي تمارَسُ عليهن فيما يتصل بمظهرهن الجَسَدي، وما هي استراتيجياتهن السلوكية والانفعالية في التعامل مع إدراكهن لأجسادهن، وكذلك السؤال **عما يرون أنه** يمثل العوامل الجوهرية في حيواتهن الشخصية والمتصلة بالتصورات الإيجابية والسلبية للجسد. ولكي يفهَمَ الباحث ما تُضفيهِ الإناث من معنى على صورة الجَسَد في سياق ما يعايشنَهُ من خبرات، فإنه ينطلق في بحثه من وجهة نظر أولئك الإناث مَحل الدراسة. فالباحث – بعبارة أخرى – يسعى للحصول على بيانات وصفية حيَّة من هؤلاء المشاركات في البحث – فهن في رأيه أصل هذه البيانات، كما أنهن يؤثرن إلى حد كبير في تحديد نقاط التركيز والاهتمام أثناء جمع البيانات.

إن الباحث الملتزم بالاتجاه الكيفي والمهتم بدراسة كيف تفسر الإناث ذوات الانتماءات العرقية، والإثنية، والطبقية الاجتماعية المتعددة؛ كيف يُفسرن صورة الجسد، وما هي العوامل التي يعتبرنها أساسية ومحورية في علاقاتِهنَّ بهوياتهن الجَسدية وببيئتهنَّ الاجتماعية. ولهذا يعمد مثل هذا الباحث إلى إجراء مقابلات مع جماعات مناقشة مركزة، وذلك من أجل سَبر أغوار هذا الموضوع. وكُجزء من دراسةٍ كيفيةٍ واسعةِ النطاقِ عن صورة الجسد استعملْنا طريقة المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، وغيرها من طرق المقابلات الكيفية الأخرى بُغيَةَ الحصول على البيانات الوصفية الحيَّة الخاصة بصورة الجَسَد من جهة نظر مختلف الجماعات، بما فيها الطالبات الجامعيات.

وقد أجرتْ هِس- بيبر (١٩٩٥- ١٩٩٩م) مقابلة مع جماعة مناقشة مركزة مكونة من طالبات في إحدى الكليات الإقليمية بُغيةَ فهم القضايا المتصلة بصورة الجسد عندهن وما يتعلق بها من آمالٍ وتطلعات، وارتباط

هذين الموضوعين (صورة الجسد وما يتعلق بها من آمال) بمظْهَرِهِنَّ وببقيةِ أمور حياتهن. وبعد أن علمت الباحثة أن كَوْنَ الفتاة "جميلة/أو جذابة" يمثل أهمية أساسية لدى بعض الطالبات المشاركات، طرحت سؤالاً مفتوحاً من النوع التتبُّعيِّ بُغيةَ الوصول إلى فهم أوسع لما تعنيه الطالبات المبحوثات فقالت: "ماذا يَعْني، في نظرك، أن تبدينَ جذابة؟". وقد أجابت إحدى المشاركات، والتي لابد أن تظل مجهولة الاسم، قائلة:

نعم، عندما يصل الأمر إلى مسألة حكايتي مع تناول الطعام، فإنني أرى أنه (أولا) أريد أن أبدو شديدة الشبه بالفتيات اللائي تظهر على صفحات المجلات المعنية بجمال المرأة وفي مجلة فوج Vogue، وسائر هذه المجلات، وذلك لأن هذا يمثل لي أحد المسارات التي أريد أن أسير على هديها. إنني أتطلع إلى كل هؤلاء النسوة الجميلات، فأجدهن نحيفات. وأنا أريد أن أكون مثلهن في الجمال تماماً، وأريد أن أكون في مثل نحافتهنَّ. وذلك لأن هذا ما يُحبُّهُ الشبَّان.

ثم إني أريد أن يَنْجذِبَ الشُّبان إليَّ. كما أن دليلي النهائي الذي يثبتُ إلى أيِّ مدى أنا جذابة، وإلى أيِّ مدى أنا نحيفة، وما مدى روعة جسدي، إنما يتأكد عندما يتطلع الشبان نحوي، ويتجلى فيما يجول في ذهنهم بشأني. (مدونة الفقرة التصنيفية بعنوان: التطلعات والآمال، هِس- بيْبَر، ص١٤).

وكما ترى، فإن الذي أضفَى على هذه البيانات ذلك التفصيل وَوَجَّهَها في هذا الاتجاه، إنما يرجع إلى هذه الطالبة فيما قدَّمَتْه في إجابتها من تفسير شخصي لمعنى كون الفتاة جذابة، وفيما تعده ذا دلالة وأهميةٍ خاصَّة في نظرها. وقد يُفسِّر الباحثُ الكيفيُّ هذه البيانات عن طريق البحث عن الموضوعات الأساسية أو المحاور الفكرية الكامنة في الكلمات التي أجابت بها هذه الطالبة. ويقتضي هذا الاتجاه الكيفيُّ في التفسير من الباحث أن يعتني بالنص ويقضي وقتاً مع الكلمات التي نطَقَ بها الشخص مَحَل الدراسة لكي يصوغ الموضوع الأساسي الحاسم من واقع وجهة النظر التي عبر عنها هذا الشخص. فالباحثون الكيفيون مَعْنيُّون بالنص والكلمات في مقابل الأرقام (التي يُعْنَى بها الباحثون الكميون).

وعلى ذلك، فإن الباحثين الكيفيين يقومون ببناء وتحليل الموضـوعات الأساسية المتضمنة في طوايا النصوص المدونة التي أسهموا فـي توفيرهـا، والتي تمثل – كما ورد في مقابلات جماعة المناقشة المركزة التي أشرنا إليها – بيانات أو نصوصا سابقة على جود البحث. ويَحْـدُث هـذا لأن البـاحثين الكيفيين يضعون نصب أعينهم التوصل إلى معرفة **المعنى**. ذلـك أنَّ بلـورة مقولات وفئات الموضوعات الأساسية هي الطريقة التي يُحاولُ بها البـاحثون الكيفيون استخلاص المعنى من البيانات التي تحصلوا عليها. ويعتبر الباحثون هذه الموضوعات الأساسية بمثابة فئات تصنيفية. والفئـة التـصنيفية مفهـوم سوف نتناوله بالمناقشة المفصلة فيما بعد. ووفقاً لما وَردَ في النص المُستَخلَص من مدونة المقابلة المذكورة سابقاً، فإن الإجابة التي وردت أُدرجت تحت فئـة تصنيفية عنوانها: "هي تُريد أن تكون جميلة"، والفئة المعنونـة: "هـي تقـدر النحافة" (وهما الفئتان اللتان تعدان موضوعين أساسيين).. ونذكر هنا أن هـذه الإجابة تعكسُ أُمنيات هذه الطالبة في اكتساب الـوزن والمظهـر المناسِـبيْنِ باعتبار أن هذه الأمنيات ذات ارتباط بغيرها مِـن المُـسلّمات والاعتقـادات والتطلعات. فهي تربط بين كونها "جذابة" ونحيفة وبين مُستقبلها فـي العمـل ورغباتها الغرامية أو المتعلقة بإقامة علاقات مع الغير (الشباب). وبهذا تستمد هذه البيانات عمقها من مَعْنىً اجتماعي. وتقـوم هـذه البيانـات الوصـفية، والمستمدَّة من وجهة نظر الطالبة المبحوثة، تقوم بإظهار مشاعر هذه الطالبـة المبحوثة المتعلقة بالجمال/ والنحافة في ضوء ارتباطها برغباتهـا وتطلعاتهـا الأخرى. وهكذا يقوم الاتجاه الكيفي بتوليد المعنى، وهو الأمر الذي لا يتـأتّى مِن المسُوح الاجتماعية الكمية.

ويُمكن للبيانات التي تُوفرها جماعات المناقشة المركزة كتلـك التـي عرفناها في المثال السابق، أن تكون كافية وحدها، أو يمكنها المـساعدة فـي صياغة الأسئلة المستعملة في المقابلة المتعمقة أو في دراسة التاريخ الشفاهي، والتي تُطرَح بناءً على قاعدة "سؤال يَعقُب سؤالاً"، حيث يؤدي كل سؤال إلـى توليد بيانات وصفية بدرجة عالية من الجودة، كما يؤدي للوصول إلـى فهـم الظاهرة أو معناها، وذلك بفضل اتباع طريقة ذاتِ خُطوات توجهُهـا عمليـة

البحث. ويوفر لنا التصميم الكيفي المتعدد الطرق (الذي يستخدم أكثر من طريقة في جمع المادة)، والمُشابِه لهذا التصميم؛ يُوَفِّر لنا كُلاً من البيانات التفسيرية والوصفية المتعلقة بالطريقة التي بها يَشعُرُ المحيطون بالمرء بصورتهم الشخصية لأجسادهم، وكيفية تفسيرهم لهذه الصورة. أضف إلى ذلك، وكما سنعرض بمزيد من التفصيل في موضع لاحق من هذا الكتاب، أن هاتينِ الطريقتين من طرق البحث والمذكورتين في هذا المثال لا تقتصرانِ على أن كل واحدةٍ منهما تعزِّز الأخرى، بل إنهما كذلك تتفاعلان معا وتؤثران في بَعْضِهِما البعض.

إن الباحث الكيفيَّ المهتم بفحص العلاقة بين العرق والقضايا المتصلة بصورة الجسد قد يقوم بإجراء مقابلاتٍ مع جماعات المناقشة المركزة أو يقوم بإجراء مقابلات متعمقة من أجل الحصول على البيانات الخاصة بصورة الجَسَد من وجهة نظر المشاركين في البحث. وهذا له أهمية خاصة عند دراسة العلاقة بين العِرق وصورة الجسد، وذلك لأن البيانات الخاصة بمظاهر الاضطراب المرتبطة بصورة الجَسَد كانت تُستَمدُّ – تقليديا– من عيِّنات من العِرق الأبيض (من أفراد الطبقتين الوسطى والعُليا)، وهو الأمر الذي يُؤدي إلى افتراض أن إناثَ الطبقتين الوسطَى والعليا من العرقِ الأبيض هن أكثر الإناث عُرضَةً لأن تكون صورة أجسادهن عندهن صورةً رديئةً، وعُرضةً للأمورِ المتصلة بهذه الصورة، كاضطرابات الأكل مَثَلاً. ولو أننا فَرَضْنا تطبيق الاستبيانات التي ثَبَتَتْ صِحَّتها من قَبْل (والمنفَّذة على الإناث من البيض) على بحثنا هذا، فإن من المحتمل أن تُصبح الفرضيَّةُ القائلةُ بأن الأقلياتِ الإثنية والعرقية بمنجاة من الإصابة بالاضطرابات "النفسية" المرتبطة بصورة الجَسَد؛ من المُحْتَمل في هذه الحالة أن تُصبح هذه الفرضية غير دقيقة. وذلك يرجع إلى أن أدوات القياس المذكورة (وهي الاستبيانات الموجهة للإناث البيض) قد تَطْرَحُ أسئلة هي مؤشراتٌ على ما يشْغَلُ بال الفتيات والنساء البيضِ من أمورٍ تتعلَّقُ بصورة الجسد عندهن، كما أن هذه الاستبيانات قد لا تتحققُ مما يَشغلُ بال النساءِ من الجماعات العرقية والإثنيةِ الأخرى من أمور خاصَّةٍ بهنَّ يُواجِهْنها في مجالِ صورة الجَسَد عندهن. وقد تمَّ توضيح هذه

الحقيقة في الدراسة التي أجْرَتها هِسْ- بيبر باتباع طريقة المقابلة مع جماعات المناقشة المركزة، والتي وَجَدَتْ فيها أن الفتيات السوداوات يُعانينَ من طائفة من الهموم المتصلة بصورة الجَسَد عندهن تَختلفُ عما لدى نظيراتِهن من الفتياتِ البيضِ. فالفتيات السوداوات، بصورةٍ خاصة، يُعانين هُموماً جمَّةً تتعلق بشعرهن أكثر مما تتعلق بالرغبة في النحافة التي تنتشر بين الفتيات البيض (Hesse-Biber, Leavy and Yaiser, 2004)

وبإمكان الباحثين ذوي الاتجاه الكمي -كذلك- أن يتعمقوا في دراسة الفروق في درجات عدم الرضا عن صورة الجسد وفقاً لاعتبارات العرق والإثنية؛ ومع ذلك، فإن مِنْ شأنِ هذا البُعدِ الذي يَدْخُلُ في خُطتِهم البحثية أن يقوم - فقط - على تقسيمهم لعَينتهم (مِن الأفراد الذين يُجيبون على أسئلة المَسْح) على أساس هوياتهم العِرقيَّة، وهو الأمر الذي يمكن تحقيقُهُ عن طريق الاستيثاق مِن المعلومات الديموجرافية العامة وتوافقها مع ما هو وارد في الاستبيانات. وقد رَغب مُولوي وهرزبرجر (Molloy and Herzberger 1998) في معرفة : إلى أيِّ مدىً يختلف الإدراك الحسِّي للجَسَد باختلاف العِرق والإثنية. وقد وضعا فرضيةً مَفادُها أن الأمريكيات السوداوات أكثر رضىً عن مظهرهن الجسمي من الأمريكيات البيض. وفي هذا المسار، قاما بإجراء مسحٍ اجتماعي على مائة وأربع عشرة طالبة في كُليتين مَحليتين (كليات المجتمع) وقسَّما عَيِّنتَهُما على أساس العرق، والتي ضمت ٤٥ فتاة سوداء و٦٩ فتاة بيضاء من اللاتي أجَبْنَ على أسئلة الاستبيان. وقد عَـزَّزتْ نتائجُ المسح الفرضية التي وضَعَاها والتي تذهب إلى أن النساء السوداوات يُبدينَ قدراً من الاضطرابات النفسية المتعلقة بصورة الجَسد عندهن (من أنواع الاضطرابات التي يجري قياسها) أقلَّ مما لدى نظيراتهن من النساءِ البيض.

وتشتمل النماذج الأخرى من الدراسات التي تستَعمِلُ البياناتِ المسْحية المقسَّمة على أساس العِرق، والإثنية، والنوع الاجتماعي، والتي تُستَخرَجَ منها البيانات الإحصائية؛ تَشتمِل على دراسات كل من: أبرامز وكوك ستورمر (Abrams and Cook Stormer, 2002)؛ وتشامورو وفلورس-أورتز (Chamorro and Flores-Ortiz 2000)؛ وتشاندلر، وأبود، ولي، وكلفلاند

ودالـــي (Chandler, Abood, Lee, Cleveland and Daly, 1994)؛ وفالكونر ونفيـــل (Falconer and Neville, 2000) ونيلـــسن (Nielsen 2000). وإننا نُحذِرك حتى تكون يَقظاً للفرضية التي مَفَادُها أن النساء غَيـــر البيض يُعتَبَرْن -إلى حدٍ ما- بمنجاة من الإصابة باضطرابات الأكـــل وعـــدم الرضا عن صورة الجسد عندهن، وذلك لأن بعض العلماء يُشير إلى أن النساء المُلوَّنات قد يكُنَّ - فـــي الواقـــع - أكثـــر تعرضـــاً لاضـــطرابات الجـــسد (Thompson 1996). وبالمثل، فإنه نظراً لأن أغلب البحوث التي أجريـــت على صورة الجَسَد قد تمَّ تنفيذها على عينات من النساء البيض، فمن المحتمل تماماً أننا بحاجةٍ إلى أدوات قياس جديدة من أجل أن نفهم كيف تشْعُرُ النـــساء المُلوَّنات بصورة الجسد عندهن وبالاضطرابات النفسية المتعلقة بأجـــسادهن. ولعلّه من غير المناسب أن نضيف أولئك النساء المُلوَّنات إلى تلـــك النمـــاذج المعروفة مسبقا- وقد يُقَدِّم لنا البحث الكيفي التفسيري رؤىً ثاقبةً مهمة في هذه الجزئية كذلك. وتوَضحُ القائمة التالية، وبأسلوب عام، الخطوات التي يتبعُهـــا الباحث الكيفي مقارنةً بخطوات الباحث الكمي:

النموذج الكيفي

١- تحديد مجالات الموضوعات الرئيسية.
٢- تحليل المجموعة الفرعية للبيانات.
٣- كتابة الفئات التصنيفية (حرفيا وبشكل عام).
٤- إعادة تحليل البيانات؛ تحليل بيانات إضافية.
٥- تدوين الملاحظات في المذكرات الموجزة.
٦- تحليل البيانات الإضافية.
٧- تنقيح فئات التصنيف؛ تأليف فئات عامة ذات طبيعة كلية وشاملة.
٨- تحليل البيانات الإضافية.
٩- تفسير المضمون.
١٠- العرض النهائي.

النموذج الكمى

١- صياغة سؤال البحث.

٢- صياغة فَرضيَّة ما.

٣- تحديد المتغيرات.

٤- تصميم أداةَ القياس.

٥- وضع فئات التصنيف.

٦- اختيار العينة (عَيِّنة عشوائية).

٧- اختبارات الصدق والثبات.

٨- الاختبار الإحصائي (عند الضرورة)

٩- حساب عدد النتائج.

١٠- عرض النتائج (في أشكال أو رسوم بيانية كما هو المعهود) [وهذه هي الخطوة الأخيرة وتحتاج إلى صياغتها رقمياً].

عندما تُقَرر ما إذا كان مشروعك البحثي سيستعين بتصميمٍ كمِّي أو تصميم كيفي (أو بتصميم يجمع بينهما) لابد أن تسأل أولاً:

- ما هو السؤال الأساسي للبحث؟
- أيَّ أجزاء الواقع الاجتماعي أُريدُ إدراكُه؟

وإذا كُنتَ مُهتَماً بالأرقام التنبُؤيَّة والضابطة (وهي الأرقام الدالَّة على الكمية how many أو على الدرجة) و/أو العلاقات الموجودة بين المتغيرات وأيِّ عوامل وسيطة مؤثرة في النتائج (كعاملِ العِرق مثلاً)، فإن التصميم الكمي سوف يُقدِّمُ لك نوع البيانات التي تبحث عنها. معنى ذلك بعبارة أُخرى أن الاتجاه الكمي سيكون ملائما للإجابة على أسئلة البحث بالصورة التي قُمتَ بصياغتِها.

فالاتجاه الكميّ يقدمُ الإجابات على ما تُريدُ معرفتَه وما تَرَى أن بإمكانك مَعرفته. مثال ذلك، أن مِن شأنِ الباحثِ المُهتم بالتنبُؤِ بما إذا كان، وإلى أي درجة، يعتبر النوع الاجتماعي مُؤشراً جيداً للتعرض لاضطرابات الأكل؛ من شأنهِ أن يَسأل: إلى أى درجةٍ يتنبأ النوع الاجتماعي باحتمالات التعرض لاضطرابات الأكل؟ وكما شاهدنا في الدراسات الكمية لصورة

الجسد، تفيد الاتجاهات الكمية في تمييز العلاقات السّببية المحتملة، والتي منها مثلاً: الرابطة بين النوع الاجتماعي والإصابة بالاضطراب المتعلق بصورة الجَسَد، وذلك عن طريق قيام هذه الاتجاهات الكمية بتفسير العوامل الوسيطة، كعامل العرق، والإثنية، والسلوك الجنسي، والطبقة الاجتماعية (إذا كانت هذه الأبعاد مُضمَّنةً داخلَ تصميمِ البحث). ومع ذلك، فإن طبيعة هذه العلاقات، والظروف الاجتماعية التي تَنْشأ منها هذه الأنماط، وكذلك الفاعل الفرد والخبرة الفردية، قد تَظَلّ مَجْهولةً في الدراسة التي تقتصر على الاتجاه الكمِّي.

إن المثال المقارن لدراسة صورة الجسد انطلاقاً من الاتجاه الكيفي في مقابل الاتجاه الكمي يوضحُ لنا بجلاء أن البحثَ الكيفيَّ مَعنيٌّ بفَهم المعنى الاجتماعي، بينما يُركِزُ البحث الكمِّيُّ على الأنماط وإمكانية التنبؤ.

مُعظَم أساليب البيانات الكمية عبارة عن مُكثفات للبيانات. فهي تُكثِّف البيانات من أجل إدراك الصورة الكبيرة... وعلى العكس من ذلك، فإن الطرق الكيفية تُفهَمُ على أفضل الوجوه بوصفها أدوات لتعزيز أو تجويد البيانات. وعندما يتم تعزيز البيانات/ أو تجويدها يُمكِنُ تبين الملامح الأساسية للحالات المدروسة بمزيد من الوضوح. (Charles Ragin, 1994, p. 92, as quoted by Neuman, 1997, p.14-15).

ويمكن القول بتعبير آخر إن البحث الكميَّ يُنتِج كميةً من البيانات -ذات القابلية للتعميم- بينما يسعَى الباحثون الكيفيون للعُمق في بياناتهم وتحليلهم أكثَرَ من سعيهم للكمية. والآن قد ثَبَتَ وجود فارقٍ إجماليٍّ عام بين البحث الكيفي والكميّ، لذلك نعود لمثالنا الإيضاحي عن صورة الجسد بُغيَةَ استكشاف ما أوردناهُ من فرضيات، واعتقادات وممارسات. وستتم هذه المناقشة في إطار مناقشة تاريخية للمذهب الوضعي ولمفهوم الموضوعية، وما ارتبط بذلك من تطور للبحث الكيفي تفاعلا مع ذلك. أي أننا – بعبارة أخرى – سوف نشرح كيف أن المثال الخاص بدراسة صورة الجسد – والذي عَرضناه من وجهتي النظر الكمية والكيفية يعكس – بصورة فعلية – صور الصراع الواسع النطاق طوال مراحل عملية بناء المعرفة، والتحولات الحادثة داخل هذه العملية.

الوضعية، والموضوعية، والرابطة البحثية:
الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي

سيطرت وجهة النظر الوضعية إلى الحقيقة الاجتماعية على امتداد تايخ بناء المعرفة، والوضعية هي الأساس الإبستِمُولوجي (أي المعرفي) للنموذج الكمي. فقد لبِثتْ زماناً طويلاً يُنظرُ إليها بوصفها الاتجاه الوحيد الموثوق به في البحث، وذلك لما تتصف بهِ من اعتماد موضوعي على "الطريقة العلمية". وسوف نبحث موضوع الإبستمولوجيا بصورة أكثر عموميةً ثم نتطرق إلى الفلسفة الوضعية والنماذج البديلة التي ظهرت مناوئه لمعتقدات الإبستمولوجيا الوضعية.

الإبستِمولوجيا (نظرية المعرفة)

إن الاتجاهينِ الكيفي والكمي كليهما مُشبَّعان بالإبستمولوجيا (Hesse-Biber & Leavy, 2004, p.2) إنِ أي **إبستمولوجيا** "هي نظرية للمعرفة" (Harding, 1987, p.3). واعتماداً على كتاب كروتي Crotty (١٩٩٨)، يتوسع كِرسْوِل Cresswell في التعريف السابق فيقول إن أي إبستمولوجيا هي "نظرية من نظريات المعرفة مُستبطنَة في طوايا أي منظور فكري" (Cresswell, 2003, p.4) وهي التي تشكِّل كافة جوانب العملية البحثية. وبتعبير آخر نقول إن أي إبستمولوجيا عبارة عن نسق من المعتقدات الفلسفية التي تتعلق بمن يُمكنه أن يكون عارفاً وبما يمكن أن يُعرف. (Harding 1987; Guba & Lincoln, 1998; Hesse-Biber and Leavy 2004). وبجانب تَساؤل الإبستمولوجيا عمَّنْ يمكنه أن يكون عارفاً وعمَّا يمكنُ أن يُعرف، فإنها تتناول كيفية خلق المعرفة: فالنظرية الإبستمولوجية هي التي ترسي الأساس لعملية بناءِ المعرفة. والأسئلة، والفروض، والمعتقدات – سواءً ما كان منها موجوداً (في ذهن الباحث) عن وعى أو عن غير وعيٍ – والتي يحملها الباحث معه إلى بحثه إنما تمثل الأساس الأول لأى نظرية إبستمولوجية. والأفعال والتصرفات التي تتضمنها العملية البحثية، شأنها شأن كافة المساعي التي يقوم بها الناس، تخضع وتتأثر بالمواقف التي سبَق للباحث

أن التزمَ بها. فنحن نبحث ما نؤمن بأنه قابلٌ لأن يُعرَف وبطُرقٍ نؤمن أنها ستكون فعالة، وكلا الأمرين انعكاس لنظريتنا الإبستمولوجية.

مثال ذلك، أن ما يفترِضُهُ الباحثُ حقيقيا أو متصلا بموضوع صورة الجسد، وأن ما يُسلِّمُ ذلك الباحث أن بالإمكان مَعرِفتَه، وأن ما يريد معرفته عن صُورة الجسد؛ هذه الأمور جميعا هي الأساس الذي تقوم عليه أيُّ إبستمولوجيا. فمولوي Molloy وهرزبرجر كانا يؤمنان بوجود علاقة مباشرة بين العِرق والتعرض للإصابة باضطراب صورة الجَسَد. وقد قام هذا الافتراض - والذي تجلّى في هيئة "فرض علمي" - قام بتوجيه كافّةِ جوانب بحثهما، بما في ذلك اختيار الموضوع وصياغة الأسئلة. وبالمِثْل، افترضَتْ هِس - بيبَر أن النساء ينسُبْنَ معانٍ متعددةً لأهدافهنَّ ومشاعرهنَّ تجاه أجسادهن، والتي مِن الممكن فهمُها على أفضل الوجوه انطلاقا مما تتصوره كل امرأة نقطة تميز أو تفوق خاصة بجسدها، وقد أثَّر هذا الافتراض على جميع مراحلِ دراستها لصورة الجسد. إذن فالنظرة الإبستمولوجية التي يأخُذُ بها الباحث تُؤثِّر على كل جانبٍ من جوانبِ العملية البحثية، بما فيها من اختيار الموضوع، وصياغة الأسئلة، واختيار طريقة البحث، والخلفية الفكرية، والرؤية المنهجية. ومن بين هذه الخيارات التي تتأثر خاصة بالنظرة الإبستمولوجية للباحث النقاط التالية:

- من هم الأفراد الذين ستشملهم دراسة صورة الجَسَد (وفقاً لاعتبارات النوع الاجتماعي، والسن، والتنوع العرقي/أو الإثني، والتوجُّه الجِنسي، والمكانة الاجتماعية الاقتصادية)؟
- ما هو الجانب الذي نُحاوِل شَرحه من جوانب صورة الجسد (الجانب الاجتماعي الثقافي، أم الجانب الاقتصادي، أم الجانب السيكولوجي، أم الجانب الطبي، أم الجانب السلوكي، أم الجانب المتعلق بالاتجاهات أمِ الجانب المتعلق بالإدراك الحسِّي)؟
- كَيفَ سنُحاول الوصول إلى فهم الخبرات التي يُعايشها المبحوثون والتي لها صلة بموضوعنا، وكيف سنَفهُم المعرفة التي تحصَّلنا عليها، وكيف سنوصلها إلى الآخرين؟

فإن كنا نحاول قياس العلاقة السببية بين العوامل الديموجرافية، كالنوع الاجتماعي والعرق من ناحية، وانتشار اضطرابات الأكل من ناحية أخرى، فإننا -حينئذٍ- نطرحُ سؤالاً كمياً يحملُ في طياته فروضا عديدة تتعلق بطبيعة الحقيقة الاجتماعية.

الإبستمولوجا الوضعية وصلتها بالموضوعية

إن من الأهمية فهم الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) التي من خلالها تطوَّرت الممارسة الكمية بوصفها نموذج "العلم" (الحقيقي). فالعلم الوضعي يُؤمن بمعتقدات أساسية عديدة تتعلق بطبيعة المعرفة، وهي المعتقدات التي تشكل في مجموعها **الإبستمولوجيا الوضعية**، التي هي الركيزة الأساسية للنموذج الكمي. فالوضعية تؤمن بوجود حقيقة قابلة للمعرفة، وأن وجودها مُستقل عن العملية البحثية. والعالمُ الاجتماعي، والمُشابه للعالم الطبيعي، تحكمه القواعد التي تتجلَّى في صورة أنماط. وتبعا لذلك، فإن العلاقات السَّببية بين المتغيرات لها وجودها بل ويُمكن تمييزها، والبَرْهَنة عليها، وتفسيرها. ومِنْ ثَمَّ فإن الحقيقة الاجتماعية النمطية يمكن التنبُّؤ بها، كما أن من خصائصها إمكان التحكُّم فيها. وهذا الكلام يصف طبيعةَ الحقيقة الاجتماعية من وجهة النظر الوضعية. ومن هنا فإن الاتجاه الكمي في دراسة صورة الجسد يُمكن فَهْمُه باعتباره مَظْهراً من مظاهر الافتراضات التالية: تُوجد حقيقة "خارجية" (أي خارج ذهن الباحث) وهي قابلة لأن تُعْرَف ولأن يُتنبَّأ بها وهي قائمة على علاقاتٍ سببيةٍ واضحة، كالعلاقات النمطية القابلة للتنبؤ والموجودة بين النوع الاجتماعي والعِرق من جهة، والأبعاد الكثيرة التي تتصف بها قابلية بعض الأفراد للإصابة باضطرابات الأكل من جهةٍ أخرى، والتي تم تمييزُها باعتبارها علاقات لها وجودها المُستقِل بصرف النظر عن العملية البحثية، والتي -بناءً على وجودها المستقل هذا- تمَّ "اختبارها" في مثالنا السابق. وحتى الآن، كُنَّا نصف طبيعة الحقيقة الاجتماعية وفقاً لرؤية الوضعية، إلا أنه يَتَوجَّبُ علينا أن نمضي إلى أبعَد مِن ذلك فنتعمق أيضاً في فحص الافتراضات أو المسلَّمات الخاصة **بالعلاقة بين تلك الحقيقة والباحث الذي يهدف للكشف عنها.**

تَضَعُ الفلسفة الوضعية الباحثَ والمبحوث، أو الطرف العارفَ والطرف القابلَ للمعرفة، في مستويينِ مختلفينِ ضِمْن العملية البحثية. فالباحث والمبحوث، أو الفاعل والموضوع subject and object؛ يَتمُّ تَصَوُّرهما عقلياً في صورة نموذج ثنائي. ولا يقتصر الأمر على وجود تفرقة شديدة بين الفاعل الموضوع، بل إن هذه التفرقة تُعدُّ –إلى جانب ذلك– تفرقة تَدرُّجية أو هَرَمية، يحظَى فيها الباحث بالأفضلية باعتبار أنه هو الطرف العارف. وهذه الجزئية لها أهميتها الخاصة في العلومِ الاجتماعية، والتي يغلبُ أن تُستَمَدُّ البياناتِ فيها مِنَ الفاعلين البَشَرِيين الذين يُنْظَرُ إليهم، في نطاق هذا التصور، باعتبارهم "موضوعات" للعمليات البحثية: أي أنهم يَخْضَعُون للآخرين – ألا وهم العارفون. مثال ذلك أن المُسُوحِ الاجتماعية التي استُعْمِلَت في جَمْعِ البيانات الخاصة بمثالنا البحثي الكمِّي، أُعطِيَتْ لفاعِلين بَشريين يَتمُّ تحويلُهُم، وفقاً للرؤية الوضعية العامة، إلى موضوعات للبحث قابلة للكشف عنها ومعرفة طبيعتها.

ويمكن أن نفهم الدراسة الكمية لصورة الجسد – والتي جَرَى وصفها في مثالنا البحثي القائم على المسح الاجتماعي – باعتبارها مظهراً تتجلَّى فيه الوضعية كما يتجلَّى فيه استعمالها لمُصطلح "الموضوعية". ويدلُّ على ذلك تلك الافتراضات/ أو المُسلَّمات التي مفادُها:

(١) أنه توجد حقيقة يمكن معرفتها، وهي مستقلة عن العملية البحثية، والتي منها مثلاً الروابط السَّببية بين النوع الاجتماعي والعرق من جهة، وعدم الرضا عن صورة الجسد من جهة أخرى؛

(٢) إن الفصل بين الفاعل والموضوع جُزءٌ لا بُدَّ منه لاكتشاف المعرفة، وهو الأمر الذي يتوصل إليه الباحث عن طريق ما يقوم به من تصميم للاستبيانات ثم توزيعها بصورةٍ موحدةٍ على المشاركين في البحث. فالوضعية لها رؤية محددة "للموضوعية"، وهي الرؤية المتغلغلة داخلَ العملية البحثية أثناء مراحلها كلِّها، سواءً أكان ذلك على المستوى الشعوري أو المستوى تحت الشعوري. وتفترض الإبستمولوجيا الوضعية أن هناك حقيقة موضوعية موجودة "خارج ذهن الباحث"، وأن

بالإمكانِ الكشف عنها على يد الباحثين الموضوعيين غير المتأثرين بالأحكام القيمية، من خلال استعمال طرق البحث الموضوعية القابلة للتكرار. وبتعبير آخر، الحقيقة موضوعية ويمكن – من الناحية الإمبيريقية – دراستها/أو اختبارها على يد الباحثين المحايدين من ناحية القيم. لذلك، فإنَّ من السهل إحلال باحثين مَحل باحثين آخرين، وكذلك الحال بالنسبة للمبحوثين أيضاً، وذلك تحقيقاً للأغراض المتعلقة بتكرار البحث. ومن المفترض أن يكون الباحث غيرُ متَحيِّز، وليس لديه مشاعر أو عواطف تجاه موضوع البحث، وليس له موقف سياسي أثناء ممارسته عملية بناء المعرفة. وقد تَسبَّب هذا المفهوم الخاص بالمعرفة، وخاصَّةً ما يتضمنه من دلالات تتصل بهذا النوع من الاعتماد على الموضوعية؛ تَسبَّبَ في جَعل مجتمع البحث يُقَاومُهُ مُنذ البداية وتصاعدتْ هذه المقاومة إلى أن بلغت أوجها في تنامي الحقل المعرفي للبحث الكيفي.

أفكار بديلة عن طبيعة الحقيقة الاجتماعيَة

منذ وقتٍ مبكر، ظهر التراث التأويلي، والذي يعرف عادة باسم **المنظور التأويلي**؛ ظهرَ كاعتراضٍ مباشرٍ على نظرية المعرفة الوضعية وعلى تفسيرها/ أو تطبيقها لمفهوم الموضوعية. وتقوم نظرية المعرفة التأويلية على تأويل التفاعلات بين الأفراد وتأويل المعنى الاجتماعي الذي يَنسُبُه الناس لتلك التفاعلات (Nielsen, 1990, p.7). ويؤمن هذا المنظور – في بُعدِهِ الإبستمولوجي– أنَّ المعنى الاجتماعي يتم خَلقُهُ أثناء عملية التفاعل. ومفَادُ هذا الكلام أن الفاعِلين الاجتماعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصور مختلفة فعلاً، مُنتجين بذلك معان وتحليلات مختلفة أيضا. زدْ على ذلك أن هذا المنظور الخاص ببناء المعرفة قائم على أساليب اكتساب المعرفة القائمة على ملاحظة المبحوثين والتفاعل معهم. ويتضمن البحث الذي من هذا النوع بناء علاقات بين الباحثِ والمبحوثين، الذين يكونون بمثابة مشاركين ومعاونين في العملية البحثية. ولكن العلاقات المتبادلة بين ذوات كافة المشاركين (أي الباحث والمبحوثين معاً) لم يَكُنْ يُنظَرُ إليها دائماً باعتبارها جزءً من الممارسة

التأويلية. شاهدُ ذلك أن شـوتز (Schutz, 1967, 1974) اضـطلع بريـادة مسيرة النظرية التأويلية، ولكن مع أنه أضفَى الشرعية على الفكرة التي تذهب إلى أن الفعل الإنساني لا يمكن فهمُه مُجرَّداً من المعنى الذي يُنْسَبُ إليـه، إلا أنه أقرَّ ما تذهب إليه الوضعية من التفرقة أو الفصل بين الذات والموضـوع عن طريق حثّه للباحثين على أن "يَفْصِلوا" ذاتيتهم عن البحث أثناء اشتغالهم به (Nielsen, 1990,p.8). وقد عارضَ فكرة "الفصل" هذه كل مـن مفكـري الحركة النسوية والمفكرين النقديين، على نحو ما سنرى تفصيلا في موضـع لاحق من هذه الكتاب، كما بلوروا نماذج جديدة لبناء المعرفة قائمة على أخـذ بعد الذاتية في الاعتبار وعلى التفاعل المتبادل بين الباحث والمبحوثين، وعلى النظر إلى البحث كعملية.

ويناوئ المنظور التأويليُّ المفهومَ الوضـعيَّ للموضـوعية بأسـاليب متعددة، يعكس كلُّ أسلوبٍ منها مفهوماً مختلفـاً لبنـاء المعرفـة. فـالمنظور التأويلي لا يقتنع بأن الحقيقة الاجتماعية موجودة "خارجا" منتظـرةً اكتـشافها وقياسها، بل يرى أنها حقيقة علائقية (تتخلق في العلاقات) وشخصية/أو ذاتية، وأنها تتولد أثناء العملية البحثية. ولا يُفترَض أن يكون الباحث مُلتزماً بالحيـاد و "موضوعيا" بل أن يكون مساهماً مساهمة إيجابية – وذلك بـالتوازي مـع المبحوثين – في بناء المعرفة الوصفية، الاستكشافية و المفـسرة فـي نفـس الوقت. وبالمثل، فإن قيمة البحث لا تعتمد على ما إذا كان قابلاً للتكرار مـن عدمه، بل تعتمد على مدى ما يقدمه إلى معرفتنا الأساسية في موضوع معين. وهكذا تَبَلْوَر التراث التأويلي في مواجهة الافتراضات التي تُسلم بها الوضعية، وهو الآن مستمرٌ في إبداء المقاومة القوية التي تناوئ ما في الوضـعية مـن مفاهيم وتصورات العمل البحثي.

فهذا مثالٌ على مدى ما وصلت إليه مقاومة الوضعية والاتجاه الكمـي الذي تُدَعِّمه، وهو مثال مبني على أسس إبستمولوجية. ويقوم البحـث الـذي يُجرَىَ انطلاقاً من وجهة النظر التأويلية بتوفير نتائج كيفية تتمثل في صـورة البيانات المستخلصة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة في موضوع صورة الجسد. والمشكلة التي تواجه الباحثين الـذين لا يأخـذون بالمُـسلّمات

الوضعية هي أنه كثيراً ما يُستَهانُ بِقِيمةِ بَحثِهِمْ. أما البيانات التي وفَّرتها الدراسة الكميَّة لصورة الجسَد فقد كانت بيانات قابلة للتعميم وقابلة للتكرار ويَزعُمُ القائمون بها أنها تُعيِّن العلاقات السببيَّة الأساسية بين العوامل الاجتماعية الثقافية ومدى القابلية للتعرض لظاهرة النفور من صورة الجَسَد. وكثيرا ما تَشِيعُ الإشارة إلى هذه البيانات باعتبار أنها بيانات "صلبة" (أي راسخة وثابتة) و "علمية"، مما يُضفِي عليها معنىً من معاني المشروعية بين الأوساط البحثية والأكاديمية. وأما البيانات الوصفية المتحصلة من البحث الكيفي لجِماعاتِ المناقشة المركزة فإن من شأنها أن تُوصَفَ – كما هو مَعْهود– بأنها "رَخْوَة" (في مقابل البيانات "الصلبة" للبحث الكمِّي)، ومن ثَمَّ فإنها أقلُّ "علْميَّةً". وبالمثل، فإن البيانات الكمية يُفْتَرض فيها أنها "قابلة للتعميم" على أعدادٍ أكبر من السكان، ومن ثَمَّ فإنها بيانات "ممثلة"، أو ذات صفة تمثيلية. وخِلافاً لذلك، فكثيرا ما يُشَارُ إلى البياناتِ الكيفية، والتي منها ما نراه في تقارير المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، كثيراً ما يُشارُ إليها بأنها بيانات "مَزعُومة" أو "مُولَّفة" مما يعنى ضمناً أنها أقلُّ علميةً، ومن ثَمَّ فهى أقَلُّ دقة وبالتالي أقلُّ أهميةً. وهذه الطُّرق النمطية الجامدة (التي تضع البيانات الكمية في درجة أعلى من البيانات الكيفية) في التفكير في البحث الكيفي وعلاقته بالبحث الكمي، هذه الطرق في التفكير ينبغي الانتباه إليها وكشفها واجتنابُها. وسوف يُصبح ذلك التحيُّز القديم العهد – الذي يُفَضِّل الوضعية على غيرها من طرق تحصيل المعرفة – أكثر وضوحاً عندما نتناول طرق جمع البيانات لاحقاً. أما الآن فدعنا نبحث الاتجاه الكيفيَّ وفقاً لخياراته الإبستمولوجية.

المعرفة الكيفية هي ثمرةٌ لتشكيلة من النظريات الثرية في مجال الحقيقة الاجتماعية. ومع أن هذه النظريات تتشارك في اهتمامها بالتأويل، إلا أنها تُركِّز – كذلك – على جوانب مختلفة للحقيقة الاجتماعية، والتي منها مثلاً وجهات النظر النسوية، والصراع، والثقافة الشعبية، وما إلى ذلك. ومن شواهد ذلك، أن وِجْهَات نظر الحركةِ النسوية كثيرا ما تُركِّزُ على المكانة الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية للمرأة على المستوى المحلي والمستوى العالمي. كما أن

وجهات النظر ما بعدَ الحَدَاثية كثيراً ما تُطبَّق على الدراسة الكيفية للثقافة الشعبية وعلى وسائل الاتصال الجماهيرية، بينما يَتَرَجَّحُ أن تُركز وجهات النظر النقدية على ممارسات القوة في طائفة متنوعة من السياقات المُشبَّعة بالاعتبارات السياسية.

وسوف نُنَاقش وجهات النظر هذه بمزيد من التفصيل فيما بعدُ في سياق هذا الفصل، أما الآن فمن المهم أن ندرك أن الاتجاه الكيفي يستمد ثراء كبيرا من عدد المدارس الفكرية الراسخة الموجودة خارج نطاق مظلّة الاتجاه التأويلي. ومن بين هذه المدارس الفكرية: الفلسفة الوضعية، وما بعد الوضعيَّة، التأويلية الظاهراتية، والفلسفة الظاهراتية، والإثنوميثودُولوجيا (منهجية الجماعة)، ووجهات النظر النسوية، وما بعد الحداثية، وما بعد البنيوية، وما بعد الكولونيالية/أو ما بعد الاستعمار، والنقدية. ويُعْتَبر البحث الكيفي حقلاً من حقول المعرفة مثيراً للاهتمام ومتفرداً إلى حدٍّ ما لأنه يتميز بطائفة مختلفة من وجهات النظر الإبستمولوجية، ومنْ ثمَّ فإنه يطرح أنواعاً كثيرة من الأسئلة العلمية الاجتماعية، والتي تشملُ كُلاً من الأسئلة التي طُرِحَت أو عُولِجَت من قَبْلُ بأساليبَ أخرى، والأسئلة التي لم تُطرَحْ أصلاً قَبْل ذلك، كما أنه يَطْرحُ الأسئلة القديمة بأساليب جديدة ومعقّدة.

ويُتيح البحثُ الكيفي، كما توضح لنا سجلات بيانات المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة؛ يُتيحُ الحُصولَ على "توصيفات مفصلة وغزيرة" للحياة الاجتماعية (Geertz 1973) مُقَارنةً بالبيانات التي توفِّرها المُسوح الكمية والتي تكون قابلةً للتعميم إلا أنها كثيرا ما تكون بيانات مُسَطَّحة. وكما رأينا أنه بالمقارنة بين الوضعية والمنظور التأويلي، فإن الإبستمولوجيا لا تقْتصرُ على مُعالجة الفروض المتعلقة بطبيعة المعرفة وطبيعة العارف فقط، بل تعالج -إلى جانب ذلك- الفروض المتصلة بالعلاقة بين العارف وما يُمكنُ مَعْرِفتُه، أو بصيغةٍ أخرى، العلاقة بين الباحث وموضوع البحث (Guba & Lincoln 1998, p.201). لذلك فإنك عندما تُقرر ما إذا كانتْ دراستُك لصورة الجَسَد سوف تستعمل اتجاهاً كيفيا من عَدَمه، فلابد أن تُعْطِي أهمية كبيرة لِما ستكون عليه طبيعة العلاقة بين الباحث والمبحوثين في هذه الدراسة.

فهل ستكون هذه العلاقة قائمةً على أساس تقسيمٍ تَدَرجُي هَرَمي يَفْصل بين الباحث والمبحوث، وذلك كما تُوصي به الوضعية، أم ستكون قائمةً على أساسٍ تَبَادُلي تفاعلي يتم بناؤه من خلال الألفة بين الباحث والمبحوثين على نحو ما يوصي به التقليد التأويلي، أمْ أنها سَوف تتَّخذُ شكلاً آخر؟ ويُبَين لنا تحليل النظرية الوضعية وبدائلها من النظريات الأخرى أن هذه الخيارات يتم اللجوء إليها بصورة تحكمية، بل إنها مرتبطة ارتباطاً حميماً بالأنساق الاعتقادية المتعلقة بالطريقة التي ينتج بها الناس المعرفة من خلال درجات وأشكالٍ مختلفة من التفاعل. وهذا النسق الاعتقادي الموجه هو الأساس الوطيد لأي نظرية من نظريات المعرفة.

الإبستمولوجيا والنظرية

كما يُبين كِرسْول (٢٠٠٣)، يُوجَد في طوايا أي رؤية **فكرية** نظرية معينة للمعرفة. وبإمكاننا كذلك أن نقول إن أي نظرية للمعرفة مرتبطة بنظرية ما أو أن بينهما صلة حميمة، أو أن مسلمات أي نظرية للمعرفة إنما يَتمُّ تفعيلها من خلال إطارٍ نظريٍّ. وبتَعْبيرٍ عامٍّ، تُعَدُّ النظريةُ تَفْسيراً للحقيقة الاجتماعيَّة أو لأحَدِ مُكوناتها، يتسعُ لما هو أبعدُ نطاقا مما تَمَّ بَحثُهُ منها إمبيريقيا، كما هو الحال مع موضوع عدم رضاء الفرد عن صورة جسده (Hesse-Biber & Leavy, 2004, p.3) وتُعَدُّ النظرية الاجتماعية -دائماً- جُزءًا مِن العملية البحثية. وللنظريةِ أهميةٌ خاصَةٌ في تطبيق البحث الكيفي، وذلك لأن من أول أهداف هذا البحث: توليد، وبناء، وتنقيح النظرية. فما يُجْمَعُ من بياناتٍ إمبيريقية أثناء القيام بدراسة معينة، يُمكِنُ تَعْميمُهُ على الظواهر الاجتماعيةَ الأوسع نطاقاً، وذلك من خلال بناء النظرية الاجتماعية. ولا يَقْتَصر الباحثون الكيفيون على استعمال النظرية في بحثهم، وإنما هم يسهمون في خلقها أيضا. وتُعْتَبَر البيانات التي تَحصَّلنا عليها من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة مثالاً لمَدَى قُدرة كتابة الفئات التصنيفية وتحليلات الموضوعات المختلفة على الوصول إلى خلق النظرية. وفي تلك الحالة، وبعد استخلاصنا للموضوعات الأساسية من النص المدون للمقابلات، يتوفر لدينا عدد من الموضوعات الأساسية التي تبدو مُرتبطة بموضوع أساسي وأكثر

عمومية له صلة بآمال وتطلعات الأفراد المُتعلقة بصورة الجَسَد عندهم. وفي هذه اللحظة تَتَبلْور النظرية، حيثُ نستعين ببياناتنا الإمبيريقية في استخراج الأحكام العامَّة ذات الصلة بالعلاقات بين طائفة من الآمال والتطلعات الشخصية، والقابلية للتعرُض لاضطرابات الجَسَد.

ويطبقُ الباحثون النظرية على امتداد خطوات العملية البحثية، كما أن رؤيتهم النظرية تكون مرتبطةً باعتقاداتهم الإبستمولوجية. والبحث، بصورة عامَّة، يمكن إجراؤه باتخاذ منحى استدلاليٌ أو منحى استقرائي. أمَّا اختيار ما إذا كان المشروع البحثيُ يعتمد على المنطق الاستدلالي أو المنطق الاستقرائي، فهو أمرٌ يرتبط ارتباطاً مباشراً بمدى تخيُّل النظرية الكامنة في ثنايا المشروع البحثي ومَدى الانتفاع بها فيه، كما يَرتبط بما إذا كان قد تمَّ توليدُ نظريةٍ جديدة من هذا المشروع أم لا. ومن المعهود أن يستعمل **المنحى الاستدلالي** في البحث الكمِّي الوضعي، وأن يشتمل هذا المنحى على فحص النظرية واختبارها.

في الدراسات الكمية، يَستعمل المرء النظرية على نحوٍ استدلالي كما أنه يتخذها منطلقا له منذ بداية الخطة الخاصة بهذه الدراسة. ونظراً لأن الباحث يهدف إلى اختبار أو تحقيق نظريةٍ ما أكثر من استهدافه تطويرها، فإنه يتبنى إحدى النظريات، ثم يشرع في جمع البيانات ليختبر بها النظرية، ويُمعن النظر في مدى ما تُقدمه هذه النتائجٍ من برهنة على صحة هذه النظرية أو نقضها لها. وتُصبح النظرية إطاراً للدراسة بأكملها، أي نموذجاً يُنَظِّمُ الخطوات الخاصة بجمع البيانات.... فالباحث الكميُّ يختبر النظرية أو يتحقق منها عن طريق فحصه للفروض أو الأسئلة المُستمدة من هذه النظرية .(Cresswell, 2003, p.125-126)

هذا النموذج مختلف أشد الاختلاف عن الاتجاهات الاستقرائية في البحث، والتي من المعهود أن يستعملها الباحثون الكيفيون. فالباحثون الكيفيون معنيون بتوليد النظرية. ولأن الباحثين الكيفيين يضعون هذا الأمر نصب أعينهم، فإنهم كثيرا ما يَعتمَدون على **النماذج الاستقرائية** التي تستخلص فيها النظرية استخلاصا مباشراً من البيانات. وإن مثل هذا النموذج الذي يكثر

استعماله على يد الباحثين التأويليين والمفكرين النسويين (ولو أن هذا الاستعمال ليس مقصوراً عليهم فقط، كما أنه لا يتمُّ بصورة موحدة) هو نموذج النظرية الموثقة. ومع أننا نناقش هذه القضية بمزيد من التفصيل لاحقاً في هذا الكتاب عندما نتناول الاتجاهات الخاصة بالتحليل والكتابة، إلا أن النظرية، وفي ظل هذا الاتجاه "الكيفي" تتولد بصورة مباشرةٍ من البيانات الإمبيريقية. وبتعبيرٍ آخر، يقوم الباحثون الكيفيون، عن طريق انتفاعهم بالسرديات التي تم إنتاجها أثناء إجراء المقابلات، أو في البحث الإثنوجرافي، أو في النصوص (وذلك في حالة القيام بتحليل المضمون) يقوم هؤلاء الباحثون الذين يستخدمون الاتجاهات الاستقرائية بالانتفاع بهذهِ البيانات الإمبيريقية في بلورة نظريات أكثر عمومية وأوسع نطاقا عن الحياة الاجتماعية تنبثق من واقع الناس الذين يعيشون ذلك الجانب الذي تجري دراسته من جوانب الحقيقية الاجتماعية. وسوف نستوفي إيضاح هذه القضايا فيما بعد. بجانب ذلك، فإن من المهم الآن أن نفهم الفارق الأساسيَّ بين اختبار النظرية وتوليدها، أو قُلْ: النهج الاستدلالي في مقابل النهج الاستقرائي في تحصيل المعرفة، وذلك لأن هذين النموذجين البحثيين يحملان عدة دلالات تتصل بطبيعة المعرفة نفسها. وربَّما يمكن فهم العلاقة بين النظرية والإبستمولوجيا على أفضل الوجوه من خلال مثالٍ أو شاهد بحثي.

مثال ذلك، أنه إذا تقرر أن ندرس العلاقة بين الثقافة الرأسمالية الأبوية (الذكورية) واضطرابات الجسد الموجودة بين الفتيات والنساء، فقد نتبنى توجها نظريا نسويا راديكاليا. ويَشتَمِل هذا الإطار النظري على نقدٍ للنظام الأبويِّ باعتباره مصدراً لأشكال "العنف" الجسدية وغيرها من أشكالِ العنف الموجَّه ضدَّ الفتيات والنساء، بما فيها من مقاييس الجمال المتأثرة بالنظام الأبوي (Ritzer, 2000, p.462). وبتعبيرٍ آخر، يُسلِّم هذا التوجه النظري بوجود علاقة عامَّة بين قهر النساء ومقاييس الجمال المعاصرة التي تعكسُ الاهتمامات الرأسمالية الأبوية وترتبط بها بطريقة أخرى أحياناً (Hesse – Biber, 1996). ومن الأرجح أن تضطلع الإبستمولوجيا النسويَّة بتوجيهِ وتشكيلِ توظيف هذا الإطار النظري النسوي المتطرف. ويَعني هذا أننا نأتي

بمُسلَّمات مُعينة لتؤثر على مشروعنا البحثي، بما فيها من الفكرة التي تذهب إلى أن من الممكن معرفة العلاقة بين الممارسات الأبوية على المستوى الاجتماعي العام والاضطرابات المتعلقة بصورة الجَسَد والتي تَشْعُرُ بها المبحوثات على كل من المستوى الكبير والمستوى الصغير (الماكرو والميكرو) للتحليل. زدْ على ذلك، أننا نُسلِّم بأن بالإمكان أن تكون النساء عارفات، وبالإمكان أن تكون هموم النساء هي موضع التحليل، ونحن نسلم كذلك بأن الحقيقة الاجتماعية تتأثر بالفعل بالأساليب الأبوية والرأسمالية في رؤيَة العالم، وهي المسلمات التي يتعين علينا إيضاحها ونشرها بين الناس. وسوف يزداد هذا الموضوع وضوحا في الفصل الثاني من هذا الكتاب عندما نناقش مسألة "النماذج النظرية" أو "رؤى العالم".

طرق البحث بوصفها أدوات بحث

عندما يتكلم الناس عن البحث العلمي، يكون اهتمامهم منصباً في كثيرٍ جداً من الأحيان على طرق جَمْع البيانات، ومع ذلك فإن **طرق البحث** مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإبستمولوجيا والنظرية. ويَقِفُ الباحثون الكيفيون في مَوْقِع الصدارة من حيث الاعتراف الصريح بوجود علاقة رابطة بين طريقة البحث ونظريته، ومن حيث الاهتمام بها في بحوثهم، وذلك في مواجهة من ينكرون هذه العلاقة. وطُرق البحث هي الأدوات التي يستخدمها الباحثون لكي يجمعوا البيانات. وتُتيح لنا هذه الطرق الخاصة بالإحاطة بالحقيقة الاجتماعية أن نجمعَ البياناتِ من الأفراد، والجماعات، وكذلك من النصوص الموجودة في وسائل الاتصال المتعددة باعتبارهم مصادر معرفتنا. وتُقدم ساندرا هاردنج Sandra Harding تعريفاً لطُرق البحث على النحو التالي:

تُعتبر طريقة البحث أسلوباً.. لجمع الشواهد والأدلة. وإن بإمكان المرء أن يقول -بحق- إن كل أساليب جمع الشواهد تندرج ضمن واحدة من الفئات الثلاث التالية: الإنصات إلى الإخباريين (أو سؤالهم)، أو ملاحظة السلوك، أو فَحْص الآثار والسجلات التاريخية (Sandra Harding, 1987,p.2)

وكثيراً ما يَستعمِلُ الباحثون الكيفيون واحدة أو أكثر من طُرق البحث التالية (ولو أن هذه القائمة ليست قائمة حَصرية لهذه الطرق): البحث الإثنوجرافي، وإجراء المقابلات المتعمقة، والتاريخ الشفاهي، والبحث الإثنوجرافي الذاتي (أي الذي يكتبه الباحث بنفسه عَنْ نفسه–المترجم)، وإجراء المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، ودراسة الحالة، وتحليل الخطاب، وتحليل المضمون. وكما ترى، فإن الباحثين الكيفيين يستعملون طائفة متنوعة الأشكال من طرق البحث، جاعِلين بذلك الموضوعات والأسئلة البحثية الممكنة مُتَّسِعَةً باتساع ما لدينا من صور الخيال.

في مقابل ذلك يستخدم الاتجاه الكميُّ مجموعةً مختلفة من طُرق البحث، والتي تمثلها بصورة نموذجية: التجارب، والمُسُوح/ أو الاستبيانات، والتقييم، وتحليل المضمون، والتحليل الإحصائي. ولما كان الاتجاه الكميٌّ قائماً على أساس المُسَلَّمات الوضعية (ولو أن الباحثين من الآخذين بوجهات نظر إبستمولوجية أخرى، بما فيها وجهة النظر النسوية، يستعملون التصميمات البحثية الكمية)، فإن طُرق القياس تكون ملائمة لهذا النسق الاعتقادي الفكري والإبستمولوجي، وهو النسق الذي يوجه الباحثين في اختيار طُرُق البحث وتطبيقها. ووفقاً لذلك، فإن هذه الطرق هي تلك التي تأخذُ بعين الاعتبار مسألة اختبار الفروض وتنتهي بتقديم نتائج رقمية كمية.

وقد يصف بعضُ الباحثين طُرق البحث الكيفية وطرق البحث الكمية بأساليب نمطيةٍ جامدة. فبالعودة إلى التفكير فيما قدمناه من مُقارنة بحثية لصورة الجسد بين الاتجاه الكميٍّ والاتجاه الكيفي، فإن ما تقدّمُهُ المُسُوح من بيانات قابلة للقياس قد تُسمىَ بياناتٍ علمية، وتتصف بالثبات، وتمثيل مجتمع البحث، والصدق، والموضوعية. وبالمثل، قد توصف البيانات الوصفية الحية المستمدة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة بأنها بيانات رخوة وقصصية، ومحددة بالأوضاعِ والظروف، وجزئية وذاتية. وكما يُمكن أن ترى، فإن هذه الصفات جميعاً تجعل طرق البحث الكيفية تبدو وكأنها أقلَّ أهميةً من طرق البحث الكمية. وهذا الترتيب التدرجي القديم العهد والناجم عن التفكير النمطي الجامد، والذي يضعُ البحث الكمِّيَّ في رُتْبة أعلى من البحث

الكيفي ليقوم في كثيرٍ من الأحيان على أساس طرق البحث المستخدمة ونـــوع البيانات التي تُنتجُها هذه الطرق. فمـــن الواضـــح أن أدوات القيـــاس الكميـــة يُفتَرَض فيها أنها دقيقة، كما يُفتَرَضُ تَبعاً لـــذلك أن البيانـــات الناتجـــة مـــن استعمالها تترسخ بناءً على التسليم سلفا **بصدقها**. أمّا طُرق البحث الكيفية ذات النهايات المفتوحة والقائمة على تَتَبُّع موضوعاتها، والمتمثلـــة فـــي المقابلـــة، والملاحظة، وتحليل المضمون، فإنه يُفتَرَض فيها -وبوصفها مقـــابلا لطـــرق البحث الكمية- أنه يَنقُصها الصدق وهـــي تَـــسعى للوصـــول إلـــى العمـــق والأصالة. وإن من المهم أن نضع نصب أعيننا أن مفهومنا عن "الصدق" إنما ظهر وتبلور في ارتباط مباشرٍ مع العلم الوضعي، والذي يُعَدُّ المقياس الـــذي يقاس به الصدق.

وقد تَسَبَّبَتْ الاتجاهات الكيفية في جعل مفهومنـــا للمـــشروعية نفـــسه موضعاً للخلاف والجدال، وذلك بالرغم من أن الترتيب التدرجي القديم العهـــد (الذي يُعطى البحث الكميَّ رتبةً أعلى من البحث الكيفي) يَظَلُّ مسألة خلافيـــة كذلك. وقد مارس هذا التفضيل للمذهب الوضعي ضغطا رهيبا على البـــاحثين لكي يمتثلوا لهذا النموذج البحثي المُتوارث والذي يَحظَى بالمزيد من القبول. إذ سرعان ما يكتشف الباحثون-الذين يَسعَون للحصول على تمويلٍ لدراســـاتهم- أن البحث الكمّي الوضعي هو الذي يَحظَى بالتمويل في كثير مـــن الأحيـــان، والتمويل بمبالغ ضخمة، وأن فرصته أرجح من فرصة البحث الكيفي فـــي أن يُنشرَ في المجلات العلمية المُحكمَة من المستوى الأرقى. وترتبط هذه الحقائق المادية بالطريقة التي يُنظَرُ بها إلى أعمال الباحثين الكيفيين داخلَ مؤســـستهم الأكاديمية وبين نظرائهم في نفس التخصُّص. وتؤدي هذه الآليـــات الخاصـــة بتفضيل البحث الكمي، وكذلك مكافأة الباحثين المتوائمين مـــع هـــذا النمـــوذج المُعتمد؛ يؤديان معا إلى إيجاد بيئاتٍ تَتَعرَّض لضُغوط شديدة الفعالية تتغلغـــل فيها، وهى نفسها التى يَتَوَجَّبُ على الباحثين الكيفيـــين أن يعملـــوا بـــداخلها. وسوف نواصل مناقشتنا لمسألة الصدق في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وبالرغم من أن طرق البحث المتعددة قد تُستَعْمَل لدواعٍ مختلفة، فـــإن الباحثين الكيفيين -الذين يتعرضون للضغوط الخارجية التي تُـــشَجعُ البحـــث

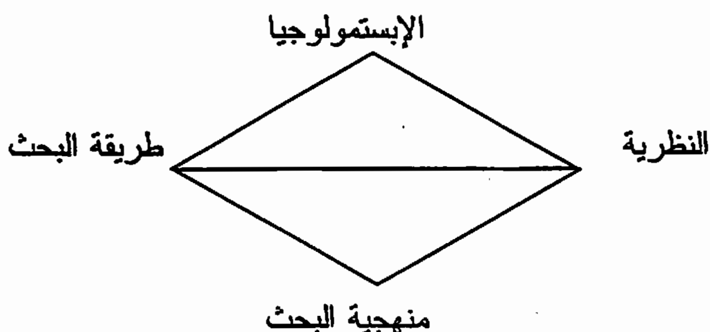
الكمي- قد يتبنون توجهات تقوم على استخدام **طرق بحث متعددة** كوسيلة للجمع بين طرق البحث الكيفية والكمية. مثال ذلك أن مادلين آلتابي (Madline Altabe 1998) جمعت بين الاتجاهين الكمّي والكيفي لكي تدرس العلاقة بين التنوُّع الإثني واضطراب صورة الجسد. فإن كان الباحث يستعمل طرق البحث الكيفي في **البحوث التي تستخدم ثلاث طرق بحثية أو بحوث توكيد نتائج دراسات سابقة**، فالأرجح أن يفضل الباحث البيانات الكمية إذا تبين وجود فرق بين النتائج الكمية والنتائج الكيفية وبدا أنها غير مُتطابقة. وبناءً على ما قلناه هنا، فإن البحث الكيفيَّ يتميزُ من حيث أنه يستعمل – في كثير من الأحيان – طرق بحث متعددة داخل سياق المشروع البحثي الواحد لكي يطرح أسئلة بحثية مُعقدة ولكي يجيب عنها.

وبجانب ما تقوم به الخطط البحثية ذات الطرق المتعددة في البحث من جمعٍ بين الأساليب الكيفية والكميَّة، فإنها قد تَظفَرُ بالبيانات الكيفية في أشكال مختلفة. ومن المهم أن نتنبَّهَ إلى أنَّ الخطط ذات الطرق البحثية المتعددة، وعند تنفيذها على خيرِ الوجوه، لا تقتصر فقط على استخدام أكثر من طريقة واحدة من طُرق جمع البيانات بُغيَةَ الحصول على "مزيد من البيانات" في حد ذاتها. ذلك أنه عند استعمال طُرق البحث المتعددة، فإن هذه الطرق تتفاعل مع بعضها وتبعث الحياة في العملية البحثية ككُلٍّ. والباحثون الكيفيونَ الملتزمون بأحد الاتجاهات الكلية في بناء المعرفة يدركون هذه الحقيقة إدراكا تاما. يضاف إلى ذلك أن الخطط التي تَستَعمل طرقاً مُتعددة في البحث تساعدنا في صياغة أسئلة بحثية جديدة لم يكن من الممكن صياغتها بدون هذه الطرق. وبالمثل، فإن المشروعات التي تستعمل طرقاً بحثيةً متعددة تساعدنا على تناول أسئلة سبق طرحُها من قبل فتطرحُها بأساليب جديدة وتكون ذات مدى أبعد في كثير من الأحيان. بل يصل الأمر إلى أن بعض الخطط القائمة على طُرق بحثية متعددة قد تؤدي إلى تطوير طريقة بحثٍ مستحدثة تماما.

منهجية البحث: جسر بين النظرية وطريقة البحث

تتشابك الإبستمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحث لتنشئ ما نسميه الرابطة البحثية، هذا فضلا عن أن النظرية وطريقة البحث تجمعُهما كذلك

علاقة مُتَفَردة مهمة داخلَ العملية البحثيــة. وإن الميثودولوجيــا أو **منهجيــة البحث** هي التي فيها تلتقي النظرية بطريقة البحث لكي يُقدما معاً دليلاً لخطــة البحث ودليلاً يسرى في جميع أجزاء هذه الخطة ابتداءً من صــياغة الأســئلة مرورا بالتحليل وصولا إلى عرض النتائج. وتشرح هاردنج ذلك بأن منهجيــة البحث هي بمثابة نظرية تبين كيف سينفذ البحث أو كيف ينبغي أن يأخُذ مجراه (١٩٨٧، ص٣). ومنهجية البحث هي الجسر الذي يجعل النظريــة وطريقــة البحث، أو قُل يجعل المنظور الفكري وأداة البحث يلتقيان معاً. ومن المهم أن نتذكر أن هذا جسر ينتقل عليه الباحث في كل خطوة مــن خطــوات عمليــة البحث. معنى ذلك بعبارة أخرى أن منهجية البحث تدمج النظريــة وطريقــة البحث في كيان واحد، مؤديةً بذلك دور الموجه الإستراتيجي -ولكن المــرن- على امتداد التجربة البحثية. ولأن منهجية البحث منهجية مرنة، فإن بالإمكــان تغييرها أثناء البحث إلى المدى الذي تَسمَحُ به معتقدات الباحث الإبستمولوجية فيما يتعلق بالتعديل والتحوير. ومن المرجح أن يؤثر تصوُّر الباحــث للذاتيــة والموضوعية على ما إذا كان سيراجع منهجية البحث الخاصة بهمــا بُمجَــرَّد البدء في جَمع البيانات أم لا.



شكل ١/١ منهجية البحث: الجسر الرابط بين النظرية وطريقة البحث.

شاهد ذلك أن الباحثة النــسوية إنجريــد بــوتنج Ingrid Botting, (2000) أجرت دراسة على خدم المنازل ابتــداء مــن ســنوات عــشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين الذين هاجروا إلى إحدى المدن الصناعية الصغيرة في نيوفاوندلاند (بكندا) للعمل بها. وقد قامت مرتَين بتعديل مَشروعها البحثــي في ضوء مدى إمكانية الوصول إلى البيانات وعلى ما تحصلت عليه من نتائج

أولية، وهو الأمر الذي أدى إلى نوعٍ من إعادة تشكيل البحث. وتُبيِّن تجربة بوتنج مدى أهمية التأمُّل النقدي (الانعكاسية) في العملية البحثية وكذلك مَدى أهمية ما يتصف به البحث الكيفي من طبيعة كليَّة وخضوع لمقتضيات العملية البحثية (فقد جمعت دراستها بين التواريخ الشفاهية للأفراد وإحصاءات التعدادات السكانية). ومن خلال قيامها بعملية تأمل نقدي دقيق، كانت بوتنج قادرة على "قراءة هذه البيانات"(*) وفهمها وترتيب النتائج عليها. ولذلك استطاعت، في نهاية الأمر، ومثلما استطاع كثير من الباحثين الكيفيين النسويين، أن تبدعَ خطةَ بحثٍ تكون فيها البيانات قادرةً – أفضل ما تكون القدرة – على "التعبير عن نفسها".

بينما توجد طرق بحثٍ تزودنا عموما ببيانات كيفية، ومنها مثلاً طريقة التاريخ الشفاهي، وطريقة المقابلة المُتعمّقة، وطريقة البحث الإثنوجرافي، فإن بالإمكان استعمالَ طُرق بحثٍ أخرى كثيرة، كطريقةِ تحليلِ المضمون مثلاً، بأسلوب كيفي وبأسلوبٍ كميٍّ على السواء. وكما ظهرَ لنا من استعراض الاتجاهات التي تستعمل طرق بحثٍ مُتعددة، فإن الباحثين الكيفيين كثيراً ما يستعملون طُرق بحثٍ توفر بياناتٍ كمية. زد على ذلك أن التوجهات النظرية لا هي كيفية ولا هي كمية بحُكم طبيعتها، وهو الأمر الذي بَرهن عليه الباحثون الكميون الذين يلتزمون بوجهةِ نظرٍ نسوية أو الباحثون الذين يجرون بحوثًا نسوية إمبيريقية يتبنون فيها توجّهاً وضعياً. فالباحثون النسويون ينتفعون بتلك التشكيلة الكاملة من طُرق البحث المتوافرة، بما فيها المسُوح الاجتماعية، والتي من شأنها أن تزودنا بنتائج كميَّة. وسوف نتوسَّعُ الآنَ في شرح الإسهامات التي قدَّمَتْها الحركة النسوية وغيرها من التوجهات النظرية لإثراء وتنويع ودعم تقبل البحوث الكيفية والإقبال على ممارستها. وفوق ذلك، سوف نبيِّنُ الطريقة التي بمُقتضاها تنظرُ جميع توجهات الممارسة البحثية الكيفية -كل بأسلوبه- إلى البحث باعتباره عملية كُلية، كما سنُبيِّن كيف وسَّعَتْ هذه الاتجاهات نطاق أفكارنا الخاصةِ ببناء المعرفة.

(*) في الأصل الإنصات إلى هذه البيانات، والمعنى في كل الأحوال هو: قراءتها قراءة فاهمة مستوعبة. (المراجع)

كنا – حتى الآن – نناقش موضوع البحث الكيفي تحت مَظلة التراث التأويليّ، واقتصرنا على التلميح أو الإشارة إلى الاختلافات الموجودة في التطبيق الكيفي. فمع أن البحث الكيفي يتمُّ إجراؤه بصفةٍ عامَّة انطلاقاً مِن وجهةِ نظرِ أحد الاتجاهات الاستقرائية، وعلى الرغم مِن أنه يهدف إلى استخلاص المعنى الاجتماعي، وفهْم العمليات الاجتماعية، وتوليد النظرية، فإنه تُوجد وجهات نظر كثيرة أخرى يتمُّ إجراء البحث انطلاقاً منها. وهذه الرُّؤى والاتجاهات تختلف فيما بينها اختلافاً هائلاً، مما يجعلها تُقَدِّم للعُلماء الاجتماعيين تشكيلةً من الأساليب لمزاولة البحث الكيفي، بجانب ما تُقدمُهُ لهم من الأساليب المتنوعة في التفكير في المعرفة وفي إنتاجها.

ما بَعْدَ الوضعية

يرتبطُ البحثُ الكيفيُّ – كما هو معروف – بالمنظورات الفكريَّة التأويلية، والنسوية، والنقدية، ولا يرتبط بالمنظور الفكري الوضعي ولا بالمنظور الفكري لما بعد الوضعية، وهما المنظوران اللذان يمثلان نقطة انطلاقِ الباحثين الكميين في عملهم؛ ومع ذلك توجد حالاتٌ لباحثين يعملون انطلاقاً من اتجاهاتٍ وضعيةٍ واتجاهات ما بعد الوضعية في ممارسة البحث الكيفي. وقد ناقشنا حالاً المعتقدات الأساسية للوضعية، لذلك فإننا سنتناول هنا – بصورة موجزة – ما بعد الوضعية باعتبارها اتجاها غير نمطيٍّ بالنسبة للباحثين الكيفيين.

إن **ما بعد الوضعية** توجه شديد الشبه بالوضعيَّة، ويتمثل الفارق بينهما في أنه، عند دراسة الحقيقة الاجتماعية، تتنبَّه ما بعد الوضعية إلى أنه لا يُمكن للباحثين أن يكونوا وضعيين بصورةٍ مطلقة فيما يتصل بدعاواهم المعرفية (Creswell, 2003, p.7). وللتخلص من الفكرة الوضعية الخاصة **بالبرهنة على وجود** العلاقات العلِّية التي يتكوَّنُ منها العالم الاجتماعي، يقوم الآخذون بما بعد الوضعية **ببناء الدليل** (أي تجميع الشواهد) لتأييد نظرية قائمة من قبل. وبتعبير آخر، يحاول الآخذون بما بعد الوضعية، باعتمادهم على المنطق الاستدلالي واختبار الفروض؛ يحاولون خلق الدليل الذي يُعزز أو يُفند إحدى

النظريات، وإن لم يكن ذلك بصورة مُطلقة. وموجَزُ القول، إن ما بعد الوضعية تسلم بوجود حقيقة موضوعية "موجودة خارجيا": وتتكون من علاقات السبب والنتيجة القابلة للاختبار. وعلى ذلك فإنَّ الحقيقة موجودة بصورة مُستقلة عن الباحث وعن المشروع البحثي. فهؤلاء الباحثون، وباعتمادهم على المنطق الاستدلالي، يشتغلون بالقياس وباختبار الفروض لكى يُنشئوا الدليل الذي يؤيد، أو يُفند، نظرية موجودة من قبل. وكما ترى، فإن هذا المنظور الفكري (لما بعد الوضعية) إذا أدخلنا في اعتبارنا ما به من مُسلَّمات تتصل بالحقيقة وبناء المعرفة، فسوف نتبين أنه أكثر توافقاً مع التحليل الكمِّي؛ ومع ذلك، فإن بَعْضَ الباحثين الكيفيين قد يختارون -أيضا- أن يعملوا انطلاقاً من هذا النوع من أُطُرِ العمل النظرية.

ويعمل الباحثون الكيفيون -بصورة عامة- تحت المظلة التأويلية (وهو مصطلح نستعمله بشكل فضفاض)، وإن كان هذا لا يعني أن هؤلاء الباحثين يتَّبعون التراث التأويلي في حد ذاته. وبعد أن فرغنا تَوا من استعراض موضوع التراث التأويلي، سوف نتكلم الآن عن غيره من المنظورات الفكرية الرئيسية التي تقع ضمن إطار عمل أكثر تأويلية، وتميل إلى دراسة العالَم الاجتماعيّ باعتباره ذا بنيةٍ اجتماعيّة محددة. وسوف نناقش، على وجه الخصوص، ما قدمته المنظورات الفكرية الإثنوميثودولوجية، والظاهراتية، والنسوية، والنقدية من إسهامات فى مجال البحث الكيفى. ولم يقتصر ما قدمته هذه الاتجاهات من إسهامٍ كبير على البحث الكيفي فقط بل شمل هذا الإسهام أيضاً تصوراتنا عن الحقيقة الاجتماعية، والمعرفة، وإنتاج المعرفة. فهذه الاتجاهات تُعَدُّ مواقف نظرية وإيستمولوجية بعيدة الأثر وشديدة الاتساع تنطوي في داخلها على كثير من الاختلافات والتنويعات. وَعلى ذلك، وكمُقدمة لهذه الاتجاهات، سوف نتكلم عنها بصورة عامَّة أساساً. ويُرجَى التَّنبُّهُ إلى أن استعمالنا للتعميمات يعني أننا سوف نغض الطرف عن كثير من الاختلافات الدقيقة، والفوارق، والتوترات الموجودة داخلَ هذه المنظورات الفكرية، ومن ثم فلن نتناولها في مناقشتنا. وللحصول على مناقشة أكثر عُمقاً لهذه الموضوعات، يرجى الرجوع إلى كتابنا بعنوان "المدخل إلى البحث النسوى" .(Hesse-Biber & Leavy, A Feminist Research Primer, Sage)

الظاهراتية

ترجع الأصول الأولى للظاهراتية (الفينومينولوجيا) إلى القرن التاسع عشر(*)، والتي ظهرت في جانب منها كنقدٍ للوضعية. وكان المفكرون الظاهراتيون ينتقدون العلوم الطبيعية لأنها تُسلِّم بوجود حقيقة "موضوعية" مستقلة عن الوعي الفردي. وترتبط الظاهراتية ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة الأوروبية في مطلع القرن العشرين، والتي من أشهر مؤلفاتها أعمال الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Husserl (هوسرل، ١٩١٣ [باللغة الألمانية] وتُرجِم "إلى الإنجليزية" في سنة ١٩٣١؛ وانظر أيضاً هيدجر Heidegger)، كما ترتبط بالمفكر الظاهراتي الفرنسي ميرلو-بونتي Merleau-Ponty (١٩٩٦). فقد كان هوسرل مهتماً بالوعي الإنساني باعتباره الطريقِ الموصِّل إلى فهم الحقيقة الاجتماعية، وخاصَّة ما يتصل بالطريقة التي بها "يُفكِّر" المرء في الخبرة التي يعايشُها. أو بتعبير آخرٍ، "كيف يَشعر المرء بوعيه". وفي رأى هوسرل، أن الوعي يكون "مُتعمداً" على الدوام، وبهذا المعنى، فإنه يكون مُوجهاً إلى ظاهرةٍ ما. ويُمكننا فهمُ الطريقة التي يعمل بها الوعي من إدراك الطريقة التي يَخلُقَ بها الأفراد فهمهم للحياة الاجتماعية. وكان هوسرل مهتماً بصفة خاصة بمسألة: كيف يعيش الأفراد خبرتهم بصورة واعية. كيف يتأتَّى لنا أنْ نُصبح واعين بخبراتنا؟ وقد نقل ألفرِد شوتز Alfred Schutz(١٩٦٧) – وهو أحد رِفاق هوسرل– الفلسفةِ الظاهراتية إلى علم الاجتماع الأمريكي. فقد كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالطريقة التي يدمج بها الأفراد خبرتهم في حياتهم اليومية. فالظاهراتية ليست فلسفة فقط وإنما هي –إلى جانب ذلك– طريقة من طُرق البحث التي تهدف إلى إدراك ما يُعايشُه الأفراد من خبرات. والظاهراتيون مهتمون بمسائل من قبيل:

- كيف يَخبُرُ الأفراد الموت أو الاحتضار؟ (Kubler-Ross, 1969)
- كيفَ يَخبُر المرءُ الاكتئاب؟ (Karp, 1997)
- كيف يَخبُر المرء واقعة الطلاق؟ (Kohler-Riesman 1987).

(*) ورد في النص الأصلي لفظ "القرن الثامن عشر"، وصحته "القرن التاسع عشر"، لأنه يتحدث عن الظاهراتية كاتجاه ينتقد الوضعية، والوضعية ظهرت في القرن التاسع عشر، حيث عاش واضعها أوجست كونت بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨٥٧ (المترجم).

ويرى المفكر الظاهراتي أنه لا توجد "حقيقة واحدة" للطريقة التي يمكن أن نخبر بها هذه الأحداث. ذلك أن الخبرة إنما تُدرَكُ إدراكاً حسياً بالتوازي مع مجموعة متنوعة من الأبعاد والتي منها: كيف تعاش الخبرة في الزمان والمكان وفي مواجهة علاقتنا بالآخرين، وكذلك كيف تُعاش الخبرة الجسدية. ويستعمل الظاهراتيون مجموعة متنوعة من طرق البحث، بما فيه الملاحظة، والمقابلة المتعمقة، وطريقة فحص الروايات المكتوبة للخبرات والموجودة في موادَّ كاليوميات مثلاً. لذلك فإن نمط السؤال الذي قد يُطرح في إحدى المقابلات ويتعلق بخبرة من الخبرات المذكورة هنا بعاليه يمكن أن يكون:

- هل تستطيع أن تُخبِرَني ما معنى أن تعيش حياة الاكتئاب (مهددا بالموت الوشيك أو الطلاق)؟

وموجز القول إن الظاهراتية منظور فكري استهدف توليد المعرفة المتصلة بالطريقة التي يعي الناس بها الأمور.

الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)

تعتمد الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) على الفلسفة الظاهراتية وترتبط بها في كونهما تُركزان على العملية التي بها يفهم الأفراد العالمَ الذي يعيشون فيه ويُضفون عليه مَعنىً من معاني النظام. ويهتم المفكرون الآخذون بمنظور منهجية الجماعة اهتماماً خاصاً بالطريقة التي يتمُّ بها تداول المعنى في سياقٍ اجتماعي معين من خلال عملية التفاعل مع الآخرين. وقد تم الترويج لمنهجية الجماعة كمنظور فكريّ في حقل علم الاجتماع خلال ستينيات القرن العشرين، من خلال كتاب هارولد جارفينكل Harold Garfinkel (١٩٦٧). ويطرحُ مُفكرو الإثنوميثودولوجيا أسئلة من قبيل الأسئلة التالية:

- كيف يفهم الناس حياتهم اليومية؟
- ما هي الإستراتيجيات المعينة – وبالذاتِ ما يبدو منها بديهيا – التي يستعملها الأفراد في عملية صناعة المعنى (أي إضفاء المعنى)؟

ويرى المفكر الإثنوميثودولوجي أن الحياة الاجتماعية يتمُّ خلقُها وإعادة خَلْقِها بناءً على الفهم الدقيق الذي يضفيه الأفراد على "السياقات الاجتماعية" لحياتهم اليومية. ويستعمل مفكرو منهجية الجماعة طائفةً من طرق البحث

اللازمة لمباشرة عملهم في فهم عملية صناعة المعنى، وتتراوح هذه الطرق بين طريقة ملاحظة الأفراد في المواقف الطبيعية أثناء مباشرتهم لأمورهم اليومية المتكررة، وطريقة الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة. ويهتم مفكرو الإثنوميثودولوجيا بصورة خاصة بالطريقة التي بها يشارك الأفراد في الحوارات المتعلقة بخبراتهم، فيتساءلون – مثلا – عن:

- كيف يتمُّ خلق المعنى في الحوارات اليومية التي يُجريها الأفراد فيما بينهم؟

وكما ترى فإن هذا التراث يتلاءم مع الطرق الكيفية. وبتعبير آخر، تتوافق المبادئ والأسس النظرية الرئيسية فى الإثنوميثودولوجيا مع طريقتى الملاحظة والمقابلة اللتين تحتلان مكان الصدارة فى ممارسة البحوث الكيفية.

المنظورات الفكرية النسوية

تطورت المنظورات النسوية باعتبارها أسلوباً لمعالجة الهموم أو المشاغل والخبرات الحياتية للنساء والفتيات اللاتي – وبسبب التحيز الذكوري الشائع- أمْضَينَ زمناً طويلاً وهنَّ مُستبعدات من مجال بناء المعرفة سواءً كُنَّ باحثات أم كُنَّ مبحوثات (أى موضوعات للبحث). ويُعدُّ تاريخ مقاومة التحيز الذكوري في العملية البحثية، والذي أعقَبَهُ دخول النساء في مجال البحث العلمي الاجتماعي، يُعدُّ من الأمور المهمة والمثيرة للاهتمام؛ وإن كان أمراً هامشيا بالنسبة لمجال الاهتمام الرئيسي لهذا الكتاب. وقد آل هذا الوضع إلى دخول النساء في العملية البحثية، ولو أن العملية البحثية نفسها ظلت على حالها لا اعتراض عليها. وبمرور الزمن، آل أمرُ الباحثين الذين يعملون انطلاقاً من وجهة نظر الفكر النسوي إلى التنبُّه إلى أن إضافة النساء إلى الأطر الفكرية الموجودة على الساحة بالفعل – كالوضعية مثلاً – إنما تكرر عملية إنتاج المعرفة المتبعة تقليديا، وهو التكرار الذي يتم في وقتنا هذا بعد دخول النساء في هذا المجال – من الناحية العددية على الأقل- (للاطلاع على مناقشة مُتعمِّقة لهذا الموضوع، يُرجى الرجوع إلى كتابنا "المدخل إلى البحث

النسوي"). وهذه هي النقطة التي يَنْدَمجُ فيها حوارنا عن الفكر النسوي والبحث الكيفي مع هذا التقدم التاريخي.

بدأ كثير من المفكرين النسويين في التَّشَكُّك في طبيعة بناء المعرفة نفسها، مُدركين – على الدوام – أن الاهتمامات الجوهرية الجديدة وما يتصل بها من قضايا ومسائل بحثية (تتركز حول النساء) تتطلب استعمال أساليب جديدة في التفكير في البحث العلمي وفي مزاولته. وفي هذا الاتجاه بدأ بعض المفكرين النسويين في الاعتراض على المُسلَّمات الإبستمولوجية الرئيسية التي ترتكزُ عليها الفلسفة الوضعية. وقد أدَّت هذه الاعتراضات المبدئية إلى نوعٍ من تجلية الحقائق المتعلقة بهذا النموذج السائد وبما أعقَبَهُ من التحوُّلات والتغيرات في موضوع: ما الذي يمكن اعتباره قابلاً للمعرفة، وموضوع: كيف نتحصل على المعرفة.

وبصورة عامة، يعترض الفكر النسويُّ على ما يَسودُ الوضعية من **تفكيرٍ ثُنائي**، ومِنْ ثم يزودنا بأساليبَ بديلة للتفكير في الحقيقة الاجتماعية، وللتفكير – بالتوازي مع ذلك– في العملية البحثية. وينتقد المفكرون النسويون الفصلَ بين الذات والموضوع (أي بين الباحث والمبحوث) باعتباره نوعاً من الازدواجية الزائفة التي تُعَدُّ في ذاتها ازدواجية مَعيبَة، ومُصطَنَعةَ وغير مرغوب فيها مُطلقاً. ولهذا الانتقاد الذي يوجهه الفكرِ النسوي للفصل بين الذات والموضوع جُذورهُ الموجودة في الجهود المُبكِّرة التي بذلها المفكرون النسويون لفضح ومقاومة استبعاد النساء عن البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والطبيعية. شاهد ذلك أن هالبين Halpin (١٩٨٩) يربط – على نحو له دلالته– بين الموضوعية العلمية التقليدية والعملية العامة "للوصف بالمُخالفة" (أيٍ وصفُ الغير بأنهم مختلفون عنا Othering، وهي العملية التي بمقتضاها اعتبرت النساء، والملونون، والأقليات الجنسية(*) "مخالفين "Other"، وعوملوا نتيجةً لذلك بوصفهم أدنى مكانةً من العَالِمِ الذكر ذي

(*) المقصود بذلك الجنسيون المثليون، الذين كانوا يعدون من وجهة نظر الأغلبية "آخرين" أي "مخالفين" أو "مختلفين" (المراجع).

الميول الجنسية الطبيعية(*)، الأبيض اللون، الملتزم بالتقاليد. وقد أدّت هذه العملية إلى ممارسة عملية "قهر منظم في المجال العلمي" (Halpin, 1989). وقد تمثّل أحد الأبعاد الرئيسية لهذا الاستبعاد/أو التشويه التاريخي المنظم (للمرأة، والملونين، والمثليين..إلخ). في وَضْع الباحث في مستوى أعلى من المبحوثين، لأنّ الباحث يعتَبِرُ نفسه الطرف العارف (Sprague & Zimmerman, 1993).

وقد ظهرت النزعةُ الفكريةُ النسَوية نفسُها انطلاقاً من هذا الصراع التاريخيّ، وذلك في سياق سعيها إلى الكشف عن حقائق ترتبط بالظروف المحيطة بالحدث وتتسم بأنها ذات طبيعة جُزئية، وحريصة على تحاشي الأحكام المُطلقَة التي قامت على امتداد التاريخ بقهر النساء وغيرهن من الأفراد المُهمَّشين. معنى ذلك بعبارة أخرى أن مفكري النزعة النسوية يرفضون ما لدى الوضعية وما بعد الوضعية من "رؤْية لا مصدر لها" (أي رؤية مُطلَقَة) تُسَلِّمُ بها "الموضوعية" العلمية التقليدية. وهي تفعل ذلك من أجل خلق "رؤية لها مصدرٌ ما" (Sprague & Kabrynowicz, 1999) أي خلق رؤية ملتزمة.

(*) التعبير الأصلى heterosexual male، وطبيعى أن يترجم "الذى يمارس الجنس مع النساء" – إن شئنا ترجمة حرفية – أما إذا أردنا فهم سياق الكلام فهماً دقيقاً وشاملاً، لأن الحديث عن الميول الجنسية للأفراد سيرد فى الكتاب كثيراً، وقد فرضت ضوابط وقيود على توصيف هذا الميول. فلم يعد من المسموح به – بسبب قوة ضغط المثليين – وصف ميول الأفراد العاديين (الرجل الذى يجامع امرأة، والمرأة التى تجامع رجلاً) بأنها "الميول الطبيعية"، ولا وصف الميول المثلية بأنها "شاذة" كما نفعل نحن فى خطابنا اليومى العادى فى مجتمعاتنا العربية. من هنا أثبت هذا التعبير "الذكر ذو الميول الجنسية الطبيعية" للتوضيح، ولمرة واحدة، وسنعود إلى وصف هذا الميل "الطبيعى" بأنه الميل الجنسى "العادى"، أو الممارسة الجنسية "العادية".

ومع كل هذه التحفظات فإن هذا الكتاب نفسه سوف يستخدم فى عشرات المواضع وصفاً لصاحب الميل الجنسى الطبيعى بأنه Straight. ولو فتحنا أى قاموس لغوى سنجد هذه الكلمة مرتبطة بعشرات المعانى التى تدل على الاستقامة، والصحة، والأمر القويم، والأمين، والشريف، والمنصف العادل... إلخ وأخيراً: "مشته المغاير (جنسيا)". فوصف الطبيعى متجذر فى اللغة الإنجليزية، ولكننا مع ذلك نستخدم وصف "العادى" بدلاً من "الطبيعى" (المراجع).

ولا يَعْني هذا الكلام أن المفكرين النسويين لا يَشتبكون مع القضايا المعقدة المتصلة بالموضوعية والمتضمنة داخلَ العملية البحثية. فالواقع أن الفكر النسَويَّ لم يقتصر على مجرد الارتياب في مُسلَّماتنا الخاصة "بالموضوعية" بل قدَّم أساليب جديدة مثيرة للتفكير فيها، مضيفاً بذلك إضافة كبيرة للنظريات والممارسات البحثية. فكثير من الباحثين النسويين لا يهدفون إلى التخلي عن الموضوعية، إنما يهدفون إلى تحويرها لتتحول إلى "موضوعية نسوية" (Bhavani, 1993; Haraway, 1991; Harding, 1993).

إن الموضوعية النسوية تعني ببساطة تامة **المعارف المحددة بأوضاع أو مواقف خاصة**. (Haraway, 1988, p.581).

ويَعْني هذا أن المفكرين النسويين يسعون للارتباط بالموضوعية البَحْتَة، في نفس الوقت الذي يعترفون فيه باستحالتها، وذلك بناءً على حقيقةِ أن البحث العلمي كلَّه إنما يُجرَى داخل سياقٍ اجتماعيٍّ ما.

تهتم الموضوعية النسوية بالوضع المحدود والمعرفة المُحدَّدة بوضعٍ مُعيَّنٍ، ولا تهتم بالتعالي(*) Transcendence وفصلِ الذات عن الموضوع. إنها تُتِيح لنا أن نُصبحَ مسئولين عما نتعلَّم كيف نراه. (Haraway, 1988, p. 583).

وبعد تعريَةِ ثنائية الموضوعية والذاتية (أو الباحث والمبحوث) وضعتهما الموضوعية النسوية في علاقةٍ جَدَلية يتم الالتزام بها على امتداد العملية البحثية بأسرها. (Hesse-Biber, et al., 2004). كما كانت ساندرا هاردنج في الطليعة من هذا النقاش (Sandra Harding, 1993).

(*) التعالى (الترانسندنتالية) مفهوم فلسفى يقوم على الاعتقاد بأن الله يقف خارج العالم الذى خلقه، ويوجد مستقلاً عنه. وهى تقابل عادة فكرة الحلول، أى الإيمان بأن الله يسكن هذا العالم، أى حال فيه. ويلاحظ أن مذهب الحلول شائع فى فلسفة وحدة الوجود، التى ترى أن الإنسان والطبيعة يمثلان جانبين من جوانب كيان مقدس يحيط بكل شيء. والمعروف عادة أن الوحدانية أى ديانات التوحيد تأخذ بفكرة التعالى.

للمزيد انظر: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق. (المراجع)

وتَرى هاردنج أن التصور الوضعي للموضوعية لـيس هـو الأمـر المُشكِل، إنما يتمثل الإشكال في التطبيق المحدود "للموضوعية" داخلَ العمليـة البحثيَة الفعلية. وهذا مثال ممتاز لنوع التفكير الكلِّى الشامل الذي نعتقد أنه يسمُ البحث الكيفي بسمةِ خاصة ويُميزه عن البحث الكميٍ. وقد صَـكّت هـاردنج مصطلح "الموضوعيةِ القوية" باعتبارها وسيلة لحث البـاحثين علـى تطبيـق الموضوعية والانعكاسية (التأمل النقدي) **على امتداد العملية البحثية**. ونَعْنـي **بالانعكاسية** ذلك التساؤل المستمر عن مكان المرء (أي الباحث) ومالـه مـن علاقات قوةِ داخلِ العملية البحثية كلها. وتشرحُ هاردنج ذلك الكلام قائلـةً إن الموضوعيةِ، وعلى امتداد تاريخها، (وسواءً أكانت هي المسئولة عن إظهـار نفسها بشكلِ معيبِ أم لا) لم تُطَبَق إلا في **مجال التبرير**". ويشير هـذا الكـلام إلى التبرير الذي يُقدمه الباحث ليُبرر به "**الطريقة**" التي اتّبعهـا فـي تقـسيم المبحوثين إلى عَينات أو في اختيارهم، وفي استعمال طُـرُق البحـث، وفـي الاستيثاق من صدق أدوات القياس، وما إلى ذلك، وليس لتبرير "**السبب**" فـي قيامه بهذهِ الأمور. وباستعمال الموضوعية "**بقوة**"، تدعو هاردنج إلى التطبيق الصارم للموضوعية وللانعكاسية (النقد) على امتداد **مجال الاكتشاف** كـذلك. ويَعْني هذا أننا عندما نختارِ موضوعنا، ونبتكر أسئلتَنا البحثيةَ الأولية، ونَضَع تصميم بحثنا، ونتحرك مُتنقلين من جَمْع البيانات، إلى تحليلها، إلى عرضِـها وتصويرها، يجبُ علينا ألا ننكِر وجود تلك النزعـة الذاتيـة (أي انفعالاتنـا، وميولنا السياسية، ومواقفنا الفكرية) والتي يأتي بها كلُّ واحدِ منا للتأثير علـى البحث الذي نقوم به. وعلينا- بالأحرى - أن نَعترِف بها، ونُبـديها للعيـان، ونتعامل معها تعاملا نقدياً. والمقصود من الإسهام الكبير الذي قدَّمَتْهُ هـاردنج في مجال فهمِنا للعلاقة بين الموضوعية - والذاتية على امتداد العملية البحثية أن يكون بمثابة نموذج للاختلاف، كما يمثل إضافة للحوار الفكرى الكبير حول الموضوعية، والذي يُعَدُّ جُزءًا من الفلسفة النسوية.

ومن الأمور المرتبطة برفضِ الفلسفة النسوية -عموما- للفصل بـين الذات والموضوع، والذي سبق لنا مناقشته، انتقادها للفصل بـين "العقلـي - والانفعالي"، والذي يُعَدُّ، شأنه شأن الفصل بين الـذات والموضـوع، مكونـا

أساسيا من مكونات الوضعية بل حتى من مكونات الأُطُر الفكرية لنزعة ما بعدَ الوضعية بعد ذلك. وللمرة الثانية نقول، لا يقتصر أمر الفصل بين العقلي والانفعالي على أنه فصلٌ مُصطنَع، بل هو إلى جانب ذلك فصلٌ غيرُ مرغوبٍ فيه لدى كثيرٍ من الباحثين. وقد يَصدُقُ هذا الموقف الفكري بصورة خاصة على المفكرين النسويين الملتزمين بتحسين فُرَص الحياة للنساء والفتيات على المستوى المحلي وعلى المستوى العالمي كليهما. ويمكن القول بعبارة أخرى إن الاهتمامات الرئيسية للمفكرين النسويين تدور حول العدالة الاجتماعية، وكنتيجةً لذلك، تدور حَولَ العمل الإيجابي على الصعيد الاجتماعي، و حول التغييرات في السياسة الاجتماعية، كما أن ما لدى المفكرين النسويين من تطلعات سياسية قوية يُؤثِّر على عَمَلِهم أثناء مراحل العملية البحثية جميعها (ابتداءً من اختيار الموضوع وحتى العرض النهائي للبيانات).

وكما تَشْرَح أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1989)، وسبراج وزيمرمان (Sprague and Zimmerman, 1993)، فكثيرا ما تقوم العواطف بدور الحافز للقيام بأحد المشروعات البحثية. ويصدق هذا التصور على بحثنا عن الفتيات وصورة الجسد، والذي تبلور انطلاقاً من التزامنا السياسي والعلمي بقضايا النساء ومن خبراتنا الشخصية مع الطالبات اللاتي يعشن في أحد "قُدُور الضغط الثقافية"(*). وبالمثل، وفي حالة البحث الكيفي، والذي منه البحث الإثنوجرافي مثلاً، فإن العلاقات العاطفية المتبادلة قد تكون مصدراً مهماً وضرورياً للحصول على البيانات (Bailey, 1996). وفي نفس هذا الاتجاه، تُؤيد باتريشيا هيل-كولينز (Patricia Hill –Collins, 1990) الالتزام بشكل متعدد الوجوه من أشكال "أخلاقيات العناية" ethic of caring الموَجِّهة للباحث الملتزم تجاه موضوع بحثه. ولا شك أن الطبيعة السياسية للبحث النِّسَوي، ولأي بحثٍ يَتَمحْورُ اهتمامُهُ حَوْل الإصغاء إلى أصواتِ أولئك الذين كُتِمَتْ أصواتُهم، والذين حُكِمَ عليهم بأنهم مُختلفون، والذين تَسَبَّب النظام الاجتماعي السائد في تَهميشهم؛ تؤدِّي هذه الطبيعة السياسية للبحث النسوي،

(*): تشبيه بالمناخ الذي تعيش فيه النساء تحت الضغوط الثقافية الشديدة بوضع "حلة الطهي بالبخار"، التي يعمل فيها ذلك البخار العنيف الساخن على طهي الطعام. (المراجع).

والذي يمثله ذلك العمل الذي قام به عدد من المُنَظِّرين الشَّواذ وغيرهم ممن يعملون انطلاقاً من أُطُرٍ فكرية متعددة الثقافات، تؤدي طبيعة هذه البحوث النسوية إلى جعل مفهوم البحث "المتحرر من القِيم" أو البحث "المحايدة تجاه القِيَم" مفهوماً لا لزوم له على كافة المستويات.

وبهذا الشكل فإن الاهتمامات الاجتماعية الجديدة (النسوية) لا تَقْتَصِر على التشكيك في مدَىَ مشروعية النظرة الإبستمولوجية السائدة، بل إنها -بجانب ذلك- تكشف عن الحاجَةِ لأساليب جديدة في التفكير في المعرفة والعملية البحثِيَّةَ. وبإدخال هذا النقد النِّسوي العام والمركز- والذي يُوَجهه النسويون للوضعية ولما بَعْدَ الوضعية- في الاعتبار، تتّضح لنا الأسباب التي أدت إلى أن يَسْتَعْمِلَ عددٌ كبير من الباحثِين النسويين طُرُقَ البحث الكيفية باعتبارها الطرقَ الأساسية أو التكميلية. وبصورة عامة، تُعَدُّ المُسلَّماتُ الموجودة في طوايا الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها باستخدام طرق البحث الكيفي، كما تَعَدُّ أنواع هذه الأسئلة كذلك، متوافقةً مع مبادئ الفكر النسوي التي يُؤمن بها الكثيرون. وبصفة خاصة، فإن طرقَ البحث الكيفية المُتَّبَعة في المقابلات الشخصية وفي الملاحظة تستلزم وجود علاقات متبادلة يُوضَعُ فيها الباحثون والمبحوثون على نفس المستوى في العملية البحثية. وبالمثل، فإن طُرق البحث الكيفية تقتضي من الباحث أن يكون مشتغلاً اشتغالاً عميقاً بهذه البيانات من أجل الوصول إلى استخلاص المعنى، وفهم العملية الديناميه، وتعديل المشروع لجعلِه مناسباً (إذا كان الباحث راغباً في ذلك).

مثال ذلك، وفي حالة البيانات المستقاة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة في إطار بحثنا عن صورة الجسد، حدث أثناء القيام بعملية جمع البيانات أن اتضحَ للباحثة التي أجرت هذه المقابلات (وهي هِس-بيير) أنَّ لدَى الفتيات السود مشكلات ذات أهميةٍ محورية عندهن تفوق ما عند الفتيات البيض اللاتي سَبَق للباحثة أن أجرت مقابلاتٍ مَعَهُنَّ. وعن طريق تناول الباحثة لهذه البيانات الجديدة تَنَاولاً نقديا، استطاعت إدراك ما هو مهم في حَيَوات هؤلاء الفتيات المبحوثات.

وتتلاءم طرق البحث الكيفية مع هذا النوع من التناول الانعكاسي (النقدي)، لأن هذه الطرق تُوفِّر لنا بيانات استكشافية، وصفية تتأثر بمسار العملية البحثية بدلا من أن تقوم بمحاولة البرهنة على وجود علاقات سَببَيَّة مُفتَرضة أو تأكيدها. فلا تقتصر طرق البحث الكيفية على أن تسأل: "ماذا هناك؟"، ولكنها تهتم بقدرٍ أكبر بأن تتساءل قائلة "اشرحْ لي: كيف تجري هذه العملية، ولماذا، وما هي بالضبط، وما هي دلالتها؟. وتتم الإجابة على هذه الأسئلة من خلال المعالجة الفكرية الكلية والانعكاسية (النقدية) على كافة المستويات. ولكن بعد كل هذا، هناك ثمة عدد كبير من الفروق والاختلافات داخل النموذج الفكري النسوي. ومادام يُوجد نقاش مستفيضٌ لهذه الآراء في كتابنا الذي جعلناه بمثابة دليل نسوي لهذا الكتاب، فسوف نتناول الآن -وبصورة موجَزَة- مناقشة **إبستمولوجيا الرؤية النسوية**" بوصفها منظوراً نسوياً واحداً ينطلق منه كثيرٌ من الباحثين في بحوثهم.

إبستمولوجيا الرؤية النسوية

بالاستفادة من أفكار هيجل Hegel عن جَدَلية العلاقة بينَ السيد والعبد، وما أعقبها من أفكار كارل ماركس Karl Marx، قامت دوروثي سميث (Dorothy Smith, 1974) ونانسي هارتسوك (Nancy Hartsock بدورٍ رائد في صياغة **إبستمولوجيا الرؤية النسوية**. وتنهض هذه الإبستمولوجيا (والتي تطورت حتى صارت منهجية بحثٍ أيضا) - في جَوْهرها- على المُسَلَّمَة التي تقول إنه في عالمٍ اجتماعي ذي بنية هرمية أو تدرجية، لابدَّ من ظهور "رُؤى" مختلفة. مثال ذلك، أن للولايات المتحدة تاريخاً طويلاً مِن التورط في الإبادة الجماعية والرق والتفاوت الاجتماعي العِرقي المستمر. ويشكل هذا الوضع بيئة ذات بنية تدرجية هرمية في شتى حقول النشاط الاقتصادي، والاجتماعي والسياسي القائمة على تركيبة العرق و/أو الإثنية. ويكون للناس في مثل هذه البيئة آراء مختلفة عن العالم قائمة على هذا التصنيف العِرقيّ الذي يُجسّدونه وعلى موقعهم ومكانتهم في هذه البنية

الاجتماعية، والتي تكون بالضرورة ذات طابع تدرجي هَرَميٍّ، ومن ثم تكون بنية قائمة على التنوع.

وقد ركَّز المُنَظِّرون النسويون أساساً على الموقع الذي تشغلهُ النساء داخل بيئةٍ اجتماعيةٍ تتسم بوجود نظامٍ أبويٍّ يُقسِّم الناس على أساس الربط بين الجنس والنوع الاجتماعي. ويشغَلُ النساء والرجال مواقع اجتماعية مختلفة (بل إنها مواقع أشد تعقيدا بسبب عوامل العرق، والطبقة، والسلوك الجنسي) من شأنها أن تؤدي إلى خلق خبراتٍ حياتية مختلفة، وحظوظ متفاوتة في الحصول على المزايا الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، ومن ثم تكوين ما يترتبُ عليها من رؤى مختلفة. ويذهب بعض المفكرين المشغولين بقضية الرؤى الفكرية إلى أن رؤية النساء لا تقتصر على كونها رؤية مختلفة، ولكنها في الحقيقة أكثر اكتمالاً وأقل تشوُّهاً لأنهن يَشغلن موقع القهر مما أوجب عليهن أن يصلن لفهم وضعهن الاجتماعي الخاص، مع فهم وضع الجماعة المسيطرة(Hartsock, 1983; Jaggar, 1989).

وتشرح نانسي هارتسوك ذلك، معتمدةً على التحليل الطبقي عند ماركس، فتقول إن هذه الظروف المادية المتفاوتة (وهي الظروف الاقتصادية وظروف العمل) التي يعمل في ظلِّها الرجال والنساء تؤدي إلى وجود رؤى مختلفة. وفي مثل هذا الوضع، لا يقتصر الأمرُ على أن يكون للرجال والنساء وجهات نظرٍ مختلفة، بل يتجاوز ذلك إلى أن تكون لهم خبراتٌ مختلفة في المجال الخاص والمجال العام، وهي أوضاع من شأنها أن توفِّر مادة بحثية ضخمة للعلماء، كما توفر أسلوباً جديداً لمباشرة العمل في البحث العلمي.

يختلف عملُ النساء في كل مجتمع بصورة منتظمة عن عمل الرجال. وأنا أعتزم أن أتتبع الفكرة القائلة بأن هذا الشكل من تقسيم العمل هو أوَّلُ تقسيمٍ للعمل، أو هو التقسيم الوحيد للعمل في بعض المجتمعات، والقائلة فوق ذلك بأن هذا التقسيم أمر رئيسي لتنظيم العمل الاجتماعي بصورةٍ أعمّ. وبناءً على أحد التفسيرات القائلة بتقسيم العمل على أساس الجنس، ينبغي على المرء أن يكون قادراً على البدء باستكشاف صُوَر التعارُض والاختلاف بين النساء

والرجال وما يترتب عليها من نتائج تتصل بالإبستمولوجيا (Hartsock, 1983, p. 154).

وعن طريق فحص الظروف التي في ظلها تظهر الرؤىَ المتباينة، والتي منها مثلا تقسيم العمل -بين الرجال والنساء- في كل من المجال الخاص والمجال العام يتضح لنا أن الرؤية الفكرية هي بمثابة إنجاز يمكنك أن تحققه أو تتحصل عليه من خلال خبراتك الحياتية. ونحن نكتسبُ رؤيتنا المتفردة التي نلتزم بها من خلال ما نعيشه من ظروف الواقع المادية والمعنوية.

وقد أضافت باتريشيا هيل-كولينز (Patricia Hill-Collins, 1990) قدراً عظيماً جداً إلى فهمنا للرؤية الفكرية باعتبارها إحدى الإبستمولوجيات وباعتبارها منهجية بحث نقدية، وذلك من خلال تقديمها لفكرة "**الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي**" التي تبدأ بالرؤية الفكرية المتفردة للنساء السُود. وخُلاصة الأمر أن هيل-كولينز تُبَينُ لنا أننا نعيش في "مصفوفة من السيطرة" يتفوق فيها تقدير أهمية العرق والنوع الاجتماعي في صلتهما ببعضهما البعض، مما يؤدي إلى إيجاد رؤية فكرية مُتفردة ترعاها "نُظُمُ القَهر المتداخلة". وعن طريق وصول الباحثين إلى الرؤى الفكرية المختلفة الموجودة داخل عالمنا الاجتماعي، فإنهم يستطيعون أن يطرحوا أسئلةً جديدة وأن يُجيبوا عليها، وأن يعترضوا على المفاهيم المذكورة آنفاً عن الحقيقة وعن طُرُق تحصيل المعرفة، بل ويستطيعون أن يتحدوها.

من النادر أن تشكل دَعاوَى المعرفة البديلة في حد ذاتها، ولا دعاواها التي تزعمها عن نفسها، من النادر أن تُشكل تهديداً للمعرفة التقليدية. ذلك أن أمثال تلك الدعاوَى تتعرض -بصورة روتينية متكررة- للتجاهل، أو التشكيك فيها، أو يُكتَفى بامتصاصها وتهميشها داخل النماذج القائمة. أما ما يُشكل تهديداً أكثر فهو اعتراض الإبستمولوجيات البديلة على العملية الأساسية التي يقوم بها أصحاب النفوذ والقوة لإضفاء الشرعية على دعاواهم المعرفية. ذلك أنه إن أصبحت هذه الإبستمولوجيا المستعملة في إضفاء الشرعية على المعرفة محلاً للشك، فإن كل الدعاوىَ المعرفية السابقة التي اعتُمِدَتْ في ظل النموذج

المسيطر تُصبحُ بدورها موضعا للشك. وتعترض الإبستمولوجيا البديلة على المعرفة المعتَمَدة كلِّها، وتثير السؤال عما إذا كان بإمكان ما يُعَدُّ حقيقيا أو صحيحا أن يَصمُدَ أمام الاختبار الذي تُجريهِ الأساليب البديلة لإثبات الحقيقة أم لا. لذلك فإن وجود رؤية فكرية للنساء السودِ حدَّدتها بأنفسهن عن طريق استعمال إبستمولوجيا نسوية ذات محور إفريقي؛ إن وجود هذه الرؤية الفكرية يُشكك فيما يجري إقراره حاليا باعتباره الحقيقة، كما يتحدى- في نفس الوقت- عملية الوصول إلى تلك الحقيقة (Hill-Collins, 1990, p. 205-206).

وهكذا نستطيع أن نرى أن إبستمولوجيا الرؤية الفكرية تُزودُنا بأسلوب جديد للتفكير في كل من الحقيقة الاجتماعية نفسها وفي الأسلوب الذي يمكننا من مباشرة دراسة تلك الحقيقة. وبالمثل، فإن الفلسفة النسوية تعتبر رؤية فكرية خاصة تم اكتسابها من خلالِ الممارسة الملتزمة سياسيا، الأمر الذي يجعل من ممارسة البحث النسوي نفسهِ إنجازاً.

المنظورات الفكرية النقدية

الاتجاهات النقدية في بناء المعرفة - شأنها شأن المنظورات الفكرية النسوية - اتجاهات عديدة، إذ تضمُّ تنويعاتٍ كثيرة في الإبستمولوجيا، والنظرية، والاهتمامات الجوهرية، والتصميمات المنهجية التي توجه البحث الكيفي. وبعد أن أكدنا ذلك، سنقدم إطلالة مختصرة وعامَّة جدًا على بعض القضايا والاعتقادات الأساسية التي يقدمها أصحاب الفكر النقدي في مجال بناء المعرفة. حيث نعاود الحديث في هذه المنظورات الفكرية ونتوسع في تناولها في الفصل الثامن من هذا الكتاب، والذي نناقش فيه طُرُق البحث التي تقوم على عدم التدخل (أو: غير التدخلية).

يرفض المفكرون النقديون الدعائم الأساسية للوضعية ويبينون أن المُسلَّمات التي تقوم عليها الوضعية، والممارسة التاريخية لهذهِ النظرية الإبستمولوجية قد حافظا - بصورة جذرية - على استدامة علاقات القوة غير المتكافئة. وهم يحترسون من الأفكار الخاصة "بالحقيقة" المُطلَقة بصفة خاصَّة ويركزون اهتمامهم على أساس مظاهر عدم التكافؤ التاريخي التي أدَّت إليها

تلك الرؤية المعرفية الصارمة. ذلك أن العملية العلمية التقليدية تعمل -في الحقيقة- على خلق المعرفة التي تُستَعملُ في استدامة الأوضاع على ما هي عليه (وفى تبريرها، وتعزيزها وإعادة بنائها)، وهي الأوضاع التي يُعاني فيها أولئك المُبعدون رغماً عنهم إلى هوامش النظام الاجتماعي (وهم النساء، والملوّنون، والأقليات الجنسية، والطبقات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا) حيث يُعانون من القهر المتواصل الناجم عن إعادة إنتاج الإيديولوجيا التدرجية الهرمية المسيطرة. وهنا تسعىَ النظرية النقدية إلى الخروج - عن طريق التأمل والتساؤل - من أسر هذه الإيديولوجيا المسيطرة (بقدر ما يمكنها الخروج) وذلك من أجل أن تخلُقَ فضاءً لإنتاج معرفة مقاومة ومُضادة للهيمنة تُزعزِعُ أركان العلاقات المادية والرمزية المسيطرة. ويسعَى المفكرون النقديون للوصول إلى "المعارف الخاضعة/ أو المقهورة"، كما أنهم كثيرا ما يُمْعِنونَ النظر في "علاقات القوة على المستوى المحلى" (Foucault, 1976). وتوجد كثير من التنويعات تحت المظلة العامة للنظرية النقدية. **فما بعد الحداثة** تطورت إلى أن أصبحت واحدة من التقاليد الإبستمولوجية الرئيسة داخلَ ذلك المفهوم ذي المجال الفسيح، كما أنها تمارس اليوم على نطاقٍ واسع. وسوف نتناول الآن بالتفصيل بَعْضَ دعائم النظرية النقدية، مُركزين بصفة أساسية على إبستمولوجيا ما بعد الحداثة (ولو أنِ كثيراً من العلماء الذين نذكُرهم قد تمَّ تصنيفُهم وفقاً لأساليب مُختلفةِ، كأن يُصنِّفُوا مثلاً بوصفِهم من أتباع ما بعد البنيوية أو التفكيكية).

تركز النظريات ما بعد الحداثية وما يرتبط بها من نظريات على أهمية الإيديولوجيا المسيطرة وخطابات القوة التي تُضفي على هذه الإيديولوجيا صفة المعيارية بقصد الحفاظ على شكل من أشكال النظام العالمي المسيطر، سواء على المستوى المحلي، أو القومي، أو العَولَمي. وتهتم هذه النظريات بصفة خاصَّة بالفحص الدقيق لموضوع منطق الخطاب الذي يلازم النظام الرأسمالي ما بعد الحداثي. ويُبَينُ فردِريك جيمسون Jameson - الذي قدم إسهاما كبيراً للغاية في تطوير النظرية ما بعد الحداثية - أنه يَتَوجَّبُ علينا أن نتعمق في دراسة "المنطق الثقافي للرأسمالية الحديثة" (والذي يسمى كذلك: ما بَعْدَ

الحداثة) والذي يُشكل أهميةً بالغة كما يُعدُّ نوعاً خاصا من الخطاب (Jamson, 1991). ويوضح أنطونيو جرامشي Antonio Gramci(١٩٢٩) أن الناس تُذعِن إلى حدٍّ ما للقهر الذي ينزل بهم، وذلك من خلال تبني الإيديولوجيا المسيطرة واستدماجها بحيث تصير جزءا من تكوينهم. وبتعبير آخر نقول: إن السبب الذي يؤدي إلى الإبقاء على السُّلطة المهيمنة – وكما يرى فوكو (١٩٧٦) – هو أن أفكارنا تصبح هي نفسها السلاسل التي تقيدنا بكل قوة. ولأننا كائنات اجتماعية فإن أفكارنا لا تتولد من داخل عقولنا فقط، إنما هي جزءٌ من سياق اجتماعي وسياسي كبير له وجوده المادي الخاص به. ومن ثَمّ يُصبح مشروع الثقافة النقدية هو الوصول إلى أصوات هؤلاء المقهورين والوقوف على معارفهم المتفردة، والتي يسميها فوكو "**المعارف المقهورة**"، وذلك بهدف تغيير شكل علاقات القوة. ونظراً لأن المعرفة بأجمعها يتمُّ إنتاجها داخل الميادين المتحولة للقوة (فوكو، ١٩٧٦)، فلا بدَّ أن يكون البحث مرتبطاً بسياقه التاريخي (Bhavani, 1993). وإنَّ من طرق متابعة هذا المشروع الفكري المُسيَّس الاستعانة بطريقة **التفكيك النقدي**. وهنا تَطرحُ المفكرة النسوية النقدية لوس إيريجاراي Luce Irigaray تصوُّرَهَا للتفكيك على النحو التالي، وذلك في ثنايا مناقشتها لموضوع قهر النساء في المجال الرمزي والمجال المادي، فتقول:

*من المؤكد أن التفكيك ليس قضية تفسير تأثير خطاب ما بينما نظلُّ قابعين **داخل** نفس نمط التعبير الذي يُعدُّ النمط الوحيد الضامن لتحقيق تماسك الخطاب. فهذه القضية ليست قضية ابتداع نظرية جديدة.. بل هي قضية **تعطيل هذا الجهاز الفكري نفسه**، وقضية منعه من الادعاء بأنه يقدم حقيقةً ومعنى يتسمان بالأحادية بصورة مبالغ فيها. Irigary, 1977, 1996, p. 78) وعلامات الإبراز مضافة من عندنا).*

وكما ترى فإن النظرية النقدية مهتمة بإحداث التوتر التحويلي (أي الذي يؤدي إلى إحداث التغير-المترجم) داخل النظام الاجتماعي نفسه، بدلا من تقديم المعرفة التي تُغذي هذا النظام. وفي هذا الاتجاه يُطالب المفكر النقدي جاك دريدا Jacques Derrida(١٩٦٦)، والذي كان في طليعة المهتمين

بتغيير الطريقة التي يتبعها الباحثون في التفكير في المعرفة وفي إنتاجها؛ يطالب بطريقةٍ للتفكيك النقدي يتمُّ بها تغيير شكل ما كان بسبب العمليات التاريخية الاجتماعية ليصير محلا للفحص والدراسة (وهذه النقطة معروضة بإسهابٍ وتفصيل في الفصل الثامن من هذا الكتاب). وبهذا الشكل يكون البحث المابعد الحداثي عملية هدم للمركزية الفكرية من أجلِ خلقِ معارف مرتبطة بالسياق الاجتماعي و تتحدَّى الإيديولوجيا المسيطرة. وهذه العملية تُعتبرُ بالضرورة عملية **قائمة على الالتزام**. ويُقدم بيير بورديو Pierre Bourdieu نظريته عن "علم الاجتماع الانعكاسي" بوصفه جزءا إبستمولوجيا وتطبيقيا ضروريا للعملية البحثية[1] فيقول:

*أرى أنه ينبغي أن يكون علم الاجتماع علماً تحليليا، إلا أنه **ينبغي أن يواجه نفسه دائماً**. ويتوجب عليه أن يستفيد من أدواته الخاصة به في اكتشاف حقيقته وفي اكتشاف ما يقوم به من عمل، وذلك محاولة منه ليعرف موقعه معرفةً أفضل* (Bourdieu & Wacquant, 1992, p. 191).

ويستعمل الباحثون مصطلحاتٍ كثيرة للدلالة على أهمية الانعكاسية (التوجه النقدي) في التطبيق المابعد الحداثي، بما فيها مصطلح **تأمل ونقد علاقات القوة** (Haraway, 1991) ومصطلح **الحساسية لرؤية علاقات القوة** (Pfohl, 1992). ويشير بهافاني (١٩٩٣) إلى محورٍ فكري مُشابه عندما يُبيّنُ أنَّهُ لا يكفي مُجرد التعرُّف على علاقات القوة على المستوى المحدود (الميكرو) التي تؤثر على الموقف الذي يجرى بحثه، بل يجب علينا -كذلك- أنْ نحلل هذه العلاقات (ص٧٤).

وكثيراً ما يُوجَّهُ إلى المفكرين المابعد الحداثيين النقد بأنهم "نِسبيّون" أكثر من اللازمِ، وذلك لأنهم يرفضون فكرة الحقيقة "الموضوعية"، ويؤكدون أن المعرفة كلها يتمُّ إنتاجها في إطار علاقات قوة معينة على المستوى الاجتماعي والتاريخي، مما يجعلها ذاتَ منشأ اجتماعي ومن ثمَّ تُصبح معرفةً جزئية (Nielsen, 1990, p.9). فلنُحللْ هذا الانتقاد لكي نوضح واحدة من النقاط الرئيسية في النظرية النقدية نفسها. الواقع أنه من اللازم أن نتناول هذا الانتقاد الذي يكثر توجيههُ إلى الفكر النقدي بأنه فكر "نسبي"، والذي يوجَّه بصورة أخصَّ لنظرية ما بعد الحداثة؛ من اللازم أن نتناول هذا الانتقاد

بالتحليل انطلاقاً من منظور نقدي حتى يُمكن فهمُه. والسبب في هذا يرجع إلى أنَّ فلسفة ما بَعْدَ الحداثة لا تتكون من مفاهيم مستمدة من موقفها الفلسفي الخاص بها، وإنما هي مبنية على أساس المنطق الاستدلالي التقليدي للفلسفة الوضعية. لذلك يكون الأساس الذي قام عليه هذا الانتقاد أساس غريب. فهو موقف فكريٌ يتم فيه الحكم على البحث المابعد الحداثي بمُقْتَضَىَ المُسلّمات التي تقوم عليها المفاهيم الوضعية للعلم، وهي الموضوعية، والثبات، والقابلية للتعميم، والصدق. إلا أن هذه المفاهيم التي يستند إليها الحكم العلمي قد تمَّ زعْزَعتها على يدِ مبادئ ما بعدَ الحداثة، ومن ثَمّ يستطيع الباحث المابعد الحداثي أن يذهب إلى أن هذه المُسلمات التي تولدت على مدى زمني طويل وتجسدت فيها معاييرُ القياس آل بها الأمر إلى أن تكون لها أهميةٌ نابعةٌ من عمليةِ تشبعت وحُرفت بفعل الاعتبارات السياسية. وهذا الانتقاد مُحرَّف وخارج عن موضوع، لأن الأساس الذي يرتكز عليه يَظلَ محصلّة الإيديولوجيا المسيطرة، وهي الإيديولوجيا التي تسعى نظريةَ ما بعد الحداثة لمعارضتها، ومقاومتها، وتغييرها.

أضف إلى ذلك أن كثيراً من وجهات النظر الوضعية، والمابَعْدَ الوضعية، والتأويلية، والنسوية التي تُقَيم المُنتج المعرفيَّ المابعد الحداثي يصل بها الأمر إلى أن تؤكد على أن هذا الاتجاه الفكري (أي ما بعد الحداثة) لا يقتصرُ على كونه يُنتج حقائق نسبية غير مؤكدَة، بل إن نظرية ما بَعْدَ الحداثة، في محاولتها لخلق حقائق جُزئية (والتي يذهب المفكرون المابعد الحداثيين -بطبيعة الأمر- إلى أن كل الحقائق جُزئية، حتّى وإن لم يُصرِّحْ بأنّها كذلك) نقول: في محاولة نظرية ما بعد الحداثة لخلق حقائق جزئية، فإنها خَلَقَتْ عَدداً كبيراً من "الحقائق" غير المترابطة. ويُعَدُّ هذا الانتقاد بصورة عامة أمراً مُشْكلاً لأنَّ الباحثين المابعدَ الحداثيين يهدفون إلى خَلْق حقَائق ذات قوام واضح و غير مُنفصلة عن الحقائق المادية التاريخية التي أنتجَتها. وفي هذا الشأن نقول، إنه بينما يَغلبُ على ظن الكثيرين أن البحثَ المابَعْدَ الحداثي مناقض للنزعة الإمبيريقية، فإن المعرفة المُنتجة انطلاقا من منظور ما بعد حداثي ترتكز -بصورة تامة- على أصولٍ راسخة في العمليات التاريخية المستمرة وعلى ما فيها من علاقاتٍ تربط بين القوة والمعرفة، وتتشَابكُ مَعها.

إدراك ما وراء الكواليس

النظرية، وطريقة البحث، والإبستمولوجيا عند الممارسة

الغرض من هذا الفصل هو تعريفُك بمجال البحث الكيفي. ومن أجل أن نميزَ ممارسة البحث الكيفي بوصفها مجالاً للعمل متفرداً ومثمراً، قمنا بمقارنتها بنظيرتها الكمية مُستخدمين أمثلةً بحثية من العالم الحقيقي تدور حول دراسة صورة الجسد. كما قدمنا في القسم الأخير من هذا الفصل عرضنا إجماليا لبعض الاتجاهات الإبستمولوجية والنظرية التي يستخدمها الباحثون الكيفيون. ولأن بالإمكان استخدام النظريات وطُرق البحث بأساليب كثيرة مختلفة، فإننا نرى أن الأمر الذي يُميزُ البحث الكيفي - فعلاً- بوصفه منظوراً فكريا متفرداً في مجال بناء المعرفة هو أنه عملية كلية تقوم على الالتزام. ونأمل أن تبدأ في إدراك سبب ذلك.

وفي الفصل التالي نناقش بعض القضايا التي تأخذُ في الظهور أثناء تصميم البحث، والتي منها قضية كيف يختار الباحث الكيفيُّ موضوعاً ما ثم يَبْدأ في التفكير في ابتكار خطة منهجية للبحث تتناسب مع الأسئلة المطروحة في بحثه. وتُوجَدُ هذه المناقشة ضمن دراسةً متعمقة لموضوع "النماذج النظرية" وموضوع "رؤى العالم".

كما نأمل أن تبدأ - من خلال الفصول التالية - في إدراك مدى ما تتصفُ به الممارسة الفعلية للبحث الكيفي من تعدد الوجوه والجوانب والتعقُّد في الآن نفسه. وفي هذا الاتجاه، أدرجنا في كل فصل من الفصول التالية فقرات داخلَ إطار خاص: بعنوان "خلف الكواليس". وتشتمل هذه الأقسام على مادة اعتنينا بجمعها من عُلماء ذوي مكانة محترمة في مجال البحث الكيفي. والمَقصود من هذه الأقسام تعريفك بممارسة البحث الاجتماعي، أي كيف يتم العمل فعلاً باستخدام طُرُقٍ ومنهجيات بحثٍ مُعينة انطلاقاً من وجهة نظر الباحثين. ذلك أنه قلَّما نصلُ إلى إدراك بعض جوانب التعقيد الكامن في عملية تنفيذ البحث ما لم نكُن مُنهمكين فعلاً في هذه العملية بأنفسنا. ومن خلال تلك اللمحات المذكورة في فقرات "خلف الكواليس" والتي نشير فيها إلى المراحل المختلفة للمجهود البحثي، سيتمُّ تعريفُك بما هو خفيٌّ أو غير ظاهر من أعمال الباحثين وهم يشتركون معاً في وضع أحد المشروعات. وقد ناقشنا في هذا

الفصل الصلة بين الطريقة، ومنهجية البحث، والإبستمولوجيا. ولكن ما هي الرابطة التي تربط جوانب البحث هذه في الممارسة الفعلية؟ وحيث إن البحث الكيفي قد كشف حقيقة التصور القائل بوجود "نظرة مطلقة" واستبدل بها "نظرة من مكانٍ ما"، فإلى أي مدىً تؤثر الرؤيةِ الفكرية للباحث على الجوانب المختلفة لبحثه؟ وعن طريق الولوج خلفَ كواليس المشروع البحثي سنكون قادرين على الوصول إلى صميم وجهة نظر الباحثين (إذا جاز التعبير) أثناء مباشرتهم مشروعهم البحثي. وسوف يتمُّ تعريفنا بتلك الطائفة من القضايا، والدوافع والقيم التي يطرحها الباحثون بوصفها ذات صلة ببحثهم. وسوف تساعد هذه الرؤية لما هو خلف الكواليس على **ربط نظرية البحث الكيفي بالممارسة الفعلية للبحث الاجتماعي**، مما يزودنا في نهاية الأمر برؤية أكثر شمولا للمجهود الكيفي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي** — **Afrocentric Feminist Epistmology**

أضافت باتريشا هيل-كولينز (١٩٩٠) قدراً هائلاً إلى فهمنا للرؤية الفكرية كإبستمولوجيا ومنهجية بحثٍ نقدية عن طريق طرحها للفكرة القائلة بوجود نوعٍ من "الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي" والتي تشكل المقدمة المنطقية لإبستمولوجيا الرؤية الفكرية، وتبدأ بالرؤية الفكرية المنفردة للنساء السُّود.

- **سياق الاكتشاف** — **Context of Discovery**

يشير هذا المصطلح إلى صياغة موضوع البحث وأسئلة البحث، وإلى الطريقة التي نتبعها في تصميم المشروعات البحثية وتنفيذها. ووفقاً لما تذهب إليه ساندرا هاردنج (١٩٩٣)، فإننا عندما نختار موضوعًا، ونصوغ الأسئلة الأولية لبحثنا، ونضع خطتنا، ونتحرك على امتداد خطوات: جمع البيانات، وتحليلها، وعرضها، يجب علينا ألا ننكر ما لنا من عناصر ذاتية

(كالانفعالات، والميول السياسية، والرؤى الفكرية الشخصية) لها تأثيرها على بحوثنا، بل علينا أن نعترف بها، وأن نُبديها للعيان، ونتناولها تناولاً نقديا.

- **Context of Justification** • سياق التبرير

يشير هذا المُصطلح إلى نوعٍ من التبرير الذي يقدمه الباحث للطريقة التي اتبعها في اختيار عينات موضوعات البحث (المبحوثين) أو انتقائهم، وكيف استخدمت طُرق البحث، وكيف اعتُمدت أدوات القياس، وما إلى ذلك، فذلك -إذن- نوع من تبرير هذه الأمور وليس تفسيراً لأسباب الأخذ بها (لأن تفسير الأسباب يندرج ضمن سياق الاكتشاف).

- **Critical Approach** • الاتجاه النقدي

تَسْعَىَ النظرية النقدية إلى الخروج -عن طريق التأمل النقدي (الانعكاسية) - بعيداً عن نطاق الإيديولوجيا المسيطرة (بقدر ما يمكنها ذلك) لكي تخلُق لنفسها فضاءً يتمُّ فيه إنتاج معرفةٍ مقاومةٍ ومُضادةٍ للهيمنة تُزعزع أركان علاقاتِ السيطرة المادية والرمزية الجائرة. ويسعَىَ المفكرون النقديون إلى الوصول "للمعارف المقهورة" كما أنهم كثيراً ما يُمعنون النظر في "علاقات القوة على المستوى المحدود (الميكرو)". (فوكو، ١٩٧٦).

- **Critical Deconstruction** • التفكيك النقدي

نظراً لأن المعرفة بأجمعها يتمُّ إنتاجها داخل المجالات المتغيرة للقوة (فوكو، ١٩٧٦) فلابد أن يلتزم البحث بمراعاة الأطر التاريخية (بهافاني، ١٩٩٣). ومن طرق تنفيذ هذا المشروع الفكري المسيَّس طريقة التفكيك النقدي، وهو اتجاهٌ طوَّره جاك دريدا (١٩٦٦).

- **Deductive Approach** • الاتجاه الاستدلالي

تبدأ الاتجاهات الاستدلالية، -التي تتبناها البحوث الكمية الوضعية عادة - تبدأ بأحد الفروض ثم تحاول اختباره من خلال البحث.

- **Epistemology** • الإبستمولوجيا

نظرية في المعرفة، أو هي "نظريةٍ في المعرفة كامنة في ثنايا منظور فكري معين" (كرسويل، ٢٠٠٣، ص٤) تشكل كافة جوانب العملية البحثية.

ويمكن القول بعبارة أخرى: إن الإبستمولوجيا نسق من المعتقدات الفلسفية التي تتناول مَنْ بإمكانه أن يكون عارفاً وما الذي بالإمكان معرفته (جوبا ولينكولن، ١٩٨٩؛ وهاردنج ١٩٨٧، هس- بييروليفي، ٢٠٠٤). وبجانب تساؤل الإبستمولوجيا عمَّنْ بإمكانه أن يكون عارفاً وعمَّا بالإمكان مَعْرِفته، فإنها تعالج طريقة خَلْقِ المعرفة: أي أنَّ النظرية الإبستمولوجية ترسي الأساس الذي تقومُ عليه عملية بناء المعرفة. وتقوم الأسئلة، والمُسلمات، والاعتقادات التي يجلبها الباحث معه إلى العملية البحثية، سواءً ما كان منها شُعورياً أو لا شعوري، تقوم بدور الأساس المبدئي لأي نظرية إبستمولوجية.

- الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) • Ethnomethodology

تعتمد منهجية الجماعة على المنظور الفكري الظاهراتي وترتبط بالظاهراتية في كونهما كلتيهما تركزان على العملية التي بها يفهمُ الأفرادُ العالم الذي يعيشون فيه وبها يُضفُونَ عليهِ معنى من معاني النظام. ويهتم الآخذون بفكر منهجية الجماعة اهتماماً خاصا بالكيفية التي يتم بها تداول المعنى داخل سياقٍ اجتماعيٍ معين من خلال التفاعل مع الآخرين. وقد لقيت منهجية الجماعة ذيوعاً كبيراً كمنظورٍ فكري في حقل علم الاجتماع في ستينيات القرن العشرين من خلال كتابات هارولد جارفينكلِ (١٩٦٧). ويطرحُ المفكرون الآخذون بمنهجية الجماعة أسئلة من نوع: (١) كيف يُباشرُ الناس فهمَ حياتهم اليومية؟ (٢) ما هي الاستراتيجيات المُحَدَّدة - وخاصةً ما يبدو منها متفقا مع البداهة الفطرية - التي يستعملها الأفراد وهم يباشرون عملية صناعة المعنى؟ ويرى الآخذون بمنهجية الجماعة أن الحياة الاجتماعية نفسها يتمُّ خلقُها وإعادة خلقها بناء على عمليات الفهم التي تتم على النطاق المحدود (الميكرو)، الذي يضفيه الأفراد على "السياقات الاجتماعية" لحياتهم اليومية. ويستخدم الآخذون بمنهجية الجماعة طائفةً من طرق البحث اللازمة للنفاذ إلى هذهِ العملية الخاصة بصناعة المعنى وإدراكها. وتشتمل هذه الطرق على طريقة ملاحظة الأفراد في ظروفهم الطبيعية وهم يباشرون شئونهم اليومية المتكررة، وطريقة الملاحظة بالمشاركة، وطريقة المقابلة.

- المنظورات الفكرية النسوية **Feminist Perspectives**

تبلورت المنظورات الفكرية النسوية كأسلوبٍ لمعالجةِ الاهتمامات والمشاغل والخبرات الحياتية للنساء والفتيات اللاتي كُنَّ، بسببِ ما كان شائعاً من التحيُّز الذكوري Androcentric Bias (والذي يعرف في الإنجليزية أيضاً باسم :Sexism) كن مستبعدات زماناً طويلاً من مجال بناء المعرفة كباحثاتٍ وكموضوعاتٍ للبحث (مبحوثات)أيضاً.

- إبستمولوجيا الرؤية الفكرية النسوية **Feminist Standpoint Epistemology**

تقومُ إيستمولوجيا الرؤية الفكرية على أساسِ مَعْرِفةِ المجتمع من داخله. وهذا معناه أن الجماعات الموجودة في مواقع وأوضاعٍ مختلفة في هذا المجتمع تكون لها خبراتٍ مختلفة، ومن ثَمَّ فإنها تكتسب رؤيةً متفردة خاصة بكل جماعة منها. وقد ركَّز المفكرون الآخذون بفلسفة "الرؤية الفكرية النسوية" أساساً على الموقع أو الوضع الذي تشغله النساء داخلَ السياق الاجتماعي الذي يتميز بوجود نظام أبوي يقوم على أساس الجنس والنوع الاجتماعي.

- التراث التأويلي **Hermeneutic Tradition**

انظر: المنظور التأويلي **Interpretive Perspective**

- التدرجي أو الهَرَمي **Hierarchical**

هو التقسيم الموجود في العلاقة بين الباحث والمبحوثين والذى يتمُّ بمُقْتَضَاهُ إعطاء الأفضلية للباحث باعتبار أنه هو العارف the knower.

- الكُلي **Holistic**

تتسم ممارسة البحثِ الكيفيُّ بأنه ممارسة انعكاسية (نقدية) تتأثر بمجريات العملية البحثية، مما يؤدي به في نهاية الأمر إلى إنتاج معرفة خاضعة للاعتبارات الثقافية ومصطبغة بالنظرية. وذلك من خلال التفاعل المستمر بين النظرية والطرق، وبين الباحث والمبحوثين. ونحن نعْني بمصطلح "الكلي" أنه يتوجَّبُ على الباحثين أن يكونوا على وعي مستمر

بالعلاقة بين الإبستمولوجيا والنظرية وطُرق البحث، وأن ينظروا إلى البحث باعتباره عملية، أي مكوناً من عددٍ من الخطوات أو التطورات.

- النموذج الاستقرائي • Inductive Model

هو نموذج تتطور فيه النظرية فتظهر بصورة مباشرة من خلال البيانات، ومن أمثال هذا النموذج الذي كثيراً ما يُستعمل على يد الباحثين التأويليين والنسويين (ولو أن هذا الاستعمال ليس مقصوراً عليهم وحدهم، كما أنهم لا يستعملونه بصورة مُوَحَّدة) نقول: من أمثال هذا النموذج: النظرية الموثقة Grounded Theory.

- المنظور التأويلي • Interpretive Perspective

ظهرَ هذا المنظور الفكري كاعتراضٍ مباشر على الإبستمولوجيا الوضعية وعلى تفسيرها وتطبيقها لمفهوم الموضوعية. وتقوم الإبستمولوجيا التأويلية على تفسير التفاعلات وعلى المعنى الاجتماعي الذي يُضفيه الناس على تفاعلاتهم (نيلسن، ١٩٩٠، ص٧). ويؤمن هذا المنظور الفكري- على المستوى الإبستمولوجي له- بأن المعنى الاجتماعي يتخلق أثناء التفاعل ومن خلال تفسيرات الناس لعمليات التفاعل. ومَفادُ ذلك أن الفاعلين الاجتماعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصورة مختلفة فعلاً، مُنتجين بذلك معان وتحليلات مختلفة. ويقتضي البحث الذي من هذا النوع بناء علاقات بين الباحث والمشاركين في البحث (أي المبحوثين) الذين يُعتبرون متعاونين معه في العملية البحثية.

- منهجية البحث • Methodology

يحدث في إطار منهجية البحث أن تلتقي النظرية بالطريقة من أجل إيجاد مُرشدٍ يوجه الباحث في وضع خطة البحث، كما يُوَجهه أثناء تنفيذها، ابتداءً من صياغة الأسئلة، وانتهاءً بالتحليل والعرض. وتبين هاردنج أن منهجية البحث عبارة عن نظرية أو تَصوُّر للطريقة التي يتعين أن يتم بها البحث أو الطريقة التي ينبغي أن يظهر بها (Harding, 1987, p.3). ومنهجية البحث هي الجسر الذي يجمَعُ النظرية والطريقة معاً، أو يجمع المنظور الفكري والأداة معاً. ومن المهم أن نتذكر أن هذا الجسر هو الذي يَتَنَقَّلُ عليه الباحث في كل خطوات العملية البحثية بأجمعها. معنى ذلك بعبارة أخرى أن منهجية البحث تدمج النظرية والطريقة في كيان واحد، قائمة

-بذلك- بدور الموجه الاستراتيجى -ولكن المرن- في كل خطوة من خطوات التجربة البحثية.

- الاتجاه المتعدد الطرق • **Multimethod Approach**

ويقصد بهذا الاتجاه أن يستخدم الباحثُ أكثرَ من طريقة في المشروع البحثي. فبإمكان الباحثين أن يجمعوا بين عدد من الطرق الكيفية أو يستعملوا الطرق الكيفية والطرق الكمية بربطها ببعضها. وعندما يراد استعمال هذا الاتجاه بصورة مثالية، ينبغي أن تُعبِّر الطُرق المستعملة عن قضية البحث وتعبِّر كذلك عن بعضها البعض.

- الظاهراتية: الفينومينولوجيا • **Phenomenology**

للظاهراتية أصول ترجع إلى القرن الثامن عشر(*)، باعتبارها تمثل في جانب منها نقداً للوضعية. وكان المفكرون الظاهراتيون ينتقدون العلوم الطبيعية لأنها تُسلِّم بوجود حقيقة "موضوعية" مستقلة عن وعي الفرد. ولا يقتصر أمر الظاهراتية على كونها فلسفةً فحسبُ، بل هي إلى جانب ذلك طريقة من طرق البحث تهدف إلى إدراك ما يعايشه الأفراد من خبرات. والمفكرون الظاهراتيون مَعنيُّون بأسئلة من قبيل: (١) كيفَ يَشعُرُ الأفراد بالاحتضار (أي معاناة سكرات الموت) (Kubler-Ross, 1969)، (٢) كيف يخبُرُ المَرْءُ الاكتئاب؟ (Karp, 1997))، (٣) كيف يخبُرُ المرء الطلاق (أي كيف يشعر به) (Kohler – Riessman, 1987). ويرى الظاهراتيون أنه لا توجَد "حقيقة واحدة" للطريقة التي يعي بها الناس كلَّ حادثة من هذه الحوادث على حدة. ذلك أن الخبرة يتمُّ إدراكها وفقاً لمجموعة متنوعة من الأبعاد: كيف تتمُّ معايشَة الخبرة في الزمان، وفي المكان، وفي ضوء علاقاتنا بالآخرين، وكيف نعايشها بوصفها خبرة جَسَدية. ويستعمل الظاهراتيون مجموعة متنوعة من الطرق، ومنها طريقة الملاحظة، وطريقة المقابلة المتعمقة، والاطلاع على الروايات التي دونها الناس عن تلك الخبرات والمسجلة في بعض مصادر البحث، كالمذكرات اليومية.

(*) سبق الإشارة إلى أن صحة هذا التعبير هي: "القرن التاسع عشر" (المترجم).

- **Postmodernism** • ما بعد الحداثة

تركز نظريةُ ما بَعْدَ الحداثة وما ترتبط بها من نظريات على أهمية الإيديولوجيا المُسيطِرة وعلى خطابات القوة التي تجعل هذه الإيديولوجيا أمراً مشروعاً للحفاظ على نظام الحياة المسيطر، سواء على المستوى المحلي أو القومي، أو العَولَمي. وتذهب نظرية ما بعد الحداثة إلى أننا قد انتقلنا إلى ما وراء نطاق الحداثة ودخلنا إلى حقبةٍ ما بعد حداثية تتسمُ بنوعٍ من التركيز على تكنولوجيات إعادة الإنتاج. وتتطلب هذه الحقبة الجديدة اتجاهات فكرية جديدة في بناء المعرفة.

- **Postpositivism** • ما بعد الوضعية

تتشابه ما بعد الوضعية مع الوضعية تشابُهاً قوياً جداً. ونُقطةُ الخلاف أنَّ ما بعدَ الوضعية – في دراستها للحقيقة الاجتماعية- تعترف بأن الباحثين لا يمكنهم أن يكونوا وضعيين بصورة مُطلقة فيما يتصل بدعاواهم المعرفية (Creswell, 2003, p.7). وللخروج من نطاق الفكرة الوضعية الخاصَّة بالبرهنة على وجود العلاقات العلِّية التي يتألف منها العالم الاجتماعي، يقُومُ المفكرون الآخذون بما بَعدَ الوضعية بتجميع الشواهد والأدلة التي تؤكد صحة إحدى النظريات القائمة مسبقاً. ويمكن القول بعبارة أخرى إن المفكرين الآخذين بما بعد الوضعية يحاولون – اعتماداً على المنطق الاستدلالى واختبار الفروض، كما يفعل الوضعيون – أن يجدوا من الأدلة والشواهد ما يؤيد أو يفند إحدى النظريات، وإن لم يكن ذلك بصورة مُطلقَة.

- **Positivist Epistemology** • الإبستمولوجيا الوضعية

تؤمن الوضعية بوجود حقيقة قابلة للمعرفة، وأن تلك الحقيقة مستقلة عن العملية البحثية، كما أن بالإمكان اكتشافها واختبارها من خلالِ الوسائل الوضعية، وعلى يدِ باحثٍ محايد.

- **Reflexivity** • الانعكاسية

هي التساؤل النقدي المستمر عن موقع الباحث وعن علاقات القوة داخلَ العملية البحثية.

- **Research Methods** • طرق البحث

طُرق البحث هي الأدوات التي يَستَعملُها الباحثون لكي يجمعوا البيانات. فطريقة البحث عبارة عن أسلوب أو تقنية لجمع الشواهد والأدلة. ويُمكن للمرء أن يذهب – وبحق- إلى أن كافة أساليب تجميع الشواهد والأدلة تندرج ضمن واحدةٍ من هذه الفئات الثلاث: الإصغاء إلى الإخباريين (أو طرح الأسئلة عليهم)، أو ملاحظة السلوك، أو فَحص الآثار والسجلات التاريخية (Harding, 1987, p. 2). وكثيراً ما يستعمل الباحثون الكيفيون واحدةً أو أكثر من طُرُق البحث التالية (ولو أن هذه القائمة ليْسَت شاملة): طريقة البحث الميداني (الإثنوجرافي)، وطريقة المقابلة المتعمقة، وطريقة التاريخ الشفاهي، وطريقة البحث الإثنوجرافي الذي يكتبُهُ المبحوث عن نفسه (البحث الإثنوجرافى الذاتى)، وإجراء المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، ودراسة الحالة، وطريقة تحليل الخطاب، وطريقة تحليل المضمون.

- **Research Nexus** • الرابطة البحثية

هي "تشبيك" الإبستمولوجيا والنظرية وطريقة البحث في نسيجٍ واحد.

- **Situated Knowledges** • المعارف النسبية/ أو الجزئية

وهي المعارف التي يَتمُّ إنتاجها في كثير من الأحيان على يدِ المفكرين النسويين الذين يرفضون الفكرة القائلة بوجود حقائق يمكن البرهنة على صحتها، فهذه المعارف النسبية هي عبارة عن حقائق جزئية تنتمي إلى سياقاتٍ أو أوضاع معينة.

- **Standpoint Epistemology** • إبستمولوجيا الرؤية الفكرية

وهي تقوم على أساس الافتراض القائل بأنه يتحتم في العَالم الاجتماعي ذي البنية الهرمية أن تتولد "الرؤىَ الفكرية" المختلفة. وعن طريق الوصول إلى فهم الرؤى الفكرية المختلفة الموجودة داخلَ عالمنا الاجتماعي، يستطيع الباحثون أن يطرحوا أسئلة جديدة ويتحدوا – بل ويقاوموا – المفاهيم القديمة عن الحقيقة وأساليب تَحصيل المعرفة. وفي النظام الاجتماعي الهرمي تُعَدُّ رؤانا الفكرية وجهاتِ نَظرٍ مُكتَسَبَة.

• التوجه النظري • Theoretical Perspective

توجد الإبستمولوجيا كامنة في ثنايا التوجه النظري؛ بمعنى أن الإبستمولوجيا مَشْدُودة إلى النظرية، أو مُرتَبطة بها ارتباطاً وثيقاً، أو أنَّ الاعتقادات الإبستمولوجيَّة يتمُّ تفعيلها من خلال الإطار النظرى.

• استخدام ثلاث طرق بحث • Triangulation

هو استعمال ثلاث من طُرُق البحث(*).

• الصدق • Validity

يتصور الباحثون الذين يعملون في نطاق النموذج الفكري الكيفي الصدق على نحو يخالف تصورات الوضعيين التقليديين لهذا المصطلح. والصدق – بصورة عامة – قضية من القضايا التي يعالجُها الباحثون عندما يقدمون شاهدا أو دليلا على صحة المعرفة التي أنتجوها. ويمكن القول –بعبارة أخرى– إن تلك المعرفة التي تم إنتاجها إنما تعكس جانبا من جوانب العالم الاجتماعي و/أو تكون مقنعة بالضرورة.

* * *

أسئلة للمناقشة

١– ما معنى أن نفهم العملية البحثية فهما كليا؟ وكيف يؤثر هذا المنظور على عملية إنتاج المعرفة؟

٢– يفتش الباحثون الكيفيون عن المعنى، فكيف يؤثر تناول موضوع معين – بهدف اكتشاف المعنى – على العملية البحثية، وعلى التفسير، وعلى النتيجة النهائية؟

(*) ربما كانت الترجمة الأدق لهذا المصطلح هى كلمة التثليث، فرقم ثلاثة المشار إليه لا يقتصر على أدوات البحث، وإنما يتعداها كما اتضح من الشرح إلى عدد الدراسات التى تجرى عن نفس الموضوع، وإلى عدد الباحثين... إلخ)، وقد رأينا عدم استخدام مصطلح التثليث لمدلوله الدينى المسيحى المباشر. وعموما يقصد بالمصطلح استخدام ثلاث دراسات على الأقل – ولكن الأفضل أكثر من ثلاثة – والأطر النظرية، والباحثين، ومجموعات البيانات لبحث مشكلة أو موضوع معين. وربما يقصد بصفة خاصة استخدام دراسات المستوى المحدود (الميكرو) ودراسات المستوى الكبير (الماكرو) وكذلك استخدام مناهج وطرق كمية ومناهج وطرق كيفية فى دراسة نفس الموضوع. وبذلك يكمل كل منهما الآخر ويحققه، وذلك من أجل التوصل إلى نتائج مؤكدة. وقد درس هذا الأسلوب باستفاضة نورمان دنزين Norman K. Denzin. (المراجع)

٣- كيف يؤثر الموقف الإبستمولوجي للباحث على طرق البحث المستخدمة؟
٤- كيف يعمل التقسيم التدرجي الهرمي الذي خلقته الوضعية للتمييز بين الباحث والمبحوثين (الذات والموضوع) على التأثير على العملية البحثية؟
٥- ناقش كلا من الموضوعية والذاتية ودلالة كل منهما للعملية البحثية. وكيف تنظر مختلف التوجهات النظرية والإبستمولوجية إلى كل من الموضوعية والذاتية؟
٦- ما هي الرابطة البحثية، وكيف تمارس تأثيرها على عملية بناء المعرفة؟
٧- كيف يمكن أن تعمل الإنعكاسية (التأمل النقدي) على إثراء بيانات الباحث وإثراء عملية التأويل؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- **منتدى البحث الاجتماعي الكيفي** — **Forum: Qualitative Social Research**

http://www.qualitative-research.net/fqs/fqs-eng.htm

منتدى البحث الاجتماعي الكيفي مجلة إلكترونية متعددة اللغات للبحث الكيفي، تنشر مقالات وبحوثا محكمة. والهدف الرئيسي لمنتدى البحث الكيفي هو إثراء النقاش ودعم التعاون بين المشتغلين بالبحوث الكيفية في مختلف الدول ومن شتى فروع العلم الاجتماعي.

- **جمعية البحث الكيفي** — **Association for Qualitative Research**

http://www.latrobe.edu.au/aqr/

هذا موقع إلكتروني مفيد، لأنه رغم أن منشورات الشهر الأخير لا تكون متاحة مجانا لرواد الموقع، إلا أن كافة المنشورات السابقة تكون متاحة مجانا. ويستطيع الطلاب الحصول على النص الكامل للمقال المنشور.

- **جمعية مستشاري البحوث الكيفية** — **Qualitative Research Consultants Association**

http://www.qrca.org/

هذا الموقع تنظيم لا يهدف إلى الربح تقوم رسالته على دعم التميز في البحوث الميدانية. ويفيد الموقع أولئك الذين يريدون أن ينضموا إلى مؤسسة تعمل في مجال البحث الكيفي.

- **The Association for Qualitative Research** — **جمعية البحث الكيفي**

http://www. aqrp.co.uk/

ترحب هذه الجمعية بكل المهتمين بالبحوث الكيفية كي ينضموا إليها. تأسست في ثمانينيات القرن العشرين، وأصبحت منظمة محترمة ومعترفا بها في مجال خدمات تسويق البحوث الميدانية.

- **The Qualitative Research Report** — **تقرير البحوث الكيفية**

http://www.nova.edu/ssss/QR/qualres.html
http://www.nova.edu/ssss/QR/web.html

مجلة إلكترونية بارزة للبحوث الكيفية، علاوة على كثير من المصادر العلمية في مجال البحث الكيفي.

- **The National Organization for Women** — **المنظمة القومية للمرأة**

http://www.now.org/

هذا موقع إلكتروني حديث يحوي معلومات عن البحوث عن القضايا النسوية والبحوث التي تجريها نساء. وهو على اتصال يومي مباشر بالأحداث الجارية المتعلقة بالحركة النسوية وسائر المستجدات التشريعية.

- **The Feminist Majority Foundation** — **مؤسسة الأغلبية النسوية (مركز بحوث)**

http://www.feminist.org/research/1_public.html

يحتوي هذا الموقع الإلكتروني على كم وفير من المعلومات المتعلقة بقضايا المرأة، خاصة البحوث التي تجريها نساء وتتبنى الاتجاه النسوي. والموقع على اتصال بالبحوث الجارية، وبرامج دراسات المرأة، والمجلات (العلمية) النسوية، وأدوات البحث عن المواقع النسوية على الإنترنت، ومراكز بحوث ودراسات المرأة، والمجلات والصحف النسوية.

- **The Feminist Institute for Studies on Law and Society** — **المعهد النسوى للدراسات القانونية والاجتماعية**

http://www.sfu.ca/~fisls/engines.htm

لهذا الموقع وصلة تركز بشكل خاص على البحوث النسوية، وتقدم كذلك مرشدا لمجال موضوعي أوسع. كما يضم وصلات مع المجلات (العلمية) والمقالات النسوية، هذا فضلا عن قائمة بأدوات البحث النسوية.

- **Sociological Research Online** — **البحوث السوسيولوجية الإلكترونية**

http://www.socresonline.org.uk/2/3/3.html

هذه وصلة تربطك بأى مقال منشور في مجلة علمية معينة عن البحوث النسوية وخبرة المؤلفين مع البحوث النسوية. ويصف ميللر المناقشات حول أمور مثل: ممارسات القوة في العملية البحثية، وكذلك في العلاقة البحثية بين الباحث والمبحوثين، والخبرات الشخصية المكتسبة من البحوث النسوية. كما تتم مناقشة الإبستمولوجيات المنهجية والنسوية(*)

* * *

References المراجع

- Abrams. L. & Cook Stormer, C. (2002). Sociocultural variations in the body image perceptions of urban adolescent females. *Journal of Youth and Adolescence, 31 (6), 433-451.*
- Altabe. M. (1998). Ethnicity and body image: Quantitative and qualitative analysis. *International Journal of Eating Disorders, . 23,* 153-159.
- Bailey, C. (1996). *A guide to field research.* Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Banfield, S., & McCabe, M. (2002). An evaluation of the construct of body image. *Adolescence, 37* (146) 373-394.
- Bhavani, K. (1993). Tracing the contours: Feminist research and feminist objectivity. *Women's Studies International Forum, 16*(2), 95-104.
- Botting, I. (2000). Understanding domestic service through oral history and the census: The case of Grand Falls, Newfoundland. *Feminist Qualitative Research, 28*(1.2). 99-120.
- Bourdieu, P. (1992). *The logic of practice.* Stanford. CA: Stanford University Press.
- Bourdieu, P., & Wacquant, L. (1992). *An invitaion to reflexive sosiology.* Chicago: University of Chicago Press.
- Chamorro, R., & Flores-Ortiz, Y. (2000). Acculturation and disordered eating patterns among Mexican American women. *The International Journal of Eating Disorders, 28*(1), 125-129.

(*) المؤلف كان يخصص حديثه عن علم الاجتماع، وإن كنا نعتقد أنه يحسن به أن يوسع معالجته ومجال رؤيته لتشمل البحوث العلمية في سائر فروع العلم الاجتماعي، ولو على سبيل التمثيل لا الحصر.

- Chandler, S., Abood, D., Lee, D., Cleveland, M., & Daly, J. (1994). Pathogenic eating attitudes and behaviors and body dissatisfaction differences among black and white college students. *Eating Disorders: The Journal of Treatment and Prevention, 2,* 319-328.
- Creswell, J. W. (2003). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crotty, M. (1998). *The foundations of social research: Meaning and perspective in the research process.* London: Sage.
- Derrida, J. (1966). The decentering event in social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing the difference* (pp. 278-282). Chicago: University of Chicago Press.
- Falconer, J., & Neville, H. (2000). African American college women's body image: An examination of body mass, African self-consciousness, and skin color satisfaction. *Psychology of Women Quarterly, 24,* 236-243.
- Foucault, M. (1976). Power as knowledge. In R. Hurley (Trans.), *The history of sexuality, vol. 1: An introduction* (pp. 92-102). New York: Vintage Books.
- Garfinkel, H. (1967). *Studies in ethnomethodology.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Geertz, C. (1973). *The interpretations of cultures.* New York: Basic Books.
- Gramsci, A. (1929). Intellectuals and hegemony. *Selections from the Prison Notebooks.* New York: International Publishers Co.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (1998). Competing paradigms in qualitative research. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *The landscape of qualitative research: Theories and issues* (pp. 195-220). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Halpin, Z. (1989). Scientific objectivity and the concept of "The Other". *Women's Studies International Forum, 12(3),* 285-294.
- Haraway, D.(1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature.* New York: Routledge.
- Haraway, D. (1988). Situated knowledges: The science question in feminism and the privilege of partial perspective. *Feminist Studies, 14(13),* 575-599.
- Harding, S. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity?" In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49-82). New York: Routledge.
- Harding, S. (1987). *Feminism and methodology.* Bloomington: Indiana University Press.
- Hartsock, N. (1983). The feminist standpoint: Developing the ground for a specifically feminist historical materialism. In S. Harding & M. Hintikka (Eds.), *Discovering reality* (pp. 283-305). Dordrecht, The Netherlands: Reidel.
- Heidegger, M. (1982). The Craft of Qualitative Research. In A. Hofstadter (Trans.)., *The basic problems of phenomenolgy.* Bloomington: Indiana University Press. From the German original of 1975. The text of a lecture course in 1927.
- Heidegger, M. (1962). The Craft of Qualitative Research. In J. Macqurrie & E. Robinson (Trans.), *Being and time.* New York: Harper & Row. Form the German original of 1927.
- Hesse-Biber, S. (1995-1999) Body Image Focus Group transcript (including aspiration codes).
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet: The cult of thinness and the commercialization of identity.* New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S., Howling, S. A., Leavy, P., & Lovejoy, M. (2004). Racial identity and the development image issues among African American adolescent girls. *The Qualitative Report, 9*(1), 49-79.
- Hesse-Biber, S., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice.* New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S., Leavy, p. & Yaiser, M. (2004). Feminist approaches to research as a process: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In S.

Hesse-Biber & M. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3-26). New York: Oxford University Press.

- Hill-Collins, P. (1990). Black feminist thought in the matrix of domination. *Black feminist thought: knowledge, consciousness, and the politics of empowerment.* London: Harper Collins.
- Husserl, E. (1963). The Craft of Qualitative Research. In W.R. Boyce Gibson (Trans.), *Ideas: A general introduction to pure phenomenology.* New York: Collier Books. From the German original of 1913, originally titled *Ideas pertaining to a pure phenomenolgy and to a phenomenological philosophy.*
- Husserl, E. (1931). The Craft of Qualitative Research. In W.R.Boyce Gibson (Trans.), *Ideas: General introduction to pure phenomenology.* New York: Macmillan.
- Irigaray, L. (1985). *This sex which is not one.* Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Jaggar, A. (1989). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. *Inquiry, 32,* 151-172.
- Jameson, F. (1991). *Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism.* Durham, NC: Duke University Press.
- Karp, D. (1997). *Speaking of sadness: Depression, disconnection, and the meaning of illness.* New York: Oxford University Press.
- Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society, 1,* 172-207.
- Kubler-Ross, E. (1969). *On death and dying.* New York: Macmillan.
- Merleau-Ponty, M. (1996). The Craft of Qualitative Research. In C. Smith (Trans.), *Phenomenology of perception.* London and New York: Routledge. Taken from the French original published in 1945.
- Molloy, B., & Herzberger, S. (1998). Body image and self-esteem: A comparison of African-American and Caucasian women. *Sex Roles: A Journal of Research, 38*(7-8), 631-644.
- Neuman, W. L. (1997). *Social research methods: Qualitative and quantitative approaches* (3rd Ed.). Boston: Allyn & Bacon.
- Nielsen, L. (2000). Black undergraduate and white undergraduate eating disorders and related attitudes. *College Student Journal, 34(3),* 353.
- Nielsen, J. (1990). *Feminist research methods.* Boulder, *CO:* Westview.
- Pfohl, S. (1992). *Death at the parasite café.* New York: St. Martin's Press.
- Ragin, C. (1994). *Constructing social research.* Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Ritzer, G. (2000). *Sociological theory* (5th Ed.) New York: McGraw-Hill.
- Schutz. A. (1967). *The phenomenology of the social world* (G. Walsh & F. Lehnert, Trans.). Evanston, IL: Northwestern University Press.
- Schutz, A., & Luckmann, T. (1974). The Craft of Qualitative Research. In R. M. Zaner & H. T. Engelhardt (Trans.), *The structures of the life-world: Volume I.* London: Heinemann.
- Smith, D. (1974). Knowing a society from within: A woman's standpoint. In *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge* (pp. 21-24). Boston: Northeastern University Press.
- Sprague, J., & Kobrynowicz, D., (1999). A feminist epistemology. In J. Saltzman Chafetz (Ed.). *Handbook of the sociology of gender* (pp. 25-44). New York: Kluwer Academic/Plenum.
- Sprague, J., & Zimmerman, M. (1993). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological method. In P. England (Ed.), *Theory on gender/feminism on theory* (pp.255-279). New York: Aldine DeGruyter.
- Thompson, B. (1996). Multiracial feminist theorizing about eating problems: Refusing to rank oppressions. *Eating Disorders, 4*(2), 104-114.

الفصل الثاني

عملية البحث

النماذج النظرية: نوافذ للإطلال على الحقيقة

يُعدُّ عالم الاجتماع جوزيف دياز Joseph Diaz إثنوجرافياً "تقليدياً" استمد ثقافته من التراث الوضعي. ويقوم هذا التراث بتزويده "بنافذة" جاهزة للإطلال على الطريقة التي يعالجُ بها مشروعاً بحثيا. وهو يريد القيام ببحث ميداني (إثنوجرافي) حديث عن أحد المستوصفات التي تبيع البلازما (أيّ مصل الدم) والموجود في منطقة لاس فيجاس ستريب. يبدأ مشروعه البحثي بتدوين هذه الملحوظة:

أردت أن أكتب بحثاً إثنوجرافياً نابضاً بالحياة، ولكني أردته أن يكون تقليديا (أي ملتزما بالأشكال التقليدية في البحوث الميدانية الإثنوجرافية)، حيث أعثر فيه على الأسباب والنتائج، وأفكُّ فيه الشفرات الخفية للمتبرعين بدمائهم وللعاملين في هذا المجال. وإني لأظنُّ أنني مدينٌ بهذه المعالجة القاصرة في البحث لسبق دراستي لمنهج البحوث الكمية، الذي يُعلِّم دارسيه – في نطاق المنظور الفكري الوضعي – أنه تُوجَدُ حقيقة بالإمكان معرفتها. (Diaz, 1999, p.1).

إلا أنه سرعان ما يكتشف دياز الأمر الذي أفزَعَهُ كثيراً، وهو أن هذه النافذة التي تَطُلُّ على العالم الاجتماعي لم تكن تعمل لصالحه. وفي هذا يقول:

في المرحلة المبكرة لجمع البيانات لهذه الدراسة، اضطُررت للإقرار بأن خبرة التبرع بالدم بَدَتْ في صورة لا هي متجانسة ولا هي من السهل قولبتها بوصفها مجموعة محددة ومتميزة من الأسباب والنتائج. وعندما لاحظتُ أن مذكراتي، وأفكاري، وخبراتي، واعتقاداتي، وملاحظاتي المتصلة بخبراتي في التبرع بالدم كانت متعارضة مع بعضها، تنَبَّهتُ إلى أن طريقتي في المعالجة في حاجة للتغيير. ومُوجَزُ القول إنني سَعيتُ للعثور على "حقيقة" ما سرعان ما تحققتُ أنها غير موجودة في "مجال" التفاعل الإنساني والخبرة

الإنسانية.... لذلك، حاولتُ أن أستخدم ذلك الذي بدا الأكثر تلاؤماً مع تلك الممارسة الخاصَّة ببيع الدم، والتي تتصف بالتشويش وبالتناقض مع بعضها البعض في كثيرٍ من الأحيان: ألا وهو البحث الإثنوجرافي الما بعد الحداثي (Diaz, 1999, pp.1-2).

كانت حقيقة الأحداث التي أخذَتْ تتكشَّف في هذا المستوصف حقيقة بالغة "الذاتية"، ومليئة بالتعارض. وسَرْعان ما وجد دياز نفسَهُ يقوم بدورٍ حاسم في جَمْع البيانات وفي تفسير ذلك العالم. وكمُلاحظٍ مُشارك يكشف لنا الغِطاءَ عن مجموعة من "الحكايات" عن خبرات المتبرعين بدمائهم، والتي منها حكايته هُوَ. يقول دياز:

.... في هذه الدراسة، أوافق على الأخذ بالفكرة الما بَعْدَ الحداثية التي تقول إن المؤلف لا يمكنُهُ أبداً أن يكون مَوضوعيا بحق... ولا بالإمكان أن تكونَ الأوصاف، أو الأحداث، أو الأفراد، أو الأماكن، أو المواقف "صادقة" تماماً، أو واقعية على نحو صحيح، أو ممثلة (للمجتمع المدروس) بصورة موضوعية.... وبدلاً من أن أنحيَّ نفسي (كمؤلف) عن هذه الدراسة وأدعي أنَّ مسلماتي وتفسيراتي لأحداثٍ معينة صحيحة ولا يمكن تفنيدُها، وذلك كما يفعل المرء في كتابته "لبحث إثنوجرافي تقليدي"؛ بدلاً من ذلك سَوفَ أجعل حضوري في هذه الدراسة صريحاً وسوف أتجاوبُ مع الأحداث وأستدعي العواطف والأفكار بدلاً من محاولة تحديد/أو تعريف حادثٍ أو موقفٍ مُعَيَّن. (Diaz, 1999, p.2).

وقد بدأ دياز مشروعه البحثيَّ بمجموعة من **المسلَّمات الفلسفية** تتعلق بطبيعة العالم الاجتماعي. وقد تظلُّ هذه المسلمات -في كثير من الأحيان- غيرَ مُعلنَة وغير مُختبَرة، إلا أنها تُمثِّل الركائز الأساسية للمشروع البحثي وتُساعد على تشكيل خطواته. ذلك أن "البنية التحتية" الفلسفية للمشروع البحثي توجِّهنا وتُوجه تفسيرنا للحقيقة فيما يتصل ببعض القضايا الميتافيزيقية الجوهرية والتي منها ما يلي:

- **ما هي "طبيعة" الحقيقة الاجتماعية؟**
- ما هي طبيعة الفرد؟ (مفهومنا عن الحقيقة الاجتماعية/ أو البشرية أو **الأنطولوجيا**)؟.

- كيف يتم بناء المعرفة؟
- من الذي يُمكنهُ أن يكون عارفاً؟
- ما الذي بالإمكان معرفتهُ؟ (أي ما هي وجهة نظرنا عن **الإبستمولوجيا**)؟

ويترتب على ذلك أن طريقتنا في الإجابة على هذه الأسئلة تؤثر على طريقتنا في التعامل منهجيا (أي نظريا) مع العالم الاجتماعي المحسوس، وفي التعامل كذلك مع أنماط **طرق البحث** التي نعتَبرُها ملائمة للمشروع البحثي.

وجوزيف دياز تلقى تعليمه واكتسب خبرته كإثنوجرافيٍّ تقليديٍّ يعمل في إطار التراث الكمي. وهو ذو نزعة فلسفية وضعية، ومن ثمَّ فهو ينظر إلى العالم الاجتماعي بوصفهِ عالماً مُنظماً، وقابلاً للمعرفة، وموضوعياً. وكما عَرَضْنا في الفصل الأول، فإن الباحث ذا التَّوَجُّه **الكيفي**، من ناحية أخرى، لَدَيه تَوَجُّهُ مُخْتَلِف كما أنه يستخدم "اتجاهاً تأويلياً" في تناوله للحقيقة يكون هدفه منه أن يفهم ويستكشفَ طبيعة الحياة الاجتماعية. فَبَدلاً من أن يقوم المحلِّل الكيفي "باختبار الأحداث والتحكم فيها" على نحو ما شاهدنا جوزيف دياز يفعله عندما كان يطبق مفهوم "الأسباب والنتائج" لكي يفهم طبيعة هذا المستوصف الخاص بالتبرع بالدم؛ بدلاً من ذلك، يقوم المحلل الكيفي بطرح أسئلة من النوع التالي:

- ما هي المعاني التي يُضفيها الأفراد على طبيعة الواقع؟
- كيف يمكننا أن نفهم تشكيلة المعاني التي يُضفيها الأفراد على خبرة المتبرع بالدم؟

ولا يباشر كلُّ الباحثين الكيفيين عَمَلَهم بالنظر من خلال نفس النافذة تماما إلى العالم الاجتماعي. بل إنهم يأتون انطلاقاً من عديد من الخلفيات ذات النماذج المختلفة. شاهد ذلك أن نموذج البحث "**التقليدي**" الذي بدأ به جوزيف دياز له أصوله التي ترجع إلى بداية سنوات القرن العشرين، والتي مازالت مؤثرة حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أننا نربط هذا النموذج بأحد الاتجاهات **الكمية** في البحث، فإن باحثين كيفيين تَظفَرُ بحوثهم برؤىً ثاقبة مستمدة من هذا الاتجاه الكميِّ نفسه:

لا يزال للتراث الوضعي والتراث ما بعد الوضعي وُجودهما المستمر الذي يلقي بظلاله على مشروع البحث الكيفي. فمن الناحية التاريخية، كان البحث الكيفيُّ قد تم تحديده داخل نطاق النمونجي الوضعي، بينما حاول الباحثون الكيفيون أن يقوموا بإجراء بحثٍ وضعيٍّ جيد باستخدام طرق للبحث وإجراءات أقلّ صرامةً وشدة. وقد أعلن بعضٌ من باحثي منتصف القرن العشرين الكيفيين (ومنهم على سبيل المثال: بِكَر Becker، وجير Geer، وهيوز Hughes وستراوس Straus، ١٩٦١) أعلنوا عن نتائج لبحوث أُجرِيت بطريقة الملاحظة بالمشاركة مستعملين في نلك لغة شبيهة بالإحصائيات. وحديثاً في سنة ١٩٩٨، حاول ستراوس و كوربن Corbin، وهما اثنان من رواد اتجاه النظريَّة الموثقة في البحث الكيفي، حاولا تعديل القواعد المألوفة في العلم (الوضعي) السليم حتى تتناسب مع تَصوُّرِهم الما بعد الوضعي للبحث الدقيق. (Denzin & Lincoln, 2000, p.9)

ويَدرُسُ أحَدُ المنظورات الفِكرية الوضعية الحقيقةَ الاجتماعية المحسوسة باعتبارها شيئا "له وجود خارجي" جاهز للاكتشاف والتفسير، أو على الأقل تقديم صورة تقريبية له (وهو المنظور الفكري لما بعد الوضعية). ومن أجل القيام بهذا العمل، ينبغي أن يكون الباحثون "موضوعيين" في تفسيرهم لهذِه الحقيقة، بِمَعنى أنهم لا يسمحون لقيمهم أو اتجاهاتهم أو مشاعرهم أن تتدخل في العملية البحثية، وذلك عن طريق تعليقها مؤقتا، أو "فصلْ" هذه القيم والاتجاهات عن البحث. وكثيرا ما يتمُّ عَرْض الطرف المبحوث باعتباره موضوعا للبحث. لذلك فإن من المُرجَّح إلى حدٍ بعيد أن يتعامل الإثنوجرافيون التقليديون الذين يدرسون أحد المجتمعات المحلية؛ أن يتعاملوا مع القرويين بوصفهم "غرباء" أو بوصفهم "الآخر" المختلف، وأن يُولِّفوا قصةً يستمدونها من هذا الميدان يُظَنُّ أن تكون وصفا أو تقريراً "موضوعياً" لحوادث وقعت في هذا الميدان. إلا أن دنزن ولينكولن (١٩٩٨/أ) يلاحظان أن هذه التقارير تكون في كثير من الأحيان أقرب شبها "بالحكايات" المستمدة من الميدان والتي كثيراً ما تعكس ما لدىَ باحثٍ إثنوجرافيٍّ معين من اتجاهات، ومعتقدات، وقِيَم (ص١٤).

بَعْدَ أن عاد "الإثنوجرافي منفرداً" إلى بيئته ومعه البيانات التي جَمَعها، قام بكتابة تقريرٍ موضوعيٍّ عن الثقافة التي درسها. وهذه التقارير مَبنية على أساس معايير علم الإثنوجرافيا التقليدي. وكانت هذه الحزمة المقدسة من الشروط (Rosaldo, 1989, p.31) تقوم بتنظيم الكتابات الإثنوجرافية وفقاً لأربع معتقدات والتزامات هي: الالتزام بالموضوعية، وموازرة المصالح والسياسات الإمبريالية، والإيمان بالنزعة المتحفية (والتي تقول إن من شأن البحث الإثنوجرافي أن يقدم لنا صورة متحفية تُشبهُ صورة الثقافة المدروسة)، والإيمان باللازمن (أي أن ما تمت دراسته لم يتغير أبداً). وهذا النموذجِ من الباحثين، والذي بإمكانه كذلك أن يكتب عما درسه نظريات مُعقدة ومُركزة، لا يزال مَوْجُوداً حتى يومنا هذا (Denzin & Linclon, 1998a, p. 14)).

تَعرَّض هذا النموذج التقليدي للرفض من قِبَلِ جيلٍ جديدٍ من الباحثين الكيفيين الذين يؤمنون بوجهاتِ نظرٍ فلسفية في طبيعة العالَم الاجتماعي تختلف عن ذلك أشد الاختلاف. ويُنَوهُ دِنزن ولينكولن بأهمية ثلاثة "نماذج تأويلية" في البحث الكيفي هي: النموذج التركيبي – التأويلي" Constructivist-interpretive والنموذج **النقدي** (الماركسي، والتحرري) والنموذج **النسَوى**. كما يشير نيومان (Neuman, 2003) إلى ثلاثة أنماط من النماذج الكيفيَّة التي يُطلق عليها أسماء: **الوضعية، والتأويلية، والنقديةُ** (ص٨٣). ويَطرَحُ كلُّ واحد من هذه الاتجاهات القائمة على هذه النماذج مُسلَّماتٍ مُعَيَّنةً تتعلق بطبيعة الحقيقة وطبيعة الفرد (أي بالأونطولوجيا)، وبنمَط النظريةٍ (أي منهجية البحث) التي تستعملِها، وبما هو في الإمكانِ معرفِته، وما الذي يشكل بناء المعرفة (أي الإبستمولوجيا).

فإنْ أخَذْتُ باتجاه تركيبي أو تأويلي في البحث فسوف أفترضُ وجودَ حقيقةٍ ذاتيةٍ تتألَّفُ من القصص أو المعاني التي أضفَاها أو صاغها الأفراد الموجودونَ داخلَ بيئاتهم "الطبيعية". ويؤكد المفكرون ذوو النزعة التركيبية على وجهِ الخصوص أنه لا توجد حقيقة اجتماعية "موضوعية" ذات وجود خارجي مستقل (عن الباحث) تنتظرُ اكتشافها. شاهدَ ذلك أن ميلر و كرابتري (Miller and Crabtree, 1999) يُشيران إلى المفكرين ذوي النزعة التأويلية فيقولان:

تعود جذور هؤلاء التـأويليين إلـى الظاهراتيـة (Schutz, 1967) *والتأويلية* (Heidegger, 1927/1962). *كما أن هذا التراث يعترف بأهميـة الإبداع البشري الذاتي للمعنى، لكنهم لا يرفضون رفضاً تاماً بعض تصورات الموضوعية. ويؤكد أصحاب الاتجاه التأويلي على أهمية "التعدديـة"، ولـيس النسبية، مع تركيزهم على علاقة التوتر الديناميّ بين الذات والموضوع.* (ص ١٠).

ويتناول أحد **النماذج النقدية** مسألة كيـف تـسيطر القـوة والـضبط والإيديولوجيا على فهمنا للحقيقة. ويدور محور البحث هنا على الكيفية التـي بمُقتضاها تولّد ديناميات **القوة** مجموعة معينة من المعاني (أي الإيديولوجيات) الخاصة بالحقيقة الاجتماعية للأفراد وبخبراتهم الحياتية. ونلمس مثـالا لأحـد الأعمال المنطلقة من وجهة نظر هذا النموذج (النقدي) فـي البحـث **المابعـد الحداثي**، والذي يتشكك في الأساس الذي يقوم عليه مـا يعنيـه المـرء بأنـه "الحقيقة". ذلك أن المفكر الما بعد الحداثي يدرُس الطريقة التي يتم بها إنتـاج الحياة الاجتماعية وكيف يمنح حائزو القوة امتيازات لبعض الناس. فهدف بناء المعرفة هو "التحرير" كما يهدف إلى فضح الظُلم الاجتماعي. ويُقال إن بعض تنويعات هذا النموذج تـشتمل علـى الدراسـات ذات النزعـات الماركـسية والنسوية، والإثنية، والثقافية، ودراسات الشواذ. وقد وَضَعَ دِنـزِن ولينكـولن نموذجاً مستقلاً لهذه التنويعات التي أطلقـا عليهـا مـصطلح "**الأونطولوجيـا المادية-الواقعية**" (Denzin & Lincoln, 2000, p.21) وفيها يُنظر إلـى الحقيقة باعتبارها "تصورية" reprensentational وليست "واقعيـة" أو أنهـا هي "الحقيقة".

والنماذج أو رؤى العالم لا يمكن أن تعد صواباً ولا خطـأ؛ ذلـك أن إحدى طُرقُ الرؤية تمثل هي نفسها طريقة أخرى لعدم الرؤية. (أي أن إدراك أمرٍ ما يُمثل فَوات إدراك أمرٍ آخر – المترجم). إلا أن النماذج تُعد طُرقاً قويّة للبحث في الحقيقة، كما أنها تزودنا بنوافذ للوصول إلى المعلومـات المتعلقـة بالعالم الاجتماعي، وتقوم في كثير من الأحيان بصياغة الأسئلة المعينة التـي نسْعَى للإجابة عليها.

كثيراً ما نتصور أن الأسئلة الكيفية تتضمن اتجاهاً "استقرائياً"، وهو الاتجاه الذي يُركز على وصف الآراء أو الأفكار المتعلقة بظاهرة اجتماعية مُعَيَنة (مستعينا بالأسئلة التي تبدأ بكلمة "ماذا") أو على توليد هذه الآراء والأفكار. فالباحثون الكيفيون يطرحون أسئلة ذات نهايات مفتوحة من قبيل:

- ما الذي يَحْدُثُ هنا؟
- كيف يفهم الأفراد خِبراتهم التي يعايشونها؟

وإن من شأنِ أهداف البحث أن تكون استكشافية أو وصفية: أي أن تكتشف، وتشرَح، وتولِّد الأفكار/أو النظريات المتعلقة بالظاهرة الخاضعة للفحص والدراسة؛ أيْ أنها تهدف إلى فهم وتفسير الأنماط الاجتماعية (مستعينة بالأسئلة التي تبدأ بكلمة "كيف"). وفي رأى لجبريوم Gubrium وهولستين Holstein (١٩٩٧)، أن البحث الكيفيَّ يُمَيزُ بينَ الأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" والأسئلة المبدوءة بكلمة "كيفَ"، ومن شأن ذلك أن نتبين الفروق بين أنماط النماذج الكيفيَّة التي سبق وصفها.

يتركَّزُ الاهتمام الرئيسي لأغلب البحوث الكيفية على إجابات لأسئلة من قبيل: ماذا يحدث؟، وماذا يفعلُ الناس؟، وماذا يعني هذا عندهم؟ فالأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" تعالج مضمون المعنى الذي يتجلَّى من خلال التفاعل الاجتماعي وأثناء تداوله بين الأفراد عن طريق الثقافة. ويترتَّب على ذلك أن مهمة البحث تتمثل في وصف الواقع وفقاً لصورته الطبيعية التي هو عليها.
(Gubrium & Holstein, 1997, p.14)

وتركِّز الأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" على الأفراد وعلى المواقف الاجتماعية، فهي تبحث عن المعاني الموجودة في هذه المواقف، والمنبثقة منها، والمهمة بالنسبة لها" (جبريوم وهولستين، ١٩٩٧، ص١٤).

أما الأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف" في البحث الكيفي فهي مختلفة. إذْ أنها كثيراً ما تُنَحيِّ المعنى جانباً، كما أنها تهتم بالطريقة التي بها يقوم المبحوثون الموجودون في موقف بحثي معين بتفسير المعنىَ:

... من المعهود أن تُؤكدِ الأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف" على إنتاج المعنى. فالبحث يتوجَّه إلى الممارسات اليومية التي يتكوّن منها ما في الحياة اليومية من وقائع لها معناها، وكذلك ممارسات إقرارها وتأكيدها. لذلك فإن السؤال المُوَجَّه هنا هو : كيف يتمُّ تنفيذ وقائع الحياة اليومية؟ (جبْريوم وهولستين، ١٩٩٧، ص١٤).

هل يَعْني ذلك أن أسئلة البحثِ الكيفيُّ لا تُعالِجُ "سبب" الواقع الاجتماعي؟ مع إدخالنا في الاعتبار أن تقديم التفسيرات التي تعلّل أسباب ما يقع في الحياةِ الاجتماعية أمرٌ يتم التطرق إليه بشيء من الشكِّ. وليس من عادة الباحثين الكيفيين أن يصدروا أحكاماً عامَّة عن النظام الاجتماعي الكبير. ومن المألوف أن تكون الأسئلة المبدوءة بكلمة "لماذا" هي دائرة اختصاص الباحثين الكميين. وحين يتصدى الباحثون الكيفيون للإجابة عن أسئلةٍ مبدوءة بكلمة "لماذا"، فإنهم يَسْعَوْن "للوصول إلى الأجوبة بسلوكهم اتجاهاً مُخالفاً لفلسفتهم":

من الممكن أن يتعرض تشخيص الباحث للظروف البعيدة عن ثقافته إلى خطرِ إهمال دقائق الأمور في حقائق الحياة اليومية، وإهمال الطرق التي بها يتمُّ معايشة هذه الأمور وتقديمها. كما أن هذا التعرض بالبحث للظروف المختلفة يفتح باب التساؤل الكيفي عن مدى إمكانية تصوير الحياة اليومية بوصفها مجرد نتاج لهذه الحقائق التي يُزعَمُ أنها حقائق عامَّة. ولا يعنى هذا الكلام أنه... ينبغي على هذه الدراسات أن تَرفضَ التفسيرات العامة الواسعة النطاق (الماكرو)، إنما يشير فحسب إلى أن المخاطرة بحجب السمات العامة للبحث الكيفي لحساب التفسيرات العامة تكون ماثلة في الخلفية في مثل هذه الأحوال. (جَبْرْيوم وهولستين ١٩٩٧، ص١٩٦).

ولمواصلة مناقشة إحدى القضايا **الكيفية**، يُستَعمل أسلوبٌ يتصف بطابع استنتاجي أوضح؛ حيث يَطْرحُ أسئلةً تُساعدُ على وَصفِ الحوادث التي تقع في الواقع الاجتماعي، وعلى تفسيرها، بل والتّنبؤ بها. وتركز هذه الأسئلة على العوامل القابلة للقياس الكمّي:

- كم عدد؟

- ما مقدار؟
- كَمْ مَرَّة؟

وبالعودة إلى مثالنا الخاص بصورة الجسد نقول : **ما هي الصلة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين**: ذلك أنه كثيراً ما تفترضُ الأسئلة الاستنتاجية –سلفا– القيام "باختبارٍ" ما للعلاقة بين "مُتغيِّرين" أو أكثر. والمراد من ذلك التوصل إلى حُكمٍ يكون قابلاً للاختبار في صورة قضايا (أي أحكام) عن العلاقة بين متغيرين أو أكثر، يكون أحدُهما المتغير المستقل (ويُفترَض فيه أن يكونَ هو السبب) ويكون الآخر هو المتغير التابع (ويُفترَض فيهِ أن يكون هو الأثرَ أو النتيجة). وعلى ذلك، من المُرجَّح أننا، في المثال المذكور، سنطرح السؤال التالي:

- ما هي العلاقة بين النوع الاجتماعي (المتغير المستقل) واضطراب الأكل (المتغير التابع) بين الطلبة الجامعيين؟

استخراج أسئلة البحث

- كيف يصوغ الباحثون الأسئلة؟
- ما هو السؤال الجيد للبحث؟
- كيف يَفْهَمُ المَرءُ الأفكار الواردة في البحث؟

تَنْشأ مُشكلات البحث الكيفيّ من مجالاتٍ مختلفة كثيرة. وكما سبق أن ذكرنا من قَبْلُ، ترتكز أي مشكلة بحثية على مجموعة منَ المُسلّمات الفلسفية الخاصَّة بتصورِ باحثٍ مُعيَّنٍ للحقيقة. إلا أنه يَحْدُث خارجَ نطاق هذه الرؤية الفكرية العامة المتصلة بالواقع الاجتماعي؛ يَحْدُثُ في كثيرٍ جداً من الأحيان أن تثور بعض الأسئلة مِنْ واقع الخبرةِ الشخصيةِ، كما أن بالإمكان كذلك أن تنبثق أسئلة أخرى من داخلِ قضيةٍ مُعيّنة وَرَدت في أدبيات البحوث في موضوع ما.

وتقدم عالمة الاجتماع ديان فوجان في بحثها عن العلاقات الحميمة في كتابها بعنوان "الانفصال: نقاط التحول في العلاقات الحميمة" (Diane Vaughan, Uncoupling: Turning Points in Intimate

Relationships, 1990) تقدم في هذا البحث مثالاً شاهداً على كلامنا هذا. إذ تشتمل مسائل هذا البحث الخاصة بانتهاء هذه العلاقات الحميمة على طرح مجموعة من الأسئلة التي استمدّتها من خبرتها الشخصية، وكذلك من الأدبيات البحثية التي تناولت هذا الموضوع:

كيف تنتهي العلاقات؟ لماذا يُصبحُ أحد الشريكين مُستاءً من شريكه بصورة مُفاجئة ولماذا لا تكون بداية هذا الاستياء مُفاجئة مَعَ كل ذلك؟ ما هي الإشاراتُ التي يُرسلُها كل شريك لشريكه ليُعبر بها عن شكوكه؟ لماذا تمضي هذه الإشارات في أغلب الأحيان دون أن يَلحَظَها أحد؟ كيف يَصلُ الأفراد الذين يَروَنَ أنفُسَهم شُركاء لأحبّاءَ لهم إلى أن يتقبلوا، ليس مُجَرَّد غياب أحبائهم ولا هجرانهم، بل أن يتقبلوا أن يواصل الواحدُ منهم حياته بهوية جديدة هي هوية العازب. (فوجان، ١٩٩٠، الغلاف الخارجي للكتاب).

لقد نشأت قضية "الانفصال"، وهو الوصف الذي تُطلقه فوجان على هذه الظاهرة، نشأت من خلال تجربتها الشخصية مع الانفصال والطلاق، ومن خلال تأمُّلها الذي استعادت فيه النظر إلى هذه التغيرات الحياتية:

كُنتُ مُتزوجة لمدة عشرين عاماً. وعندما تأملتُ هذه العلاقة بعد انفصالنا، بدَا لي أن هذا الزواجَ قد أخذَ في التفكُّك ببطء على امتداد السنوات العشر الأخيرة. من المؤكَّد أنه كانت لنا أوقاتٌ طيبة، إلا أنني أستطيع، عند استرجاعي لأحداث الماضي، أنْ أتبيَّنَ نقاط التحول – وهي المراحل التي تَغيرَتْ فيها هذه العلاقة – والأوقات التي زادت فيها المسافة بيننا. لم تكن مراحل التغير هذه تدور حَولَ النزاعات أو حَولَ الإخفاقات العاطفية المعهودة التي يمكن أن تحُلَّ بأي علاقة. بدلاً من ذلك، بَدَت لي نقاط التحول هذه مرتبطة بتغيرات حدثت في الحياة الاجتماعية لكل واحد منا. مثال ذلك، أنني بدأت الدراسة بالجامعة لأنني تَبَيَّنتُ أنني لن أحْظَى أبداً بالرفقة المستمرة مع شريك حياتي وأنني محتاجة لشيء يخُصني أقوم به. وهذه الخطوة، والتي اتخذتها بسذاجة، غيَّرتني وغيَّرتنا... وعلى الرغم من أننا أحسسنا شخصياً أن انفصام هذه العلاقة كان حدثاً رهيباً ومُدمراً، فإن زَوَالها اتخذ شكل نوعٍ من الإيقاع الاجتماعي. وإذا كان من المعقول أن تتصف الخبرة بالنظام

وبالاضطراب في نفس الوقت، فإن هذا أمر يخالف البداهة. وربما كان هذا النظام راجعاً إلى أنّ زواجَنا استمر زماناً طويلاً مما جعل انتهاءه يستغرق فترةً طويلةً، متخذاً بذلك مظهرَ الانفصال المُنَظَّم. ولعلَّ هذا كان انعكاساً طبيعياً لمهمّتي التي كنتُ أقومُ بها في ذلك الوقت: فقد كنت طالبةً جامعيةً تدرُس علم الاجتماع، أي أنني كنتُ أتعلم كيف أفتش عن النظام في حياة الناس .(Vaughan, 1990, p.3)

كما أن الأسئلة التي وردت في بحثها نشأت من خلال مقالة علمية مُعَيَّنَة اطلعت عليها في مطبوعةٍ عن أدبيات البحث في الحياة الزوجية. فقد شدَّت إحدى المقالات التي تتحدث عن عملية الزواج انتباهها وشَرَحَتْ لها الصورة المعكوسة لعملية زواجها التي كانت تُعايِشها:

تصادف خلال نفس هذه الفترة أن اطلعتُ على مقالة تصف الزواج باعتباره عملية يتبادل فيها فردان الحوار حول علاقتهما ببعضهما البعض وبالعالم من حولهما. فكل منهما يبني حياته حولَ صاحبِه. كما يخلقان صداقات مشتركة، وانتماءات مشتركة، وذكريات مشتركة، ويخلقان كذلك مُستقبلاً مشتركا. وهما يُعيدانِ تعريفَ نفسيهما كزوجٍ واحد a couple (مُكونٍ من فَردين) في أعينهما وفي أعين الآخرين، الذين يستجيبون للهوية الزوجية التي يَخلُقانها .... وقد شدَّتْ هذه الأفكار انتباهي فوراً، وذلك لأنَّ ما بَدا لي أنه حَدَثَ، عندما تدهورت علاقتي الخاصة بزوجي، كان صورة مقلوبة لهذه العملية: فقد بدأنا (أنا وزوجي) نُعيد تعريف أنفسنا كفردين منفصلين، وتمَّ ذلك ببطءٍ وعلى امتداد الزمن. وبدلاً من الانفصال الفجائي، بدا انتهاءُ زواجنا وكأنه نوع من التحوُّل التدريجي. وقبل أن ننفصل جَسَديا بمدة طويلة، كنا قد انفصلنا اجتماعيا، فقد أخذنا نكوّن صداقات مُنفصلة، وخبرات منفصلة، ومُستَقبَلَيْنِ منفصلين... ولكي أجيبَ على الأسئلة التي أثارتها تجربتي الشخصية وأثارها المستقبلُ الذي نبهتني إليه المقالة التي قرأتها، بدأت إجراء المقابلات مع الأفراد (المبحوثين) لكي أتعرف على كيفية انتهاء علاقاتهم. (Vaughan, 1990, pp. 2-3)

وقد يتعرض الباحث كذلك لبعض القيود **الاقتصادية والزمنية** التي تكون مفروضة علية فيما يتصل بالموضوع المخصص للمشروع البحثي. شاهد ذلك أن قَرار جيمس بانكس James Banks الخاص بدراسة ملامح صورة الأمريكيين السود في الكُتب المدرسية جاءَ – بصفةٍ جزئية – بسبب القيود الاقتصادية والزمنية، وبسبب بعض المسائل العملية المتعلقة بالوصول إلى المبحوثين، والمؤثرة في استكمالهِ لرسالة الدكتوراه الخاصة به، وفي ذلك يقول:

كانت فكرتي الأولى لمشروع بحثي لرسالة الدكتوراه عن دراسة التأثيرات التى يُحدثِها برنامج تدريب تجريبي على اتجاهات واعتقادات المدرسين في بعض المدارس الحضرية. وقد اضطررتُ إلى التخلي عن هذه الفكرة لأسبابٍ متعددة. أولا: كان من اللازم أن أكملَ دراستي في بَحر سَنة واحدة، ولم يكن راجحاً أن أتمكن من تصميم وتنفيذ هذا النوع من الدراسة الذي في ذهني في حدود هذا المدى الزمني. ثانيا: كُنتُ في حاجةٍ للحصول على تعاون منطقة كبيرة بها مدارس حضرية، وتعاون عددٍ كبيرٍ منَ المدرسين لإجراء الدراسة. كما أن الاستجابة الأولى التي تَلَقيتُها مِن إحدى المناطق الكبيرة التي بها مدارس حضرية أقنعتني بأنها غير راغبةٍ في التعاون معي في تنفيذِ الدراسة. ثالثاً: لو أن هذه الدراسة قد نفذت لكانت تكلفت تكلفة باهظة، كما أنه لم تكن لديَّ الموارد المالية اللازمة لتمويل هذا النوع من المشروعات البحثية. وعلى الرغم من أنني شعرت بالإحباط لعجزي عن تنفيذ دراستي "المثالية"، فإنني لم أيأس. فقد كنت متأكداً من أنه على الرغم من أن مدرس الفصل هو أهم العوامل في البيئة التعليمية للطفل، فإنه توجد متغيراتٌ أخرى تُؤثر على تمكُن الطالب من فهم المحتوى العلمي لمواد الدراسة، وعلى اكتسابه للاتجاهات المطلوبة. ومن بين هذه المتغيرات الأخرى، ربما كان الكتاب المدرسي هو أكثرها أهميةً (Banks, 1976, pp. 383-384).

وقد يواصل الباحث دراسةَ موضوعٍ مُعين وتجمعا معيَّناً لوجود تمويلٍ مُتاحٍ لدراسة ذلك الموضوع. فقد توجد جهات أو هيئات تقدم منحاً دراسية، كالجهات الرسمية (الحكومية مثلاً) والجهات الخاصة (كالجمعيات الخيرية

مثلاً)، التي تمنح الموارد المالية اللازمة لدراسة قضايا مجتمعية مُعينة. وكانت هذه الحالة هي حالة الدراسة التي تَضمنتها الرسالة العلمية التي قدمتها ستلا جونز Stella Jones(١٩٧٦/أ) عن الحراك الجغرافي. فقد كانت قبل ذلك مهتمة بموضوع التنشئة الاجتماعية للبالغين. وبتركيزها على الكتابات الوفيرة في هذا المجال، قامت جونز بتضييق نطاق موضوعها فقصرتْهُ على القضايا التي تتناول موضوع "مَسَارات اكتساب المكانة" لدى البالغين، أي: كيف يستطيعون التكيف مع التغيرات التي تَحْدُثُ في حياتهم كبالغين وهم يمضون قُدُماً في دورة حياتهم (جونز، ١٩٧٦/أ، ص٣١٦). وأصبحتْ أشد اهتماماً بموضوع التأثيرات التي تُحدثها مَسَارات اكتساب المكانة على شخصية الشخص البالغ، كما أن هذا الاهتمام قد أخذ يضيق نطاقُهُ بالتدريج عندما أدخلَتْ في اعتباري الأنثى الراشدة ودَوْرَها التقليدي كزوجة وأم (جونز ١٩٧٦/ب، ص٣٢٨). وهذه المشكلة البحثية الخاصة وذلك المجتمع بعينه، اللذان اختارتهما لبحثها، قد فُرضا عليها فرضا بسبب نمط المبحوثين الذين استطاعت الوصول إليهم، وبسبب التمويل الذي أمكنها الحصول عليه لتنفيذ أهداف بحثها، وفي ذلك تقول:

بدأ قسم علم الاجتماع-الذي يَتولَّى فيه زوجي إحدى الوظائف- يُخطط لتنفيذ حلقة دراسية عن تأثيرات الحراك الجُغرافي على الأمِّ المُتزوجة. وكان من المقرر أن تمول هذه الحلقة الدراسية واحدةٌ من كُبريات شركات خُطُوط النقل. وقد خَطَرَ ببالي... أنَّ بإمكاني تقديم إسهام بهذه المناسبة. وافترضتُ أن كوني أُنثى سوفَ يُساعدني في هذا المَسْعَى. وكان خطاب الدعوة إلى المشاركة في هذه الحلقة الدراسية يدعو إلى تقديم بحث علمي يتسم بالأصالة... وكان معنى هذا النظام أنه يتعين على تطوير خطة بحث، والحصول على تمويل من شركة النقل المذكورة، والحصول على موافقة منظمي هذه الحلقة الدراسية... وكانت شركة النقل هي الأكثر ترحيبا بمشروع بحثي. وكانت السهولة النسبية في الحصول على التمويل، وإعطائي قائمة بعناوين النساء اللائي انتقلن حديثا؛ كانت مفاجأة تامة بالنسبة لي نظراً لعلمي

بمدى الصعوبة في الفوز بالوصول إلى المنظمات من أجل القيام بالبحث (جونز، ١٩٧٦/ب، ص ٣٢٨-٣٢٩).

وتُوصِي الممارسة البحثية السليمة (الملتزمة بالقواعد العلمية) بأنه ينبغي أن يكونَ اختيار مشكلة البحث هو العامل الذي يقرر نمط طريقة البحث المستعملة في الدراسة. ومع ذلك، فقد يحدث في بعض الحالات أن يؤدي تفضيل الباحث لطريقة بحثٍ معينَةٍ إلى أن يَفرِضَ عليهِ المشكلة التي يتعين عليه دراستُها. شاهد ذلك أنَّ أنتوني إن.دوب وألان جروس (Anthony N.Doob and Alan E. Gross, 1976) كانا مهتمين بفهم الظاهرة السيكولوجية "للإحباط". وبجانب ذلك، فإنهما كانا يرغبان في دراسة هذا الموضوع باستعمال طريقة بحثٍ "غير تَدَخلية "unobtrusive"، والتي من شأنِ المبحوثين عن طريقها ألاَّ يعلموا أنهم محلُّ دراسة. وقد ساعدت طريقتهما هذه على توجيههما إلى نمط البحث الذي توصلا إليه لدراسة هذا الموضوع. وقد كتبا ملاحظةً على هذا المأزق الذي مرّا به فقالا:

إنَّ أغلب ما يُنفَّذُ من بحوث في العلم الاجتماعي يبدو كما لو كان مخططاً وفقاً لأسلوب منطقي دقيق. ذلك أن التقارير تُكتَبُ وكأن الأفراد الذين أعدوها قد انتهوا لساعتهم من قراءة الكتابات المنشورة المتصلة ببحثهم ثم رَأوا أنَّ ثَمّةَ سؤالاً معيناً بحاجة إلى أن يُجابَ عليه. ويبدو الأمر - بصورة عامة- كما لو أن هؤلاء العلماء قد فكروا كثيراً في أفضل طريقة للإجابة على هذا السؤال، ثم صمَّموا بحثهم وفقاً لهذه الطريقة. أما بَحثُنا.. فإنه لا يندرج تحت هذا النَّمطَ. فهو، بدلاً من ذلك، يمثل ثمرة لمحاولة صريحة ومقصودة لتصميم دراسةٍ ما تستعمل طريقةَ بحثٍ معينة، كانت -في ذلك الوقت- قليلة الاستعمال نسبياً في مجال علم النفس. والواقع أنه حدث، في هذه الحالة، أن الموضوع الذي انتهينا إلى اختياره للدراسة والمسمى: إطلاق صفارة العربة ("كلاكس" السيارة horn honking) إنما اخترناه فحسبُ لأنه كان مُتجاوباً مع طريقة البحث التي تهمُّنا. (Doob & Gross, 1976, p.487).

وقد أتاحت دراسة "إطلاق صُفَّارة العربة" (وهو مقياسٌ غير تَـدخلي) في موقعٍ طبيعي؛ أتاحت للباحثينِ إجراء تجربةٌ استطاعا فيها قياس مُـستوَى الإحباط عند الأفراد (تبعاً لعدد مرَّات إطلاقهم لصُفارات عربَاتِهم) كما يلي:

فَكَّرنا في عددٍ من الأساليب المختلفة التي تـسبب الإحبـاط للنـاس، وانتهينا إلى أسلوب منَ أساليب الإحباط اليومية التي يَخْبُرهـا أغْلَـبُ أبنـاءِ المُدُن، وهي الإحباطات الناجمة عن حالات الزحام فـي حَرَكَـةِ المـرور.. وسرعان ما تنبه واحدٌ منا إلى أنه من السهولة إحباط امرئ ما أثنـاء حركـة المرور بمُجَرد التوقف وعَدَم التحرك عندما تُضيء إشارة المرور الخضراء. وعند ذلك، وفي غُضونِ دقائق قليلة، طوّرنا أفكارنا الخاصة بالمتغيّر التـابع في هذه الدراسة. فما علينا إلا أن نقيس طولَ الوقت الذي يَستغرِقُهُ قائدُ السيارةِ التي خَلْفَنَا في طابور السيارات حتّىَ يطلق صُفارة عَرَبَتِهِ (Doob & Gross, 1976, p. 488).

لعلَّ أحد أكثر السبل شيوعا للحصول على مشكلة للبحث، هـو إلقـاء نظرة عامة على التراث المنشور في موضوع معين. شاهد ذلك دافيد كارب – أحد علماء الاجتماع في بوسطن كولدج– الذي ألف عدة كتب عن الاكتئاب. إذ يَرىَ كارب أن إلقاء نظرة عامة على التراث المنشور يقوم بدور الجسر الذي يصلُ اهتماماته بأحد مجالات البحث التي في متناول المرء أن يفحصها بعناية. فهيَّا بنا ننضم إلى دافيد كارب حيث يعرض لنا ما وراء الكواليس.

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حسنا، لقد أدْهَشني الأمر لغرابته، وذلك عندما نظرتُ إلى كل تلـك الكتابـات التي تتحدث عن الاكتئاب، وهي كتابات تضم مادة علمية هامة فعلاً تتحـدث عن المتغيرات المستقلة التي تمَّ ربطها بمعدلات الاكتئاب، وما إلى ذلك. ولكن الاكتئاب نوع من اضطراب المشاعر. إنه اضطراب وجداني. وهكذا أخـذت –وأنا على ذلك الحال – في قراءة كل هذه المادة العلمية دون أن أستمع إلـى مشاعر الناس الذين أُصيبوا بهذا الاضطراب. وقد أدهَشَني كنوع من التناقض أن يكون هذا هو الواقع فعلا حيث خلت تلك الكتابات حقيقة من ذكر مـشاعر

هؤلاء الناس. وكما قلتُ من قبلُ، فإن أحد أهدافي، وهو أحد أهداف البحث الكيفي على الأقل، أن أدع الناسَ يتحدثون، وذلك حتى تُقرَّ بأن الأفراد الذين تُجرِي معهم مقابلات شخصية هم خُبراء فعلاً. فأنت تتحدث إليهم **لأنهم** هُمُ الخبراء. وعلى ذلك، فإنه يتعين عليّ أن أقوم بواجبي في هذا المجال، وذلك لأن أحدا لم يستمع من قبل إلى أصواتهم. وكان بمكتبة أونيل O'Neill العامة مجلة علمية... فقد كنت أتجول يوماً ما بين رفوف الكتب، فوقعت مصادفة على مجلة علمية اسمها "المجلة العلمية للاضطرابات الوجدانية"(*). وقد مَلأت أعدادُها نحو خمسة أقدامٍ من الرفوف في هذه المكتبة، ولم يكن بها صوتٌ واحد، ولا كلمة واحدة صدرت من شخصٍ يُعاني فعلا من الاكتئاب. فقلتُ: "يا للعجب، لقد ظَفَرت بشيء أقوم به في هذا المجال". وكانت هذه هي البداية.

ومع أن هذا القسم من الكتاب لا يستهدف الخوض في تفاصيل **كيفية** البحث في التراث المنشور حول الموضوع، إلا أننا سوف نناقش مختلف الأساليب التي تساعدك بها عملية استعراض التراث المنشور على صياغة مُشْكلة بحثك. ويُزودُنا لوك Locke، و سبيردوزو Spirduso، وسيلفرمان Silverman (٢٠٠٠) بصورة مَجَازية مفيدة للتفكير في عملية استعراض التراث المنشور عندما يشيرون إلى أنها تشبه نوعاً من "الحوار المُوَسَّع" "extended conversation"(ص٦٣)، حيث يقولون:

إن عملية التعرف على مواقع أصوات المتحاورين الأفراد تسمى -مثلا- **الاسترجاع retrieval**. وهي عملية تشتمل على التنقيب داخل التراث المنشور عن الموضوع للعثور على ما سَبَقَ قولُه (متى، وبواسطة مَنْ، وعلى أي أساسٍ من الأدلة؟). أما عملية الإصغاء بعناية للحوار المستمر حول موضوع بحثٍ فتُسَمَّى "**الفحص**" أو **المراجعة**. وهي عملية تشتمل على دراسة النقاط التي سبق اكتشافها إلى أن نصل إلى فهم كلٍ من تاريخ هذا الحوار وموقفه الراهن (ص٦٤).

(*) The Journal of Affective Disorders

أولا، إذا كان الأمر عندك غامضاً فيما يتصل بموضوع بحثك وتحتاج إلى الوصول إلى فكرة عما هو موجود من كتابات في هذا المجال، وذلك لكي تبدأ في تضييق نطاق الأمور التي يمكن دراستها، فإن البحث عن موضوعك من خلال استعراض التراث المنشور قد يكون أسلوباً جيداً للبداية. وقد تحتاج في مبدأ الأمر إلى الإلمام بأنظمة الاسترجاع الكومبيوترية الخاصة بعمليات استعراض الإنتاج الفكري المنشور، والتي قد تكون مُتاحةً لك، ومنها تلك المجموعة الضخمة من قواعد البيانات ذات الموضوعات المحدَّدة، والتي تتوافر حالياً بصورة مباشرة على شبكة المعلومات، أو بصورة منفصلة (على ديسكات مثلا). وتحتوي أغلب قواعد البيانات المذكورة على مستخلصات (أي ملخصات موجزة) للمقالات والتقارير التي تمكِّنك من أن تحصل بسرعة على صورة عامَّة عن هذه الأعمال. وقد تحتاج كذلك إلى التفكير في بعض الكلمات أو التعبيرات الأساسية (المفتاحية) المهمة التي تستطيع إدخالها في قواعد البيانات المذكورة التي سوف تقدم لك أفضل وصف للموضوع محل الاهتمام.

- كيف يُحدد مؤلِّفو هذه المقالات موضوعاتهم؟
- ما هي المصطلحات والعبارات الأساسية التي يستعملونها؟ احتفظ بقائمة بهذه الأسئلة حتى تستطيع بناءَ مجموعة مفيدة من المصطلحات لتدخلها في قواعد بياناتك.
- كيف عالج الباحثون الآخرون موضوعك؟
- ما هو تاريخ البحوث في هذا الموضوع؟
- ما هي أبرز موضوعات الخلاف المثارة داخل هذا التراث المنشور؟
- ما هي نقاط الاتفاق وما هي نقاط الخلاف؟
- ما هي الأسئلة المحددة التي طرحت حول تلك النقاط؟
- ما هي النتائج التي تَمَّ اكتشافُها؟
- ما هي نتائج البحث التي تبدو الأشدَّ اتصالاً بموضوع بحثك؟
- ما هي الأمور التي لم تنجز ويتعين التصدي لها، أي ما هي القضايا الملتهبة التي لا تزال بحاجة للمعالجة فيما يتصل بموضوع بحثك؟

• أين هي الفجوات التي وَجَدْتَها في هذا التراث المنشور؟

وبالرجوع إلى الصورة المَجَازية الخاصة بتصوير استعراض التراث المنشور باعتباره نوعاً من "الحوار المُوَسَّع"، قد تكتشف أنه بالإجابة على كثير من هذه الأسئلة، فإنك تَظْفر بفُرصة للإصغاء إلى الحوار الدائر حول موضوع مُعين، مما يُفضي بك في نهاية الأمر إلى أن تكون طرفاً في هذا الحوار. وإن كنتَ قد قُمتَ بالفعل بتضييق نطاق موضوع بحثك ليتَناولَ قضايا مُحَدَّدة، فإنَّ استعراض التراث المنشور يمكن أن يزودك بسياق تضع في داخله هذه القضايا، كما أنها سوف تُتيح لك أن تطوِّع هذه القضايا في ضوء ما تَجدهُ في مراجعتك للتراث المنشور. ولَعَلَّك سوفَ تكتشفُ أنَّ باحثينَ عديدينَ قد طرحوا من قَبلُ سؤالاً مشابها: كيف سيؤثر ذلك على طريقة متابعتك لدراسة موضوعك؟ هل ستقرر أن تكررَ دراستَهم، هل ستَمُدُّ نطاق دراستك ليُغطي جمهوراً مختلفا من المبحوثين، أمْ أنك ستُقرر تغيير مُشكلتك قليلاً لتواصل دراسة مَجَالٍ جديدٍ غير مطروق؟.

وعند القيام بتصميم بحثٍ كيفيٍّ يكون من المهم عدم التفكير في مراجعة التراث المنشور باعتبارها خطوة تحدث في **لحظة معينة مُحدَّدة** من مراحل عملية البحث، إذ أن المألوف في البحث الكيفي، عادة، أن يجري استعراض موسع للتراث المنشور في بداية المشروع البحثي، كما تقوم هذه المراجعة بدور التبرير للسبب الذي جَعَلَ الباحث يطرح سؤالاً بعينه، وتبرير أهميته البحثية. ويخاطر الباحثون الكميون بالتعرض "للغرق فى هذا التراث المنشور"، لأنهم قد يشعرون أنهم لا يمكنهم أن يبدءوا مشروعا بحثياً بدون التنقيب والبحث في كل شيء. لذلك قد يصدرُ منهم نوع من التشدد أو التصلب فيما يقومون بهِ من مراجعة للتراث المنشور، كما أنه لا يَحْدُث عادةً إلا في النهاية الأخيرة لمشروعهم أن يعودوا مرةً ثانيةً فيراجعوا استعراضَهم للتراث المنشور حتى يُدرجوا في تقريرهم العلمي النتائج غير المتوقَّعة الموجودة في هذا التراث.

وبإدخالِ الطبيعة التكرارية لعملية البحث الكيفي في الحسبان، وتأكيدها على أهمية الاكتشاف، فإن استعراض التراث المنشور قد يتم في الواقع في

عدة مراحل من العملية البحثية، وذلك عندما يقع الباحث على اكتشافات جديدة في ثنايا بيانات بحثه، وعندما يتوقع الباحث من هذا الإنتاج المنشور أنْ يُزودهُ بسياقٍ يستطيع أن يفهم في إطاره ما وصل إليه من نتائج. ويترتب على ذلك أنَّ استعراض الإنتاج الكيفي المنشور قد يخذ أشكالاً كثيرة من "اللف والدوران"، لأن الباحث محكوم بما يقوم به من تحليل للبيانات التي تجعله يَطرح أسئلةً جديدة قد تقود إلى مجموعة مختلفة منِ الإنتاج العلمي المنشور. وفي بعض الأحيان يجد الباحثون الكيفيون أنه يشُقّ عليهم اتباع خطة معيارية لمقترح بحثٍ (كميّ) تتطلب القيام بمراجعةٍ مُسْهَبة إلى حدٍ ما للإنتاج المنشور، في الوقت الذي يكونُ فيه ما ينوون عمله هو اكتشاف مجموعة معينة من المشاكل و/أو القضايا، وليس "اختبار" الفروض المُحدَّدة التي التقطوها أو جمعوها شيئاً فشيئاً باستخرجها مما قاموا به من مراجعة للإنتاج المنشور. وبهذا الشكل قد يقوم استعراض التراث المنشور بوظائف مختلفة أشد الاختلاف داخلَ نطاق التحليل الكيفي مُقارنةً بوظائفهِ في نطاق التحليل الكمي.

تصميم البحث

تستند تساؤلات البحث – كما بيّنا – إلى رؤية فكرية فلسفية تتعلق بطبيعة الحقيقة، إلا أنها تتقيد كذلك بطائفةٍ من العوامل مثل الاهتمامات الأكاديمية والشخصية، والقدرات والقيم الاجتماعية، كما تتأثر كذلك بالوسائل التي يستخدمها الباحث للوصول إلى الموارد الاقتصادية الخاصة، والمصادر المتصلة بأسلوب الحياة. ذلك أن هذه العوامل جميعها تحدد "مَسَار **البحث**" الذي يَسْلُكُهُ أي مشروع بَحْث.

وعند اختيار تصميم للبحث (وهو التصميم الذى يحدد كيف سَيُنَفذُ الباحثُ مشروع بحثه)، ربّما يكون من أهم الأسئلة التي يحتاج المرء أن يطرحها هذا السؤال:

- ما هو نوع التراث النظري الذي سوف يميز مُشكلة بَحثي (هل هو التراث التأويلي؟ أم تراث النظرية النقدية؟ أم هو النظرية الوضعية؟ أم ماذا؟).

مثال: تصميم بحث وضعي

تنشأ القضية البحثية التالية انطلاقاً من تــراث وضــعي/ ومــا بَعــدَ الوضعيّ، وتطرح السؤال التالي:

- **ما هي العلاقة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبــة الجامعيين؟**

فهذه القضية/ أو المشكلة البحثية تُقَرر العلاقة بين مُتغيــرين، يُــسمى أحدهما المتغير **المستقل** (وهو المتغير الذي نعتقد أنه السبب، وهو هنا: النوع الاجتماعي، والأخر يُسمّى المتغير **التابع** (والذي نعتقد أنه بحاجــة للتفــسير، وهو هنا: اضطرابات الأكل). وفي نطاق الإطار الفكري الوضعي/ الما بعــد الوضعي، يكون الباحث مشغولاً بالبحث عن "**سبب ونتيجة**" (أو علّة ومعلول). ولتقرير هذه العلاقة السببية، يكون من الأهمية أن يــسبِقَ المتغيــرُ المــستقلُ المتغيِّرَ التابع سبقاً زمنياً، وأن تُوجَدَ علاقة بين هذين المتغيرين، وأنه لا يُوجد متغير ثالث، بحيث إنه لو كان هذا المتغير مأخوذاً في الحُسبان، فإن العلاقــة الأصلية بين المتغير المستقلِ والمتغير التابع تظلُ موجودة فلا تَختَفي. ولمُتابعة هذه القضية البحثية، فإنك تحتاج لأن تقرر **من/أو ماذا** ستبحثه، **وأين** ستجري متابعةُ البحثِ. وللإجابة على الجانب الخاص "بمَن" أو "بماذا"، فإنك ســتحتاج إلى تحديد "وحدة التحليل" الخاصة بدراستك: هــل ســتكون أفــراداً، أم دولاً قومية، أم منظمات، أم ماذا؟ وحينئذٍ ســوف تحتــاج إلـــى أن تــضع قائمــة بالسلوكيات والملابسات والمجتمعاتَ التي تهتم بدراســتها (Golden, 1976, p.6).

ولكي نتابع دراسة هذه القضية البحثية، فمنَ المُرجَّح جداً أننا ســوف نصل إلى فَهمٍ كهذا الفهم التالي:

تقوم هذه الدراسة على أساس الإجابات التي تم الحصول عليهــا مــن ١٠٠٠ من الطلبة الجامعيين الذكور و ١٠٠٠ من الطالبات الجامعيات. وقد تم اختيار الطلبة من عينة عشوائية من خمس كليــات تابعــة لمجموعــة أيفــي بالولايات المتحدة U.S. Ivy Leagu. وقد أعطى كل واحدٍ من هؤلاء الطلبــة استبيانا يُجيب عليه المبحوث بنفسهِ ليملأهُ، وكان هذا الاستبيان يشتمل علـــى

عادات الأكل الشخصية، ونَظمُ الحِميَة، واتجاهات المــرء إزاء نفـسه، وإزاء العائلة، والأصدقاء، والكلية، والقضايا المتصلة بذلك. وقد أُدرجَ في الاستبيان مقياسان مختلفان للسلوكيات المرتبطة باضطرابات الأكل، وقد أُطلق على أوّل هذين المقياسين "اختبار اتجاهات الأكل" (EAT)(*)، وأطلــق علــى المقيــاس الآخرَ "بيان اضطرابات الأكل" (EDI)(**). وقد وضِــعَتْ لهــذين المقياســين درجات متعددة لتصنيف الطلبة إلى فئتين من الآكلين: الفئة السوية والفئة غير السوية.

في مثالنا السابق، تتمثل وحدة التحليل في الطالب الجامعي والطالبــة الجامعية. ويتمثل مجتمع الدراسة في الكليات الجامعية التابعة لمجموعة أيفي، كما أن السلوكيات التي يشملها البحث هي: الاتجاهات نحو تناوِلِ الطعام (وهي تمثل المتغير المستقل) والقيم والعوامل الأخــرى التــي تــدخُلُ فــي تقريــر السلوكيات المرتبطة باضطراب الأكل (وتمثــل المتغيــر التــابع). ويمكــن استخراج مجموعة من الفروض من هذه القضيَّة المبدئية:

الفرض رقم (١): النساء أرجَحُ احتمالاً من الرجال في الالتــزام بالحِميَــة (النظام الغذائي).

الفرض رقم (٢): النساء أرجحُ احتمالاً من الرجال في الاهتمام بالأكل.

الفرض رقم (٣): النساء أرجح احتمالاً من الرجال في التصريح بــرغبتهن في فُقدان الوزن.

الفرض رقم (٤): سوف تُبدي النساءُ مُعدَّلاتٍ من الاســتياءِ مــن صــورة أجسادهن أعلى من الرجالِ.

الفرض رقم (٥): سوفَ تُبدي النــساء مُعــدَّلات مــن الــسلوك المــرتبط باضطرابات الأكل أعلى من الرجال.

وبمجرد صياغة قضية بحثية أولية وصياغة مجموعة من الفــروض، يكون من الأهمية إدخال السؤالين التاليين في الحُسبان:

(*) Eating Attitudes Test
(**) "Eating Disorders Inventory

- كيف ستقوم "بقياس" هذه الأفكار؟ بمَعنى: كيف ستضع يدك عليها في الواقع الاجتماعي المحسوس؟
- كيف تقرر ما إذا كان لَدَى المبحوثين نوعاً من اضطراب الأكل؟

إن **القياس** هو العملية التي نُحَوِّلُ بها **المفاهيم** – مثل "اضطرابات الأكل" – إلى "**متغيرات**". ويُطلقِ على عملية تحويل المفاهيم إلى متغيرات مصطلح "**التعريف الإجرائي**". وتُعتَبَر بعضُ المتغيرات – مثل "النوع الاجتماعي" – أسَهلُ في قياسها، كما أن بالإمكان أن نضع أيدينا عليها في الواقع الملموس من خلال طَرْحِ سُؤالٍ بسيط مثل : ما هو نوعك؟ وتساعد الإجابة التي يقدمها لك المبحوثون – في الدراسة– على تصنيفهم (أى تحويلهم إلى متغيرات) تبعاً لوضعهم من حيث النوع. وتكون بعض المفاهيم الأخرى، "كاضطرابات الأكل" شديدة التجريد وقد تتطلب بذْل قدرٍ كبير من التحليل النظري أو إعمال العقل فيما نعنيه بهذا المصطلح وبأبعاده المتعددة. فاضطرابات الأكل لها من الأبعاد ما هو **سلوكيٌ** وما هو **نفسيٌ**، وهي الأبعاد التي يتعين قياسها. وهو الأمرُ الذي يقتضي طرحَ عددٍ من الأسئلة لكي نستطيع أن نضع أيدينا على شتى المظاهر السلوكيةَ لهذا الاضطراب، كالسلوكيات المتصفة بالشراهة المَرَضيةَ، أو تلك المتصفة بفقدِ الشهية للطعام، والسلوكياتِ المرتبطة بالحمية الغذائية، فضلا عن مختلف الأبعاد النفسية، مثل "مخاوف النُضج" و "نزعة الحِرص الزائد على الكمال"، ونحو ذلك. وقد يخرج المرء بمجموعة من الأسئلة في شكل قائمة ترصد كافة تلك المظاهر (تكون عبارة عن مقياس) يسمى بيان اضطرابات الأكل (EDI)، يتألف من طائفة من العناصر التي تشمل الأبعاد السلوكية والنفسية للسلوكيات المرتبطة باضطرابات الأكل (Garner, Olmsted & Polivy, 1983)). ويمكن للمرء أن يوزع هذه الأسئلة على أفراد مجتمع البحث الذين اختارهم، وسيتحدد في ضوء الإجابات عليها إلى أي مدى يمكنُ تصنيف الفرد بوصفه يتسم بواحد من سلوكيات اضطرابات الأكل.

الصدق والثبات

من القضايا المهمة التي يهتم بها مفكرو الوضعية/ وما بعد الوضعية فيما يتصل بموضوع القياس: قضية صدق وثبات المقاييس المستخدمة.

وترتبط وجهة نظر التراث الوضعي للحقيقة الاجتماعية -باعتبارها "أمراً قابلاً للمعرفة" – ارتباطاً شديداً بمفهوم تقليدي للصدق، حيث يُعَرَّف من ناحية القياس تعريفا صارما على النحو التالي:

- هل يَقِيسُ المقياسُ ما يُفْتَرَضُ منه قياسُه؟
- هل يُوجدُ توافق بين هذا المقياس والحقيقة الاجتماعية الموضوعية؟
- مثال : هل يعتبر " بيان اضطرابات الأكل" (EDI) مقياساً صادقا لاضطرابات الأكل؟

ويُعلِّق كفيل Kvale (١٩٩٦) على ذلك فيقول:

في الفلسفة الوضعية، تُصبح المعرفة انعكاساً للحقيقة: فلا يُوجَدُ إلا رؤيةَ صحيحةَ واحدة للعالمِ الخارجي المُستقِل، كما أنه يوجد على مستوى المثال تطابقٌ تام بين عناصر العالمِ الحقيقيِّ وبين معرفتنا عن هذا العالم. (ص٢٣٩).

ويرتبط مصطلح الصدق بأحد ميادين علم النفس، المعروف باسم "القياس النفسي".

ارتبط مفهوم الصدق– في مجال علم النفس –بالقياس النفسي، حيث يتمُ تقرير الصدق المتزامن والتنبؤي لأي اختبار سيكولوجي في صورة مُعاملات ارتباط تدُلُ على التوافق بين نتائج الاختبار وبعض المعايير الخارجية. (Kvale, 1996, p. 238).

لذلك، وعلى سبيل المثال، يكون بالإمكان استعمال درجات الاختبار المُسمَّى "اختبار الاستعداد للتعلم"(*) في التنبؤ بالنجاح في الكلية (أيِ: في الصدق التنبؤي). ومن الممكن أن يكون مقياس النجاح هو ما يَحْصُلُ عليه الطالب من مجموع تراكمي (GPA) في سنوات الدراسة في الكلية (وهو معيار خارجي).

أما المقياس المُسَمَّى **تأكيد المعنى** فيقيس صدق المفاهيم الأكثر تجريداً مثل مفهوم "التسلطية"، عن طريق افتراض ما قد تكون التسلطية مرتبطةً به

(*) Scholastic Aptitude Test (SAT).

(نظرياً) لو أن هذا المقياس كان صادقاً. ولهذا، وعلى سبيل المثال، يمكننا أن نتوقع ارتباط أحد مقاييس التسلطية بفقدان الثقة والسلوك النزّاع للشك (انظر دويتش Deutch و كراوس Krauss، ١٩٦٥).

ويهتم الباحثون الذين يلتزمون بالنموذج الوضعي -كذلك- بالقضايا المتصلة بالثبات. ويطرح الثبات سؤالاً يقول : إذا قدَّمتُ "بيان اضطرابات الأكل" (EDI) إلى مجموعة من الطلبة في اليوم رقم(١)، فهل سأحصل منهم في اليوم رقم (٢)، على نفس الإجابة التي حصلت عليها في اليوم رقم(١)؟ فإن لم يوجد سبب للشك في حدوث أي تغيُّر حقيقي في حياةِ الطلاب من يومٍ إلى اليوم الذي يليه، فينبغي أن أتوقع أن يأتي هذا البيان (EDI) : بنتائج متسقة في إجابات الطلاب من اليوم رقم(١) إلى اليوم رقم(٢)، وإن لم يَحدُث هذا، فسَوف أقلق على مدى ثبات هذا المقياس. فإن وُجدَت نتائج متعارضة، فلعل ذلك راجعٌ إلى وجود شيء ما في صميم الأسلوب الذي أستعمله في طرحِ بَعضِ الأسئلة مما يجعل هذه النتائج تتسم بعدم الثبات، كما يجعلها عُرضة للخطأ.

وهذا الوضع يختلف عن موضوع الصدق. فقد يكون بيان اضطرابات الأكل مقياساً صادقاً، ولكنه لا يتسم بالثبات. فقد يَرجع سبب عدم الثبات، مثلاً، إلى الطريقة التي اتبعتها -مادياً- في تقديم الأسئلة بالاستبيان والتي جعلت من الصعوبة على المبحوثين أن يضعوا علاماتٍ على الخانة الملائمة في كل مرة. فهذا الوضع لا يرجع لطبيعة المقياس إنما يرجع إلى الطريقة التي قُدِّم بها. ولعله يجدر بي لكي أجعل بعض المقاييس أكثر ثباتاً أن أُضَحِّيَ ببعضِ التفاصيل في هذا المقياس، وقد تأتي هذه التضحية عن طريق طرح أسئلة أقلَّ عدداً وأقل تعقيداً، بحيث أقدم مجموعةً أبسطَ من الاختيارات تكون أقلَّ عُرضةً للتعارض عند وَضع المبحوثين للعلامات أمام خانات الاختيار. معنى ذلك أنني أستطيع أن أُضحِّي بشيءٍ من الصدق في مقابل مكسبٍ ما من حيث الثبات. ومعنى هذا أنني أستطيع وضع مقياس لاضطرابات الأكل قد لا يكون أشمل المقاييس من حيث الإحاطة بكافة أبعاد قَضايا اضطرابات الأكل، ولكنه يكون مقياساً أبسطَ وأسهل في تقديمه، كما يقلل من المشكلات الخاصَّة بالثبات.

وبصفتي باحثاً، فإنني أقوم على الدوام بإعطاء أهمية لثبات المقياس فى مقابلِ صدقه. ومن الناحية المثالية، ينبغي على المرء أن يُقيم توازناً دقيقاً بين هذين الأمرين المهمين.

اختيار العينات (المعاينة)

القضية الثانية التي يحاول الباحث تأكيدها هي ما يتصل بقراره المتعلق باختيار العينات: فمن هُم جمهور مجتمع البحث الذين ترغبُ في دراستهم؟ وهل تريد صياغة تعميماتٍ عن الطلبة الجامعيين؟ إذا كان هَدَفُك كباحثٍ كيفيٍّ وضعي أن تقوم باستنتاجِ التعميمات، إذن فأنت بحاجةٍ إلى أن تشغلَ نفسكَ باختيارِ جمهورِ بحثِك بطريقة العينة العشوائية. وتَعْني فكرة استخراج عينة عشوائية من بين جُمهورٍ كبيرِ العدد أنَّ بإمكانِ المرء أن يستخرجَ أحكاماً استنتاجية تنطبق على جمهور أكبر عدداً. فإذا اختيرت العينة عشوائياً، فإن بإمكان المرء الانتفاع بقوانين الاحتمال في حسابِ مَدَى الدقة في التشابُه بين الفئة التي تتكون منها العينة والجمهور الحقيقي، وذلك على أساس أحدِ المتغيرات الواردة في دراسة مُعيَّنة.

أضف إلى ذلك أنه توجَدُ طائفةٌ من العينات الاحتمالية (العينة العشوائية، والعينة الطبقية، والعينة العُنقُودية، والعينة المتعددة المراحل) وتوجد عينات غير احتمالية (مثل العينات العمدية أو الحكمية، أو العينات الحصية). والباحث في حالة استعمال العينات العمدية، قد لا يكون مُهتماً بأن تكون العينة ممثلةً للجمهور الكبير، كما أنه، في الواقع، قد لا يكون لديهِ فكرة عن هذا الجمهور الكبير من يكون. مثال ذلك، أنه لو فُرِض أنني كُنْتُ مهتماً بصياغة أحكامٍ عامَّة عن اضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين المثليين، فقد يكون من الصعوبة البالغة عليَّ أن أتحصَّلَ على "قائمة شاملة" تضم أسماء جميع الطلاب المثليين لكي أنتقي منهم العينة المطلوبة، وذلك بسبب الخلافات التي تدور حول موضوع الخوف المَرَضي من المثلية، وموضوع حماية الهوية الشخصية للفرد.

تصميم البحثِ الكيفيّ

إذا قررنا أن ننهج مَسَاراً بحثياً مختلفاً ورغبنا في دراسة اضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين انطلاقا من **منظور فكريّ كيفيّ لِوجهة نظرِ نسويّة** فإن هدف البحث يُصبح الوصول إلى **فهمٍ لهؤلاء الأشخاص الذين ندرسهم انطلاقاً من وجهة نظرهم هم.**

- ما هي علاقة الخبرة المُعاشة للرجال وللنساء المبحوثين بالطعام وبصورة الجسد لديهم؟

تهتم **وجهة النظر النسوية** اهتماماً خاصاً بكشفِ الغطاء عن أي جوانب "مقهورة" أو "خفية" في خبرات الأفراد مما يكون قد فات الباحثين. وإن طرحَ الأسئلة المسحية المُستخرجة من التراث البحثي المنشور في هذا الموضوع، وتطبيق المقاييس التي تقيس اضطرابات الأكل، مثل بيان اضطرابات الأكل EDI **لن يستطيعا** الإحاطة "بالخبرات المُعاشة" لهؤلاء الطلبة الجامعيين. أي ما هي حكايتهم؟ لذلك فإننا لن نستطيع أن نبدأ بمجموعة (جاهزة) من المفاهيم أو "المقاييس"، وإنما يتعين أن نبدأ باستخراج هذه المفاهيم أو المقاييس من الأشخاص المستجيبين أنفسهم. وانطلاقاً من هذه المفاهيم يمكننا حينئذٍ أن نأملَ فَهْمَ العملية التي بمقتضاها تصبح القضايا المتصلة بالأكل وصورة الجسد خاضعة لاعتبارات النوع، بل قد نصل إلى حد الأمل في البدء بتكوين بعض **الأفكار النظرية** المتعلقة بهذا الموضوع.

فإذا أدخلنا هذا المسار البحثي النسوي في الاعتبار، تكون القضايا المتعلقة بالصدق، والثبات، واختيار العينات قضايا **مختلفة** تماما بالمقارنة بالاتجاه الكيفي الوضعي الذي تكلمنا عنه أولاً.

الصدق في البحث الكيفي

إن السؤال عما إذا كانت علاقة الطلبة الجامعيين بالطعام وبصورة أجسادهم صادقة أم لا إنما يتوقف على أحد التصورات المختلفة لما نعنيه بكلمة الحقيقة. فإذا كان المنظور الفكري لمُعظم البحوث الكيفية يذهب إلى أن

الحقيقة الاجتماعية "مصنوعة اجتماعياً"(*)، فإن استعمال مفهوم "الصدق" باعتباره "مطابقاً" لمفهوم الحقيقة "الموضوعية" لن يكون مفيدا. إذن فما الذي يفيد؟

... يتمُ التحقق من الصدق عن طريق فحص مصادر عدم الصدق. فكلما ازدادت قوة الرأي المطروح في الصمود أمام محاولات تفنيده، ازدادت هذه المعرفة صدقاً وجدارة بالثقة بها (Kvale, 1996, p. 241).

يتخذ الصدق شكلَ إخضاع ما انتهى إليه المرءُ من نتائج بحثه للدعاوي والتفسيرات المعارضة لها، كما يتخذ شكل تزويد القارئ بحُججٍ قوية تُؤيد دَعواك المعرفية الخاصة (Kvale, 1996, p. 240).

عندما تنتهي من قراءة دراسةٍ كيفية، اسأل نفسك: ما هي العوامل التي تجعلُك تَتجاوبُ مع نتائج البحث؟ هل نجح الباحث في الوصول إلى الحقيقة الاجتماعية للمبحوثين الذين يدرسهم؟ وفي هذا الصدد توصل كفيل (١٩٩٦) إلى ثلاثة معايير لإثبات صدق أي دراسة كيفية معينة. وهو يعرف هذه المعايير على النحو التالي:

(١) الصدق بوصفه سمة الحرفية أو البراعة.

(٢) والصدق بوصفه تواصلاً.

(٣) والصدق بوصفها فعلاً.

الصدق بوصفه حِرفية أو براعة

يتعين أن يرتبط المعيار المُسمَّى "الصدق بوصفه حِرفية أو براعة" بالطريقة التي تتبعُها في إدراكِكَ لمصداقية الباحث والبحث إدراكاً حسِّياً. هل يتصف الباحث "بالاستقامة الخلقية" (كفيل، ١٩٩٦، ص٢٤١)؟ وهذه الاستقامة والمصداقية إنما تتكون من واقع الأفعال التي تصدرُ عن الباحث والتي يتمُّ إدراكها حسياً. ما مدى جودة ما فعلهُ الباحث لمُراجعة بحثِه وتحقيقه؟ ما مدى جودة فحص الباحث لنتائج البحث التي يهتم بها هذا القارئ؟ هل تَمَّ اختبار هذه

(*) أي مؤلفة أو موضوعة من جانب أفراد الجماعة، ومفهومة لديهم أيضا، الأمر الذي ينفي عنها صفة الإطلاق ويربطها دائما بالجماعة. (المراجع).

النتائج، ومناقشتها، وتنظيرها؟ وبإمكان المعيار الذي يـرى إثبـات الـصدق بوصفه عملاً من أعمال المراجعة والاختبار أن يشملَ طائفةً من الإجـراءات التي تُنفَّذُ على البيانات الكيفية (كالبحث عن الحـالات الـسلبية (أي المخالفـة للنتائج العامة – المترجم) في الدراسة التي يقوم بها المرء، والرجـوع إلـى المبحوثين عندما يَغمُضُ عليك فهمُ رأيٍ أبدوه. وربما تشمل هذه الإجـراءات قيامك بطَرح أفكارك على المبحوثين ليبدو رأيهم فيها حتى تقف على وجهـة نظرهم، مستَوثقاً من أنَّ ما قُمتَ بهِ من إجراءات في اختيار العيِّنات تتناغمَ معَ المسألة التي يناقشُها بحثُك، وما إلى ذلك).

وكما ذكرنا من قبلُ، فإن أحد الجوانب المهمة في مراجعتك لبياناتـك يتمثل في **تحليل الحالات السلبية**. وكثيراً جداً ما يتم ذلـك التحليـل كـإجراء مُستَمرٍ على امتداد سائر أجزاء الدراسة، وخاصةً عندما يستعمل المرء قـدراً متزايداً من الاتجاه البحثي القـائم علـى "النظريـة الموثقـة" (Glaser & Strauss, 1967). ذلك أن إثبات صدق شيء يقتضي البحث عـن الحـالات "السلبية" داخل الدراسة. فإن كُنتَ ترى أنك قد توصلت إلى فكرةٍ ما في بياناتك – كأن تعثُر على علاقةٍ محورية مثلاً – فإنه يتعين عليك أن تتوقف لتبحـث عن الحالات السلبية الموجودة في بياناتك، وهي الحالات التي لا تؤيدها هـذه البيانات. من ذلك مثلا أننا قُمنا أثناء دراسة اضطرابات الأكل وصورة الجسد بين الطلبة الجامعيين باستنتاج مفهومٍ أطلقنا عليه مصطلح **"مراقبـة الحالـة"**. فهذا مفهوم مُجرَّد يصفُ تلك الطائفة من الأساليب التي يَتّبعُها النساء عنـدما يتكلمن عن صورة أجسادهن في نظرهن وفي نظر الآخرين أثنا ممارسـتهن لأنشطتهنَّ اليومية. مثالُ ذلك أن هيلين – وهي طالبة جامعية تمَّ إجراء مقابلة شخصية معها بخصوص مشروع بحثي عن موضوعات الأكل عند النـساء – تقدم مثالاً لما يَعنيهِ هذا المفهوم (الخاص بمراقبة المرء لحالته) **مـن وجهـة نظرها هي** فتقول:

عندما أكونُ بالبيت أفقد بعض الـوزن، وذلـك لأن أمـي تتعقَّبُنـي باستمرار. وعندما أخرُجُ لأتناولَ طعاماً تأمرني بما ينبغي عليَّ أن أطلُبه منه. وحينما أبدو في صورة جميلة لا تنطق أمي بشيءٍ عن جسدي، ولا حتى بكلمةٍ

مدحٍ. *أمَّا عندما يأخذ وزني في الزيادة، فإنها تبدأ في توجيه النقــد* (Hesse-Biber, 1996, p.73).

وقد ظهر أن هذا المفهوم له صلة وثيقة بالأسلوب الذي تتَّبِعه النــساء في الكلام عن علاقتهنَّ بالطعام، وبالأخصِّ عندما يتكلمن عن الطعــام الــذي يتناولْنَهُ وعن كَميتِه. ولكي نقوم بتأكيد صدق هذه الدعوى، فلعلَّنا نحتاج إلـــى إجراء المقابلات الشخصية بالإضافة إلى البحث عن الحالات التي لا تَــصدُق عليها هذه الدعوى. ولو فُرِض أننا وَجَدْنا "حالة سلبية" لكُنَّا في حاجــةٍ لفهــمِ السبب الذي جعلَ هذه العلاقة لا تنطبق على هذه الشخصية بعينهــا. ويقــوم تحليل الحالات السلبية بتزويد الباحثين بالتغذية الاسترجاعية حول مـــا تقدمــهُ بياناتهم من تأكيدٍ لصدق دعاواهم النظرية الأولية. وفي هــذا يلاحــظ أحــد الباحثين قائلا:

يشتمل أحد الأنماط الأخرى لمراجعة نتائج البحث على ابتعادك عــن طريقك الذي كنت تسلُكُهُ، من أجل تقديم تفسيرات نظرية بديلة لنتائج بحثــك، ومن أجل محاولة القيام بالفحص النقدي لنقاط القوة والضعف النسبية الموجودة في وجهة نظرك وفي وجهات النظر البديلة لرأيــك هــذا. (Kvale, 1996, p.242).

ومن الجوانب المهمة الأخرى للصدق بوصفهِ حرفية أو براعة قــدرة الباحثين على صياغة نظرية يستمدونها من بياناتهم الكيفيــة (كفيــل، ١٩٩٦، ص٢٤٤). هل يستطيع الباحث أن يَحكي قصةً مُقنعةً؟ بمعنى أنه، هل يَستطيع الباحث أن يضع بيانات بحثه ضمن إطارٍ نظريٍّ معين يكون محــل تــصديق القارئ؟ هل حدث في حالة الدراسة التي تناولت اتجاهات الطلبــة الجــامعيين إزاءَ الطعام وإزاء صورة الجسد أن استنتَجَ الباحث رؤًى نظرية مهمة استمدَّها من البيانات؟ هل علمتَ المزيد عن مدى ارتباط النساء والرجال بأجــسادهم، وهل توصلتَ إلى فهمٍ أكملَ لهذه القضايا؟ هل أغفل الباحث بعض الجوانــب المهمة لقضيةٍ معينة؟

الصدق التواصلي

يمثل الصدق التواصلي شكلا آخر من أشكال إثبات الصدق. وبوسع المرء أن يتصور هذا الشكل بوصفهِ حواراً يتمُّ بين من يُعدّونَ عارفين بحق ممن يتوقع منهم أن يطرحوا – في كثير من الأحيان– دَعَاوى منافسة للمشاركة في عملية بناء المعرفة. والمراد بالصدق التواصلي أن يكون كلُّ تفسيرِ لأي نتيجةِ معينة من نتائج البحث معروضاً للنقاش والتفنيد من قِبلِ مجتمع الباحثين الواسع، وأحيانا ما يتسع هذا النقاش ليشمل المجتمع الذي أُجرِيَ فيه البحثُ نفسُه. فهنا يوجد حوارٌ من أخذ وردٍ حول المعنى، وهو خطوة في اتجاه فكرة "الفهم المتبادل بين الأشخاص" للوصول إلى المعنى من خلال الحوار. ولا يتفق جميع الباحثين على من له حق المشاركة في هذا الحوار، أو على من له الحق في تفسير المعرفة، كما لا يتفقون جميعاً على الطريقة التي ينبغي أن تُحَل بها الخلافات (كفيل، ١٩٩٦، ٢٤٤). ولو فُرِض أنني أُمارسُ شكلاً من أشكال الصدق التواصلي، فربما طلبت من الطلبة الذين قمت بمقابلتهم في بحث اتجاهات الأكل أن يُعلقوا على نتائج بحثي. هل يوافقون على تفسيري للمقابلات التي أُجْرِيَتْ معهم؟ وماذا يكون إذا لم يوافقوا؟ وكيف يمكن أن تُحَلّ – فيما بَعْدُ – وجهات النظر الأخرى الواردة في نتائج البحث المذكورة؟

الصدق البراجماتي

يحاول الصدق التواصلي أن يصل إلى فَهْمٍ يتعلق بالدعاوَى المَعرفية المتدَاولَةَ داخلِ مجتمع البحث الكبير وخارجَهُ. أمَّا الصدق البراجماتي فيخطو خَطوةً إلى الأمام محاولا التعرف على مَدَى تأثيرِ نتائج البحث على الأفراد المبحوثين، وليَرَى –كذلك– التغيرات التي تحدُثُ في السياق العام الذي أجريَتْ هذه الدراسة فيه. وبالاعتماد على نمط تلك الدراسة وعلى النتائج التي انتهت إليها، يَتَوقَعُ المرءُ أن يبحث عن نتائج "فعلية" مُعَيَنة. مثال ذلك أننا وَجَدْنا، في دراستنا للعلاقة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين، أن مشكلة اضطرابات الأكل كانت أكثر انتشاراً بين الإناث عنه

بين الذكور، وأنه توجد عوامل مُعَينة داخلَ الوسَط الجامعي تساهِم في التسبب في المشكلات التي تُعانيها الإناث في شأن الطعام. ومن تلك العوامل أنواع الطعام المتوافرة في كافيتريا الكلية وفي آلات بيع الطعام. ومن العوامل الأخرى كذلك: ساعاتِ العمل بالكافيتريا.

وربما يجدر بالباحث أن يرى ما هو الأثرَ الذي أحْدَثتهُ نتائج البحث على الوسَط الجامعي الكبير كنتيجة لنشر هذا البحث. هل غيَّرَتْ مرافق توفير التغذية بالكلية سياساتها في تقديم الطعام؟ هل دار حوارٌ في صحيفة الكلية حَول هذه القضايا، وهل طالب طلاب آخرون بإحداث تَغْييراتٍ في سياساتِ كافيتريا الكلية، كأن يطلبوا، مثلاً، توفير الأطعمة المنخفضةِ الدهون في قاعات تناول الطعام؟ هلْ تم تمكين الطلبةَ المبحوثين من إحداث تغييراتٍ في حياتهم كنتيجة لمعايشتهم لهذا المشروع البَحثِي وعلمهم به؟ فمن المهم أنْ نتذكر دائماً ديناميات القوة التي يَتَضمنها الأسلوب البراجماتي في إثبات الصدق. وذلك كما يشير إليه "كفيل" في قوله:

يثير الإثبات البراجماتي للصدق قضية العلاقة بين القوة والحقيقة في البحث الاجتماعي: أين يكون للقوة أن تُقررَ ما سوف تكونُ عليهِ النتائج المرجوة من وراء أي دراسة، أو تقرر اتجاه التغيُّر، وما هي القيَم التي يتكوَّن منها أساس السلوك؟ وبصورة أكثر عموميةً، أين يكون للقوة أن تقرر ما هيَ أنواع البحث عن الحقيقة التي يتعين اتبَاعُها، وما هي القضايا البحثية التي تستحق التمويل؟ (١٩٩٦، ص٢٥١).

إنه لَيَنْبَغِي على الباحثين أن يُدخلوا هذه القضايا في حُسبانِهم إن كانوا يَرجُونَ حُدوثَ نوعٍ ما من التغيير الاجتماعي يكون ثمرةً لما قاموا بهِ من بحث.

استعمال ثلاث طرق بحث كأداة لإثبات الصدق

تتمثل إحدى الطرق المهمة للتأكدِ من صدق نتائج البحث في استعمال ثلاث طرق بحث، أو – على الأقل – استعمال طريقتين مختلفتين من طُرق البحث لفهم نفس المشكلة التي يتناولها البحث، وذلك بهدف اكتشاف مدى

التطابق بين نتائج كل من الطريقتين (Greene, Caracelli and Graham, 1989). فإنْ وَصلَتْ طريقتان من طُرُق البحث إلى نفس النتيجة، فإن من شأن هذا أن يعزز صدق نتائج البحث. وهكذا، فإن بإمكاننا، مثلاً، أن ننتفعَ بمَنحى ذي طُرُق بحثٍ مختلطة في دراسة اتجاهات الطلبة الجامعيين في تناول الطعام، وذلك عن طريق الجمع بين خطةٍ بحثية كيفية (كإجراء المقابلة الشخصية) وخطة بحثية كمية (كالمسح الاجتماعي) لنعرف ما إذا كانت النتائج المتعلقة بالاتجاهات الخاصة بصورة الجسد عندهم تتأكد باستعمال طريقتين مُنفصلتينِ من طُرق البحث أم لا. وقد نستخدم توجهين نظريين مختلفينِ (كالاتجاه النسوي واتجاه النظرية النقدية) لدراسة نفس المشكلة (أي نستعمل "أكثر من توجه نظري" Theoretical triangulation)، كما قد نستعمل مصدرينِ مُختلفين من مصادر البيانات (وهو ما يسمى data triangulation) داخل نفس الدراسة لتعزيز صدق نتائج البحث.

أضف إلى ذلك أنه قد يتوافر لنا باحثون مختلفون يدرسون نفس الظاهرة (وهو ما يسمى Investigator Triangulation). وهكذا إذا أردنا -مثلا- الحصولَ على نوعينِ مُختلفين من البيانات في دراستنا لاتجاهات الطلبة في تناول الطعام، فقد نُدرجُ فيها المذكرات الميدانية المستمدة من الملاحظات التى أجراها الباحثون في كافيتريا الطلبة، ونَجمع هذه البيانات بتلك المستمدة من المقابلات التي أُجريتْ مع طلبة الكليّة، وذلك من أجلِ الوصول إلى فهمٍ أكمَلَ للتأثير الذي تُحدثُهُ الحياة الجامعية على اتجاهات الطلاب في تناول الطعام. كما أنه قد يتوافر لنا فاحصان مختلفان يجمعان مصادر البيانات هذه. ويُمكنُ تطبيق أحد المنظورات الفكرية النسوية للوصول إلى فهم اتجاهات الطلبة إزاء تناول الطعام وإزاء صورة الجسد عندهم، وذلك بالتركيز على الفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي.

ومن شأن المنظور الفكري النقدي أن يبحث موضوع القوة وتأثير العوامل الثقافية الواسعة النطاق، كوسائل الاتصال الجماهيرية مثلاً، وذلك من أجل فهم الفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي والموجودة في اتجاهات الطلبة إزاء تناول الطعام وإزاء صورة الجسد عندهم. وقد يؤدي

الانتفاع بهذين المنظورين الفكريين معاً إلى إلقاء مزيد من الضَوْءِ على فهمنا للفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي والموجودة في الاتجاهات الخاصة بتناول الطعام، وذلك بهدفِ تَعزيز صدق نتائج بحثنا (See Denzin, 1989, pp. 236-247). ومن المهم أن نلاحظ أن الوصول إلى الصدق في التحليل الكيفي ليس شيئاً مُحدداً أو هدفاً "موجوداً خارجا عنا" ينتظر من الباحث أن يُمسك به. فالصدق عملية عن طريقها يظفر الباحث بثقة القارئ بأن ذلك الباحث قد "فهم الواقع فهما صحيحا". وهكذا نتبين أن أهلية الباحث للثقة تحلُّ مَحلَّ الحقيقة، وهنا يُعلِّق لنكولن وجوبا (١٩٩٩) فيقولان:

إن القضية الأساسية فيما يتصل بأهلية الباحث للثقة أمر جد بسيط مؤداه: كيف يَستطيع الباحث أن يُقنعَ جُمهوره (بما فيهم نفسه) أن النتائج التي انتهى إليها بحث ما جديرة بالاهتمامِ بها، وجديرة بإدخالها في الحُسبان؟ ما هي الحُججِ التي يُمكنُ تقديمها، وما هي المعايير التي استُعينَ بها، وما هي الأسئلة التي طُرِحت، والتي يُمكن أن تكون مُقنعَة في هذا الصدد؟ (ص٣٩٨).

تُوجد بعض الخُطوط الإرشادية التي يمكن أن تدلنا على المَخاطر الكبيرة التي "تهددُ الصدق"، كتحيُّز الباحث أو تَحَيُّزِ عملية القياس. ومع ذلك، فإنه لا يوجد اختبار واضح مُحدَّد نستطيع تقديمه ليوفر خاتم دمغة يكفل أو يضمن الإقرار بقبول أي مَشروعٍ بحثيٍّ كيفيٍّ مُعينٍ.

ويوجد بعضُ الباحثين الكيفيين الذين طوَّروا مجموعة محددة من "السمات الجوهرية" للتحقُّق من صدقِ أي دراسة كيفية (See Spencer, Ritchie, Lewis, & Dillon, 2003)، وهو الأمر الذي يثير سؤالاً مهمًا:

- هل ينبغي على الباحثين الكيفيين أن يَتَّبِعوا مجموعةً ما من المعايير الأساسية في تقديرهم لمدى صدق بحثهم؟

وقد يؤدي البحث عن بعض المعايير المحدَّدة التي يتمُّ بها تقدير أو تقييم نتائج البحث الكيفي إلى الرجوع إلى نموذج وضعيٍّ للعملية البحثية يُسلِّمُ بوجودِ "حقيقة" ما خارجا عنا تنتظر اكتشافَها. ويؤكدُ البحثُ الكيفيُّ أهميةَ التفسيرِ أي: كيف يَخبُرُ الأفراد واقعَهم الذي يعيشونه. وفي الواقع، قد ينظُرُ بعض الباحثين الكيفيين إلى مناقشتنا لموضوع استعمال عدة طرق بحثية كأداة

للتأكد من صدق تطابق نتائج البحوث؛ قد ينظرون إلى هذه المناقشة بوصفها وظيفةً واحدة فقط لأسلوب تعدد الطرق في البحث. ذلك أن هذا الأسلوب يمكنه كذلك أن يستوعب منظورات فكرية بديلة ومتعددة فيما يتصل بالحقيقة الاجتماعية! يُضاف إلى ذلك أن بالإمكان أن تثور الشكوك حوّل ما إذا كان بالإمكان تطبيق أمثال تلك العوامل "الأساسية" لإثبات الصدق، على جميع طرق البحث الكيفية المختلفة. مثال ذلك، هل يكون تقديرُ مدى صدق دراسة قائمةٍ على تحليلِ المضمونِ مطابقاً تماماً للتأكد من مدىَ صدق نتائج بحث مستمدة من مشروعٍ بحثيٍّ قائم على إجراء المقابلات؟ والواقع أن الدراسات التي تسعى لتطوير معايير أساسية محدَّدة، لا تتفق دائماً مع بعضها فيما يتصل بما ينبغي أن تكون عليه هذه العوامل (قارن سيل Seale وسيلفرمان Silvemeun، ١٩٩٧، بما جاء في بوباي Popay، وروجرز Rogers ووليامز Williams، ١٩٩٨).

إن جميع مقاييس الصدق لا تخلو من نقاط الخلاف الخاصة بها، كما أنه ليس واضحاً ما إذا كان استعمال جميع ما سبق ذكرُهُ من طرق التحقّق من الصدق سوف يؤدي إلى نوع من التطابق التام الدقيق أو التفصيلي لنتائج البحوث. أما ما تستطيعُ هذه الممارسات المتصلة بإثبات الصدقِ أن تنقلُنا نحوه فهو التطبيق الأكثر منهجية "للدقة البالغة" أو "للجدارة بالثقة" في العملية البحثيَّة، بحيث نستطيع أن "نُوسع، ونُكثف، ونُعمّق الأساس التأويلي لأي دراسة" (Denzin, 1989, p. 247).

الثبات المنهجي في البحوث الكيفية

يتحدث نيومان Neuman (٢٠٠٣) عن قضية الثبات فيما يتصل بجمع البيانات من الملاحظات التي تُجرَى على الأفراد والأحداث داخل مجتمع بحث معين. وهو يشير إلى "الاتساق الداخلي" للملاحظات الميدانية قائلاً: هل البيانات التي جَمَعْتَها معقولة؟ هل تتلاءم مع بعضها البعض؟ هل تضيف بياناتك شيئاً جديدا إلى ما هو معروف؟ هل يوجد اتساق في ملاحظاتك "على امتداد الزمن وفي السياقات الاجتماعية المختلفة؟" (ص٣٨٨). ويُشير الاتساق

الخارجي إلى "التَثَبُّتْ من، أو التحقيق الدقيق للملاحظات باستعمال مصادر أُخرى مختلفة من البيانات" (ص٣٨٨). ويتعين على الباحث المَعْنِيُّ بالاتساق الخارجي أن يَبْتعِدُ عن الأسلوب الذي يتبعه ليبَحثَ عن شواهد أخرى تؤكد صحَّة نتائج بحثِه. وهنا يُعلِّق نيومان قائلاً:

يتوقف الثبات في البحث الميداني على ما لَدَى الباحث من بصيرة، ووعي، وما يدور في ذهنه من شكوك وما يطرحه من تساؤلات. فهو ينظرُ إلى المبحوثين وإلى الأحداث من زوايا مختلفة (قانونية، واقتصادية، وسياسية، وشخصية) ويُعمِلُ عَقلهُ في طرح الأسئلة (ص٣٨٨).

وهكذا نتبين أن الصدق والثبات يمثلان كلاهما قضيتين مهمتين ومعقدتين في البحث الكيفيّ، وذلك رغم أنه يُنْظَرُ إليهما هنا على نحوٍ مختلف عمَّا هو عليه في البحث الوضعي. وفيما يلي قائمة بالأسئلة التي تُستعمَل للتأكدَ من الثباتِ في الدراسات الكيفية التي صدرت تحتَ عنوان "المرح والمبتهج"(*) (Gay and Airisian 2003, p.536)، وذلك بَعدَ نَقلها بتصرف من سلسلة الإصدارات الإثنوجرافية التي يُصدرها شنصول Shencul و شنصول Schensul، ولوكونت LeCompte (١٩٩٩) والتي قد تحتاج إلى استعمالها عندما تفكرُ في القيام ببحث كيفي، خاصةً الدراسة التي تتضمن جَمْعَ البيانات من المقابلات، أو في القيام بدراسة إثنوجرافية قائمة، على "الملاحظة بالمشاركة".

قائمة أسئلة التحقيق والمراجعة في كتاب "المرح والمبتهج" والخاصة بتقييم مدى الثبات المنهجي في الدراسات الكيفية

- "هل تَمَّ استيفاء الوصف التفصيلي لعلاقة الباحث بالمجموعة وبمجتمع البحث؟"

(*) يُلاحظ أن كلمة "gay" تُستعمل في أصلها اللغوي للتعبير عن صفات متعددة، منها وصف الشخص بأنه "مَرِح، أو مُبتهج، أو مسرور، أو شديد الحساسية. إلا أنَّ معناها الذي يَسبِق للأفهام في الولايات المتحدة الأمريكية هو: الشخص الشاذ جنسيا. أما كلمة "airisian"، وهي صفة مُركَّبة من صفةٍ أبسط منها هي: airy فتعني، عند وصف الأفراد بها، الشخص "المرح، أو المبتهج، أو المتَصنِّع، أو المتكبر". (المترجم).

- "هل التوثيق الميداني شامل في كل أجزائه، وهل رُوجع مراجَعة دقيقة وعُلِّق عليه تعليقات مستوفاة، وهل هو مُفَصَّل بدقة وإحكام؟"
- "هل كانت الملاحظات والمقابلات التي وُثِّقت تَستَعمِل طُرُقَ بحثٍ متعددة (كالمذكرات المكتوبة والتسجيلات الصوتية مَثَلاً)؟
- "هل تمَّ توثيقُ ما تلقَّاه الباحث القائم بإجراء المقابلة من تدريب؟"
- "هل تمَّ توثيق كل ما يتصل بسائرِ الأدواتِ، من حيث التصميم، والتخطيط، والاختبار؟".
- "هل تمَّ وصفُ الإخباريين الأساسيين وَصفاً كاملاً، بما في ذلك الوصف من معلومات عن الجماعات التي يُمثلها هؤلاء الإخباريون وعن مكانتهم في المجتمع"؟
- "هل تمَّ التوثيق الكامل لأساليب اختيار العينات من حيث كونها وافية بأغراض الدراسة؟" (المَرِح والمُبْتَهِج، ٢٠٠٣، ص٥٣٦).

ولكي نظفر برؤية ثاقبة عميقة لهذه القضايا، هَلُمَّ بنا نذهب إلى ما خلف الكواليس مع عالمِ الاجتماع دافيد كارب ونرى كيف تُؤثِّرُ هذه القضايا على ممارستهِ البحثية:

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حسناً، إنه لَيَتَراءَىَ لي أنني لا أتفق مع هؤلاء الذين يقولون إنَّ مَنْ يقومون ببحثٍ كيفيٍّ لا يستطيعون التعميم (أي لا يستطيعون الوصول إلى أحكامٍ عامّة). فأنا أُفرّق في ذِهني بين ما أَعُدُّهُ "تعميماتٍ إمبيريقية" و "تعميمات تحليلية". وإني لأظن أنك لن تجدَ مثلَ هذا التفريق في الكتب الدراسية، إلا أنني أرى أن التعميم الإمبيريقي يُعدُّ نوعاً مما يفعلهُ الناس عندما يقومون بالتحليل الإحصائي. فهم يقومون باستخراج الأحكام العامّة من عَينةٍ ما ليطبقوها على عالمٍ أكبرَ منها. والتحليل الإحصائي، في تصوُّري، قريبٌ نوعاً ما مما كان جورج زيمل George Simmel يتحدث عنه عندما تعرَّض لموضوع "الصور الاجتماعية"، أي اكتشاف الصور الاجتماعية الأساسية. فنوع التعميم الذي أحاول القيامَ به هو منْ نمطِ التعميمِ الذي يتحدث عنه زيمل. كما أنني

أرى أن من الممكن القيام بهذا النوع من التعميم التحليلي باستعمال عينات صغيرة من البيانات الكيفية. وإنْ كان لهذا الأمر مخاطره؛ التي لا يمكن أن أهوّن من أمرها. كانت هذه المقالة مبنية على ٣٥ مقابلة. أما كتابي بعنوان "الحديث عن الحُزن" Speaking of sadness، فقد آل أمره إلى الاعتماد على ٥٠ مقابلة. وقد كتبت مقالي بعنوان "جدل الاكتئاب" Dialectics of Depression ملتزماً بطريقة التعميم التحليلي. لقد كانت هذه هي محاولتي الأولى على الإطلاق لأن أقول شيئاً أستخرجُه من هذه البيانات. وعليك أن توازن دائماً بين الاتساع (اتساع أو شمول عدد مفردات البحث – المترجم) والعُمق. أعني أن القيمة الكبيرة للبحث المسحي تتمثل في الاتساع. وإنك لتستطيع حقاً، وضمنَ نطاق احتمالات خطأ معروفة، أن تصل إلى تعميمات عن عالمٍ أكبر من الناس. إنه أمر بالغ الفعالية والقوة أن تتمكن من عمل ذلك. ولكن حقيقة الأمر – في الواقع– أن المشكلة التي تدرسها هي التى تملى عليك طريقة البحث التي سوف تستخدمها في دراستك. فأنت لا تستعمل مطرقة حينما يتطلب الأمر استعمال منشار. فعلا بإمكان المرء أن يقولَ عن الـ ٣٥ فرداً الذين شملتهم هذه الدراسة أنهم ليسوا ممثلين (لمجتمعهم) بالقدر الكافي، وأنا أكاد أسمع هذا الكلام. وهم بصفة عامة من البيض، إذ شملت الدراسة شخصين من غيرِ البيض. وأرى أن بإمكان المرء أن يقول وبحق: "حسناً، هل يمكن أن يختلف الإحساس بالاكتئاب لدى ذوي الأصول الإسبانية، ويكون مختلفاً كذلك بالنسبة للأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية، وهكذا؟ وأنا أقول : " لا ريب في ذلك!" ولكنه مجرد خطوة يمكنك أن تنطلق منها. خذ عملي وانتقل إلى ما وراءه، وافعل به شيئاً آخر غير ذلك. إذ لا توجد دراسة مكتفية بذاتها من البداية حتى النهاية. فكلُ دراسةٍ – سواء أكانت دراسة إحصائية، أو دراسة قائمة على طريقة المقابلة المتعمقة– تُجريها على ٥٠ شخصاً أو ٦٠، أو ١٠٠، أو ٢٠٠، سوف تعاني عدداً من أوجهِ القصور فيما يتصلف بموضوع القابلية للتعميم.

في النهاية، فإن اختبار الثبات المنهجي، أي اختبار ما إذا كُنتَ ملتزما كل الالتزام بالبيانات، واختبار ما إذا كُنتَ فعلاً قد اكتشفت بعض الصور

الاجتماعية الأساسية، هو اختبار ما إذا كان الخبراء الحقيقيون– وهم الأفـراد الذين دَرَستَهم– سوف يقولون عندما يقرءون دراستك: "إنك أصبت الحقيقـة". انظر، فأنا أعتقد أن الاختبار الجوهري للثبات هو عندما يقول النـاس الـذين قرأوا عملك – وهذا شيء مُرضٍ جداً – عندما يقول الواحـد مـنهم : "إنـك تعرفُ، لقد أدركتَ فعلاً خبرتي و إحساسي. لقد وجدتَ الطريقةَ لنقلِ تجربتي نقلاً صحيحاً. إن ذلك يجعلني أفهم حياتي الشخصية فهماً أعمق". والحقُّ أنني أرى أن قوة البحث السوسيولوجي هي عندما تكون لديك خبرة مـا بـصفتك فرداً، خاصة إذا كانت أمراً يُشبه الاكتئاب، وتشعر ألا أحد آخر يمكن أن يفهم حقيقتها، إلا أنني عندما أعود فأصغي للناس، وأصغي جيداً، وأبحث عن هـذه الأنماط، أي عن هذه الصور، أستطيع أن أرى أموراً لا يستطيع هذا الفرد أن يُدركها في حياته الشخصية؛ وذلك لأنه ليس لديه إلا حياته الشخصية التي يبني عليها أحكامه التعميمية. لذلك، فإنني أرى أنه إذا كان حُكمُكَ العامُّ غير مستند إلى أساس قوي، فسيرفض الناس عَمَلَكَ. وسيقولون: "إن حُكمكَ هـذا خـارج نطاق الواقع. إنك تحاول الكتابة عن الاكتئاب، ولكنَّ ما تكتُبُهُ بعيدٌ عن خبرتي للحدِّ الذي يجعل تحليلك بلا أي قيمة على الإطلاق".

وهكذا نتبين أن الصدق، في الواقع العملي، مُرتبط كذلك بقضايا التمثيل والتعميم، وهذا ينقلنا إلى موضوع اختيار العينات.

اختيار العينات في البحوث الكيفية

يضع منطق البحث الكيفيِّ الفهم العميق في المحل الأول من اهتمامه، حيث يعتمد في عمله عادة على استخدام **العينات الصغيرة**. والهدف من ذلـك أن يدقق النظر في "عمليةٍ" ما أو يقف على "المعاني" التي يُضفيها الأفراد على وضعِهم الاجتماعي المُعَين، فهو لا يسعى بالضرورة إلى صياغة التعميمـات. فنحن لا نقصد من دراستنا لاتجاهات النساء إزاء صور أجسادِهنَّ أن نـصوغ أحكاماً عامة شاملة عن عدد النساء اللاتي يُعانينَ مُـشكلاتٍ تتعلـق بـصور أجسادِهن، بل لنفهم **كيف تشعر** النساء بالبدانة، مثلاً، في ثقافة تُفضّل النحافة. ففي هذه الحالة نميل إلى الاهتمام بالعملية التي بمقتضاها تتقبل النساء – أو لا

تتقبلن- صُوَر أجسادِهن، والطرق التي يتفاعلن بهـــا مـــع الرســائل الثقافيــة المتعلقة بالنحافة التي يتلقينها من وسائل الإعلام ومن غيرهـــا مـــن الأفـــراد المهمين في حياتهن.

وكثيرا ما يهتم الباحثون الكيفيون باختيار العينات **العمدية أو الحكمية**. ويتوقف اختيار نمط العينة العمدية على أساس المشكلة المُحدَّدة التي يتناولهـــا البحث، كما يتحدد في ضوء الموارد المتاحـــة للبحـــث. والواقـــع أن بـــاتون Patton (٢٠٠٢، ص٢٤٢) قد ميَّزَ ١٦ نمطاً مختلفاً من العينات العمدية، كما أشار إلى أكثرَ من طريقة لاختيار العينات العمدية يُمكن اســتخدامها فـــي أي دراسة كيفية معينة. وسوف ننتقي عدداً قليلا من الأمثلة الدالَّة على الطريقـــة التي يَتَّبِعُها الباحثون في استخدام بَعض هذه العينات الكيفيَّـــة الخاصـــة فـــي دراستهم.

وقد رغبتْ كاثرين هندريكس Katherine Hendrix (١٩٩٨) فـــي دراسة كيف يتحاورَ الطلبة في موضوع مصداقية الأســتاذ الجـــامعي داخـــل قاعات الدراسة بالجامعة، ودراسة مدى تأثير العِـــرْقِ علـــى إدراك الطالـــب للمصداقية التي يتصف بها الأستاذ الجامعي. وهي تُعلِّقُ قائلة:

كان الطلاب الذين تناولهم البحث في الدراسة يمثِّلون "عينـــة عمديـــة وليست عشوائية". وكان هدفي هو الظفر بُمشاركة ثنائيات من الطلاب الذكور الذين تربط بين كل زوج منهم صداقة حميمة، وهي المشاركة التـــي تعطـــي صورة عن الأساتذة الجامعيين الذين عملوا في نفس القسم ولَدَيهم خبـــرة فـــي التدريس على المستوى الجامعي لسنوات مماثلة. ومن ناحية ثانية، فإن ثلاثـــة من الأساتذة الجامعيين كانوا من السود، وثلاثة من البيض. (ص٤٣).

كما رغبت هندريكس (١٩٩٨) في إجراء مقابلات مع عينة من الطلبة من كل فصل من هذه الفصول الدراسية، والـــذين تَطَوَّعـــوا بقبـــول إجـــراء المقابلات معهم. وقد تم اختيار هؤلاء الطلبة وفقا لسنواتهم الدراسية، وللعرق، وللتخصص الرئيسي لكل منهم، وذلك باستخدام إجراء عشوائي. ومن ناحيـــة أخرى، ونظراً لقلة عدد الطلبة المتطوعين، فقد أُخضعَ هذا الإجراء العَشوائيَ

للمراجَعَة لضمانِ الحصول على مجموعة متنوعة، كما أن الطلبة قد اختيروا لكي يتناسبوا مع معايير مُحدَّدة، كالعرق مثلاً (ص٤٤).

وقد استعملَتْ هِندريكس أساليب متعددة ومختلفة في **اختيار العينات** لتنفيذ مشروعها البحثي. وقد جاء القرار الأوّلُ في اختيار العينات مباشرةً من وحي مُشكلة بحثها: فقد لاحظت، عند استعراضها للتراث العملي المنشور عن موضوع تواصل المُدرسين مع الطلبة أن هناك "علاقات تفاعل" مُقيَّدة" وغير سلسة بين أعضاء هيئة التدريس السود وطلابهم من البيض. لذلك فقد خمَّنَت هندريكس أنَّها قد تنتهي – في جامعةٍ يَغلبُ علَىَ طلَبتِها العنصر الأبيض – إلى وجود "تحدِّيات مُعَيَّنَة في بناء المصداقية والقبول.... للمدرس الأسود والأستاذ الجامعي الأسود (ص٤٣)، ومن هنا أرادت متابَعة التحقق من هذه الفكرة. فاختارت جامعةً مدة الدراسة بها أربع سنوات يَغلُبُ على طلبتها أنهم من البيض أي إنها، انتقت عَينةً "**متجانسة**"، وهي "**جامعة**" مُعظَمُ طلبتُها من البيض، ممَّا مكَّنها من تخفيض الفارق العِرقي في مجموع الطلبة، بحيث تتمكن من أن تدرس مشكلتها. ومع ذلك، فإنها عندما بدأت في اختيار العينات الخاصة بستة من أعضاء هيئة التدريس ولمجموعة مختلفة من الطلاب تنتقيهم من الصفوف التي يدرس لها هؤلاء الأساتذة، وذلك لتُجرِيَ معهم مقابلات؛ عمدت إلى استخدام "**عينة عمدية طبقية**" وذلك كي تضمن احتواء دراستها على "سمات" معينة لأعضاء هيئة التدريس وللطلاب. فقد كان اختيار العينات التي تعبر عن هذه الفروق أمراً مهمّا جداً في تنفيذ الأهداف البحثية التي حددتها لنفسها.

ومع ذلك، ففي بعض الأحيان لا تسير عملية اختيار العينات وفق خطة منطقية، فتتم هكذا دون تدبر. وتتيح الظروف للباحث أحيانا فرصة اتباع أسلوب انتهازي في اختيار العينات". شاهد ذلك أن أحد الأنثروبولوجيين يسترجعُ بحثه الذي أجراه في غرب باكستان وكيف أن تَتَابُعَ الأحداثِ قد أفضَى إلى الاختيار غير المقصود للأفراد الذين قام بإجراء مقابلات معهم، فيقول:

إنني أتذكر استخدام الأسلوب الانتهازي في اختيار العينات خلال أول رحلة إثنوجرافية قمت بها إلى غرب باكستان. ذلك أن العدد الوفير من الزُّوار الذين تطوعوا بالقدوم إلى منزلي قاموا بتقديم إجابات على أسئلة تفوق الحصر، وقد كُنتُ أسْعَى لسَبْرِ أغوار دوافعِهِم وغيرها من سمات شخصياتهم، وكُنتُ في بعض الحالات أطلب منهم أن يجروا اختبار رورشاخ. وكُنتُ في بعضِ الأحيان أستدرجُ ضيوفي بإعطائهم جدول مواعيد المقابلات (والذي كان قد سبق إعداده لإحدى العينات العشوائية)... كما أن زوجتي وأبنائي كانوا يستغلون الدعوات التي وجهت إليهم لزيارة بيوت الأسَر الميسورة وبيوت علية القوم باعتبارها فرَصاً لملاحظة بعض جوانب الحياة المنزلية "المَحَلية" وللحصول على المزيد من المعلومات (Honigmann, 1982, p. 81).

ويتمثل جانب مهم من القيام بالعمل الميداني في الوصول إلى الإخباريين الذين يقومون بدور "المُرشدين" في توفير المعلومات المتصلة بمجتمع البحث. ومع ذلك، يحدُث في كثيرٍ جداً من الأحيان أن يجد الباحثون أن فرص اختيار الإخباريين تتضاءل إلى أن تصل إلى القبول بمن يكون موجوداً منهم، ومَنْ يكون لديه بعضِ المعرفة الخاصَّة بهذا المجتمع، ويكون راغباً في القيام بذلك الدور. ويُعرَفُ هذا النوع مِن الاختيار **باختيار الملاءمة** Convenience sampling . وقد لا تتوافر الفرصة للاختيار من بين جماعة من الإخباريين وفقاً لبعض المعايير المُحدَّدة كالعمر، أو الجنس، أو الطبقة الاجتماعية مثلاً. ويُبين البحثُ الميداني الذي أجراه الإثنوجرافي مايكل آجار Michael Agar بين أفراد إحدى الجماعات الفقيرة المُهاجرة التي تُسمَّى لامباردي Lambardi، والتي تُقيم بقرية تقع في ولاية كارناتاكا بالهند، يُبين كيف أن الباحث قد لا تتوافر له إمكانية اختيار إخباري ما. وعادةً ما يُمَيِّز المجتمعُ المحلي الفَردَ الإخباري، ذكراً كان أو أنثى، بأنه دليل "الأغراب"، أو يستطيع معاملة الأغراب. كما أن آجار، في الواقع، يُطلق على الإخباريين اسم "الأدلاء المُحترِفين للغرباء". وفى هذا الصدد يعلق قائلاً:

كان الدليل المحترف للغرباء عند جماعة لامباردي رجلاً عجوزاً يُسَمَّى "ساكريا." وقد كان أول مَنْ جاء ليتكلم معي عندما دَخلْتُ هذه "التاندا"

the tanda (أي هذه القرية الصغيرة). وقد بيَّن لي بطريقة لطيفة أن هذه "التاندا"/أو القرية الصغيرة شديدة الازدحام. لذلك كان عليّ أن أدركَ أنه من غير الممكن أن أعيش فيها. وقد كان "ساكريا" هو الشخص الذي كان يظهر فجأة كُلّما كنت أبدأ في القيام بعَمل مُستَغرَب في الأيام الأولىَ من العمل الميداني، كرسْمِ خريطة ما أو قياس أبعاد أحد أكواخ القرية. وبعد شهرين، كان قرار "ساكريا" - بأنني جدير بالثقة - هو الذي أدّىَ، جُزئياً إلى فتح مغاليق هذه "التاندا" لي. (آجار، ١٩٩٦، ص١٣٥).

ويُعرَفُ نمطٌ مهم آخر من العينة العمدية باسم **العينة النظرية** theoretical sampling، وكثيراً ما يُستعمل هذا النوع من العينات كجُزء من أحد اتجاهات "النظرية الموثقة" في البحث. ويُقدم جلاسر وستراوس (١٩٦٧) تعريفاً لاختيار العينة النظرية بأنه: "عملية جَمْع البيانات لتوليد النظرية، والتي بها يقوم المُحلل بجمع بياناته، وتصنيفها، وتحليلها في نفس الوقت، كما يقرر - في أثناء ذلك- ما هي البيانات التي سيقوم بجمعها فيما بعدُ، وأين يجدُها لكي يبلور... النظرية وهي تبزغ أمام ناظريه بصورة تدريجية" (ص٤٥). وهكذا فإن اختيار العينة النظرية يقتضي أن يقرر الباحث في كل مرحلة: مَنْ أو ماذا سيختاره كعينة في المرحلة التالية، بناءً على البيانات التي سبق جمعها في إطار نفس المشروع البحثي، وذلك بهدف عقد المقارنات - بصفة مستمرة - مع نتائج البحث السابقة. ذلك أن القيامَ بتحليلات لنتائج البحث الموجودة في تحليلك الراهن للبيانات، بجانب الرؤىَ النظرية التي تصل إليها؛ هذان الأمران يُزوّدانك بأسئلةَ جديدة لاختيار العينات مثل: مَنْ هو الشخص الذي سأتكلمُ معهُ فيما بعدُ؟ وما هي المصادرِ الإضافية للمعلومات التي ينبغي عليَّ أن أستكشفها؟ وما هي البيانات التي تُعارض أو التي تُؤيد فَهْمي النظري لنتائج البحث هذه؟ (See Glaser & Strauss, 1967; Guba & Lincoln, 1989, Lincoln & Guba, 1985 and Patton, 2002). ويقدم لنا عالِم الأنثروبولوجيا مايكل آجار (١٩٩٦) المثال التالي لاختيار العينة النظرية:

لنفرض أنك تعمل مع أربعة رجال في الزراعة. وقد تحدَّثت معهم فيما يتصل بتفسيرهم لمسار الأحداث التي يتألف منها العمل الزراعي، كما أنك قُمتَ بملاحظتهم مرات متعددة وأنت تشاركهم العمل في الحقل. والآن أنت تَبْحثُ عن أربعة رجالٍ آخرين لإجراء مقابلات معهم وعمل ملاحظات مختصرة معهم ممَّنْ يعيشون في الجانب الآخَرِ من القرية. فأنت تختارهم بهدف التحقُّقِ من أوجه التشابهِ الموجودة في الروايات التي قدمها رجالُ العينة الأصليَة. (١٧٢)

ويلاحظ آجار أنه إن وَجَدَ الباحثُ أن النتائج هي نفسها بالنسبة لما عرفه من الجماعة الأولى، وأنه لم يُضفْ إلى علمه شيئاً جديداً باختياره لمجموعة العينة الثانية، فقد وصل إلى لحظة "التشبُّع النظري" أو لحظة "كفاية البيانات" الخاصة بهذه الجماعة من الأفراد. وفي هذا الوقت قد يؤثر الباحثُ أن يُجريَ مقابلاتٍ مع جماعة أُخرى في هذه القرية، ولعلها تكون مكوَّنةً من أفرادٍ لا يملكون أرضاً، وذلك ليرى إذا كان بالإمكان التأكد من وجود وجهة نظرٍ مختلفة تتعلق بقضية الزراعة أم لا. وبالقيام بهذه الأمور، يرفع المرءُ من مستوى فهمه من خلال بحثهِ عن منظورات فكرية متعددة. (آجار، ١٩٩٦، ص١٧٢). وتقدم جانيس مورس Janice Morse(١٩٩٥)، وهي باحثة كيفية مرموقة، تقدم الأفكار الثاقبة التالية لتُوجه أُسلوبك في اختيار العينة، والذي يقتضي وجود نوعٍ من التوازن الدقيق بين الأرقام والرؤية –أو ما يعني بعبارة أخرى– أنَّ "الدلالة الإحصائية" لا تعني "الدلالة النظرية":

... في طرق البحث الكَمّيَّةِ تكون دلالة الأرقام مفهومة فهماً دقيقاً، وتكون الدلالة الإحصائية مبنية على أساس مُعَدَّلات التكرار، والمتوسطات، وتوزيع البيانات. فمُعَدَّل التكرار أمر جوهري بالنسبة للتحليل، وإذا كانت إحدى الحالات المعينة تتنافى بشدةٍ (مع مُعدَّل التكرار الموجود)، فقد يصل الأمر إلى حذفِها من مجموعة البيانات بوصفها حالة "شاذة" أو بوصفها خطأً. وفي مقابلِ ذلك، وفي مجال التحليل الكيفي، يكون العَكْسُ صحيحاً. فكثيراً ما تكون الجوهرة النادرة أو غير المتكررة التي تضع بيانات أخرى داخل المنظور الفكري، هي التي تُصبحُ المفتاح الرئيسي لفَهْم هذه البيانات ولتطوير

هذا النموذج. إن الضِّمْنِيَّ (غير الظـاهر) هـو الأمـر المثيـر للاهتمـام. (ص١٤٨).

وتقدم جانيس مورس (انظر النص التالي داخل الإطار) مجموعة مـن "المبادئ" التي يتعين اتباعها عند التفكير في حجم العينة وفـي محاولـة فهـم قضايا "الاختلاف" والنفاذ إلى حقيقة وجودها في مشروعنا البحثي الكيفي.

عملية اختيار العينات والبحث الكيفي

"اخْتَرْ عَينةً متماسكة. فكلَّما زاد تماسك العينة، وصـلنا إلـى لحظـة التشبع بصورة أسرع، إلا أن المشروع البحثي سيكون أقـل قابليـةً للتعمـيم. ويتضمن هذا الإجراء استعمال عينة متماسكة ثقافياً (أي مُكوَّنةً من أفرادٍ لهـم ثقافة واحدة)، وعينة يشترك أفرادها – بأقـلِّ قـدرٍ مـن الاخـتلاف – فـي الخصَائص التي تحدد موضوع البحث".

"سوف يتم تحقيق التشبع النظري بأسرعِ ما يكون إذا استُعمِلتْ العينـة النظرية. ويؤدي استعمال عينة الملاءمة (التي تختار حسب الظروف المتاحة) – والتي تُسَمَّى أيضا عينة كُرة الثلج Snowball– إلى تحقيق التـشبع بـبطءٍ كبير. وباستعمال العينة العشوائية، قد لا يتحقق التشبع أبداً لأن هذه العينة قـد تكون غير مناسبة نظرياً، أو لأن الإخباريين –الذين يفتقرون إلى المعلومات، إذ تتكرر حكاياتهم هي نفسها فلا توفر معلوماتٍ جديدة – قد يكون اختيـارهم تم بطريقةٍ عشوائية".

- "استخرِج عينات كل صور التباين التي تظهر في ثنايا البيانات إلى أن يتمَّ تشَرُّب كل رأيٍ يمثل "حالة سلبية". وعندما تكون بصدد صـياغة نظريةٍ ما، حدد موضع كل حالة سلبية "افتراضية" ممكنة، وأعط هـذه البياناتَ اهتماماً متكافئا كما لو كانت تمثل الخط الرئيسي للقصَّة".
- "تتسم البيانات المُشبَّعة بأنها بيانات ثرية، وتامَّة، وكاملـة. والنظريـةُ التي تُستخلَصُ منها يكون لها معنىً مفهوم، ولا تكون بها فجوات".
- كلما زادت درجة اكتمال التشبع، زادت سهولة تطوير نموذج نظـري شامل". (نقلا عن مورس، ١٩٩٥، ص ص ١٤٧-١٤٩).

قضية البحث الكيفي: حركة دينامية

يميل تصميم البحث الكيفي إلى عقدِ صلة وثيقة بين **الإبستمولوجيا** (أي رؤية الحقيقة الاجتماعية) و **الميثودولوجيا** (أي الرؤية النظرية للعالم الاجتماعي). وهذه هي الرابطة البحثية التي شرحنا في الفصل الأول من هذا الكتاب. وتساعدُ هذه العوامل على تشكيل **مسار البحث** الخاص بالمشروع الكيفي، أي تشكيل أنماط المُشكلات المختارة، وتحديد أساليب اختيار العينات التي سوف تستخدم في الدراسة، وتحديد أنماط تحليل البيانات واستراتيجيات التفسير التي يستعملها الباحث (وهي الأمور التي سنناقشُها بمزيدٍ من التفصيل في القسم الثالث من هذا الكتاب). ويوجد بين عناصر العملية البحثية هذهِ نوع من التفاعل النشط. وطالما أننا فصلَنا بين هذه الأجزاء لنبحث كل واحدٍ على حدة في هذا الفصل، فإن بإمكاننا الآنَ أن نخطو خطوةً إلى الوراء لننظرَ إلى هذه الإجراءات في مجموعها ككيان كلي واحد، ولننظرَ إلى أيِّ مدىً تُؤثر على بعضها البعض. ولكي نفعل هذا – في إطار تراث البحث الكيفي – سوف نقارن أنماط الحركة الخاصة بتصميم البحث الكيفي بنظيرتها الخاصة بتصميم البحث الكمي.

من المعهود أن تُصور العملية البحثية الكمية بوصفها "عَجلة" أو دائرة. وتشكل الأجزاء المختلفة للعملية البحثية محيط هذه الدائرة، ويستطيع المرء أن يبدأ بحثَهُ عند أي جزء من أجزاءِ هذه العجلة. كما توصف هذه العملية كذلك بأنها سلسلة من الخطوات (Crabtree & Miller, 1999, p.9).

الرسم التخطيطي لعملية البحث الكمية (الوضعية)

منقول بتصرف عن كرابتري، و ميلر ١٩٩٩:

الخطوة رقم ٩ : راجع الفروض.



الخطوة رقم ٨ : النتائج.



الخطوة رقم ٧ : تحليل البيانات.



الخطوة رقم ٦ : جمع البيانات.



الخطوة رقم ٥ : تحديد الأدوات و(اختيار العينات).



الخطوة رقم ٤ : تصميم البحث (طرق البحث).



الخطوة رقم٣ : صياغة الفروض.



الخطوة رقم٢ : استعراض التراث العلمي المنشور



الخطوة رقم١ : تحديد مشكلة البحث

ويلاحظ كرابترى وميلر (ص٨) أن هذا الشكل يمكن فَهْمُهُ على أفضل الوجوه فهماً مجازيا باعتباره "سُلَّم يعقوب"(*). وفي هذا الشكل من أشكال البحث – الذي يُعَدُّ أشدَّ ارتباطاً بالعلوم الطبيعية- "يتسلق الباحث سُلَّماً مُباشراً يوصله إلى حقيقة موضوعية أساسية (أو مُطلقة)" (ص٨). وسوف تلاحظ أن الأسهم تشير إلى اتجاهٍ واحدٍ فقط، فهي تتحركُ دائماً صاعدة إلى أعلى السُلَّمَ. وتُصبحُ العملية البحثيةُ الكميةُ ذات طابع دائري عندما تُفضي النتائج التي انتهى إليها الباحث (في الخطوة رقم٨) إلى مُراجعةٍ للفروض الأولية، وتبدأ العملية البحثية من جديد من عند الخطوة رقم (١) بإعادة تعريف مشكلة البحث، ثم الاستمرار في باقي الخطوات. والوضع الأمثل في ظل هذا النموذج أنه من الممكن إقامة الدليل على صحة جميع النتائج (ذلك أن النظرية/ أو الفَرضْ قد أُخضع للاختبار وأنه صَمَدَ له). كما يرى بعض الباحثين أن هذا

(*) سُلَّم يعقوب سُلَّم يُنسب إلى النبيّ يعقوب عليه السلام وأنه رآه في رؤيا منامية يصعد إلى السماء. ثم صار هذا التعبير رمزاً لأي سُلّمٍ ذي درجات يقود إلى الخير أو إلى النجاح (المترجم).

الفرض قابلٌ كذلك للتنفيذ من خلال البحث عن تفسيراتٍ بديلة ومن خلال اختبار هذه التفسيرات بمضاهاتها بالفرض الأصلى (انظر، على سبيل المثال، مفهوم كارل بوبر Karl Popper(١٩٣٥) عن الدَّحْضِ والتكذيب). والآن، يتحول معظم البحث الوضعي بالانتقال إلى مفهومٍ للحقيقة أكثر اتصافاً بما بعدَ الوضعية، وذلك عن طريق تعديل تعريف "الحقيقة" التي يُعبَّرُ عنها في وقتنا هذا على أساس مفهوم "الاحتمالات". وكما يلاحظ كرابتري و ميلر: "فإن المنظور الفكري المابعد الوضعي يسعى للوصول إلى القيم التقريبية المتوالية للحقيقة، غيرَ أنه يُدرك استبعاد الوصول إلى الحقيقة المطلقة" (ص٩).

- كيف يُمكن مراجعة هذا النموذج لو فُرِضَ أن المرء انتقل إلى نموذج كيفي في البحث الاجتماعي؟
- ما هي عناصر هذا النموذج التي يُمكِنُ أن تبقى، وما هي العناصر التي يتعين استبعادها؟
- كيف يُمكن أن تَربطَ عناصر هذه العمليَّة بَعْضَها ببعض باستعمال نَهْج كُليٍّ؟

بناءً على ما تعلمتَهُ للتو في هذا الفصل، فإننا نستطيع أن نبدأ مباشرة في رؤية صورٍ شديدة الوضوح للحذف أو الاستبعاد في هذا الرسم التخطيطي. ولعل العنصر الأول المفتقد في هذه العملية هو اعترافٌ ما بالتأثير الذي يُحدِثُه وجود **بنيةٍ تحتيةٍ فلسفيةٍ معينة** (أي اختيار النموذج النظري) في عملية البحث. وعلى الرغم من أن النماذج النظرية للبحث الكيفي قدْ تختلف تبعاً لمُسلّماتها المتصلة بمَدىَ إمكان أن تكون المعرفة "موضوعية" مِنْ عدَمه، فإن مُعظم النماذج النظَرية الكيفية توافق على أهمية **المعاني الذاتية** التي يُضفيها الأفراد على عملية البحث، كما أن هذه النماذج النظرية تُقر بأهمية التأسيس (أو التشكيل) الاجتماعي للحقيقة. ويُوجد داخل عملية البحث الكيفي نوع من **التفاعل الدينامي** بين مُشكلة البحث واستعراض التراث العلمي المنشور. فالتساؤلات التي يتصدى البحث لدراستها تساؤلات أولية (مؤقتة)، كما أن مُعظمَها **لا يَتمُّ** صياغته في صورة فروض. ذلك أن الهدف هو **توليد النظرية**. ولا يعني قولُنا هذا أن الباحثين الكيفيين لا يهتمون "باختبار" أفكارهم. ففي

الواقع، يحرص مُعظَمُ الباحثين الكيفيين، وخاصةً من كان منهم يستعمل المنظور الفكري **للنظرية الموثقة** (كارماز Charmaz، ٢٠٠٠)، على النظر الدقيق والمستمر في بياناتهم، ويقومون – دائما- باختبار أفكارهم أثناء قيامهم بجمع بيانات بحوثهم. ذلك أنه توجد **عملية دائرية** بين جمع البيانات، وتحليل البيانات وتوليد النظرية في عملية تُسَمَّى **بالاستقراء التحليلي**. حيث يقوم المرء- وهوَ يجمع البيانات – بتفسيرها، وبصياغة طائفة من الأفكار التي يختبرها كلها بتطبيقها على البيانات الجديدة وهكذا دَوَاليك. إذْ يوجدُ نوعٌ من التفاعل الدينامي بين الخَطوة رقم (٦) (خطوة جمع البيانات) والخطوة رقم (٧) (خطوة تحليل البيانات) والخطوة رقم (٣) (خطوة صياغة الفروض). ويمكن لخطوة جمع البيانات (الخطوة رقم ٦) وخطوة تحليل البيانات، يمكنهما أنْ يُفضيا إلى بلورة الأفكار/أو الفروض المتعلقة بهذه البيانات. وهو الأمر الذي قد يُفضي، بدوره؛ إلى قيام الباحث بجمع نوعيات محددة من البيانات عبر استعمال نهجٍ أو أسلوبٍ بعينِه من أساليب اختيار العينات (وهي الخطوة رقم ٥)، أي أنه يختار عيناتهِ من حالات خاصة ليختبر بها هذه الأفكار (وهو أسلوب اختيار العينة النظرية). وهكذا يتحرك الباحث جيئةً وذهاباً على امتداد خطوات البحث على نحوٍ يكاد يماثل قيامَهُ بأداء خطواتِ رقصةٍ مفعمة بالحركة، تكون حركاتها في كثيرٍ من الأحيان غير منتظمة، إذ تخضعُ تماماً لنمطِ الموسيقىَ الذي يتصادف أن يكون الباحثُ مُنصتاً إليه في هذا الوقت (وهو هنا البيانات)، كما أن الباحث يكون منفتحاً على أية أنماط جديدة تطرأ (للرقص/ أو البيانات) لحظةَ انتباههِ لها (انظر أيضاً كرابتري و ميلر ١٩٩٩). إذ لا توجد رقصة واحدة مناسبة، ولا يُوجدُ نمطٌ جامد يَتَعيَّنُ اتباعُهُ. بل يتعين على المرء أن يكون مُنفَتِحًا على اكتشاف الجديد. فلا يُوجَد لهذا النموذج نَمَطُ رقصٍ يتخذ مساراً واحداً محدداً، ذلك أن هذا الشكل من أشكال البْحث – الكيفى – لا يعمل بهذه الطريقة.

يعمل بارى ثورن Barrie Thorne أستاذاً لعلم الاجتماع والدراسات النسوية فى جامعة كاليفورنيا – بيركلى، وقد كتب كتابات غزيرة فى مجال البحث الإثنوجرافى (الميدانى). ويُعْتَبَر الرقص الدينامى الذى يُمَيز البحث

الكيفى عادة، بمثابة تجسيد لاتجاه ثورن فى البحث. فهيا بنا ننضم إلى ثورن لنلقى نظرة على مشهدٍ من خلفِ الكواليس:

خلف الكواليس مع بارى ثورن

اعتدت أن أبدأ بأسئلة عامَّة إلى حدٍّ ما، وأختار – استراتيجيًّا – موقعًا من مواقع البحث (وفى ذهنى منْطق دراسة الحالة)، ثم أواصل العَمَل فأقوم بالملاحظة، كما أقوم فى عَمَلِى الحالى بإجراء المقابلات، يُضَاف إلى ذلك أننى أقوم بِجَمْع الإحصائيات ذات الصلة بموضوع بَحْثِى (والخاصة بِمَنطقة أوكلاند التى أدْرُسُها)، وهى إحصائيات استمدها – مثلاً – من الإحصاء الرسمى للسُّكانِ ومن المنطقة التعليمية. أما الأسئلة الإضافية، أو الأسئلة التى تُعَاد صياغتُها فتبرز فى ثنايا العمل. ومعني هذا أنه توجد حَركَةُ مَجىء وذَهَاب مُستَمِرة بين القضايا النظرية التى قَدَّمْتُها وأقومُ بتطويرها والبيانات الإمبيريقية. فهى عملية شَحْذٍ وتَدْقيق، كما أنها عملية استقرائية، تتصِف بوجود قَدْرٍ عظيم من الاستِكشاف وإعادة الصياغة على امتداد هذا الطريق (فالاكتشاف، وفُرَص العثور على الأشياء النفيسة أو السارة مصادفة، يُعَدَّانِ كذلك من الملامِح المُمَيِّزة لبعض أنواع البحث الكيفى).

خاتمة

فى هذه المرحلة من الكتاب، نَأمُلُ أن تكون قد استوعبت ما يتصف به البحث الكيفىُ من تَعَقُّد على المستويين النظرى والعملى معًا. خَاصَّةً وأن أى باحث إنما يَعْمَلُ انطلاقاً من نموذج نظرىٌ معين أو انطلاقاً من رؤية معينة للعالمِ. لذلك يُؤَثِّر هذا المنظور الفكرى على كافة مراحِل المشروع البْحثِى ويُشَكِّل البِنية التَّحتِية الفلسفِية لهذا المشروع. وتقع الرابطة البحثية (التى تجمع بين الإبستمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحْث) تقع حيث تتداخل الركائز الفلسفِية للمشروع البحثِى مع تِقنياته التى سوف تستخدمها. وتَتَأثَّر القضايا الكثيرة المتعلقة بتصميم البحث، والتى استعرضناها فى هذا الفصل؛ تتأثَّرُ كلُّها بهذِهِ القضايا الأساسية. وبهذه الطريقة يكون البحث الكيفى نشَاطًا كُلِيًّا حقًّا،

حيث تتداخلُ فيهِ الطبقات المتعددة للبحث، وكذلك تتداخَل مراحلُه المتعددة مَعَ بَعْضِها البعض. وبعد أن فرغنا من بيان ذلك لا يزال ثمة عنصر مستمر مِن عناصر البحث الكيفى يتوجب معالجتهُ بدِقة، وهذا أمر يتعلق بالأخلاق. لذلك فإننا ننتقِلُ فى الفصل القادم لمناقشةِ البنيةَ التحتية الأخلاقية للبحث، والتعرف على السببِ الذى يجعل الباحثين الكيفيين ملتزمين بالتعامل مع الأخلاق بأسلوب كُلِّىٍّ.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **الاستقراء التحليلى** — **Analytical Induction**

عملية تكرار دائرية تجرى بين جَمْع البيانات وتحليل البيانات وتوليد النظرية.

- **التحقق مِن صحة المفاهيم** — **Construct Validation**

ويقيس صَدق المفَاهيم المجردة، كمفهوم "التسلُّطية" authoritarianism، عن طريق افتراض الأمور التى قد تكون مرتبطة (نظرياً) بهذه المفاهيم إذا كانت مفاهيم صادقة.

- **الاتجاه التشكيلى التأويلى** — **Constructive – Interpretive Approach**

هذا الاتجاه واحد مِن النماذج النظرية التأويلية الثلاثة فى مجال البحث الكيفِى. فإذا التَزَمْت باتجاه تشكيلى Constructivist أو تأويلى interpretive فى البحْث، فإننى أُسَلِم بحقيقة ذاتية، كما أنها تتكوَّنُ مِن القصص أو المعانى التى يَتِمُّ إنتاجُها أو تشكيلُها على يَد الأفراد داخل مجتمعاتهم "الطبيعية". ويُؤكِدُ مفكرو التشكيل بالذات على أنهَ لا تُوجَدُ حقيقة اجتماعية "موضوعية" "خارجاً عنا" فى انتظار اكتشافِها.

- **عينة الملاءمة** — **Convenience Sample**

فى كثيرٍ جدًا مِن الأحيان يجد الباحثون أن فرص اختيار الإخباريين تتضاءل حتى تصل إلى القبول بمن يكون متاحاً منهم، وهو الإخبارى الذى

يكون لديه بعض المعرفة المتخصصة عن هذا المجتمع ويكون راغبًا فى القيام بهذا الدور. ويعرف هذا النوع من أنواع العينات باسم عينة الملاءمة.

• الاتجاه النقدى **• Critical Approach**

هو أحد النماذج النظرية التأويلية الثلاثة فى البحث الكيفى، ويعالج النموذجُ النظرىُ النقدى موضوعَ كيْفَ تُهَيْمِن علاقات القوة، والضبط، والإيديولوجيا، على فَهْمِنَا للحقيقة.

• المنظور النسوى **• Feminist Perspective**

يولى المنظور النسوى اهتماماً خاصاً للكشف عن الجوانب التى يتم "قهرها" أو "إخفاؤها" من خبرات الفرد، والتى ربما تكون قد فاتت الباحثين.

• النظرية المُوَثَّقة **• Grounded Theory**

فى الواقع، يحرص بعض الباحثين الكيفيين، خاصةً مَن يستخدمون منهم منظورا منبثقًا مِن النظرية الموثقة (Charmaz, 2000)، على النظر الدقيق والمستمر فى بياناتهم، كما يقومون – دائماً – باختبار أفكارهم فى أثناء قيامهم بجمع بيانات بحوثهم.

• المنظور التأويلى **• Interpretive Perspective**

ظهر هذا المنظور الفِكرى كاعتراض مباشر على الإبستمولوجيا الوضعية وعلى فهمها وتطبيقها للموضوعية. وترتكز الإبستمولوجيا التأويلية على أساس تفسير التفاعلات والمعانى الاجتماعية التى يَعْزُوها الناس إلى التفاعلات التى تَجْرى بينهم (Nielsen, 1990, p. 7). ويؤمن هذا المنظور – مِن الناحية الإبستمولوجية – بأن المَعْنَى الاجتماعى يتمُّ خَلْقُهُ أثناء عملية التفاعل وعن طريق تفسيرات الناس لما يجرى بينهم من تفاعلات. ومَفَادُ ذلك أن الفاعلِين الاجتماعيين المختلفين قد يَحْدُث، فى الواقع، أن يفهموا الحقيقة الاجتماعية فُهُومًا مختلفة، مُنتِجين بذلك مَعَان مختلفة وتحليلات مختلفة لها. ويتضمن البحث الذى مِن هذا النوع بناءَ العلاقات بين الباحثِ والمبحوثين الذين يعتبرون شركاء له فى عمليةِ البحثِ هذه.

• Materialist -Realist Ontology • الأنطولوجيا المادية – الواقعية

يُنْظَرُ إلى الحقيقة هنا باعتبارها حقيقة "تصويرية"(*) وليست "واقعية" أو أنها تمثل "الحقيقة".

• Operationalization • الإجرائية

الإجرائية هى عملية تحويل المفاهيم إلى مُتَغَيِّرات.

• Philosophical Assumptions • المسلمات الفلسفية

قد يَحْدُثُ فى كثيرٍ من الأحيانِ أن تَمْضِى هذه المُسَلَّمات بدون أن يُصَرَّحَ بها وبدون أن تُخْتَبَر، إلا أنها تُعَدُّ ركائزَ مهمة جدًّا للمشروع البحثى وتساعدُ على تشكيل مجرى عملية البحث. وتقُوم هذه البنيَةَ التحتِيَة الفلسفية للمشروع البحْثِى بتوجِيهنا وبتوجِيه تفسِيرنا للحقيقة فى بعض القضايا الميتافيزيقِية الجوهرية.

• Philosophical Substructure • البِنية التحتية الفلسفية

هى ما نختاره مِن نموذج نظرى.

• Positivism • الوضْعية

تقترن وجهة النظر المستمدة مِن التراث الوضعى والتى تَرى أن الحقيقة الاجتماعية "قابلة للمعرفة"؛ تقترِنُ بمفهومٍ تقليدى للصدق، يتم تعريفه تعريفًا صارمًا فى ضوء عملية القِياس.

• Postmodernist Research • البحث المابعد الحداثي

يناقش هذا المنظورُ الأساسَ الفِعْلِىَّ لما يَعْنِيهِ المَرْء "بالحقيقة". ويُمْعِن المُفكر الآخِذ بما بَعْدَ الحداثة النظرَ فى الطريقة التى يِتمُّ بها إنتاج الحياة الاجتماعية وكيف يَتَمَتَّعُ حائزو القوة بامتيازات خاصة فيها.

(*) تم اختيار كلمة "تصويرى" كترجمة لكلمة "representational" والعُدُول عن ترجمتها بكلمة "تمثيلى" لأن الكلمة الإنجليزية هنا تتسع لمعنًى "التصوير غير الدقيق، بل والادعاء كذلك"، أما كلمة "تمثيلى" التى هى ترجمة الكلمة الإنجليزية "representative" فتعنى التصوير الدقيق والصادق. (المترجم)

• الصدق التنبؤى • **Predictive Validity**

من ذلك مثلاً أن تستخدم درجات الاختبار المسمَّى "اختبار الاتجاهات الدراسية" Scholastic Attitudes Test (SAT) للتنبؤ بالنجاح فى المدرسة. ويمكن أن يكون مقياس النجاح متوسط ما يحصل عليه الطالب من مَجْموعٍ تراكمى فى كل سنوات الدراسة (GPA) فى الكلية (وهو معيار خارجى).

• العينة العمدية • **Purposive Sample**

وتُسَمَّى كذلك: **العينة الحُكمية** Judgment sample، وكثيراً ما يهتم الباحثون الكيفيون باختيار هذه الأنواع مِن العينات. ويقوم نمط العينة المختارة على أساس مشكلة البحث المطروحة، كما تعتمد على الاعتبارات المتعلقة بالمصادر المتاحة للباحث.

• مَسَار البحث • **Research Trajectory**

تَستَنِدُ مسائل البحث إلى وجهة نظرٍ فلسفية تتعلق بطبيعة الحقيقة، إلا أنها تخضَعُ كذلك لطائفةٍ مِن العوامل كالاهتمامات الأكاديمية والشخصيةِ،والقدُرات، والقِيَم الاجتماعية للباحث. كما تخضع كذلك لمدى قدرته على الحصول على موارد اقتصاذية معينة ومصادرِ ذات صلة بأسلوب الحياة. وتقوم هذه العوامل معًا بتحديد مَسَار البحث الذى يسِير فيه المشروع البحثى.

• إجراءات اختيار العينات • **Sampling Procedures**

هى عملية الاختيار المنظم للمبحوثين من بين أفراد مجتمع البحث.

• العينات الصغيرة • **Small Samples**

يقوم مَنطِق البحث الكيفى على الاهتمام بالفَهْمِ المتعمق، الأمر الذى يدفع الباحث عادة إلى استخدام العينات الصغيرة العدد. ذلك أن الهدف هو بحث "عمليةٍ" ما أو بَحْث "المعانى" التى يَعْزُوها الأفراد لوضعهم الاجتماعى، وليس مِن الضرورى أن يكون الهدف وضع أحكامٍ عامة، وهو الأمر الذى يفسِّرَ سَبَبَ كونِ العينات الصغيرة مناسبة غالبًا.

• Subjective Meaning • المعنى الذاتى

رَغْمَ أن النماذج النظرية للبحْث الكيفِى قد تختلِف فيما يتعلق بما تأخذُ بِهِ من مُسلّمات بِخصوص مدى إمكان أن تكون المعرفة "موضوعية"، فإن أغلب تلك النماذج النظرية الكيفية تتفق على أهمية المعانى الذاتية التى يأتى بها الأفراد للعملية البحثية، كما تعترف هذه النماذج بأهمية التشكيل الاجتماعى للحقيقة.

• Theoretical Sampling(*) • العينة النظرية

هى نمطٌ مهم آخَر مِن أنماط العينة العمدية. وغالبًا ما يستخدم هذا النوع مِن العينات كجُزء مِن الاتجاه البحثِى القائم على "النظرية المُوثقة". ويُحَدِّد جلاسَر وستراوس (١٩٦٧، ص ٤٥) مَعْنَى اختيار العينة النظرية بأنه "عملية جمع البيانات بهدَف توليد النظرية التى بواسطتها يقوم المُحلِّل – فى الوقت ذاته – بَجَمْع بياناته، وتصنيفها، وتحليلها كما يقرر – فى أثناء ذلك – ما هى البيانات التى سيقوم بَجَمْعُها فيما بَعْدُ، وأينَ يمكنه أن يجدها حتى يبلور النظرية وهى تبزغ أمام ناظريه بصورة تدريجية.

• Theoretical Saturation • التشبع النظرى

يُشير آجار (١٩٩٦) إلى أنه إذا وجد الباحثُ أن النتائج مُتَماثلة بالنسبة لجماعة مِن الأفراد، وأنها لم تُضِفْ جديداً إلى علم الباحث عن طريق إعادة اختيار العينات مِن بين أفراد مجتمع البحث؛ عندها يكون البحث قد وصل إلى مرحلة التشبع النظرى بالنسبة لهذه الجماعة.

• Theory Generation • توليد النظرية

يحدث هذا التوليد عندما يستعمل الباحث بياناته لتطوير نظريةٍ تتعلق بالعالَم الاجتماعى أو بجانبٍ مُحَدَّد مِن جوانبِه.

(*) أثبتنا الكلمة كما وردت فى الأصل، وصحتها Sample، كما يتضح من سياق الكلام. (المراجع)

• الصدق • Validity

يتصور الباحثون العاملون فى إطار النموذج النظرى الكيفى، مفهوم الصدق على نحوٍ مخالفٍ للمفاهيم الوضعية التقليدية لهذا المصطلح. وبصورة عامة، فإن الصدق يمثل إحدى القضايا التى يُعالجُها الباحثون وهم يُصوغون قضيةً أو يسوقون حُجَّةً تثبتُ أن المعرفة التى تحصلوا عليها معرفةٌ صحيحة. وبتعبير آخر، أن هذه المعرفة المُنتَجة تَعكِسُ بعض جوانب العالم الاجتماعى و/ أو أنها مُلزِمة.

* * *

أسئلة للمناقشة

(١) ما هى رؤية العالم وكيف تؤثر على العملية البحثية مِن وجهة النظر الكلِّية؟

(٢) كيف يتأثر تصميم البحث بالاعتبارات الفلسفية والاعتبارات العملية؟

(٣) لماذا يتعين على الباحث أن يكون منفتحاً لتعديل مشروع البحث فى ضوء النظرية والمناهج؟

(٤) كيف يفكر الباحثون الكيفيون فى قضايا الصدق، والثبات، والقابلية للتعميم؟

(٥) ما هى الاعتبارات المهمة التى يتعين مراعاتها عند اختيار عينة البحث؟

(٦) ما معنى القول بأن الباحثين الكيفيين يستخدمون فى عملهم نموذجاً فى البحث يشبه "الرقصة"، ولا يستخدم نموذج "الخطوة"؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

مصادر البحث الكيفى

- **Resources for Qualitative Research**

http://www.qualitativersearch.uga.edu/Qual/Page

هذا الموقع مكرس للبحث الكيفى فقط، مع روابط مفيدة كالأعمال المنشورة، ومنتديات الحوار، والمناهج، والمقالات العلمية، والهيئات والجماعات المهتمة بالبحوث الكيفية.

البحث الكيفى فى نظم المعلومات

- **Qualitative Research in Information Systems**

http://www.qual.auckland.ac.nz/

يستهدف هذا الموقع تزويد الباحثين الكيفيين فى نظم المعلومات، وكذلك الباحثين الذين يريدون التعرف على البحث الكيفى؛ تزويدهم بمعلومات عن تنفيذ، وتقويم، ونشر البحوث الكيفية.

* * *

References المراجع

- Agar, M. (1996). *The professional stranger: An informal introduction to ethnography* (2nd ed.). New York: Academic Press.
- Banks, J. A. (1976). Comment on "A Content analysis of the black American in text-books." In M. P Golden (Ed.), *The research experience* (PP. 383—389). Itasca, IL: F.E. Peacock.
- Peacock, Becker, H., Geer, B., Hughes, E., & Strauss, A. (1961). *Boys in white: Student culture in medical school*. Chicago: University of Chicago Press.
- Charmaz, K. (2000). Grounded theory: Objectivist and constructivist methods. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.) (pp. 509-535). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crabtree, B. F., & Miller, W. L. (1999). The dance of interpretation. In B. F. Crabtree & W. L. Miller (Eds.), *Doing qualitative research* (2nd ed., pp. 127-143). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N. K. (1989). *The research act: A theoretical introduction to sociological methods*, (3rd ed). Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (2000). *Handbook of qualitative research* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA.: Sage.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (1998a). *The landscape of qualitative research: Theories and issues*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (1998h). *Strategies of qualitative inquiry*. Thousand Oaks, CA.: Sage.
- Deutsch, M., & Krauss, R. M. (1965). Theories in social psychology. New York: Basic Books.
- Diaz, J. (1999). Blood money: Life, death, and plasma on the Las Vegas Strip. *Electronic Journal of Sociology*, 4 (2). Retrieved from: http://www.sociology.org/content/v01004.002/diaz.html

- Dobb, A., & Gross, A. (1976). Status of frustration as an inhibitor of horn-honking responses. In M. P Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 481-486). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Garner, D. M., Olmsted, M. P., & Polivy, J. (1983). Development and validation of a multidimensional eating disorder inventory for anorexia nervosa and bulimia. *International Journal of Eating Disorders*, 2, 15-34.
- Gay, L. R., & Airasian, P (2003). *Educational research: Competencies for analysis and application* (7th ed.). Upper Saddle River, NJ: Merrill/ Prentice Hall.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. L.. (1967). *The discovery of Grounded Theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Golden, M. P (Ed.). (1976). The research experience. Itasca, IL: F. E., Peacock.
- Greene, J. C., Caracelli, V. J., & Grahan, W F. (1989). Toward a conceptual framework for mixed-method evaluation design. *Educational Evaluation and Policy Analysis*, 11(3), 255-274.
- Guba, E. G., & Lincoln, Y. S. (1989). *Fourth generation evaluation*. Newbury Park, CA: Sage.
- Gubrium, J. F., & Holstein, J. (1997). *The new language of qualitative method*. New York: Oxford University Press.
- Heideggr, M. (1962). *Being and Time*. New York: Harper & Row. (Originally published in 1927).
- Hendrix, K. (1998). Student perceptions of the influence of race on professor credibility. *Journal of Black Studies*, 28(6), 738-763.
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet: The cult of thinness and the commercialization of identity*? New York, Oxford University Press.
- Honigmann, J. (1982). Sampling in ethnographic fieldwork. In R. Burgess (Ed.), *Field research: A sourcebook and field manual* (pp. 79-90). London: George Allen & Unwin.
- Jones, S. 13. (1967a). Geographic mobility as seen by the wife and mother. In M. Golden (Ed.). *The research experience* (pp. 315-326). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Jones, S. B. (1976b). Personal reflections on the research process. In M. Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 327-339). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Kvale, S. (1996). *Interviews: An introduction to qualitative research interviewing*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Lincoln, Y, & Guba, E. (1985). *Naturalistic Inquiry*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Lincoln, Y, & Guba, F. (1999). Establishing trustworthiness. In A. Bryman & R. G. Burgess (Eds.), Qualitative research, volume III (pp. 397-434). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Locke, L., Spirduso, W. W., & Silverman. S. (2000). *Proposals that work. A guide for planning dissertations and grant proposals*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miller, W. L., & Crabtree, B. F. (1999). Clinical research: A multimethod typology and qualitative roadmap. In B. F. Crabtree & W L. Miller (Eds.), *Doing qualitative research* (2nd ed.) (pp. 3-30). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morse, J. (1995). The significance of saturation. *Qualitative Health Research*, 5(2), 147-149.
- Neuman, W. (2003). *Social research methods: Qualitative and quantitative methods*, (5th ed.). Boston: Allyn & Bacon.

- Nielsen, J. M. (Ed.). (1990). *Feminist research methods*. Boulder, CO: Westview Press.
- Patton, M. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Popay, J., Rogers, A., & Williams, G. (1998). Rationale and standards for the systematic review of qualitative research in health services and research. *Qualitative Health Research*, 8, 341-351.
- Popper, K. R. (1959, 1935). *The logic of scientific discovery* (Originally published in German in 1935). New York: Basic Books.
- Rosaldo, R. (1989). *Culture and truth: The remaking of social analysis*. Boston: Beacon.
- Schensul, S. L., Schensul, J. J., & LeCompte, M. D. (1999). Essential ethnographic methods: Observations, interviews and questionnaires. In S. L. Schensul, J. J. Schensul & M. D. LeCompte (Eds.). *Ethnographer's handbook*, volume 2, PP. 278-289. Lanham. MD: Alta Mira/Rowman & Littlefield.
- Schutz, A. (1967). *The phenomenology of the social world* (G. Walsh & F. Lehnert, Trans.). Evanston, IL: Northwestern University Press.
- Scale, C., & Silverman, D. (1997). Ensuring rigour in qualitative research. *European Journal of Public Health*, 7, 379-384.
- Simmel, G. (1971). *On individuality and social forms* (D. Levine, Ed.). Chicago: University of Chicago Press.
- Spencer, L., Ritchie, U., Lewis, J., & Dillon, L. (2003). *Quality in qualitative evaluation: A framework for assessing research evidence*. London: Government Chief Social Researcher's Office.
- Strauss, A. L., & Corbin, J. (1998). *Basics of qualitative research: Techniques and procedures for developing grounded theory* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Vaughan, D. (1990). *Uncoupling: Turning points in intimate relationships*. New York: Vintage Books.

الفصل الثالث

أخلاقيات البحث الاجتماعى

دراسة مرض الزهرى بمدينة Tuskegee

قامت وزارة الصحة بالولايات المتحدة الأمريكية بإجراء دراسة عن مَرَض الزهرى بمدينة تصكيجى Tuskegee بدأتها سنة ١٩٣٢. وتناولت الدراسة بالفحصِ الدقيق الحالات التى لم تتلقَّ علاجًا ممَّن كانوا مصابين بالزهرى الكامنِ من الأفراد الخاضِعين للدراسة، وذلك من أجل تحديد "المسار الطبيعى" لهذا المَرَض. وقد شملت هذه الدراسة ثلاثمائة وتسعة وتسعين من الرجال السُّود من مدينة تصكيجى Tuskegee، بولاية ألاباما، مَمَنْ كانوا قد وصلوا إلى مرحلة متأخِّرة من الإصابة بالزهرى أجريت الدراسة عليهم فعلاً، فى نفس الوقت الذى توفرت فيه للدراسة عينة مُناظِرة مكونة من (٢٠١) من الرجال غير المصابين.

ولَمْ يُطلَبْ من المبحوثين أن يُدلوا بموافقتهم الصريحة على المشاركة فى هذا المشروع البحثى. وفى ذلك الوقت أُعطِيَ مَنْ كانوا مصابين بالزهرى فى السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن العشرين العلاج المقرر لمثل هذه الحالات، والذى كان يتكون فى تلك الأيام من التداوىِ بالمعادن الثقيلة. ومع ذلك، فإن المشاركين فى هذه الدراسة لم يتلقوا هذا العلاج. فالواقع أنَّ الطبيب المسئول عن هذه الدراسة لاحظَ أن "الجميع اتفقوا على أن الإجراء المناسب هو مداومة ملاحظتِه للرجال السود الخاضعين لهذه الدراسة وفى ذهنه أنه سينتهى به الحال إلى مرافقتهم حتى مرحلة تشريح جُثَثهم (بعد الوفاة)" (جونز Jones، ١٩٩٣، ص ١٣٢).

غير أنه بعد أن أصبحت المضادات الحيوية مُتاحة فى الأربعينيات من القرن العشرين، وتبين أن هذا العلاج من شأنه تحسين فُرَص المريض فى الشفاء؛ مُنِعَ استعمال العلاج بالمضادات الحيوية مع الأفراد المصابين، حتى على الرغم من أن الباحثين كانوا يعلمون أن ترك هؤلاء المصابين بدون

علاجٍ سوف يؤدى – بالقطع – إلى تفاقم حالة المرض ليصل إلى مزيد من العجْز الذى ينتهى إلى الوفاة المُبَكِّرة. وَوَفقًا لما جاء فى بعض التقارير، فإنه "حَدَث فى حالات متعددة أن سَعَت وزارة الصحة الأمريكية لمنع العلاج" (Heintzelman, 1996, p. 49).

وقد استمرتْ هذه التجربة طوال أربعة عقود، ولم يَحْدُثْ إلا سنة ١٩٧٢، أن قامِ المسئولون الحكوميون أخيراً بإنهاء هذه التجربة، مَدْفُوعين لذلك – عموماً – بما كَشَفته وسائل الإعلام القومية من حقائق. وفى ذاك الوقت كان (٧٤) من المبحوثين لا يزالون أحياء؛ وقد سَبَقَ ذلك أن مات (٢٨) منهم على الأقل كَنَتِيجَة مباشرة لوصولِهِم لمرحلة متقدمة من الإصابة بالزهرى، بَلْ إنه مِنَ المَحْتَمَل أن يزيد عَدَدُهم عن (١٠٠)". (ص ٤٩). وفى منتصف سنة ١٩٧٢ بَدأتِ الحكومة إجراء تحقيق رسمى عن المشروع بأكملِه، وقد وَجدت لجنة منِ الاستشاريين الذين قاموا بهذا التحقيق "أن هذه الدراسَة "غير مبررة أخلاقياً"، وذهبت إلى أنه كان ينبغى توفير البنسيلين لهؤلاء الرجال" (ص ٤٩).

الدروس الأخلاقية المستفادة من التجربة الطبية الحيوية فى مدينة Tuskegee": الموافقة الصريحة (عن علم)

لم يَحْدُث فى أى لحظة على امتداد ذلك المشروع البحثى أن طُلب إلى المبحوثين أن يُدلوا بموافقتهم على المشاركة فى هذه الدراسة. ولم يتم إخبارهم بتفاصيل ما ستؤدى إليه هذه الدراسة. ففى الواقع، لم يكن هؤلاء الذين شاركوا فى هذه الدراسة متطوعين فى هذا المشروع. بل إنهم تعرضوا للخداع حتى يظنوا أنهم "يتلقون علاجاً مجانياً يقدمه الأطباء الحكوميون لعلاج مرض خطير". ولم يشرح لهم أحد أبداً أن هذا المسح الاجتماعى مقصود منه اكتشاف مرض الزهرى. ولم يُخبر المبحوثين أبداً أنهم مصابون بالزهرى، كما لم يُخبروا بمسار هذا المرض، ولا بالعلاج، والذى كان يتكون من عمليات بزل من العمود الفقرى (Heintzelman, 1996, p. 51).

وقد استخرجنا نسخة من خطاب الاستدعاء الأصلى الذى أُرسل فى بادئ الأمر من "الإدارة الصحية بمقاطعة ماكون Macon County" "والهيئة الصحية لولاية ألاباما ووزارة الصحة الأمريكية بالتعاون مع معهد

"Tuskegee" إلى الأفراد المصابين بالمرض المذكور. وعندما تقرأ هذا الخطاب فسوف تلاحظ أنه لم يذكر شيئاً عن عمليات البزل من العمود الفقرى كعلاج عادى مقرر، بل إنه – بدلاً من ذلك – يدَّعى أن المبحوثين سوف يتلقون "علاجاً خاصاً". بل وصل الأمر إلى الزعم بأنهم "يحظون برعاية الأفراد الذين يقومون بخدمتهم". وبإمكانك أن تتصور أنه إن كُنْتَ تعيش فى فقر شديد، فقد يبدو لك هذا الخطاب وكأنه "إنعام" بالحياة.

وفى كتابه بعنوان "الدم الفاسد: تجربة تصكيجى فى علاج الزهرى"(*). يشير المؤلف جيمس جونز إلى أن المبحوثين فى هذه التجربة التى أُجريت فى مدينة تصكيجى كانوا يثقون ثقة عمياء بالمجتمع الطبى. وفى ذلك يقول أحد المبحوثين المشاركين فى هذه التجربة:

كنا نثق بهم لاعتقادنا أن بإمكانهم أن يعملوا لما فيه صالحُنا، أى لتحسين صحتنا الجسمية. ... فما كان منا إلا أن نمضى فى رفقة الممرضة. وقد كنتُ أتصور أن [الأطباء] كانوا يُسدون إلىَّ معروفاً. (جونز ١٩٩٣، نقلاً عن هاينزلمان، ١٩٩٦، ص ٥٠).

وثمة سؤال آخر عما إذا كان الباحثون يَخْدعون – أو لا يخدعون – مجموعة من السكان المعرضين للإصابة، والذين يعرف عنهم هؤلاء الباحثون أنه لا تتوافر لهم الموارد المالية اللازمة لتحمُّل نفقات العلاج أو التعليم بحيث يمكنهم أن يرفضوا هذه الخدمة الطبية. يُضاف إلى ذلك أن ما كان الباحثون يتصفون به من اتجاهات عرقية راسخة نحو الرجال السود يَسَّرَت عليهم تبرير قرارهم بعدم توفير العلاج لهم:

الإدارة الصحية بمقاطعة ماكون

الهيئة الصحية لولاية ألاباما ووزارة الصحة الأمريكية

بالتعاون مع معهد تصكيجى

عزيزى:

منذ فترة مضت أُجرى عليك فحص شامل، ومنذ تلك الفترة نأمل أن تكون قد حصلت على قدر كبير من علاج الدم الفاسد. والآن سوف تُمنح

(*) James Jones, Bad Blood: The Tuskegee Syphlis Experience.

فرصتك الأخيرة لإجراء فحص ثان. وهذا الفحص من نوع خاص جداً، وبعد أن ننتهى منه ستحصل على علاج خاص إن كان من المؤكد أنك فى حالة صحية تمكنك من تحمله.

فإن كنت تريد هذا الفحص الخاص والعلاج الخاص، فإنه يتوجب عليك أن تقابل الممرضة فى يوم ساعة ظهرًا. وسوف تَصْحَبُكَ الممرضة إلى المستشفى التعليمى بتصكيجى للحصول على هذا العلاج المجانى. وسوف نكون مشغولين جداً أثناء إجراء هذه الفحوص والعلاجات، كما سيكون أمامنا عدد كبير من الأفراد للقيام بتقديم العلاج لهم. وننبهك إلى أنه يتعين عليك الانتظار بعض الوقت عندما تُجرى آخر فحص كامل لك، كما نود إخبارك بأنه نظراً لأننا نتوقع أن نكون مشغولين جداً فقد يكون ضرورياً أن تَمْكُثَ فى المستشفى لمدة ليلة واحدة. فإن تبين ضرورة مبيتك فسيتم تزويدك بوَجَبات الطعام وبالفراش، كما سيتم توفير الفحص والعلاج لك مجاناً.

تذكَّر أن هذه هى فُرصتُكَ الأخيرة للحصول على علاج مجانى خاص. فاحرص على مقابلة الممرضة.

الإدارة الصحية لمقاطعة ماكُون

تم نسخ هذا الخطاب من الموقع الإلكترونى التعليمى فى مركز بوينتر Poynter Center بجامعة اللينوى، للانتفاع به فى الدراسة التى تحمل عنوان "دراسة الأخلاقيات والمعاهد العلمية الأمريكية" .<http://poynter.indiana.edu/sas/ib/fads.html>

كان مبرر هذه الدراسة أن هذه الحالات موجودة "بصورة طبيعية"، وأن هؤلاء الرجال لن يتلقوا علاجاً بأية حال، وذلك وفقاً للمُسلَّمة التى شكَّلت صورة هذه الدراسة – وهى أن الرجال من الأمريكيين السود، ولكون الواحد منهم يُعاشر أكثر من امرأة واحدة بجانب كونه شهوانياً، لن يسعوا للحصول على العلاج أو المداومة عليه. (براندت Brandt، نقلاً عن هاينزلمان، ص ٤٩).

وقد أتاحت القرارات الخاطئة من جانب الباحثين، والمتأثرة بالتعصب الأعمى، أتاحت الفرصة لحدوث ذلك الأمر. بيد أن هذا النوع من البحوث مرفوض تماماً. فهو يكشف عن مدى ما يمكن أن تؤدى إليه النزعة العرقية من معاملة غير إنسانية للمبحوثين من البشر. وقد ذهب البعض إلى أن نتائج هذه التجربة تسببت – إلى حد ما – فى إحداث تأثير (سيئ) طويل الأمد على مجتمع الأمريكيين السود، ملقية "بظلال ممتدة على العلاقات المعاصرة بين الأمريكيين السود والمجتمع الطبى" (Gamble, 1997, p. 1773).

الأهمية المحورية للأخلاق فى المشروع البحثى

عادة ما تظل المناقشات الأخلاقية معزولة عن مناقشات المشروعات البحثية أو مهمشة فيها. والواقع أن بعض الباحثين يعتبرون هذا الجانب الخُلُقِى من البحث نوعاً من الخواطر التى ترد على البال بعد إنجاز العمل. ومع ذلك فإن **الاستقامة الخلقية** للباحث تعد أمراً على جانب كبير من الأهمية إذ تضمن أن تكون عملية البحث والنتائج التى يصل إليها الباحث "جديرة بالثقة" وصادقة فى الآن معاً.

إن مُصطلح ethics مستمد من الكلمة الإغريقية ethos التى تعنى "الخُلُق" "character". وإن التزامك بالبعد الخُلُقى لبحثك يقتضى منك أن تسأل نفسك عدة أسئلة مهمة:

- ما هى المبادئ الخلقية التى تُوجِّهُ بَحثَك؟
- إلى أى مدى تَدْخُلُ المسائل الخُلقية فى اختيارك لمُشكلة البحث؟
- إلى أى مدى تُؤثر المسائل الخُلقية فى الطريقة التى تُجْرى بها بحثك" أى: فى تصميم دراستك، وفى طريقتك فى اختيار العينات، وما إلى ذلك؟
- ما هى المسئولية التى تتحملها تجاه الأفراد المبحوثين؟ مثال ذلك، هل حَصلْتَ على موافقتهم الصريحة (عن علم) بالمشاركة فى مشروعك البحثى؟ وما هى القضايا/ المآزق الخلقية التى قد تساهَمُ فى تحديد

نتائج البحث التى سوف تنشرها؟ وهل سيعود بَحثُكَ بالنفع على من اشتركوا فى هذه الدراسة بشكل مباشر؟

إن من الضرورى أن يكون الاهتمام بالأخلاق جزءًا فائق الأهمية من البنية التحتية لعملية البحث، ابتداءً من التصور الأولى لمشكلتك وانتهاء بتفسير نتائج البحث ونشرها. ومع ذلك فإن هذا الجانب الذى يشكل واحداً من جوانب عملية البحث لا يظهر كثيراً فى الرسوم التخطيطية لنماذج البحوث التى ناقشناها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب. وسوف يساعدنا الاطلاع على تاريخ مُوجز للجوانب الأخلاقية للبحْث على حُسْن فهم السبب الذى جعل هذه الجوانب تظل هكذا: غير ظاهرة فى نماذج البحوث.

تاريخ موجز لأخلاقيات البحث

ظهر الاهتمام الرسمى بحقوقِ المبحوثين من واقع ما تكشَّف من الأفعال الوحشية الرهيبة التى كانت تُنفذ فى صورة البحث العلمى الذى يُجرى على اليهود وعلى غيرهم من جماعات الأقليات العرقية والإثنية فى معسكرات الاعتقال النازية أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان من نتائج الكشف عن هذه التجارب الطبية المُرعبة التى ارتُكِبَتْ باسم العلم، أن صدر فى سنة ١٩٤٩ "ميثاق نورمبرج "Nuremberg Code، وهو ميثاق أخلاقى يبدأ بالنص على وجوب أن يكون الاشتراك فى البحث (كمبحوث) اشتراكاً تطوعياً. وقد أعقب هذا الميثاق صدور مواثيق أخرى، بما فيها "إعلان هلسنكى" "Declaration of Helsinki" (١٩٦٤). وقد تم تطوير هذا الميثاق بصفة خاصة "ليكون بديلاً، إلى حد ما، لميثاق نورمبرج الذى كان يتناول حصرياً البحوث التى لا تتضمن العلاج بالعقاقير والجراحة (أى البحث الذى لا يقدم منفعة مباشرة للمبحوث)" (Alvino, 2003, p. 896). ويحمى هذا الميثاق المبحوثين فى كل من البحوث العلاجية وغير العلاجية على السواء. ويشير إعلان هلسنكى إلى عدد من الإجراءات المحورية التى ينبغى تطبيقها فى البحوث الطبية الحيوية:

لابد لكل مشروع بحثى طبى حيوى يشتمل على أفراد مبحوثين من البشر أن يكون مسبوقاً بتقدير دقيق للمخاطر التى يمكن التنبؤ بها مقارنة بالمنافع المتوقع أن تعود على المبحوث وعلى الآخرين... إذ يتوجب بصفة دائمة احترام حق الفرد المبحوث فى الحفاظ على سلامته. كما يجب اتخاذ كل تدبير وقائى لاحترام خصوصية الفرد المبحوث ولتقليل أثر الدراسة على السلامة البدنية والعقلية للمبحوث وعلى شخصيته (ص ص ٨٩٦- ٨٩٧).

كما أُنشئ مجلس المنظمة الدولية للعلوم الطبية(*) للباحثين الذين يجرون بحوثهم فى البلاد النامية (Beyrer & Kass, 2002). وعلى امتداد تاريخ البحث العلمي لفتت القضايا الأخلاقية انتباه العلماء كما لفتت انتباه وسائل الإعلام أيضاً. ومع أن الحالات المتطرفة للسلوك اللاأخلاقى تمثل الاستثناء وليست القاعدة فى المجتمع العلمى، فإن الإفصاح عن تلك المشروعات اللاأخلاقية يُمكن أن يزودنا بدروس مهمة لفهم ما يمكن أن يحدث عندما يتم إغفال البعد الخُلُقى للبحث بصورة كلية داخل العملية البحثية.

الخطوط الإرشادية والقوانين الحاكمة لعملية البحث

لسوء الحظ، أنه عندما بدأت تجربة تصكيجى، لم يكن هناك وجود لهيئة رسمية للفحص والمراجعة(**)، وذلك لمراجعة أهداف هذا المشروع. ولم يحدث إلا فى منتصف الستينيات من القرن العشرين أن بدأت الحكومة الفيدرالية عملية بلورة مجموعة من "القواعد الرسمية" التى تحكم معالجة البحث. وكانت هذه العملية فى جزء منها رد فعل لأمثال تلك الانتهاكات الطبية التى حدثت فى تجربة تصكيجى وفى غيرها من التجارب (Beecher, 1966, Jones, 1981)، والتى أدت فى نهاية الأمر إلى أن يجيز الكونجرس فى سنة ١٩٧٤ القانون القومى للبحوث National Research Act.

(*) The Council of International Organization of Medical Sciences (CIOMS).
(**) Institutional Review Board (IRB).

وقد أنشأ هذا القانون "إدارة للوقاية من مخاطر البحــوث"[*] وأُلحِقَــتْ بالمعاهد القومية للصحة. وقد طالب هذا القانون بإنشاء "لجنة لوقاية المبحوثين من البشر والمشاركين فى البحــوث الطبيــة الحيويــة والبحــوث الــسلوكية (Alvino, 2003, p. 897). وقد أذنت هذه اللجنة بــإعلان تلــك المبــادئ الأخلاقية فى سنة ١٩٧٨ فى تقرير عُــرف "بتقريــر بلمونــت" Belmont Report، وهو التقرير الذى رُوجع فيما بعد لكى يتضمن إجــراءات وقائيــة إضافية لحماية الصغار الذين يشاركون فى عملية البحث (ص ٨٩٨).

وفى سنة ١٩٩١، حظيت هذه الخطوط الإرشادية بعــد مراجعتهــا – والتى عُرفت باسم "القاعدة العامة" – بقبول واسع الانتــشار لــدى الهيئــات الفيدرالية (ص ٨٩٨). وقد قضت هذه القاعدة العامة، ضمن ما قضت به مــن أحكام، بأنه يتعين على أى مؤسسة تتلقى اعتمادات ماليــة فيدراليــة لإجــراء بحوث أن تنشئ لجنة رسمية للفحص والمراجعة. ووظيفة هذه اللجان – التــى عُرفت باسم "المجالس الرسمية للفحص والمراجعة" (IRBs) – هى مراجعــة كافة المقترحات البحثية التى تتضمن العمل مع مبحوثين مــن البــشر ومــن الحيوانات. لذلك فإن الجامعات والكليات التى تتلقى اعتمادات مالية فيدراليــة للبحوث المطبقة على مبحوثين من البشر، مثلاً، مطالبــة بمقتــضى القــانون الفيدرالى بأن يكون بها مجالس للفحص والمراجعة وإلا فقدت حقها فى التمويل الفيدرالى. والمجالس الرسمية للفحص والمراجعة مسئولة عن تنفيذ ما أصدرته حكومة الولايات المتحدة من لوائح لتنظيم البحوث التى تُجرى علــى البــشر. ويتوجب عليها أن تقرر ما إذا كانت منافع دراسة ما ترجح مخاطرهــا أم لا؛ وأن إجراءات الحصول على موافقة المبحوثين قد نُفذت بدقة وعناية، وأنه لــمْ تُعامل أى مجموعة من الأفراد معاملة غير أمينة أو لم تستبعد مــن الانتفــاع بالثمرات الإيجابية المُحتملة للبحث (Beyrer & Kass, 2002). ولا ريب أن هذا أمر مهم فى مجتمع ذى بنية هرمية لا يمكننا فيه أن نفترض – ببساطة – أن النزعة العرقية، والتعصب للجنس sexism (الإناث ضــد الــذكور – أو

[*] Office for the Protection of Research Risks (OPRR).

العكس – المترجم)، ورهاب المثلية،(*)، والنزعة الطبقية، لن تتدخل في البحث. وقد يكون لأنماط معينة من البحوث، كالبحث التربوى الذى يعالج موضوع "الاستراتيجيات التعليمية" مثلاً؛ قد يكون لها "وضع استثنائى" فلا تحتاج إلى المراجعة الشاملة من قبل المجالس الرسمية للفحص والمراجعة (DHHS, 1989).

ومن الأمور التى تستحق الانتباه أنه على امتداد أكثر من أربعة عقود، وحتى بعد أن انتهت وزارة الصحة الأمريكية (USPHS) من صياغة "ميثاق أخلاقيات البحث" الخاص بمعاملة المبحوثين، ظل مسموحاً باستمرار تجربة تصكيجى (Heintzelman, 1996, p. 52). ويثير هذا الوضع تساؤلات حول مدى فعالية وجدوى عرض المشروعات البحثية على مجالس الفحص والمراجعة، كما يثير تساؤلات حول فعالية مجموعة المواثيق والأخلاقيات المهنية التى تُشكل جزءًا من ضوابط العمل فى معظم التنظيمات المهنية المتخصصة، وتقوم حالياً بدور الخطوط الإرشادية لإجراء البحوث (انظر، مثلاً، الاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع، ١٩٩٢، والاتحاد الأمريكى لعلم النفس، ١٩٨١؛ وانظر موقعه على شبكة الإنترنت:
<http://www.apa.org/ethics/homepage.html.>

إلى أى مدى يحظى المبحوثون بمستوى جيد من الحماية حالياً؟

مر أكثر من ثلاثين عاماً على إصدار الحكومة للوائحها المنظمة لحماية المبحوثين من البشر المشاركين فى الدراسات التى تتلقى تمويلاً فيدرالياً، ومع ذلك فلا تزال توجد حالات تتضمن التعامل مع مبحوثين من البشر أفضت إلى إلحاق الضرر ببعضهم وإلى وفاة بعضهم. وفى هذا الصدد يُعلقُ أحد الباحثين بالقول: "وصف دارسو الأخلاق تاريخ البحوث التى تتعامل

(*) رهاب المثلية homophobia: خوف مرضى من إتيان الجنسية المثلية. وينطبق هذا التعبير على الأفراد الذين يعانون من مشاعر سلبية قوية نحو الجنسية المثلية والأفراد الذين يؤيدون الأنشطة الخليعة. ويرجع بعض الأطباء النفسيين هذا الخوف إلى أن هذا الشخص يعانى من جنسية مثلية كامنة مصحوبة بجهود لإخفائها. (المراجع)

مع مبحوثين من البشر بأنه تاريخ "للتقدم الذى تحركه الفضائح" (Alvino, 2003, p. 895). وفيما يتصل بالفضائح الموجودة حالياً فى ميدان البحوث الطبية الحيوية، يقول ألـڤينو:

أثارت وفاة جيسى جلسينجر Jesse Gelsinger التى شاع ذكرها وانتشر (قد كان جيسى هذا مبحوثاً مات نتيجة لمشاركته فى تجربة للعلاج بالجينات أجريت بجامعة بنسيلڤانيا) أثارت الانتباه البالغ لوسائل الإعلام كما أثارت القلق الجماهيرى فيما يتصل بسلامة التجارب الطبية داخل المستشفيات. وقصته هذه أبعد ما تكون عن أن تكون قصة متفردة... فقد عانت البحوث الطبية من مصيبة أخرى... وذلك عندما اكتُشِفَ أن الباحثين وشركات إنتاج الأدوية المشاركين فى البحث فى جامعتى كورنل Cornel وتافتس Tuftes لم يقوموا بإبلاغ معاهد الصحة القومية أن ستة ممن خضعوا للعلاج فى بحوث العلاج بالجينات قد ماتوا أثناء إجراء التجارب عليهم على امتداد فترة تسعة عشر شهراً. (ص ٩٠٢).

وفى الصميم من المناقشات الكثيرة التى تدور حول حماية المبحوثين من البشر يقع السؤال عما إذا كانت الإجراءات الخاصة بالحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) للاشتراك فى البحوث كافية لحماية المبحوثين من البشر أم لا، وكذلك السؤال عن قدرة مجالس الفحص والمراجعة IRBs على مراقبة عملية البحث فى داخل المؤسسات الخاضعة لإشرافها. لماذا لم تبلغ مجالس الفحص والمراجعة عن حالات وفاة المبحوثين إلى الهيئات الفيدرالية المشاركة فى تمويل هذه المشروعات؟ وهل أُعطى المبحوثون معلومات كافية عن الآثار الجانبية للدراسة؟ وفيما يتعلق بحالة جيسى جلسينجر، فقد كان طالباً جامعياً فى الثامنة عشرة من عمره فى الوقت الذى شارك فيه فى الدراسة التى أجرتها جامعة بنسيلفانيا سنة ١٩٩٩. وقد أثبت فحص واقعة وفاته أنه (١) لم يكن فى الحقيقة مُرشحاً مناسباً للدراسة أصلاً و(٢) أنه لم يُزود بالمعلومات الكافية فيما يتصل بالآثار الجانبية الشديدة الضرر التى سبق أن عانى منها مشاركون آخرون فى هذه الدراسة (ص ٩٠٨). ويُعلِّقُ والد جيسى قائلاً: "لقد بدا الأمر مأموناً... لقد صُوِّرَ لى الأمر

على أنه مأمون... لقد خدعوني" (جريدة شيكاغو سانداى تايمز، ٣ فبراير، ٢٠٠٠، ص ٢٣). هكذا سارت الأمور فى كثير من الحالات.

وقد قامت الروابط المهنية، كالاتحاد الأمريكى للبحوث التربوية (AERA) والاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع (ASA)، والاتحاد الأمريكى لعلم النفس (APA)، قامت هذه الروابط المهنية بوضع المعالم الرئيسية للأطر الخُلقية العامة لأعضائها. ولكل واحدة من هذه الروابط موقع على شبكة الإنترنت يناقش طائفة من الاهتمامات الخُلقية المحددة فى كل مهنة من هذه المهن. مثال ذلك أن موقع الاتحاد الأمريكى لعلم النفس على الشبكة (http://www.apaorg/ethics/code2002.html) يعرض المعالم الرئيسية لعدد معين من المفاهيم الخلقية لإجراء البحوث، ابتداءً من المبادئ العامة للسلوك المهنى، وهى المبادئ التى تعالج قضايا عدة، كقضايا الاستقامة الأخلاقية، والعدالة، وانتهاءً بمسائل الممارسة المحددة، والتى منها خصوصية المرضى والمبحوثين والحفاظ على أسرارهم الشخصية. كما توجد كذلك إرشادات أخلاقية خاصة بالحفاظ على سجلات المرضى والمبحوثين وبأتعاب الأطباء النفسيين، كما توجد توجهات أخلاقية خاصة بالأمور التى قد تطرأ فى موقف العلاج، كتلك الأمور المتعلقة – خصوصاً – بالعلاقات الجنسية مع العملاء، والمتعلقة بعلاج من كانت تربط بينهم علاقات جنسية فى السابق. وبالإضافة إلى ذلك توجد إرشادات لحل القضايا الأخلاقية، كقضية التعامل مع حالات التذمر والشكوى وصور التمييز.

كنا نركز – حتى الآن – على البحث الطبى الحيوى. ولكن إلى أى مدى يمكن نقل القضايا الأخلاقية الموجودة فى مجال العلوم الطبيعية والحيوية إلى العلوم **السلوكية والاجتماعية**؟ كثيراً ما يُقدم الباحثون الذين يجرون دراسات طبية حيوية نوعاً من "البروتوكول" الذى يضع الخطوط الرئيسية للخطوات التى سوف يتبعونها فى إجراء البحث على المبحوثين من البشر. ولكن البحث الكيفى – بحكم طبيعته الفعلية – مفتوح على إمكانية اكتشاف أهداف جديدة للبحث، أو تعديل بعض الأهداف التى كان قد حددها لنفسه بداية. وقد يكون أقرب للمُحال بالنسبة للباحث الكيفى أن يحيط بكل الأحداث التى

سوف تقع فى مجتمع البحث، كما قد يكون من العسير التحرك جيئة وذهاباً إلى إحدى "لجان المبحوثين من البشر" (والتى منها مثلاً مجالس الفحص والمراجعة IRB) للحصول على موافقتها فى كل مرة يتخذ فيها المشروع مُنْعَطفًا غير مُتَوقَع. ويذهب أدلر وأدلر Adler and Alder (٢٠٠٢) إلى أن الحصول على الموافقة الصريحة من المبحوثين (عن علم) يُصيبُ الباحثين الذين يقومون بالملاحظة بالمشاركة بأقسى الضربات:

إن لدى الباحثين الذين يقومون بالملاحظة بالمشاركة تصوراً مشوشاً حول ما يُعد بحثاً، وما لا يُعد بحثاً، وذلك لأن الإثنوجرافيين يقومون بملاحظة الحياة اليومية وقد يقومون بتوليد الأفكار وبجمع البيانات من الناس فى كافة أنواع الأحوال (كحالة الجرسونة فى أحد المطاعم، وحالة رفيق السفر على إحدى الطائرات، وحالة الشخص الذى له ابن فى نفس سن ابن الباحث). وقد لا يكون هؤلاء الباحثون على علم مُسبق بما هى المعلومات التى سوف تظهر فى طريقهم والتى قد يثبت بصورة جلية أنها نافعة، سواء أكان ذلك فى نفس وقت إجراء الملاحظة أو فى المستقبل. (ص ٤٠).

يُضاف إلى ذلك، أنه يوجد فى كثير من الأحيان ارتباط شخصى جداً بالمبحوثين لا يوجد بنفس الدرجة فى البحث الطبى الحيوى، الأمر الذى يؤدى، وبصورة أكثر وضوحاً، إلى احتمال حدوث الاستغلال الشديد للقوة، والتأثير، والسلطة خلال عملية البحث.

وتُوجد بعض الأمثلة "التقليدية" للانتهاكات الصارخة للأخلاقيات المذكورة فى الدوريات التى تنشر البحوث العلمية السلوكية والاجتماعية على السواء. ولعل واحداً من هذه الأمثلة الفظيعة يتمثل من مشروع بحثى أُجرى سنة ١٩٦٣ عن موضوع "الإذعان للسلطة"، والذى قام به عالم النفس ستانلى ميلجرام Stanley Milgram. فقد أراد ميلجرام أن يفهم حقيقة الظروف التى فى ظلها يُطيع الأفراد الشخصيات صاحبة السلطة. وكان بروتوكول بحثه يستلزم خداع المبحوثين المتطوعين بجعلهم يتصورون أنهم مشتركون فى تجربة عن موضوع أثر العقاب على الذاكرة. حيث يبدأ المتطوعون بقراءة

مجموعة من قوائم الكلمات ذات المعانى المترابطة على الأفـراد المـشاركين للباحث فى إجراء بحثه، وذلك فى ظل تشكيلة متنوعة من الظروف التجريبية:

(١) حيث لا يستطيعون أن يروا أو يسمعوا الشخص المشارك،

(٢) وحيث يستطيعون أن يسمعوا احتجاج الشخص المشارك ولكـنهم لا يرونه،

(٣) وحيث يستطيعون أن يروا ويسمعوا الشخص المشارك،

(٤) وحيث تتكرر نفس ظروف الموقف رقم (٣) باسـتثناء أن المبحـوث كان مطالباً بأن يضع يد الشخص المشارك على شـريحة الـصدمات "الكهربائية".

فإذا عجز المشاركون عن تكرار هذه الكلمات، طُلب من المتطـوعين أن يُسلطوا عليهم "صدمة كهربية"، وبحيث يرفعون مقدار الجهد الكهربى عند صدور كل إجابة خاطئة، وذلك لكى يزيدوا من سرعة تعلمهم. وكان موضوعاً أمام المبحوثين مقياس زائف للجهد الكهربى، عليه قراءات "تبدأ من الـصدمة الخفيفة وتنتهى بالصدمة الشديدة"، كما تُوجد علامة للتحـذير مـن خطـورة استعمال هذا الجهاز موضوعة بجانب المقياس. وقد احتج بعـض المبحـوثين عند سماعهم المشاركين يشتكون من الألم ومن بعض المـشكلات الـصحية. وحتى على الرغم من أن بعض المتطوعين أرادوا أن يتوقفوا عن الاسـتمرار فى التجربة، أصر المشرف على البحث على أن يستمروا، قائلاً إنه (أى هـذا المسئول) يتحمل المسئولية كاملة. ومع ذلك، فإن بعض المبحوثين (المتطوعين فى تنفيذ التجربة) لم يحتجوا بل واصلوا التنفيذ إلى درجة أنهم سلطوا ما كانوا يعتبرونه أشد الصدمات قوة على شخص أحد المشاركين، وذلك حتى عندما لم يتلقوا أى مؤشرات تفيد أن هذا الشخص (المشارك) لا يزال على قيد الحيـاة (مليجرام، ١٩٦٣).

لقد خدعت تجربة ميلجرام مبحوثيه المتطوعين وقصرت فى الحصول على موافقتهم القائمة على معرفة صحيحة بما يدور. ولم يسمح بروتوكول هذه التجربة للمبحوثين أن يتوقفوا عن مواصلة التنفيذ حتى عندما احـتج بعـضهم على التجربة وطلبوا إيقافها. يُضاف إلى ذلك أن بعض المبحوثين عانوا مـن

الكرب النفسى لعلمهم أنهم قد يسلطون فعلاً ما يُمكن أن يُعتبر صدمة كهربية مميتة لإنسان آخر.

المأزق الأخلاقى للبحث السرى (المستتر)

يذهب بعض الباحثين إلى أنه من الضرورى أن يجروا بحثهم بطريقة "سرية" (مستترة) covert، حتى يحصلوا على المعلومات التى يحتاجون إليها لفهم حقيقة بعض الظواهر الاجتماعية. مثال ذلك، أن بعض الباحثين قد ذهبوا متخفين لدراسة بعض الثقافات الخفية أو السرية كثقافة المخدرات (انظر ويليامز Williams، ١٩٩٦) واستعملوا الخداع ليطلعوا على الخفايا الداخلية للحياة الاجتماعية لتجار المخدرات ومُتَعاطيها، حيث كانوا كثيراً ما يلاحظون الأفراد وهم منهمكون فى هذه الأنشطة غير المشروعة، كما كانوا يجدون أنفسهم أحياناً مدعوين للمشاركة فى هذه الأنشطة نفسها. ولا مجال هنا لطلب الحصول على موافقة عن علم من هؤلاء الأعضاء فى هذا المجتمع المغلق، إذ الأرجح تماماً أنهم ليسوا راغبين فى دراسة تنظيمهم هذا. ويشير ويليامز، الذى قام بالملاحظة المشاركة فى ثقافة فرعية لتجار الكوكايين ومتعاطيه فى النوادى المسائية فى وسط المدينة، يشير قائلاً:

كُنتُ موجوداً فى أحد نوادى مدينة بروكلين حيث كان من الواضح علىَّ أننى لست من متعاطى الكوكايين. كما بدا أننى كنت مقبلاً على المكان بدرجة مُفرطة. إذ كنت مغالياً فى التحديق فى الناس وكنت ألقى الكثير جداً من الأسئلة. وهنا جاءنى أحد ملاك النادى وقال: "أنصت أيها الرجل، إن كنت متخفياً (يقصد: شرطياً متخفياً – المترجم)، فعندى من يستطيعون التعامل معك". ولم أكن متأكداً مما إذا كان الرجل يقصد بالتعامل استخدام القوة أو يقصد رشوتى، إلا أننى – على أى حال – توقفت عن الذهاب إلى هذا النادى... وبوصفى باحثاً، فقد كنت أعرف ما هى البيانات التى أحتاج إليها: وهى معلومات عن متعاطى الكوكايين وعن حياة الليل المحيطة بهم، والأساطير المتداولة فى الشوارع حول تعاطى الكوكايين... ولكن، وكما يعرف معظم الباحثين، يتعين عليك أن تقدم المقابل فى كل موقف من مواقف

البحث... فقد كان يُطلَبُ منى تقديم بعض الخدمات، كأن أقرض بعضهم مالاً، أو أعثر على الأخصائيين الاجتماعيين الذين يقدمون لهم يد المساعدة... وفى كثير من الأحيان كان يُطلَبُ منى المشاركة فى بعض الأعمال غير المشروعة... وقد وضعتنى هذه الطلبات وأمثالها فى وضع حرج (ويليامز، ١٩٩٦، ص ٣٠).

- هل من الأخلاق أن تتخفى؟
- هل من الأخلاق أن تشترك فى أنشطة غير مشروعة تحت قناع البحث العلمى؟

وبوسع المرء أن يتخيل هؤلاء العلماء الاجتماعيين وهم يدرسون السلوكيات المنحرفة، كالحياة في العالم الخفى للتجارة غير المشروعة فى المخدرات، ومدى صعوبة الحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) من كل امرئ مشترك فيها، للوصول إلى دراسة المسارات الخفية لهذه التجارة المُحَرَّمَة فى المخدرات.

- ما الذى يفعله الباحث عندما يواجه معلومات أو مواقف يلاحظ فيها تورط بعض الأفراد فى انتهاكات كبرى للقانون؟
- هل الباحث مُلْزَمٌ خُلُقيا بالتبليغ عن مثل هذه الأفعال؟
- ماذا عن المخاطر التى يتعرض لها الباحث فيما يتصل بحياته الخاصة إن هو تصرف بهذه الصورة؟

ولا يلزم أن يحدث الخداع فى البحث عن طريق "التخفى" فى تنفيذ المشروعات البحثية. فقد كانت تجربة ميلجرام دراسة فى الخداع. فمنذ البداية، لم يوضح ميلجرام بأمانة طبيعة التجربة، كما أنه خدع المبحوثين فجعلهم يتصورون أنهم يُسلطون – فعلاً – صدمات كهربية على إنسان آخر. كما أن هناك بعض طُرق البحث الكيفية فى العلم الاجتماعى – كالعمل الميدانى مثلاً – تتطلب هى الأخرى نمطاً ما من الخداع بين الباحث والمبحوثين. ويحكى عالم الاجتماع هربرت جانز H. Gans، الذى قام بإجراء عمل ميدانى فى بارك فورست Park Forest (وهى ضاحية قريبة من شيكاغو) وفى منطقة وست إند West End فى بوسطن Boston، وفى لفيتاون Levittown،

(وهى ضاحية بنيوجرسى New Jersey)؛ يحكى تأملاته الشخصية فى القلق الذى عاناه مما اكتشف أنه "الخداع المتأصل فى طبيعة الملاحظة المشاركة"، فيقول:

بمجرد أن يتمكن الباحث الميدانى من الدخول إلى الجماعة، يميل الناس إلى نسيان أنه موجود ويتخلون عن حذرهم منه، إلا أنه لا يتخلى عن حذره منهم. ومهما بدا عليه أنه مشارك لهم، فإنه – فى الحقيقة – موجود فى هذا المكان ليلاحظ بل ليراقب ما يحدُث عندما يتخلى الناس عن حذرهم. وتجده منغمساً فى مواقف ذات طابع شخصى يكون هو فيها، من الناحية العاطفية، الآخذ (المستفيد) دائماً دون أن يعطى أبداً، وذلك لأنه موجود فى هذا المكان ليتعلم، ومن ثم فهو موجود ليأخذ من الناس الذين يدرسهم. فهم يزودونه دائماً بالمعلومات، ونادراً ما يتلقون شيئاً فى المقابل. حقيقة أنهم يشعرون بشيء من الرضا كونهم محل دراسة واهتمام، إلا أنهم عندما يسألون هذا الملاحظ المشارك أن يُعطى – كأن يُقدم عوناً أو نصيحة مثلاً – فلابد عادة أن يرفض حتى يحافظ على حياده. زد على ذلك، أنه حتى على الرغم من أنه يبدو عليه أنه يُعطى من نفسه عندما يشارك، فإنه لا يفعل ذلك فى الحقيقة، ومن ثم فهو يخدع الناس الذين يدرسهم. وهو يدعى أنه يشارك عاطفياً بينما هو لا يفعل ذلك؛ وهو يقوم بالملاحظة حتى عندما لا يبدو عليه أنه يلاحظ، وهو – شأنه شأن الباحث الرسمى الذى يقوم بإجراء المقابلات – يطرح الأسئلة التى يهدف من طرحها إلى تحقيق أغراض خفية يغلب على مستجيبيه أن يكونوا غافلين عنها. ومُوجز القول إن الملاحظ المشارك يتصرف – سيكولوجياً – على نحو مُضلل، فهو يخدع الناس فيما يتصل بحقيقة مشاعره، ويخدعهم عندما يقوم بملاحظتهم فى الوقت الذى لا يعلمون فيه أنه يلاحظهم، فهو يتجسس فعلاً عليهم (Gans, 1982, p. 59).

ويقدم هربرت جانز وجهة نظر خاصة عن دور الباحث كمشارك فى تجربة البحث الميدانى. ومؤداها أن الفكرة التى تقول إن على الباحث أن يبقى محايداً، و"مُنفصلاً" عن المبحوث، إنما تريد أن تقنعنا بأنه يأمل فى تحقيق هدف "الموضوعية" فى عملية البحث. ويضاعف من هذه الموضوعية ذلك

الخداع الذى يجرى للمبحوثين. ولكننا رأينا فى العرض السابق، أن هذا الإطار البحثى "الموضوعى" ليس سوى واحد فقط من النماذج النظرية العديدة التى يستطيع المرء أن يستهدى بها فى تجربة البحث الميدانى. ويوجد من المفكرين من يؤمن بأن الباحث لا يحتاج إلى أن يحافظ على وجود مسافة بينه وبين المبحوثين. بل إن آن أوكلى Ann Oakley (١٩٨١) تنتقد هذا النموذج من الحياد، وتذهب إلى أنه – بدلاً من هذا الحياد – ينبغى عبور هذا الخط الفاصل بين الباحث والمبحوثين عن طريق التعاطف والتآلف. ويشعر إثنوجرافيون آخرون أن هذا النوع من التقارب بين الباحث والمبحوثين له مشكلاته أيضاً، كما يشعرون بأن من المحتمل أن يقترب الباحث من المبحوثين بدرجة أكثر من اللازم. وهنا يمكن أن يؤدى هذا الوضع – بدوره – إلى سلسلة من المنازعات وأشكال الخداع. وتعلق الإثنوجرافية جوديث ستاسى Judith Stacey على ذلك قائلة:

... إن الأمر المثير للسخرية الذى أحس به الآن هو أن طريقة البحث الإثنوجرافي (الميدانى) تُعرّض المبحوثين لقدر من المخاطر والاستغلال أكبر بكثير مما تعرِّضُهُمْ له طرق البحث ذات التوجهات الموضوعية، والتجريبية، "والذكورية". ذلك أنه كلما زادت الألفة – أى كلما زادت العلاقة المتبادلة الظاهرة بين الباحث/ والمبحوثين – تعاظم هذا الخطر (J. Stacey, 1991, p. 114).

وتلاحظ ستاسى أنها كلما أصبحت أشد اندماجاً مع مبحوثيها، أصبحت أكثر تعرضاً لمواقف داخل هذا الميدان قد تلجئها إلى التلاعب بمبحوثيها وخداعها لهم (ص ١١٣). لذلك فإن بوسعنا أن ندرك أن قضية الإفصاح (*) وقضية الثقة التى يوليها المبحوثون للباحث تمثلان قضيتين فى غاية التعقيد فعلاً.

(*) يُلاحظ أن دلالة لفظ "الإفصاح""disclosure" تتسع لمعنيين:
أولهما: إفصاح الباحث للمبحوثين عن مقاصده الحقيقية من البحث، وهو المعنى المناسب للسياق المذكور قبل هذا بقليل،و ثانيهما: إفصاح الباحث عن الأشخاص الذين هم مصادر معلوماته، وهو المعنى المناسب للسياق التالى، والمذكور بعد ذلك بقليل. (المراجع)

وقد يذهب البعض إلى أن الأمر قد يتطلب قدراً معيناً من الخداع "الاستراتيجى" عندما يكون الباحثون مهتمين اهتماماً خاصاً "بدراسة علية القوم" (انظر كورن Korn، ١٩٩٧) شاهد ذلك أن دراسة جماعات الصفوة ليست بالأمر الشائع فى العلوم الاجتماعية (وبالنسبة للحالات الاستثنائية، انظر (Hertz & Imber., 1995 and Odendahl & Shaw, 2002). فالأفراد الذين تتكون منهم الصفوة وأشباه الصفوة يحتلون مواقع مهمة فى المجتمع، ومع ذلك تظل أنشطتهم وقوتهم غير منظورة أو غير معروفة للمواطن العادى. وتحافظ فئات الصفوة على خصوصيتها عادة من خلال عدد كبير جداً من الحواجز التى يفرضونها على أنفسهم، والتى تتراوح بين عدم تسجيل أرقام تليفوناتهم فى أدلة التليفونات وعدم ذكر عناوين بريدهم الإلكترونى فى قوائم هذا البريد، واستئجارهم لمساعدين لهم يحجبون عن الناس ما يقومون به من مكالمات تليفونية واتصالات، وتوظيفهم لموظفى أمن ليمنعوا عنهم كل من لا يرغبون فى الاحتكاك بهم من خارج نطاق ثقافتهم النخبوية.

ويشير أدلر وأدلر (٢٠٠٢) إلى أن مجالس الفحص والمراجعة والاتحادات المهنية الحالية التى تخشى أن تُرفع عليها دعاوى قضائية قد وضعت مواثيق أخلاقية تحظر حالياً كافة مظاهر البحث السرى (المتخفى)، مستغلة الحجة التى تقول إنه يكاد يكون من المحال الحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) من المبحوثين. أضف إلى ذلك أن هذه الهيئات تعجز عن حماية الباحث من إجباره على الإفصاح عن شخصية مبحوثيه، فى حالة مطالبته بهذا من قبل الموظفين الرسميين الذين يُجرون تحقيقاتهم فى نتائج بحثه. وفى هذا المعنى يقول أدلر وأدلر:

من الواضح أنه يتعين إجراء تغييرات معينة إذا علمنا أننا لا نستطيع حماية مبحوثينا من التحقيقات الرسمية بما يحول دون دخولنا أو دخولهم السجن، وهو أمر لا يرغب فيه أى إنسان. فهل يكون هذا النظام الجديد هو الطريقة المُثلى؟ إذ لو أنك أسدلت على بحثك ستاراً كثيفاً منذ البداية، فلن يُصيب مبحوثيك أى خطر، لأن الباحثين (الآخرين) لن يعرفوا فى هذه الحالة شيئاً. (ص ٤٢)

ويتأمـــل جونـــسون وألتايـــد (Johnoson and Altheide, 2002) موضوع الأخلاقيات المهنية، فى ضوء ما لهما من خبرة مشتركة على امتداد ٦٥ سنة كأساتذة جامعيين. ويبرزان فى حديثهما افتقاد العلمـــاء الاجتمـــاعيين الحماية القانونية فيما يتصل باحتفاظهم بسرية مصادر معلوماتهم، ويعتبـــران هذا الوضع قضية "سياسية" وليست قضية أخلاقية، فيقولان:

فى الولايات المتحدة، يحمى التعديل الأول للدستور الصحفيين بكفالته حرية التعبير وحرية النشر لهم. ويفتقد العلماء الاجتماعيون مثل هذه الحمايـــة المتصلة بسرية مصادرهم. ومن هنا نتصور أنه من الأفضل النظر إلى هـــذا الوضع باعتباره وضعاً سياسياً، وليس وضـــعاً أخلاقيـــاً. ولـــو أن البـــاحثين الاجتماعيين كانوا يحظون بمثل هذه الحماية، فإننا نظن أننـــا كنـــا ســـنواجه مجموعة مختلفة من القضايا الأخلاقية، من قبيل القضايا المتصلة بمدى إساءة استعمال العلماء الاجتماعيين لمثل هذه الحماية الدســـتورية الممنوحـــة لهـــم. (ص ٦٩)

ويذهب أدلر وأدلر (٢٠٠٢) إلى أن المجالس أو الهيئات المسئولة عن مراقبة المسائل الأخلاقية قد تجاوزت حدود وظيفتها، مما أدى إلـــى ظهـــور نتيجة لم تكن فى الحسبان، وهى محاباتها للطبقات المُسيطرة علـــى حـــساب الطبقات الضعيفة: "ففى وقتنا هذا، تستطيع جماعات الصفوة القوية أن تُخفى – بطريقة أفضل – آلياتها فى التحكم فى حياة الآخرين، بينما فقدت الجماعـــات الضعيفة التى لا قوة سياسية لها القدرة على التعبير عن أحوال أفرادهـــا مـــن وجهة نظرهم الخاصة" (ص ٤٠). ويتفجع هؤلاء الباحثون (المـــدافعون عـــن إجراء البحوث السرية) حُزناً على أن هذه البحوث، والتى منها مـــثلاً البحـــث الذى أجراه إرفنج جوفمان Erving Goffman (١٩٦١) ونشره فى مؤلفـــه الكلاسيكى، بعنوان "مصحات الأمراض العقلية"، والذى يزود القـــراء برؤيـــة إجمالية للمعاملة التى يلقاها المرضى العقليون من القائمين علـــى رعـــايتهم؛ والتى منها كذلك البحث الذى نفذه جارى ماركس Gary Marx (١٩٨٨) في مجال أنشطة أجهزة الضبط كالشرطة مثلاً؛ نقول: يتفجع هؤلاء الباحثون حُزناً على أن هذه البحوث لن يعود بالإمكان إجراؤها فى ظـــل هـــذه التوجيهـــات الأخلاقية الجديدة.

وقد وضع هاجرتى Haggerty يده على ما أسماه ظـاهرة "الزحـف الأخلاقى" ethics creep الذى سيطر على البحث العلمى الاجتماعى "باسـم الأخلاق". وهو يُعرف هذا المصطلح كما يلى: "يتميز هذا الزحف الأخلاقـى بعملية مزدوجة تتوسع بمقتضاها المنظومة المتحكمة لتستوعب داخلها عـددا كبيراً من الأنشطة والمؤسسات الجديدة، وذلك فى نفس الوقت الذى تزيد فيـه من وطأة تحكمها فى الأنشطة التى تعد داخلة فـى نطـاق مجالهـا أصـلاً" (ص ٣٩١).

باحث للبيع؟: صراعات المصالح فى عملية البحث

يقع الباحثون الأكاديميون تحت ضغوط من جامعاتهم ليبحثـوا عـن المنح اللازمة للبحث ويحصلوا عليها. ويأتى المزيد والمزيد من هذه المنح من المؤسسات التجارية، والتى منها شركات الأدوية مثلاً:

أدت الزيادة الحادة فى البحوث التى يمولها القطاع الخاص (أى قطاع الصناعة) إلى خلق مناخ تتولد عنه الصراعات الناجمة عن البواعث الماليـة التى لا تقاوم. وقد تنشأ هذه الصراعات بسبب العلاقات المالية التـى يقيمهـا الباحثون مع الشركات التى يدرسون منتجاتها، سواءً أكانت الحكومة هى التى تمول البحث أم كانت هى الشركة نفسها. (Alvino, 2003, p. 906).

وفى بعض الحالات تنغمس الجامعات فى بعض المـصالح البحثيـة الصناعية. وتشير أنجل Angell إلى مشكلة كيف أن علم الطب الأكاديمى قد أصبح معروضاً "للبيع"، فتقول:

يلاحظ أن المعاهد الطبية الأكاديمية أصبحت تدين بالفـضل بـصورة متزايدة للشركات الصناعية. وقد دخلت بعض المعاهد الأكاديمية فى شراكات مع شركات صناعة الدواء لإقامة مراكز بحثية ووضع برامج تعليمية يقوم فيها الطلاب وأعضاء هيئات التدريس الجـامعيون – أساسـاً – بتنفيـذ البحـوث الصناعية. ويرى كلا الجانبين أن هذا الوضع يحقق فائدة عظيمة لكل منهمـا. فهو يعنى توفير المال لمراكز البحث الطبية التى تتصارع فيما بينها للحصول على الأموال. وهو يعنى عند الشركات التى تصنع الأدوية والمعدات الطبيـة الانتفاع بأصحاب المواهب فى البحث، وكذلك الانتفاع بالانتساب إلى إحـدى الجهات المحترمة. (ص ١٥١٦)

ومن الممكن فى بعض الحالات أن يكون لأعضاء يعملون بمجالس الفحص والمراجعة التابعة لإحدى الجامعات مصلحة قوية فى نفس الدراسات التى يقومون بالإشراف عليها. وفى هذا يقول ألفينو:

على الرغم من أنه من المفترض أن يُحظر على أعضاء مجالس الفحص والمراجعة فحص أى مشروع بحثى أو دراسة يكون لهم فيها مصالح متعارضة... مع ذلك لا يوجد سبيل للتأكد من أن جهة البحث أو الباحثين لا يعملون مع وجود مثل هذه المصالح المتعارضة. (Alvino, 2003, p. 902)

وقد استشهدت مجلة لوس أنجلوس تايمز L. A. Times فى مقالة لها بدراسة لجامعة يل Yale تذكر فيها أن "رُبع الباحثين فى مجال الطب الحيوى فى الجامعات لهم ارتباطات تجارية بلغت من القوة حداً يستدعى إثارة التساؤل عن وجود تعارض مصالح مالية": (Hotz, 2003, p. 14) نقلاً عن ألفينو، ٢٠٠٣، ص ٩٠٢). من تلك التساؤلات:

- ما هى الدلالات الخُلقية الضمنية لقبول التمويل من أجل البحث؟
- كيف يستطيع الأكاديميون ومجالس الفحص والمراجعة أن يعملوا معاً على أعلى درجة من الفعالية؟
- كيف تستطيع مصادر التمويل، كالمؤسسة القومية للعلوم (NSF)(*) أو المعهد القومى للصحة العقلية (NIMH)(**)، كيف تستطيع أن تُخفف من حدة التوترات بين تمويل البحث والجوانب الأخلاقية؟

المأزق الأخلاقى: الولاء الموزَّع

يتحدث بل Bell ونَتْ Nutt (٢٠٠٢) عن "ولاءاتهما الموزعة" بمعنى أن التزامهما المهنى والتزامهما الوظيفى يَشُدهما فى اتجاهات كثيرة مختلفة عن بعضها، مما يسبب لهما مآزق أخلاقية تنبع من الأدوار المتعددة التى يؤديانها ويحملاها معهما إلى مجتمع البحث. وتصف "نت" كيف أن دورها

(*) The National Science Foundation.

(**) The National Institute of Mental Health.

المهنى كأخصائية اجتماعية مؤهلة "مقيدة بالمواثيق العامة لممارسة مهنة الخدمة الاجتماعية" (ص ٧٩) يتعارض مع دورها كباحثة، فتقول إنها:

لاحظت "ليندا نت" أثناء مغادرتها لمنزل أسرة بديلة اختيرت حديثاً لرعاية أطفال محرومين بعد فراغها من إجراء مقابلة معهم وجود صورة جنسية مكشوفة على نحو لا غموض فيه معلقة بمدخل الصالة. وليس من شأن هذه الصورة أن تمثل مشكلة عند أغلب الباحثين؛ فالفن مسألة ذوق شخصى. إلا أن "ليندا نت" لم تكن مجرد باحثة، بل كانت – كذلك – أخصائية اجتماعية مسئولة. ونظراً لأنه يحدث فى كثير من الأحيان أن الأطفال عندما يوضعون لدى أسر بديلة ترعاهم، فإنه لا يتوافر للباحثين من المعلومات عن خبراتهم الحياتية إلا القليل، لذلك يتم لفت نظر هذه الأسر البديلة إلى افتراض أن جميع مثل هؤلاء الأطفال قد تعرضوا لانتهاكات جنسية، ما لم يُنص صراحة على غير ذلك فى حالات خاصة... وتوجد مسئولية قانونية تترتب على التغاضى عن السرية عندما يكون الأطفال معرضين للخطر. ورغم ذلك، فإن "ليندا نت"، نظراً لرغبتها فى الحفاظ على دوريها واضحين ومنفصلين – وهما دورها كباحثة (لديها معلومات) وليست كموظفة ... (تستطيع أن تعطى هذه الأسر شيئاً من المعلومات) – لذلك – آثرت "ليندا" ألا تناقش هذه القضية مع أفراد هذه الأسرة البديلة الجديدة، غير أنها أمضت أياماً عديدة تقلب النظر فى هذا المأزق الأخلاقى. وفى النهاية تغلبت شخصية الأخصائية الاجتماعية المؤهلة على شخصية الباحثة، وأخبرت "ليندا نت" السلطة المحلية بقلقها من هذه الصورة وتأثيرها المحتمل على الأطفال الموضوعين تحت رعاية تلك الأسرة (ص ٧٩).

يستعمل بعض الباحثين أساليب بحثية تثير قضايا أخلاقية تتعلق بالطريقة التى يُعامل بها المبحوثون. ويشير هومان Homan إلى ما يُسميه أساليب البحث المتبعة "لتليين" (ربما بمعنى "استدراج" – المترجم) المبحوثين للحصول منهم على المعلومات الشخصية التى قد يكونوا غير راغبين فى البوح بها، فيقول:

يتجلى ما تتصف به أساليب البحث (المتبعة لتليين المبحوثين) من مكر ودهاء فى استخدام بعض الأسئلة الخارجة عن الموضوع والتى يحتفظ بها

الباحثون حتى المراحل الأخيرة من المقابلات واستيفاء بيانـــات الاســـتبيانات، والتي يكون فيها المبحوثون أكثر طواعية: حيث تسعى هذه الأســاليب إلـــى الوصول – بحذر – إلى نوع من الموافقة العامة من المبحوثين ومن والـــديهم والحصول على إقرار منهم بذلك (Homan, 1992, p. 328).

وفي كثير من الأحيان يتطلب البحث الكيفي – وبحكم طبيعته الذاتية – الارتباط العاطفي بأولئك الذين نبنـــي المعرفـــة بواســـطتهم. وتُنـــاقش جـــين دُونكومب وجولي جـــسوب (Jean Duncombe & Juli Jessop, 2002) كيف يمكن أن يَفتَقِدَ بعضُ الباحثين التعاطُفَ مع المبحوثين الذين يدرســـونهم ويتظاهرون – زيفا– باهتمامهم وانشغالهم بهم. وتصف دونكومب كيف آل بها الأمر في التعامل مع بعض المبحوثين في مشروعٍ بحثيٍّ كانت تشرف عليه:

... تبين لنا أنه من العسير تحقيق الأُلفَة عندما لا تَـــشْعُرُ بالتعـــاطف التلقائي مع الأفراد الذين تُجري المقابلات معهم. مثال ذلك ما حدث في دراسة سابقة عن "مشروعات تدريب الشباب" (YTS)(*)، فقد أحسَّتْ "جين" أنها أقامت نوعاً من الألفة "الصادقة" – وإنْ كانت غير عميقة – مع المتدربين في هـــذه المشروعات ومع أصحاب العمل ذوي الأمانة ممَّـــن ينظـــرون إلـــى عمليـــة التدريب بجدِّية، وذلك لأنها كانت "منحازة لهم". ولكنها في تعاملها مع أصحاب العمل والمدربين الذين يتصفون بكثير من الاستغلالية (والـــذين لـــم يـــوفروا للشباب فرص العمل ولا التدريب)، أدركَتْ أنها كانت تتظاهر بالمودة معهـــم "لتَخدَعهم" حتى تكشف معاييرهم المزدوجة، كما أنها في بعض الأحيان، وأثناء تَبَسُّمها في وجوهم، كانت تكاد تسخرُ من نفسها، وهي تفكر متعجبة: "يا لَـــهُ من دليلٍ كاشفٍ". ... فقد كانت "جولي" تشعر بالقلق وبأنها مُعرَّضَة شخـــصيا لتنغمس في هذا، عندما اكتشفَتْ أنه لكي تجري مقابلة ناجحة ربمـــا يـــستلزم الأمر أن تَبتَسِم، وأن تُوميَ برأسها علامة على الموافقة، وبذلك تتواطـــأ مـــع وجهاتِ نظرٍ تعارضُها بقوة. (Duncombe & Jessop, 2002, p.115).

(*) Youth Training Schemes.

والباحثون إنما هم بشر يشبهون سائر البشر. لذلك فإننا جميعنا نجلبُ معنا إلى مشاريعنا البحثية جميع ما نحبّه وما نكرهه من الأمور، وجميع قِيَمِنا ودوافعنا. وليس من الواقعية أن تتوقع أنك سوف تُحبُّ -دائماً- أولئك الذين تدرُسُهم، أو أنك سوف تشعرُ شعوراً طبيعياً دائماً بأنك مُرتبِط بهم مائة في المائة. أما وقد أتينا على ذكر تلك الحقيقة، فلا تنسَ أنك أنت، أيها الباحث، الذي بدأتَ هذه العملية وضممت إليها الآخرين (الذين هم مبحوثوك). فتفكّر جيداً في هذه الحقيقة وأنت تتأمل في التزاماتك الخُلُقية نحو من تقوم بدراستهم، ولكن عليك وأنت تفكر في هذه القضايا، أن تفكر كذلك في "إنسانيتك" الخاصة بك – أي كُنْ واقعيا وعادلاً مع كل أطراف العملية البحثية.

هل الموافقة عن علم هي الحل للانتهاكات الأخلاقية في ممارسة البحث؟

من المبادئ الأساسية التي ترتكزُ عليها كثير من السياسات الأخلاقية التي تصدت – تاريخيا – لقضية "كيفية معاملة المبحوثين" ذلك الأسلوب المتبع في الحصول على "الموافقة عن علم"، وأعنى به حق المبحوثين في أن يقرروا – وبدون الإفصاح عن هوياتهم- ما إذا كانوا يرغبون في الاشتراك في مشروع بحثي ما، أم لا. (Faden & Beauchamp, 1986) ويتشكك بعض المهتمين بأخلاقيات البحث ما إذا كان الحصول على الموافقة عن علم قد كفل دائما للمبحوثين الحفاظ على سرية هويتهم. (Cassileth, Zupkis, Sutton – Smith & March, 1980)، إذ تدلنا كثير من البحوث على أن المبحوثين لا يدركون دائماً -مثلا- الجوانب الطبية للمشروع الإكلينيكي الذي يشاركون فيه، بل إن بعضهم قد لا يعلم أصلا أنهم مشاركين فى إحدى التجارب البحثية (Lynoe, Sandlund, Dahlqvist & Jacobsson, 1991. See also Applebaum, Roth, Lidz, Benson & Winslade, 1987)

وكما رأينا في موضع سابق من هذا الفصل، فإن هناك كثيراً من الحالات التي يحدث فيها تقصير عن الكشف التام للمبحوثين عن المدَى الكامل للمخاطر والفوائد المترتبة على المشاركة في إحدى الدراسات. وقد أدت مثل هذه الأوضاع إلى عواقِب كارثية لبعض البحوث أصابت بعضاً ممَّن شاركوا في التجارب الإكلينيكية والبحوث الحيوية. فنحن إذن أمام ممارسة لتوفير

الموافقة عن علم وواقع مختلف عن ذلك فعلا. فثمة اختلاف كبير في مدى سلامة الأسلوب الذي يتبعه الباحثون في تنفيذِ سياسة الحصول على الموافقة عن علم في مشروعاتهم البحثية الجارية. وكشاهدٍ على ذلك، نقدمُ نمطين من الخطابات الخاصة بالحصول على الموافقة عن علم والتي يمكن أن يكتبها الباحث للوالدين بخصوص اشتراك طفلهما في مشروعٍ بحثيٍّ عن صورة الجَسَد. ونلاحظ أن "الخطاب أ" يحتوي على بيانٍ أكثر تفصيلاً لموضوع البحث، بما في ذلك ذكر بعض أهداف البحثِ وشرحٍ للطريقة التي سيُنفَّذُ بها.

الخطاب (أ)

أعزائي الوالدين

اسمي ــــــــــــــ وأنا متخصص في علم الاجتماع وأعمل مدرسا بكلية ــــــــــــــ. وقد سبق لي القيام بدراساتٍ عديدة عن تقدير الذات عند الفتيات الصغيرات. وأقوم في الوقت الحالي بدراسة عن صورة الجَسَد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات السود والبيض في مرحلة ما قبل المراهقة وفي سنوات المراهقة. وإني أؤمن إيماناً راسخاً بأنه من الضروري أن تَضمَّ دراستي عَينة من الفتيات الأمريكيات السود. وأعرف من واقع خِبرتي أن اتجاهاتِ ومُعتقدات هذه المجموعة المهمة قد أُهمِلَت إهمالاً شديداً في أغلب الأحيان. لذلك فهن في حاجة إلى إسماع أصواتهن، وهذا هو السبب الذي جَعَلني أكتُبُ إليكُمْ اليومَ، لأطلُب منكم مساعدتكم وموافقتكم على إجراء مُقابلةٍ مع ابنتكم. كما أودُّ أن أحظَى بلحظة من وقتكم لأذكُرَ لكُم طرفاً من المعلومات الإضافية عن هذه الدراسة.

وإني أعتزم مقابلة هؤلاء الفتيات في المركز الصحي لنتناول شيئاً من البيتزا والمياه الغازية بَعْد ساعات الدراسة في مجموعات تتكون كل واحدة منها من ثلاث أو أربع فتيات للدردشة في موضوع تقدير الذات وصورة الجسد. فإذا اختارتِ ابنتكم المشاركة، وذلك بَعْدَ إذنكم لها، فإن المقابلة لن تستغرق أكثر من ٤٥ دقيقة، كما أن مشاركتها ستكون طوعية تماماً.

وسوف يقوم هذا المشروع البحثي بدراسة اتجاهات الفتيات في مرحلة ما قبل المراهقة والفتيات المراهقات إزاءَ صورة الجَسَد وتقدير الذات. ومن الأسئلة التي سوف تستطلع هذا الأمر ما يلي:

(١) ممَّنْ ومِنْ أينَ تتَعلَّمُ الفتيات اللاتي دون سن المراهقة الأفكار والتصورات المتعلقة بصورة الجسد وتقدير الذات؟ مثال ذلك، ما هو دور الأقران (جماعات الرفاق) ووسائل الاتصال الجماهيرية في التأثير على اتجاهات الفتيات الصغيرات والفتيات المراهقات نَحْوَ وزن الجسم وصُور الجسد عندهُنَّ؟

(٢) ما هي العوامل (إنْ وُجِدت) التي يَبدو أنها "تَحْمِي" الفتيات الصغيرات والمراهقات من الإحساس بهبوط مستوى تقديرهن لذواتهنَّ، وما هي العواملِ (إنْ وُجِدَتْ) التي تساهم في إحداث نوعٍ من الإحساسِ المتدني بتقديرهن لأجْسَادِهِنَّ؟

وإني أتصور أن هذه الدراسة تمثل فرصة فريدة. فنحن - كما قلتُ سابقاً - في حاجة إلى إعطاء الفتيات السود والمجتمع الأسود صوتاً أقوى للتعبير عن أنفسهم. وإني لأؤمن أن مشروعي كفيل بتحقيق ذلك. بل إن الأهم من ذلك، أنني أؤمنُ أن توفير فرصةٍ للفتيات للالتقاء معاً للدردشة مع الأصدقاء والأقران حوْل قضايا الهويّة السوداء وتقدير الذات سوف يكون بمثابة آلية لتمكين المرأة السوداء عموما.

وسوف تجدان رفق هذا الخطاب استمارة خاصة بالموافقة، والتي يَتَعيَّن، بناءً على قبولكما، أن تُوَقِّعَها ابنتكم وأن توقِّعاها كذلك، لكي تُقَدَّم إلى المركز الصحي في يوم إجراء المقابلة.

إذا كان لديكم أي أسئلة أو أي أمور تشغلُ بالكم، فلا تترددوا في الاتصال بي في المنزل الساعة ______ أو في المكتب الساعة ______.

شكراً لكما على ما أَخذتُهُ من وقتكما، وإني لأتطلع إلى تلقي ردكما قريباً.

المخلص

الأستاذ الدكتور

____

رئيس قسم علم الاجتماع

أقر أنا ــــــــــــــــــ بالمشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به الدكتور ــــــــــــــــــ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات البيض والسود في مرحلة ما قبل المراهقة وفي مرحلة المراهقة.

كما أقر بأن مُشاركتي طَوْعيةٌ تماماً وأنني يمكن -عند الضرورة- أن أقطع المقابلةَ في أي وقتٍ ولا أكملَها.

وبعد أخذ ما سَبَقَ في الاعتبار، أوافق أنا ــــــــــــــــــ، على أن تجري معي يا دكتور ــــــــــــــــــ مقابلة، وأنا على ثِقةٍ بأن كل هذه المعلومات سوف تَبْقَىَ في سِريّةٍ تامَّة.

* * *

إذا كانت صاحبة هذه الموافقة دُون سن ١٨ سنة، فإنه يتعين على والدها أو الولي عليها أن يُوقع عليها كذلك.

أقر أنا، ــــــــــــــــــ أن ابنتي ــــــــــــــــــ قد أعطت في السطور السابقة موافقتها على المشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به الدكتور ــــــــــــــــــ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات البيض والسود اللاتي دونَ سنٍّ المراهقة والمراهقات.

كما أقر أن مشاركتَها عملٌ طوعيٌّ تماماً، وأنه إذا أَحَسَّت ابنتي أو أحْسَستُ أنا أنه ينبغي عليها أن تقطع المقابلة ولا تكمِلها، فإن لها أن تفعل ذلك في أي وقت. وبأخذ ما سبق في الاعتبار فإنني أنا ــــــــــــــــــ أعطيك يا دكتور ــــــــــــــــــ، الإذن بإجراء مقابلة مع ابنتي، وكلى ثقةٍ بأن كل هذه المعلومات سوف تبقىَ في سرية تامة.

* * *

أما "الخطاب ب" فنجده أقصر كثيرا من "الخطاب أ" كما أنه يحوي كماً أقل من التفاصيل عن أهداف البحث، بجانب أن من العسير التيقن من كثيرٍ من الأمور المتصلة بحقيقة أهداف هذا المشروع البحثي.

الخطاب (ب)

أعزائي الوالدين

اســـــمي ـــــــــــــــــ وأنا متخصص في علم الاجــــتماع وأعمل مدرســـا بكلية ـــــــــــــــــــ. وأقوم حالياً بدراسة عن صـــورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات السود البيض اللاتــــي دون ســـن المراهقة والمراهقات.

وإني أعتزم مقابلة هؤلاء الفتيات في المركز الصحي لنتناول شيئاً من البيتزا والمياه الغازية بَعْدَ ساعات الدراسة في مجموعات تتكون الواحدة منها من ثلاث أو أربع فتيات للدردشة في موضوع تقدير الذات وصورة الجـــسد. فإذا اختارت ابنتكم المشاركة، وذلك بَعْدَ إذنكم لها، فإن المقابلة لـــن تـــستغرق أكثر من ٤٥دقيقة، كما أن مشاركتها ستكون طَوعية تماماً.

وتجدان رِفقَ هذا الخطاب استمارة خاصة بالموافقة، والتي يتعَيَّنُ، بناءً على قبولكما، أن تَوقعها ابنتكم وأنْ تُوقعاها كذلك، لكي يتم تقديمها إلى المركز الصحي في يوم إجراء المقابلة.

وإني لأُقدِّر عالياً فرصة إجراء المقابلة مع ابنتكم. فإن كان لـــديكم أي أسئلة أو أمور تَشغَل بالَكم، فلا تترددوا في الاتصال بي في المنـــزل الـــساعة ـــــ أو في المكتب الساعة ـــــ.

أشكركما على ما أخَذَتْه من وقتِكما وأتطلع لتلقى ردكما قريباً.

المخلص

....

* * *

استمارة الموافقة

أقر أنا ـــــــــــــــــ بالمشاركة في المشروع البحثي الـــذي يقـــوم بـــه الدكتور ـــــــــــــــــ عن صورة الجسد وتقدير الـــذات عنـــد الفتيـــات الأمريكيات البيض والسود دُون سن المراهَقة والمراهقات.

كما أقر بأن مشاركتي طَوْعيةٌ تماماً وأنني يمكن – عند الضرورة– أن أقطعَ المقابلة في أي وقتٍ ولا أُكملَها.

وبعد أخذ ما سَبَقَ في الاعتبار، أوافق أنا ــــــــــــــ ، علـــى أن تجرى معي يا دكتور ـــــــــ مقابلة، وأنا على ثقةِ بأن كل هذه المعلومات سوف تبقَى في سرية تامة.

* * *

إذا كانت صاحبة هذه الموافقة دون سن ١٨ سنة، فإنه يتعــين علـــى والدها أو الولي عليها أن يوقع عليها كذلك.

أقر أنا ــــــــــــــ، أن ابنتي ــــــــــــــ قـــد أعطـــت فـــي السطور السابقة موافقتها على المشاركة في المشروع البحثي الذي يقـــوم بـــه الدكتور ــــــــــــــ عن صُورة الجسد وتقـــدير الـــذات عنـــد الفتيـــات الأمريكيات البيض والسود اللاتي دُون سنّ المراهقة والمراهقات.

كما أقر أن مشاركتها عَمَلٌ طوعيٌّ تماماً، وأنه إذا شَعُرتْ ابنتـــي، أو شَعُرْتُ أنا، أنه ينبغي عليها أن تقطعَ المقابلة ولا تكملها، فإنَّ لها أن تفعل ذلك في أيّ وقت.

وبأخذ ما سبق الاعتبار، فإنني أنا ــــــــــــــ أعطيك يا دكتـــور ــــــــــــــ، الإذن بإجراء مقابلة مع ابنتي، وكلي ثقـــة بـــأن كـــل هـــذه المعلومات سوف تبقى في سرية تامة.

يَحتَوي "الخطاب بـــ" على الحد الأدنى من المعلومـــات التـــي يمكـــن تقديمها للمبحوثين. ويكفُلُ كلا الخطابين ضمان السرية للمبحوثين، بمعنى أنه لا يمكن استعمال أسمائهم في أي مادة مكتوبة تتعلق بالبحـــث أو بالمناقـــشات التي تعالج المشروع البحثي، وأن المواد التي تحتوي على المقابلات (كأشرطة التسجيل الصوتية) ستُحفظ هي الأخرى في مكان آمنٍ لا يتعرض للكشف عنه لأحد. وهذا يعني أن الباحث وغيره من العاملين في المـــشروع لـــن يعرفـــوا شخصية المبحوث، مثال ذلك، أن من حـــق المبحـــوث أن يُـــسلِّمَ الاســـتبيان المستَخدَمَ في المَسْح الاجتماعي من غير أن يُسَجِّلَ اسمه عليه.

ومع ذلك، فإن هذين الخطابين يشيران إلى بَعْضِ **الأبعـــاد الـــسياسية** المتضَمَّنَة في وَضْعِ الخِطاب الخاص بالحصول على الموافقة الصريحة.

• لماذا يختلف الباحثون في مقدار ما يكشِفونَهُ من أهداف المشروع البحثي؟

قد لا يكون من مصلحةِ الباحث دائماً أن يكون مستعداً للصراحة الكاملة. بَلْ قد يَصلُ الأمر ببعضِ الباحثين إلى أنْ يبتعدوا عن طريقهم فَيَشْرَحُوا مشروع البحث باعتباره "قصة ذات طبيعة عامة"، وقدْ يكون هذا الموقف جزءا أساسيا من تكوين الخطة الأصلية للمشروع البحثي.

إن اختيار، أو اختراع، التفاصيل اللازمة لتكوين قصة ذات طبيعة عامة ولإقناع المبحوثين المستهدفين، يُعَدُّ أحد عناصر خطة أي مشروعٍ بحثي. ويتطلبُ ذلك العملُ مهارات في الإقناع. إذ يكتسبُ الباحثون بالتدريج نوعاً من إدراك أي التفاصيل التي تُهدِّئ المخاوف وأيُّها التي تُثير الشكوك. وكما يحْدُثُ في الأنماط الأخرى من المُفَاوَضَات، كالمساومة على تحديد الأجور مثلاً، فإن الطرف الذي يمسك بزمام المبادرة قد يعمد إلى استخدام نوع من المناورة حيث يُبدي موقفاً قد يتنازل عنه فيما بَعدُ، ويستلزم ضمناً وجود نوعٍ من التعارض بين مصالح طَرَفي التفاوض. وقد يقوم الباحث بالكشف عن المزيد من المعلومات إذا تطلب الأمر ذلك، إلا أنه يَحْدُث في حالات كثيرة ألا يتم التنبيه على المبحوثين أن يَطْرَحوا أسئلة وثيقة الصلة بموضوع البحث، كما يَحدُث كثيراً أن ينتقل المشروع البحثي بُسرعة من مرحلة التفاوض إلى مرحلة إجراء المقابلة (Homan, 1992, p. 324).

وإنْ حَدَثَ أن رَفَضَ المبحوثون المشاركة -أساساً- في مشروعٍ بَحْثيٍ ما، ولم يوافقوا على حَق المبحوثين في العمل بصورة مستقلة، فإن هذا الوضع يعد في الغالب إخفاقاً من جانب الباحث، كما أنه يتولَّدُ لدى الباحث حينئذٍ مَيْل لتَحطيم "خُطُوط دفاع المبحوثين" من خلال جملة من الطرق، بدءً بالضغوط الجماعية وانتهاءً باستغلال الصداقات. وفي هذه القضية يقول هومان:

تقوم المشاريع البحثية - بطُرُقٍ مختلفة - باستغلال وجود علاقة تربطها بالهيئات صاحبة القوة أو الجهات ذات السلطة والنفوذ. شاهد ذلك أن سَذَرلاند Sutherland استطاعت أن تَدرس أحوال مجتمع الغَجَر السِّرِّي

والمُستَبْعد – والمعهود عنهُ عَدَاوَه لمُمثِّلي العالم الموجود خارجه – وذلك عن طريق استغلالها لدورها كمُعَلِّمة لأطفال هذا المجتمع. (٣٢٥).

بل إنه يحدُثُ أحيانا ألا يكون اتباع التوجيهات الأخلاقية متفقا دائماً مع مصالح المبحوثين الذين تُجْرِي عليهم دراستك. وهنا يشير بـايز Baez إلـى المشكلة الخُلقية المُحيرة التي عايشها عندما أراد الاحتفاظ بسريةِ مبحوثيه. فقد أجرَى بايز مقابلاتٍ لـ١٦ من أفـراد الأقليـات ممَّـنْ يعملـون بالتـدريس بالجامعات، وكانت هذه المقابلات تتناول خبراتهم الشخصيَّة المتعلقةِ بتثبيـتهم في الوظائف التعليمية بعد اجتياز مُدَّة اختبارٍ، وبعملية تـرقيتِهم فـي إحـدى الجامعات الخاصَّة. ويشير إلى أن الاحتفاظ بالسريَّة قد يكون سلاحاً ذا حَدَّيْن. فالحفاظ على سرية المقابلات – وخاصة ما تمَّ منها مع أعضاء هيئة التدريس غير الدائمين –أتاحت له الحصول على معلومات وبيانات صريحة عن النزعة العرقية وعن الانحياز الجنسي للرجل داخل هذه الجامعة. وفي مقابـل ذلـك، منَعَتْهُ السريةِ من كتابة تقارير عن "التناقضات الحادة داخل منظمـة تعليميـة تزعُم أنها تؤيد التنوع العرقي والثقافي، وذلك من واقع ما تُصدرهُ من وثـائق وما يصدرُ عن كبارِ إدارييها من بيانات عامة تُذاعُ على الجماهير... إنني لا أستطيع أن أتصرف بهذه الطريقة بدون الشعور بأنني أميل إلى البوح بهويـة المبحوثين الذين شملتهم دراستي لغيرهم داخـل هـذه المؤسـسة التعليميـة" (٢٠٠٢، ص٣٩). ولا تنس أنك لا تعرف في كثير من الأحيان ماذا سَيُعَلِّمُك بَحثُكَ، كما قد يكون من الصعوبة البالغة ألا تحاول أن تُحدثَ تغييراً اجتماعيا في بعض الأوضاع.

ويُشير باتون Patton إلى أنَّ المبحوثين يحافظون في أيامِنا هذه على حقِّهم في "أن يتحدثوا عن أحوالهم من وجهة نظرهم هـم" (ص ٤١١) بـدون إخفاء شخصياتهم، خاصة عندما يَرَوْن أن هذا المشروع البحثي بمثابة فرصة للحصول على التمكين من خلال التحدُث عن أحوالهِم وربُما من خلال تحـولِ هذا المشروع إلى حافز على التغيير الاجتماعي. ويُشير باتون إلى وجود عدد من المآزق الأخلاقية الخطيرة التي تَنْبُعُ من وجهة النظر الجديدة هذه في شأن السرِّية:

- هل ينبغي للباحث أن يفرض السِّرية ويلتزم بها على خلاف رغبات المشاركين في البحث؟
- هل يجوز أن تتخذ اللجان المشرفة على المبحوثين "دور الحامي لهم وأن تحول بينهم وبين التمكين"، إذا رفضتْ أولئك المبحوثين الذين يرغبون في الإفصاح عن شخصياتهم؟.
- هل يختار المبحوث ما يختارُهُ مستقلاً عن الآخرين الموجودين معه في نفس الوسط الاجتماعي. وماذا عن خصوصية الآخرين المهمين لهم الذين يشاركونهم حياتهم، كالأطفال، والزوج/ أو الزوجة، وأعضاء الأسرة الممتدة؟ (ص٤١١).

وفوق كل تلك الاعتبارات يكون بعضُ الباحثين على دراية تامة بالأخلاقيات الواجبة في الممارسة، ويحاولون استخدام الموافقة الصريحة عن علم، ومع ذلك فإنهم يواجهون بعض الصعاب. شاهد ذلك سارَّة ماديسون المتخصصة في علم اجتماع النسوية بجامعة نيوساوث ويلز بأستراليا، حيث تركِّزُ في بحوثها على دراسة النوع الاجتماعي والسياسة الاجتماعية. وقد واجهت ماديسون مشكلاتٍ مختلفةً عندما محاولتها استعمالِ الموافقة الصريحة (عنْ علم) في عملها الإثنوجرافي (الميداني) مع مجموعة من الطالبات النسويات. فيها بنا ننضم إلى ماديسون خلف الكواليس:

خلف الكواليس مع سارة ماديسون

مُنذُ سَنَتين مضتا كُنتُ مشتركة في مشروع يَدرُسُ مجموعةً من الطالبات النسويات تم اختيارهن من أماكن جامعية مُختلفة بمدينة نيوساوث ويلز. وكانت "الشبكة العامة لنساء الجامعة(*) (CCWN) تُمثل تحالُفاً حُراً للنساء اللاتي كن يَجتمعنَ مرة كل أسبوعين. وفي كل اجتماع كان يوجد ما بين خَمس إلى عشر نساء، وباستثناء المرأة التي تدعو للاجتماع، كان من الممكن في كثير من الأحيان أن تتغير شخصيات أولئك النساء الحاضرات في

(*) The Cross Campus Women's Network.

كل اجتماع. وكان هذا التغير في قائمة المناداة على أسماء الحاضرات في كل اجتماع هو السبب الذي خلق عقبة كبرى أمام تنفيذ هذا البحث بما يتفق مع القواعد الأخلاقية: فعلى الرغم من أنني شَرَحْتُ بعناية هدفَ بحثي قبل ذلك وسَعَيتُ للحصول على إذن للحضور والمشاركة في المرة الأولى التي عملت فيها مَعهُنَّ، فإنه كان يوجد في اللقاءات التالية عدد من النساء اللاتي يحضُرن للمرة الأولى، ومن ثم لم يستطعن متابعة حديثي حتى داخلهن شك قوي في سببِ حضوري وفي نواياي ومقاصدي.

لذلك قمن بطردي من الاجتماع! وأرسلَتْ إليَّ المسئولة عن الدعوة للاجتماع رسالة بريد إلكترونية طلبت مني فيها ألا أحضُر أيَّ اجتماعات أخرى إلى أن يقمن بحلِّ هذه القضية فيما بينَهُنَّ (من الواضح أنه كان يُوجد لدى هذه المجموعة وجهات نظر مختلفة عن المزايا الموجودة في بحثي). وقد سُمِح لي بأن أُرسل رسالة بريد إلكترونية إلى أفراد هذه المجموعة أشرح لهن فيها موقفي مرة أخرى، ولم يكن أمامي سوى أن أجلِسَ وأنتظر. وكان الوقتُ يمرُّ عليَّ وأنا أُقلِّبُ النظر في موضوع القوة (التي يتم تقاسمُها) والوضوح (والغموض أو الالتباس) والموافقة (التي تُعطىَ ثم تُسحب مرَّةً ثانية).

لابُدَّ أن أقول أنني شَعُرت أنني في غاية الغباء ولكن الواقع الفعلي هُوَ أن خوفي من أن أبدو غبية هو الذي وضعَني في هذا الموقف الذي بدأتُ بـه هذا البحث. فقد كُنتُ –بصفتي باحثةً راغبةً في أن أبدأ دورَ "المُشارك" في عملية الملاحظة المشاركة - كُنتُ عازفةً عن مداومة لفتِ الانتباه إلى وضعي كباحثةٍ من خلال عرضي للخطوط الرئيسية لمشروعي في كل مرة أرى فيها وجهاً جديداً. ذلك أنني كنت في الواقع أُريد الاندماج داخل هـذه المجموعة والاشتراك في الاجتماعات كأنني "واحدة منهن" ولستُ غريبة عنهن. وأمَّا ما كُنتُ أريدهُ أكثر من أي شيء آخر، فهو أن ينسين ما كُنتُ أفعله من قَبْلُ حتى أستطيع – بشكلٍ ما – أن ألاحظ وأُشارك وأهضم ما يَحـدُثُ "فعـلاً" فـي اجتماعاتهن. لذلك فقد اندفعت في هذه الاجتماعات وأنا أفترض ذلك الافتراض المُتعجرف بأن مزايا بحثي وما له من أهمية إنما هي أمورٌ واضحة للجميـع، وذلك بجانب ثقتي بأنه "لن" تَرفُضَ أي واحدة منهنَّ أن تشارك في البحثْ".

مُنتهى الغباء – ومنتهى الخطأ. فقد كُنَّ على حَقٍّ فـي طـردي مـن الاجتماع، لأنني كنت أتصرف بصورة سيئة جداً، وعلى نحوٍ غيـر أخلاقـي تماماً. فقد نسيتُ للحظةِ أنَّ حضور الباحث يؤدي دائما وحتمـاً إلـى تغييـر ديناميات الجماعة وممارساتها، وأنَّ مُجَرد حضُوري جَعَلَ هـذه المجموعـة مختلفة عن المجموعة التي كانت موجودة قبل أن أدخُلَ عليهن فـي تَبَختـرٍ واختيال. والأهم من ذلك، أنني خَدَعتُ نفـسي فأوهَمْتُهـا أننـي – بوصـفي مُلاحظةً مشاركة –أستطيع، بشكل ما، أن أخلَعَ قُبَّعَةَ الباحثةِ عن رأسي وأكون "واحدةً منهنَّ". وقد كنت بطبيعة الحال، على علمٍ بهذه الأمور قبل أن أبدأ، إلا أنني في غَمرة تَحَمُّسي للبدء في المشروع كنتُ قد تَرَكْتُ أعرافي الأخلاقيـة بالباب وأنا أُقْحِمُ نفسي عليهن جِهَاراً.

وقد أدَّت أوهامي المتعلقة بإخفاء هويتي كباحثةٍ، إلى أن أنسى القاعدة الأولىَ والذهبية لأيِّ نوع من البحث، ألا وهى **الموافقة**. إذ كيف كـان مـن المُمكن لبحثي أن يتصف بالأمانة والنزاهة لو أن واحدةً فقط من عُضوات هذه المجموعة لم تكنْ مُدركة أنني باحثة؟ كم كُنتُ غيرَ أمينة! وكَمْ كُنتُ مُخَادِعة! لا يَسَعُني في الواقع إلا أن أكون مُمتَنَّةً، لأن هؤلاء الشابَّات كان لـديهنَّ مـن الحَمِيَّة والجرأة ما يكفي لطردي من اجتماعاتهن عندما كُنَّ يبحـثن موضـوع اشتراكِهِنَّ في هذا المشروع. بجانب ذلك يمكن أن توجد جماعات أخرى كثيرة من المبحوثين المحتملين الذين قد لا تكون لديهم الجرأة ليطلبوا من الباحث أن يُفارق جماعتهم. وقد أدَّى بي هذا الوعي إلى أن أُعيد التفكير من جديـد فـي موضوع أهمية القوة في العلاقات البحثية، وفي موضوع الدور الذي لابـد أن تُؤدِّيه الموافقة في إيضاح علاقات القوة هذه.

وبعد أسابيع قليلة أُبلِغْتُ أنهنَّ قررن السماح لِي بالعودة، وقد عُدتُ وأنـا شاكرة لهن ومستكينة تماماً. لقد تعلَّمتُ الدرس. فَحَتَّىَ على الرغم مـن أننـي كنتُ أتصور أنني واضحةً وصريحةً تماماً فيما يتصل بالتعريف بمـشروعي، فقد كنت مُقَصِّرة في العناية بمسألة التأكد من أن كل عُضوة من أعضاء هـذه المجموعة تدرك إدراكاً جيداً من أكون، ولماذا أُوجِد فى هذا المكان، وما الذى يمكن لهذا البحث أن يُحققه – وهو الأمرُ الذي يُمَثِّلُ خطوة جوهريـة للبحـث

الملتزم بالقواعد الأخلاقية، والذي تكون فيه الموافقة الصريحة عن علم أمــراً حاسماً لتحقيق مَشْروعية هذا المشروع بأكْملِه. إنه درس لي لن أنسَاهُ سريعاً، كما أنني شاكرة لهؤلاء الشابات صبْرِهن في مساعدتي، لأنْ أتعلم هذا الدرس مجددا.

إنِ في هذا المثال قدراً كبيراً مما يمكننـا أن نتعلمَـه. خاصـةً وأن ماديسون تُبيِّن لنا كيف أن الممارسة الأخ لاقية اعتبارُ قائم مستمر. يُضاف إلى ذلك أن القضايا الخلقية والموافقة عن علم تُزود الباحثين بفرصة للتعرُّفِ على أنفسهم وللتطور كباحثين- إن الأخلاقيات مَدْخَلٌ للتأمل النقدي العميق.

ممارسة الأخلاقيات في البحث الاجتماعي

تُوجد الأخلاقيات داخلِ سياقٍ اجتماعيٍ معين. وتلفت المآزق الأخلاقية التي ناقشناها في هذا الفصل نظرنا إلى أهمية تضمين المنظور الأخلاقي فـي صلب الأساس الذي يقوم عليه مشروعنا البحثيُّ. ولا يمكن تطبيـق القواعـد الأخلاقية على كُل الأحداث التي قد تقع في مشروع معين. وفي هذا الـصدد يشير روبن Rubin وروبن Rubin (١٩٩٥) إلى أن التوجيهات الأخلاقية لا يمكنها أن تغطي سائر المشاكل الأخلاقية التي قد تواجِهُها في ممارستك للبحث الاجتماعي:

ليس بوسعِكَ أن تُنجِزَ البحث الملتزم بالأخلاقيـات بمجـرد اتباعـكَ لمجموعة من الإجراءات المُقررة من قبلُ، والتي تظل صحيحة على الـدوام. ومع ذلك، فإن التصرف على أساس أخلاقي في ممارسة المقابلات الكيفية هو أمرٌ مهم في هذا المجال بنفس أهميته في الأنماط الأخرى من البحـث الـذي يُجرَى على البشرِ، وربَّما كانت أهمَّ. لذلك يتوجـب عليـك أن تجعَـلَ مـن إجراءاتك الأخلاقية الثابتة (أو نظامك الأخلاقي) جُزءاً من بناء عملكَ. وينبغي عليك العناية بدراسة المواثيق الأخلاقية ودراسة الحالات التـي يتمثـل فيهـا السلوك اللا أخلاقي حتى ترفعَ من مستوى حساسيتِكَ (أي:انتباهك) للمواقـف التي تبدو فيها الالتزاماتُ الأخلاقية بارزةً بكل وضوح. فحافظ، على امتـداد

بحثك كلَّه، على التفكير المُستمر في التزاماتك الأخلاقية وعلى الاحتكام إليها.
(Rubin & Rubin, 1995, p.69, as quoted in Patton, 2002, p.411)

وفي هذا الصدد ينبغي علينا ألا نَغْفُلَ عن التَّمييز المفيد بين ما يسميه هومان (١٩٩٢) **المواثيق الأخلاقية، والقيم الأخلاقية**. فالموافقة على الامتثال للمواثيق الأخلاقية التي تتمثل في طلب الحصول على الموافقة عن علم من المبحوث لا تُعفي الباحث من الالتزام بالقيم الأخلاقية الأساسية التي تَتَضمَنُها هذه المواثيق، وذلك على الرغم من أن هذه المواثيق "تدعو في كثيرٍ جداً من الأحوال إلى رعاية النص الحرفي أكثر من رعاية المبدأ" (ص٣٢٥). فهومان (١٩٩٢) يذكِرنا بأن الخطَرَ يتمثل في أن كثيراً منَ الباحثين يظنون أنَّ التزامَهُمُ الخُلُقي يبدأ وينتهي بتوقيع المبحوث على خطاب الموافقة. وفي بعض الحالات يُنظَرُ إلى الخطاب الذي يحمل الموافقة الصريحة على أنه خطاب يحمِي الباحث أكثر من حمايتِهِ للبمحوثين. وفي هذا الصدد يشير أحد الأنثروبولوجيين قائلاً:

أخشَى أن تُصبحَ الموافقة عن علم، عند تطبيقها بطريقة ميكانيكية باستعمال استمارة ما أو استعمال صيغة/ أو عبارة شفوية معينة؛ أخشَى أنْ تُصبح هذه الموافقة بمثابة حماية للباحث أكثر منها حماية للمبحوثين. ذلك أن هذه الموافقة عن علم التي تمّ الحُصول عليها بهذه الطريقة تُعَدُّ أُحَاديَة الجانب وليست ثُنائية الجانب، كما أنها تحمي الباحث من التُهم التي يُوجهُها إليه المبحوثون بأنهم لم يُدركوا بصورة كاملةٍ غَرَض هذا البحث ولا نتيجتَهُ
(Fluehr-Lobban, 1998, p.199)

إن الأخلاق لا تُوجَد في فراغ. وما يُشير كنج King، وهندرسون Henderson، وستاين Stein (١٩٩٩) قائلين:

*... قد تكون الأخلاق الواجب اتباعها في البحوث التي تُجرَى على البَشَر؛ ذات طابع عام، إلا أنها تكون في الوقت ذاته في غاية التفرد والخصوصية، **حتى إنَّ المَعنَى المُراد من ألفاظ مثل**: الاستقلال، أو الموافقة عن علم، أو السّرية، أو حَتَّىَ النفع أو الضرر، إنما يَعْتَمِدُ علي الظروف والملابسات المحيطة باستعمال كل لفظ منها. وهذه الملابسات لا تحددُ فقط ما*

إذا كان أيٌّ هذه المفاهيم الأخلاقية "الغَربية" ينطبق على هذا البحث، وإنما هي تحدد كذلك "كيف" يتم هذا التطبيق . (ص ٢١٣).

قضايا مُلِحَّة في مجال البحث الملتزم بالأخلاقيات: هل نحن في طريقنا إلى نموذج نظري جديد "للأخلاقيات"؟

تُشير الملاحظات التي أبداها كنج وهندرسون وستاين (١٩٩٩) بخصوص السلوك الأخلاقي في البحوث إلى حدوث نقلة في اتجاه التفكير المتعلق بكيفية دمج الأخلاقيات في العملية البحثيَّة. وهم يصفونها بأنها تغير في النموذج النظري للتفكير في الأخلاقيات بوصفه تفكيراً قائماً على قضايا مبدئية (وهو النموذج النظري المبدئي) مستقلة بصورةٍ عامَّة عن الملابسات الخاصة، إلى تفكير قائم على نظرة للأخلاق بوصفها تُشكِّل جزءًا من العلاقات الاجتماعية (وهو نموذج العلاقات الاجتماعية). وقد يكون الباحث الآخذ بوجهة النظر المبدئية مهتما بوجهة النظر "النسبية" التي تُشكل جزءا أصيلا من نظرة نموذج العلاقات، في الوقت الذي يُوَجهُ فيه الباحث الآخذ بنموذج العلاقات إلى زميله الذي يتبنى المنظور المبدئي "تهمة الإمبريالية الأخلاقية(*)، وتهمة ممارسة كل من النزعة الأبوية و"النزعة الاستبدادية".

إن الأخلاقيات من منظور كلٍّ من هذينِ النموذجين تَطْرح أنواعاً مختلفة مِن الأسئلة، كما تقدر بطرق مختلفة الأولويات التي ينبغي التأكيد عليها في أي مناقشة لأخلاقيات البحوث التي تُجرى على مَبْحوثين من البشر. وقد ظل النموذج المبدئي هو الذي يقود –حتى يومنا هذا– عملية وضع التوجيهات الأخلاقية لمجالس الفحص والمراجعة IRBs وللاتحادات والجمعيات المهنية. والمطلوب الآن تحريك النقاش في موضوع الأخلاقيات ودفعة قدما إلى حوارٍ أكثر تناغماً بين هذين المَنظُورين الفكريين. وربما كان الأجدر – في رأي البعض – جَمْعِهما معاً في تركيبةٍ واحدة تؤلف بينهما. ويَطْرَحُ كِنج

(*) لفظ الإمبيريالية هنا مستخدم بمعنى رمزي، والمقصود الاستئثار الكامل بالحق في فهم الأخلاق وتفسيرها. (المراجع).

وهندرسون وستاين (١٩٩٩) بعض الأسئلة العامَّة التي قد يكون من المفيد تناولها في مثل هذا الحوار:

إلى من نتوجه بمناقشاتنا في مجال القضايا الأخلاقية؟ وكيف سَنَمْنَح السلطة للجماعة، أو الجماعات، التي تمكنها من الحكم على هذه الأمور جميعا؟ إن أسلوب هذا السؤال أسلوب له دلالته. فهو يَعْني: مَعَ مَنْ نحن في علاقة خُلقيَةَ من النوع الموجود بين الأنداد المُتَساوين؟ ولا يعني: من هو الذي سيحكُمُ على هذا الأمر لنا؟ أو من هو الذي سيحدد لنا القواعد؟" بل يعني: مع من يمكننا أن نتحدث؟ مع من يُمكننا أن نعمل للتوصل إلى إجابةٍ ما؟" (King, Henderson & Stein, 1999, p. 224).

خاتمة

إن دَمجَ الأخلاقيات في عملية البحث، بدءا من اختيار مشكلة البحث، ومروراً بتنفيذ أهداف البحث، وانتهاء بعملية تفسير نتائج البحث وكتابة تقرير عنها؛ هذا الدمج أمر حاسم لضمان التزام عملية البحث بالمبادئ الأخلاقية، فضلا عن توافر الموافقة الصريحة عن علم. ويُشَكِّل هذا الفصل حفزاً لنا كباحثين لنكون على وعيٍ بمدى المآزق الأخلاقية التي يواجهها الباحثون خلال تنفيذ المهام اليومية لأي مشروع بحثي. وتتمثل إحدى الخطوات المهمة، بجانب خطوة الحصول على الموافقة عن علم، في اهتمام الباحث بالتأمل النقدي الذاتي، وذلك بأن يَسألَ نفسه قائلاً:

- ما هي "نظرتي الأخلاقية" لهذه العملية البحثية؟

ولعلك تجد أن قائمة الأسئلة المرجعية التالية نافعةً لك عند رغبتك في استكشاف رُؤيتك الأخلاقية لعملية البحثِ هذه:

- ما هي المبادئ الأخلاقية التي توجّه عملَكَ وحياتَك عدا الميثاق الأخلاقي المهني الذي تلتزم بهِ في إطار انتمائك لتخصص علمي معين أو تنظيم مهني ما؟
- أين تبدأ التزاماتك الأخلاقية تجاه المبحوثين وأين تنتهي؟

إن إدراككَ لرؤيتك الأخلاقية أو موقفك الأخلاقي كباحثٍ يُعَدُّ مُرشداً داخلياً مهما يدلكَ على السير قدما في بحثك. ويقدم مايكل باتون M.Patton (٢٠٠٢) "قائمة أخلاقية مرجعية" (ص٤٠٩) لتأخُذَها في اعتبارك وأنت تتابع العمل في مشروعك البحثي. وقد قمنا بتكييف قائمة باتون هذه حتى تحتوي على طائفةٍ من الموضوعات المتعلقة بعملية البحث.

قائمة باتون بالأسئلة المرجعية المتعلقة بإجراء مشروع بحثي ملتزم بالأخلاقيات

- كيف ستشرح هَدَفَ بحثك والطرق المستخدمة فيه بأساليب تكون دقيقة ومفهومة لمن تقوم بدراستهم؟
- لماذا يتعين إشراك المبحوثين في مشروعِكَ؟
- ما هي السُبل - إن وُجِدت- التي عن طريقها سوف يؤدي إجراء هذا البحث إلى إلحاق ضرر (نفسي، وقانوني، وسياسي، وكذلك الضرر المتمثل في تحوُل المبحوث إلى شخصٍ منبوذ من الآخرين).
- ما هي التعهدات المعقولة للحفاظ على سرية المبحوثين والتي تستطيع الوفاء بها تماما؟
- ما هو نوع الموافقة عن علم -إن وُجِدتْ- والتي تكونُ ضرورية لتحقيق الحماية المتبادلة؟
- مَن هم الذين لهم حق الاطلاع على البيانات؟ ولأي الأهداف؟
- إلى أي مدى ستكون أنت ومَبْحُوثُكَ (أو مَبْحوثُوك) معرَّضين - بدرجةٍ راجحة – للتأثر بإجراء هذا البحث؟
- من هو الشخص الذى سيكون أمين سر الباحث ومستشاره فى مسائل الأخلاقيات أثناء الدراسة؟
- ما هو مدى مثابرتك في شق طريقك للحصول على البيانات؟
- ما هو الإطار الأخلاقي وما هي الفلسفة التي تَمْنَحُ عملَكَ جَوْهراً وتكفُلُ الحفاظ على احترام من تدرسهم وعلى حساسيتهم، وذلك بجانب

كل ما يقتضيه القانون من إجراءات؟ (نقلا عن باتون بتصرف، ٢٠٠٢، ص٤٠٨).

وتمدنا دراسة أجراها هيوبر Huber وكلاندينين Clandinin بمثال جيد للتأمل والتفكير داخل العملية البحثية. فقد قاما بإجراء مقابلات مع تلاميذ مدرسة ابتدائية من منطقة قلب المدينة، والتزاماً بالقيمة الأخلاقية "للأخذ والعطاء" في محاولتهما البحثية فهم حياة هؤلاء الصغار من سكان قلب المدينة. وهُما يُنَوّهانِ بأهمية استحداث "قيمة خلقية للبحث السردي القائم على العلاقات الإنسانية"، وهي القيمة التي تتجاوزُ نطاق الشروط الخاصة بتوقيع المبحوث بالموافقة عن علم:

انطلاقاً من منظورٍ لأخلاقيات البحث المبدئية (التي لا تنظر إلى العلاقات) قمنا بالوفاء بكل تلك المتطلبات الأخلاقية، إلا أن هذا لم يكُن كافياً... ذلك أنه عندما أحسسنا بعدم الرضا عن موقفنا كباحثين تربطهما علاقة إنسانية بالتلميذ عظيم Azim (وهو اسم أحد المبحوثين في تلك الدراسة) ولذلك تَنَبَّهنا إلى أننا في حاجة إلى أسلوب مختلف لنفهم معنى تنفيذ البحث الملتزم أخلاقيا على الصغار بوصفهم "باحثين مُشاركين"(*) إنما يتحقق في بحثٍ سردي قائم على العلاقات الإنسانية. (ص٧٩٤).

وقد وجدا أن البحث القائم على "نموذج العلاقات" يتطلب قدراً كبيراً من التأمل النقدي (الانعكاسية) من جانب الباحث (وخاصةً عندما يدرس جماعة من الأفراد ذوي البنية الهشة). ذلك أن إفادتها من خبرتهما التأملية (الانعكاسية) خلال البحث تمكنهُما من الدخول في حوارٍ مع موقفهما الأخلاقي الشخصي الخاص، كما تمكنهما من المواجهة الفعلية لانحيازاتهما الشخصية الخاصة بوصفهما باحثين، وبوصفهما مُعلِّمين لتلاميذ المرحلة الابتدائية كذلك. وفي نهاية الأمر، أصبحا أكثر انتباها لأوجه التعقد والتشابك التي تنطوي عليها عملية المشاركة في خلق المعنى، ولضرورة معايشتهم تلك التوترات التي عايشاها بوصفهما باحثين مُشارَكين(*):

(*) أي لهم شركاء آخرون فى عملية البحث والفهم والتحليل، هم هنا التلاميذ الصغار (المراجع).

لما كنا قد دَخلْنا في علاقات مشاركة في البحث مع التلاميذ الصغار، بدأنا نكون في غاية الاهتمامِ بالمعالم والملامح التي كانت تشكل هويتنا كباحثين من المعلمين، وكمُعلمين من الباحثين، وكباحثين. وأصبح الاهتمام بالاحتفاظ بالعلاقات الإنسانية مع الصغار، في الحاضر والمستقبل، أصبح الشاغل الأوّل لنا ... إننا في حاجة إلى أن نُعيد تحديد موقع الاهتمامات الأخلاقية داخلِ إطار الاهتمامات المتعلقة بمسئوليتنا تجاه المحافظة على العلاقات الإنسانية مع الصغار. لقد تحققنا من أن عنايتنا بالعلاقة الاجتماعية قد تتعارض مع الحكايات السائدة عن السلوك المعهود من المعلمين "الجيدين" والباحثين "الجيدين". أما الخطوط الإرشادية للباحثين الجيدين فإنها لا تُعني في كثير من الأحيان بنتيجة هذا التعارض وأثرهِ على حياة الأطفال بوصف هذه النتيجة شاغلها الأول. أما نحن فبوصفنا باحثين سرديين نُقدّر شأن العلاقات الإنسانية ومُرتبطين بالأطفال كباحثين، فقد تحققْنا من أن أمر هذا التعارض المذكور على حياة الأطفال هو ما نحتاج إلى الاهتمام به. (ص٨٠٠)

يحدونا الأمل أن يُزودَكَ هذا الفصل بنوعٍ من الوعي بأهميةِ البُعد الأخلاقي في العملية البحثية. كما طرحنا بعض الأدوات التي ستحتاجُ إليها لرفع مستوى وعيكَ بموقفك الأخلاقي الشخصي وبتطبيقه في جهودك البحثية على الدوام. وسوف يتواصل ظهور المُكوِّنات المختلفة للممارسة الأخلاقية عَبرَ الفصول التالية من كتابنا هذا، والتي تتضمن مناقشة للمسائل الأخلاقية التي ظهرت حديثاً والمرتبطة بالبحث الذي يتم من خلال الحاسب (الكومبيوتر). (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب).

* * *

تعريف بالمصطلحات

- السرية • Confidentiality

يعنى هذا المصطلح حماية المبحوثين من اطلاع أحد على هوياتهم. بمعنى أن أسماءهم لا يجوز استعمالها فى أى مادة مكتوبة تتعلق بهذا البحث أو فى المناقشات التى تتناول هذا المشروع البحثى. ويتعين كذلك تخزين مواد المقابلة فى مكان آمن.

- القصة الغطاء • Cover Story

قد يصل الأمرُ بالباحثين الذين يستعملون الخداع إلى أن يحيدوا عن الطريق بحيث يعرفون الآخرين بمشروعهم البحثى بوصفه قصةً مُستعملَةً كغطاء (وقد تكون هذه القصة جُزءً أساسياً وُضِعَ عن قصدٍ في تصميم المشروع البحثي).

- الخِداع • Deception

قد لا يكن الباحثون صادقين في تعريف الآخرين بهويتهم أو بما يقومون به، وبهذا الشكل يستخدمون الخداع من أجل إنجاز بحثهم.

- الإفصاح • Disclosure

قد يَحْدُث أن يقوم الباحث بالكشف أو الإفصاح عن شخصيته وعن الغرض من بحثه، وقد لا يفعل ذلك. ولكننا ندعو-انطلاقا من الاعتبارات الأخلاقية – إلى الإفصاح التام كلّما كان ذلك ممكناً.

- المواثيق الأخلاقية • Ethical Codes

هي مواثيق للسلوك موضوعة لحماية المبحوثين وحماية مجتمعهم فلا يجوز أن يتسبَّبَ البحث في الإضرار بهم أو بمجتمعهم. وبموافقة الباحثِ على الامتثال للمواثيق الأخلاقية، على النحو المذكور في طلب الحصول على الموافقة عن علم من المبحوثين، فإنه يلتزم بالتمسُّكِ بالقيم الأخلاقية الأساسية التي تتضمنها هذه المواثيق، حتى وإن كانت "تدعو في كثير من الأحيان إلى مراعاة النصّ الحرفي أكثر من مراعاة المبدأ" (Homan, 1992, p. 325).

- القيم الأخلاقية • Ethical Values

انظر: المواثيق الأخلاقية

- الموافقة عن علم • Informed Consent

تُعَدُّ الموافقة عن علم عُنصراً في غاية الأهمية في البحث الملتزم بالأخلاق والذي يُجرَى على مشاركين من البَشَر. وتَعني الموافقة عن علم أن المشاركين يدركون تمام الإدراك موضوع الدراسة، وكيف ستُستخدمُ نتائجها،

ويُدركون أن مشاركتَهُمْ طوعية ومن الممكن قطعُها في أيٍّ وقت، وأن هويتهم سوفَ تظل محجوبة عن الآخرين.

- مجالس الفحص والمراجعة • Institutional Review Boards (IRBs)

تقوم مجالس الفحص والمراجَعَة بالتأكُّد من أن الدراسات التي تُجرَى على مبحوثين من الأحياء ملتزمة بالأخلاقيات وأنها لا تلحق ضررا بأحد.

- النزاهة (الاستقامة الأخلاقية) • Moral Integrity

تمثل النزاهة أو الاستقامة الأخلاقية للباحث جانبا عظيم الأهمية لضمان أن تكون عمليةُ البحث والنتائج التي توصل إليها الباحث "جديرة بالثقة" وصادقة.

- ميثاق نورمبرج • Nuremberg Code

هو ميثاق أخلاقي يَبْدأ بالنص على أنه لابدَّ أن تكون المشاركة في البحث في جميع مراحله مشاركة طوعية.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ما هي "البنية التحتية الأخلاقية" لعملية البحث، ولماذا يتوجب الاهتمام بالأخلاقيات بصورة كلية؟

٢- على الرغم من أن الموافقة عن علم تمثل جانباً هاماً لضمان البُعد الأخلاقي لمشروعك البحثي، فإنه توجد حالاتٌ حدثَ فيها تقصير في الإفصاح الكامل للمبحوثين عن المَدَى الكامل للمخاطر والمزايا المُتَوَقَّعة من المشاركة في الدراسة. بناءً على ذلك، من هو في اعتقادك المسئول عن أي عواقب غير مقصودة؟

٣- تتضمن الأسئلة المطروحة في هذا الفصل: أين تبدا التزاماتُك تجاه المبحوثين وأين تنتهي؟ ما هي مسئولية الباحث تجاه المبحوث بعد أن تكون عملية البحث "قد انتهت"؟ وهل سَيَظَلُّ الباحث مَسئُولاً عن أي

مُشكلات نفسية قد تنشأ – جُزئياً– بسبب هذا المشروع البحثي؟ ما هو رأيك في هذه القضايا؟

٤- أُنشئت مجالس الفحص والمراجعة لمراقبة العملية البحثية ولضمان "ألا تُعاملَ أي مجموعة من الأفراد معاملة جائرة أو أن تُحرَمَ من النتائج الإيجابية المحتملة لدراسة مُعينة". غير أنه اتضح – كما سلفت الإشارة – أن مَجالسَ الفحص والمُراجَعَة تفقد فاعليتها في حالاتٍ مُعيَّنة، عندما يكون لبعض أعضاء هذه المجالس مصلحة خاصَّة في نفس هذه الدراسات التي يراقبونها. بناءً على ذلك: هل تعتقد أن مجالس الفحص والمراجَعَة مَصْدَر فعال لضمان قيام العملية البحثية على مِحْورٍ أخلاقي؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هي مقترحاتك لزيادة التأكدِ من توافر البُعْد الأخلاقي لعملية البحث؟ وفي تصورك، ما هي أكثَرُ الوسائل فعَّاليةً لضمان "السلامة الأخلاقية/أو الاعتبار الأخلاقي في المشاريع البحثية التي تقوم بها الجامعات؟

٥- تبين من هذا الفصل أن الموافقة عن علم لا تُعفِي الباحثَ من مسئوليته عنْ كل الاعتبارات الأخلاقية. فما معنى ذلك؟ واستعرض بعض الاعتبارات الأخلاقية التي يتعين على المرء الانتباه لها عندما يقوم "بالبحث المتخفي" أو "الملاحظة بالمشاركة"؟ وما هي بعض الأساليب الأخرى للتأكدِ من أن البُعدَ الأخلاقي حظى بوضعه الملائمَ في مَشروعِكَ البحثي؟

٦- هل تَعْتَقِدُ أن من مسئولية الباحث أن يكشف عن المعلومات الخاصة بالفرد المشارك في البحثِ (أي المبحوث) عندما يَشْعُرُ أن هذا الكشف يَنفَعُ هذا المبحوث؟ لماذا نعم، أو لماذا لا؟

٧- إذا فرض الباحثُ السريةَ على عَمليةِ البحث، فهل ترى ذلك طريقة لعدم تمكين المبحوثين الذين يريدون الكشفَ عن هوياتهم من فعل ذلك؟ وهل تعتقد أن الباحث مسئولٌ وحده عن تقرير ما إذا كان ينبغي الحفاظ على سريَّةِ المعلومات أم لا؟ وهل ينبغي أن تكون قضيَّةُ السريَّة مسعىً مُشتَركاً بين الباحث والمبحوث؟ وما هي حدود تلك المشاركة؟

٨- إذا كان أحد علماء الاجتماع مُهتَماً بدراسة سلوكيات القُصَّر من المراهقين في شُرب الخمر وفي قيادة السيارات- فما هي بعضُ الاعتبارات الأخلاقية التي يتعين عليه أن يَتَنبَّهَ إليها؟ ناقش بعض المآزق أو المشكلات الأخلاقية التي من المُمكن أن تواجهها؟ وكيف تود أن تصمم مشروعك البحثي (مع الأخذ في الاعتبار الأهمية المحورية للأخلاقيات في بناء مشروعك البحثي).

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- المؤسسة القومية للعلوم **National Science Foundation**

http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/docs/45cfr690. pdf

يتصل هذا الرابط بالقانون الساري حاليا بشأن الموافقة عن علم / ومجالس الفحص الرسمية IRBs/ والمبحوثين البشر: "القاعدة العامة لحماية المبحوثين من البشر في البحوث السلوكية وبحوث العلوم الاجتماعية".

http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/hsfaqs.htm

هذه قائمة "بالأسئلة الأكثر طرحا" فيما يتعلق بالتشريع المشار إليه سابقا.

http://www.hhs.gov/ohrp/humansubjects/guidance/belmont.htm

هذا رابط خاص "بتقرير بلمونت عن: المبادئ والإرشادات الأخلاقية لحماية المبحوثين من البشر في البحوث".

http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/guidance.htm

يضم هذا الموقع قسما بعنوان "المبحوثين البشر" ويحوي معلومات عن المبادئ الأساسية لحماية المبحوثين من البشر، كما يحوي معلومات عن مجالس الفحص الرسمية IRBs.

- مواقع عن الأخلاقيات **Online Ethics**

http://onlineethics.org/

هذا رابط بموقع "مركز الأخلاقيات الإلكتروني للهندسة والعلوم". ويدعي أصحاب هذا الموقع أن رسالتهم هي "تزويد المهندسين، والعلماء، وطلاب

العلوم والهندسة بالمواد اللازمة لفهم المشكلات المهمة التي تواجههم في عملهم والمتصلة بالناحية الأخلاقية والتعامل معها، وكذلك خدمة أولئك الذين يساندون تعلم وإشاعة فهم ماهية البحث المسئول والممارسة المسئولة للعمل في مجالي العلوم والهندسة".

إذا استخدمت هذا الموقع اطلب أولا: "محتويات مركز الأخلاقيات الإلكترونية" OEC، ثم اطلب "أخلاقيات البحث":

http://online.ethics.org/reseth/index.html

يعرض هذا الموقع حالات، ومناقشات، وإرشادات، وقواعد تنظيمية التي تحدد مسئولية الباحث وكيف يكون عليه أن ينفذ بحثه (بما في ذلك معلومات عن قضايا نزاهة البحث ومعاملة المبحوثين من البشر). كما يحوي الموقع أكثر من رابط مفيد لمراجع ومصادر عن أخلاقيات البحث (مع قائمة بالمواقع الإلكترونية والمواقع الحكومية المتخصصة تماما في هذا الموضوع).

- المعاهد القومية للصحة **National Institutes of Health**

http://ohsr.od.nih.gov/

هذا رابط "لمكتب شئون المبحوثين من البشر"، يقدم معلومات عن التشريعات المعمول بها حاليا بخصوص استخدام مبحوثين من البشر وبخصوص البحوث عموما (وكذلك عن المآزق الأخلاقية التي ينطوي عليها ذلك). كما يحوي أكثر من رابط للمواقع الحكومية الأخرى التي تتناول هذه الأمور.

http://www.nih.gov/sigs/bioethics/IRB.html

يحمل هذا الرابط عنوان "البحوث التي تستخدم مبحوثين من البشر ومجالس الفحص الرسمية". ويحوي أكثر من رابط عن السياسات والقواعد التنظيمية، وإرشادات للباحثين، وموارد مجالس الفحص الرسمية، ومقررات علمية مختصرة عن القضايا الأخلاقية البيولوجية في الدراسات الإنسانية، وموارد البحوث، والجهات التي تقدم "دروسا خصوصية" عن البحوث التي تستخدم مبحوثين من البشر.

http://www.nlm.nih.gov/pubs/cbm/hum_exp.html

هذا رابط يحوي قائمة واسعة الشمول بمراجع تتعلق جميعها بالقضايا الأخلاقية المرتبطة بالمبحوثين من البشر. وتقسم قائمة المحتويات (عليك أن تنزلق قليلا إلى أسفل الصفحة لتجدها) الموقع إلى فئات مختلفة، مما يتيح لك فرصة العثور على موضوعك المحدد بمزيد من اليسر. وتحوي القائمة البيليوجرافية معلومات عن مواد مرجعية ومصادر، تشمل مجلات علمية، وكتب، ووثائق حكومية...إلخ.

- **وزارة التعليم الأمريكية** **U.S.Department of Education**

http://www.ed.gov/about/offices/list/ocfo/humansub.html

هذا رابط لموقع: "حماية المبحوثين البشر في البحوث". ويحوي الموقع أكثر من رابط لمعلومات عامة عن المبحوثين البشر في البحوث، والجوانب التنظيمية والقانونية المتعلقة باستخدام المبحوثين في البحوث. كما يحوي معلومات عن "الإرشاد والمواد التعليمية" (مع رابط لموقع "تقرير بلمونت" ورابط لموقع "دليل مجلس المراجعة الرسمي").

- **الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع** **American Sociological Association**

http://www.asanet.org/memberfs/ecostand2.html.

هذا رابط لموقع الميثاق الأخلاقي للاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع. ويجد القارئ نص هذا الميثاق الأخلاقي منشورا على الموقع، يمكن تحميل نسخة PDF منه.

- **الاتحاد الأمريكي لعلم النفس** **American Psychological Association**

http://www.apa.org/ethics/homepage.html

يناقش هذا الموقع الميثاق الأخلاقي للاتحاد الأمريكي لعلم النفس. وهناك ثلاث طبعات للميثاق يمكن تحميلها من على الموقع، ورابط للجوانب الأخلاقية في الأخبار، ورابط لمراجع ومصادر عن الأخلاقيات.

- **American Association for the Advancement of Science** — **الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم**

http://www.aaas.org/spp/sfrl/projects/intres/main.htm.

هذا رابط لموضوع: "الجوانب الأخلاقية والقانونية للبحوث التي تجري على البشر في الفضاء الإلكتروني"، ويحوي رابطا عن التقرير الذي أعده فريق العمل التابع للاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم (وهو التقرير الذي أعد كثمرة لورشة عمل عقدت بالتعاون مع المعاهد القومية للصحة NIH حول موضوع بحوث الإنترنت التي تستخدم مبحوثين من البشر).

- **Indiana University's Poynter Center for the Study of Ethics and American Institutions** — **مركز بوينتر بجامعة إنديانا لدراسة الأخلاقيات والمؤسسات الأمريكية**

http://poynter.indiana.edu/links.shtml

يحوي هذا الموقع أكثر من رابط لمراكز دراسة الأخلاقيات ومطبوعاتها، وأخلاقيات البحوث، والسياسة البحثية، ومعلومات عامة عن الأخلاق. ويحدد الموقع رسالة المركز بأنها "مكرسة لدراسة مدى واسع من القضايا الأخلاقية المثارة في الحياة العامة الأمريكية. ونظرا لطابع المركز القائم على تضافر التخصصات فإنه يعمل على استخدام كافة موارد وإمكانيات جامعة إنديانا لتشجيع البحوث والتدريس عبر الحدود الأكاديمية التقليدية". يحوي الموقع مواد عظيمة الفائدة لتعليم أخلاقيات البحوث. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة في هذا الشأن برنامج التعليم الإلكتروني التفاعلي بعنوان: "أدنى إخوتي قدرا" The Least of my Brothers الذي يتناول القضايا الأخلاقية المتعلقة ببحث تصكجي عن تجربة الزهري. وثمة دليل مفصل للمعلم مصاحب لهذا البرنامج التعليمي. انظر الرابط الفرعي الخاص بهم:
http://poynter.indiana.edu/sas/Ib/.

- **International Sociological Association** — **الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع**

http://www.ucm.es/info/isalabout/isa_code_of_ethics.html

يحتوي هذا الموقع على الميثاق الأخلاقي للاتحاد الدولي لعلم الاجتماع. ويتكون هذا الميثاق من مقدمة وأربع مجموعات من القواعد والمعايير الأخلاقية المحدودة.



References المراجع

- Adler, P. & Adler, P. (2002). Do university lawyers and the police define research values? In W.C. Van Den Hoonard (Ed.). *Walking the tightrope: Ethical issues for qualitative researchers* (pp. 34-42). Toronto: University of Toronto Press.
- Alvino, L.A. (2003). Who's watching the watchdogs? Responding to the erosion of research ethics by enforcing promises. *Columbia law Review, 103. 893-924.*
- American Sociological Associations'Ethical Standards: http://www.asanet.org/memberfs/ecostand2.html. This list consists of topics such as informed consent, use of deception as a research practice, etc. *see also:* Guidelines for Conduct of Research Involving Human Subjects at the National Institutes of Health: http://www.helix.nih.gov.8001/ohsr/guidelines.html.
- Angell, M. (2000). Editorial, Is academic medicine for sale? *New England Journal of Medicine, 342,* 1516-1518.
- Appelbaum, P.S., Roth, L., Lidz, C.W., Benson, P., & Winslade, W. (1987). False hopes and best data: Consent to research and the therapeutic misconception. *Hastings center Report, 17,* 20-24.
- Baez, B. (2002). Confidentiality in qualitative research: Reflections on secrets, power and agency. *Qualitative Research, 2*(1), 35-58.
- Beecher, H. K. (1966). Ethics and clinical research. *New England Journal of Medicine,* 1354-1360.
- Bell, L., & Nutt, L. (2002). Divided loyalties, divided expectations: Research ethics, professional and occupational responsibilities. In M. Mauthner, M. Birch, J. Jessop, & T. Miller (Eds.), *Ethics in qualitative research* (pp. 70-90). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Beyrer, C., & Kass, N.E. (2002). Human rights, politics and reviews of research ethics. *Lancet, 359* (9328), 246-251.
- Cassileth, B.R., Zupkis, R. V., Sutton-Smith, K., & March, V. (1980). Informed consent- Why are its goals imperfectly realized? *New England Journal of Medicine*, 302, *890-900.*
- Department of Health and Human Services (DHHS). (1989). Code of Federal Regulations (45 CFR 46) Protection of Human Subjects. Washington, DC: National Institutes of Health. Office for the Protection from Research Risks.
- Duncombe, J., & Jessop, J. (2002). 'Doing rapport' and the ethics of 'faking friendship, In M. Mauthner, M. Birch, J. Jessop, & T. Miller (Eds.), *Ethics in qualitative research.* (pp. 106-122). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Faden, R. R., & Beauchamp, T. L. (1986). *A history and theory of informed consent.* New York: Oxford University Press.
- Fluehr-Lobban, C. (1998). Ethics. In H. R. Bernard (Ed.), *Handbook of methods in cultural anthropology,* (pp. 173-201). London: Alta Mira Press.
- Gamble, V.N. (1997). Under the shadow of Tuskegee: African Americans and health care. *Am J of Public Health. 87* (11), 1773-1778.
- Gans, H. (1982). The participant observer as a human being: Observations on the personal aspects of fieldwork. In R. G. Burgess (Ed.) *Field research: A sourcebook and field manual* (pp. 53-61). London: Allen & Unwin.
- Gene therapy's risks hidden. (2000, February 3). *Chicago sun Times,* p. 23.
- Coffman, E. (1961). *Asylums. Essays on the social situation of mental patients and other inmates.* Garden City, NY: Doubleday Anchor.

- Haggerty, K.D. (2004, Winter). Ethics Creep: Governing social science research in the name of ethics. *Qualitative Sociology, 27(4), 391-414.*
- Heintzelman, C. (1996). Human subjects and informed consent: The legacy of the Tuskegee Syphilis Study. *Scholars: Research, Teaching and Public Service, Fall,* 23-29.
- Hertz, R., & Imber, J. (1995). *Studying elites using qualitative methods.* Thousand Oaks. CA: Sage.
- Homan, R. (1992). The ethics of open methods. *The British Journal of Sociology, 43(3),* 321-332.
- Huber, J., & Clandinin, D. (2002). Ethical dilemmas in relational narrative inquiry with children. *Qualitative Inquiry, 8*(6), 785-803.
- Hotz, R. L. (2003, January 22). Medical tests are skewed, study finds. *Los Angeles Times,* p.14.
- Johnson, J.M., & Altheide, D.L. (2002). Reflections on professional ethics. In W.C. Van Den Hoonaard (Ed.), *Walking the tightrope: Ethical issues for qualitative researchers* (pp. 59-69). Toronto: University of Toronto Press.
- Jones, J. H. (1993).*Bad blood: The Tuskegee syphilis experiment.* New York: Free Press.
- King, N. M. P., Henderson, G.E., & Stein, J. (1999). Regulations and relationships: Toward a new synthesis. In N. M. P King, G. E. Henderson, & J. Stein (Eds.), *Beyond regulations: Ethics in human subjects research* (pp. 213-224). Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.
- Korn, J. H. (1997). *Illusions of reality: A history of deception in social psychology.* New York: SUNY.
- Lynoe, N., Sandlund, M., Dahlqvist, G., & Jacobsson L. (1991). Informaed consent: Study of quality information given to participants in a clinical trial. *British Journal of Medicine, 303,* 610-613.
- Marx, G. T. (1988). *Undercover: Police surveillance in America.* Berkeley: University of California Press.
- Milgram, S. (1963). Behavioral study of obedience. *Journal of Abnormal and Social Psychology,* 67, 371-378.
- Oakley, A. (1981). Interviewing women: A contradiction in terms. In H. Roberts (Ed.), *Doing Feminist research* (pp. 30-61). London: Routledge and Kegan Paul.
- Odendahl, T., & Shaw, A. (2002). Interviewing elites. In J. Gubrium and J. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context and methodology* (pp. 299-316). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Patton, M. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Rubin, H., & Rubin, I. (1995). *Qualitative interviewing: The art of hearing data.* Thousand Oaks, CA.: Sage.
- Stacey, J. (1991). Can there be a feminist ethnography? In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111-119). New York: Routledge.
- Williams, T. (1996). Exploring the cocaine culture. In C.D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 27-32). Westport, CT: Praeger.

القسم الثانى

طرق جمع البيانات

الفصل الرابع
المقابلة المتعمقة

المقابلة المتعمقة، والتي تُسَمَّى كذلك المقابلة المُكثفة، هي إحدى طرق البحث الشائعة الاستعمال بين الباحثين الكيفيين في جمع البيانات. وتتخذ المقابلة المتعمقة الأفراد كمنطلق للعملية البحثية، كما تفترض أن لَدَى الأفراد معرفةً متفردةً ومهمة بالعالم الاجتماعي يمكن التحققُ منها من خلال التواصل الشفاهيِّ، أي التحاور مع المبحوثين. وتُعَدُّ المقابلات المتعمقة نوعاً خاصاً من الحوار بين **الباحث** والفرد الذي يُجري معه المقابلة يتطلب وجود **التساؤل الفعال والإنصات الفعال**. وتُعتَبَر هذه العملية بمثابة جهدٍ لخلق المعنى يتم بذله بالمشاركة بين الباحث (القائم بإجراء المقابلة) والمبحوث (الطرف الذي تجرى معه المقابلة). وتكون درجة التقسيم والتدرج الهرمي بين هذين الشريكين المتعاونين منخفضة عادة، وذلك لأن الباحث والمبحوث موجودان على نفس المستوى، رغم وجود بعض الفروق والاختلافات بينهما.

وبالإمكان استخدام المقابلات الكيفية للحصول على البيانات الاستكشافية، والوصفية، والمُفَسِّرَةَ التي قد تستخدم – أو لا تستخدم– في توليد النظرية. وبالمثل، فإنه بالإمكان استخدام هذه المقابلات بوصفها طريقة بحث مُنفردة، أو استعمالها بالاشتراك مع طائفة أُخرَى من طُرُق البحث كالمُسُوحِ الاجتماعية، أو جماعات المناقشة المركزة، أو البحث الإثنوجرافي. وقد جرت عادة الإثنوجرافيين – كما سنرى في الفصل السابع من هذا الكتاب – أن يقوموا بإجراء المقابلات أثناء وجودهم في الميدان. وتوجد رابطةٌ طبيعيةٌ بين هذين الشكلين من أشكال البحث (وهما المقابلة والبحث الإثنوجرافي)، كما أنه يمكن الإفادة من الاتجاهات التي تستعمل طُرُقَ بحث متعددة، فهي ذات قيمة باقية مُعْتَرَفٌ بها. وتُعَدُّ المقابلات المتعمقة –بصورةً عامة– أقلَّ استهلاكاً للوقت من البحث الميداني، وتتصف بهذه الصفة كذلك عندما يكون الموضوع قيد الدراسة غير مُرْتبط بجماعة أو بمجتمع معين (Warren, 2002, p.85)، ويكون بالإمكان التعرف عليه بصورة مؤكدة عن طريق الأفراد

الموجودين في مَوقع معد سلفا (في مقابل الموقع الطبيعي للفرد)، فالمقابلات المتعمقة قد تكون طريقة جذابة ومناسبة.

وقد جرت العادة أن يسعى الباحثون الذين يُجْرُون المقابلات المُتَعمِّقة للتعرف على الأنماط التي تظهر من واقع "الوصف المكثَّف" للحياة الاجتماعية والتي ترد على ألسنة المبحوثين. وبهذا المَعْنَى تكون المقابلات الكيفية مُصَمَّمَة للوصول إلى المعلومات أو المعرِفة "الخبيئة في الصدور" (Johnson, 2002, p. 104). وفي هذا الصدد تُوَفر المقابلات المُتعَمِّقة كما كبيرا من البيانات في صورة سجلات المقابلة (المدونة)، والتي تُخْتَزَلُ فيما بعد من خلال العملية التحليلية والتأويلية. وعلى ذلك، فإن المقابلات الكيفية تختلف عن المقابلات الكمية، والتي تتكون من أسئلة مقننة وموحدة (والتي تكون ذات نهاية مغلقة غالباً، بمعنىَ أنها ذات اختيارات مُحَدَّدةً للإجابات الممكنة) وذلك بهدف الحصول على بيانات قياسية موحدة.

ولكن متى يكون من المناسب استخدام المقابلات المتعمقة؟ إن المقابلات المتعمقة تدور دائما حول قضية أو موضوع معين. معنى ذلك بعبارة أخرى أن هذه الطريقة تفيد حينما يكون لدى الباحث موضوعٌ مُعين يريد أن يُركزَ عليهِ ويحصل على المعلومات المتصلة بهِ من أولئك الأفراد. وكما سنرى في الفصل التالي من هذا الكتاب، فإنَّ هذه الطريقة تختلف عن المقابلات التي تستخدم في دراسة التاريخ الشفاهي، والتي قد يتمُّ فيها استيعاب القصة الكاملة لحياة المبحوث على امتداد الجلسات التي تجرىَ فيها هذه المقابلات. بينما من المعهود أن تُجرَى المقابلات المُتَعَمقةَ في جلسة واحدة واحدة مع فرد بعينه تتم مقابلته (وإن كان من الممكن عقد أكثر من جلسة واحدة)، وأن تدورَ المقابلة حولَ موضوعٍ مُحددٍ يهم الباحث. مثال ذلك، قد يجدُ الباحث المهتم بموضوع كيف يوازن العائلُ الوحيد -سواء كان الأم أو الأب- بين العائلة والعمل، أو بموضوع كيف تشعرُ الفتيات الصغيرات بالمسائل الخاصة بصورة الجَسَد؛ قد يجدُ هذا الباحث أن المقابلات المتعمقة في غاية الجاذبية. ذلك أن هَدف المقابلات المُتعمقةَ هو الحصول على بيانات كيفية وفيرة، وذلك انطلاقاً من وجهة نظر أفرادٍ مُختارين، وبالتركيز على موضوع معين.

مثال ذلك، أننا في بَحثنا عن صورة الجسد لدى مجموعات مختلفة من الأفراد أصبحنا مهتمين بموضوع كيف يشعر الأفراد المثليون من الذكور، والسحاقيات من الإناث، ومُزدوجو الجنس (الذين يضاجعون كلا الجنسين) بصورة الجسد. فمع أن استعراضنا للتراث العلمي المنشور كشف عن وجود بعض البيانات التي تشير إلى مجموعة مختلفة من قضايا صورة الجسد تتباين تبعا للميول الجنسية، إلا أن البيانات التي حوتها تلك المؤلفات كانت ضئيلة كما أنها قليلة القيمة فيما يتصل بتفسير هذه الفروق بأسلوب دقيق. وقد تضمنت بعضُ الأسئلة التي كنا في حاجة لتوجيهها: ما هو شعور النساء السحاقيات نحو أجسادهن؟ وما هي المقاييس التي يُحكمُ عليهنَّ بها في مجتمع المثليين من الذكور وفي مجتمع ممارسي الجنس السوي؟ كيف يشعر المبحوثون بهذه المقاييس، وكيف تجعلُهم هذه المقاييس يشعرون بأنفسهم؟ وكيف يَرونْ الجاذبية؟ وما هي المشكلات المتعلقة بتقدير الذات التي يشعرون بها، ولماذا؟ وما هي الفروق – إنْ وُجدت – التي يرونها في نموذج الجسد بين المثليين وممارسي الجنس السوي؟ وكيف أثَّر دعم – أو نقص دعم – الجماعة الأولية لتوجهم الجنسي، على صورة الجَسَد عندهم؟ وهذه القضايا مُجَرَّد عينة من القضايا التي بالإمكان استكشافها باستخدام طريقة المقابلة المتعمقة. وبإمكان هذا النوع من الدراسة أن يزودنا بكل من البيانات الوصفية والبيانات المفسرة، كما أنه مناسبٌ في البحث الاستكشافي عندما تكون المعلومات المتاحة عن ميدان معين قليلة. فهيا بنا نُلْقِي نظرة على أحد النصوص المستخلَصة من سِجلِ لمقُابلة أُجْرِيَتْ مع مبحوثة سحاقية شابة عانت من النَّهم القهري (المرضي)، ونرى نوع المعلومات التي تُستَخرَج من خلال هذه الطريقة (ملاحظة: يرمز الحرفان لعبارة: Over-Eaters Anonymous OA، أي: النهِمُون مجهولو الاسم):

الباحثة (القائمة بالمقابلة): هل تَرَين، بصفة عامة، أن النساء اللائي يمارسن الجنس السوي – بالمقارنة مع النساء السحاقيات- يعانين قدراً أكثر أو أقل من "المشكلات" المتصلة بأجسادِهن؟

المبحوثة: في تصوري أن النساء اللائي يمارسن الجنس السوي يعانين قدراً أكبر من هذه المشكلات، إلا أنه توجد حالات استثنائية بالتأكيد. فأنا لي صديقة تستحوذُ عليها الهواجس الخاصة بهذا الموضوع. وقد كُنتُ قابلتها في "اجتماع" للأفراد المصابين بالنهم المرضي مجهولي الأسماء وكانت ما تزال تتمتع بجسد رشيق منتصب القامة. وأعرف عدداً قليلا من السحاقيات، وقد يكون في هذه العبارة شيء من المبالغة، إلا أنهنَ كُنَّ يشعرن بقدر كبير من المشكلات المتعلقة بصورة الجسد عندهن، والتي يفاقم منها بدانة الفرد.

الباحثة: وكيف كان هذا الانتقاد يظهرُ في الاجتماعات، وذلك بقدر ما...؟

المبحوثة: إنه لا يظهر في الاجتماعات، فالناس لا يرغبون في ذلك، ولكن بعضهم يتحدث عن الموضوع، والذي يطلقون عليه "وقار البدناء". فالأفراد الذي يعدونهم بدناء يصفونهم بأنهم ليسوا مصابين بالنهم (المرضي) في تناول الطعام، وهم يظنون أنهم يخففون من ضخامة أشكالهم، فيسمون حالتهم "وقار البدناء"، وأنا أكره هذا التعبير عندما يقولونه.

الباحثة: م م م م (تصدر أصواتا كالغمغمة، لمجرد الاستجابة دون التدخل – المترجم).

المبحوثة: ومع ذلك، فإن الناس لا ينتقدون الآخرين في الاجتماعات، فَهُم لا يمكن أن يفعلوا ذلك أبداً. فمثل هذه الأمور يقولها الناس خارج الاجتماعات. ولكن بصورة عامّة، أودُّ أن أعبر هنا عن وجهة نظر مجتمع السحاقيات، وهي عبارة تنطوي –في رأيي – على قدر هائل من التعميم أيضاً.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: أنا أقَلُّ تركيزاً على أن يكون جسدي مناسبا في شكله أو حجمه.

الباحثة: م م م م (همهمات)

المبحوثة: هذا ما أشعر به. فإنك إذا ذهبت إلى حفلة خاصة بالسحاقيات، فسوف ترين عدداً كبيرا من النساء اللاتي لهن أجساد ذات أحجام مختلفة، فمنهن ذوات الحجم الكبير، وذوات الحجم الصغير، والباقي يتراوحن بين هذين الحجمين.

الباحثة: هذا صحيح.

المبحوثة: أظن أنك تودين – ولو أن هذا ليس صحيحاً – أن تـزداد أجساد الناس ضخامة باضطراد عموما. نعم، وأنا بالتأكيد أتصور أن هذا صحيح، إلا أن من المؤكد أن هناك حالات استثنائية.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: حسناً، فأنا متأكدة من أنني شبيهة إلى حد بعيدٍ في مَشاعري بكل ما تشعُرينه تجاه نفسك، وذلك قبل أن تكتشفي شخصيتك التي من المحتمل أنها لا تزال تؤثر في الناس.

الباحثة: نعم، ففي الأغنية التي عنوانها "**هل أصبحت نحيفةً بما فيه الكفايـة؟** كانت الطالبات الجامعيات ممن يمارسن الجنس العادي مـشغولاتٍ بهـاجسٍ استحوذَ عليهن وهو أن يكنَّ نحيفات، بل نحيفاتٍ جداً، بَلْ أنحفَ ممَا يستطعن الوصول إليه أساساً.

المبحوثة: أعرفُ عدداً قليلاً من الـسحاقيات بهـذا الـشكل. إلا أن معظـم السحاقيات لسنَ كذلك. فهن لا يُباليِن أبداً بهذا الموضوع برمته. وأنـا أقـصد بذلك ما يَشعُرْنَ بهِ في أعماقِ قلوبهنَّ إزاء هذا الموضـوع، ولكنـي لا أدري على وجه اليقين، وإنما أقصد أن أعبر عن شعُورهن من واقع ما يجري بيننـا من حوار وتفاعلات فقط.

الباحثة: نعم

المبحوثة: وأنا أرى أن جزءًا من ذلك يرجع إلى أنكم لا تؤمنون بقدرٍ كبيـر من هذه الأمور الثقافية.

الباحثة: م م م م (همهمة).

المبحوثـة: كما أن كثيراً من النحيفات يتصوَّرن أنهن لابد أن يحرصن علـى النحافة حتى يستطعن الظفر بأحد الشبَّان.

الباحثة: م م م م (همهمة).

المبحوثة: أعني أنني أرى أن كثيرا منهن يَتَصَوَّرنَ ذلـك، فلكـي يَـشْعُرن بالرضا عن أنفسهن لابُدَّ أن يكُنَّ نحيفات، ولكني أتصور أن كثيراً منهن يَرَيْنَ

أن الرسالة المُوجَّهةَ من المجتمع إلى النساء هي: أن النحافة هي سبيل حصول الواحدة منهن على فتىً ترافقه.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: وأعتقد أن الصورة ليست كذلك في مجتمع السحاقيات، إذ أن الرسالة ليست بهذه القوة. فآلاف النساء البدينات لديهن رفيقات.

الباحثة: م م م (همهمة).

المبحوثة: وبهذا الشكل فإن هذا الأمر ليس بالمشكلة الضخمة، هذا ما أتصوره.

الباحثة: م م م (همهمة) هل تُشْبِهنَ يا معشر السحاقيات مجتمع المثليين من الذكور، وهل تشاركين أنت في تجمع كهذا أم أنكن تشبهن -بدرجة أكبر- الأصدقاء المتناثرين، أم أَنكُنَّ تُشَكِّلنَ مجموعة من الصديقات؟

المبحوثة: لا، لم أعد بعد مشتركة في مجموعة من الصديقات. فأنا الآن لي بعض الأصدقاء من المثليين، ومعظم أصدقائي الآن من المصابات بالنهم(المرضي) مجهولي الأسماء، ومنهن سحاقيات، ومنهن من يمارسن الجنس الطبيعي. ولي بعضُ الأصدقاء من المثليين، ولي صديقتان هما جلاديس وأنيتا، وترجع صداقتنا إلى حوالي ٢٥ سنة.

الباحثة: م م م (همهمة).

المبحوثة: إنهما زوجان سعداء، حقاً إنهما غير متزوجتين زواجاً قانونياً، ولكنهما زوجان سعداء. وأنا عندما كنتُ في العشرينيات مِن عمري كنتُ أتسكَّع مع هذه المجموعة من السحاقيات، ولكن عندما توقفتُ عن شرب الخمر تباعدت نوعاً ما عن تلك المجموعة. ولكنني الآن أراهنَ نادراً.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: وأنا أذهب أحيانا إلى حفلات أعياد الميلاد أو ما أشبهَ ذلك. ولكنني في الواقع ليس لي الآن جماعة من المثليين الذين أتسكَّعُ معهن في أغلب الأحوال.

بالبحث في هذه القطعة من هذا السجل المدون للمقابلة يمكننا ملاحظة بعض النقاط:

أولاً: تُعَدُّ المقابلات المتعمقة وسيلةً للحصول على المعلومات وعلى الفهم الصحيح لها من الأفراد، وذلك فيما يتصل **بموضوع مُحدد**. وفي حالتنا هذه، كُنا مهتمين بفهم مشاكل صورة الجسد عند امرأة من السحاقيات، ومهتمين كذلك بفهم نظرتها لمشاكل صورة الجسد عند كُل من مجتمعات المثليين ومجتمعات ممارسى الجنس العادي.

ثانياً: تمثل المقابلات المتعمقة نوعية خاصة متميزة من التفاعل، ونوعية خاصة من الحوار. فالحوار "العادي" يتضمن قدراً أكبر من الأخذ والرد بين الطرفين المتحاورين، حيث يطرح كل منهما أفكاره على الآخر. أمَّا المقابلة المتعمقة فهي نوع مختلف من الحوار. إذ يبدأ الباحث الذي يُجري المقابلة بطرح سؤال ثم يقوم بعدها بدور المُنصت الفعَّال. وكما تستطيع أن ترى في المثال الذي أوردناه، فإن الباحثة قالت كلمات قليلة جداً في الواقع، إلا أنها أظهرت اندماجها في الحوار من خلال إيماءاتها وهمهماتها وأسئلتها التي تسبُر أغوارَ المبحوثة. وقامت المبحوثة بالحديث معظم الوقت، وذلك على الرغم من أن الباحثة حاضرةٌ حُضُوراً بالغاً في هذا الحوار وفي السجل الذي تضمن هذا الكلام.

وأخيراً، فإن المبحوثة تتكلم على مُستويين: الأول انطلاقاً من خبرتها والثاني انطلاقاً من إحساساتها. فهي تتكلم عن خبرتها الشخصية فيما يتصل بمُشكلات الصراع مع الوزن الزائد والمشكلات المتعلقة بصورة الجسد، كما أنها تتكلم عن إحساسها بالضغوط الاجتماعية على النساء المثليات والنساء اللائي يمارسن الجنس العادي بناءً على خبرتها في هذه الثقافة.

كما أن المقابلات المتعمقة تعيننا إلى حدٍ بعيد على الاقتراب من الأصوات المقهورة، ومن ثم الوصول إلى المعرفة المقهورة. فهؤلاء الذين تم تهميشهم في المجتمع، كالنساء، والملونين، والمثليين، والفقراء، قد يكونُ لديهم خبرات محجوبة ومعرفةٌ جرى قمعها واستبعادها عن إدراكنا للحقيقة الاجتماعية. والقيام بإجراء المقابلات هو أحد طُرُق الاقتراب من بعض هذه المعلومات. وتشرح شولاميت راينهارز Shulamit Rainharz(١٩٩٢) كيف

أن إجراء المقابلات كان من الطرق التي اتبعَهَا الباحثون النسويون للوصول إلى ما لَدىَ النساء من معرفةٍ جرى إخفاؤها أو قمعها:

... يُوَفِّرُ إجراء المقابلات للباحثين سبيل الوصول إلى أفكار الناس، ومشاغلِهم، وذكرياتهم محكيةً بألفاظهم هُمْ وليس بألفاظ الباحث.

وتُعَدُّ هذه الميزة التى تتميز بها طريقة المقابلة ذات أهمية خاصة لدراسة النساء، لأنه بهذه الطريقة يكون التعلم من النساء بمثابةِ علاج لقرون من تجاهُلِ أفكار النساء تجاهلاً تاماً، أو من حديثِ الرجالِ نيابةً عن النساء. (ص١٩).

ويَنطبق هذا الكلام نفسه على إجراء المقابلات مع الملونين، والمثليين، الذين طال زمانُ نبذهم بعيداً عن العملية البحثية. وقد كان الوصول إلى الخبرات التي تم حجبها لدى النساء السحاقيات والتعرف على علاقتهن بأجسادهن أحد دوافع الدراسة التي استخرجنا من سجلها النص المذكور قبل ذلك.

والآن، وأنت تبدأ إدراك ما هي المقابلة المتعمقة، ومتى تكون طريقة مناسبة لمعالجة موضوع بحثِك وأسئلتهِ، هيا بنا نبحث تصميم البحث.

تصميم دراسة مقابلة متعمقة

إن مُعْظم ما ناقشناه فيِ الفصل الثاني من أساليب تصميم البحث ينطبق على تصميم دراسة المقابلة المتعمّقة، كما سيتضح فيما يلي:

١- يحتاج الباحث لأن **يختار موضوعاً للبحث** ويصوغَ هدفاً لبحثه (ويبلور أساساً، في هذه المرحلة أو فيما بعد أثناء الجمع الأوّلي للبيانات سؤالاً لبحثه).

٢- وفي الخطوةِ التالية: يتوجب **اختيار الأفراد** الذين ستجري معهم المقابلات، والذين قد يُطلَقُ عليهم أحياناً مصطلح "الإخباريين" أو "المبحوثين".

٣-**اختيار العينات** فمن الممكن أن يجري بأي من الطرق التي ناقشناها في الفصل الثاني من كتابنا هذا، كطريقة اختيار العينة الاحتمالية أو طريقة العينة النظرية أو طريقة عينة "كرة الثلج" (والتي تُعْرَفُ كذلك بعينة الملاءمة).

٤- وينبغي أن يكون لدى الأفراد الذين يختارون لإجراء المقابلة معهم نوعُ المعرفة أو المعلومات التي يرغب الباحث في الوقوف على طبيعتها.

٥- وفي بعض الأحيان يَدْفَعُ الباحثون لمن تجـري مقـابلتهم مبلغـاً صغيراً من المال أو يعطوهم هدية (كشهادة تقدير) تعبيرا عن شكرهم لهم على مشاركتهم، وإن كان هذا التصرف ليس ضروريا في العادة.

٦- وتَجري أفضل المقابلات مع المبحوثين الـذين يـودون إطـلاع الآخرين على ما لديهم من حكايات ومعارف، بحيث تصبح عملية المقابلـة - من الناحية المثالية- خبرة مشبعة بذاتها لهؤلاء المشاركين وتفي بالغرض الذي يودونه.

وبمجرَّد أن يقع الاختيار على المبحوث ويتقرر أنـه سيـشترك فـي مقابلة، فإنه يتعينُ ترتيب زمان ومكان إجرائها. وغالباً ما تُجـرَى المقـابلات المتعمقة في مكتب الباحث أو في بيتِ المبحوث، وإن كان يمكـن اختيـار أي مكانٍ يتوفر فيه عنصرِ الخصوصية، إذ سيكون مُناسباً طالما أشعر الطـرفين بالراحة. وعادةً ما تَستَغرق هذه المقابلات الشخصية المُكَثَّفَة من سـاعة إلـى ساعتين، وإن كان من المحتمل أن يستغرق بعضها مُدَّةً أقلَّ. كما بمكن إجراء المقابلات عن طريق التليفون أو بالبريد الإلكتروني. والمقـابلات التليفونيـة مختلفة، لأنها لا تتمُّ وجهاً لوجهٍ، ومن ثم فإن الإيمـاءات، وتلاقـي العيـون، وغيرها من وسائل إبداء الاهتمام وتحقيق الألفة بين الباحث والمبحوث تكـون غائبة وغير ممكنةً. يضاف إلى هذه المسائل، أن المقابلات التي تتم عن طريق البريد الإلكتروني تُعتبر نوعاً من الحوار مختلفاً تماماً، فهي نـوع يـتم فيـه التواصل في بطءٍ بالمقارنة بالتدفق الذي يحدث في المقـابلات الشخـصية أو التليفونية. وبالمثل، فإن الناس يكتبون بمُعدل أبطـأ وبـصورةٍ مختلفـة عـن أسلوبهم في الكلام، لذلك تكون ردودهم (المكتوبة في البريد الإلكتروني) أميل لإعمال العقل والتروي فيها، ولأن تكون أقلَّ تلقائية، وأكثر اقتـضابا. ونحـن نوصي بألا تُستَعملُ هذه الطرق إلا عندما يتعذر إجراء المقابلـة الشخـصية المباشرة بسبب نقص الوقت، أو المال، أو الاعتبـارات العمليـة الأخـرى. وسنحاول في هذا الفصل التركيز على طريقـة إجـراء المقابلـة الشخـصية

المباشرة (التي تتم من خلال المواجهة واللقاء المباشر) وإن كنا نريد أن نضعَ هذه الاختيارات الأخرى في نطاق اهتمامك أيضاً.

وينبغي شرح مسألة الموافقة عن علم قبل إجراء المقابلة، كما ينبغي تنفيذها رسمياً سواءً أتَمَّ ذلك قبل المقابلة أم عند إجرائها. وعلى الرغم من أن مسألة الموافقة عن علم والمشاركة الطوعية قد نوقشت في موضع سابق من هذا الكتاب، فإن من المهم إعادة تكرار هذه المسألة قبل البدء بالمقابلة. إذ ينبغي إعطاء المبحوثين كل فرصة ليطرحوا ما يعن لهم من أسئلة. لأن من شأن هذا أن يصلُ بنا إلى الجوانب المتميزة للمقابلات المتعمقة. وبالنسبة للباحثين المبتدئين، يجب أن نتذكر أن هناك أنواعا مختلفة من المقابلات المتعمقة التي تتفاوت من حيث البنية (أي من حيث شكل المقابلة وتصميمها).

وعلى أساس السؤال الذى يطرحُهُ بحثُك وعلى ما يتوافق معه من أهداف، تستطيع أن تضع خطةً لدراسة قائمة على المقابلات المقننة أو المقابلات شبه المقننة أو المقابلات المفتوحة. **وتعنى المقابلة المقننة أنك** ستوجه إلى كل مشاركٍ على حدة نفس مجموعة الأسئلة. فإذا شرد المبحوث فبالغ في البُعد عن الموضوع المطروح للنقاش، أو قال بعض الأمور المثيرة للاهتمام، ولكنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بهذه الدراسة، فإن على الباحث -الذي يُجري المقابلة - أن يقود الحوار فيعودُ به إلى الحديث عن أسئلة المقابلة. وقد يعمد الباحثون الذين يعملون انطلاقاً من منظورات فكرية تنتمي لما بعد الوضعية، إلى استخدام هذا الأسلوب المقنن في إجراء مقابلاتهم. وعندما تُستَعْمَلُ المقابلات المُتعمقة لتأكيد أو تعزيز البيانات التي جُمِعَتْ بطرقٍ أخرى - كالمُسُوح الاجتماعية مثلاً - فقد تكون المقابلات المقننة مناسبة أيضاً. ذلك أن المقابلة المقننة تسمح بالقيام بدرجةٍ أكبر من المقارنة بين أنواع المقابلات، وذلك لأن ما توفره من بيانات يكون على درجة أعلى من التوحيد والمعيارية. فالباحث الذي يُجْري المقابلة المقننة يتصرف - إلى حدٍ ما- على نفس النحو أثناء سائر المقابلات ويطرح نفس الأسئلة. وبهذا يمكن عقد المقارنة بين المبحوثين. كما أنه من الأسهل القيام بالتعميم (وذلك إن كان

الباحث يطبق تَوقّعات علمية قياسية للعمومية) الذي يستخلص من البيانات التي تم الحصول عليها بطريقة موحدة إلى حد كبير.

وإلى جانب كل ما قلناه يرى أغلب الباحثين الكيفيين أن المقابلات المتعمقة تتيح الفرصة لكلمات المبحوث، ولخبرته ورؤيته، أن تستطع تماما خلال المقابلة. معنى ذلك -بعبارة أخرى- أن الباحثين الكيفيين يكونون على وجه العموم أميل إلى فرض درجة أقلّ من التقنين على ما يُجْرونه من مقابلات، ومن ثَمَّ فإنهم يُفضلون المقابلات شبه المقننة على المقابلات المفتوحة (أو ذات المستوى البسيط من التقنين). يُضاف إلى ذلك (وكما رأينا في فقرة خلف الكواليس مع دافيد كارب في الفصل الثاني من هذا الكتاب) أن الباحثين الكيفيين لديهم طرقاً مختلفةً عادةً في فهم أو تصور معنى العمومية، مما يُتيح لهم أن يستعملوا المقابلات الأقل تقنينا في نفس الوقت الذي يقومون فيه بقدر أكبر من الاستنتاجات ومن توليد النظرية الاجتماعية.

وتعتمد **المقابلات شبه المقننة** على مجموعة من الأسئلة، مع محاولة توجيه الحوار ليظلّ دائراً حَوْلَ هذه الأسئلة، ولكن بقدر كبير من المرونة والحرية. بجانب ذلك، تُتيح المقابلات شبه المقننة للأفراد المبحوثين أيضا قدراً من حرية التصرف وحرية الكلام عما يعتمل في صدورهم أو يمثل أهمية لديهم. وبتعبيرٍ آخر نقول، إنه بينما يحاول الباحث فعلاً أن يسأل كلَّ مبحوث على حدتهِ مجموعة معينة من الأسئلة، فإنه يتيح الفرصة أيضاً، لأن ينساب الحوار بصورة أكثر طبيعية، بما يسمح للحوار أن يذهب في اتجاهات جديدة وغير مُتَوَقَّعة. وغالبا ما يكون لدى المبحوثين من المعلومات أو المعرفة ما لم يكن قد طرأ على بال الباحث من قبل. وعندما تظهر مثل هذه المعرفة غير المتوقعة، فإن من المرَجّح أن يسمح الباحث الذي يستخدم تصميما شبه مقنن في المقابلة أن يسمح للحوار أن يتطور، محلقا بذلك في آفاق موضوعاتٍ جديدةٍ ذات صلةٍ وثيقة بالمبحوث.

وفي **المقابلات ذات المستوى البسيط من التقنين أو المقابلات المفتوحة** تماما، يُتَبّع هذا الإجراء المتحرر بصورة أكبر. فمع أنه يكون لدى الباحث موضوع مُعين لهذه الدراسة، إلا أنه يُتيح للحوار أن يذهب إلى حيث

يَرْغَب المبحوث، وبذلك تُصبح كلُّ مقابلةٍ على حِدةٍ مُتسمةً بدرجةٍ عاليةٍ من التفرد. ولا تَخْضعُ البيانات المستقاة من هذين النوعين من المقابلات للقياس (Reinharz, 1992, p. 18). ففي المقابلات ذات المستوى البسيط من التقنين يَطْرَحُ الباحث عدداً قليلاً من الأسئلة ذات الطابع العام، لكي يُتيح للمبحوث أن ينتقل بالنقاشِ في الاتجاهات التي يرغبُ فيها. وينسجم هذا المدخل إلى حد بعيد مع مُسلَّمات النموذج النظري الكَيْفي.

يقوم البحث الآخذ بطريقة المقابلة المفتوحة باستكشاف آراء الناس أو واقع حياتهم، وبذلك يُتيح للباحث أن يولد النظرية. وبهذه الطريقة يتمم مثل هذا البحث البحثَ القائم على المقابلة الكمية والمقابلة ذات النهاية المفتوحة، والذي يحاول اختبار الفروض (Reinharz, 1992, p.18).

وتُؤثِّرُ **درجة التقنين** المفروض أثناء المقابلة على **دَور الباحث** في موقف المقابلة. فكلما زادت درجة التقنين التي يَسْعَى لها الباحث، زاد تحكمه في موقف المقابلة.

بَعْدَ ذلك، فإن بإمكان الباحثين أن يتهيأوا للمقابلة عن طريق وَضْعهم **دليلا للمقابلة**. ودليل المقابلة عبارة عن مجموعة من المجالات والأسئلة المُتعلقة بموضوعاتٍ معينة، يطرحها الباحث في المقابلة. ويقترح وايس Weiss(١٩٩٤) البدء "بإطار موضوعي أساسي" ثم استعماله بَعْدَ ذلك في صياغة دليل المقابلة. ذلك أنه عند التفكير في وَضْع دليل للمقابلة يكون من المفيد التفكير في الموضوعات الأساسية أولا قَبْلَ وضع الأسئلة الخاصَّة بها. معنى ذلك بعبارة أخرى أن بالإمكان وَضْع أدلةٍ للمقابلة عن طريق البدء بمجالات البحث ذات الطابع العام والمجرَّد، والتي يتم انطلاقا منها تطوير الأسئلة وبلورتَها. فلَكي تبدأ، دَوِّن قائمة "بالموضوعات المطلوب معرفتها". (وايس، ١٩٩٤). ويُعَدُّ كلُّ موضوعٍ مذكور في هذه القائمة "**مساراً للبحث**" – أو قل **مجالاً للبحث** – تُريد أن تتعقبَهُ أثناء جَلسة المقابلة. وهكذا يكون بالإمكان وَضْعُ أسئلة المقابلة "للوصول إلى" المعلومات الداخلة في كل مجال من هذه المجالات. فدليل المقابلة يُعَدُّ –أساساً– بمثابة قائمة بالموضوعات تتضمن –أولا تتضمن– أسئلة خاصة مكتوبة تحت كل موضوع تنتمي إلى "مجالات البحث" التي استقر عليها الباحث أثناء وَضْع المُسَوَّدة الأولية لهذا

الدليل (Weiss, 1994, p.48). وتُعَدُّ عملية إعداد دليل للمقابلة، حتى لو لم يُستعمل، إجراء تمهيدياً أو تحضيرياً مهمًا للمقابلة (وايس ١٩٩٤)، لأنه يساعد الباحث على تحديد وبلورة القضايا الأساسية وعلى التفكير في أنواع الأمور أو الأحوال التي قد يرغب في أن يسأل عنها المبحوثين. وتُعَدُّ المقابلات الاستطلاعية بمثابة فُرصة للباحثين ليختبروا، بصورة تفصيلية، فاعلية دليلهم البحثي (وايس، ١٩٩٤):

- هل الدليل واضح ومفهوم؟
- هل يشمل الدليل كل مجالات الموضوعات التي تهتمُّ بها؟
- هل ينقص الدليل أى من مجالات الموضوعات المطلوب بحثها أو الأسئلة العامَّة المتعلقة بها؟

وبناءً على خبراتك السابقة في إعداد دليلٍ للمقابلة، يُمْكِنُكَ حينئذ تكييف هذا الدليل ليناسب احتياجاتك بصورةٍ أفضل.

يتحدث دافيد كارب عن إعداد أدلَّة المُقابلة، بوصفها عملية تحليلية، في الفقرة التالية "من خلف الكواليس":

خلف الكواليس مع دافيد كارب

البحث عن الموضوعات الرئيسية، هو البحث عما أظنه "مجالات البحث". وطبيعي أن تلك الموضوعات أو الأفكار الأساسية لا تأتي من فراغ، على أساس أنه سبق لي أن قُمتُ بقدرٍ كبيرٍ من الإعداد قبل ذلك. وهذا الإعداد الكثيف يعد أمَراً في غاية الأهمية فعلاً، وذلك لأنه كثيراً جداً ما يحدثُ عندما يقوم الناس بإجراء المقابلات المتعمقة أن يتصوروا أن إعداد دليل المقابلة على هذا النحو يعنى: "حسناً، لقد فرغت من هذه المهمة وأزحتها بعيداً عن طريقي". أما أنا فأرى مُهمَّة اكتشاف مجالات البحث هذه بوصفها خطوة تحليلية مهمة بشكل لا يُصدق في عملية تنفيذ هذا العمل. وإذا تكلَّمنا عن العملية في مجملها، فبوصولك إلى مرحلة الكتابة، (وهي في حالتي مرحلة كتابة الكتب أو المقالات) ستكون العملية بمثابة دائرةٍ كاملة، لأن مقدار الوقت والطاقة الذي بَذَلْتُهُ في تجميع فقرات هذا الدليل معاً يَجْعَلُني في الواقع مُقَدماً العناصر المحورية التي سأكتب عنها في نهاية الأمر. ومع ذلك فإن هذا الشيء ليس في نهاية الأمر سوى مجرد دليل، وربُما يَحْدُثُ في أيِّ مقابلة

أُجريها أن يكونِ ٦٠% من الأسئلة التي أطرحها غير واردة في ذلك الدليل. فأنتَ تجلس، وتَجري حواراً معِ شخص ما، وإنَّ البراعة في إجرائك المقابلة المتعمقة لتتمثل في معرفتك متَى تتتبع بمزيد من الأسئلة والنقاش ما يقوله هذا الشخص (المبحوثِ) في لحظة معينة. وعندما تقترب المقابلة من نهايتها، فإنني أكون بحاجةِ للتأكد من أن كل المجالات التي أحتاج لتغطيتها قد غُطيت فعلا. إلا أنك ستَخسرُ الصفقة كلُّها إذا كانت الأسئلة التي طرحتها مقصورة على الأسئلة الموجودة في دليل المقابلة فقط.

من الأهمية ألا تكون أدلَّةُ المقابلة في غاية الطُّول أو في غايةِ التفصيل. إذ المقصود منها أن تكون أدواتِ مُساعدةً للباحث، إلا أنه لا ينبغي للمقابلة النموذجية أن تعتمد بشكل بالغٍ عليها، ذلك أن التركيز المُفرِطَ على دليل المقابلة في حدِ ذاته قد يصرف انتباه الباحث عن الاهتمام الكامل بالمبحوث. فالمقصودُ من دليل المقابلة إلقاء نظرة سريعة عليه عند الحاجة إلى ذلك، كما أنه ينبغي – من الناحية النموذجية– أن يَظَلَّ غيرَ مُستعمل، أو يُستعمل كمحفز للباحث (وايس، ١٩٩٤، ص٤٨). وبالإمكان كذلك أن يقوم هذا الدليل بدورِ "قائمة المراجعة" بالنسبة للباحث عند نهايةِ المقابلة، أي أن يكون طريقة للتأكد من أنَّ كل الموضوعات قَيدَ الدراسة والفحص قد تم التطرق إليها، حتَّى وإنْ لمْ يجرِ هذا التناول وَفقاً للتسلسل الذي يتضمنه دليل المُقابَلةَ. (وايس، ١٩٩٤، ص٤٨).

إن دليل المقابلة شيء أساسيٌ لإجراء مقابلة ناجحة، كما أن تحضير دليل المقابلة يُعتبر نافعاً بالذات للمبتدئين من الباحثين القائمين بإجراء المقابلات. فبمُجرَّد اختيار العينات ووضعِ القرارات الخاصة بتقنين المقابلة وإنشاء دليلٍ لها، يُمكِنُ البدء بجمع البيانات. وثَمَّةَ عدد كبيرِ من النصائح التي يمكن تقديمها لتحقيق المقابلات الناجحة؛ ومع ذلك، فإننا نَحُثُّك على تعلم هذه الخبرات بنفسك عن طريق الممارسة. ذلك أن القيام بإجراء المقابلة المتعمقة يُعَدُّ مَهارةً وبراعة، وهو – بهذه الصفة – يُتيح للمرء أن يَتَحسَّن أداؤه مع التجربة.

المقابلة: إجراء المقابلات المتعمقة

تُعَدُّ المقابلات المتعمقة نوعاً من **الشراكة في خَلْقِ المعنى** بين الباحثين القائمين بإجراء المقابلة والمبحوثين الذين تجري معهم المقابلات. وتُتيح هذه الجلسات فُرصةً للباحثين للتعرف على الحياة الاجتماعية من خلال رُؤى، وخبرة، ولُغة من يَعيشونها. كما تُتَاحُ للمبحوثين فُرْصَةً ليشاركوا بتقديم حكاياتهم، ونقْلِ مَعْرفتهم، وطرحِ رُؤاهُم الشخصية حول طائفة من الموضوعات. لذلك تُعْتَبَرُ المُقابلاتُ الكَيفيةُ نوعاً خاصاً من **الحوار المُنْتِجِ للمعرفة** والذي يجري بين طرفين. وتُعَدُّ العلاقة القائمة بين الباحثِ الذي يُجرِي المقابلة والمبحوث الذي تجري مقابلته أمراً في غاية الأهمية لعملية خلق المعنى.

وكما سبقت الإشارة في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإنَّ الباحثين الكيفيين الذين يعملون انطلاقا من آراءٍ نظريةٍ وإبستيمولوجية تندرجُ تحت مظلة الفلسفة التأويلية يَهتَمُّونَ بموضوع "المشاركة في خلق المعنى". "معنى ذلك بعبارة أخرى أن الغالب على الباحثين الكيفيين أنهم يُحاولونِ اختصار أيِّ تدرُّجٍ في المكانة بين الباحث والمبحوث. فأثناء الموقف الذي تُجْرَىَ فيه المقابلة المتعمقة يكون لدى الباحثين القدرة على أن يضعوا أنفسهم في نفس مُستَوَى المبحوثين وأن يعملوا معاً متعاونين وهم يُنتِجون المعرفة العلمية الاجتماعية. وفي هذا المسعى، يُمكنِ وصف هذه العلاقة القائمة بين الباحثين الذين يُجرون المقابلة والمبحوثين بأنَّها **علاقة تبادلية**. والأكثر من ذلك أن المبحوثين يعدون في هذا الموقف حُجَّةً فيما يتصلُ بما يروونه من حكاياتهم الشخصية، بما يعني أنه يُنْظَرُ إليهم باعتبارهم "خبراء". ولكي تتحقق هذه التبادلية في العلاقات وهذهِ المرجعية المُشتركة، يَتَعَيَّنُ على هذين الطرفين أن يشعرا بالارتياح مع بعضهما. لذلك يُساعد الباحثون المبحوثين على تقديم حكاياتهم عن طريق إيجاد "**الألفة**" معهم. ويجب أن يشعر المبحوثون بالأمان، وبالراحة، كما يجب أن يشعرا كما لو أن ما يقولونه يحظى بالتقدير. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، يجب على الباحثين أن يقوموا بدورِ المنصتِ الفعال عندما يكون المبحوث مُستغرقا في الكلام. ويُعَدُّ إبداء الاهتمام الصادق بالمبحوث

أمراً جوهرياً لتوطيد الأُلفـة. فالبـاحثون لا يُجـرون المقـابلات ليُحكـاموا مبحوثيهم، وإنما ليساعدوهم على الإفضاء في الحكايات التـي يرونهـا بمـا يَعُدونه جوانبَ شديدة الأهمية. فتلاقي العيون والإشاراتُ المناسبة (كالإيمـاءة بالرأس علامةً على الموافقة) تُعَدُّ أُمورًا مهمة لتأكيد الألفة وجعل المقـابلات أمرا مثمرا. ويُعْتَبَرُ التقاطُ **الإيحاءات** ومحاولة استيضاحها طريقة أخرى تُبينُ بها للمبحوث أنك مُهتمّ بما يقوله. وبالمثل، فإنَّ "الإيحاءات" تُعَدُّ مصدراً قيمـاً للمعلومات، كما تؤدي في كثير من الأحيان للوصول إلى ذلـك النـوع مـن الوصف المكثف الذي يميز البيانات المُستمدَّة من المقابلة الكيفية.

وتعتبر **الإيحاءات** قطعاً من المعلومات التي قد يُقدمها المبحـوث فـي سياق حديثة عن شيء آخر. ويشرحُ وايس (١٩٩٤) معنى الإيحاءات وكيـف يُمكن أن تظهر كما يلي:

... الإيحاءات إشارات عابرة تصدر من المبحوث يُشيرُ بها إلى حدث مهم أو إلى حالة شعورية مهمّة... ونظراً لأن الإيحاءات ترد في سياق الكلام عن شيء آخر، فلَعلَّهُ يتوجَّب عليك أن تحتفظ بها في ذاكرتك ثم تعود بعد ذلك إليها عندما يتسنى لك ذلك، فتقول للمبحوث: "مُنذُ لحظات قليلة ذكرت كذا...". إلا أنه من الصواب أن تلتقط "الإيحاءة" بمجرد أن يَتيسّرَ لك ذلك، إن كان من المحتمل أن يكون للمعلومات التي تشير إليها هذه الإيحاءة أيُّ صلة بدراستك. أمَّا إذا تركت الإيحاءة تمرُّ وتنقضي فإن ذلك سَيُظهِرُ للمبحوث أن هذا المجال لا أهمية لهُ عندك. كما أن بالإمكان أن يُظهِرَ هذا التصرفُ أنك مُهْـتَمٌ فقـط بالحصول على أجوبة لأسئلتك، ولست مُهتماً بالخبرة الحافلة للمبحوث... وقـد تصدُرُ عن المبحوثين أحياناً إيحاءاتٌ عن طريق إشارتهم إلى أن أمراً مهمًا قد حدث ولم يتكلموا عنه. مثال ذلك أن يقولوا: "حسناً، لقد حدثت أمور كثيرة في ذلك الوقت". حينئذ يكون من الصواب أن تُجيب قائلا: "أيمكنك أن تحكي لـي شيئا عن ذلك؟ (ص٧٧).

ولدراسة موضوع الإيحاءات بصورة أدقّ هيا بنا نتناول مثالنا الخاص عن مقابلاتنا مع النساء السحاقيات فيما يتصل بالعلاقة بين هـويتهن الجنـسية وصورة الجسد لَديهنَّ. فعندما تخبرك إحدى المبحوثات برد فعل والديها علـى

"اعترافها"، وتقول في أثناء سردها لقصتها: "حسنا، فإن هذا يرجع، جزئيا، إلى ما صدر من أختي من كلامٍ فارغ وسائر هذا الخبل والجنون..." ثم تواصل سردَها لحكايتها، فإنك تكون في حاجة لأن تتذكر جيدا هذه الإيحاءة التي صدرت عنها (بل وحتى أن تكتبها). فقد لا يكون من الملائم أن تسأل المبحوثة وهي منشغلة بسرد حكاية مهمة وعويصة. ومع ذلك، فإنه ربما يتعين عليك العودة بعد أن تفرغ المبحوثة من رواية قصتها وتقول لها شيئاً كهذا: "لقد ذكرتِ قبلَ ذلك أن أُختكِ كانت في ذلك الوقت تعاني من شيء ما أثرَ على ما كان يَحدُث لك، فهل يمكنك أن تحكي لي قليلاً عن ذلك الشيء؟". وباستعمال نفس هذا المثال، قد تتكلم هذه المبحوثة عن خبرتها في جماعة المجهولي الأسماء من المصابين بالنهم المرضي وتقول شيئاً من هذا القبيل: "لم تكن هذه الجماعة نافعةً لي في الواقع، إلا أنني كنتُ في غاية الإحباط بسبب موضوع آخر، المهم على أية حال أن...". ثم تسترسل في كلامها عن اللقاءات التي يجتمعُ فيها هؤلاء المصابون بالنهم المرضي. فإذا انتهت من حكايتها فبإمكانك أن تعلق على كلامها بقولك: "لقد ذكرتِ أنك كنتِ محبطة في ذلك الوقت بسبب موضوع آخر، فهل تتوسعين في هذه النقطة من فضلك؟" فهذا التصرف يُبَيِّنُ للمبحوثة أنك تُصغي بعناية لكلامها، كما أن كلامها هذا قد فتح لك طريقا للوصول إلى بعض المعلومات التي يُحتملُ أن تكون مهمة، والتي لولاها ما كُنتَ تدري كيف تسأل عنها.

بجانب الإيحاءات تُعتَبَر المجسَّات Probes – كذلك – أمراً في غاية الأهمية للمقابلة الجيدة، كما أنه من المهم أن تُميز بين الوقت الذي تكون فيه الإيحاءة قد أغفلتْ ذكر ما تريد أنت أن تلتقطه، والوقت الذي ينبغي عليك فيه أن تتوغَّل في إجابة المبحوث لتصل إلى المزيد من المعلومات. والمجسَّات تكون ضرورية عادة وعلى الدوام أثناء إجراء المقابلة المتعمقة، خاصةً إذا كانت المقابلة من النوع ذي البنية البسيطة (أى المفتوحة) والذي قد تطْرَحُ فيه أسئلة أقل عدداً ولكنك تزداد تعمقاً في التنقيب داخل ما يُؤثِر المبحوث أن يتكلم عنه. والمجسُّ هو أسلوب الباحث لجعل المبحوثين يسترسلون في الأمر الذي يتكلمون عنه، وذلك بأن يجعلهم يتكلمون عن أمورٍ أبعد مما تكلموا عنه أو بأن

يقدموا مزيداً من الشرح والتفسير، وذلك من خلال تقديمهم لمثالٍ يُوضِّحُ ما يقولونه. وقد يكون المجسُّ في بعضِ الأحيان مُجَـرَّد علامة على الفهم والاهتمام يُبديها الباحث للشخص الذي يُجري معه المقابلة. والآن هيَّا بنا نعود إلى نُتفة من النصِّ المستخلص من سجل المقابلة - الذي أوردناه فيما سبق- لنتعرف على هذا النوع من المجسات:

المبحوثة : كما أن كثيراً من النساء النحيفات يتصورن أنهنَّ لابُدَّ أن يكُنَّ نحيفات حتى يستطعنَ الظفر بأحد الشبان.

الباحثة: م م م (همهمات)

المبحوثة: أعني أنني أرى أن الباعث الأساسى الذي يذكرنه، أنه لكي يَشْعُرْن بالرِّضا عن أنفسهنَّ لابُدَّ أن يكن نحيفاتٍ، ولكني أرى أن السبب الأساسي هو الرسالة الموجهة من المجتمع إلى النساء، ومؤداها أنه لابد أن تكن نحيفات لكي تظفر الواحدة منكن بصديق.

الباحثة: صحيح.

المبحوثة: وهكذا، لا أدري، فأنا أرى أن مجتمع السحاقيات، ليس كذلك، فأنت تعرفين أنك لا تَتَلَقينَ هذه الرسالة بنفس هذه الدرجة من القوة. فكثير جداً من النساء البدينات لهنَّ صديقات.

الباحثة: م م م (همهمات)

المبحوثة: وهكذا، فإن هذه المسألة ليست بالمشكلة الضخمة، هذا ما أتصوره.

فليسَ على الباحثة إلا أن تقول كلمة "صحيح"، وليس عليها أحيانا سوى أن تُسمِعَ المبحوثة صوتاً ما كالهمهمة مثلا (وربما تشير لها بإشارة متزامنة مع كلامها كأنٍ تؤمئَ لها برأسها) لتُبدِي للمبحوثة أنها تُنْصِتُ إليها، وتفهمُ ما تقوله، وأنها تُعبر عن نفسها تعبيراً واضحاً، وأنها تريد من المبحوثة أن تسترسل في كلامها. ونتيجةً لذلك، تسترسل المبحوثة فعلاً بدون الحاجة إلى أن توجه إليها الباحثةُ سؤالاً آخر. وتُعتَبر هذه النقطة من الأمور الشديدة الأهمية، لأن الباحثين الذين يُجْرُونَ المقابلات الكيفية يرغبون في أن يتولد

أكبرُ قدرٍ ممكن من المعلومات الواردة في هذه المقابلات من الأفراد المبحوثين.

وعند هذه النقطة، هلُمَّ بنا لننضم إلى دافيد كارب خَلْفَ الكواليس لنُلقي نظرةً خاطفةً على طريقته في إجراء المقابلة وفي معالجة القضايا التالية :

- كيف تَجعل شخصا ما يبدأ الكلام؟
- هل يَشُقُّ عليك أن تكون منصتاً فعالاً عندما تقوم بدور الباحث الذي يُجري المقابلة؟
- هل يرغب المبحوثون في الإفضاء إليك بحكاياتهم؟
- ماذا يستفيدهُ المبحوثون من هذه العملية؟

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حَسناً، إني أرى أنه ينبغي عليك تسهيل الأمور مع الناس. أي ينبغي أن تبدأ بطرح الأسئلة السهلة. مثال ذلك أن تقول: "ما هو الدين الذي رُبيِّتَ عليهِ، إلى آخرِ هذه الأمور..؟" وينبغي ألا تطرح أسئلةً تحملُ طابع التهديد، كما ينبغي أن تطلع الناس على ما تقومُ بهِ من عَملٍ. وذلك لأن ما يحاول الناسُ فهمه في البداية – كما هو الحال في أي تفاعل– هو التعرف على: من عساه يكون هذا الشخص؟ وإلامَ يَسْعَى؟ وهل هو صادق؟ وهل نواياه سليمة؟ وهل يحسن الاستماع إلى الآخرين؟ وهل يبدو عليه أنه يهتمُّ بما أقولهُ؟ ثم إنك عندما تقوم بإجراء إحدى المقابلات، فإنه ينبغي عليك أن تجعل هذا الشخص يشعر أنه الشخصُ الوحيدُ في العالم الذي تتكلم معهُ. وأنا لا أستطيع أبداً أن أُجرى أكثرَ من مقابلة واحدة في اليوم، لا أستطيع أبداً! ذلك لأن مقدار الطاقة المطلوبة للإنصات الحقيقي، والانتباه الحقيقي، مقدار هائل. كما أن معرفتك للوقت الذي يكون من المناسب أن تطرح فيه عدداً كبيراً من الأسئلة تحتاج كذلك لطاقة كبيرة.

إن جزءًا من إجراء هذه المقابلة يتمثل في الوصول إلى توازنٍ بين.... ينبغي عليك أن تبدي احترامك للحكاية التي يريد الشخص الذي تجري معه المقابلة أن يرويها. انظر، فالناس تدخلُ إليك في مكتبك ولديهم حكايات

يريدون أن يرووها. وعندما يدلفون داخل المكتب قد يكونـــون – فـــي بدايـــة الأمر– راغبين في الكلام عن مدى التأثير الشديد الذي أحدثه تناولهم للـــدواء، أو عن شيء من هذا القبيل. فهذا هو ما يريدون فعلاً أن يتكلموا عنـــه. وإنـــه ليتعيَّن عليَّ أن أتماشى مع ذلك في بداية المقابلة. فأنا لا أنوى أن أصـــدهم أو أطردهم. ولست بعازمٍ أن أقول مثلاً: "حسناً، أنا لا أريدُ أن أتكلم عـــن هـــذا الموضوع لمدة ساعتين في هذه المقابلة". وإني أرى أن هذا الاحترام لما يقوله المبحوثون والتماشي معهم يمثل التوازن بين إتاحة الفرصة لهم والاستماعِ لما يقولونه، بأن يتحدثوا عن الصفات المميزة للحكايات التي يريـــدون فعـــلاً أن يَرْووها – كما أن لكل حكاية مَعْناها الفريد الخاصَّ بها إلى حدٍ ما – وبين مـــا سبق أن ذكرتُهُ بخصوص علمِك بما تحتاج لاستيفائه من معلومات قبل انتهائك من مقابلة هذا الشخص.

وقد تبينت من إجرائي للمقابلات أنه إن بدأت بالسؤال الـــسديد فـــي أول المقابلات وذلك بمجرد أن تصل إلى صلب المقابلة، فإنك لن تحتاج في الغالب إلى أن تطرح الكثير من الأسئلة. مثال ذلك أنه في حالة إجرائي لمقابلات معِ أفراد يعانون من الاكتئاب، فإنَّ السؤال الأول الذي أطرحه على الفرد عـــادة هو: "لعلَّكَ لستَ مُضطراً لأن تُسمِّي حالتك هذه "اكتئاباً"، ولكن احك لي عـــن أولِ لحظة خطرَ فيها على بالك أن في الأمر مشكلة ما. مـــا هـــو أول وقـــت أحسستَ فيه بوجودِ أي نوعٍ من إدراك أنَّ في الأمر خطأ ما؟". وفـــي بعـــض الأحيان لم أكُنْ مضطراً إلى أن أقول كلاماً كثيراً عن أي شيء آخـــر علـــى امتداد الساعات الثلاث التالية. ذلك لأن الناس لديهم طريقةٌ ما فـــي روايـــتهم لحكاياتهم، كما أنهم يستوعبون – بصورة تلقائية– سائر المجالات التي تُريـــدُ استيعابها في بحثك. والأمر الآخر الذي أودُّ أن أتكلَّـــم عنـــه هـــو أن النـــاس يريدون فعلاً أن يَحكوا حكاياتهم. وقد كان هؤلاء الناس –وبصفةٍ دائمة تقريبا– يشكرونني في نهاية كل مقابلة على أنني أعطيتُهُم فرصةً ليـــرووا حكايـــاتهم، ولأن يطرحَ عليهم أحدُ علماء الاجتماع بعض الأسئلة... فقد كانوا في أغلـــب الأحيان يخرجون بعد إجراء المقابلة برؤيةٍ لحياتهم مختلفةٍ عما كان يمكنهم أن يظفروا بهِ من خلالِ سنواتِ من العلاج، وذلك لأنني كنتُ أطرح الأسئلة التي لا يتأتى لغير عالم الاجتماع أن يَطرَحَها.

وهكذا نرى أن عملية إجراء مقابلة متعمقة هي في جوهرها عملية تواصل تحتوي على طَرْح الأسئلة، والإنصات، والحديث. وعن طريق بدء المقابلة بأسئلة استهلالية سديدة وإظهار الإصغاء المتحمِّس يستطيع الباحث الذي يُجري المقابلة أن يَظفر بثروة من البيانات، وذلك إذا قام بعمل يزيد قليلاً عن مُجرَّد تشجيع المبحوث على القيام بعملية الإفضاء بحكايته. ذلك لأن المقابلة المكثفة عملية تعاونية للوصول إلى المعرفة التى تتطلب علاقة متفردة بين الباحث والمبحوث، قوامها الاهتمام المتبادل، والاحترام، والتعاطف. وعندما تكون المقابلة فى أعلى مستويات نجاحها، فإن معنى ذلك أنها كانت مجزية لكلا الطرفين، كما أنهما كليهما يُوسعان نطاق رؤيتهما بفضل الخبرة التى اكتسبها كل منهما.

نقاط الاختلاف

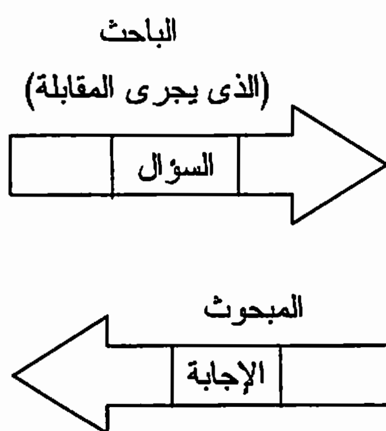
ينظر الباحثون الكيفيون إلى الحقيقة الاجتماعية باعتبارها حقيقة معقدة ومتعددة الأبعاد، وهذا القصور هو الذى يُشكل طريقتهم فى التفكير فى عملية المقابلة. فكثيراً ما يأتى الباحث والمبحوث إلى موقف المقابلة ولكل منهما خَلفيات مختلفة فيما يتصل بنوعهما الاجتماعى، والانتماء الإثنى، والتفضيل الجنسى، وكذلك فيما يتصل بالوضع الطبقي وبغير ذلك من الاختلافات الكثيرة. أما الباحثون الذين يعملون انطلاقاً من تراث وضعى فكثيراً ما يكون اهتمامهم بمدى قدرة هذه الاختلافات على التأثير على موقف المقابلة اهتماماً ضئيلاً. وذلك لأن البحث الوضعى التقليدى يعالج قضية الاختلاف من خلال **تقليص** آثار هذا الاختلاف إلى أبعد حد. ويمارس الباحثون الوضعيون هذا التقليص عن طريق تقنين مشاركتهم فى موقف المقابلة بجعلها مشاركة "موضوعية"، بمعنى "تنحية" هذه الاختلافات الموجودة فى موقفهم تجاه المبحوث الذى يقومون بمقابلته، قاصدين من ذلك ألا تؤثر هذه الاختلافات على عملية المقابلة في حد ذاتها. لذلك فنادراً ما يطرح الباحثون الوضعيون أسئلة من النوع التالى:

- هل بإمكان رجل أعزب أبيض اللون من الطبقة الوسطى أن يُجرى مقابلة مع إحدى الأمهات السوداوات من الطبقة العمالية؟

- هل بإمكان امرأة بيضاء اللون من الطبقة الوسطى أن تُجرى مقابلة مع امرأة من العالم الثالث تعيش فى ظروف الفقر؟
- هل بإمكان رجل أبيض اللون من الطبقة الوسطى ذى ميول جنسية عادية أن يُجرى مقابلة مع رجل مِثْلى من الطبقة العمالية؟

وفى مقابل ذلك، يذهب الباحثون الكيفيون إلى أنه لا يتسنى بمثل هذه السهولة "تنحية" الاتجاهات والقيم المنبثقة عن جملة الروابط المتصلة بالوضع الاجتماعى لفرد معين. فالواقع أن الإقرار بوجود الاختلاف - أى الاعتراف بمدى تشابهنا أو اختلافنا عن المبحوث الذى نُجرى معه المقابلة - هو الذى يسمح للباحث أن يُدخل فى اعتباره الاختلاف وتأثيره على موقف المقابلة. ذلك لأن نقاط الاختلاف تؤثر على كل مراحل عملية البحث - بدءاً من اختيار قضية معينة للبحث، وتحديد الفروض التى نستوفى اختبارها بالاعتماد على ما لدينا من بيانات، والقيام بالعملية الشاملة لجمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها، والكتابة النهائية لنتائج البحث الذى نقوم به.

تتدفق المعلومات فى كلا الاتجاهين بطرح الباحث لأسئلة محددة و رَدّ المبحوث على كل سؤال. فالتعامل لا يأخذ صورة حوار بين الباحث والمبحوث. ويتوجب على الباحث الذى يُجرى المقابلة أن يبقى بشخصه "على مسافة" منفصلاً عن موقف المقابلة من خلال التزامه بجدول أعماله واجتنابه الإفصاح عن أى من قيمه واتجاهاته الشخصية.



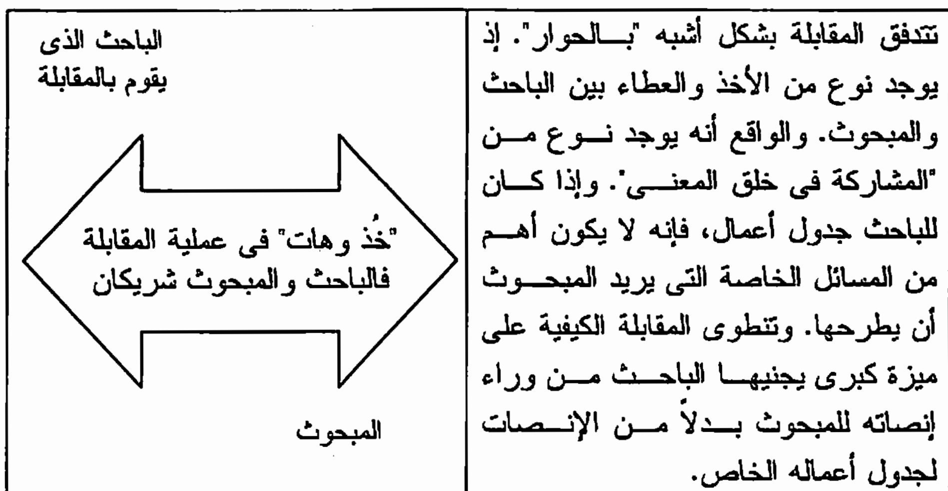
(شكل ٤/١) نموذج عملية المقابلة: النموذج الكمى

وكما سبقت الإشارة فى الفصل الأول من هذا الكتاب، فقد طرحت ساندر هاردنج (١٩٩٣) مفهوم "الموضوعية القوية" strong objectivity، قائلة إنه من خلال إدخال نقاط الاختلاف فى الحسبان طوال كافة مراحل

المشروع البحثى، يقوم الباحث فى الواقع "**بتعظيم مقدار الموضوعية**" عن طريق كفالة إظهار صوت مبحوثنا، والإصغاء إليه، وفهمه. وتحث ساندرا هاردنج الباحثين على فحص الأسئلة التى يطرحونها فى موقف المقابلة، وتشير إلى أن هذه الأسئلة ليست "متحررة من القيم"، بل إنها تعكس في أغلب الأحيان ما لدى الباحث من القيم، والاتجاهات، والأولويات. ويطرح الباحثون الذين يمارسون "الموضوعية القوية" أسئلة من النوع التالى:

- إلى أى مدى تتدخل قيمى واتجاهاتى فى عملية البحث؟ هل أطرح الأسئلة انطلاقاً من رؤيتى فقط؟
- إلى أى مدى تشكل أولوياتى الشخصية ما أطرحه من أسئلة وما أصل إليه من نتائج؟
- إلى أى مدى تؤثر ظروفى وأوضاعى فى طريقتى فى جمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها، أى: من هو الشخص الذى أعمل انطلاقاً من منظوره الفكرى؟

وهكذا يتضح أن السيناريو الوضعى لعملية المقابلة هو سيناريو "يطرح" فيه الباحث أسئلة يتولى المبحوث الإجابة عليها. وبينما يكون التواصل متدفقاً فى كلا الاتجاهين، يكون هدف المقابلة هو الحصول على "المعلومات" التى غالباً ما تكون فى صورة أسئلة مقننة أو شبه مقننة. إذ يوجد جدول أعمال محدد فى ذهن الباحث الذى يُجرى المقابلة.



(شكل ٤/٢) نموذج عملية المقابلة الكيفية

على الناحية الأخرى نجد أن النموذج الكيفى يسمح للمقابلة بأن تتدفق المعلومات فى كلا الاتجاهين. فالباحثون الكيفيون لا يؤيدون وجهة النظر التى ترى أن الحقيقة الاجتماعية موجودة "خارجاً عنا" تنتظر أن يُـدركها الباحـث الاجتماعى بشرط أن يكون موضوعياً فحسب. وكما سلفت الإشارة، فإن هـذا التوجه ينظر إلى المقابلة بوصفها نوعاً من **الاشتراك فى خلق المعنى**. فمهمة الباحث هى الإصغاء بشكل مركز على ما يقوله المبحوث، وأن يكون مستعداً لإغفال جدول أعماله استجابة منه لما يجرى أثناء هذه المقابلـة. وقـد أرادت كاثرين أندرسون - وهى خبيرة فى التواصل عن طريـق الكـلام - توثيـق حيوات القرويات من العاملات بالمزارع واللاتى يعشن فى شمال غرب ولاية واشنطن(*)، وذلك لحساب "مشروع تراث المرأة في ولاية واشنطن" (١٩٩١). ومع ذلك، فقد حدث أثناء إجرائها بحثها أنها كثيراً ما كانت تقلل من تركيزها على اتجاهات ومشاعر عاملات المزارع القرويات بـسبب حاجتهـا لتقـديم توصيفات محددة للحياة فى المزارع تصور ما تقوم به النـساء مـن أنـشطة زراعية، وذلك بغرض الحصول على المادة اللازمة لإقامة معـرض كانـت تنوى تنظيمه. وفي ذلك تلاحظ قائلة:

فى استعادتى للأحداث الماضية، أستطيع الآن أن أدرك كيـف كنـت أصغى للمبحوثة فى نفس الوقت الذى كنت أركز فيه - بدرجة ما - على تقديم المادة اللازمة لتنظيم هذا المعرض، والمتمثلة فى التصوير الحى للخبرات التى من شأنها أن ترافق صور الأنشطة التى يزاولنها هؤلاء النساء. وعندما عدت أبحث فى سجلات المقابلات بعد مدة طويلة من انتهـاء المعـرض ووضـع لوحاته فى المخازن، أدركت الآن وكلى ألم حجم الفرص التى ضاعت علـى هؤلاء النساء فى إمعان التفكير فيما وصفنه من الأنشطة والأحداث وفى شرح مصطلحاتهن على وجـه أكمـل بـنفس الكلمـات التـى كـن يـستخدمنها.
(Anderson & Jack, 1991, p. 13)

(*) إحدى الولايات المتحدة الأمريكية وتقع شمال غربى أمريكا على ساحل المحيط الهادى وليست هى العاصمة واشنطون. (المراجع)

هيا بنا نصغى بعُمق إلى مقابلة أجرتها كاثرين أندرسون. وقد قامت بمقابلة إحدى عاملات المزارع، واسمها فرنا Verna. وفى أثناء هذه المقابلة تحدثت فرنا عن مدى صعوبة الحياة التى تعيشها كأم. وتبدأ فرنا بالكلام بحرية تامة مع أندرسون على نحو ما هو وارد فى النص التالى. ولكن لاحظ ما أبدته أندرسون من رد فعل على التعليقات الانفعالية التى صدرت من فرنا:

فرنا: مرت بى أوقات لم أتمن فيها إلا أن أهرب من هذه المعيشة بأسرها. كما مرت بى أوقات اشتدت فيها رغبتى فى أن آخذ الأطفال وأتركهم فى مكان ما لمدة أسبوع – أتركهم كلهم دفعة واحدة – حتى لا أضطر للقلق عليهم. لست أدرى ما إذا كان ثمة إنسان يراوده مثل هذا الإحساس أم لا، إلا أنه مرت بى أوقات لم أشعر فيها إلا بأننى محتاجة للهروب من كل إنسان – حتى من زوجى – ولو لفترة قصيرة. فهذه هى الأوقات التى شعرت فيها بحاجتى للهروب. وربما تمنيت أن أقوم بنزهة فأعود إلى الغابة وأتطلع للزهور، وقد أتوغل فى ذلك المكان فأعثر على بقرة عجوز – تكون بقرة حقيقية ورقيقة – فأسير إليها وأربت عليها للحظة وذلك كنوع من الهروب من هذه المعيشة. لقد شعرت بذلك تماماً، ويبدو أننى أحس بهذا الشعور أحيانا...

أندرسون: هل كنت عضوة نشطة فى بعض النوادى؟ (أندرسون، وجاك، ١٩٩١، ص ١٦).

نلاحظ من هذا النص المستخلص من تلك المقابلة كيف أن أندرسون كانت أُحادية التفكير فى تتبعها لجدول أعمالها، وأنها لم تكن تصغى فعلاً على الإطلاق لما كانت "فرنا" تبوح به إليها. إذ أن لها، بدلاً من ذلك، جدول أعمال تلتزم به، والسؤال التالى فى جدول مقابلتها هذه يتناول مسألة العضوية فى النوادى. إن هذا السؤال الذى طرحته أندرسون يُقصِّر فى الاعتراف بحق "فرنا" فى الإفضاء بمكنون مشاعرها المتعلقة بالأمومة.

أما المقابلة الكيفية فهى أقرب إلى المحاورة بين طرفين متعاونين، كما أن المعلومات تتدفق جيئة وذهاباً أثناء سير المقابلة. ذلك أن الدور الأساسى للباحث هو الإصغاء المقصود للمبحوث. ومع أن الباحث قد يريد تتبع بعض الأسئلة المحددة والتى لها أهميتها عنده، فإن مهمته الأساسية التى يُركز عليها

هى أن يستوحى ما ينبغى عليه فعله مما يصدر عن المبحوث من إشارات. ذلك أن جوهر المقابلة الكيفية يقتضى وجود قدر كبير من **الانعكاسية** (التأمل النقدى)، أى التنبه الفائق للديناميات المهمة لموقف المقابلة بين الباحث والمبحوث، والتى من الممكن أن تؤثر على خلق المعرفة. وتقدم لنا أندرسون وجاك (١٩٩١، ص ٢٤) دليلاً لشحذ مهاراتنا فى "الإصغاء" أثناء عملية المقابلة، وخاصة الإصغاء عند نقاط الاختلاف بيننا. وهما يُقدمان الأسئلة/ أو القضايا التالية التى ينبغى عليك الاهتمام بها فيما يتصل بنمط جدول المقابلة الذى يساعد على الإصغاء:

- ليكن لك أسلوبٍ فى إجراء المقابلة يتسم بالنهايات المفتوحة، حتى تتيح للأفراد الذين تُجرى معهم المقابلة فرصة التعبير عن اتجاهاتهم وأحاسيسهم.
- تعمق فى البحث عن المشاعر، ولا تكتف ببحث الحقائق فقط. مثال ذلك: كيف يفهم المبحوث ما يجرى من أمور؟ وما هو المعنى الذى يضفيه المبحوث على مجرى الأحداث فى حياته.
- ما هى الأشياء التى أحجم عن ذكرها المبحوث.

كما يطرح أندرسون وجاك (١٩٩١) قائمة المراجعة التالية التى ينبغى عليك الرجوع إليها قبل أن تقوم بإجراء مقابلاتك:

- كن متنبهاً لجدول أعمالك الشخصى.
- استرسل مع ما تشعر به من إرهاصات شخصية (أى: إحساساتك الباطنية القوية)، ومشاعر، وردود أفعال قد تتولد فى نفسك أثناء إصغائك للآخرين. (ص ٢٤)
- إذا اختلط عليك الأمر فى مسألة ما، فلا تخش متابعة البحث فى أى قضية أو أى شأن من مشاغل الناس.

وماذا عن قلقك الشخصى، وإلى أى مدى يمكن أن يؤثر على موقف المقابلة؟ وهل بإمكان هذا القلق الشخصى – كذلك – أن يزودك بمفتاح تتوصل به إلى تحديد أين يتعين عليك "إمعان النظر فيما يقوله المبحوث" وإلى معرفة ما الذى يشعر به المبحوث فى تلك الآونة؟

القريب أم الغريب؟

اعتاد بعض الباحثين تبني إحدى الاستراتيجيات من أجل التغلب على تأثير الاختلاف في عملية المقابلة تقوم على تحقيق نوع من "المضاهاة" بين بعض ما لهم من سمات مهمة تتعلق بوضعهم أو مكانتهم (كالعرق/ أو العمر/ أو النوع/ أو الميول الجنسية) وسمات مبحوثيهم بحيث يمكنهم أن يفيدوا من مكانة القريب (أى ليسوا أغراباً أو مختلفين عن المبحوثين) فى إجراء مقابلة ناجحة واكتساب التعاون والألفة فى هذا الموقف فيسهلون بذلك على أنفسهم فهم مبحوثيهم. والباحث، فى آخر الأمر، هو واحد من الأقارب an insider وينبغى أن يكون حسن الاطلاع على وضع الجماعة التى ينتمى إليها المبحوث. ومن المهم كذلك إدراك أن مثل هذا التوازن فى بعض السمات المتعلقة بالوضع أو المكانة يقلل – أيضاً – من إمكانية حدوث حالات اختلال التوازن بين القوة والسلطة فى موقف المقابلة (أوكلى Oakley، ١٩٨١). ويعلمنا التفكير القياسى فى أمر الاختلاف الموجود فى موقف المقابلة أنه إذا كان القائم بإجراء المقابلة غريباً فربما أدى ذلك إلى خلق مزيد من الصعوبة فى الاقتراب من "هذا الآخر" ومن فهمه على وجه صحيح. هل يكفل الوضع الذى يكون الباحث فيه "قريباً" رفع درجة صدق المقابلة وثباتها؟ وكيف يؤثر الاختلاف فى عملية البحث؟

الاختلاف: مثال لإدخال الاختلاف فى الحسبان عند القيام بعملية البحث

المشكلة: ما هو الأثر الاقتصادى والاجتماعى للعولمة على نساء العالم الثالث؟

بإدخال الاختلاف فى الحسبان، يكون من المهم طرح هذا السؤال: عن أى نساء نتكلم؟

علينا أن نأخذ فى الاعتبار ذلك التنوع والاختلاف الموجود فى خبرات النساء على الصعيد العولمى. ومن الأبعاد المميزة المهمة للمرأة العاملة والتى ينبغى إدخال بعضها فى الحسبان ما يلى: (١) الإقليم الجغرافى

الذى تقيم فيه المرأة العاملة (هل هو إقليم ريفى/ أم حضرى/ أم من الضواحى). وكذلك: هل هى مهاجرة حديثة العهد بهذه المنطقة؟ (٢) فى أى مرحلة هى من مراحل دورة الحياة؟ مثلاً: هل هى شابة غير متزوجة، أم تعيش مع شريك وليس عندهما أطفال، وذلك فى مقابل المتزوجة مع شريك وهى فى منتصف العمر، إلى آخره، (٣) مستوى التعليم؛ (٤) الانتماء الإثنى؛ (٥) هل هى متزوجة أم تعيش مع شريك تربطها به علاقة قوية، وهل هذا الشخص ملتحق بوظيفة لكل الوقت أم لبعض الوقت؟ فهذه العوامل وغيرها لها أهميتها، لأنها ستساعد الباحث على الفهم الصحيح لحقيقة أن بإمكان العولمة أن تؤثر على النساء العاملات بصور مختلفة، وهو الأمر الذى يتوقف على وضعية المرأة العاملة تجاه هذه الأبعاد الاجتماعية الاقتصادية الدقيقة. شاهد ذلك، أن هيلين سافا Helen Safa (١٩٨١)، وفى مقالتها الممتازة بعنوان: "أسواق العمل المنفلتة: البحث عن العمل الرخيص"، تشير إلى أن تأثير عمل المرأة فى مناطق تجهيز السلع للتصدير على تقسيم العمل فى المنزل "يختلف تبعاً لدرجة بطالة الرجل وقوة التراث الأبوى". مثال ذلك، ما تذكره سافا عما حدث فى المكسيك من تمزيق النمط الموروث للأسرة – الذى تحول إلى مشكلة عسيرة الحل – إنما كان نتيجة لاشتراك النساء فى مشروع ماكويلادوروس Maquiladoros (أى: برنامج تصنيع المناطق الحدودية). وهى تذهب إلى أن النساء أصبحن "المُعيلات الأساسيات" للأسرة لأن الرجال كانوا فى بطالة وكانوا مستائين من وضعهم هذا ولم يقدموا أى مساعدة فى المنزل. فى مقابل هذا وجدت فى مناطق أخرى – مثل جامايكا – أن عمل المرأة لم يؤثر على تقسيم العمل فى المنزل. كما لاحظت سافا أن عمر المرأة وقت دخول البرنامج المذكور فى المكسيك كان أمراً مهماً كذلك. فالنساء المتزوجات ذوات الأطفال من كبيرات السن كن يُصبن حظاً أفضل من النساء غير المتزوجات الأصغر منهن سناً واللاتى كن يُعانين قدراً أكبر من الاستغلال (الواقع عليهن من عائلاتهن من ناحية، ومن الشركة التى يعملن بها من ناحية أخرى).

ونتبين بوضوح من هذا المثال عن الاختلاف أنه منذ بداية مشروعنا البحثى، فإن ما نختار دراسته (من موضوعات) ومن نختار دراستهم (من

أفراد) إنما يتأسس على تقديرنا لأهمية الاختلاف. **فالقضايا التى ندرسها والأشخاص الذين ندرسهم** إنما تتأثر أعمق التأثر بطريقتنا فى النظر إلى قضايا الاختلاف وبمدى وعينا بها. ومن شأن تقديرنا لأهمية الاختلاف أن يسمح لنا بطرح السؤال التالى: أى نساء نقصد؟ هل كل النساء فى جميع أنحاء العالم متشابهات؟ وإلى أى مدى هُن مختلفات، وما هى نقاط الاختلاف التى لها أهمية فى موضوع بحثى؟

ويُعد الاختلاف – كذلك – أمراً ذا أهمية حاسمة بالنسبة **لموقف المقابلة**. فهل بإمكان باحث ينتمى إلى أحد بلاد العالم الأول – مثلاً – أن يفهم فهماً صحيحاً ما تعانيه المرأة العاملة فى أسواق العمل المعولمة فى العالم الثالث؟ لنفترض أن هذا الباحث الذى يجرى هذا البحث كان رجلاً أبيض اللون ينتمى إلى الطبقة الوسطى. فكيف سيؤثر نوعه الاجتماعى، وعرقه، وانتماؤه الإثنى، وطبقته الاجتماعية على عملية المقابلة؟ وهل سيكون بوسع هذا الباحث أن "يتجاوز" نقاط الاختلاف التى بينه وبين هؤلاء الذين يقوم بدراستهم؟

من اليسير استنتاج أنه إذا كان الباحث (الذى يجرى المقابلة) والمبحوث ينتميان إلى نفس النوع الاجتماعى، والطبقة، والخلفية الإثنية، فإن ذلك من شأنه أن يقطع شوطاً طويلاً نحو تأسيس حوار صريح بينهما، ويقدم فرصة مُثلى لصوت هذا المبحوث أن يُسمع وأن يكون واضحاً مفهوماً. ولا جدال فى أن هذا الافتراض معقول إلى حد ما. شاهد ذلك أن بيوكيو – بتس Beoku-Betts فى بحثها الميدانى بين نساء الجولاه Gullah (وهن نساء أمريكيات سود يعشن فى بعض الجزر البحرية فى نطاق كلٍ من ولايتى ساوث كارولينا وجورجيا) الذى نشرت عنه عام ١٩٩٤ قد وجدت أن قيامها بإبلاغ المبحوثات بالمعلومات الكاملة عن وضعيتها هى الاجتماعية وخلفيتها؛ وهى أنها – كذلك – تلقت تنشيءتها فى مجتمع قروى يتسم بنفس الأعراف والممارسات الثقافية – وجدت أن ذلك مكنها من أن تقيم صلات وتحصل على بيانات لم يكن يتيسر لها الوصول إليها لولا تلك المصارحة. أما كاث وستون Kath Weston (٢٠٠٤) فكانت فى غاية الانشغال الذهنى بهويتها كسحاقية

وبمدى تأثير ذلك على بحثها. وهى تذكر، فيما كتبته، أنه على الرغم من توقها إلى دراسة عائلات المثليين من الرجال، فإن مثل هذا المشروع سيكون مختلفاً أشد الاختلاف لو أنها لم تكن سحاقية. كما تعترف وستون أن وضعها داخل مجتمع المثليين (من النساء والرجال) كان السبب فى تقليل المتاعب التى لقيتها فى العثور على مبحوثات من السحاقيات. هذا فى الوقت الذى ما زالت فيه السحاقيات محجوبات فعلاً عن أنظار الرجال الذين يقومون بإجراء بحوث عن النشاط الجنسى، وفى ذلك تقول:

فى حالتى هذه، فإن كونى امرأة قد أثر على طريقة قضائى الوقت فى الميدان: فقد كنت أمضى فى نوادى السحاقيات وفى جماعات النساء ساعات أطول مما كنت أمضيها فى البارات التى يلتقى فيها المثليون (الرجال) وفى النوادى الرياضية للرجال. (Weston, 2004, p. 202).

على أنه فى بعض الأحيان تكون مشاركتنا لمبحوثينا بعضاً من السمات التى تجعلنا "قرباء" غير كافية لضمان أن يستطيع الباحث الوقوف على الخبرات التى يُعايشها هؤلاء الذين يقوم بدراستهم. شاهد ذلك أن البحث الذى أجرته كاثرين كُوهلر ريسمان عن الحكايات التى تفسر، وتبرر حدوثه (سرديات الطلاق) (Catherine Kohler Riessman, 1987) يُشير إلى أنها فى مقابلاتها التى أجرتها مع المطلقات، لم يكف مجرد كونها امرأة ليجعلها تفهم على وجه صحيح خبرة الطلاق عند النساء اللاتى تختلف طبقتهن وخلفيتهن الإثنية عن طبقتها وخلفيتها هى. فقد أدت وضعيتها كإنسانة ذات أصول أوروبية ومستوى عالٍ من التعليم وتنتمى إلى الطبقة الوسطى؛ أدت للحيلولة بينها وبين الاستيعاب التام للطرق الخاصة التى اتبعتها هؤلاء النساء فى صياغة ما يحكينه من قصص طلاقهن (وذلك بأن يسردن هذه القصص فى صورة أحداث عارضة ووقائع منفصلة وليس وفقاً للتسلسل الزمنى لوقوعها). لذلك أصبح من التحديات التى يواجهها الباحثون فى موقف المقابلة ضرورة ابتعاد الباحث عن تكوين توقعات ثقافية تتصل بما ينبغى – عنده – أن يكون عليه شكل القصة التى تسرد أحوال الأفراد المنتسبين لخلفيات إثنية وطبقية مختلفة عن خلفياته هو.

وبالمثل واجهت بيوكيو – بتس (١٩٩٤) أحد السيناريوهات المماثلة في بحثها الميداني عن نساء الجولاه. فبيوكيو– بتس باحثة سوداء اللون من غرب إفريقيا، كما أنها كانت من حيث انتمائها العرقي تُعد – بلا ريب – واحدة من "الأقارب" بين أفراد مجتمع السود الذي كانت تقوم بدراسته. وتحكي بيوكيو – بتس كيف أن واحدة من مبحوثاتها أخبرتها قائلة: "إنها (أي المبحوثة) تُفضل عالمة سوداء مثلي لإجراء البحث في مجتمعها لأن "العالمات السوداوات لديهن إحساس روحي متعاطف مع قومنا لأنهن عشن تجربة الحياة بين أولئك القوم" (Beoku-Betts, 1994, p. 416). ومع ذلك، فقد وجدت بيوكيو – بتس أن وضعها كواحدة "من الأقارب" كان متداخلاً أشد التداخل مع عوامل أخرى كالاختلاف في الخلفية الطبقية والخلفية الثقافية. لذلك فإنها وجدت نفسها مضطرة لأن تواجه قدراً من المقاومة الموجودة داخل هذا المجتمع والموجهة لما تقوم به من أنشطة بحثها الميداني. وفي ذلك تقول:

أثبتت مشاركتي العرقية لهؤلاء الناس جدواها في تمكيني من الوصول إلى المشاركات في بحثي وفي اختزال المسافة الاجتماعية في إحدى المراحل الحرجة لعملية البحث. ومع ذلك، فإن هويتي كواحدة من "الأغراب" عنهم كانت قد تحددت من قبل جماعات فرعية أخرى تحديداً يحصرها داخل نطاق "الغُرباء". مثال ذلك أن نوعي الاجتماعي، ووضعي الزواجي (وهو أنني غير متزوجة)، ومكانتي المهنية كباحثة جامعية كانت كلها عوامل تقوم بدورها المؤثر بصفة مستقلة وبصفة مترابطة مع هويتي العرقية في تسهيل أو تعقيد عملية البحث. (ص ٢٤٠)

وهي تلاحظ ما حدث لها في أحد المجتمعات التي درستها، حيث أدى وضعها كامرأة غير متزوجة إلى خلق بعض التوترات في مسار عملية البحث. وهي تنقل إلينا حادثتين وقعتا في الميدان تتصلان بكونها غير متزوجة فتقول:

في أحد المجتمعات قام رجل من الأهالي بزيارة الأسرة التي كنت أقيم معها. وعندما قامت هذه الأسرة بتقديم كل منا للآخر، تذكّر الرجل أنه كان قد سمع عني، وأخذ يُدردش معي في مسألة الإشاعة التي ترددت في هذا المجتمع

والتى تزعم أننى جئت لهذا المكان بحثاً عن زوج.. وقد وقعت حادثة أخرى داخل الكنيسة فى يوم أحد مع راعى الكنيسة - وهو أمريكى أسـود - حيث أثار موضوع الدعوى القضائية الخاصة بأنيتا هيل Anita Hill وكلارنس توماس Clarence Thomas بعد أن طُلب منى تقديم نفسى لجماعة المصلين. وقد كان هذا الراعى فى أول الأمر فى غاية التأييد والمساندة لـى، كما أنه رحب بى ترحيباً حاراً فى هذا المجتمع بصفتى إفريقية تأتى لدراسة مظاهر تراث تاريخى مشترك. ومع ذلك، فسرعان ما تحول إلى موضوع الدعوى القضائية الخاصة بهيل وتوماس، وبدأ يُشير إلى أن أنيتا هيل كانت هى الأخرى امرأة متعلمة استغلت هذه الميزة فى توجيه الاتهام إلى كلارنس توماس وتوريطها فى متاعب مالية (وهما المرأتان اللتان كانتا تُقيمان فى مدينة غير بعيدة عن هذا المجتمع) (Beoku-Betts, 1994, p. 428).

وتبنت بيوكيو-بتس فيما بعد أنها لابد أن تُجرى حوارات مع مبحوثاتها فى شأن وجوه الاختلاف بينها وبينهن إذا كانت تريد أن تظفر بإجراء مقابلات معهن تعكس ما يشعرن به فعلاً تجاهها. ولم تتمكن هذه الباحثة من الوصول إلى جزء من موضوعات البحث ولا من البدء فى عملية المشاركة فى خلق المعنى، والفهم الصحيح لهذا المجتمع إلا بعد أن استكملت هذه الحوارات المذكورة.

وإذا كنا قد قلنا كل هذا الكلام عن الباحث عندما يكون "من الأقارب" فإن كون الباحث شخصاً من "الغرباء" يمكن أن يُشكل ميزة فى الواقع، وذلك يتوقف على طبيعة المشكلة التى يدرسها البحث وعلى مجتمع البحث الذى تقوم بدراسته. فسبب عدم انتمائك لمجموعة معينة، قد يُنظر إليك من قبل مبحوثك بأنك أكثر حياداً. وبالمثل، قد يزداد احتمال طرحك لأسئلة عن أمور كنت - لولا غربتك عن هذه المجموعة - ستنظر إليها باعتبارها أمراً مفروغاً منه بوصفها "معرفة مشتركة"، كما ستتبين - على الأرجح - أن الأشخاص الذين تدرسهم لديهم أساليبهم الخاصة فى النظر إلى قضية معينة.

ويعلق عالم الاجتماع روبرت وايس R. Weiss على قضايا الاختلاف بين الباحث الذى يُجرى المقابلة والمبحوث على النحو التالى، قائلاً:

من الطرق التى يمكن أن نعبر بها عن هذه القضية أن نتساءل: إلى أى مدى يكون من الضرورى للقائم بالمقابلة أن يكون شخصاً من داخل العالم الذى يعيش فيه المبحوث، حتى يكون باحثاً ناجحاً... إذ إن من الصعوبة أن نتوقع ما هى صفات الباحث التى سيثبت أنها مهمة فى نظر المبحوث، وكيف سيكون رد فعل ذلك المبحوث تجاهها.. وثمة عدد كبير للغاية من الصفات المختلفة للباحث الذى يجرى المقابلة يمكن أن يكون للمبحوث رد فعل تجاهها، بحيث إنه يحسن للباحث – بالتأكيد – أن يكون شخصاً "من الأقارب" فى بعض الأمور وشخصاً "من الأغراب" أحياناً أخرى... ولقد وجدت أن من الأفضل – بصورة عامة – أن يكون الباحث شخصاً "من الأقارب" فى نظر المجتمع الذى يعيش فيه المبحوث، وذلك لأن من الأسهل علىَّ فى هذه الحالة أن أضع أساساً وطيداً لشراكة بحثية مع هذا المبحوث. إلا أن بعضا من المقابلات التى أجريتها وأفادتنى بأعظم قدر من المعلومات لم تصل إلى هذا المستوى من الجودة إلا لأننى كنت شخصاً "من الأغراب" فى حاجة للحصول على المعلومات الموجودة فى هذا المجتمع الذى يعيش فيه المبحوث (Robert Weiss, 1994, p. 137).

فالأمر الذى يهمُنا ملاحظته هو أن وضع الباحث الذى يُجرى المقابلة كشخص قريب/ أو غريب وضع يتسم بالسيولة (المرونة)، كما أنه بالإمكان أن يتغير حتى فى أثناء مسار المقابلة الواحدة. ففى بعض المسائل التى تناقش فى المقابلة، قد تُشارك مبحوثك في دور أو وضع اجتماعى معين، وفى أحيان أخرى، قد تجد اختلافاً صارخاً بينكما، وذلك تبعاً لدقائق القضية التى يتناولها البحث أو لطبيعة الموضوع الذى يدور حوله الحوار. ومن الأمثلة الجيدة على هذا الموقف ما نتعلمه من البحث الذى أجرته روزاليند إدواردز Rosalind Edwards.

وإدواردز امرأة بيضاء متعلمة تنتمى إلى الطبقة الوسطى، وهى مهتمة بإجراء مقابلات غير مقننة مع الأمهات الكاريبيات السود الراشدات اللائى ما زلن طالبات (١٩٩٠) وهى تريد أن تفهم – على وجه صحيح – ما يُعايشه هؤلاء النساء من خبرات تتصل بقضايا التعليم، والعمل، والحياة العائلية. وهى

تصف الصعوبة التى لاقتها للظفر بالوصول إلى هذه المجموعة من السكان وفى إضفاء الثقة على العلاقة الموجودة فى المقابلة بين الباحث والمبحوث. ولم يحدث أن بدأت مبحوثاتها فى الكلام بمزيد من الصراحة معها إلا بعد أن اعترفت هى صراحة بهذه الاختلافات بينها وبينهن. وتنقل إلينا إدواردز ما يحدث أثناء مسار المقابلة من جزر ومد (أى هبوط وصعود) فى شعورها بالجمع بين كونها من الأقارب ومن الأغراب تبعاً لطبيعة المسائل التى كانت تناقشها مع مبحوثاتها. وهى تلاحظ أنه عندما كانت المناقشة تتجه إلى موضوع الأمومة كانت تشعر شعوراً متزايداً بأنها "من الأقارب" وتقول فى ذلك: "إن هؤلاء النساء السود كُن يبدين – فعلاً – شيئاً من التصورات المشتركة والمواقف الفكرية المشتركة بيننا (ص ٤٨٨): ولكن عندما كانت المناقشة تعود لتناول مجال ذى طبيعة أكثر عمومية"، كمجال خبراتهن التعليمية مثلاً، وذلك على الرغم من أن المؤلفة (أى الباحثة) كانت – هى الأخرى – تُشاركهن فى وضعية أنها تجمع بين كونها أماً راشدة وطالبة علم فى نفس الوقت؛ فإن الحوار كان يتحول إلى حوار "تصل فيه هؤلاء النساء السود إلى أدنى حد من الكلام معى فى الأمور المشتركة التى تجمعنا أكثر من غيرها" (ص ٤٨٨).

الانعكاسية والاختلاف

بإمكان الباحثين أن ينتفعوا بعملية **الانعكاسية** (التأمل الذاتى) كأداة لمساعدتهم على إنجاز الدراسة رغم وجود الاختلاف. والانعكاسية هى العملية التى من خلالها يتبين الباحث، ويختبر، ويفهم كيف يمكن لخلفيته ومسلماته الاجتماعية أن تتدخل فى عملية البحث. فالباحث إنما هو ابن مجتمعه وهو نتاج ما فيه من أبنية ومؤسسات، شأنه فى ذلك شأن المبحوث تماماً. كما أن معتقداتنا، وخلفياتنا، ومشاعرنا تُشكل جزءًا من عملية إنشاء المعرفة. لذلك يتعين على الباحث أن يكون متنبهاً لوضعيته وتركيبته الخاصة – أى مُتنبهاً لمجموعة الصفات التى يجلبها معه إلى المشروع البحثى – من قبيل: نوعه

الاجتماعى، وعرقه، أو إثنيته، وطبقته، وأى عوامل أخرى قد تكون لها أهميتها بالنسبة لعملية البحث.

والملاحظ أن المشاريع البحثية التى ذكرناها قبل ذلك كانت تتطلب من كل باحث، وفى مرحلة ما أثناء إجراء مشروعه البحثى، أن يُصبح مُتنبهاً لمدى تشابهه مع أو اختلافه عن مبحوثيه. والواقع أن **ممارسة الانعكاسية (التأمل الذاتى)** فى هذه المشروعات البحثية قد دعمت كلاً من الباحث والمبحوث فى موقف المقابلة. شاهد ذلك أن تأمل موضوع الاختلاف أتاح لبيوكيو – بتس (١٩٩٤)، وإدواردز (١٩٩٠)، و ريسمان (١٩٨٨)، و وستون (٢٠٠٤)، و وايس (١٩٩٤)؛ أتاح لهم أن يجروا حوارات مع مبحوثيهم **تتناول أوجه الاختلاف وأوجه التشابه**، وذلك من أجل الفوز بتحقيق التواصل والحصول على البيانات التى لم تكن لتتاح لهم – حتماً – لولا هذه الحوارات، كما أتاح لهم هذا التأمل الذاتى **اكتساب رؤى جديدة** لهذه البيانات. فقد أتاح تأمل وستون (٢٠٠٤) فى هويتها السحاقية وفى مدى تأثيرها على بحثها؛ أتاح لها سهولة الدخول إلى مجتمع السحاقيات. كما أن اعتراف إدواردز (١٩٩٠) بمدى تشابُهها مع مبحوثاتها من الكاريبيات السود واختلافها عنهن قد أمدها بإدراك أكثر تعمقاً للطريقة التى تكلمت بها مبحوثاتها عن القضايا العامة والقضايا الخاصة. أضف إلى ذلك أن وايس (١٩٩٤) وإدواردز (١٩٩٠) تتنبهان إلى أن مفهوم "القريب" ومفهوم "الغريب" مفهومان يتسمان بالسيولة وليس بالثبات، وذلك تبعاً لموضوع البحث المطروح ولما يحدث أثناء المقابلة نفسها من جزر ومد على المستوى الشخصى (أى هبوط وصعود فى مشاعر الباحث والمبحوث).

وتذكرنا الانعكاسية كذلك بأننا بحاجة لأن نكون متيقظين لأهمية الاختلاف بالنسبة لمشروعنا البحثى فى مجموعه. فالاختلاف يؤثر فى نوعية المشروعات التى نختارها، وفى الأسئلة التى نطرحها، وفى الطريقة التى يتم بها جمع البيانات، وتحليلها، وكتابتها، وتفسيرها. لذلك فإن الاختلاف يفرض علينا أن نعمل على اكتشافه، لا على إنكاره.

تحليل وتفسير بيانات المقابلة

فى الفصل العاشر من هذا الكتاب نتناول بالتفصيل موضوع تحليل البيانات وتفسيرها. ومع ذلك، فسوف نزودك هنا ببعض الأفكار العامة المتعلقة بتوليد التحليل الذى يمكن أن نقوم به من واقع البيانات التى تحصلنا عليها من المقابلة. ويزودنا عالم الاجتماع دافيد كارب (والمتخصص فى مجال الاتصال الشخصى) بمدخل تدريجى (انظر النص المذكور فى الإطار أدناه) للطريقة التى بها يمكنك البدء بتحليل البيانات التى حصلت عليها من مقابلتك. وهو يؤكد أهمية بدئك للتحليل فور بدئك فى جمع البيانات. ويعتبر تحليل البيانات الكيفية **عملية تكرارية** لجمع البيانات تستمر جنباً إلى جنب تحليل البيانات. فهاتان العمليتان تسيران بصورة تكاد تكون متزامنة. ويؤكد كارب أهمية كتابة **الحواشى الجانبية** أى أهمية أفكارك المتعلقة بمشروعك، وذلك عن طريق تدوين ما يعن لك من مشاعر وتصوراتك عن مدى ما فى بياناتك من توافق أو عدم توافق. فإذا وصلت فعلاً إلى ما تعتبره اختراقاً مهمًا (أى إنجازاً عظيماً)، فتفكر فيه ملياً. كما أن لكتابة الحواشى الجانبية دوراً فى مساعدة الباحث أن يكون أكثر تأملاً لأوضاعه الشخصية وفى مدى تأثيرها على ما يقوم بدراسته. يُضاف إلى ذلك أن كارب يشير إلى أهمية الخروج أحياناً عن مسارك، حتى تبحث عن "الحالات السلبية"، وهى الحالات التى لا يبدو أنها تتوافق مع بعضها أو التى تكون عصية على الفهم، وذلك عن طريق سؤالك لنفسك: "ما هو الأمر الذى لا يُعزز تفسيرى؟".

أفكار مفيدة عن تحليل بيانات المقابلة يقدمها دافيد كارب

١- "تذكَّر أن العمل التحليلى الذى تقوم به على امتداد هذا الطريق له – تماماً – نفس أهمية جمع البيانات. وإياك أن تقلل من شأن مهمة جمع البيانات وتفضل عليها التفكير فى البيانات وتحليلها. ذلك أن القوة الكبيرة التى تتصف بها بعض الطرق، كطريقة إجراء المقابلة المتعمقة، تتمثل فى أنك تستطيع أن تقوم – فى نفس الوقت – بعملية جمع البيانات مع عملية تحليل البيانات، إذ أن هاتين العمليتين ينبغى أن تفيد وترشِّد بعضهما بعضاً".

٢- "ابدأ كتابة التعليقات مع المقابلة الأولى نفسها. دع بياناتك الأولية تدلك على تحديد أى أفكارك هى التى تبدو معقولة وأيها ينبغى أن يُعاد تقييمها. ويحدث - خاصة فى بداية عملك - أن تسمع الناس يتحدثون عن أشياء لم ترد على فكرك من قبل أبداً. فابحث عن الاتجاهات الرئيسية التى لم يخطر على بالك أبداً أن تسلكها. وينبغى أن يكون معدل سرعتك فى كتابة التعليقات كبيراً عند بداية عملك على وجه الخصوص. ونحن نؤيد كتابة التعليقات "ذات الأفكار" أو "ذات التصورات والمفاهيم" التى تطرح فكرة جديدة. وعادةً ما تستغرق هذه التعليقات صفحتين أو ثلاث صفحات".

٣- "أعد تقييم دليل مقابلتك بعد أن تنتهى من إجراء حوالى عشر مقابلات. ذلك أنه ينبغى لعشر مقابلات أن تمدك بما يكفى من المعلومات لتقوم بإجراء تقدير رئيسى لأهمية ما استطعت أن تتعلمه ولما أخفقت فى تعلمه. ولعله من الملائم فى هذه المرحلة أن تُلقى نظرة فاحصة على القضايا التى يتناولها بحثك وعلى الموضوعات الأساسية التى تتبلور أمام ناظريك".

٤- "إذا رأيت أنك قادر على الإمساك بإحدى الأفكار المحورية، فهذا هو الوقت المناسب لكتابة "تعليق حافل بالبيانات" data memo. وأقصد بهذه الكلمة التعليق الذى يدمج هذه الفكرة المحورية مع البيانات ومع ما هو متاح من الكتابات السابقة التى تتوافق معه. وأعنى بالتعليق الحافل بالبيانات شيئاً يبدو قريب الشبه بورقة البحث. واستعمل فى هذا التعليق - دائماً - قدراً من البيانات أكبر مما تستعمله عادة فى ورقة البحث. وإذا صغت فكرة عامة وشعرت أن لديك عشرة شواهد من البيانات الجيدة التى تدعم تلك الفكرة، فاخضعها كلها للفحص والتدقيق وانتفع بها فيما بعد. تأكد - كذلك - من أنك عرضت أقوال الناس التى **لا تدعم** هذا النمط".

٥- "بمجرد أن تبدأ الأفكار المحورية فى الظهور، حاول أن تخرج عن مسارك لتكتشف الحالات التى لا تتناسب معها. إذ يجب عليك أن تحاول - بأقصى ما تستطيع - أن تدحض أفكارك. لا تخش ما فى الأفكار المحورية من تعقد وغموض. فالعالم معقد ولابد لما تكتبه أن يعكس هذا التعقد. ويوجد

لدى العلماء الاجتماعيين ميل لوصف النماذج كما لو كانت موحدة الشكل أو متناغمة تناغماً كلياً. ومثل هذا الميل إنما يستخف بشأن تعقد الحقائق الاجتماعية المعاشة. فلا تقع فى هوى النظريات القديمة التى تبدو وجيهة فى الظاهر".

٦- "وبعد نحو من ١٥-٢٠ مقابلة قد يكون من المستحسن أن تضع عناوين أو مفاهيم لتصنيف البيانات. وتكون مهمتك حينئذ أن تبدأ بإنشاء ما تستطيع إنشاءه من العناوين أو الفئات التى تبدو معقولة. وكتابة التعليقات طريقة أخرى "للاقتراب الوثيق من البيانات" ولإطلاعك على ما أصبحت تعلمه. ويمكنك فى نهاية الأمر أن تنتفع بعناوين التصنيف هذه عندما تقوم بمراجعة هذه البيانات لكى تكتب ورقة بحثية أو لتكتب تعليقاً".

٧- "أكتب تعليقاً مُستوفى تماماً فى كل مرة يتخذ عملك اتجاهاً جديداً (كأن يحدث مثلاً تغير مهم فى إجراءات اختيار العينات). وقدم شرحاً وافياً لأثر مثل هذه التغيرات فى النواحى التحليلية. فإن ما تكتبه من تعليقات يُمكن أن يشكل "دليلاً للمراجعة" يصلح لمن يريدون أن يسيروا على نهجك فيما بعد. وينبغى أن يكون القائمون بالبحث الكيفى مسئولين مسئولية تامة عن إجراءاتهم، شأنهم فى ذلك شأن من يستخدمون إجراءات منهجية أكثر قياسية وتقنيناً".

٨- "إذا رأيت أن لديك فكرة محورية لها من الأهمية ما يكفى لأن تكتب ورقة بحثية عنها للنشر، فلا تتردد فى فعل ذلك. فإن نشر الأوراق البحثية عمل من شأنه أن يؤكد هذه الأفكار ويدعمها كما يصل بأفكارك إلى مستوى عالٍ من الصقل والتنقيح. ولست بملزم لأن تنتظر حتى تستوفى تجميع سائر بياناتك قبل أن تكتب أوراقاً بحثية. فسوف تجد أن بعض أوراقك البحثية ستكون بمثابة "عينات فرعية" موجودة داخل العينة الكبيرة".

٩- "قُم، وعلى نحوٍ دورى منتظم الفترات، بكتابة مخططات تمهيدية لما يمكن أن تكون عليه صورة الكتاب، أو الأطروحة (أى الرسالة العلمية المقدمة لنيل شهادة جامعية)، أو الورقة البحثية المستمدة من البيانات التى حصلت عليها. قم بصياغة تصور مبدئي لخطة العمل الذي تنوى تأليفه.

تظاهر أنك تهم بالجلوس لتكتب كتاباً. فهذا تمرين جيد يجعلك تقوم برسم الصورة الكلية".

١٠- "لا تكن مهووساً بمسألة الحصول على نفس البيانات ذاتها من كل مبحوث. فسوف تجد أن القصة التي يحكيها كل مبحوث تُعد قصة متفردة إلى حد ما. وستحتاج في أثناء كتابتك إلى أن تشير، هنا وهناك، إلى مثل هذه القصة المتفردة. ولعل من الأفكار الحسنة أن تكتب نبذة مختصرة – في نحو صفحة واحدة – تصف فيها الأفكار المحورية الرئيسية التي ترد في كل مقابلة".

١١- "اختبر فروضك بعرضها على مبحوثيك. وحاول أن تدمج فروضك في أسئلتك، كأن تقول مثلاً لمبحوثك: (لعلك تعلم أن بعض من تكلمت معهم يقولون لي كذا... فهل هذا الكلام مقبول عندك؟). إذ لا يوجد مبرر لإخفاء أو كتمان الفروض، والأفكار، والمفاهيم عن المبحوثين".

١٢- انتبه للحالات المتطرفة، فكثيراً ما تكون مثل هذه الحالات هي الأثرى بالمعلومات. وكن حذراً من أن تقوم بتحليلها أو معالجتها بوصفها "حالة منحرفة".

خاتمة

تعتبر المقابلة المتعمقة طريقة رائعة للوقوف على ما يعايشه الناس من خبرات وما لديهم من رؤى وأفكار. وتتطلب المقابلات الكيفية بناء الألفة والتفاعل بين الباحث والمبحوث في موقف المقابلة. وثمة كثير من العوامل التي تؤثر على الطريقة التي تسير بها المقابلة، وكما سبق أن رأينا، فإنه لا يجوز أن نتجاهل الاختلاف، بل ينبغي دمجه داخل خطة البحث وفي عملية جمع البيانات من البداية وحتى النهاية. أما القضايا الأخرى، كقضية المشاركة في السلطة والاشتراك في خلق السرد، والتي عرضنا لها في هذا الفصل، فسوف تناقش بمزيد من التفصيل في الفصل التالي عن مقابلات التاريخ الشفاهي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- الاشتراك فى خلق المعنى • **Co-creation of Meaning**

يحدث هذا عندما يتشارك الباحث والمبحوث فى خلق المعنى أو توليد المعرفة بشكل تعاونى. وتعد المقابلة – عادة – هى المناسبة لهذه المشاركة فى خلق المعنى. ويتمثل واجب الباحث في أن ينصت بكل تركيز إلى ما يقوله المبحوث، وأن يكون على استعداد لأن يتخلى عن جدول أعماله استجابة لما يطرأ خلال المقابلة.

- نقطة التركيز الأساسية • **Focused Topic**

الموضوع المحدد الذى يركز الباحث على دراسته.

- المقابلة المتعمقة • **In-Depth Interview**

مقابلة من النوع الكيفى يسعى فيها الباحث إلى التماس المعرفة من وجهة نظر المبحوث.

- مكانة القريب (الباحث من داخل الجماعة) • **Insider Status**

حيث يشترك الباحث مع مبحوثيه فى سمة أو خاصية أو خبرة معينة. فقد كانت إحدى الاستراتيجيات التى لجأ إليها الباحثون للتغلب على تأثير الاختلاف فى عملية المقابلة أن يضمنوا وجود قدر من "التوافق" بين سمات مبحوثيهم وبعض سماتهم هم الأساسية (كالعرق، أو العمر، أو النوع، أو الميول الجنسية) بحيث يفيدون من مكانة القريب (كما لو كانوا من داخل جماعة المبحوثين) فى تنفيذ المقابلة والنجاح فى الحصول على تعاون المبحوث وخلق جو من الألفة فى المقابلة، الأمر الذى من شأنه أن ييسر لهم فهم مبحوثيهم.

- دليل المقابلة • **Interview Guide**

الدليل عبارة عن قائمة بالموضوعات أو الأسئلة التى تعد قبل ترتيب المقابلة لكى تستخدم – أثناءها – حسب تقدير الباحث.

- **Knowledge-Producing Conversation** • **الحوار المنتج للمعرفة**

تمثل المقابلة الكيفية نوعاً خاصاً من الحوار المنتج للمعرفة الذى يتم بين طرفين اثنين. من هنا فإن العلاقة بين الباحث والمبحوث تكون ذات أهمية حاسمة لعملية خلق المعنى.

- **Line of Inquiry** • **مجال البحث (أو خط البحث)**

يعرف أيضاً باسم **مجال البحث** domain of Inquiry، وهو كل موضوع يكون مدرجاً ضمن دليل المقابلة وتكون أنت حريصاً على تقصى جوانبه أثناء جلسة المقابلة.

- **Low-Structure Interview** • **المقابلة المفتوحة (الأقل تقنيناً)**

انظر : المقابلة المفتوحة.

- **Markers** • **الإيحاءات**

الإيحاءات هى نتف مهمة من المعلومات قد يدلى بها المبحوث وهو بصدد الحديث عن موضوع آخر. ومن المهم أن يلتفت إليها الباحث ويتذكرها، ويعود إلى الحديث عنها مع المبحوث عندما تواتيه الفرصة لذلك.

- **Meaning – Making Partnership** • **المشاركة فى صنع المعنى**

تعد المقابلات المتعمقة نوعاً من المشاركة بين الباحث و مبحوثيه فى صنع المعنى. فجلسات المقابلة تتيح للباحثين التعرف على الحياة الاجتماعية من وجهة نظر من يعيشونها، ومن خلال تجاربهم، وبلغتهم هم.

- **Open-Ended Interview** • **المقابلة المفتوحة**

فى هذا النوع من المقابلات يكون لدى الباحث موضوعاً معيناً يود دراسته، ويترك الحوار مع المبحوث يأخذه إلى حيث يشاء، ومن ثم يكون لكل مقابلة مفتوحة طابعاً فردياً يميزها. ويعرف هذا النوع من المقابلة أيضاً باسم **"المقابلة الأقل تقنيناً"**.

- مكانة الغريب (الباحث من خارج الجماعة) **Outsider Status**

يعنى هذا وجود فروق واختلافات أساسية بين الباحث والمبحوثين، كالاختلاف فى العرق، أو النوع، أو الطبقة الاجتماعية، أو الميول الجنسية، أو مستوى التعليم... إلخ. والتفكير المعتاد فى مسألة وجود مثل هذه الفروق والاختلافات فى موقف المقابلة يرى أن شغل الباحث "مكانة الغريب" قد يجعل من الصعب عليه أن ينفذ إلى عقل وقلب "الآخر" (المبحوث المختلف عنه) ويتفهم موقفه.

- المجس **Probe**

هو طريقة الباحث فى حمل المبحوث على متابعة حديثه فى الموضوع الذى يتكلم عنه، وأن يستفيض فى الحكى أو فى الشرح؛ ويكون ذلك من خلال تقديم ذلك الباحث لمثال أو شاهد توضيحى. وفى بعض الأحيان لا يزيد المجس عن كونه إبداء إيماءة – تدل على الفهم والاهتمام – يبديها الباحث للمبحوث المستغرق فى الكلام.

- ألفة **Rapport**

يستطيع الباحث أن يساعد المبحوث على الإفضاء إليه بحكاياته بخلق علاقة ألفة بينهما. إذ لابد أن يشعر المبحوث بالأمان، والراحة، وكما لو كانت الأشياء التى يقولها ذات قيمة كبرى للباحث. ولتحقيق ذلك يتعين على الباحث أن يقوم بدور المنصت باهتمام إلى ما يقوله المبحوث. والمهم أن إبداء الاهتمام الحقيقى هو من الأمور الحاسمة فى خلق علاقة الألفة والمودة.

- الانعكاسية (التأمل النقدى) **Reflexivity**

الانعكاسية هى عملية التأمل النقدى التى بفضلها: يتبين الباحث، ويختبر، ويفهم كيف يمكن أن تتدخل خلفيته ومسلماته الاجتماعية بالتأثير على عملية البحث. فالانعكاسية نوع من الحساسية المرهفة لديناميات العلاقة بين الباحث والمبحوث، التى يمكن أن تؤثر على خلق المعرفة. ويستطيع الباحثون أن يستخدموا عملية التأمل النقدى هذه (أو الانعكاسية) كوسيلة تعينهم على الدراسة رغم وجود الفروق والاختلافات بينهم وبين المبحوثين.

• المقابلة شبه المقننة • Semistructured Interview

تعتمد المقابلة شبه المقننة على مجموعة معينة من الأسئلة تحاول استخدامها فى توجيه الحوار مع المبحوث، بحيث يظل - وإن بشكل مرن - على تركيزه على تلك الأسئلة.

• المقابلة المقننة • Structured Interview

تعنى أن الباحث يوجه إلى كل واحد من المبحوثين الذين يقابلهم نفس مجموعة الأسئلة. وإذا حدث وحاد المبحوث بعيداً عن الموضوع الذى يدور حوله الحديث، أو تطرق إلى الكلام عن بعض الأمور المهمة أو الطريفة التى ليست مرتبطة مباشرة بالدراسة، فإن الباحث يحرص على توجيه الحوار بحيث يعود إلى أسئلة المقابلة مرة أخرى.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- متى يكون من المناسب استخدام طريقة المقابلة المتعمقة؟ وما هى نوع الأسئلة التى تكون هذه الطريقة هى الأكثر ملاءمة للإجابة عليها، ومتى يتحتم استخدامها هى بدلاً من الطريقة الإثنوجرافية؟

٢- ما هو نوع الحوار الذى يتم فى موقف المقابلة المتعمقة؟

٣- اشرح مستويات تقنين المقابلة التى يستطيع الباحث أن يلجأ إليها، ومتى يكون من الأنسب استخدام أسلوب مقنن إلى حد ما فى إجراء المقابلة. وكيف تختلف المقابلات الكيفية عن المقابلات الكمية؟

٤- ما هو دليل المقابلة؟ وكيف يتم وضع دليل للمقابلة، وما هو الأسلوب الأمثل لاستخدام دليل المقابلة؟

٥- اشرح أهمية خلق جو من الألفة فى المقابلة. ومن هذه الزاوية: ماذا يعنى القول بأن المقابلات الكيفية تعتمد كل الاعتماد على المشاركة فى خلق المعنى؟

٦- ناقش قضايا الاختلاف فى المقابلات المكثفة. ما هى مزايا كون الباحث "قريباً" (يشبه المبحوث أو جماعته). وما هى مزايا وعيوب كون الباحث "غريباً" (مختلفاً فى السمات الأساسية عن المبحوث أو

جماعته)؟ اشرح كيف تتعايش هذه المكانات على متصل مرن أثنـاء ممارسة البحث فعلياً؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- **Education Online "Collecting data by in-depth interviewing"** التعليم إلكترونياً: "جمع البيانات عن طريق المقابلات المتعمقة"

http://www.leeds.ac.uk/educol/documents/00000/172.htm

هذا عرض لورقة بحثية عن أساسيات عملية إجراء المقابلة المتعمقة. وفيها يشرح المؤلف كيف يجمع الباحث البيانات خلال مراحل دراسته. وهناك قسم من الورقة يفصل القول في أنواع الأسئلة التي يمكن توجيهها. وتنتهي الورقة البحثية بقائمة ببليوجرافية مسهبة.

- **Audience Dialogue** حوار الجمهور

http://www.audiencedialogue.org/kya.10.html

أنشيء هذا الموقع بمعرفة "حوار الجمهور" لكي يزود المتواصلين معه من جميع الأنحاء بالمعلومات المفيدة. ويجزئ الموقع العملية البحثية إلى عمليات فرعية، واصفاً ما يتعين على الباحث إنجازه: قبل – وأثناء – وبعد هذا الشكل من أشكال جمع البيانات.

* * *

References المراجع

- Anderson, K., & Jack, D. C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 7-11). New York: Routledge.
- Beoku-Betts, J. (1994): When black is not enough: Doing field research among Gullah women. *NWSA Journal*, 6(3), 413-433.
- Eswards, R. (1990). Connecting methods and epistemology: A white woman interviewing black women. *Women's Studies International Forum*, 13(5), 477-490.
- Harding, S. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49-82). New York: Routledge.
- Johnson, J. M. (2002). "In-depth interviewing." In J. F. Gubrium and J. A. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 103-119). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society*, 1, 172-207.
- Oakley, A. (1981). Interviewing women: A countradiction in terms. In H. Roberts (Ed.), *Doing feminist research* (pp. 30-61). London: Routledge and Kegan Paul.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Riessman, C. K. (1988). Worlds of difference: Contrasting experience in marriage and narrative styles. In A. D. Todd & S. Fisher (Eds.), *Gender and discourse: The power of talk* (pp. 151-173). Norwood, NJ: Ablex.
- Safa, H. I. 1981. Runaway shops and female employment: The search for cheap labor. *Signs*, 7(2), 418-433.
- Warren, C. A. B. (2002). Qualitative interviewing. In J. F. Gubrium and J. A. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 83-101). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weiss, R. S. (1994). *Learning from strangers: The art and methods of qualitative interview studies*. New York: The Free Press.
- Weston, K. (2004). Fieldwork in lesbian and gay communities. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 198-205). New York: Oxford University Press.

الفصل الخامس

التاريخ الشفاهى

طريقة مساعدة للمقابلة القائمة على السيرة (الذاتية)

"الكلام يحمى المتكلم
من النسيان"

ألساندرو بورتلى

القص Storytelling (أو الحكى، أو سرد الحكايات) مكون طبيعى من مكونات الخبرة البشرية، فالبشر يتناقلون المعانى من خلال الكلام. وقد استخدم المؤرخون الشفاهيون تراث نقل المعرفة هذا وابتكروا أسلوب بحث مهم يقر بصحة التعبير القائم على الصوت البشرى. ومع أن القص له تاريخ قديم، فإن تطويع هذه العملية البشرية لتكون طريقة بحث معترفاً بها ومعتمدة يعد أمراً حديثاً نسبياً.

اعتُمد التاريخ الشفاهى فى سنة ١٩٤٨ كأسلوب حديث للتوثيق التاريخى عندما بدأ المؤرخ آلان نفينز Alan Nevins الأستاذ بجامعة كولومبيا القيام بالتسجيل الصوتى للسير الذاتية لبعض الأشخاص ذوى الأهمية فى الحياة الأمريكية (جمعية التاريخ الشفاهى لأمريكا الشمالية، نقلاً عن طومسون Thomson، ١٩٩٨، ص ٥٨١).

ويرى بعض الباحثين أن من المفيد التمييز بين "التراث الشفاهى" Oral tradition و"التاريخ الشفاهى" Oral history، وذلك باعتبار أن التراث الشفاهى هو المظلة الشاملة التى تندرج تحتها طريقة التاريخ الشفاهى. ويشير مصطلح "التراث الشفاهى" بين كثير من السكان الأصليين لأمريكا إلى القصص التى تم تداولها على امتداد أجيال متعددة، والتى قد تتضمن – كذلك – شخوصاً أو كائنات غير بشرية (Willson, 1996, p. 8). من هنا يختلف هذا المصطلح عن الاستعمال الأكاديمى الأحدث لمصطلح "التاريخ الشفاهى"، والذى تُجمع فيه القصص الشخصية من أحد الأفراد.

وكما سيتضح لك فى هذا الفصل، فإن طريقة التاريخ الشفاهى تُعد نوعاً متميزاً جداً من المقابلة، لأن عملية القص التى تنبنى عليها إنما هى عملية من نوع خاص. ذلك أنه توجد أثناء عملية السرد لحظات من التنبه والوعى، كما تتحقق فى الحالات المثلى من القص الشفاهى لحظات من التعليم والتمكين أيضاً. شاهد ذلك أنه عند قيامى باستطلاع التاريخ الشفاهى لحياة طالبة جامعية تخوض معركة قاسية ضد مرض "فقدان الشهية العصبى" أن تنبهت الفتاة عند لحظة معينة خلال عملية التسجيل التى استغرقت جلستين طويلتين – حدث أن تنبهت لتلك اللحظة فى حياتها، والتى بلغت ذروتها بالتحول إلى الإصابة بمرض فقدان الشهية العصبى. لقد كانت لحظة مهمة من لحظات روايتها لقصة حياتها لم يكن من الممكن أن تخطر ببالها إلا فى ثنايا سردها لقصة حياتها. ولم يقتصر أمر هذه اللحظة على أنها مثلت نقطة تحول مهمة فى وعى هذه المبحوثة بنفسها، بل يُضاف إلى ذلك أنها ساعدتها على أن تتفهم بوضوح واستفاضة معرفتها الجوهرية الراهنة عن قابليتها للتعرض لاضطرابات الأكل وعن بداية معاناتها من تلك الاضطرابات. ولم يكن من الممكن لهذا الوضوح الذى بدا على إدراك (المبحوثة الشابة) "كلير" Claire لتلك اللحظة التى بدأت تصاب فيها بوساوس خاصة بشكل جسدها، وللطريقة التى حدثت بها هذه الإصابة المرضية فى بداية الأمر؛ لم يكن من الممكن لهذا الوضوح أن يتحقق إلا من خلال سردها لقصة حياتها منذ مرحلة الطفولة. وفى ذلك تقول المبحوثة:

كنت أركز – إلى حد ما – على ما مررت به من ظروف وملابسات، وعلى قلة الفرص التى كانت تُتاح لى. ومن قبيل ذلك، كل تلك الأمور التى مرت بى، وقد كنت أعد العدة للانتظار – كما تعلم – وقد انتظرت لمدة، لمدة طويلة جداً، وكأن كل واحد يقول "فى يوم ما، فى يوم ما". ثم جاء هذا اليوم، ولم يحدث شيء. هل تفهم ما أعنيه؟ ولهذا كان ذلك الأمر شاقاً علىَّ. ولكننى، وقد حدث ذلك فعلاً فى ذلك الوقت، والذى فيه علمت أننى كنت موجودة فى الكلية، حدث أن تذكرت أننى كنت ساعتها أفكر فى شئونى. حسناً، من الواضح أننى أستطيع التعامل مع أساتذتى بالجامعة. أما عن الأصدقاء، فقد لا أكوّن صداقاتى الوثيقة مع زملاء من داخل الكلية، إلا أنه مازال لدى صداقات

مع زملاء من المدرسة الثانوية. هل تدرى ما الذى كنت أنوى عمله فى ذلـك الوقت؟ فقد كنت جالسة هنا وأنا انظر إلى فترة ثلاث سنوات وهى تمضى، فما الذى أنوى أن أفعله بثلاث سنوات من حياتى؟ هل تعرف؟ أعتقـد أن الأمـر الآخر الذى أصابنى بالإحباط، هو أن المحاضرات الأخـرى بالكليـة كانـت شبيهة بالمحاضرات التى كنت أتلقاها بالمدرسة الثانوية، باستثناء مـستوياتها وتوجهاتها. فقد كانت الدراسة بها شديدة التقنين والنمطية، ومشابهة لبعـضها أشد التشابه، وقائمة على الاستظهار بدون فهم، فكانت علـى النقـيض مـن الدراسة القائمة على: ما هى أفكارك فى هذا الموضوع؟ وهل تـرى أن هـذه الفكرة صائبة؟ وما هو إحساسك الذى تشعر به إزاء هذا الموضـوع؟ وهكـذا كنت تقريباً أشبه بمن يتساءل عما أنوى عمله بهذه السنوات الثلاث؟ كما أننى أستطيع الآن أن أتذكر ذلك اليوم، عندما كنت أفكر فى نفسى، حسناً، فعلى أقل تقدير أستطيع أن أروى حكاية الصورة التى كنت أريد أن أبدو بهـا. وهـى أقرب إلى رغبتى فى أن أكون ناجحة فى نظر نفسى، وكان الأمر يبدو كما لو كانت فى ذهنى صورة معينة، وهذه الصورة لم تكن تشبه امـرأة لهـا وجـه ممتلئ كوجه الطفل البدين. هل تفهمنى؟ لقد كانت صورة فتاة رشيقة جداً؛ لقد كانت صورة عجيبة لأننى لم أرد أبداً أن أكون نحيفة. بل كنت أريد أن أكون قوية. فأنا دائماً، أعنى، خاصة وأننى نشأت بين أولاد، أريد أن أكون قـادرة على تحديهم فى لعبة كرة السلة. كم كنت أريد أن أكون قادرة على تحديهم فى لعبة كرة السلة. كما أننى كنت أريد أن أكون قادرة علـى ممارسـة رياضـة التزلج على الجليد، هل تفهمنى؟ فكل ما كنت أريده هو أن يكون لـدى قـوام حسن فعلاً. كما أن كل ما كنت أحبه – فعلاً – كان على أقل تقدير، أن أتمكن من تنظيم أمورى الصحية. هل تفهمنى؟ وذلك على الرغم من أنه ليس لـدى الكثير لأعمله فيما يتصل بهذا القرار، والآن إذا استعدت هذه الأمور أسـتطيع أن أدرك أنه كان لدى صوت فعلاً (أى قدرة على التعبير عن النفس). لقد كان بمقدورى أن أقول لنفسى: انس هذا الأمر، فأنا على وشك مغادرة الكلية فعلاً. ولكننى عندما قمت بتقدير كل من المزايا والعيوب، خاصة لأننى كنت دائمـاً ممن يحرصون على الوئام فى حياتى، وجدت أن قيامى بالإخلال بالتوازن، أو

تسببى فى إحداث اضطراب أو إزعاج بلا مبرر ليس من الأمور التى أرغب فى فعلها. ولذلك فإننى أتذكر جيداً قولي لنفسي: "حسناً، سوف أبدا ممارسة التمرينات الرياضية وأراقب طعامى جيداً، وأنا أقصد بذلك – فى الحقيقة – أن هذا الوقت كان هو المرة الأولى التى لم أكن مشتركة فيها فى لعبات رياضية منظمة، لذلك، فإنني لم أكن أرتقى وأتحسن من موسم لموسم آخر. ***هكذا كانت*** *أحوالى آنذاك –* ***فعلاً – وهذا هو ما قررت أن أفعله****.* [ليفى Leavy، ١٩٩٨، المقابلة الثانية مع كلير (اسم مستعار) وعلامات التأكيد مضافة من قبل المؤلف].

ما أعظمها من لحظة فى عملية البحث هذه – وهى لحظة الكشف عن توقيت وسبب بداية ما يمكن أن يتحول إلى وسواس تجاه الجسد يهدد الحياة، متى ولماذا بدأ منذ سنتين مضتا.

وهكذا تستطيع الآن أن ترى أن التاريخ الشفاهى نوعٌ خاص من المقابلة المكثفة القائمة على سرد السيرة الذاتية. ففي أثناء مشروع بحثى يستخدم التاريخ الشفاهى يمضى الباحث قدراً كبيراً من الوقت مع مبحوث واحد كى يتمكن من أن يحيط علماً بحياته أو بجانب معين من حياته. وقد اقتبسنا ذلك النص السابق من مشروع كان يستخدم التاريخ الشفاهى كوسيلة لفهم كيفية تحول بعض الطالبات الجامعيات اللائى كن ناجحات إلى مصابات باضطرابات الطعام شديدات التركيز على أجسادهن، بحيث تتكشف لنا الخبرات الحياتية التى تشابكت مع بعضها بطريقة تسببت فى تعريض "كلير" وغيرها للإصابة بالوساوس (المرضية) المتعلقة بصورة الجسد عندهن. إلا أنه لا يكفى القول هنا إننا نعلم كل شيء عن حيوات مبحوثاتنا بنفس الطريقة المستعملة فى الطرق الكيفية الأخرى كالمقابلة والملاحظة، فالتاريخ الشفاهى يتيح للباحثين أن يعرفوا حيوات المبحوثين من وجهة نظر أولئك المبحوثين الشخصية، بمعنى: ما هى الأمور التى لها معنى عندهم، وما الذى يعدونه مهماً، وما هى مشاعرهم واتجاهاتهم (الصريحة منها والمضمرة)، وما هى العلاقات بين الخبرات الحياتية المختلفة أو بين المراحل المختلفة من حياتهم. فالمبحوثون يعرضون ما لديهم من وجهات نظر وآراء فى خبراتهم الحياتية

الشخصية. فدراسات التاريخ الشفاهى تتيح فرص المشاركة بين الباحث والمبحوث فى توليد المعرفة. وتقدم عملية التبادل هذه فرصاً متميزة، وتقييماً أخلاقياً مستمراً (وهو الأمر الذى يزداد بروزاً وأهمية فى العصر الإلكترونى)، كما تقدم طائفة من التحديات فى مجال التأويل. ونظراً لكون التاريخ الشفاهى طريقة نسوية فى الغالب، فإنه يتيح لنا الإحاطة بالمعرفة القيمة والخبرة الحياتية الغنية الخاصة بالأفراد المهمشين والجماعات المهمشة، التى لولا ذلك لظلت فى وضع لا يسمع لها فيه صوت، كما أنه يوفر لنا، بصفة خاصة، طريقة للوصول إلى الأصوات المقهورة. وبجانب كون التاريخ الشفاهى يساهم فى إثراء المعرفة العلمية الاجتماعية بصورة جوهرية، فإن بإمكان عملية التاريخ الشفاهى أن تكون خبرة مجزية وداعمة لكل من المبحوث والباحث على السواء، كما حدث فى حالة "كلير"، والتى تحدثت بعد ذلك عما شعرت به من القوة التى اكتسبتها من خلال ظفرها برؤية صائبة لبعض اللحظات الفاصلة فى حياتها.

اختلاف التاريخ الشفاهى عن المقابلة المتعمقة

ما هو التاريخ الشفاهى؟ يُعد التاريخ الشفاهى – كما أشرنا من قبل – نوعاً خاصاً من أنواع المقابلة بمقتضاه يمضى الباحث و المبحوثون وقتاً ممتداً مع بعضهم البعض وهم منهمكون فى عملية القص والإصغاء. وبتعبير آخر، يعد التاريخ الشفاهى عملية مشتركة لبناء السرد. ومع ذلك، فإن هذا وحده لا يميز التاريخ الشفاهى عن الأشكال الأخرى للمقابلة الكيفية. لذلك يكون السؤال الحقيقى هو: ما الذى يجعل التاريخ الشفاهى ذا طبيعة خاصة متميزة؟ ما هو الأمر المتفرد فى هذه الطريقة، وكيف يستعمل الباحثون الكيفيون هذه الطريقة، وما الذى تضيفه إلى معرفتنا بالعالم الاجتماعى؟ ومن أجل تقديم شرح تفصيلى للصفات الخاصة للتاريخ الشفاهى، يتعين علينا أن نميزه عن المقابلة المتعمقة، والتى تُعد أكثر البدائل قرباً منه.

كما رأينا فى الفصل السابق، تُعد المقابلات المتعمقة أسلوباً ممتازاً لجمع البيانات الكيفية الغزيرة محكية من وجهة نظر الناس الذين ندرسهم. ويصدق نفس هذا الكلام على التاريخ الشفاهى. ووجه الخلاف أنه عند استخدام

المقابلات المتعمقة يكون لدى الباحث الذى يجرى المقابلة – فى العادة – موضوع يركز عليه طوال المقابلة، كما أنه يلتزم بدليل للمقابلة قد يكون – كما رأينا – مقنناً أو غير مقنن إلى حد ما. وقد تطرح على المبحوثين، أو لا تُطرح عليهم، أسئلة مماثلة، وهو الأمر الذى يتوقف على تصميم المشروع وأهدافه. وتختلف مقابلات التاريخ الشفاهى عن المقابلة المتعمقة فى أنه بينما يكون الباحث مشتغلاً بدراسة موضوع محدد، فإن تنظيم هذا الموضوع قد يكون أقل تركيزاً إلى حد بعيد.

مثال ذلك، أنك إن كنت مهتماً بدراسة القضايا الخاصة بصورة الجسد التى تخبرها الفتيات أثناء دراستهن بالجامعة، فقد تكون المقابلات المتعمقة هى الطريقة الملائمة للتركيز على تلك القضايا، فى نفس الوقت الذى تتيح فيه للمبحوثات متسعاً كافياً ليوضحن – على نحو كيفى – ما يعتبرنه مهماً فى هذا الشأن من وجهة نظرهن. والآن لنفترض أنك تريد دراسة قضايا صورة الجسد بين الطالبات الجامعيات بوصفها جزءًا من مسيرة حياتهن. ومعنى هذا أنه إن كنت مهتماً بحياة المبحوثة منذ طفولتها، والتى منها مثلاً تلك الخبرات الحياتية المختلفة التى تكون قد تضافرت لتتسبب فى إحداث نقاط ضعف معينة تتصل بصورة الجسد عندما أصبحت طالبة بالجامعة؛ هنا قد يكون التاريخ الشفاهى الطريقة الملائمة للدراسة. وهذا هو ما حدث فى الدراسة التى شاركت فيها الفتاة الجامعية "كلير".

فالتاريخ الشفاهى يُتيح لك أن تدرس فترة طويلة من حياة الشخص المبحوث أو حتى تدرس حياته كلها. وبإمكانك أن تضيق نطاق هذا الموضوع، كأن تقصره مثلاً على صورة الجسد، أو على خبرات العمل، أو على خبرات المبحوث مع والديه... إلخ، إلا أنك – فى نهاية الأمر – سوف تتحصل على قصة متعمقة إلى حد بعيد من كل مبحوث على حدة. وقد يُضحى هذا التعمق بشيء من التوسع فى التفاصيل، نظراً لأن هذا التعمق يبدأ بالإسهاب فى شرح بعض الخبرات المعينة على حساب استبعاد خبرات أخرى، غير أننا سوف نُناقش هذه النقطة لاحقاً خلال هذا الفصل.

لا يكفى أن تقول إنك تدرس لفترة طويلة من الوقت باستعمال طريقة التاريخ الشفاهى، ففى الواقع، قد لا يصدق هذا الكلام على بعض الحالات. فالأمر الحاسم الذى ترتكز عليه قوة هذه الطريقة حقيقة هو أن تستطيع أن تدرس العملية (أو المسيرة: المتكونة من خطوات ومراحل متعددة). فإن كنت تدرس حياة فتاة ابتداءً من طفولتها حتى مرحلة دراستها الجامعية لكى تفهم أفكارها الخاصة بصورة الجسد عندها فى الوقت الحاضر، فإن الذى سوف تعلمه لن يقتصر على ما تُعايشه هذه الفتاة حالياً من خبرات ونظرتها إلى هذه الأمور، بل سيشمل كذلك العملية التى أدت بها إلى الحال الذى آلت إليه. وبالمثل، فإن ما تحكيه الفتاة من العمليات والملابسات المتصلة بتاريخ حياتها سوف يُبرز حكايتها بطرق تساعدنا على فهم التأثير الفردى داخل سياق البيئات الاجتماعية والطبيعية المحيطة بها. وهكذا، فإنه بينما يُركز التاريخ الشفاهى على هذه الشخصية وعلى قصتها، فإن بالإمكان الانتفاع به كذلك فى ربط الظواهر الجزئية (على المستوى الميكرو) والظواهر الكلية (على المستوى الكبير) والخبرات الحياتية الشخصية بالملابسات التاريخية الأوسع نطاقاً منها.

ووفقاً لذلك، فإن التاريخ الشفاهى طريقة أساسية لفهم الخبرات الحياتية بأسلوب أكثر كلية وشمولاً بالمقارنة مع الطرق الأخرى للمقابلة. وتتوافق هذه الطريقة مع مبادئ البحث الكيفى، كما أن بإمكانها أن توفر لنا بيانات وصفية غزيرة بجانب ما توفره من الإحاطة بالعمليات الاجتماعية. وبينما تكون بعض الموضوعات أكثر تلاؤماً مع طريقة بحث واحدة فقط، تكون الموضوعات ذات الأبعاد التاريخية ملائمة بدرجة عالية لطريقة التاريخ الشفاهى. مثال ذلك، أنك إن كنت مهتماً بدراسة أحد الأحداث التاريخية أو إحدى الفترات الزمنية وكيف عايش عددٌ معين من السكان هذا الحدث أو كيف عاشوا فى هذه الفترة، فقد يكون التاريخ الشفاهى هو الطريقة المُثلى لمثل هذه الدراسة.

استعملت بوتنج Botting (٢٠٠٠) التاريخ الشفاهى كطريقة لفهم خبرات مجموعة معينة من النساء العاملات خلال سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وقد كانت مهتمة – بصفة خاصة – بخادمات

المنازل اللاتى قدمن مهاجرات من بعض المجتمعات الساحلية إلى إحدى المدن الصناعية بولاية نيوفوندلاند لغرض التوظف. وقد استعملت طريقة التاريخ الشفاهى كأسلوب لفهم كل من الخبرة المتعلقة بالهجرة والخبرة المتعلقة بالخدمة فى المنازل لدى هذه المجموعة من العاملات، واللاتى كن يمثلن – فى ذلك الوقت – نسبة كبيرة من النساء العاملات فى تلك المنطقة. ويعد هذا النوع من البحث ذا أهمية جوهرية فى ملء الثغرات الموجودة فى قاعدتنا المعرفية الحالية عن معنى أن تكون إنسانة ما امرأة من طبقة اجتماعية معينة فى زمن مُعين، ومكان معين، ومهنة معينة، وذلك من وجهة النظر الشخصية لتلك المرأة. وتوجد أمثلة عديدة على الطريقة التى يُمكن أن نبدأ بها فهم الخبرات التى لم تُدرس من قبل، وذلك انطلاقاً من وجهة النظر المتميزة لأولئك الذين عايشوا هذه الخبرات، وذلك من خلال استعمال طريقة التاريخ الشفاهى بالأسلوب الذى اتبعته بوتنج. فباستعمال هذه الطريقة يمكن للجماعات التى تم استبعادُها قبل ذلك أن تشاطرنا معرفتها القيمة. وبالإضافة إلى هذه الأنواع من الخبرات الواسعة التى يوفرها التاريخ الشفاهى، فإنه يُعد طريقة لا تقدر بثمن للوصول إلى فهم كيف عايش الناس الأحداث التاريخية المهمة وكيف فهموها.

بدأ كروثرز Crothers (٢٠٠٢) مشروعاً رائعاً فى جامعة إنديانا سوث إيست، قام فيه الطلاب الجامعيون بإجراء مقابلات ذات طابع شامل مع المقيمين فى هذا المجتمع المحلى تناولت بعض الأحداث التاريخية. وقد أُجريت المقابلات، على وجه الخصوص، مع قدامى المحاربين الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الثانية، وفى حرب كوريا باعتبار أنهم أُناس عاشوا أثناء فترة الكساد العظيم(*). وقد كان لهذه الدراسة أثر إيجابى هائل على كل من الطلبة الذين قاموا بإجراء المقابلات والأفراد الذين أُجريت معهم هذه المقابلات. ويمكن النظر إلى أحد أبعاد هذه النتيجة بوصفه دعماً لبناء المجتمع المحلى، وذلك لأن هذا المجتمع ازداد معرفة بأحوال أعضائه الذين يُشكلون عناصره التى يتكون منها. وفيما يتصل بالفوائد التعليمية المباشرة التى جناها

(*) فى الولايات المتحدة والعالم فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين (المترجم).

الطلاب الجامعيون، فإنهم ازدادوا علماً بالعلاقة بين الخبرة الفردية والظروف الاجتماعية التاريخية، وهو الأمر الذى يبرز أهمية المنظور التاريخى أثناء معايشة الخبرة الخاصة بإجراء البحث الكيفى.

بعد أن قام الطلاب الجامعيون بإجراء المقابلات مع قُدامى المحاربين الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الثانية وفى الحرب الكورية، لم يعد أولئك الطلاب ينظرون إلى بيرل هاربور ونورماندى، وايووجيما، وهيروشيما وإنشون كمواقع بعيدة موجودة على الخريطة، بل كأماكن قاتل فيها شباب أمريكيون أمثالهم وماتوا فى ظروف بائسة وبدون أن يعلم بهم أحدٌ غالباً. ويتعلم الطلاب أنه على الرغم من أن هؤلاء المحاربين القدماء جميعاً لم ينسوا أبدا خدمتهم العسكرية وما زالوا يفتخرون بها، فإن أغلبهم لم تراوده أى رغبة فى تكرار هذه التجربة. وقد ترك المحاربون القدماء يعانون عجزاً دائماً بدنياً ونفسياً، أما من كان منهم من بين أسرى الحرب السابقين، فإنهم يؤكدون الدرس الذى يقول إن الحرب، حتى وإن كانت "حرباً مشروعة"، فلا ينبغى دخولها إلا فى حالة الذعر. وموجز القول، إن المقابلات تركت انطباعاً عميقاً فى نفوس الطلاب. (كروثرز، ٢٠٠٢، ص ٣).

يضاف إلى ذلك أنه أتيحت للمبحوثين فرصة التعبير عن أنفسهم وسرد حكاياتهم لأفراد ينصتون إليهم باهتمام. وهذا الاعتبار يُعد - كذلك - جزءًا مؤثراً ومهمًا من أجزاء خبرة التاريخ الشفاهى.

كما أن الطلاب تفاعلوا مباشرة مع بعض أعضاء المجتمع الذين لا يلقون إلا أقل درجات التقدير، وهم الذين يُسمون "بالموظفين المسنين"، والذين شاطروننا ما لديهم من ثراء فى حيواتهم وخبراتهم. وكما أشار إلى ذلك أحد الطلاب قائلاً: "أرى أننا جعلنا كبار السن [الذين شملهم المشروع] يشعرون بأهميتهم. ***فقد كان لديهم حكاية يريدون روايتها،*** *كما أننى أتصور أن الطلبة الجامعيين الذين يمضون الوقت فى تقصى خبراتهم والوقوف عليها جعلوهم يشعرون بأن من الناس من يهتمون بما قدموه من تضحية.* (كروثرز، ٢٠٠٢، ص ٣، علامة التأكيد إضافة من المؤلف).

عندما تستعمل طريقة التاريخ الشفاهى بهذا الأسلوب، فإن بإمكانها أن تحقق أهداف التعليم والتمكين، كما تسهم فى بناء المعرفة الأساسية. وتوجد

كذلك أمثلة على استعمال التاريخ الشفاهى كأسلوب لفهم الأحداث الجارية ذات الأهمية، من وجهة نظر أولئك الذين عايشوها، طالما كانت تلك الأحداث حية (فى أذهانهم).

فبعد أيام قليلة فحسب من الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر أُنشئ المشروع الذى سُمى "مشروع الذكريات والقصص التاريخية الشفاهية ليوم الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١" بجامعة كولومبيا. وقد اشترك كل من بيرمان Bearman ومارشال كلارك Marshall Clark فى تأسيس هذا المشروع البحثى التاريخى الذى تدعمه جامعة كولومبيا. وفى بحر سبعة أسابيع بعد هذا الحدث كان هذان الباحثان قد جمعا المقابلات القائمة على التاريخ الشفاهى، والتى أُجريت مع حوالى مائتى فرد، وبعد ستة أشهر كانا قد جمعا مائتى مقابلة أخرى قائمة على التاريخ الشفاهى، بما فيها المقابلات مع المتطوعين، وعمال الإنقاذ، ومع الناجين من الحادث، وغيرهم ممن كانوا يعيشون أو يعملون فى المنطقة الملاصقة للبرجين المدمرين. وقد أبدى الباحثون اهتماماً خاصاً بفهم تركيبة الذاكرة الفردية والاجتماعية وكيفية تكوينها. وكانوا يريدون، بصفة خاصة، أن يفهموا دور وسائل الاتصال الجماهيرية والإدارة الحكومية فى العملية التفسيرية لدى الأفراد فيما يتصل بفهم هذه الأحداث التى وقعت.

وزيادة على ذلك، ونظراً لأن المبحوثين كانوا ينتمون إلى إثنيات مختلفة، فقد أراد الباحثون أن يفهموا كيف فسرت مجموعة غير متجانسة من الناس الذين كانوا موجودين فى مركز هذا الحدث؛ كيف فسروه وكيف قاموا بفرز وتنقية المعلومات والصور الذهنية التى كانوا يتلقونها من الثقافة الأكبر. وكيف أثرت مشاعر الوطنية والاغتراب على تركيبة الذاكرة الفردية أثناء الفترة التى أعقبت هذه الكارثة مباشرة؟ وهل بدا لأولئك الذين كانوا موجودين فى ذلك المكان أن يوم الحادى عشر من سبتمبر يمثل "نقطة تحول" فى التاريخ الأمريكى، وهى الصورة التى صوره بها المحللون الإعلاميون والقادة السياسيون وكرروا ذلك كثيراً؟ فهذه الأمور كانت ضمن الأسئلة التى كانت لدى الباحثين عندما كانوا يُصغون إلى حكايات ٩/١١ من أفواه من عايشوا هذا الحدث وكانوا وقتها يحاولون فهم دلالته. وهكذا أصبح التاريخ الشفاهى طريقة مهمة لفهم تركيبة الذاكرة أثناء تشكلها فعلاً.

وقد وجد الباحثون أن الصورة الذهنية السياسية كانت عنصراً مهمّا من عناصر تكوين الذاكرة في مرحلتها المبكرة. وقد انتهى الباحثون إلى تقرير أن الناس قد راودت أذهانهم تفسيرات مختلفة لما عايشوه من أحداث، وأنهم كانوا يلجأون إلى هذه التفسيرات ليفهموا تلك الأحداث. وإن بالإمكان أيضاً تشبيه هذه التفسيرات بالأطر أو القوالب التي من خلالها وصل هؤلاء الناس إلى تفسير مُعاناتهم لهذه المأساة. وقد تضمنت هذه الأطر الذهنية/ أو القوالب: النزعة الوطنية، والهرب واللجوء، والعزاء، والسلوان (ص٧). وكان إطار التفسير الذى اهتم به الباحثون - أكثر من غيره - هو الفكرة التي تعتبر يوم الحادى عشر من سبتمبر نوعاً من "الكشف" (أو الرؤية النبوئية).

لعل الأمر الأهم بالنسبة لتصورنا النهائي لدلالة يوم الحادى عشر من سبتمبر بوصفه محوراً للفهم القومى كما هو محور للفهم الدولى، هو أن الناس نظروا إلى هذه الهجمات - بطرق مباشرة وبطرق غير مباشرة - على أنها كشف (أو رؤية نبوئية). وبهذا المعنى، فُهم هذا الحدث بوصفه لحظة تقع خارج الزمن وحدثاً ينتهى عنده التاريخ كما كنا نتصوره فيما مضى. شاهد ذلك أن كثيراً ما كانت المقابلات التى أجريناها مع الناجين ومع شهود العيان، كثيراً ما تخللتها تشبيهات واستعارات دينية وصور مستمدة من الأفلام والروايات السينمائية تتسم بالتنبؤ بالغيب، وهو الأمر الذى يكشف عن الطريقة التى كان يتبعها الكثيرون فى مجاهدتهم لفهم قضية الخير والشر، وقضية الحياة والموت خارج إطار التاريخ على النحو الذى كانوا يتصورونه فيما مضى. (مارشال كلارك، ٢٠٠٢، ص ٧).

تتجلى قدرة التاريخ الشفاهى على الإحاطة بالتشابك القائم بين الخبرة الشخصية، والظرف التاريخى، والإطار الثقافى؛ تتجلى بوضوح فى هذه الدراسة التى تناولت أحداث الحادى عشر من سبتمبر بطريقة التاريخ الشفاهى. وبابتعادنا عن هذه الأمثلة المحددة، نستطيع أن نقدم بعض التعقيبات حول العلاقة بين السيرة الذاتية، والتاريخ، والثقافة كما يكشف عنها التاريخ الشفاهى.

يمكن القول – بصورة عامة – أن التاريخ الشفاهى يقدم لنا طريقة لدعوة الناس لسرد حكاياتهم – وهى الحكايات المتصلة بماضيهم، وماضى زمانهم، وما مر بهم من الأحداث الماضية، وما إلى ذلك. فإن كل قصة فردية مما يحكيه الناس تكون – على الدوام – مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظروف التاريخية المحيطة بها، مما يجعل القصة تمتد إلى ما وراء نطاق خبرتهم الشخصية. ويسمح التاريخ الشفاهى بالمزج بين السيرة الذاتية الفردية والعمليات التاريخية. فالفرد إنما يحكى قصته من خلال ذاكرته. وهذا معناه أن استعادة الأفراد لذكريات خبراتهم التى مروا بها، وطريقتهم فى إضفاء المعانى على تلك الخبرات، هو أمر يتعلق بما هو أكثر من "الدقة". وهو كذلك عملية "تذكر"، أى أن الأفراد يقومون – أثناء تذكرهم لخبراتهم – بفرزها وتنقيتها وتفسيرها. إذا اتفقنا على ذلك، أمكننا القول إنه يوجد توتر بين التاريخ والذاكرة الفردية، أى بين التاريخ الجمعى المدون وإحساس الفرد بهذا التاريخ الجمعى، وهو التوتر الذى يمكن البوح به، وإظهاره، وتفسيره من خلال التاريخ الشفاهى. وفى هذا الاتجاه يقول ريتشارد كانديدا سميث Richard Candida Smith (٢٠٠١): "إن الذاكرة والتاريخ يتواجهان عبر شريط التسجيل (الذى تُسجل عليه المقابلة)". (ص ٧٢٨) وكما سوف نتوسع فى هذا الموضوع فى ختام هذا الفصل، تستطيع أن ترى أن أهمية التاريخ الشفاهى تتنامى بقوة فى مجال البحث القائم على تضافر التخصصات والمعنى بدراسة الذاكرة الجمعية.

وكما هو الحال مع دراسة الأحداث التاريخية أو الراهنة، يمكن أن يفيد التاريخ الشفاهى أعظم نفع فى دراسة الإحساس الفردى بالتغير الاجتماعى وما يرتبط به من مختلف المشكلات الاجتماعية والشخصية. وقد استعملت سلاتر Slater (٢٠٠٠) طريقة التاريخ الشفاهى لكى تفهم كيف عايشت أربع من النساء السود من جنوب إفريقيا خبرة التحضر (أى المعيشة فى المدن) فى ظل نظام التفرقة العنصرية. وكان لهؤلاء النساء – وكما هو متوقع – خبرات مشتركة وخبرات شخصية ظهرت أثناء مراحل تاريخ حياتهن. وتدل هذه البيانات على الطريقة التى بها شكلت القيود الاجتماعية واقع الحياة الاقتصادية

لهؤلاء النساء بوسائل شديدة التأثير (ص ٣٨). ومع ذلك، فقد أظهر هؤلاء النساء، كذلك، أن فعاليتهن الشخصية قد أثرت على حيواتهن، بنفس مقدار تأثير الواقع الاجتماعى الذى يعشن فى كنفه.

... تُمكّن تواريخ الحياة الباحثين الذين يدرسون تطور الشخصية من أن يفهموا على وجه صحيح كيف يختلف تأثير التغير الاجتماعى أو الاقتصادى على الأفراد باختلاف ما يتحلى به الرجال والنساء - بصفتهم الفردية - من صفات متميزة. ويرجع ذلك إلى أن هذه التواريخ الشفاهية للحياة تتيح للباحثين أن يستكشفوا العلاقة بين قدرة الإنسان الفرد على التصرف الفعّال (أى قدرته على التأثير) - من جهة - والأبنية الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية التى تحيط بأولئك الأفراد من جهة أخرى. (ص ٣٨).

إن سلاتر بما قدمته فى هذا البحث تبرهن على أن بالإمكان أن يكون التاريخ الشفاهى طريقة متممة - لغيرها من الطرق - فى مجال بحث تطور الشخصية.

ونظراً لأن العولمة فى تزايد، ودراستُنا لها فى توسع مضطرد، فإن بالإمكان أن يواصل التاريخ الشفاهى لعب دور فى دراسة التغيرات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. ففى هذا الوقت من التغير الذى يطال العالم كله، يستطيع التاريخ الشفاهى أن يساعدنا على أن نفهم على وجه صحيح كلاً من الآثار العامة والشخصية لذلك التحول الاجتماعى الهائل على الأفراد الذين يتعرضون لهذه التأثيرات. مثال ذلك، أن بإمكان التاريخ الشفاهى أن يكون طريقة رائعة لفهم كيف يشعر الأفراد داخل العراق بالاحتلال الأمريكى، وبتغير النظام السياسى للحكم، وبإعادة بناء بلدهم. كيف يتكيف الأفراد مع هذه التغيرات الاجتماعية الكبرى؟ وما هى الاستراتيجيات الفردية لمواجهة تلك التحديات؟ كيف يتباين الأفراد فى تشخيصهم وفهمهم لتلك التغيرات، وفى استجاباتهم لها؟ كيف أثر التغير الاجتماعى على العلاقات الشخصية بين الأفراد، من قبيل علاقات الخطوبة والزواج، والعلاقات الوالدية ونحو ذلك؟

وكثيراً ما يُستعمل التاريخ الشفاهى - كذلك - فى دراسة خبرة القهر - وهى خبرة الشخص لكونه عضواً فى جماعة مقهورة. وقد قامت سباركس Sparkes (١٩٩٤) بمشروع مقابلات باستخدام طريقة التاريخ الشفاهى مع مُدرِّسة تربية رياضية من السحاقيات لكن تدرس كيف عمل التعصب

وممارسو الجنس الطبيعي على تشكيل الخبرات التى مرت بهــا فـــى مكـــان عملها. وهكذا يتضح أن إبراز الجوانب الشخصية للخبرة المشتركة للقهر يعد إحدى نقاط القوة فى التاريخ الشفاهى.

وقد يقوم الباحثون عند استعمالهم للتاريخ الشفاهى بمقابلة عدد قليل من مجموع الأفراد، إلا أنهم يُمضون وقتاً أكثر مع كل مبحوث على حدة، وهـــو الأمر الذى قد يجرى على امتداد جلسات متعددة للمقابلات المخططة من قبل. ومن المرجح أن يجد الباحثون ذوو النزعة الكيفية الذين يعملون مع مبحـــوثين من البشر، وخاصة فى مجالات كعلم الاجتماع؛ من المُرجح أن يجدوا أنفسهم منجذبين إلى استخدام كل من المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الـــشفاهى. وينبغى أن يكون الاختيار بينهما قائماً على أساس الملاءمة بين أهداف البحث وطريقة البحث. وعند إجراء المقارنة بين المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الشفاهى، ترتبط ملاءمة طريقة البحث بطبيعة الموضوع الذى تجرى دراسته وعدد المبحوثين ودرجة عمق البيانات التى نسعى إلى الحصول عليها. وليس المهم أن تفضل طريقة على الأخرى، وإنما المهم أن تركز النظر على نقـــاط القوة فى كل طريقة. كما أن بالإمكان أيضاً الجمع بين هاتين الطـــريقتين فـــى تصميمات بحثية تستخدم أكثر من طريقة بحث، وإن كان مثل هذا الجمع ليس بالأمر الشائع – إلى حد ما – بسبب أوجه التشابه بينهمـــا وبـــسبب أن كلتـــا الطريقتين تستهلك قدراً كبيراً جداً من الوقت.

والآن وقد أصبحت على دراية أفضل بمدى تميز التواريخ الـــشفاهية عن المقابلات المتعمقة التقليدية، فإن من المهم أن تتعرف بشكل أعمق وأوثق على جوانب الخصوصية التى تميز تطبيقات التاريخ الـــشفاهى، وأن تعـــرف السبب الذى جعل النسويين – بصفة خاصة – يسعون جاهدين لإعادة إحيـــاء استعمالها ودراستها وتوسيع نطاقها، وإضفاء الشرعية عليها.

التاريخ الشفاهى: الأُلفـــة، والإصغـــاء، والـــقـــص بوصفهـــا تقنيـــات بحثية

بناء الألفة ومعالجة الاختلاف

فى أثناء جمع البيانات، يعتمد التاريخ الشفاهى على تسجيل التواصـــل اللفظى بين الباحث والفرد المبحوث. ويمكننا تفصيل هذا الكلام بدرجة أكبـــر

فنقول إن التاريخ الشفاهى يعتمد على وسيلتين تُعززان تدفق البيانات وهما: وسيلة الكلام ووسيلة الإصغاء.وقبل أن تَروى الحكاية يستطيع القائم بالمقابلة والمبحوث أن يبدآ فهم طريقة الإصغاء وطريقة الكلام فى سياقٍ إنتاج قصة من قصص الحياة. ومن المهم أن يخلق الباحث والمبحوث نوعاً من الألفة بينهما فى بادئ الأمر قبل الجلسة الأولى للمقابلة المُسجلة (فى حالة أمكن التسجيل) وهى الألفة التى يتوجب عليهما العناية بها على امتداد عملية المقابلة. ومع أن الألفة تكون جدلية (أى تتم بين طرفين) دائماً، فإن المسئولية الأساسية فى ذلك تقع على عاتق الباحث صاحب المبادرة فى عملية البحث. وقد يعنى هذا القيام بشيء من المناقشات التمهيدية حتى يشعر كلا هذين الطرفين بالارتياح لبعضهما ويبدآ فى فهم كل منهما "لأسلوب الآخر فى الكلام".

قبل اللقاء الأول، يُمكن للباحثين الذين يجرون المقابلة أن ينحّوا جانباً الإطار الزمنى المخصص للبحث من أجل توفير الوقت الذى يرجو المبحوثون الذين يحكون حكاياتهم أن يُتاح لهم. ذلك أن أخذ الوقت الكافى للتعرف على شخص آخر يعنى ما هو أكثر من التمهيد للمقابلة، إذ يترتب عليه اللقاء الذى يستغرق جلسة ممتدة أو أكثر من جلسة. ونظراً لأن الباحثين يكونون متوائمين مع الممارسة الجيدة للتاريخ الشفاهى، فإنهم ينتهزون الفرصة للحصول على التعقيبات والانطباعات التى يبديها المبحوثون الرواة تجاه هذا المشروع، بما فيها من ذكر لأسماء رواة محتملين، ولأشخاص آخرين يُشكلون مصدراً للبيانات، ولمراجع تحتوى على صور ضوئية، وإبداعات فنية، ومواد مكتوبة. ومع ذلك، فإن الهدف من هذا اللقاء الأول ليس مجرد إجراء مقابلة تمهيدية للحصول على البيانات، إذ أن هذا اللقاء بمثابة فرصة لتعزيز الزمالة بين الباحث والمبحوث وللاشتراك فى نوع من المكاشفة المتبادلة بينهما.
(Minister, 1991, p. 36)

وهكذا تُعَد عملية تحقيق الألفة وبناء الزمالة أمراً حيوياً لا غنىً عنه لإجراء مقابلة ناجحة. كما يُعد التمرس اللغوى جزءًا من هذا النجاح. وكما سنرى لاحقا فى القسم الخاص بالقص، فإنه توجد أبنية مختلفة يستعملها الناس فى سرد حكاياتهم، كما أن من الضرورى أن يكون كلا الطرفين مرتاحاً لأسلوب الآخر فى الحكى.

ورغم أننا ناقشنا موضوع الألفة والتبادلية بوصفهما أمراً جوهرياً ذا أهمية حاسمة فى استعمال كافة طرق البحث الكيفية التفاعلية، فقد تزداد هاتان المسألتان وضوحاً فى موقف التاريخ الشفاهى، خاصة بالنسبة للباحثين الذين ينظرون إلى هذه العملية نظرة كلية. وسبب ذلك أنك – كباحث – لا تقتصر على سؤال المشاركين لك فى بحثك (المبحوثين) أن يسمحوا لك بملاحظة ما يصدر عنهم بصورة طبيعية من سلوك بعيداً عن عملية البحث (كما يحدث فى البحث الميدانى). وبالمثل، فإنك لا تطرح مجموعة من الأسئلة عن موضوع محدد بوضوح (كما يحدث فى حالة المقابلة المتعمقة والمقابلة مع جماعة المناقشة المركزة). وعندما تطلب من امرئ ما أن يشارك فى مشروع تاريخ شفاهى فإنك تطلب من هذا الشخص أن يحكى قصة حياته وتشاركه – من خلال الكلمات – مشاركة على مستوى عميق. واعتماداً على طبيعة هذا المشروع قد تقوم بسؤاله، أن يعود إلى الأوقات العصيبة فى حياته، بدون أى ضمان أنه بمجرد أن تتنبه ذاكرته فإنه سيكون قادراً على إيقاف تدفق تلك الذاكرة عندما تريد ذلك. وبالمثل، فقد لا يكون لديك فكرة عن الاتجاهات التى سوف تسير فيها القصة التى يرويها هذا الشخص بمجرد أن يبدأ السرد. وهكذا، فإنه ليس بمقدورك أن تحدد مسبقاً سائر المواضيع التى ستتم تغطيتها – فإنك ببساطة لا تكون على علم بها حتى هذا الوقت. لذلك تكون الألفة أمراً جوهرياً فى عملية التاريخ الشفاهى لأن المبحوث الذى تجرى معه المقابلة يضع فى الباحث قدراً كبيراً من الثقة ويجعل نفسه عرضة لطائفة من الانفعالات، والمشاعر، والأفكار التى قد تمتد لتشمل ما يكون منها إيجابياً وساراً جداً إلى ما هو عصيب وأليم. وعندما يتم توطيد قاعدة الثقة يمكن للعملية التعاونية للتاريخ الشفاهى أن تمضى قدماً، كما أن الشخص المبحوث سوف يعرف أن الباحث موجود معه فى هذا المكان فى الواقع للقيام بهذه المهمة. وكما سترى لاحقاً، فإن التاريخ الشفاهى يعتبر عملية حميمية لشخصين يعملان معاً من أجل تقديم حكاية ذات معنى لسيرة ذاتية.

وبإدخال الطبيعة التعاونية لعملية التاريخ الشفاهى فى الحسبان، نتساءل: من هو الباحث الذى يستطيع أن يقوم بذلك؟ من الذى يستطيع القيام

بإجراء المقابلة؟ وكما هو الحال مع كافة أشكال البحث التفاعلى، تمثل قضايا الاختلاف جزءًا لا يتجزأ من عملية البحث. وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أى مدى يمكن للباحث والراوى أن يختلف الواحد منهما عن الآخر؟ من ذلك مثلاً أن بعض الباحثين يرى أنه نظراً لأنه لدى الجماعات المختلفة داخل النظام الاجتماعى خبرات معينة وطرق معينة للتعبير عن هذه الخبرات، فإن "التشابه" يكون متمماً للمقابلة الناجحة للتاريخ الشفاهى. ويبين مينستر (Minister, 1991) أن النساء يتحاورن بشكل مختلف عن الرجال، وأن بعض النساء إذا لم يتلقين – فى مقابل حديثهن – حواراً مشجعاً على الاستمرار فقد يَلُذْنَ بالصمت. وعلى هذا فإنه يتعين أن تُجرى النساء (من الباحثات) المقابلات مع النساء المبحوثات، لأنهن يتشاركن معاً فى نوع ما من الثقافة الفرعية والفهم الخاصين بالتواصل الاجتماعى فى مجال الحديث مع غيرهن من النساء. ويقوم باحثون آخرون – وبشكل فعال – بدمج موضوع الاختلاف فى بحوثهم، إلا أنهم يمارسون عملية التأمل النقدى (الانعكاسية) طوال المشروع من أجل أن يتفادوا الادعاء بأن لهم حق التسلط على الآخر. مثال ذلك، أن سباركس (١٩٩٤) قام بتنفيذ مشروع تاريخ شفاهى مع امرأة سحاقية على الرغم من أنه يختلف عنها من حيث النوع الاجتماعى ومن حيث التوجه الجنسى. وعلى ذلك، فهو لم يكن يشترك مع مبحوثته فى الإحساس بالقهر (وبأشكال القهر المتعددة) التى شكلت حياتها. وكجزء من ممارسته للتأمل النقدى كتب سباركس عن إحساسه بإجراء المقابلة مع إنسانة لا تشاركه فيما يتمتع به من امتيازات اجتماعية لم يسع إلى اكتسابها. ومن خلال إدخاله لهذا الاختلاف فى الاعتبار داخل العمل البحثى كله، ثم فيما بعد عند كتابته تقرير البحث، يوضح سباركس أن الامتياز الاجتماعى الذى قد يتمتع به الباحث يمكن الانتفاع به فى المساعدة على إعطاء فرصة التعبير عن النفس لهؤلاء الأشخاص الذين جرت العادة على كتم أصواتهم داخل هذه الثقافة (Sparkes, 1994).

ويدور فى الوسط الأكاديمى جدل كبير حول من هو الذى يمكنه أن يكون عارفاً، ومن يستطيع أن يفهم كلمات الآخر، وما إلى ذلك من القضايا. والأمر الأساسى فى هذه النقطة، أن هذه خيارات شخصية يتوجب على الباحث

أن يبت هو فيها. وعندما تُمعن التفكير في بعض هذه القضايا وأنت تختار موضوع مقابلتك وتصمم مشروع بحثك، سيتوجب عليك أن تُدخل في اعتبارك ما تؤمن به من اعتقادات إيستمولوجية تتصل بالعلاقة بين الباحث والمبحوث. وعندما تقوم بصياغة تقرير بحثك في النهاية، سوف تحتاج إلى إعمال فكرك في مدى قدرتك على سيطرتك (أو ممارسة تأثير قوى) على قصة حياة الآخر، خاصة إذا كنت لا تشاركه في وضع اجتماعي مهم (كالإحساس بالقهر الناجم عن اعتبارات الانتماء العرقي، أو الانتماء الإثني، أو الطبقة الاجتماعية، أو النوع الاجتماعي، أو التوجه الجنسي).

الإصغاء

يقوم الباحث أثناء عملية المقابلة بأداء دور المستمع الذي يصغي (إلى المتكلم) إصغاءً فعلياً. وليس هذا الدور هو مجرد الدور الذي نقوم به جميعاً عندما نصغي للأصدقاء، وأفراد الأسرة، والزملاء. وباعتبار أن الباحث هو الشخص الذي يُجري المقابلة في حالة التاريخ الشفاهي، فإنه يتوجب عليه أن يتعلم أن يُصغي إصغاءً كاملاً وبعناية واهتمام دقيقين جداً وفي تناغم مع الفروق الدقيقة (في كلمات المبحوث) على نحو يزيد عما يستعمله أغلبنا في الحياة اليومية. وعلى ذلك، يتوجب علينا أن ندرب عقولنا وآذاننا على أن تستمع إلى القصة التي يحكيها الآخرون، وألا يقتصر ذلك على الاستماع للكلمات فقط، بل يتسع ليشمل – أيضاً – الاستماع إلى المعاني، والانفعالات، والصمت. إن واجبنا أن نصغي إلى الراوي وإلى أنفسنا أيضاً. وقد تتضمن هذه العملية قيامنا بالتشكيك في – وربما كذلك التخلي عن – المفاهيم والمقولات التي نؤمن بها من قبل، والتي تصوغ فهمنا للحقيقة الاجتماعية، مما يجعل من المحتمل أن تحدث هذه العملية تغييراً في الباحث كذلك. وتبين العالمة النسوية المتخصصة في التاريخ الشفاهي دانا جاك Dana Jack أن "التعقد" الذي يتسم به "الإصغاء" والذي يشعر به الباحث في مقابلات التاريخ الشفاهي هو ذاته وتحديداً الذي يضفي على هذه الطريقة تفردها. فهيا بنا ننضم إليها خلف الكواليس:

فى تصورى أن هذه الجوانب المتفردة لطريقة التاريخ الشفاهى تتمثل فى أن ما تفعله هو أنها تتيح للباحث أن يضع نفسه في منتصف المسافة بين الثقافة والفرد. وما أعنيه من قولى هذا هو أننا عندما نصغى إلى شخص ما، فإن ما نسمعه عبارة عن قصة حياة فرد بكل ما فيها من خصوصية وبكل ما فيها من تفاصيل ومن كل أنواع الوقائع المفردة فى حياة هذا الشخص. إلا أنك بوصفك باحثاً، فإنك تُصغى كذلك إلى هذه الثقافة، وهكذا فأنت تعلم تحديداً أن الكلمات التى يستعملها هذا الشخص لتفسير حياته وتفسير مواقفه تنبثق هى الأخرى من هذه الثقافة، وعلى ذلك فإنه يفسر حياته من خلال الحكايات المعروفة فى هذه الثقافة. ومع ذلك، فعندما تُصغى بعناية واهتمام، يكون بإمكانك أن تستمع إلى مدى ما يُساهم به هذا الفرد فى جميع هذه القصص ذات الطابع الثقافى بجانب ما يأتى به من خبرات مختلفة، وعلى ذلك فإن ما تكون مصغياً إليه يكون متعلقاً بالتساؤل عن كيفية حدوث ذلك. أما من جهتى فأنا أصغى لأمور كثيرة للغاية. أولها هو إلى أى مدى يربط هذا الشخص، هذا الفرد، تلك القصة ذات الطابع الفردانى بهذه القصة ذات الطابع الثقافى الأوسع، وإلى أى مدى تكون هذه السرديات متاحة، وإلى أى مدى تستطيع هذه القصص ذات الطابع الثقافى – أحياناً – أن تطمس المعنى الذى يقصده الشخص، أى تطمس إحساسه ومشاعره، مما يترتب عليه أن ينحى هذا الشخص ما يتصوره من آراء وما يشعر به من أحاسيس فيما يتصل بهذه القصة ذات الطابع الثقافى الواسع. وعلى ذلك فإنى أظن أن ما أحبه فى طريقة التاريخ الشفاهى هو أنها تتيح لى أن أهتم بالإصغاء الحقيقى للفرد فى نفس الوقت الذى أكون فيه مستمرة فى تفهم حقيقة القصة ذات الطابع الثقافى الأوسع وكيف يُساهم هذا الشخص فيها. كما أنه توجد، بلا ريب، قصص كثيرة أخرى ذات طابع ثقافى أوسع.

وعلى ذلك فإن طريقة التاريخ الشفاهى تتيح، لا أعرف كيف أقول ذلك، حسناً، إننى لا أعرف فعلاً **(أصوات ضحكات)**. إن هذه الطريقة تتيح لنا

– على وجه الدقة – أن نُصغى إلى صوتين كبيرين على الأقل، أولهما صوت القصة الفردية والآخر هو صوت القصة الثقافية، حيث يتناوبان التوارى والظهور تباعاً. والآن أسأل: أين توجد المشكلة؟ وأين توجد الأسئلة؟ وأين هو الشخص الذى يشعر بالخلط والتشويش فيما يخص مدى ارتباط خبرته بهذه السرديات ذات النطاق الأوسع؟ وكيف ولماذا يريد مثل هذا الشخص أن يُميز خبرته، أو قُل: هل تحاول السردية ذات النطاق الثقافى الواسع أن تبدو وكأنها تطمس هذه الخبرة الفردية، وما الذى يحدث عندئذ؟ وكيف يشعر الفرد بذلك؟ لهذا فأنا – على الدوام – لا أصغى لصوت واحد فقط، أى أننى لا أُصغى لصوت هذا المبحوث فحسب، ولكنى أصغى كذلك للكيفية التى يتناغم بها هذا الصوت مع السرديات الأخرى، وكيف يميز نفسه عنها وكيف يتعارض معها، أى مع تلك السرديات الأخرى ذات النطاق الثقافى الأوسع.

وبوصفنا باحثين كيفيين مشتغلين بالبحث الذى يتناول مبحوثين من البشر، فإننا نقوم بالبحث عن المعنى انطلاقاً من منظور أولئك الذين ندرسهم. ومن أجل الوصول إلى هذا النوع من المعنى لابد أن نكف عن إصدار الأحكام، وأن نحسن الإنصات إليهم بعقول متفتحة. فالباحث بحاجة إلى أن يكون موجوداً وجوداً فعلياً مع الشخص الذى يحكى قصته. وبهذه الطريقة فإننا نحتاج إلى أن "تنغمس كلياً فى المقابلة" (Anderson & Jack, 1999, p. 18)، وذلك من أجل أن نسمع المعنى انطلاقاً من منظور هذا الشخص الذى يتحدث إلينا. ولكن كيف يتأتى لنا أن نعرف ما إذا كان ما نسمعه هو المنظور / أو الرأى الذى يؤمن به فعلاً هذا الشخص؟ وكيف لنا أن نعرف ما إذا كانت خبراتنا الحياتية والمفاهيم الحاكمة على تصوراتنا لا تقوم بترشيح (أى غربلة وفرز) المعنى الذى نفهمه من هذه الخبرة؟ ومع أنه، طبيعة الأمر، وبوصفنا – نحن الباحثين – بشر مطبوعين بطباع البشر، فإنه ليس بمقدورنا أن نتنكر ببساطة لتصوراتنا الشخصية عن الحقيقة الاجتماعية. فإن لدينا من الأساليب ما يمكننا تطبيقه على مقابلة التاريخ الشفاهى لكى نحسن من فهمنا للمعنى انطلاقاً من منظور الشخص نجرى معه البحث.

ويطرح جاك (Anderson & Jack, 1991) ثلاثة أساليب بقصد مساعدتنا على الإصغاء بصورة أكثر فعالية. فهناك أمور يمكننا أن نُصغى إليها وهى: مواقع يمكن أن يكمن فيها المعنى انطلاقاً من وجهة نظر الراوى. أولاً: يستطيع الباحثون أن يُصغوا إلى "اللغة الأخلاقية" للشخص (ص ١٩). فهذه الأنواع من التعليقات ذات طابع أميل إلى التقييم الذاتى (أى: تقييم الإنسان لنفسه). ذلك أن الطريقة التى يقيِّم بها المرء نفسه، يمكنها أن تكشف عن الكثير مما يتصل بالأمور التى يُركز عليها المرء فى حياته، وكيف يستخدم التصورات الثقافية للنجاح، والفشل، والجاذبية الشخصية، والعلاقات المتحررة... إلخ، وذلك بوصفها مقاييس يستخدمها المرء فى حياته وفى تشكيل هويته. كما أن هذه التعليقات تزودنا برؤى وأفكار نتبين بها المحور الذى تدور حوله انفعالات هذا الشخص، ومواطن ثقته بنفسه، والأمور التى يتأمل بها ذاته.

على الرغم من أن هذه الأحكام الخلقية القائمة على التقييم الذاتى للراوى تختلف اختلافاً كبيراً جداً فى فحواها وطابعها، فإنها تتيح لنا أن نفحص العلاقة بين مفهوم الشخص عن نفسه والمعايير الثقافية من ناحية، والعلاقة بين ما نقدره وما يقدره الآخرون من ناحية ثانية، وأخيراً بين الطريقة التى طلب منا أن نتصرف وفقاً لها والطريقة التى نحس – وفقاً لها – بأنفسنا عندما نتصرف – أو عندما لا نتصرف – وفقاً لما طلب منا (Anderson & Jack, 1991, p. 20).

مثال ذلك، أنه إن كنت تُجرى مقابلة تاريخ شفاهى مع امرأة وكانت تتحدث عن إحدى الأحداث السارة فى حياتها، كحفلة عيد ميلاد متميزة أو غيرها من الاحتفالات العائلية، وفى أثناء حديثها قالت: "لقد كانت "التورتة" جميلة فعلاً بزخارفها المنمقة كما أنها كانت لذيذة الطعم للغاية، ولكننى – بطبيعة الأمر – شعرت بالذنب لالتهامى مقداراً كبيراً للغاية منها ساعتها". فهذه الجملة من شأنها أن تزودك بمعلومات موثوقة عن أمور متعددة. فهى مثال على استعمال اللغة ذات الطابع الأخلاقى – وهى هنا لغة الشعور بالذنب – فى نقل المعنى. وقد تقوم هذه الجملة بدور العلامة التى تدل الباحث الذى

يُجرى المقابلة على وجود بعض القلق أو المشاغل المتعلقة بصورة الجسد لدى هذه المبحوثة، أو تدله على وجود هواجس تراود هذه السيدة بخصوص وزنها وكيف تبدو صورتها لدى الآخرين. بجانب ذلك، فإن هذه الجملة لم تأت من فراغ، بل تأتى فى سياق ثقافى يُعطى أولوية للنحافة ولضبط النفس، خاصة بالنسبة للنساء. وهكذا فإنك تستطيع حينئذ أن تبدأ فى عقد الروابط بين صورة المبحوثة عن نفسها والبيئة الثقافية الأوسع التى تعيش فيها. ذلك أن كلاً من الجملة التى قالتها، والطريقة التى قالتها بها، أمران مهمان لهما دلالة. يضاف إلى ذلك أن أمثال تلك الجمل قد تزود الباحث بمجسات probes عليه أن يتابعها فيما بعد أو حتى فى جلسة أخرى مع المبحوثة (حتى لا يقطع تدفق ما تريد هذه الراوية أن تقوله).

والأمر الثانى الذى ينبغى الإصغاء إليه إصغاءً فعالاً هو ما يطلق عليه "جاك" مصطلح "ما وراء الجمل" (أو الجمل المفسرة meta-statements) (أندرسون وجاك، ١٩٩١، ص ٢١). وهى المواضع التى توجد أثناء إجراء المقابلة حيث يتوقف المبحوث ويكرر العودة لما سبق أن قاله تلك اللحظة ليعيد التفكير فيه على نحو نقدى. لقد نطلق بجملة، ولكنه الآن فى سبيله للرجوع إلى تلك الجملة لكى يعلق عليها. وقد تكشف هذه اللحظة عن تغير فى عملية تفكيره، وهى لحظة من لحظات التنبه للنفس أو لحظة انزعاج من الطريقة التى قد تُفهم بها الجملة التى نطق بها، ومن ثم تتولد عن هذا الانزعاج رغبة داخلية فى نفسه لتعزيز ما نطق به من كلمات وربما إعادة تفسيره.

تنبهنا الجمل المفسرة إلى وعى الفرد بالتناقض الذى يستشعره داخل نفسه، أو بين ما هو متوقع منه وما يقوله فعلاً. وهى تدل الباحث على المفاهيم والمقولات التى يستخدمها الفرد لكى يراقب أفكاره، وتتيح لذلك الباحث أن يلاحظ كيف يسبغ الشخص على أفكاره ومشاعره طابعاً اجتماعياً وفقاً لبعض المعايير التى يراعيها. (ص ٢٢)

مثال ذلك، أنه قد يرجع أحد المبحوثين، بعد أن يقول تعليقاً يتصل بموضوع العرق؛ قد يرجع بعد ذلك مباشرة ليوضح جملته الأصلية هذه أو يفسرها أو يعززها. وقد يكون هذا النوع من الرجوع انعكاساً لمعايير مجتمعية

ذات ظروف تاريخية معينة، كالظهور مثلاً في صورة الشخص غير المتعصب للعرق، ولوعى الشخص المبحوث بأنه ربما يكون قد انتهك تلك المعايير فى نظر الباحث الذى يجرى معه المقابلة. وحينئذ تكون أمثال تلك الجمل مجالاً محتملاً لفهم مدى شعور الأفراد بالمعايير والقيم والتوقعات المجتمعية ومدى تكيفهم معها.

وأخيراً، يتوجب علينا أن نتعلم الإصغاء "لمنطق السرد"، باذلين اهتماماً خاصاً لما فيه من مظاهر الاتساق ومظاهر التناقض والأفكار المحورية "التى يتكرر ورودها" (ص ٢٢). ومن الأمور ذات الدلالة ملاحظة الطريقة التى ترد بها الأفكار المحورية داخل القصة التى يحكيها الشخص وصلتها بالأفكار المحورية الأخرى، لأنها تُعتبر بيانات مهمة. ويُمكن أن يمدنا تأكيد المبحوث على أهمية أمور معينة، والذى يتم من خلال الأفكار المحورية المتكررة ومن خلال مظاهر الاتساق ومظاهر التناقض؛ يُمكن أن يمدنا برؤية ثاقبة للمنطق الذى يستعمله الشخص فى رواية حكايته. مثال ذلك: ما هى المسلمات التى يؤمن بها المبحوثون والتى تشكل أسلوبهم فى تفسير خبراتهم الحياتية الشخصية؟ وما هى الأفكار، والاعتقادات، والقيم والأحكام الخلقية التى ترتكز عليها عملياتهم التفسيرية والسردية؟

وبجانب ما يدعو إليه أندرسون وجاك (١٩٩١) من استعمال أساليب الإصغاء المذكورة، فإنهما يحثان الباحثين كذلك على أن يتعلموا الإصغاء إلى أنفسهم. ويمثل هذا الإصغاء، فى ضوء خبرتنا الخاصة، جزءًا ذا أهمية حاسمة من عملية الإصغاء فى مقابلات التاريخ الشفاهى. ففى أثناء إصغائك إلى الراوى لابد أن تُصغى إلى الرقيب فى داخلك أنت، أى إلى مشاعرك، والأمور التى تحيرك، وإلى تساؤلاتك. فهذه مجالات قد تحتاج إلى الإيضاح، والتعمق فى البحث، والاستكشاف. وعليك ألا تعمد إلى مقاطعة الراوى لتتحصل منه على إجابات على تلك الأسئلة؛ وتذكر أن عملك الأساسى هو الإصغاء. ومع ذلك، ففى اللحظات التى يتوقف فيها الراوى عن السرد، وفى اللحظات التى ينتقل فيها من موضوع لآخر، قد تكون بحاجة إلى الرجوع للوراء والبحث بناءً على ما تشعر به من أفكار وأحاسيس أثناء إصغائك إليه.

وإنه لمسار رائع سوف تتعلم كيف تجتازه من خلال الممارسة. فمن جانب، لا يكفى لكى تكون مصغياً ناجحاً فى هذه العملية السردية التعاونية؛ لا يكفى أن تكون "مشغولاً بأفكارك" منهمكاً فى حوار داخلى مع نفسك، فأنت، بجانب ذلك، تحتاج إلى الإصغاء إلى ردود أفعالك الباطنية الشخصية أثناء إصغائك إلى هذا المبحوث.

عندما نختار ممارسة التاريخ الشفاهى فإننا نقوم بالالتزام بفهم المعنى من خلال وجهة نظر أولئك الذين نجرى معهم المقابلة. فنحن بحاجة لأن نعرف فيم يفكرون، وكيف يشعرون، وكيف يقومون بفلترة (أى بترشيح وغربلة) وتفسير خبراتهم بالطرق التى يتبعونها فى هذا الشأن. ولكى نقوم بذلك، فإننا نتحول إلى مصغين على درجة عالية من الالتزام. ونحن، حتى الآن، لا نزال نتكلم عن الإصغاء إلى مضمون ما يقوله المبحوث، أى إلى الأنواع الرئيسية للعبارات التى تتردد أثناء رواية الأفراد لحكاياتهم. فإن الشكل الذى من خلاله يروى الأفراد حكاياتهم له نفس أهمية المضمون الحقيقى للحكايات التى تُروى فى مقابلات التاريخ الشفاهى. وشكل السرد هذا هو ما يمكن أن نسميه أيضاً أسلوب السرد. وفى هذا المساق، تُعد الفروق الدقيقة فى الأسلوب الذى يتبعه أحد المبحوثين فى رواية حكايته من المصادر المهمة للبيانات كذلك. لذلك فإننا نوصيك باتباع أسلوب متسق فى تدوين البيانات يتيح ملاحظة ما يرد فى كلام المبحوث من الوقفات، والضحك، وارتفاع الصوت أو انخفاضه، والتغيرات فى نبرة الصوت، ومد النطق بالكلمات، وما أشبه ذلك من الأمور. فكل ذلك بإمكانه أن يُنبهك إلى النقاط التى يُضفى عليها الشخص معنى بعينه، وإلى مشاعره فى لحظة معينة أثناء المقابلة. وإن من الطرق السهلة للاحتفاظ بأمثال تلك البيانات القيمة فى نسختك الأولية (من سجل المقابلة) أن تدونها بحروف مائلة، أو بحروف بارزة، أو تضعها بين قوسين، إلى آخر هذه الطرق. وسوف نتناول هذه المسألة فى موضع لاحق عندما نتكلم عن التدوين والتحليل.

وفيما يتصل بالإصغاء، فإن الجزء المفقود من الحكايات التى تروى، ولحظات صمتهم، واللحظات التى تشرد فيها أذهانهم، والمشاعر التى لم يجدوا كلمات للتعبير عنها؛ كل هذه الأمور تشكل كذلك عناصر للمعرفة تظهر من

خلال شكل مقابلة التاريخ الشفاهى. وسوف نتكلم عن أسلوب السرد بمزيد من التفصيل عندما نناقش موضوع الحكى و"الحديث" كطريقة لبناء البيانات، ولكننا سنتوسع – فيما يلى – فيما نقصده من الإصغاء إلى "حالات الصمت / أو السكوت"، حيث لا ننسى أبدا أننا باحثون عن المعنى.

إن ما أغفله الراوى من قصته فلم يحك عنه، يمكن أن يُمدنا برؤية ثاقبة للمجالات التى يعانى فيها من الصراعات والمنازعات، كمجال الاختلاف بين اتجاهاته المعلنة واتجاهاته المضمرة، ويمدنا كذلك برؤية للتأثير الذى تحدثه الثقافة الأوسع على السيرة الذاتية لهذا الشخص وعليه هو نفسه عندما يُعيد رواية هذه السيرة. وقد تشير حالات الحذف الواضحة، مثلاً، إلى وجود انفصال بين أفكار هذا الشخص وما يشعر أنه من الملائم قوله. وقد يكون هذا الوضع نتيجة لتصوره للمعايير والقيم الاجتماعية، أو لشعوره بأنه ينتهك الطرق المعيارية (المعتادة) فى التفكير، والشعور، والسلوك. والمشروع البحثى، فى نظر كثير من الباحثين الذين يمارسون التاريخ الشفاهى، كالباحثين النسويين والباحثين فى مجال المقارنة بين الثقافات، إنما ينبثق فى جوهره من الرغبة فى الوصول إلى الأصوات المقهورة، أى محاولة الوقوف على وجهات النظر وعلى هوية الأفراد الذين تم إقصاؤهم جبراً إلى هوامش نظام اجتماعى معين. وفى هذه الظروف، فإن الإصغاء إلى لحظات الصمت قد يدل أيضاً على أن المقولات والمفاهيم التى نستعملها فى تفسير وشرح خبراتنا الحياتية لا تعكس – فى الواقع – المجال الشامل لكافة الخبرات الموجودة. وعلى ذلك فإن هذا السكوت يطلعنا على بعض جوانب الثقافة التى يعيش فى كنفها المبحوث، كما يدلنا على وجود فجوة بين الصياغة التى يتم بها التعبير عن الخبرة وبين خبرة هذا الفرد الخاصة. وبتعبير آخر نقول، إن الثقافة قد لا توفر لكل فرد الأدوات المناسبة التى بها يستطيع أن يُعبر تعبيراً وافياً وحراً عن معنى ودلالة شيء معين من وجهة نظره. ويرى الكثير من الباحثين أن هذا هو السبب الحقيقى لكون الإصغاء إلى أصوات الأفراد، خاصة من طال تعرضهم للاستبعاد من عمليات إنتاج الثقافة، أمر لا بد منه.

وفى صميم العملية التعاونية فى جمع البيانات يأتى التأكيد على أهمية الإصغاء والتأكيد على أهمية الكلام أو الحديث. والشكل الذى يتجلى فيه الكلام أو الحديث هو شكل الحكى storytelling والسرد narrative.

يقوم المبحوث – أثناء مقابلة التاريخ الشفاهى – بدور الراوى ويحكى قصته. وهذه عملية تعاونية من عمليات الحكى تضم كلاً من الراوى والباحث القائم بإجراء المقابلة. حقيقة أن الراوى هو الذى يحكى قصته، ولكن الباحث – الذى يُجرى المقابلة – هو الذى يشجع هذا الحكى ويرعاه من خلال إصغائه واستعماله لأساليب الملاحظة التى عرضنا لها بالتفصيل فى فصل سابق. وبالإضافة إلى الكلمة المنطوقة فى حد ذاتها، فإن الطريقة التى يتبعها المبحوث/ الراوى فى رواية قصته هى فى حد ذاتها محل اعتراف من قبل الباحثين القائمين بمقابلات التاريخ الشفاهى بأنها مصدر مهم من مصادر المعرفة.

ينشغل الباحثون الكيفيون، بصفة عامة، بالبحث عن المعنى الذى يضفيه الناس على حياتهم، أما الباحثون فى التاريخ الشفاهى فيهتمون بالتوصل إلى خبرات وأصوات أولئك الذين يدرسونهم بطريقة استيعابية شاملة، وهى طريقة متفردة فى مجال ممارسة منهجية البحث الخاصة بالتاريخ الشفاهى والتطور التاريخى لهذه المنهجية. ويميز ويليامز Williams (٢٠٠١) بين كلمة الصوت العادية voice (بحرف صغير) وكلمة الصوت Voice (المبدوءة بحرف كبير) داخل عملية البحث، حيث يستعمل كلمة الصوت (المبدوءة بحرف كبير "V") للإشارة إلى المفهوم الكلى لمصطلح "الصوت". ويشتمل الصوت بهذا المعنى على الإيماءات غير اللفظية، وتغير نغمات الصوت، والتعبيرات، والحركات الجسدية، وأنماط الكلام، وحالات السكوت (أو لحظات الصمت) (ص ٤٣). فهذه المكونات الداخلة فى تركيب المقابلة تمثل جزءًا من التعبير الشامل الذى يعبر به الشخص المبحوث عن نفسه. ومن هنا يمكن القول بتعبير آخر إنه يتوجب علينا أن نحاول الحفاظ على الجوانب الأدائية للحكى وأن نتعلم منها وألا نسمح بفقدانها أثناء قيامنا بتدوين المقابلة وتحليلها (ص ٤٦). ويحث ويليامز الباحثين على الانتباه لما يبدو فى صوت المبحوث (بالمعنى الكلى للصوت)، بحيث يكون أشد من الانتباه لمجرد الكلمة المكتوبة التى يوفرها سجل المقابلة المنقح أو "النظيف" (أى المهذب الخالى من

البذاءة). وحينئذٍ يستطيع الباحث أن يستعمل مهاراته، فى الإصغاء والملاحظة (ص ٤٥) لكتابة "المذكرات الميدانية" أو "التعليقات الجانبية" أثناء المقابلة أو أثناء عملية التدوين، على التوالى. وبالعودة إلى زيادة التركيز على دور المبحوث كراو أو حتى كمؤد، هيًا بنا نتأمل أساليب الحكى وأنماط الحديث، وهى المكونات المحورية لبناء البيانات فى التاريخ الشفاهى.

للناس أساليب مختلفة فى رواية حكاياتهم. وتؤدى أساليب التواصل المختلفة هذه إلى ظهور أنواع مختلفة من عمليات السرد. وفى هذا الاتجاه، يحتاج الباحث إلى التركيز على "علم الرواية" "narratalogy" أو على بنية السرد (ويليامز، ٢٠٠١). ووفقاً لما سبق أن بينه بعض العلماء النسويين وغيرهم من العلماء النقديين منذ زمن بعيد، فإن شكل السرد والاختيار اللغوى (الذى يفضله الراوى) يزوداننا كذلك ببيانات مهمة عن هذا الراوى. وبهذه الطريقة، فإن ما يستعمله الراوى من لغة وأسلوب فى الحديث لا يقتصر أمرهما على أنهما يوفران إطاراً للمحتوى الفعلى للمقابلة، بل إنهما يشكلان كذلك جزءًا متمماً لها. ويؤكد أحد الاتجاهات الكلية فى التاريخ الشفاهى على أهمية كافة جوانب هذه العملية. ويهتم الباحثون المعنيون بالتاريخ الشفاهى، والذين يغلب عليهم العمل من منظورات فكرية نسوية، ومنظورات ثقافية مقارنة، ومنظورات تهتم بالعالم الثالث؛ كل هؤلاء يهتمون بفهم خبرات المهمشين داخل المجتمع: من حيث كيفية تأثير وضعهم هذا داخل الثقافة على خبراتهم الحياتية عندما يفسرونها، وكيف أثرت هذه الخبرات – بدورها – فى أسلوبهم فى رواية حكاياتهم؟ ويعبر إتر-لويس Etter-Lewis عن هذه القضايا قائلاً:

اللغة هى القوة الخفية التى تشكل النصوص الشفاهية وتُضفى المعنى على الأحداث التاريخية. إنها الأداة الأساسية التى بها تُسترجع الخبرات الماضية ويجرى تفسيرها. وإن التنبه للغة، وتنويعاتها ومفاهيمها وقوالبها من شأنه أن يُثرى تحليل النص السردى بما يُجاوز نطاق الاهتمامات اللغوية الصارمة. وتُعد اللغة – فى لبها وجوهرها – القوة المنظمة التى تصوغ قالب السرد الشفاهى وفقاً للأسلوب المتميز للراوى. والحقيقة أن الأساليب الفردية

تتفاوت بتفاوت الأفراد، فإن الأنماط المتكررة الحدوث تُشير إلى ما هو أكثر مما تشير إليه عمليات التلاعب بالألفاظ التى قد يلجأ إليها الراوى. ذلك أن أنماط الكلام – التى هى جزء لا يتجزأ من السرد الشفاهى – بمقدورها أن تكشف حقيقة ما للراوى من مكانة اجتماعية، وعلاقات شخصية مع الآخرين، وتصورات عن اللغة، وعن النفس، وعن العالم. ففى حالة النساء السود مثلاً، يتعين علينا أن نتساءل عما تكشفه أنماطهن السردية عن حيواتهن. وكيف تؤثر خبراتهن المتفردة على الطريقة التى يحكين بها قصص حياتهن الشخصية؟ (Etter-Lewis, 1991, pp. 44-45).

إن النجاح فى فن التاريخ الشفاهى يعنى – عند الباحث النقدى – الفهم، والتقبل، والاستيعاب لأساليب السرد المختلفة، بجانب الاعتراف بأهميتها وليس إنكار المعانى التى يتضمنها مثل هذا الاختلاف. فإن بلوغ هذا النجاح تكتنفه ولاشك بعض الصعوبات. أولاً، فقد ظهر التاريخ الشفاهى كمبحث علمى وتطور داخل سياق أبوى ذكورى (أى فى مجتمع قائم على النظام الأبوى). ثانياً، ربما يكون هؤلاء الذين نرغب فى الاستماع إليهم، قد اعتادوا هم أنفسهم على هذا الصمت. فهيا بنا نفحص هاتين القضيتين المتداخلتين فى بعضهما.

فى عالم يسوده الرجل، تكون أشكال التواصل الذكورية هى الأشكال المعيارية، كما يفترض فى التعبيرات المستخدمة فى التواصل والحوار – التى تختلف عن هذا النموذج – أن تكون أقل حظاً فى القبول والاعتراف. والمقابلة الكيفية – ومن بين أنواعها مقابلة التاريخ الشفاهى – ليست محصنة من تأثير الثقافة التى تُمارس فيها. لذلك نجد أن الوسط الأكاديمى ما يزال غارقاً فى الأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع بناء المعرفة. بل إن طرق البحث اللاوضعية نفسها مازالت متأثرة بالأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع اللغة، واللغة تتضمن إجراء المقابلة الكيفية.

إن ما يحتاج إلى تغيير فى مقابلات التاريخ الشفاهى مع النساء هو إطار التواصل والحوار، وليس المرأة. فقد ظهرت طريقة إجراء مقابلة التاريخ الشفاهى، والمتأثرة بارتباطاتها بالتاريخ الأكاديمى وبممارسة أسلوب المقابلة بصفة عامة؛ ظهرت وتطورت داخل سياق نظام التواصل الاجتماعى

الذكورى. ونظراً لأن الكلام الذكورى يكون هو المعيار المتبع فى هذا العالم الذكورى، فإن أى نوع آخر من الكلام يُعد فى رتبة دون هذا المعيار (Minister, 1991, p. 31).

ونظراً لأننا منغمسون كل الانغماس فى ثقافتنا، فإننا معتادون على الأشكال الذكورية فى الحوار والتواصل (ولا ريب أن هذا المعنى يمكن التوسع فى فهمه ليستوعب ذلك التفضيل الذى تحظى به كافة المثل الاستعلائية التى تتكلم من موقع الهيمنة، ومنها أساليب الحوار والتواصل السائدة فى الطبقتين الوسطى والعليا البيضاء اللون). لذلك، فإنه لكى نؤدى دورنا فى تمكين الآخرين من رواية حكاياتهم، يتوجب علينا أن نكون لَمَّاحين للتنوع الموجود فى أساليب الحوار والتواصل وفى أشكال السرد أيضاً، بما يتضمنه موقفنا هذا من إمعان النظر فى مدى ما لثقافتنا من تأثير على ما عندنا من مسلمات تتصل "بمواصفات الطريقة السليمة التى يروى بها المرء حكايته".

ويوضح لنا كثير من العلماء أنه عندما نكون منهمكين فى هذه العملية فإننا سوف نواجه بالفروق أو الاختلافات الموجودة فى أساليب التواصل والقائمة على أساس النوع الاجتماعى. فالنساء بصفة خاصة، وباعتبار أنهن فاعلات يستوعبهن نظام اجتماعى عام، فإنهن يتحاورن أو يتواصلن فيما بينهن على نحو مختلف عن الرجال. زِدْ على ذلك أن أساليب التواصل النسائية لم تحظ بعد بالاعتراف من الأوساط الأكاديمية ولا من المجتمع بصفة عامة. وعلى هذا يتوجب على الباحث، عند قيامه بإجراء مقابلات مع النساء، أن يفهم عملية الحكى التى تتبعها المرأة المبحوثة فى المقابلة وأن يعترف بها.

على الرغم من أن بعض النساء الراويات قد تكيفن بشكل جيد مع هذا النظام الذكورى فى إجراء المقابلات، والذى يتوجب على الباحثات اللاتى يقمن بإجراء مقابلات التاريخ الشفاهى أن يسعين لتحصيله، فإننا لن نسمع ما تعده النساء أمراً جوهرياً لحيواتهن ما لم نعترف بوجود سياق أنثوى للتواصل الاجتماعى خاص بموقف مقابلة التاريخ الشفاهى.. ولن نكون قادرين على أن نسمع أو نفسر ما تُقدره النساء من الأمور إذا لم نكن نعلم كيف نتابع النساء وكيف نُصغى إليهن وكيف نتكلم معهن كما تفعل النساء. ونحن فى حاجة أولاً

لأن نعرف معرفة متعمدة مقصودة كيف تحاور المرأة نفسها فعلاً، وكيف تتواصل النساء مع بعضهن. (Minister, 1991, p. 31).

عند العمل انطلاقاً من المُسلَّمات التى تقوم عليها إبستمولوجيا الرؤية أو وجهة النظر فى الحكم على الأشياء والأمور (وهى إحدى نظريات المعرفة التى تُقر بوجود مصادر مختلفة للمعرفة- المراجع) فإن هذه الفكرة المتعلقة بالثقافات الفرعية للتواصل يتم تقويتها وإيضاحها. ذلك أن إبستمولوجيا الرؤية أو وجهة النظر تعترف بوجود المنظورات المختلفة التى تترتب على اختلاف الأوضاع أو المواقع داخل النظام الاجتماعى الهرمى (التدرجى). فخبرات المرء، وتصوراته، وصوته، وفقاً لهذه الإبستمولوجيا، تُكتسب من خلال إحساسه بوجوده فى موقع معين داخل هذا النظام الاجتماعى. وقد تختلف استراتيجيات التواصل بناءً على ما يحدث من تقاطع (أى تداخل وتشابك) اعتبارات العرق، والإثنية، والطبقة، والنوع الاجتماعى، والحياة الجنسية، والدين، والقومية. وفى سياق أى مشروع كبير للتاريخ الشفاهى يتضمن إجراء مقابلات تاريخ شفاهى مع عدد كبير من المبحوثين، يكون من الأهمية ألا يغفل الباحثون عن أنه قد توجد نقاط اختلاف عبر النوعين الاجتماعيين (أى الرجال والنساء) وداخل كل نوع منهما. فأدخل هذا الاعتبار فى حسبانك وأنت تحضر لمقابلة كل مبحوث على حدة. ذلك أنك لا تستطيع التسليم بأن مبحوثاً معيناً، وبناءً على سمة واحدة عرفتها عنه (تتصل بالعرق، أو الإثنية، أو اللون... إلى آخره)؛ سيبدى من ممارسات القص صورة مطابقة لما أبداه شخص آخر سبق لك أن أجريت معه مقابلة مماثلة. هذا من ناحية، ونلاحظ من ناحية أخرى أنه على الرغم من وجود هذه الاختلافات، فإنه ثمة أنماط يميل الناس إلى اتباعها فى روايتهم لتواريخ حياتهم الشخصية. ونحن نشير إلى هذه الأنماط بوصفها أبنية سردية.

تحدد إتر- لويس (١٩٩١) ثلاثة أساليب كبرى للسرد يمكن أن يقابلها الباحث أثناء إجرائه لعملية المقابلة التى يروى فيها المبحوث تاريخ حياته وهى:

(١) أسلوب السرد الموحد.

(٢) أسلوب السرد المفكك أو المجزأ.

(٣) أسلوب السرد الحوارى.

ونحن نميل إلى أن نضيف إلى هذا التقسيم فئة رابعة، وهى الفئة التى يسميها كوهلر – رايسمان السرد العَرَضى (أى رواية الحكاية من خلال وقائع معينة).

وكما هو الحال مع جميع أشكال السرد، فإن الطريقة التى يتبعها مبحوثك فى رواية حكايته، قد تتأثر – إلى حد بعيد – بعوامل شتى منها، مثلاً: عامل العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى. وترتبط بهذه الخصائص اعتبارات التعليم، والعمل، والموقع الجغرافى الذى يقيم فيه المبحوث.

وكثيراً ما قد يكون لدى الباحثين توقع بأن المبحوث سوف يسمع من الباحث عنواناً لموضوع أو سؤالاً عاماً، فيستجيب له بأن يقدم شرحا ذا تسلسل زمنى لخبرته المتصلة بهذا الموضوع، حيث يطرح أمثلة عميقة الدلالة لتوضيح خبرته، وذلك فى نفس الوقت الذى يظل مركزاً فيه على هذا الموضوع أو هذا السؤال. وهذا هو أسلوب السرد "الموحد".

يلاحظ أن الأجزاء المتجاورة من هذه القصة التى تُحكى تتناغم معاً فى كل واحد، وعادة ما يكون ذلك فى شكل إجابة على سؤال محدد. حيث تكون الكلمات والعبارات جميعاً مرتبطة بفكرة محورية... أى أن القاص يقوم بقدر ما يستطيع بتدعيم إجابته عن طريق تقديمه لشواهد مختلفة ذات صلة بهذه الإجابة. وتكون نتيجة ذلك حوار ممتد، يؤدى تركيزه على موضوع محدد إلى جعله حديثاً موحداً (Etter – Lewis, 1991, p. 45).

كما أن الشخص الذى يستعمل مثل هذا الأسلوب فى كلامه قد يخبرنا بشيء يتعلق بالطريقة التى يرى بها نفسه، وبالطريقة التى يفسر بها خبرات حياته. شاهد ذلك أن الأسلوب الموحد فى السرد قد يدلل على أن المبحوث يرى الموضوع بوضوح وأن لديه إجابة واضحة بشأنه. وبجانب ما يدل عليه الأسلوب الموحد فى السرد من إشارات تتصل بالموضوع المطروح للحوار، فإنه قد يدل على أن هذا الراوى يشعر، وعلى مستوى أكثر عمومية، بأن

حياته حياة متماسكة وواضحة المعالم. وهذا الأسلوب السردى يختلف اختلافات لها دلالاتها عن شكل السرد المفكك أو المجزأ.

وهو الشكل الذى تتسم فيه الأجزاء المتجاورة من القصة بوجود مجموعة متعددة الأشكال من الجُمل أو العبارات التى تبدو فى ظاهرها غير مترابطة. (Etter-Lewis, 1991, p. 16).

وقد يكون هذا الشكل من القص مضاداً لما هو بديهى فى نظر بعض الباحثين الذين لم يعتادوا على هذا الشكل من الكلام. وعلى هذا تصبح اللقاءات الأولى بين الباحث والمبحوث - حيث تمارس مهارات الإصغاء والحديث، فتعمل على بناء الألفة بينهما - تصبح هذه اللقاءات فى غاية الأهمية بالنسبة للباحث، إذ تجعله مرتاحاً إلى الكلام الذى يصدر عن هذا الراوى (والعكس بالعكس).

كما أن الأسلوب المفكك أو المجزأ فى السرد الشفاهى يستطيع الكشف عن المعنى من منظور الشخص الذى يطلعنا على حكايته. شاهد ذلك، أن هذا الراوى قد يشعر بأنه متشظٍ fragmented أو مجزأ، أو يشعر أن مختلف مكونات ذاته أو خبراته مفككة وغير مترابطة. وقد يصدق هذا الحُكم على الأفراد الذين يعانون من أشكال متعددة للقهر الناجم عن اعتبارات العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى، والحياة الجنسية، وهى الأشكال التى تشكل إطاراً لخبراتهم الحياتية. وفى هذه الحالة، قد تؤدى مناقشة لمظاهر الاضطراب فى صورة الجسد عند المرأة إلى أن تتحدث راوية أو قاصّة سوداء اللون عن الطريقة التى علمتها بها معلماتها الخصوصيات/ أو صديقاتها المُخلصات استراتيجيات التغلب على المشكلات والمصاعب لتطبيقها فى معالجة مشكلة التعصب العنصرى، والتى ساعدت بالفعل فى إعطائها ذلك الشعور بالتقدير العالى للنفس الذى تحتاج إليه كذلك لتقاوم به ثقافة شديدة الولوع بالجنس تختصر النساء فى أجسادهن الحسية فقط. وتغريها مكابدتها للضغوط الثقافية الاجتماعية المسلطة على جسد الأنثى؛ تغريها بالدخول فى مناقشة مسألة العرق، وذلك لأن هذه الضغوط تعتبر - بمقتضى خبرتها - ضغوطاً ذات روابط متداخلة. وقد يتغير اتجاه قصتها فينتقل هنا وهناك، فإن هذا التغير يتم

بطرق مرتبطة ارتباطاً معقداً بخبرتها الخاصة بالموضوع الجارى مناقشته. وثمة أسباب أخرى من شأنها أن تجعل السرد مفككاً أو مجزأ. فإن كانت هذه الراوية لم تحظ أبداً بفرصة التأمل فى الخبرات الكثيرة التى تُشكل حياتها، فإن العملية التى تقوم بها وهى تشارك بحكايتها قد تكون هى الأخرى عملية جوهرية لاكتشاف النفس. وهكذا قد يكشف أسلوبها السردى عن "شكل من أشكال تجميع هذه الأجزاء معاً" فى نظرها وفى نظر الباحث فى نفس الوقت. وبذلك فإن ما يبدو – فى أول الأمر – بعيداً عن الموضوع قد يكون فى الواقع مرتبطاً تمام الارتباط بالقضية الجارى مناقشتها. وهذا الأمر مرتبط أساساً بقناعتنا السابقة بأن كثيراً من أولئك الذين نطلب منهم أن يتكلموا جرت العادة على كتم أصواتهم نظراً لتهميشهم داخل المجتمع. فهؤلاء الذين حُرموا من الوصول إلى الأدوات الاجتماعية التى بها يحكون قصص حياتهم لسبب يرجع إلى عرقهم، أو إثنيتهم، أو طبقتهم الاجتماعية، أو نوعهم الاجتماعى، أو توجههم الجنسى قد لا يكون لديهم أى خبرة سابقة بسرد حكايتهم. وفى هذا الاتجاه تقول الباحثة النسوية المعنية بمقابلات التاريخ الشفاهى أرميتاج Armitage: "سوف نعلم ما نريد معرفته من خلال إصغائنا للأفراد المعتادين على الكلام وليس من غيرهم". (نقلاً عن مينستر، ١٩٩١، ص ٣٢). وبإمكاننا أن نرى هذا الوضع فى أشكال الثقافة الشعبية كذلك، كما هو الحال فى المسرحية التى كتبتها إيف إنسلر Eve Ensler بعنوان "مونولوجات جنسية"، والتى ذكرت فيها بعض النساء أنهن يعانين صعوبة شديدة فى التحدث عن خبراتهن الجنسية لسبب وحيد وهو أنه لم يسبق لأى منهن أن طُلب منها قبل ذلك أن تتحدث فى ذلك الشأن. فقد كن لا يعرفن ما يقلنه، كما كن يندهشن إذا اهتم امرؤٌ بهذا الشأن. وقد يكون الأسلوب المفكك أو المجزأ فى سرد الحكايات فى هذه الحالات نتيجة لما يقوم به الباحث من إخراج للأفكار والمشاعر المدفونة التى لم يسبق لها أن أخرجت من قبل. وقد تشتمل العملية الخاصة بالإفصاح عن مكنون النفس – عن طريق الحوار الشفاهى – وإطلاع الآخرين عليه؛ قد تشتمل هذه العملية على شكل من التفاوض (الأخذ والرد) الذى يتم التعبير عنه من خلال الكلمات.

كما أن الرواة قد يسردون فى حكاياتهم حوارات جرت فى الماضى كوسيلة لتقديم إجابة على الأسئلة. وقد تثمر هذه الطريقة حصول الباحث على إجابة غير مباشرة على سؤال طرحه، فإنها تكون إجابة على جانب عظيم من الأهمية والقدرة على التصوير الدقيق.

ومثل هذه الإجابة جزءٌ لا يتجزأ من القصة التى تتميز بإعادة بناء الحوارات على الصورة التى يُحتمل أن تكون حدثت بها فى الماضى. وتُستعمل العناصر التى تحتوى عليها هذه الحوارات لإلقاء الضوء على فكرة أو حادثة. ويقوم الراوى بتعديل أسلوبه، ونغمته، وطبقة صوته ليصور مختلف المتحدثين ومختلف الانفعالات (كأن يستعمل طبقة الصوت العالية، مثلاً، للتعبير عن الغضب أو الدهشة). (إتر – لويس، ١٩٩١، ص ٤٧).

وتؤكد إتر – لويس (١٩٩١، ص ٤٧) أن الراوى قد يفضل أن يروى حواراً جرى فى الماضى بدلاً من الإجابة مباشرة على أحد الأسئلة، وذلك كوسيلة لنقل المشاعر المؤلمة أو غيرها من مشاعر البؤس التى تطفو على السطح عندما تُسترجع إحدى خبرات الماضى. وعلى ذلك يعد هذا السرد للحوارات التى جرت فى الماضى آلية دفاعية للتخفيف عما تشعر به النفس من الانفعالات المؤلمة أو الانفعالات الحادة بالذات. وإن من الأهمية القصوى أن نمكن الراوى من تحقيق هذا النوع من وقاية النفس، وذلك نظراً لأنه – وكما سبق أن أوضحنا – ليس بوسع الباحث ولا الفرد المشارك فى البحث (المبحوث) أن يعرف المدى الذى تبلغه عملية مقابلة التاريخ الشفاهى من كشف الغطاء عن بعض الانفعالات. فالرواة (المبحوثون) يحتاجون للحرية فى معالجة الانفعالات غير المتوقعة بطريقة تعمل لصالحهم. وبالنسبة للباحث الإثنوجرافى الذى يُجرى المقابلة، فإن ما يقوم به المبحوث من تكرار للحوارات الماضية قد يزود هذا الباحث بالتفاصيل والتوصيفات التى يكون الباحث مهتماً بها أشد الاهتمام. وتبين إتر – لويس أن هذه العمليات المتكررة لاستعادة الذكريات قد تقوم – فى الواقع – بدور "العدسة المُكبرة" التى من خلالها يمكن إبراز التفاصيل بكل وضوح". (ص ٤٧).

وقد يستعمل بعض الناس، حال استنباطهم لوجوه الشبه بين أسلوب الحكى المفكك وأسلوب الحكى الحوارى؛ قد يستعملون إطاراً عَرَضياً (أى: قائماً على أساس ذكر حادث عرضى أو أحداث عرضية متسلسلة) يشاركون من خلاله بحكاياتهم. وقد عقد كوهلر - رايسمان (١٩٨٧) مقارنة بين الأساليب العرضية والأساليب المتسلسلة (الخطية linear أى المتتابعة زمنياً) التى تتبعها النساء عندما يحكين قصص زواجهن. ذلك أن السرد العَرَضى يختلف عن الأسلوب الموحد الذى يستعمل فيه الراوى نموذجاً خطياً (أى ذا نظام زمنى متتابع) فى سرد حكايته. وفى السرد العرضى يتحدث المبحوث فيروى قصته بوصفها أحداثاً عارضة داخل حياته. ويعتمد أسلوبه فى الكلام على رواية الخبرات كأحداث عارضة لا تخضع لنظام زمنى متسلسل، بل تكون أقرب إلى الخضوع للأفكار الأساسية (أى التيمات).

وقد يستعمل المبحوثون أكثر من واحد من هذه الأساليب السردية وهم يشاركونك المعرفة. وقد تكون التغيرات الحادثة فى أطر السرد مؤشرات مهمة تدل على مشاعر الراوى أو على النقاط التى يهتم بها. وبالتزام الباحث بالأهداف المتعلقة بفهم المعنى الاجتماعى انطلاقاً من منظور أولئك الذين يشاركون فى صنعه، فإن قيام الباحث بالتطوير الحقيقى لمهارته كباحث يجرى مقابلات للتاريخ الشفاهى يقتضى فهم الأطر المختلفة التى من خلالها يتناقل الناس أفكارهم، كما يقتضى الانتباه للفروق الدقيقة فى التعبير، كحدوث نوع من التغير فى شكل السرد مثلاً. وفى هذا الشأن، فإن عملية إجراء المقابلة تُثمر ما هو أكثر من الكلمات المسطحة المكتوبة على صفحة سجل المقابلة، إذ تُثمر فهماً مركباً ومتكاملاً لقصة هذا الشخص كما رُويت لك.

التعاون والسلطة: قضايا الصوت، والتفسير، والتمثيل فى التاريخ الشفاهى

فى سنة ١٩٩٠ صك مايكل فريش Michael Frish مصطلح **السلطة المشتركة**، والذى أراد به تسمية إحدى القضايا ذات البروز الخاص فى عملية التاريخ الشفاهى وهى: مدى كون مقابلة التاريخ الشفاهى ذات طابع تعاونى أو

تشاركى. وقد استعمل فريش مصطلح السلطة المشتركة للإشارة إلى تعـاون الباحث والراوى أثناء عملية التفـسير والتـصور (Thompson, 2003, p. 23). ومع أن الفصل الأخير من كتابنا هذا يتناول بالتفصيل القضايا الرئيسية للتفسير، والتحليل، والعرض، والتى تعتبر قضايا محورية فى البحث الكيفـى، وذلك بالنظر إلى ما لطريقة التاريخ الشفاهى من سمات خاصة مميـزة؛ فـإن ذلك الفصل يقدم مناقشته الخاصة به لقضية التفسير.

عند استعمال طريقة التاريخ الشفاهى، فإن الجـزء المخـصص مـن عملية البحث لجمع البيانات يكون ذا طابع تعاونى. إذ يقوم الباحث والمبحوث بخلق المعرفة معاً من خلال خلقهما لقصة حياة. فالباحث يستهل هذه العمليـة وييسر على الراوى أن يحكى قصته. وكما هو معهود، يقوم الباحـث بعـدها بتدوين المقابلة (أو المقابلات)، وقد يضيف إلى هذا السجل ملاحظاته وتعليقاته ليفسر بها ما ورد فى هذا السرد من جوانب تتصل بأداء الراوى، و/أو يضيف ذكر مشاعره وأفكاره وتساؤلاته، وما إلى ذلك. وهكذا، فإنه فى نهاية الأمـر، وبكل وضوح، يعمل الباحث والراوى معاً لتقديم المادة الخام: ألا وهى سـجل التاريخ الشفاهى (وأى مادة أخرى). ولكن ما الذى يحدث بمجرد جمع بيانات هذه المقابلة؟

هل تظل تلك العملية التعاونية التى تصوغ شكل جمع البيانات مستمرة أثناء مرحلة التحليل والعرض؟ ومن الذى يبدأ بوضع سمته الخاصـة علـى القصة التى تتجمع وتتبلور من خلال هذه العملية؟ ومن الذى له سلطة علـى هذه القصة أو هذا السرد؟ وهل هذه السلطة ممكنة دائماً، أو هـل هـى أمـرٌ مرغوب فيه؟ وما هى الاعتبارات الأخلاقية التى يتم الالتزام بها عند تقريـر المدى الذى سيبلغه المشروع البحثى من هذا الجهد التعاونى؟ وما هـو الأثـر الذى يُحدثه التعاون على الباحث، وعلى الراوى، وعلى البحث نفسه؟ وبصفة عامة، كيف نفكر فى مسألة تفسير بيانات التاريخ الشفاهى؟ تلك فقـط بعـض الأسئلة التى يتعين على المشتغل بالتاريخ الشفاهى أن يضعها فى اعتباره. ذلك أن التفكير الكلى فى المشروع البحثى الكيفى يقتضى من الباحث أن يُفكر فـى القضايا المتعلقة بالتفسير وهو يصمم خِطة البحث، وأن يواظب على الرجـوع

إلى هذه القضايا على امتداد المشروع البحثى، وذلك لأن الغالب على البحث الكيفى أنه يتضمن التعرض للتغيير.

وفى صميم الأسئلة المتعلقة بالتعاون فيما بعد مرحلة جمع البيانات، تُوجد، فى الواقع، الأسئلة المتعلقة بالسلطة، والتى نشير إليها بوصفها "مصفوفة التاريخ الشفاهى": أى ذلك التداخل والتشابك بين طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة. فمن هو الذى له سلطة على البيانات؟ وهل يتم تقاسم هذه السلطة بين الباحث والراوى (أو الرواة)؟ إن هذا السؤال المعقد عن السلطة إنما يوجد حيث تكون مصفوفة التاريخ الشفاهى، بما فيها من التقاطع بين طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة، ظاهرة بأقصى درجات الوضوح. ونظراً لما للتاريخ الشفاهي من التطور التاريخي والاستعمالات الراهنة داخل العلوم الاجتماعية والإنسانيات، فإنه يمزجُ بين أحد أدوات البحث وبين مجموعة مُحدَّدة من الاعتبارات الأخلاقية والقضايا السياسية الخاصة بالعدالة الاجتماعية. وعند كتابتها عن عبارة **السلطة المشتركة** تقول شوبز Shopes:

تعبر هذه العبارة الطنَّانة بدقة عن المعنى الموجود في صميم كل من طريقة البحث والأخلاق المتعلقة بمشروع التاريخ الشفاهي – أو ربما ينبغي على المرء أن يقول: القضايا السياسية لهذا المشروع، وأعني بهذا: ذلك الحوار الذي يُحدد عملية المقابلة نفسها وإمكانية أن يمتد هذا الحوار إلى الخارج – أي في المنتديات العامة والبرامج الإذاعية، والأعمال الدرامية (في السينما والمسرح)، والمطبوعات، وغيرها من الأشكال – في اتجاه ممارسة ثقافية ديموقراطية أوسع نطاقاً. (Shopes, 2003, p.103).

ويُثير هذا الكلام أسئلة مهمة تتعلق بمدى كون المعرفة المُستقاة من عملية سرد حكايات التاريخ الشفاهي ذات طابع تَعاوني من حيث تطورها، ومدى إتاحتها فيما بعد، ومن حيث الانتفاع بها. ذلك أن ما يحمله التاريخ الشفاهي من إمكانية للتعاون ليست مُجرد اختيار يتعلق بمنهجية البحث ولكنها تَحملُ معها – فضلا عن ذلك – مجموعة من المعتقدات السياسية وجملة من الاعتبارات الأخلاقية. وفي صميم هذه القضايا يقع السؤال الذي يطرحُهُ فريش حين يقول: "من هو مُؤلف التاريخ الشفاهي؟" (٢٠٠٣، ص١١٣). وفي

الواقع، يستطرد فريش ليسترعي انتباهنا لتلك الرابطة القائمة بين كلمة "**مؤلف**" "author" وكلمة "**سلطة**" "authority" كاشفاً عن مَدَى تشبع التصور بالقوة (السياسية) (٢٠٠٣، ١١٣). فالشخص الذي يُفسِّر القصة، ويصوغ شكلها، ويُقدمها هو الذى تكون له سُلطة مُعينة على البيانات، فهو بذلك الشخص الذي يتحكم في بناء المعرفة. إذن فماذا يعنيه عند الباحث أن "**يؤلف**" قصة شخص آخر؟ وكيف يمكن إشراك الراوي في هذه العملية؟ وما هي الخيارات المتاحة للباحثين الكيفيين؟

وكما هو الحال في كافة المشاريع البحثية، فإننا نوصي بأن تكون الأهداف الخاصة للمشروع البحثي هي التي تُحدد مَدَى كونِ مرحلة التفسير مرحلة ذات طابع تعاونيّ. فبعض المشروعات ستكون ملائمة بدرجةٍ أكبر لاقتسام السلطة أثناء المراحل كلها، بينما تجعلُ بعضُها الآخر هذا الاقتسام مُحالاً أو غير مرغوبٍ فيه. وسوف تُساعد معتقداتك الإبستمولوجية الخاصة بالعلاقة بين الباحث والمبحوث في بلورة هذه القرارات، كما ستساعدُك على ذلك دوافعك الخُلُقية والسياسية، إلا أنه لابُدَّ لعملية البحث -أساساً- أن تكون متشابكة مع أهدافك ووسائلك. وتحتوى جميع المقابلات الخاصة بالتاريخ الشفاهي على أبعاد ذات طابع تعاوني، وإن كانت استراتيجيات التفسير يمكنها استخدام تشكيلة مُنوعة من الرؤى التصورات. وقد يكون من المفيد أن نفكر في التاريخ الشفاهي باعتباره قائماً على مُتصلٍ تَعَاوني – إذ أن بالإمكان أن تتنوع المشروعات البحثية ابتداءً من كونها تعاونية في مرحلة جَمْع البيانات فقط وانتهاءً بكونها تعاونية بصورة شاملة مُنذُ مرحلة التصميم الأولى للبحث وحتى الانتهاء من مرحلة كتابة النتائج.

وفي هذا الصدد يُشير فريش إلى قضيةٍ مهمة فيقول:

يمثل تقاسُم السلطة مَنْحىً في القيام بالتاريخ الشفاهي، بينما تُمثِّل السلطة المشتركة أمراً نحتاج للاعتراف بهِ في ممارستنا لهذا العمل. (٢٠٠٣، ص١١٣).

هيا بنا نتأمل بعض الحُجج المؤيدة والحُجج المعارضة لاستعمال منحى السلطة المشتركة في التاريخ الشفاهي، وذلك عن طريق النظر في مشروعات

بحثية متنوعة للتاريخ الشفاهي، وفي الطريقة التي اتبعها الباحثون في تنظيـر ومعالجة قضية التعاون والسلطة بأساليب مختلفة.

لا مركزية السلطة والممارسة الديموقراطية

كثيرا ما يكون موضوع التعاون الكلي الشامل، وهو التعـاون الـذي يربط الباحث والراوي أثناء جميع مراحل إنتاج المعرفة؛ كثيراً ما يكون مـن الموضوعات الجذابة التي تستهوي أولئك الذين يعملـون انطلاقـاً مـن رؤىً نظرية نَقدية، بما فيها من الأُطر الفكرية النسوية والتعددية الثقافية. وبالمثـل، فإن هذا المنحى قد يكون مناسباً للمشروعات البحثية الهادفة لإحداث التغييـر الاجتماعي أو لدعم حركات الناشطين الاجتماعيين. وترتيبا على ذلـك، ولأن الرؤى النقدية والبحث المهتم بالحركـات الاجتماعيـة آخـذان فـي الزيـادة والظهور، فإننا نرى زيادة في البحث ذي الطابع التعاوني. ويثير ذلك الأمـرُ هذا السؤال: لماذا ينجذب أولئك الأفراد من الباحثين والناشـطين لموضـوع اقتسام السُلطة؟.

إن التاريخ الشفاهي منحىً متميز لأن لديه القدرة على منـع تمركـز السلطة، بل واقتسام تلك السلطة فعلا (فريش، ١٩٨٩، وشوبز، ٢٠٠٣).

وكما ورد في المناقشة التي تناولها الفصل الأول، فإن الباحـث كـان يحظى على امتداد التاريخ بدرجةٍ من الأفضلية باعتبارهِ الطرف العارف، كما كان يحتكر السيطرة على عملية البحث وعلى المعرفة الناتجة عنه. وقد كانت سُلطة الباحثِ على البيانات تشتمل كذلك على سلطته علـى تحليـل المعرفـة الناتجة عن البحث، وعرضها/ أو كتابتها، ونشرها. مثال ذلك: هل سيتم نـشر هذه النتائج أم لا؟ وأين ستنشر؟ وكيف سيتم الانتفاع بهـا؟ ويُـسلم التـاريخ الشفاهي بأن المشارك في البحث (أي المبحوث) له من الخبـرات الحياتيـة، والأفكار، والمشاعر ما يمكنه أن يساعدنا على أن نفهم الحقيقة الاجتماعيـة أو نفهم جانباً ما منها على وجه أفضل. معنى ذلك أن لدى هذا المبحوث معرفـة متميزة ذات قيمة غالية. وهذا الراوي هو وحده الذي يعرف قصته الشخـصية ومن ثَمَّ فإنه يُؤدي دور الراوي. وبهذا الشكل تتيح طريقةُ البحث هذه للمبحوث أن يحتفظ بسلطته على معرفته أثناء جمع البيانات.

ومن هنا تتعارض طريقة التاريخ الشفاهي - تعارضاً نابعاً من طبيعتها- مع التصورات الوضعية و المابعد الوضعية المتعلقة بالعلاقة بين الباحث/ والمبحوث، ويُضاف إلى ذلك أنها لا بد أن تنقل -على الأقل- قدراً ما من السلطة إلى المبحوث. ويلتزم العلماء الذين يعملون انطلاقاً من الاتجاهات النظرية النقدية بزعزعة دعائم العلاقات القائمة على القهر، وبجعل أولئك الموجودين - بامتداد التاريخ - على هوامش النظام الاجتماعي؛ بجعلهم محور عملية بناء المعرفة. كما أن العلماء ذوي النزعة النسوية والعلماء الآخذين بمفهوم التعدد الثقافي مهتمون بإبطال مركزية السلطة، هادفين من ذلك إلى إعطاء النساء والملونين وضعاً اجتماعيا محورياً مسئولا داخل عملية بناء المعرفة. ويسعى المفكرون النسويون - فضلا عن ذلك- إلى إسماع الناس صوت النساء. ومن خلال قيام التاريخ الشفاهي بتغيير مركز المعرفة وجَمعهِ بين الباحثين والرواة في الإحساس بالالتزام، فإنه يتيح الفرصة لقيام التعاون ويفتح الباب للإمكانيات المتضادة الموجودة كجزء لا يتجزأ من العملية التعاونية في بناء المعرفة. ذلك أن البُعد المقاوم لاقتسام السُلطة مُرتبط على نحوٍ لا انفكاك له بالأفكار الخاصة بالإنتاج الديموقراطي للمعرفة، والتي قد تكون -بالذات- مواتية لأفكار العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية.

إن استعمال الاتجاهات التعاونية في مجال التاريخ الشفاهي ليحمل آثاراً من ذلك التغير القديم في النموذج النظري للمفكرين الاجتماعيين والذي تسبب في ظهور البحث الكيفي وظهور تغيرات واسعة النطاق في تصوراتنا عن طبيعة المعرفة وعن عملية بناء المعرفة. ويدعو بعض المؤرخين الشفاهيين من العاملين في مجال الحركات الاجتماعية، والسياسة العامَّة، وحركات الناشطينِ الاجتماعيين؛ يدعون إلى أقسام السلطة أثناء مراحل المشروع البحثي كلها من أجل الإنتاج الديموقراطي للمعرفة، والذى يُمكنه أن ينفع إلى أبعد حد تلك الجماعات التي غالبا ما نجري بحثنا من أجلها. ويرجع ذلك إلى أن التعاون بين الباحث والمبحوث يُتيح لنا أن نتكلم **مع مبحوثينا وليس نيابة عنهم**. ومن شأن هذا الاتجاه الديموقراطي في بناء المعرفة أن يحل بعضاً من قضايا القوة الاجتماعية التي تتخلل البحث التقليدي، إذ يتيح لأولئك الذين نرغب في تمكينهم من أن يُعلمونا كيف نُحقق أهدافنا. ويذهب كير Kerr (٢٠٠٣) إلى أن اقتسام السُلطة "يمكنه أن يقوم بدور مهم في بناء

الحركات الاجتماعية والسياسية" (ص٣١). ويكتب مُشيراً إلى مؤلف فريش فيقول:

يذهب فريش إلى المطالبة "بنوع من المشاركة الأعمق في اقتسام المعارف، أي إلى نوع من الحوار الضمني أحيانا، الصريح أحيانا أخرى، الذي يجري انطلاقاً من تفضيلات مختلفة، ويدور حول شكل التاريخ، ومعناه، ومضامينه. وهو يذهب إلى أن هذا الحوار سوف يعزز "نوعاً من الوعي التاريخي الذي يتشكل ديموقراطيا وتتقاسمه فئات عريضة من الناس، وهو الأمر الذي يترتب عليه تشجيع المشاركة الواسعة في المناقشات التي تدور حول التاريخ، وهي المناقشات التي سوف تثريها طائفةٌ من الخبرات، والرُّوَى، والقيم الأكثر تمثيلا للواقع". وأودُّ أن أضيف أن هذا الحوار المبني على هذا الأساس لابد أن يستمر ليتجاوز نطاق الطريقة التي اعتدنا أن نرى بها التاريخ، بجانب أنه لابد أن يؤثر على الطريقة التي نضع بها خطط السياسة العامَّة، ويؤثر بدرجةٍ أهم على طريقتنا في إعادة إنتاج التنظيم الاجتماعي للمجتمع الذي نعيش فيه. (Kerr, 2003, p.31).

وفي هذا الاتجاه، فإن النهج التعاوني في تحليل التاريخ الشفاهي وعرضه، يمتدُّ نطاقُه ليتجاوز مُجرَّد قيامنا بدمج الأصوات والرؤى المتعددة في كتابتنا عن التاريخ، كما أنه يستطيع المساعدة في تشكيل تنظيم مجتمعنا وصياغة السياسة العامَّة. وبهذهِ الطريقة يستطيع التاريخ الشفاهي أن يُعزِّزَ التغير المتعدد التوجُّهات. لذلك لا يدهشنا أن نرى العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية يتبنون هذا الاتجاه.

وقد وضع "كير" (٢٠٠٣) خُطة مشروعٍ بحثيٍّ قائم على التاريخ الشفاهي مستعملا التحليل التعاوني الذي يشترك فيه الباحث والمبحوث من أجل دراسة ظاهرة التشرد. وكجزء من إعداده لرسالته لنيل الدكتوراه أمضى "كير" سنواتٍ وهو يعمل في "مشروع كليفلاند للتاريخ الشفوي للمشردين". ويُعتبر هذا المشروع، والذي يتضمن إجراء مقابلات بوسائط اتصال متعددة؛ يُعتبر مثالاً ممتازاً لتطبيق أسلوب اقتسام السلطة بشكل كلي وتام، لأن هذا الأسلوب يمكننا على نحو فعال من تحقيق الأهداف البحثية لأي دراسةٍ دقيقة.

وقد أراد كير أن يقوم بالبحث الذي يتيح له إجراء حوار هادف بين المشردين في كليفلاند، والذي يستطيع الإسهام في وضع وتنفيذ قدر من التغيير في السياسية العامة التي تهدف إلى تخفيض أعداد المشردين في مدن الولايات المتحدة. ويذهب "كير" إلى أن البحوث التي كانت تجرى عادة على المشردين قد أخفقت فى خلق حوارات على مستوى الشارع (أي على أرض الواقع وبين أصحاب المشكلة)، مما جعل البيانات التي انتهت إليها تلك البحوث تأتي خالية من أي إسهام حقيقي من البيانات التي يقدمها المشردون أنفسهم، ومن ثم أفقد تلك البحوث القدرة على حشد الدعم المطلوب لعمليات رسم وتنفيذ سياسة اجتماعية فعالة.

لقد سعى قادة الرأي وكذلك الأساتذة الجامعيون – الذين كانوا يدرسون أحوال المشردين في الولايات المتحدة – للوصول أساساً إلى طائفة من رجال الدولة والقادة المحليين، وذوي الاتجاهات التقدمية من المنتمين للطبقة المتوسطة والطبقة العليا، والذين كان قادة الرأي وأساتذة الجامعات يعتقدون أن لديهم القوة (السياسية) على إحداث التغيير المنشود. وقد تشكلت هذه الرؤية في جانب منها بتأثير رجال الدولة أنفسهم ممن شجعوا هذا الاتجاه، حيث كانوا يلتمسون المشورة في حل مشكلات المشردين، والتي كانوا يطلبونها –بصورة حصرية غالبًا– من مُقدمّي الخدمات الاجتماعية والخبراء من أساتذة الجامعات. كما أنه لم يتوافر لدى أساتذة الجامعة من الدوافع ما يكفي لحملهم على العمل بصورة تعاونية مع المشردين. وقد توصل بعضُ هؤلاء الأساتذة الجامعيين – الذين كان لهم صوتاً مسموعاً على مستوى السياسة العامة– إلى ابتكار حلول تخلو من إسهام المُشردين وإشرافهم، كما أنهم لم يحققوا نجاحا يذكر في محاولاتهم للترويج لما توصلوا إليه من حلول بين المشردين. (ص٢٨).

ويرجع الإخفاق القديم في إنتاج ذلك النوع من المعرفة التي استُعملت حديثاً – بنجاح – في تخفيف حدة مشكلة التشرد؛ يرجع بصورةٍ عامة إلى عاملين:

(١) فالباحثون لا يستطيعون أن يدرسوا البؤس انطلاقا من وجهة نظر محايدة ومنفصلة عن السلطة،

(٢) والتشرد له بُعد بنائي يُدعمه أصحاب المصالح الأقوياء المستفيدون من بقاء هذا النظام واستمراره (كير، ٢٠٠٣، ص٣٠).

وبناءً على ذلك اضطُر "كير" للتخلي عن وضع الامتياز التقليدي الذي يُنظر فيه إلى "الباحث بوصفه عارفاً" والعمل مع المشردين بأسلوب تعاوني من أجل الوقوف على اتجاهات الناس، وتوليد النظرية، والدعوة إلى إحداث تغييرات سياسية محسوسة، وتنفيذها بصورة فعالة.

إن توسيع الباحث لنطاق الجماعة العلمية من خلال عملية اقتسامه للسلطة مع المشردين، لا يؤدي به إلى التخلي عن الموضوعية، بل هو بذلك يقدم بحثاً أكثر موضوعية وفعالية. فالنظريات والحلول التي تحشد وراءها الدعم والتأييد هي التي يتم تنفيذها بصورة فعالة، كما أنها تنجح في معالجة القضايا الشائعة التي تكون – من الناحية الموضوعية – في وضع أفضل من القضايا التي لا تحشد لنفسها مثل هذا الدعم (كير، ٢٠٠٣، ص٣٢).

وفي ظل هذا الظرف، كان من الواضح أن اقتسام السلطة هو الأسلوب المنطقي الذي يتعين اتباعه في عملية التاريخ الشفاهي، كما أنه عزَّز التكامل بين اختيارات الباحث الأنطولوجية، والإبستمولوجية، والنظرية، والمنهجية، مما أدى إلى إيجاد مجموعة من المعارف القابلة للتطبيق التي تتسم بالتنوع والصلابة. فهذه المعارف لا يمكن فصلها عن العملية الديموقراطية في إنتاجها، ونم ثم فإنها تعبر بكل السبل عما تثيره ضمناً من قضايا تتصل "**بمن يتعين عليه المشاركة في بناء مجتمعاتنا**".

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر "كير" أن المبحوثين قد تم تمكينهم بالفعل من خلال مشاركتهم هذه. فقد ساعدت هذه العملية المشرَّدين على أن يصبحوا عناصر فعالة في إحداث التغيرِ الاجتماعي في مجالٍ يرتبط ارتباطاً مباشراً بحياتهم اليومية بدلاً من أن يظلوا ضحايا لنظامٍ اجتماعي تحول فيه كل شيء أو شأن إنساني إلى شيء مادي.

التمكين، والأخلاق، والنزاع خلال عملية التعامل

ليس من العسير أن نفهم كيف يكون لاقتسام السلطة ذلك الأثر المعنوي على تمكين الراوي (أي إعطائه قدراً من السلطة –المترجم). فمن المؤكد أن الناس يكونون أقرب للشعور بأنهم مُمكّنون عندما يتم دمجهم بصورة كاملة، وتقديرهم تقديراً وافياً، وعندما يقومون بأدوارهم في ساحة اجتماعية مفتوحة وممهدة أمامهم. وتكتب ريكارد (٢٠٠٣) فتذكر أنَّ المبحوثات اللائي درستهن في بحثها الكيفي (القائم على تعاون المبحوثين) عن بعض البغايا البريطانيات كنَّ كذلك يشعُرن بالتمكين بفضل استخدام طريقة التاريخ الشفاهي في البحث. ويُعد عمل ريكادر عملاً مهمًا، لأنه يثير قضايا أخلاقية تدور حول التمكين، وحركة الدفاع الاجتماعي، واقتسام السلطة.

هل يُعدُّ أخلاقياً –على طول الخط– أن نمكن لشركائنا في البحث (المبحوثين)؟ وماذا يكون الأمر إن كانوا متورطين في نشاط غير مشروع أو في نشاط نراه من وجهة نظرنا الأخلاقية أو السياسية نشاطاً مسبباً للمشاكل؟ وبوصفنا باحثين ملتزمين نتساءل: أين يوجد الخط الفاصل بين التمكين والدفاع الاجتماعي؟ فإن شعرنا بنوع من الالتزام بمصلحة شركائنا في البحث (مبحوثينا) عن طريق تمكينهم (إن كان بوسعنا ذلك)، فهل من الضروري أن نوافق على سلوكهم؟ فهذه قضايا اضطرت ريكارد لمواجهتها عندما اقتسمت السلطة مع البغايا البريطانيات، بما يتضمنه هذا الاقتسام من تكليف واحدة منهن لإجراء المقابلات مع المبحوثات. وقد تبنت ريكارد "منظوراً إيجابياً للجنس" تبنيا صريحاً، وهو الأمر الذي عرَّض جهدها العلمي للفحص والتدقيق. وقد ربط البعض خطة بحثها التعاوني بتأييد البغاء والدعوة إليه.

لهذا السبب، ونظراً لالتزامي بتطبيق طريقة التاريخ الشفاهي في هذا المجال، فقد كان لزاماً عليَّ أن أنحاز إلى جماعة الضغط السياسي المؤيدة للعمل في مجال الجنس، وأن أنخرط في أعمال جماعات الناشطين القومية والدولية التي تدعم حقوق العاملين في مجال الجنس. وقد ترتب هذا الانخراط مع الناشطين كذلك على اهتمامي الشديد باقتسام السلطة مع المبحوثين. ولكي أضمن تسجيل حكايات هؤلاء النساء وجمعها كان لزاماً عليَّ أن أكون مستعدة

لاستغلال وضعي الأكاديمي الذي يمنحني شيئاً من الأفضلية لتقديم الدعم السياسي والعملي للمبحوثات، ولتسهيل الاتصال من خلال الشبكات الدولية، ولاستغلال المادة المُسجلة في مقابلات التاريخ الشفاهي في خدمة الأهداف السياسية والتربوية. وبالنسبة لي، فقد أفضى بي ذلك إلى عدد من المشروعات الفرعية، كتنظيم مؤتمر للعاملات في مجال الجنس في المملكة المتحدة، وإطلاق مشروع التربية الصحية باستعمال نصوص مستمدة من شرائط تسجيل تعرض بواسطة جهاز العرض العلوى OHP بوصفها المصدر الأساسي لهذا المشروع. وقد قادني هذا الوضع – أيضاً – إلى الانشغال بلقاءات محلية ودولية مع الناشطين، وباستغلال المادة المسجلة في مقابلات التاريخ الشفاهي كمصدر تعليمي للعاملين في مجال الصحة. وبمرور الوقت، تحققت– بصورة بطيئة– من أن استخدام التاريخ الشفاهي في مجال الجنس كان ينفذ دائما انطلاقا من "منظور إيجابي للجنس" مشابه للمنظور الذي تبنيته وكان يستخدم بصفة شبه دائمة داخل سياقٍ دَعَوي على المستوى الشخصي وعلى المستوى السياسي. (ص٥٤).

وهكذا نرى ريكارد متنبهة للتفكير في انحيازها السياسي الشخصي لراوياتها (المبحوثات)، كما أنها تكشف لنا عن مدى تأثير هذا الانحياز على تحليل البيانات وعلى دراستها عموما. ومع أننا لا نرى من الضروري أن نعلق على الاختيارات البحثية لريكارد في حد ذاتها، فإننا نرى أن موقفها يقدم لنا مثالاً قيماً نستطيع أن نستفيد منه في التأمل العميق لما نجريه من بحوث. وعن طريق انهماك قُراء مؤلف ريكارد في المناقشة – التي شملت كُلاً من سياق الاكتشاف وسياق التبرير – يتزودون بالمعلومات الكافية عن عملية البحث وعن علاقة الباحثة بهذا العمل بحيث يستطيعون تفسير عملها نظراً لأنهم يعتبرونه عملاً سليماً لا غبار عليه. وبهذه الطريقة تكون قد أدت واجبها بجانب أنها تكون قد زودتنا بدراسة حالة قوية تتيح لنا أن نتأمل الطريقة التي نتبعها جميعاً في الاشتراك في مصفوفة التاريخ الشفاهي المكونة من: طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة. وهذا الأمر يجتذبنا إلى دراسة حشدٍ من القضايا الأخرى التي تدور حول المشاركة بين الباحثِ والمبحوث في عمليَة تفسير البيانات.

وعلى حين تستلزم بعض مشاريع البحث تعاونا قوياً، فإن محاولات اقتسام السلطة قد تتسبب في تعويق مشروعات أخرى. كما أن التفسير التعاوني قد يغير طبيعة هذه الدراسة أو مسارها على نحو لا يرتاح إليه الباحث. ونظراً لأن التفسير مكونٌ أساسي من مكونات صناعة المعنى أو بناء المعنى، فإن الاشتراك فيه يُؤثر تأثيراً عميقاً على بناء المعرفة، كما أنه ليس أمرا مرغوباً فيه بالضرورة.

يُعدُّ التشارك مثلاً أعلى لبعض أعمال التاريخ الشفاهي، حيث يتصف بأنه مَثلٌ مسئول وقادر على أن يحفز كلا من الباحث والمبحوث، كما يتسم بالنزعة الإنسانية، إلا أنه قد يبدو هدفاً غير مناسب في بعض أنواع المشروعات، بصرف النظر عن الرعاية المبدئية لكرامة سائر الأشخاص المشتركين في البحث.. ذلك أن أخذ كافة الآراء المخالفة لرأيك أمر، ولكن العجز عن إخضاعها للفحص والتدقيق النقدي أمرٌ آخر. فهل يُعتبرُ عرض/أو تمثيل وجهات النظر المختلفة في صورة الرأي/ والرأي المضاد؛ هل يُعتبر هذا العرض -في حد ذاته- شكلاً من أشكال البحث النقدي؟ وهل يعد ذلك كافيا؟ إننا بحاجة إلى مزيد من التفكير في أوجه القصور وفي إمكانيات النجاح التي يتصف بها العمل في التاريخ الشفاهي مع أولئك الذين لا نتعاطف مع مواقفهم بالأساس. (شوبز، ٢٠٠٣، ص١٠٩).

تثير شوبز مسائل مهمة في نفس الوقت الذي تعيد فيه التأكيد على أن الاستخدام الكلي لاقتسام السُلطة لا يعدو أن يكون أحد أساليب التاريخ الشفاهي. ذلك أنه من المعقول تماماً ومن المناسب غالباً أن يحتفظ الباحث بالحق في أن يكون له سلطة على عملية التفسير. ونحنُ كباحثين نستطيع أن ندافع عن وجهات النظر النسوية وغيرها من وجهات النظر الخاصة بحقوق الإنسان بدون أن نضع الآراء التفسيرية التي يراها مبحوثونا من الرواة في نفس المستوى الذى نضع فيه تحليلنا الخاص بنا. فنحن لسنا بحاجة لأن ندعو الراوي ليشاركنا في عملية البحث خارج نطاق جلسات المقابلة إذا لم يكن مشروعنا يجيز هذه المشاركة. ذلك أن عملنا العلمي و/أو راحتنا النفسية

تقتضيان أن نحتفظ فعلاً بسلطة فكرية صارمة على عملية العرض النهائي لنتائج البحث.

مثال ذلك، أن مشروع التاريخ الشفاهي الخاص بصورة الجسد، والذي بدأنا بهِ هذا الفصل، كان يُلزم بالفصل بين الباحث و الرواي أثناء تحليل البيانات. فقد كانت "كلير" لا تزال حبيسة مرضها النفسي: تعاني من فقد الشهية العصبي للطعام، كما كانت صحتها تتدهور بسرعة أثناء فترة تنفيذ المشروع. وعلى الرغم من معركتها المستمرة الواضحة، فقد كانت "كلير" تؤكد بصفة متكررة على أنها أصبحت – في تلك الفترة – في صحة وعافية وأنه بات لديها "رؤية واضحة" لمتاعبها "السابقة". وفي حالة الإصابة بمرض الفقد العصبي لشهية الطعام، فإن من الواضح أن هذا النوع من الحالة العقلية الثابتة يكون شائعاً بين النساء اللاتي يُعانين من أحد أعراض اضطرابات تناول الطعام. وكانت قدرتها على الحُكم على هذه الحالة بطريقة مُجدية تتعرض لتشويش حادٍ بسبب مرضها هذا. وبجانب إنكارها الشديد لظروفها النفسية السيئة فقد كانت في حالة صحية آخذة في الضعف (وهو الأمر الذي كان له –هو الآخر– أثر ظاهر على ملكاتها العقلية). وقد جعلت كل هذه الاعتبارات التحليل التعاوني مستحيلاً وغير مرغوب فيه في الوقت نفسه.

وفي مثل هذا الوضع ينبغي على الباحث أن يحتفظ بسلطته (أي بسيطرته) العقلية على البيانات لكي يصل إلى توليد المعنى الذي يصدُقُ على القصة التي يحكيها الراوي. وهو الأمر الذي قد يَشُقُّ عليك إذا كانت لك رابطة قوية تربطك بالراوي الذي تُجرى معه المقابلة، ومع ذلك، فإنك، بوصفك باحثاً، بحاجة إلى أن تفكر في هذه العملية الشاملة وفي المعرفة النهائية المستخلصة منها، مما قد يعني اتخاذك لقرارٍ يَشُقُّ عليك اتخاذه. وفي مثالنا هنا، يتم اتخاذ هذا القرار في الوقت الذي كانت فيه "كلير" عاجزة عن تقديم المساعدة الفعالة لك في تفسير شبكة الضغوط التي بلغت ذروتها فيما أصابها من اضطراب في صورة جسدها لديها. بل إنه في الأحوال التي يكون فيها الراوي "قادراً" على المشاركة في العملية التفسيرية، فقد تكون هذه المشاركة، ببساطة، أمراً لا يهتم بهِ الباحث. وهذه قضية دقيقة هي الأخرى.

من الناحية الأساسية، فإنني أرى فعلاً أن ديناميات المقابلة ذات طابع تعاوني أو تشاركي. بيد أني أرى كذلك أننا نحنُ الباحثين بحاجة إلى أن نفكر بعناية في مسألة: أين نرغب في اقتسام السيطرة العقلية على عَملنا وأين لا نرغب في ذلك. فنحن نحتاج فعلاً لأن نكون واضحين فيما يتصل بأين نريد أن نختلف عن مبحوثينا من الرواة، وإلى أيِّ مدى يكون هذا الاختلاف، فقد يكون الاختلاف موجوداً في أثناء المقابلة نفسها، والأرجحُ أن يُوجد فيما نكتبه بناءً على المقابلات. كما نحتاج إلى الوضوح عندما نرغب في انتقاد مبحوثينا من الرواة، أي عندما لا يوجد مُتسعٌ لرؤية مُشتركة نتقاسمها معهم (شوبز، في استشهادها بما كتبته في كتابها المنشور سنة ٢٠٠٢، وكتابها المنشور سنة ٢٠٠٣، ص١٠٩).

مثال ذلك، ماذا يكون الأمر إذا كان الراوي الذي تُجرى معه المقابلة متعصباً عنصرياً، أو منحازا جنسيا للرجال ضدَّ المرأة أو مصاباً بالخوف المرضى من الجنسية المثلية؟ إن كنا ملتزمين بروح العدالة الاجتماعية فستأتي علينا أوقات لا تكون فيه السلطة المُقتسمة اختياراً واردا بأي شكل. فبصرف النظر عما إذا كنا – أو لم نكن- نتقاسم نوعاً من "المشاركة الوجدانية الأساسية" (شوبز، ٢٠٠٣، ص١٠٩) مع أولئك الذين نُجرى معهم المقابلات، فنحن بحاجة إلى التفكير بجدية في الموقع الذي يحتله "صوتنا العقلي" (أي موقفنا الفكري) المستقل داخل عملنا. ويتطلب منا هذا الموقف أن نرسم حدود التشارك/أو التعاون داخل أي مشروع بحثي، وأن نتشكك فيها، ونتفاوض في شأنها، وأن نُعيد التفاوض فيها، وذلك في كل مرة نعمد فيها إلى التفكير في الملاءمة بين اختياراتنا وأهدافنا البحثية. كما نرى أن من المهم للباحثين الكيفيين أن يكتبوا بصراحةٍ عن هذه العملية ليساعدوا غيرهم في التفكير فيما يتسم به البحث التعاوني من تعقُّد، وليبثُّوا الروح والحيوية في قراراتهم المتصلة بتحديد المكان الذي يقعُ فيه أي مشروع معين على امتداد هذا الخط المُتصل من التعاون إلى اللاتعاون. فهيا بنا نبحث مثالاً يُوضح أهمية استمرار الباحث مُخلصاً لصوته (لرؤيته)، كما يوضح المخاطر المحتملة للتعاون الذي يفتقر إلى التحديد الدقيق.

كتبت سيتزيا Sitzia (٢٠٠٣) دراسة حالة عن علاقتها بالراوي الذي كانت تُجرى معه مقابلات التاريخ الشفاهي عندما كانا يحاولان اقتسام السلطة (أو: اقتسامِ السيطرة) أثناء تقديمهما لسيرتهِ الشخصية عن فترة مُدتها ست سنوات. وتلقي خبرتها الضَوءَ على ما في التعاون من مزايا وما ينطوي عليه من مخاطر لا تنفك عنه بحال.

وكانت سيتزيا تُشارك راويتها -"آرثر"- في صفات مهمة تجعلهما "من الأقارب"، وخاصةً في انتمائهما إلى الطبقة العاملة، وأنّ لهما اهتمامات مُشتركة، وهما الأمران اللذان يَسَّرا تحقيق أُلفةٍ رائعة بينهما في مرحلة جمع البيانات.

قام هذا الحوار المتواصل بيني وبين "آرثر" بإثراء عمليةِ التأثير على قصةِ حياةِ امرئٍ آخر: فقد انتقلتُ بسرعة من دور الباحثة التي تُجرى المقابلة إلى دَور الباحثة التي تساعد "آرثر" على الكشفِ عن ماضيه. ولم يكن من المُمكن تحقيق التطور في هذا الحوار داخلَ نطاقِ هذه العملية إلا من خلال علاقتنا هذه (Sitzia, 2003, p.94).

يُؤدِّي نوع الالتزام بالمشروع البحثي، بجانب الملكية المُشتركة له، إلى إنتاج بياناتٍ قد تظلُّ طيَّ الكتمانِ لولا وجود هذين الأمرين. ومع ذلك، فإن للالتزام الذي يقتضيه التعاون ثمناً عاطفياً، كما أن بإمكانه في بعض الأوقات أن يكون ذا تأثير طاغٍ على الباحث. وبالمثل، فإنه في نفس الوقت الذي يشعرُ فيه بعض الدارسين بأن التفسير المشترك يُثري عملهم، قد يشعُرُ علماء آخرون بخسارةٍ غير مرغوبٍ فيها عندما يفتقدون السُّلطة العقلية (السيطرة الفكرية) على بحثهم، وذلك على نحو ما توضح سيتزيا في النص التالي:

عندما بدأ عَمَلُنا... كنت أشعر بالرضا البالغ عن الطريقة التي كان يسير بها هذا المشروع... وعندما... اقتربنا من نشر الكتاب، بدأ آرثر يتصرف بطريقة عدائية، مُسلطاً عليّ ضغطاً هائلاً لأسْرِعَ في عَملي، ومُهدداً بإكمال العمل مع كاتب آخر. والأهم من ذلك أنه كان يُثير القضايا المتعلقة بالملكية (الفكرية): فأصبح "كتابنا" هو "كتاب آرثر" وحده. وقدْ زاد هذا الوضع سوءا أن "آرثر" كان يعاني أزمة عاطفية وعقلية حادة، وهو الأمر الذي يعني

أنه أصبح شديد الاعتماد عليَّ، بحيث كان يطلبني على الهاتف وهو في حالة اضطراب في جميع ساعات النهار والليل. وكُنتُ أشعر – ولا أزال أشعُرُ فعلاً – بمسئولية هائلة عن "آرثر"، كما كُنتُ أشعُرُ بأنه ينبغي عليَّ أن أساعده للخروج من أزمته، إلا أنني لم أكُنْ أشعُرُ بأنَّ لدَيَّ ما يُمكنني من هذه المساعدة. وبالتفكير في هذا الوضع، تبين لي أن هذه التعقيدات نجمت جُزئياً من الطبيعة التجريبية للمشروع: فلا أنا ولا آرثر سبق لنا أن عملنا بمثلِ هذه الطريقة التعاونية من قبلُ. وقد كان مدخلي لهذا المشروع نوعاً من الخبرة التعليمية غير الرسمية... وأنا الآن أؤمن بأنه من الأهمية الشديدة القيام بتحديدٍ واضحٍ للحدود الفاصلة بين الباحث والراوي وللخطوط الإرشادية العامة عند مباشرة العمل في مشروع يتسمُ بهذهِ الطبيعة. ففي بداية هذا التعاون كنتُ أتولى توجيه العمل إلى حدٍ بعيد، كما كان لي "صوت" مستقل بالتأكيد؛ ومن نتائجِ هذا النقص في وضوحِ الرؤية بخصوص التعاون وحدوده أنه كلما كان المشروع يمضي قُدُماً، كُنت أشعرُ أنني أفقد سُلطتي وسيطرتي بالتدريج، وأن آرثر أصبح أكثر فأكثر تحكُما – وفي الواقع أصبح أكثر استئساداً – وأن صوتي بدا مفقوداً (ص٩٧).

يُوضحُ هذا النموذج التوترات التي قد يواجهها الباحثون عندما يحاولون تحديد أين يقع مشروعٌ ما على متصل اقتسام السلطة. وقد توصلت سيتزيا، في نهاية الأمر، إلى إدراك أنه كان بإمكانها هي و"آرثر" – وفي حالة مشروعها هذا – أن "يملكا" هذا المشروع عن طريق تَقبُّلهما للنتائج المتعددة التي تنجم عن تلك الدراسة. إذ تكون هي وراويتها (آرثر) في هذه الحالة أحراراً في مُعالجة هذا العمل بطرقٍ مختلفة، كما أنهما يستطيعان، كلاً على حدة، أن يضعا – من خلال تلك المسارات غير المتوقَّعة – بصمتيهما الشخصيتين على المعرفة التي استحدثاها وكوَّناها معا. فتنتفع سيتزيا بجوانب المشروع فيما تكتبه بينما يكون "آرثر" قادراً على الانتفاع بهذا المشروع في مجال عمله. وقد اقتضى منهما ذلك الوضع أن يتحررا من الفكرة التي ترى أن من شأنِ "كتابٍ واحدٍ" أن يكون ثمرة هذه العملية، وأن يُدخلا في حُسبانهما وجود نتائج متعددة لها. ونحن نرى أن من الأهمية أن نبقى مُتفهمين ومُتقبلين

لفكرة أن البيانات يمكن أن تُستَعملُ بطرقٍ متعددة، وهو ما استقرَّ عليه قرار الباحثة في هذا المشروع. ومع ذلك، فإننا نُحذرُ من أن هذه الفكرة ليست مناسبةً على الدوام، كما أنه يتوجَّب على الباحث أن يُدقق النظر فيها. فحدِّد اختياراتك وتوصَّل إلى القرارات التي تكون منطقية في ظرفٍ مُعين.

على الرغم من الصعوبات التي قد تظهر، فإن بالإمكان أن يكون التعاون ممارسة جديرة بالاهتمام أو ضرورية. لذلك، فإنَّ من المُفيد أن تكون مُتحسباً للمُستقبل، وأن تُحسن تصميم دراستك، وأن تظلَّ مُتقبلاً لإجراء التعديلات التي تُمليها الممارسة. فإنْ قررت أن تتشارك السلطة على البحث مع رواتك، فإننا نقترح عليك الاستراتيجيات التالية للتعامل مع التحديات التي قد تواجهها.

- ضع حُدوداً واضحةً فيما يتصل بالعلاقة بين الباحث والراوي. وبتعبير آخر، كرِّس وقتاً كبيرا لتحديد علاقتك هذه. وتحدثا عن هذه العلاقة مع بعضكما حديثاً مستفيضاً حتى تتحقق لكما الرؤية الواضحة المتبادلةَ. واستمر في إجراء هذه الحوارات على امتداد كافة المراحل المختلفة لهذه العملية حتى تستطيع أن ترسخ –على الدوام– ما وضعتهُ من حدود واضحة وما تنتظره من توقعات (في نفس الوقت الذي تكونُ مُشتغلاً فيه بتعديل هذه الحدود والتوقعات لتتناسب مع النمو الذي يحدث في هذه العلاقة). ولابد أن يكون موقفك من هذه العلاقة موقفاً كُلياً شاملا.
- ضع توقعاتٍ دقيقة فيما يتصل بدور (أو أدوار) كل شخصٍ في هذه العملية التعاونية على حدة. وتتضمن الأمور التي يتعين مناقشتها والوصول إلى اتفاق حولها ما يلي:
  - عملية تدوين التسجيل.
  - الملاحظات الميدانية وكتابة التعليقات النظرية.
  - إجراءات التحليل.
  - التفسير وبناء النظرية.
  - الكتابة و/أو العرض.

- استعمال النتائج (بما تتضمنه هذه النقطة من تقدير عدد النتائج التي يمكن توقُّعها).
- ضَعْ أفكاراً عملية لكيفية التعامل مع ما يُحتمل ظهوره من خلافات في التفسير:

ما هي درجة الاختلاف التي يتوقع كل طرفٍ منكما أن يُدرجَها في الكتابة النهائية؟

فإذا قمت بالتفكير جيدا في هذه الأمور كلها، أمكنك تفادي كثيرٍ من المخاطر التي قد تطرأ، وبذلك تكون قد أحسنتَ استعمال هذا الوقت. وبهذا تستطيع أن تكون متقبلاً للاتجاهات المتحررة الأقل تَمسكا بالتقاليد في مجال التاريخ الشفاهي، والتي قد تتيح الفرصة لطرح أسئلة علمية اجتماعية جديدة وللإجابة عليها. ولا تخش ابتكار منهجيات بحثٍ جديدةٍ طالما أنك تعي أن التجريب يستلزم الانفتاح العقلي والدقة البالغة.

أرشَفة مواد التاريخ الشفاهي

كما رأيت للتو، فإن البحث الكيفي بصفة عامة، والتاريخ الشفاهي بصفة خاصة، يتطلبان درجة عالية من الأخلاق في الممارسة. وتُعتبر أرْشَفة مُدَوَّنات التاريخ الشفاهي و/أو مشروعاته جزءا هاماً من عملية التاريخ الشفاهي. تقول الجمعية التاريخية الأمريكية إن اتخاذ الترتيبات اللازمة لوضع مُقابلات التاريخ الشفاهي في الأرشيف يُعدُّ جُزءاً من البحث الملتزم بالأخلاق. وقد تؤثر أرشفة مواد التاريخ الشفاهي – وهي العملية التي تجعل هذه المواد متاحة لأي عدد من الباحثين في المستقبل– قد تُؤثّر على عملية البحث بطرقٍ عديدة. ذلك أنه لو تمَّ إحاطة مُشاركٍ (مبحوث) ما في البحث – وعلى نحو جيد – بالمعلومات المتعلقة بهذا البحث وبنتائجه، (على نحو ما يتم خلال حصول الباحث على الموافقة الصريحة عن علم من المبحوث) لو تم ذلك فإن مَعرفتَه – حينئذٍ – بأن مادة هذه المقابلة سوف تتم أرشفتها قد يؤثر على سرده لحكايته. وتبرُزُ هذه الحقيقة خصوصا عندما يتم في المستقبل أرشفة السجلات التي لم تَراجع قبل ذلك، وذلك لأن الرواة يفترضون ضمناً أن الصياغة الأولى لروايتهم لقصص حياتهم سوفَ يتم توثيقُها وإتاحتها للاطلاع بشكل دائم.

إن التفكير المتأني فيما يُمكن أن يقال وما ينبغي أن يقال، وكيف يجب أن يقال، ليظهر جلياً عندما تكون سجلات المقابلات مُعدة خصوصاً لأغراض الأرشفة، وذلك لأن الرواة سوف يسعون لإعداد حكاياتهم لتقديمها لجمهور عام غير معروفة هويته تحديدا. ولهذا الوضع نتيجة ذاتُ حدَّين. فمن جانب، قد يُثمر ذكريات أكثر دقة وأوصافاً أكثر استيفاءً للتفاصيل إذا أخذ الرواة الوقت الكافي لإنعاش ذاكرتهم عن طريق مراجعتهم للوثائق القديمة، و/أو مراجعتهم لغيرهم من الأفراد الذين عايشوا نفس الأحداث. ومن جانب آخر، كذلك، قد يُثمرُ هذا الوضع المزيد من "الكلام المُعلَّب" أو يُثمر بياناً مصاغا بمزيد من العناية يكون مفعما بمعان ضمنية وواسعة لما يُقال. (Wilmsen, 2001, p. 72).

فالمقابلات التي تتم مراجعتها وتنقيحها، وتصبح معدة للحفظ في الأرشيف، تطرح بدورها مجموعة من التحديات.

إن قيامك بتحليل بياناتك، وتفسيرها، وكتابتها في صورتها النهائية هو جزءٌ من عملية بناء المعنى. وإن تقديمك لنُسخة مُعدَّلة/ أو مُنقَّحة للتقرير النهائي للبحث يُمكن أن يكون مساوياً لإنتاج المعنى نفسه – أي مساوياً لخلق المعرفة. وعلى ذلك يكون التحرير (أي تنقيح التقرير وتعديل بعض عباراته وصياغاته) مُرتبطاً ارتباطاً تاماً ببناء المعنى (ويلمسن، ٢٠٠١). وأنتَ بوصفك الباحث، كيف ستقوم بتحرير سجلِّ المقابلة؟ هل "ستُنظفه تماماً" من كل ما يتصل بالوقفات (أي اللحظات التي توَقَّف فيها الراوي عن الكلام)، والهمهمات، والتعبيرات المتكررة: كقولِ الراوي "مثل كذا"[*]، وغير ذلك من

(*) من الطبيعي أن اللوازم الكلامية، والزوائد، والألفاظ التي تتردد أثناء الكلام تختلف في لغتنا العربية، خاصة لغة الحياة اليومية (أو العامية)، عن تلك المألوفة في المجتمع الأمريكي أو الإنجليزي. فتتردد في لغتنا اليومية لوازم وزوائد من هذا النوع مثل: لا مؤاخذة، واخد بالك، خت لي بالك، معايا، فاهمني، أصل..، أوم إيه (ثم، عندئذ)...إلخ. ومن ذلك إنهاء العبارة أو الجملة بتساؤل، لا ينتظر المتحدث سماع الإجابة عليه، ويسارع هو نفسه بالجواب: "دخلت لقيت مين؟ .. لقيت أخوك ومراته".

وهناك لوازم وزوائد تتردد في مناسبات كلامية بصفة شبه دائمة، بمعنى أنها ذات درجة انتشار أوسع. من ذلك:

- عند ذكر المرض: بعيد عن السامعين.

الأساليب غير الرسمية (أو غير الفصيحة) التي يتكلم بها الناس؟ وهل ستقوم بتصويب الكلام حسب قواعد اللغة؟ وهل ستغير من خصوصيات تعبيرات الرواة اللغوية، وإن فَعلتَ ذلك، فما هي الدلالات الضمنية التي يحملها هذا التصرف فيما يتصل ببناء المعنى؟ وهل ستلغي أو ستضيف علامات التأكيد حتى توصل المعنى؟ فإن فعلت ذلك، فهل يكون هذا المعنى مستمداً من منظورك، أم من منظور الراوي، أم من واقع تفسيرك أنت للمعنى الذي يقصده الراوي؟ وكيف يتأثر كل ذلك باعتبارات الطبقة الاجتماعية، والعرق، والنوع الاجتماعي، وغير ذلك من السمات المميزة؟ وبتعبيرٍ آخر، ما هي دلالات وأبعاد أي تغيير في قواعد اللغة التي تكلم بها أحد الرواة من خلفية اجتماعية اقتصادية دنيا؟ وما هي الدلالات الضمنية في تغيير، أو إضافة تفسيراتك الشخصية للكلمات العامية، والتي قد تكونُ مُحصلة الخلفية الإثنية وغيرها من السمات الاجتماعية الأخرى؟ فهذهِ كلها اعتبارات يتعين على الباحث مراعاتها عندما يتصدى لتحرير سجل المقابلة (أي: لمدى إحداث تعديلات وتغييرات في شكل سجل المقابلة). ويُحذرُ ويلمسن (٢٠٠١) من أن هذه الاختيارات تتداخل مع القوة الاجتماعية - أي مع القوة القادرة على بناء المعرفة ونشرها.

يتمثل أحَدُ الملامح المهمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة في مقابلات التاريخ الشفاهي؛ يتمثل في علاقات القوة القائمة بين الباحث الذي يُجري المقابلة والراوي (المبحوث). ذلك أن اعتبارات النوع الاجتماعي، والطبقة، واعتبارات العرق وغيرها من الاعتبارات الاجتماعية تتدخل بالتأثير في كل موقف من المواقف التي تتضمنها المقابلة بدرجة كبيرة أو صغيرة. فهي تؤثر على عملية التحرير من خلال إدراك الراوي (المبحوث) وإدراك الباحث/ المُحرر لما بينهما من أوجُه التشابه وأوجُه الاختلاف في المكانة الاجتماعية،

- عند ذكر شيء وضيع (كالحذاء) لامؤاخذة، أو اسم الله على مقامك.
- عند ذكر شخص بالخير: ما يتخيرش عن سيادتك.
- عند ذكر شيء فظيع كالموت أو الجن: اللهم احفظنا، أو الاستعاذة بالله، أو البسملة...إلخ.

للمزيد انظر: محمد الجوهري وزملاؤه، معجم لغة الحياة اليومية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠٧ (المراجع).

وهي التي تشكل بدورها تصورات كل منهما لدوره. وتتمثل أهمية ذلك بالنسبة لعملية التحرير في الطريقة التي يتمُّ بها نسج (أو تضفير) علاقات القوة بالخبرة المختلفة بالكلمة المكتوبة. وإنَّ الرواة ذوي خبرات مختلفة بالكلمة المكتوبة، وبعالمَ النشر، وبأرشيفات البحوث، وبالمكتبات ...إلخ؛ كل ذلك يؤثر على طبيعة القرارات التحريرية التي تُتخذ، وعلى تحديد الشخص الذي يتخذها، وتحديد سبب اتخاذها. (ص٧٥).

وكما هو الحال في سائر الاختيارات التي يتبناها الباحث عند تفكيره في مراحل التفسير وكتابة التقرير بنتائج البحث، فإن التحرير مجال مهم يَجْري فيه إنتاج المعنَى. لذا يتوجب على الباحثين المهتمين بالفكر النقدي وتأمل الذات (الانعكاسية) أن يُدخلوا في حُسْبانهم القضايا المتصلة بالاختلافات بينهم وبين المبحوثين، وعلاقات القوة المؤثرة في البحث كجزءٍ من الممارسة الأخلاقية.

إن مَدَى اتصاف عملية البحث بالطابع التعاوني سوف يؤثِّر هو الآخر على عملية التحرير. فإن كان الراوي مشتركاً في عملية التفسير فمن المرجح أنه سيكون له تأثير على الباحث أثناء تقليب النظر والتفكير. وبتعبير آخرَ نقول: عند مراجعة سجل المقابلة بما فيها من بيانات خام، فإن من المُرجع جدا أن الراوي سوف يتذكر أموراً كان قد نسيها في وقت إجراء المقابلة وقد يريد إضافتها عند المراجعة. كذلك قد يريد الراوي أن يُطور أجزاء من سجلات المقابلات أو ينقحها. ونحن نحثك، كجُزء من السلوك الأخلاقي، على أن تطلع رُواتك على سجلاتك للحصول على موافقتهم وعلى إضافاتهم. ومع ذلك، فإننا نحذر من أن هذا الإجراء قد يثير – بطبيعة الأمر – ردود أفعالٍ محتملة كثيرة. ولكن لب الموضوع هو أن درجة تأثير الراوي على عملية التحرير إنما ترتبط بقضايا السلطة التي سبق مناقشتها.

البحث الإثنوجرافي الذاتي

يستخدم الباحثون أنفسَهم أحيانا كموضوع لبحوثهم. وبهذه الطريقة، يستطيع الواحد منهم أن يقوم بإجراء مشروع تاريخ شفاهي باستخدامه لنفسه كراوٍ/ أو قاصٍ. مثال ذلك، أنك إنْ كنت مهتما بخبراتك الشخصية الخاصة بك

وكيف تتخذ وضعها داخلَ سياق ثقافي معين، فقد يساعدك هذا الاتجاه (أي كتابتك عن نفسك) في تحقيق أهدافك. وكثيراً ما ينتفع الباحثون الكيفيون من البيانات الواردة في السير الذاتية التي يكتبها الفرد عن نفسه بطريقةٍ ضمنية أو بطريقة صريحة علنية. ومن أمثلة ذلك أن الباحثين الميدانيين كثيراً ما يحتفظون بدفتر يوميات، أو بمفكرة يومية أخلاقية، أو مفكرة يومية يُسجلون فيها خواطرهم، ومشاعرهم، وانفعالاتهم وما إلى ذلك. (Tenni, Smyth, & Boucher, 2003, p.2). وبهذه الطريقة تكون البيانات المستمدة من السير الذاتية التي كتبها أصحابها جُزءاً من عملية البحث. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تؤثر بعض وجهات النظر الفكرية والإبستمولوجية على الباحث ليضمّن بحثه البيانات المستقاة من السيرة الذاتية بطريقة صريحة. وعندما يستعمل الباحث إبستمولوجيا نقطة الاستشراف (وهي إحدى نظريات المعرفة التي تذهب إلى تعدد الحقائق-المترجم) وبالصورة التي صاغتها بها ساندرا هاردنج، ومما يعنى تبني "الموضوعية الصارمة"، فلا بُدَّ أن يكشف الباحث عن معلوماته الخاصة بسيرته الشخصية وعن مدى إسهامها في عملية بناء المعرفة. وتوجد أمثلة كثيرة للباحثين الذين يدمجون خبرتهم الشخصية في مشاريعهم، بما يتضمنه هذا التصرف من فرضهم لمفاهيمهم المستمدة من خبرتهم الحياتية الشخصية على بياناتهم، ويُعد البحث الإثنوجرافي الذاتي أسلوبا خاصاً من أساليب التاريخ الشفاهي يقوم فيه الباحث -صراحة- ببناء المعلومات عن طريق استخراجها من تاريخ حياته الشخصي. كما نلاحظ -فضلا عن هذا- أن كثيراً من الباحثين يمزجون كتابة سيرتهم الذاتية بالخيال القصصي أثناء كتابتهم النهائية لأبحاثهم الإثنوجرافية الذاتية. وهكذا تتيح هذه الطريقة للباحثين أن يُفرغوا جوانب عملهم في قالب روائي وأن يخلقوا شخصياتٍ روائية من عندهم.

بَيْد أنه لا يكفي القول بأن البحث الإثنوجرافي الذاتي هو مجرد مقابلة تاريخ شفاهي تجريها مع نفسك. إذ ثمة فارق رئيسي بين التاريخ الشفاهي والبحث الإثنوجرافي الذاتي. ويتمثل هذا الفارق في أن المقابلة التقليدية للتاريخ الشفاهي مبنيَّة على الكلام (وهو السرد اللفظي الذي يتم تسجيله) بينما يكون

البحث الإثنوجرافي الذاتي مبنيا على الكتابة (Maines, 2001, p. 109).
ففي حالة استخدام المرء لنفسه بوصفه مصدر البيانات، تحُل الكتابة محل الكلام (مينز، ٢٠٠١، ص١٠٩). والكلام والكتابة نموذجان مختلفان تماماً من نماذج الاتصال، ومن ثم فإنهما يؤثران تأثيراً عميقاً على البيانات المُنتجة. فالناس يتكلمون بأسرع من قدرتهم على الكتابة، ويقدمون مزيداً من التفاصيل، كما يقل احتمال أن يمارسوا الرقابة على أنفسهم وهم يتكلمون (مينز، ٢٠٠١، ص١٠٩). بالإضافة إلى ذلك، فإن أنماط الحديث، والإيماءات، ونبرة الصوت، وسائر الفروق الدقيقة الأخرى في عملية السرد التي سبق أن ناقشناها من قبل، يصبح لا وجود لها في عملية الكتابة التي يحتفظ فيها المؤلف بالسيطرة التامَّة وقد يضع فيها علامات التأكيد بطريقة تختلف عما إذا كان يتكلم. والآن بعد ما تأملنا الفارق الرئيس بين التاريخ الشفاهي القائم على دراسة سيرة الحياة التي يكتبها شخص آخر غير صاحبها والتاريخ الشفاهي القائم على السيرة الذاتية التي يكتبها الشخص عن نفسه، هيا بنا نتأمل بمزيد من التدقيق نوع عملية الكتابة التي تُشكل البحث الإثنوجرافي الذاتي.

إن مصطلح **البحث الإثنوجرافي الذاتي autoethnography** يمكنه أن يَعْنِي أموراً مختلفة اعتماداً على كيفية تطبيقه وعلى تحديد ما هي النظرية التي تُطبَق عليه. ومع ذلك، فإننا في هذا البحث نركز على البحث الإثنوجرافي الذاتي كشكل عام جداً من أشكال التاريخ الشفاهي القائم على دراسة السيرة الذاتية.

يُشير مصطلح البحث الإثنوجرافي الذاتي إلى الكتابة عن الشأن الشخصي للكاتب وعلاقته بالثقافة. وهو جنس من أجناس الكتابة والبحث له طابع السيرة الذاتية، والذي يكشف للقارئ عن طبقات متعددة من الوعي (Ellis, 2004,p. 37 quoting Dumont, 1978).

تتوسع "إليس" في استعمال هذا التعريف لكي تُوضح ثراءَ هذه الطريقة، وتُوضح القابلية للتغير والاختلاف في أشكال العرض والتصوير التي يمكن لهذه الطريقة أن تنتفع بها، وهي الأشكال التي تتضمن الكُتب،

والمقالات، والقصائد، والمسرحيات، والقصص الطويلة، وشتى أنواع العروض (كالبانتومايم والرقص الإيقاعي مثلا).

لعلك تتساءل: ما هو البحث الإثنوجرافي الذاتي، وإجابتي المختصرة هي أنه: عبارة عن عناصر من البحث، والكتابة، والقصة، والطريقة التي تربط كل ما هو متعلق بكتابة السيرة الذاتية وكل ما هو شخصي بما هو ثقافي، وما هو اجتماعي، وما هو سياسي. وتقوم أشكال البحث الإثنوجرافي الذاتي بإبراز ما هو محسوس وواقعي من الأعمال، والعواطف، والتجسيدات، والوعي بالذات، والاستبطان (أي فحص المرء لأفكارِه ودوافعه ومشاعره)، وهي الأمور التي يتم تصويرها في الحوار، والمشاهد، وخلق الشخصيات الروائية وحبكة القصة. وبهذا الشكل، يتطلب البحث الإثنوجرافي الذاتي استعمال ما هو مُتَّبَع في الكتابة الأدبية من أعراف ومصطلحات. (ص١٩، من المقدمة).

وتتيح لنا هذه الطريقة استعمال خِبراتنا، وأفكارنا، ومشاعرنا، وعواطفنا الشخصية كبيانات لمساعدتنا في فهم العالم الاجتماعي. ومن خلال هذا المنحى نكون قادرين على ربط قصص حياتنا الشخصية بالمجتمع الأكبر، والذي هو بمثابة ستارة المسرح الخلفية المنصوبة وراءنا والتي نعايش كل شيء ونحن أمامها. كما أن بإمكاننا أن نفرغ جوانب مشروعنا في قالب روائي من أجل بناء القصة التي نرويها. ويستطيع هذا النوع من البحث أن يكون مصدر قوة للباحث – المبحوث (أي: للباحث الذي يبحث حالته ويروي قصته الشخصية)، كما أنه يوقظ وعينا الذاتي بأنفسنا ويستنهض ملَكة التفكير النقدي بداخلنا. إذا اتفقنا على ذلك، فإن المزايا الكامنة في هذه الطريقة تحمل بداخلها عيوبها ومثالبها الخاصة بها.

كما سبق أن أوضحنا، فإن عملية التاريخ الشفاهي تُعَد عملية مرهِقة عقلياً وانفعالياً. فعند إجراء مقابلة تاريخ شفاهي لا نستطيع أبداً أن نكون مستعدين استعداداً تاماً لما قد يفاجئنا به الراوي. كما أننا لا نستطيع أن نُعد رواتنا الإعداد الواجب لكافة الانفعالات الممكنة التي قد تتدفق من جرَّاء روايتهم لقصة حياتهم. ويصدق هذا الكلام علينا عندما نستخدم أنفسنا كموضوعات لبحثنا.

إن الانشغال مع ما يجري لنا لابُدَّ أن يكون انشغالا بدنيا انفعاليا وعقليا. فمن خلال البدني والانفعالي خصوصاً، نتحصل غالبا على المفتاح الأول الذي يدلنا على أن أمراً ما يحدث وأنه قد يكون جديرا بأن نسعى للكشف عنه. لذلك فإن ما نشعر به من ضيق، أو انزعاج، أو ضجر، أو حزن، أو إثارة، أو انتصار، أو رقبة متوترة، أو عيون ملتهبة من الحك والهرش أو إحساس بالهدوء والصفاء، نقول: إن أيًا من هذه الأمور يُعد هو الآخر بيانات تنبهنا إلى أمرٍ ما. وقد تتسبب هذه العملية في إحداث درجة ما من الكرب مما يجعل من وجود مظاهر المساندة النفسية في المكان (كوجود أحد المشرفين، أو أحد الزملاء، أو إحدى جماعات المساندة) أمراً مهماً. .(Tenni et al., 2003, p.3)

من الممكن أن تكون الانفعالات الحادَّة التي تظهر أثناء عملية البحث بمثابة علامات تدل على بياناتٍ مهمة نحتاج إلى بلورتها وتجسيدها، ومحاولة فهمها. كما أن هذه اللحظات تمثِّل الأوقات التي قد نحتاجُ فيها لمساندةٍ نفسيةٍ إضافيةٍ لأن الضغوط الموجودةَ في عملية البحث قد تكون أكثر مما نقدر على مواجهته بشكلٍ مريح وحدنا. وهكذا يقوم تتبع المرء لانفعالاته أثناء عملية البحث بكل من دور توفير البيانات ودور الإشارات التي يتلقاها الباحث والتي تدله على الطريقة التي يتبعها في معالجة عملية كتابة البحث الإثنوجرافي الذاتي. كما أن عملية تحليل البيانات قد تتطلب هي الأخرى مساعدةً خارجية. ونظراً لأن المشرفين المشاركين في تقديم المساعدة للباحث في كتابة البحث الإثنوجرافي الذاتي يختلفون في أدوارهم عن الأدوار التقليدية في الإشراف والمبنية على التجرُّد والحياد المزعوم، فلا بُدَّ من الانتفاع بهم ومن إشراكهم في البحث (تني وآخرون، ٢٠٠٣، ص٣). فالفرد أو الأفراد الذين يُدعون لمساعدة الباحث في قياس هذه العملية وتفسير هذه البيانات لابد من الانتفاع بهم في هذه العملية، وذلك لأن العملية تتصل - في نهاية الأمر - بحياة هذا الباحث، والذي قد يكون صديقهم أو زميلهم. ويستطيع الحوار الذي يجريه مع الباحث أطرافٌ من الخارج (كالمشرفين أو الزملاء) (تني وآخرون، ٢٠٠٣، ص٣) يستطيع مساعدته في البقاء في حالة استقرار كما يساعده على تهدئة شيء من الهواجس التي تنتابه بخصوص صدق البحث والتي كثيرا ما تُثار

عندما يستعمل الباحثون بيانات شخصية. يضاف إلى ذلك أن بإمكان الطرف الخارجي -وبشرط أن يكون ملتزماً بهذا المشروع- أن يضيف قدرا من التركيب والتدقيق إلى عملية تحليل البيانات، فقد يتمكن من مساعدة الباحث على "الرؤية" بصورة أكثر اتساعا، لأنه يزيد من قيمة هذه البيانات (بحسن الانتفاع بها)، كما يزيد من قيمة ما يَظْفرُ به الباحث من هذا المشروع فيما يتصل بوعيه بنفسه.

وبالإمكان كذلك أن يمثل البحث الإثنوجرافي الذاتي تحديا لك، حيث إنك تعرض خبراتك الشخصية أمام "عموم الناس"، وقد تتعرض بسبب ذلك أيضاً للفحص و للتمحيص. معنى ذلك - بعبارة أخرى - أن هذه الطريقة تتطلب مستوىً ما من القدرة على التعرض للنقد والطعن. وتُبين لنا المؤلفة كارولين إليس كيف اضطُرت إلى معالجة هذه القضية عندما قامت بكتابة بحث إثنوجرافي ذاتي. فهيا بنا ننضم إلى "إليس" حيث نلقى نظرة من خلف الكواليس على الظروف الواقعية لمواجهة هذه العملية.

خلف الكواليس مع كارولين إليس

بعد مرور أكثر من عقد على كتابة ونشر قصة بحث إثنوجرافي ذاتي مع زوجي آرت بوشنر Art Bochner عن حالة إجهاضٍ حدثت في وقت مبكر من علاقتنا الزوجية، تلقيت هذه الرسالة الإلكترونية من أحد أساتذة الجامعات، الذي جَعَل من قصتنا واجباً دراسياً لأحد الصفوف الدراسية الجامعية. حيث قال في رسالته الإلكترونية: "لقد أتحتُ للطلبة الفرصة للكتابة عن هذا البحث. فهل تحبين أن تعرفي ماذا كتبوا؟ فقلتُ نعم، وذلك رغم أنني شعرتُ ببعض القلق عندما وصلتني الردود في اليوم التالي.

يبدأ الأستاذ المساعد رسالته الإليكترونية بالآتي:

سُئل الطلبة أن يكتبوا عما يشعرون به أثناء قراءتهم لتقرير هذا البحث. وكان هذا الطلب اختيارياً، فإن كثيراً من الطلبة أشاروا إلى أن التقرير كان شديد التحريك للمشاعر، وقد كنتُ راغبا في توفير مُتسعٍ لهم يستطيعون

أن يُعبروا فيه عما يشعرون به فعلاً. لذلك قرر عدد منهم أن يرسلوا إلىّ رسالة إلكترونية بينما تحدث معي آخرون خارج قاعة الدراسة.

وأثناء تصفحي لباقي الرسالة، لاحظت أن التعقيبات استغرقت ست صفحات. آخُذ نفساً عميقاً وأقرأ. أما المستجيبة الأولى فتُوجِّه رسالتها لآرت ولي، وتصف هذه القصة بأنها مؤثرة جداً في تحريك المشاعر. وهي تحب هذه الصراحة في التعبير عن الانفعالات وفي طرح الأفكار الداخلية. ومع اعترافها بأنها بكت عدة مرات أثناء قراءتها لهذه القصة؛ فإنها تشكرني على تصوير هذا الاضطراب الشديد والواقع الحي والانفعالات المختلطة المرتبطة بالحمل والإجهاض. وتمضي قائلة:

مع أنني لم أعايش فعلاً ما عايشتيه، إلا أنني لا أظن أنه بوسعي أن أفهم أو أشعر بالواقع الحي للإجهاض بصورة أكثر وضوحاً مما قرأته في البحث. وبينما كان ينتابني الضيق وأنا أقرا بعض أجزاء القصة، فإني أرى أن الطريقة التي تم بها تصوير هذا الموضوع المحظور كانت حافلة بالمعلومات ومفيدة. فقد كان من الضروري أن تجعلي القراء يشعرون بالقلق لتوصيل هذه الانفعالات التي تشعرين بها إليهم.

وهي تطرح بعض الأسئلة:

ما الذي جَعَلكِ تختارين هذه الخبرة الشخصية الحميمة لتتقاسميها بصراحة مع هؤلاء الناس الكثيرين جداً؟ وبعيداً عن تخصصك العلمي الجامعي، ماذا كان غرضُك من الكتابة عن موضوع الإجهاض؟ ذلك أن قليلاً من الناس من يهتمون بالاعتراف بخبرتهم، ناهيك عن الكتابة عنها. وقد تساءلت كذلك عن مَدى تأثير هذا الإجهاضِ على علاقتك بوالد الطفل؟ لقد أخبرنا أستاذنا بأنكما لا تزالان مرتبطين معاً، ولكن هل قوَّى هذا الإجهاض حُبَّ كل واحدٍ منكما للآخر، أم تسبب في إحداث بعض العقبات التي يتعين عليكما التغلب عليها؟ وما هي وجهات نظركما الحالية عن الإجهاض، هل ترون الآن تلك الظروف – التي مرت بكما – بنفس الطريقة بعد مرور هذه السنوات؟

أشعر الآن براحة نفسية وبسرور. فهذه الطالبة تُبدي فهماً لِما كنا نحاول القيام بهِ في هذه القصة، وتُبدي تعاطفاً معنا بسبب صعوبة الاختيارات التي آثرناها. وفي أثناء تفكيري العميق في الإجابة على أسئلتها، وقعت عيناي على كلمة **الوالد**، وتقلصت معدتي لا إراديا. وانتقلت إلى أسئلتها. إن جزءاً من نفسي يريد أن يتحاشى الكشف عن أي شيء يتصل بعلاقتي الحالية بوالد الطفل، وجزء آخر يرى أن الطالبة تستحق تجاوباً مهذبا وعميقاً. أكتب لها على عنوان بريدها الإلكتروني، وأشكرها على تجاوبها الذكي والمتعاطف، أرد عليها بالكلمات التالية:

لقد كتبنا هذا البحث أساساً لنعملَ على دعم واستمرار علاقتنا الشخصية ونتجاوز الألم الذي تسبب فيه قيامي بالإجهاض. وإنني لسعيدة إذ أقول إننا ما زلنا نحظى بعلاقة رائعة، الآن وبعد انقضاء عشر سنوات، وأقول لك إن الكتابة عن هذه الخبرة قد قربتنا من بعضنا بشكل أوثق.

إننا قد نتخذ الآن – لو أتيحت لنا الفرصة – قرارات مختلفة أشد الاختلاف عما فعلناه آنذاك. ولكني الآن أحاول ألا أسمح لنفسي أن أفكر في رأي مختلف عن ذلك الذي اتخذناه سنة ١٩٩٠. فقد بدا ذلك القرار هو الأفضل ساعتها. إنني أشعر شعوراً مختلفاً جداً إزاء إقدامي على الإجهاض الآن، ولو فُرض أنني كررتُهُ اليوم لعانيت من صعوبات شديدة، هذا على الرغم من أني لا أزال أرى أنه ينبغي أن يكون للنساء الحرية في الاختيار، كما أنني أرى أنه ينبغي علينا محاولة تعليم كل إنسان أن يكون مسئولا عن تصرفاته فيما يتصل بالحمل. فقد كنت أنا وزوجي نتمنى أن نرزق بطفل، إلا أننا لم نحظ بفرصة أخرى لتحقيق تلك الأمنية. ومع ذلك فإننا سعداء كل السعادة بأسرتنا المكونة من أربعة كلاب.

ثم أتابع القراءة حتى أصل للتعقيب الثاني. فهذه الطالبة ترى أن هذه المقالة ترسم صورة غنية بالانفعالات العميقة، كما أنها تُقَدر تقديرا عالياً سماع ما يقوله هذا الرجل المشارك في هذه الخبرة، فإنها تشعر بوصفها قارئةً أنها لا تستطيع أن تقوم بمداخلة في هذه القصة إلا بصفةٍ جزئية، نظراً لأن قصة كل شخص تختلف كل الاختلاف عن قصة الآخر. وهي تعترض على إشارتي

للحمل بوصفه مشكلة، وتفسر موقفي ذاك بما معناه أنني لم أكُن مُهَيَّأةً لأن أكون أماً.

وأواصل القراءة. إن التعقيبات تزداد سلبية، وإني لأتساءل عما إذا كانَ الأستاذ المشرف على هذا الصف الدراسي قد نظم هذه الإجابات بهذا الأسلوب التدريجي ليخفف من شدة الضربة. فإن يكن الأمر كذلك، فإن تصرفه هذا لا يبدو أنه نجح في إحداث أثره المطلوب. وبدون التوقيع بالاسم، يُقرر الطالب الثالث (أو الطالبة الثالثة) أنها من أنصار الحياة (أي ممن يرفضون الإجهاض) وأنها وجدت أن قراءة هذه المقالة صعبة جداً. وتُقدر هذه الطالبة تقديراً عاليا سماعها لوجهة نظر الأب وتتعاطف مع آلام المرأة، فإنها تجد أن من المُزعج أن تقرأ عما عاناه هذا الوليد (الجهيض)، مع إشارتها إلى أنها تحب الأطفال الصغار حبا شديداً جداً.

يُعرّف الطالب الرابع نفسه بالاسم ويقول إنه استطاع أن يشعر بكل انفعال وبكل نوع من الألم البدني طوال قراءته المقال. وهو يتساءل: ماذا كان يَحدث لو أن والديَّ هما اللذان اتخذا قراراً مثل ذلك القرار؟ وماذا كان يحدث لو أنني كُنتُ عبئاً عليهما؟ ويتساءل كيف استطاع "تيد" Ted و "أليس" Alice (وهما الاسمان اللذان سمَّينا بهما أنفسنا) كيف استطاعا أن يقدرا على النظر إلى نفسيهما في المرآة بَعْد ما اقترفاه من أفعال. وهو يقول إنهما، ومعهما الطبيب (الذي أجرى عملية الإجهاض)، كانوا يخادعون الله. ويعترف في نفس الوقت بأنه يفهم إلى أي مدى كان هذا القرار قاسيا عليهما، وإلى أي مدىً اقتلع هذا القرار القلوبَ من أماكنها، وإلى أى مدىً استنزف مشاعرهما.

الآن يراودني شعور بالتردد. فإنَّ من الصعوبة البالغة أن أقرأ هذه الأفكار عن "آرت" وعنّي، وهي الأفكار التي لا يقولها الناس لك في وجهك عادة. ومن المؤكد أنني لا أرى نفسي على هذا الذي يَرَونني به. آخذ نفساً عميقاً وأواصل القراءة. ثم أتبين أن آخر تعقيب هو أشد التعليقات انتقاداً. وعلى الرغم من أن الطالب الذي كتبه لم يقل أنه فتىً، فإننى أظن أنها إجابة صادرة من رجل. وحيث إنه شخص كاثوليكي مناهض للإجهاض، ومتدين، فقد هاله تلك الاستهانة بالحياة الإنسانية وكذلك عجز أي إنسانٍ عن رؤية هذا

الوضع انطلاقاً من وجهة نظر الطفل الجهيض. ويواصل كلامه قـائلاً: لقـد اتخِذ قرار الإجهاض التماساً للراحة. إذ يبدو أن كليهما (الزوج والزوجة) بلغ بهما الاستغراق الشديد في ممارستهما لعملهما حـداً منعهمـا مـن مواجهـة الظروف التي خلقاها لأنفسهما. وتستمر المناقشات على امتداد فقرات عديـدة، وتنتهي بقوله: "إنَّ سلْب هذه الحياة هو جريمة قتل".

إنني أرتجف إذْ أصِل إلى نهاية التعقيبات. أريد أن أصرف النظر عن هذه التعليقات، ولكني، وبطريقة مشابهة لمـا فعلتـه فـي تجربتـي الفعليـة للإجهاض، أدفع نفسي وأحثُّها على مواجهة هذه التعليقات. أنا أعلم أن النـاس تصدر منهم ردود الأفعال بهذه الطرق، ولكن علِمي بهذه الحقيقة لا يخفف من ألمي لرؤية هذه الإدانة منشورة بهذا الشكل الواضح، وهو ألم يشكل جزءً من ثمن كتابة بحثٍ إثنوجرافي ذاتي كتابة عميقة المعاني أمينة العرض.

بعد أيام قليلة، يصلني تعليق آخر من طالب آخر فـي هـذا الـصف الدراسي. أشعر بارتياح نفسي عندما يروي قصة – لا أن يُدين– وتتحدث هذه القصة عن تجربة مَرَّ بها الطالب كاتب هذا التعليق، وهو فتى فـي الـسادسة عشر، والذي ظن أن صديقته حامل. ولما كان قـد أقنعهـا بـإجراء عمليـة إجهاض، فإنه يتعاطف بصفةٍ خاصة مع "أليس". وأنا لا أستريح لتعاطفه هذا.

أكتب رداً على هذا المُعلِّم وأشكره على إرسال هذه التعليقات. أعترف أن هذه التعليقات كانت مؤلمة، إلا أنني أضيف أنني رحبتُ بالألم كجزء مـن الخبرة المُعاشَة، وهو ردُّ فعلٍ حقيقي إلا أنه –بلا شك– ردُّ فعل نـاجم كـذلك عن انشغالي بألا يتسبب إرسال هذا المعلِّم لهذه الرسائل الإلكترونية لـي فـي شعوره بتأنيب الضمير. وإني لأتساءل: كيف هو ردُّ فعله على هذه القـصة، وهو رجل متدين وحفيد لأحد القساوسة، وكيف تؤثر معتقداته الدينيـة علـى الطريقة التي تم بها إيصال هذه القصة للطلبة وتلَقيهم لها. وهل يتسبب كَونُـه من المثليين بجعله أكثر تَقبلا لهذا النوع من التعقد، أم لا؟ إنه لا يتكلم، وأنا لا أسأل. إنني أطلب منه فعلاً أن يشكر طلبته على تجاوبهم، وأن يُخبرهم أننـي تعلمت مما قالوه. وعندما أضغط على مفتاح الكومبيـوتر الأمـر: "أرسِـل"، أتساءل عما يكون هذا الذي تعلمته فعلا. وإني لأعلم من قبلُ أن النـاس فـي العادة يكون لهم ردُّ فعل واحد من ثلاثة ردود أفعال إزاء هذه القـصة: حـق

الحياة، أو حق الاختيار، أو رد فعل انفعالي مُركَّب يدمج الخبرة المعاشة لهذين المَوقفين.

اكتب رسالة بريد إلكترونية إلى "آرت" أسأله عما إذا كان يريد أن يقرأ تعليقات الطلاب أم لا. لقد وجدتُ أن من المؤلم قراءتها، فأنا أحذره من ذلك. ورغم أنني لا أقول ذلك صراحةً، إلا أنني أخشى أن تكون هذه أشد إيلاماً له. يكتب رداً على رسالتي قائلاً أنه يَود أن يرى هذه التعليقات. وبجانب اعترافنا بأنه كان من الصعب قراءتها، فإننا لا نناقشها، مُستعيدين -بصورة موجزة- ذكرياتنا عن ذلك الصمت الذي عانيناه بعد الإجهاض مباشرة، والذي كان أحد أسباب كتابة هذه القصة أساساً.

عندما يقرأ "آرت" الفقرة التي كتبتُها قبلُ، يكتب على الهامش: أشعر بأنه لم يكن يوجد شيء أكثر من ذلك يمكن أن يقال عن هذه التعليقات. لقد شعرتُ بنوع من التوقف في ذاك الوقت، كما أعلمُ أن ذكرياتي ومشاعري متأثرة بدرجة كبيرة بحبي الهائل لك، وبما صرنا إليه معاً، وبذلك الشعور العارض بالفقدان بسبب افتقادي لوجود طفلٍ لي. ولو وُجِدَ الصمت، فإنه لم يكن من نفس نوع الصمت المُخدِّر الذي عايشته بعد الإجهاض، على الأقل ليس بالنسبة لي.

ولا هو كذلك بالنسبة لي، هذا ما يدور في خاطري وأنا أستبطن أفكاري الآن.

وبعد وقت ليس بالطويل من وصول هذه التعليقات التي أرسلها الطلبة إليّ، وصلتني رسالة إلكترونية من كريستين كيسنجر، وهي طالبة سابقة، سبق لها – هي الأخرى – أن استفادت بقصة الإجهاض هذهِ في جُزء من دراساتها عن العلاقات الإنسانية والتي تتلقاها في الصف الدراسي الجامعي الخاص بمادة "مدخل للاتصال". وتتساءل قائلة: أتحبين أن تعرفي ماذا قال زملاؤها؟ وأجيبها بأنني أود معرفة ذلك. تكتب قائلة أن قراءتهم لقصة الإجهاض حدثت قبل ذلك في سياق قراءتهم لأبحاث إثنوجرافية ذاتية أخرى، بما فيها البحث الذي كتبتُه عن رعايتي لأمي، والذي أسميته **روابط الأمومة**. وقد بحث الطلبة الطريقة التي اتبعناها أنا و"آرثر" في التغلب على أزمة علاقتنا، مُركزين على

كيفية إحساس الشريكين كليهما بمسألة الاختيار كقيد عليهما معاً، وعلى الحداثة النسبية لهذه العلاقة (التي لها عشرة أسابيع) وإلى أي مدىً أثرت على هذا القرار. وبالإضافة إلى ذلك ناقشوا ما أحسَّت به كلتا هاتين الشخصيتين من مشاعرٍ متضاربة في كثير من الأحيان – وهم يعلمون أنك ستنتهين، حال كونك تُدلكين بطنك، إلى العلم بأن شيئاً ما حياً يوجد بالداخل – وتتمثل هذه المشاعر المتضاربة في ذلك الشد القائم بين تخيُّل ولادة طفل وتربيتِه، وبين ما يصاحب هذا التخيل من حاجة إلى/ أو ضرورة اتخاذ قرار بالقضاء على حياته. وقالت إن الطلبة لم يكونوا مقتنعين بأن "تيد" Ted كان يرغب في إنهاء ذلك الحمل، وأنهم كانوا متعاطفين معه وجدانيا رغم ذلك، فضلا عن إعجابهم بموقفه المساند لأليس.

عندما كتبتُ بحث "**روابط الأمومة**" بعد خمس سنوات من قصة الإجهاض، تكلمتُ عن الرغبة في أن يكون لي طفل. وقد شعر طلبة "كريستين"، فيما بعد، أنني ندمت على اتخاذي لقرار الإجهاض. وقد أدى ذلك، كما تقول "كريستين"، إلى قضاء وقت ممتع جداً في مناقشة هذا الموضوع ضمن الصف الدراسي. ووفقاً لتفسير "كريستين"، فإن طالبة واحدة فقط هي التي كانت متحمسة لتأييد قرار إنهاء حياة الجنين، وهي الطالبة "سارة"، والتي عرفت نفسها بأنها ذات نزعة نسوية، والتي تتضمن فلسفتها مَيلاً لتأييد موقف حرية الاختيار. وكانت هذه هي المرة الأولى التي شعُرت فيها بالتمزق، وهذا ما تقوله "كريستين"، وذلك لأن سارة كانت تفكر فيك كإحدى الشخصيات الواردة في البحث المعنون **روابط الأمومة** والتي رغبت فيما بعد في ولادة طفل... وقد أزعجها أن تتصور أنك قد تكونين عانيت من شعور دامَ مدة طويلة من الندم أو الألم الناجم عن اختيارك إنهاء حياة الجنين.

وفي أثناء هذا الفصل الدراسي، كتبت كريستين إليَّ بعد ذلك، وكان من شأن ذلك أن ظهر اسمانا كثيراً نظراً لأن الطلبة كانوا يكافحون لتأييد بعض القضايا العسيرة التي تدور حول العلاقة الحميمة: ماذا تظنين أن "آرت" وكارولين كانا يريدان أن يفعلاه في هذا الظرف؟ وهذا هو السؤال الذي بدأ به هؤلاء الطلبة. وتقول "كريستين" إن الموقف بدا كما لو أن الطلبة قد اندمجوا فعلاً مع "تيد" و "آليس" بوصفهما زوجين مرتبطين برابطة في غاية الوعي

والإدراك، وذات قدرة بالغة على التواصل. أي أنهما زوجان قد يكون لـديهما من الرؤى والأفكار التي من شأنها مساعدة الآخـرين فـي التقـدم وتطـوير علاقاتهم الشخصية. وبينما كنت لا أرغبٍ - إلا قليلاً - في أداء دور النموذج الذي يقتدي بهِ الآخرون، فإن رسالتها ذكرتني بفائدة هذا البحث كوسيلة تعليمية وكموضوع للمقارنة يُستخدم فى مناقشة موضوع أوسع، هـو: كيـف نعـيش الحياة.

ملاحظات: انظر، "الإثنوجرافي"، العدد الأول: **قصة روائية بحثيـة عن البحـث الإثنـوجرافي الـذاتي** (C. Ellis, 2004, Wahnut Creek: Altamira Press) وهو المصدر الذى استخرجنا منه هذه القصة بالـذات ، لمن يريد الحصول على مناقشة أوفى لهـذا الموضـوع. وبالنـسبة للقـصة الأصلية، انظر: (Ellis C. and Bochner, A.P., 1992)، حيث يحكيـان ويناقشان بعض القصص الحقيقية عـن: القيـود المفروضـة علـى اختيـار الإجهاض. وانظر الكتاب المعنون: "الدراسة المتعمقة للذاتية". بحث عن بعض الخبرات المعاشة، حَرَّره كل من سـي.إلـيس و إم. فلاهرتـي، المحـرران (صفحات من ٧٩-١٠١)(*).

ومذكور في هذا الكتاب كذلك: البحث الذى كتبته إليس، سي. (١٩٩٦) بعنوان "روابط الأمومة". كما ورد فـي الكتـاب المعنـون "تـأليف البحـث الإثنوجرافي: الأشكال البديلة للكتابة الكيفية"(**) تحرير سـي. إلـيس وإيـه. بوشنر (صفحات من ٢٤٠- ٢٤٣).

خاتمة

هكذا تبين لك أن التاريخ الشفاهي طريقة بحثٍ مرهقة، ولكنها مثمـرة وقابلة للتغيير. وهي مُفيدة - على وجه الخـصوص- فـي جمـع البيانـات المستمدة من وجهة نظر أولئك الذين ظلوا مهمشين في العـادة داخـل هـذه الثقافة، وأولئك الذين تم استبعادُهم عن فرصة عرض أحوالهم وتقديمها. وبهذه

(*) Investigating Subjectivity: Research on lived experiencc, C. Ellis and M. Flaharty (Eds.), Newbury Park, CA: Sage.
(**) Composing ethnography: Alternative foıms of qualitative writing.

الطريقة، يتيح التاريخ الشفاهي للرواة أن يرفعوا أصواتهم مطالبين بحقهم في سياقٍ يُمكنهم من هذا الحق ويعترف بخبراتهم الحياتية القيمة كمصدر مهم من مصادر المعرفة. كما يُعد التاريخ الشفاهي أداة ممتازة في تعيين موقع الخبرة الحياتية داخل سياقٍ ثقافي معين. ويعني ذلك بعبارة أخرى، إن بالإمكان ربط القصص الشخصية بالذاكرة الجمعية، والثقافة السياسية، والقوة الاجتماعية، وما إلى ذلك، مما يُظهر التفاعل بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه.

إن التاريخ الشفاهي عملية ذات طابع تعاوني مبني على المشاركة يتوجب التفكير فيها بصورة كلية. فيجب بذل انتباه خاص للعلاقة القائمة بين الباحث والراوي، كما ينبغي اتباع الإرشادات الواضحة أثناء الحوار الذي يستهدف بناء الألفة، والتي يتعين مراجعتها طوال مراحل المشروع. ويحتاج الباحث – كما سبق أن أوضحنا– إلى أن يُدخل في حسبانه مصفوفة التاريخ الشفاهي: والمكونة من التفاعل بين طريقة البحث أو أداته، والاعتبارات الأخلاقية، والجوانب السياسية.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- البحث الإثنوجرافي الذاتي **Autoethnography**

هو البحث، والكتابة، والقصة، وطريقة البحث، وهي العناصر التي تربط ما يتصل بعناصر السيرة الذاتية وما هو شخصي بالثقافي، والاجتماعي، والسياسي. وتقوم الأشكال التي يتجلّى فيها البحث الإثنوجرافي الذاتي بإظهار عناصر الفعل المحسوس، والانفعال، والتجسيد، والوعي بالذات، والاستبطان، وهي الأمور التي تتجلى في صورة الحوار، والمشاهد، وخَلق الشخصيات الروائية، وحَبْكة القصة. وقد تجمع البحوث الإثنوجرافية الذاتية بين الخيال والواقع.

- أبنية السرد **Narative Structures**

هناك ثلاثة أساليب كبرى للسرد يواجهها الباحث في عملية مقابلة التاريخ الشفاهي: (١) الأسلوب المُوحَّد. (٢) والأسلوب المُفكَّك/ أو المجزأ، (٣) والأسلوب الحِواري. ونودُّ أن نضيف إلى هذا التقسيم فئة رابعة، وهي

الفئة التي يسميها كوهلر – رايسمان بالسرد العَرَضي. وكما هو الحال مع سائر أشكال السرد، فإن الطريقة التي يتبعها المبحوث في رواية قصته قد تكون متأثرة بدرجةٍ كبيرة بعواملَ شتى كالعرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي. وترتبط بهذهِ السماتُ المميزة اعتبارات التعليم، والعمل، ومَحَل الإقامة الجغرافي.

• التاريخ الشفاهي • **Oral History**

هو طريقة بَحْثٍ تقوم على إجراء مقابلات مفتوحة النهاية، والتي تجري على جلسات متعددة عادة. وفيها يهدف الباحث إلى إجراء مقابلة مع شخص للوقوف على قصة حياته، أو على جانب مهم من جوانب هذه الحياة. وهو طريقة بحث للمقابلات تتسم بدرجةٍ عالية من التعاون والمشاركة، تكون ثمرتها قصة يشترك في خلقها الباحث والراوي.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ناقش بعض الفروق وأوجه الاختلاف بين التاريخ الشفاهي والمقابلات المتعمقة.

٢- ما هي الطرق التي بها يكون التاريخ الشفاهي مفيداً للباحث وللمشارك في البحث (المبحوث أو الراوي)؟

٣- ما هي الدلالة/ أو الأهمية التي تنطوي عليها عملية بناء الألفة مع شريكك في البحث؟ وكيف يساهم توطيد علاقة طيبة بين الباحث والمبحوث في نجاح مقابلة التاريخ الشفاهي؟

٤- ما هي "السلطة المشتركة"؟ وكيف تبدو بصورة متميزة في التاريخ الشفاهي؟ وقد عرضنا عدداً قليلاً من الحالات التي لم تكن فيها المشاركة في السلطة مفيدة لعملية البحث. هل تتخيل حالات أخرى؟ وما هي بعض المشكلات التي يمكن أن تنجم عن ذلك؟

٥- استعرض بعض الأمور التي ينبغي على الباحث أن يُدْخِلها في حُسبانه عند تقريره لما إذا كان سيستعمل استراتيجية تعاونية من عدمه؟ وما هي بعض الاعتبارات الأخلاقية التي لابد أن يتنبه لها الباحث عند تقريره

للمدى الذي سيصل إليه مشروع التاريخ الشفاهي كمشروع تعاوني؟ وما هي نوعية الإرشادات التي يمكن أن تساعد البحث التعاوني بشكل فعال؟

٦- كيف يساعدنا التاريخ الشفاهي في إحداث التغيير الاجتماعي، وكيف يمكن أن يدعم الحركات الاجتماعية النشطة على المستوى العام؟

٧- ما هو البحث الإثنوجرافي الذاتي؟ وما هي فائدة هذه الطريقة؟ وكيف يمكن تمثيل هذه البيانات بطريقة إبداعية؟ وإلى أي مدى تكون المساعدة/أو المساندة الخارجية مفيدة للباحث ولمشروع البحث في كتابة بحث إثنوجرافي ذاتي؟

٨- هل تعتقد أن العملية التعاونية التي تشكل جمع البيانات ينبغي أن تستمر أثناء مرحلتي التحليل وكتابة التقرير التي يشملها مشروع البحث؟

٩- ما هي الأساليب التي بها يمكن للمجتمع أن يؤثر على الطرق التي يتبعها الفرد في رواية قصته، ولماذا يكون من الأمور المهمة أن يشارك الباحث في هذا الأمر؟

١٠- يمكن للتاريخ الشفاهي أن يكون مصدر قوة وتمكين لكل من الباحث والشخص المبحوث. بأي الطرق يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً؟

١١- إنْ كنتَ مُهتما، مثلاً، بالطريقة التي تتبعها المراهقات في استيعاب وتبني ما يسود المجتمع الأمريكي من صور الجمال الأنثوي في أنفسهن، فكيف يمكن لطريقة التاريخ الشفاهي أن تكون مفيدة بالمقارنة بطريقة المقابلة المتعمقة؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- اللجنة العامة للأرشيفات والتاريخ
- **The General Commision on Archives and History**

http://www.gcab.org/oral.html.

هذا الموقع دليل واضح سهل الفهم لميدان مقابلات التاريخ الشفاهي. ويعرفك على خطوات عملية المقابلة، كما يزودك بنصائح مفيدة وقائمة مراجع بعدد من الكتب والمقالات العلمية.

- **How to Collect Oral Historics**
- **كيف تجمع التواريخ الشفاهية**

http://www.usu.edu/oralhist/ob_howto.html

يشرح هذا الموقع عملية تسجيل مقابلات التاريخ الشفاهي. كما أن لـه رابط بعدد من المواقع المفيدة التي تعالج عملية جمع التاريخ الشفاهي.

- **Oral History Interviewing**
- **مقابلات التاريخ الشفاهي**

http://www.cps.unt.edu/natla/web/oral_history_interviewing.htm.

يقدم هذا الموقع دليلا سهلا يشرح خطوات العمل خطوة خطوة لفهم عمليات التاريخ الشفاهي وممارستها. وللموقع رابط يقدم عينة لـصيغة الإذن، ونماذج لأسئلة المقابلة.

- **Center for the study of History and Memory**
- **مركز دراسة التاريخ والذاكرة**

http://www.indiana.edu/~cshm/oral_history.html.

لهذا الموقع روابط للتعريف بأساليب إجراء مقابلات التاريخ الشفاهي، وموارد تمويل بحوثه، والنشرات الدورية عنه، وعينات من نماذج الاستمارات. وأكثر روابط هذا الموقع فائدة هو موقع تقنيات العمل، الذي يقدم وصفا مطولا لتقنيات التاريخ الشفاهي.

- **Center for Oral History**
- **مركز التاريخ الشفاهي**

http://www.lih./su.edu/special/williams/index.html

يقدم هذا الموقع قائمة مطبوعات، من بينها بعض المنشورات الإلكترونية. كما أن للموقع روابط مع بعض المشروعات، ونماذج الاستمارات، ومع مواقع أخرى، وكذلك نشرته الدورية. والرسالة التي يضطلع بها مركز ويليامز هي جمع وحفظ معلومات مهمة عن تاريخ ولاية لويزيانا المحفوظ فقط في ذاكرة الناس والمعرض للضياع إن لم يجمع. وتتم عمليات الجمع باستخدام تقنية تسجيل المقابلات على شرائط تسجيل.

- **American Sociological Association**

- **الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع**

http://www.asanet.org/public/IRBs_history.html

يحوي هذا الرابط معلومات عن مقابلات التاريخ الـشفاهي وشـروط حمايتها.

* * *

References المراجع

- Anderson, K., & Jack, D. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11-26). New York: Routledge.
- Botting, I. (2000). Understanding domestic service through oral history and the census:The case of Gran Falls, Newfoundland. *Feminist Qualitative Research, 28* (1,2), 99-120.
- Candida Smith, R. (2001). Analytic strategies for oral history interviews. In J. Gubrium & J. Holstein (Eds.), *Handbook of interviews research: Context & method* (pp.711-733). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crothers, A. G. (March, 2002). Bringing history to life: Oral history, Community research, and multiple levels of learning. *The Journal of American History, 88.*(4). Retrieved May 27, 2003, from, http://www.historycooperative.org.
- Dumont, J. (1978). *The beadman and I: Ambiguity and ambivalence in the field working experience.* Austin: University of Texas Press.
- Ellis, C. (2004). *The ethnographic I: The methodological novel about autoethnography. New York: AltaMira Press.*
- Etter-Lewis, G. (1991). Black women's life stories: Reclaiming self in narrative texts. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history.* New York: Routledge.
- Frisch, M. (2003). Commentary: Sharing authority: Oral history and the collaborative process. *The Oral History Review, 30*(1), 111-113.
- Frisch, M. (1989). *A shared authority: Essays on the craft and meaning of oral and public history.* New York: State University of New York.
- Kerr, D. (2003). We know what the problem is: using oral history to develop a collaborative analysis of homelessness from the bottom up. *The Oral History Review. 30*(1), 27- 45.
- Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and society, 1,* 172-207.
- Leavy, P. (1998). Claire oral history session two transcript.
- Maines, D. (2001). Writing the self versus writing the other: Comparing autobiographical and life history data. *Symbolic Interaction, 24*(1), 105-111.
- Marshal Clark, M. (2002). The September 11,2001, oral history narrative and memory project: A first report. *The Journal of American History*, 89(2), *1-9.*

- Minister, K. (1991). A feminist frame for the oral history interview. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oralhistory.* New York: Routledge.
- Portelli, A. (1991). *The death of Luigi Trastulli and other stories: Form and meaning in oral history.* Albany: State University of New York Press.
- Rickard, W. (2003). Collaborating with sex workers in oral history. *The Oral History Review, 30*(1), 47-59.
- Shopes, L. (2003). Sharing authority. *The Oral History Review, 30*(1), 103-110.
- Shopes, L. (1994). When women interview women-and then publish it: Reflections On oral history, women's history, and publi history. *Journal of Women's History,* 6(1), 98-108.
- Sitzia, L. (2003). A shared authority: An impossible goal? *The Oral History Review, 30*(1), 87-101.
- Slater, R. (2000). Using life histories to explore change: Women's urban struggles in Cape Town, South Africa. *Gender and Development, 8*(2), 38-46.
- Sparkes, A. (1994). Self, silence, and invisibility as a beginning teacher: A life history of lesbian experience. *British Journal of Sociology of Education, 15*(1), 93-119.
- Tenni, C., Smyth, A., & Boucher, C. (2003). The researcher as autobiographer: Analyzing data written about oneself. *The Qualitative Report, 8*(1), 1-12.
- Thomson, A. (2003). Introduction: Sharing authority: Oral history and the collaborative process. *The Oral History Review, 30*(1), 23-26.
- Thomson, A. (1998). Fifty years on: An international perspective on oral history. *The Journal of American History, 85*(2), 581-595.
- Williams, R. (2001). "I'm a keeper of information": History-telling and voice. *Oral History Review, 28*(1), 41-63.
- Wilmsen, C. (2001). For the record: Editing and the production of meaning in oral history. *Oral History Review, 28,* (1), 65-85.
- Wilson, A. (1996). Grandmother to granddaughter: Generations of oral history in a Dakota family. *American Indian Quarterly, 20*(1), 7-14.

الفصل السادس

مقابلات جماعات المناقشة المركزة

كما رأينا من الأمثلة البحثية المستمدة من عالمنا الواقعي مما أوردناه في الفصل السابق، فإنه يوجد قدر كبير من البحوث المتاحة عن الإناث وصورة الجسد، وخاصة عند البيض من إناث الطبقة الوسطى.

فدعنا نقُلْ إننا بحاجة إلى بحث صورة الجسد عند الرجال. فما هي المشاكل الخاصة التي يشعر بها الرجال فيما يتصل بصورة الجسد؟ وهل يعاني الرجال من الاضطراب في صورة الجسد عندهم؟ فإن كان الأمر كذلك، فأيُّ الرجال هم، وما هي الطرق التي يعانون بها هذا الاضطراب، ولماذا؟ وما هي الاهتمامات أو الشواغل التى تدور في خواطر المثليين، ولماذا يحدث ذلك؟ وهل المثليون أكثر وعياً بمظهرهم من الرجال الطبيعيين أم أنهم مختلفون عنهم من حيث الاهتمامات فقط؟ هل يرتبط تقدير النفس والهوية الجنسية بصورة الجسد في مجتمعات الرجال؟ وما المعايير التي يلتزم بها الرجال في تقييم أجسادهم؟ قد تكون هذه هي بعض الأسئلة التي توجه ما نقوم به من عملية بحث، وكما سوف نتشارك فيه بعد ذلك، فإن هذه الأسئلة هي من بين أسئلة البحث الذي نقوم باستكشافه في بحثنا الراهن. وكما هو الحال مع أي مشروع بحثي جديد، نود أن نبدأ بالقيام بمراجعة التراث المنشور في الموضوع لنرى ما هي البحوث المتاحة فعلا في هذا المجال. وتدُل مراجعتنا الأولية للتراث المنشور علي أن ما أُجرى من بحوث عن الرجال وصورة الجسد عدد قليل للغاية، وأقلّ منه عدداً ما أجرى من بحوث عن المثليين وصورة الجسد. والأمر هكذا، فقد تكون مقابلات جماعات المناقشة المركزة طريقة بحث مهمة للحصول على البيانات الكيفية الاستكشافية التي تستطيع أن تستقل بنفسها، أو أن تستخدم حينئذٍ في تشكيل البحوث في المستقبل، كالمقابلات الكيفية المتعمقة أو المسوح الاجتماعية الكمية.

وفي طريقة جماعة المناقشة المركزة، تتم مقابلة عددٍ من المبحوثين معاً، مما يجعل جماعة المناقشة المركزة متميزة عن طرق المقابلة التي تتم

بين باحثٍ واحد ومبحوث واحد، والتي كنا ولا نزال نناقشها حتى الآن. ذلك أن لجماعات المناقشة المركزة امتيازاً تتفوقُ به على غيرها من طرق البحث المتوفرة عندما يكون الباحث غيرَ عالمٍ بسائر القضايا التي تُحيط بموضوع بحثه إذ تستطيع جماعات المناقشة المركزة أن تساعد الباحث على أن يقوم، وبطريقة استقرائية، ببلورة القضايا والأفكار والاهتمامات الرئيسية التي يستخرجها من مجموعة من المبحوثين في وقتٍ واحد. وسوف تكون هذه البيانات ذات طابع كيفي ومن ثم سوف تكون بيانات وصفية (حية وتفصيلية) وموجهة لفهم العمليةِ الاجتماعية، مما يعطي الباحث عمقاً واتساع أُفق في موضوع لا يُعرف عنه إلا القليل. وبتعبير آخر نقول: إن بالإمكان استعمال جماعات المناقشة المركزة للحصول على البيانات الاستكشافية المطلوبة. وهذا مثال واحد عن السبب الذي يجعل بالإمكان أن يستعمل الباحث طريقة جماعة المناقشة المركزة. بجانب ذلك، فإن جماعة المناقشة المركزة تُستخدم فيما هو أكثر من مجرد البحث الاستكشافي، وذلك بسبب ما يتوافر فيها من الصفات المتميزة الكثيرة التي تجلبها لعملية البحث. ولا يقتصر إجراء المقابلات الكيفية مع جماعات المناقشة المركزة على أنه مُجرد مقابلة أفراد متعددين في وقت واحد، بل إنه يشكل اتجاهاً بحثيا ذا طابع خاص تماماً.

نبذة إيضاحية عن جماعات المناقشة المركزة

أخذت جماعة المناقشة المركزة في التبلور والظهور في أربعينيات القرن العشرين. (بتس Betts، وبارانوسكي Baranowski و هور Hoerr، ١٩٩٦)، وتُستعمل – حاليا – لتحقيق أغراض متنوعة في مجالات كثيرة مختلفة. وعلى الرغم من أن عالم الاجتماع الشهير روبرت ميرتون R.K. Merton استخدم طريقة جماعات المناقشة المركزة في خمسينيات القرن العشرين، فإن باحثي التسويق قد استخدموا جماعات المناقشة المركزة بأعلى المعدلات تاريخيا. ويرجع ذلك إلى أن طريقة جماعات المناقشة المركزة تُعد وسيلة اقتصادية (رخيصة) لجمع كمية ضخمة نسبيا من البيانات الكيفية

المستمدة من مبحوثين متعددين[1]. فمن أجل أن تزيد الشركات من بيع منتجاتها، كثيرا ما تستخدم باحثي السوق ليجروا مقابلات جماعات مناقشة مركزة مع جماعات المستهلكين المستهدفة. وتُستعمل هذه الاستراتيجية في تقييم مدى قبول الناس لمنتجٍ معين، وذلك لمساعدة منتجات السوق الجديدة، وكذلك للمساعدة في الإعلان عن المنتجات الجديدة، والمنتجات القديمة، والمنتجات "المحسَّنة". وقد يواجه الباحثون الذين يُجرون هذه الأنواع من مقابلات جماعات المناقشة المركزة ضغوطاً غير معهودة "ليقوموا بدورهم" كزبائن يراقبون هذه الجماعات غالباً من وراء المرايا ذات الاتجاه الواحد[*]. وكما سوف نعرف لاحقاً، قد تؤثر هذه الضغوط تأثيراً كبيراً على بناء هذه الجماعة وعلى مستوى مشاركة الباحث. وفي أبحاث السوق، كثيرا ما يتم تسجيل مقابلات جماعات المناقشة المركزة بالفيديو. (Puchta & Potter, 1999, p. 318). وتعتبر جماعات المناقشة المركزة طريقة فعالة في جمع البيانات في مجال أبحاث السوق لأنها تصلح لاستكشاف مشاعر الناس، وأفكارهم، وسلوكياتهم (Costigan Lederman 1990).

وبتحديد أكثر يبلور بريستول وفرن (Bristol and Fern 1996) ثلاثة أهداف مختلفة من أجلها تُستخدم جماعات المناقشة المركزة في أبحاث السوق وهي : (١) الهدف الإكلينيكي، و (٢) الهدف الاستكشافي، و(٣) الهدف الظاهراتي أو الفينومينولوجي. وتستخدم لتحقيق "الأهداف الإكلينيكية" من أجل "الكشف عما لدى المستهلكين من مشاعر، واتجاهات ومعتقدات، وآراء

---

(١) **هامش للمؤلف**: لا يعنى حديثنا هنا أن ترتيب عقد مقابلة جماعة مناقشة مركزة أسهل من ترتيب عقد مقابلة متعمقة. وربما كان العكس هو الصحيح – فى الحقيقة – إذ قد يكون من الأمور بالغة الصعوبة تدبير موعد يمكن أن يكون مناسباً لجميع أفراد جماعة المناقشة. هذا فضلاً عن أن اختيار عينة الأفراد – أعضاء جماعة المناقشة – والاتفاق معهم من الأمور التى تمثل تحدياً قوياً لبحوث جماعة المناقشة المركزة.

(*) التي تسمح لمن خلفها بأن يرى من هم أمامها، بينما لا يستطيع من هم أمامها رؤية من خلفها، كما هو الحال في بعض مقار الشرطة ومكاتب التحقيق الجنائي والعيادات النفسية. (المراجع)

أساسية، وعن الأسباب اللا شعورية للسلوك" (بريستول وفرن، ١٩٩٦، ص١٨٦). وعندما تُستعمل لتحقيق الأهداف الاستكشافية، وهي الأهداف التي يُبين فرن وبريستول أن مقابلات جماعات المناقشة المركزة ملائمة لها بصورة جيدة، فإنها تساعد على "إيجاد، وبلورة، وفرز الأفكار أو المفاهيم" (ص١٨٦). وفيما يتصل "بالأهداف الظاهراتية" فهذا الاستخدام يتم عندما يكون الباحث مهتما "باكتشاف خبرات الحياة اليومية المشتركة للمستهلكين، كأفكارهم، ومشاعرهم، وسلوكهم" (ص١٨٦).

كما تعد جماعات المناقشة المركزة طريقة شائعة في جمع البيانات ضمن بحوث التقويم (الأكاديمي) التي تُجريها الجامعات وغيرها من المنظمات. فهي تُستعمل عندما يكون برنامج من نوع ما في حاجة للتقويم للمساعدة في قياس درجة نجاحه، وجوانب قوته، وجوانب ضعفه، وللمساعدة كذلك في شرح طبيعة ما هو من البرامج وافٍ بالغرض وما هو غير وافٍ شرحاً كيفيا. مثال ذلك، أن البرامج التعليمية يتم تقويمها بصفة متكررة من خلال البحث القائم على جماعات المناقشة المركزة من أجل فهم فوائدها والعمل على تعزيزها. وتعتبر جماعات المناقشة المركزة مفيدة كذلك في تطوير محتوى البرامج الجديدة. وبالمثل تعد جماعات المناقشة المركزة طريقة فعالة في تقييم طائفةٍ من برامج التدخل المبكر في عدد كبير من منظمات وهيئات الرعاية الاجتماعية (Brotherson 1994).

وتُعتبر البيانات الكيفية المتحصلة عن هذه الطريقة بيانات مهمة، لأن بإمكانها مساعدتنا على بلورة فهم صحيح للمشاكل التي تتعامل معها هذه العائلات، والأفراد، والهيئات (برذرسون ١٩٩٤). كما تُستعمل جماعات المناقشة المركزة في تقويم القضايا والبرامج داخل النظام القضائي الجنائي (Matoesian&Coldren 2002). شاهد ذلك، أن ماتوسيان و كولدير (٢٠٠٢) يناقشان كيف استُعملت جماعات المناقشة المركزة للوصول إلى رؤية ثاقبة لأحد برامج العمل العام في المجتمع المحلي. وفي تلك الحالة، استعملت جماعة مناقشة صغيرة العدد تتألف من ثلاثة أعضاء من هذا المجتمع المحلي ومنسق كان عضواً في برنامج العمل العام المذكور.

وعلى امتداد العقود الثلاثة الأخيرة أخذ يتزايد استعمال جماعات المناقشة المركزة عبر فروع الدراسات والأبحاث الجامعية كعلم الاجتماع، وعلم النفس، ودراسات وسائل الاتصال، والتربية، والرعاية الصحية. ويُبين كيتزنجر (Kitzinger 1994) أن جماعات المناقشة المركزة تكون مفيدة -بشكل خاص- في الحصول على البيانات من جماعات السكان التي اعتاد الناس على الإشارة إليها بأنها جماعات "صعبة" (ص١١٢). وقد يشعر هؤلاء الناس بأنهم غير آمنين على أنفسهم، أولم يُمنحوا حقوق المواطنة أو قد يكونون عازفين، على نحوٍ آخر، عن المشاركة في البحث. والأمثلة على هذه الجماعات تتضمن آباء وأمهات المرضى بالإيدز، و متلقي المعونات من الجمعيات والهيئات الخيرية، ومتعاطي المخدرات، وغيرهم. وقد تصبح جماعات المناقشة المركزة أكثر قيمة في علم الاجتماع الطبي كوسيلة للوصول إلى جماعات السكان الموصومة فيما يتصل بطائفةٍ من الموضوعات، مثل الخصوبة، والكوارث، والاكتئاب، والسرطان (ص١١٢). وبالمثل، فإن جماعات المناقشة المركزة أداة مهمة للوقوف على الخبرات والاتجاهات الموجودة لدى الجماعات المُهمشة وجماعات الأقليات، بما فيها الأقليات العرقية/أو الإثنية، والأقليات الجنسية، والنساء، والأطفال، والأفراد غير المُعترف بأهليتهم العقلية والجسمية، وما إلى ذلك من الجماعات المشابهة. وقد تكون القدرة على الوصول إلى "الأصوات المقهورة" جزءً من الموجة الحديثة لما يقوم بهِ الأساتذة الجامعيون من البحث والاستكشاف القائم على طريقة جماعات المناقشة المركزة، وهي الموجة التي تماثل الاهتمام المتزايد بوجهات النظر النسوية، والتعددية الثقافية، و المابعد الحداثية، والنقدية. وبصفة عامة، فإن الاستخدام الواسع النطاق لمقابلات جماعات المناقشة المركزة يدل على أن بإمكانها أن تكون جزءًا من الخطة البحثية لقطاع عريض من القضايا وجداول الأعمال البحثية.

تُمثل جماعات المناقشة المركزة خبرة عميقة لكل من الباحث والمشاركين في البحث (المبحوثين)، إذ يتولد عنها شكل فريد من البيانات. فهي تطلع الباحث الكيفي على أمور عن الحياة الاجتماعية كان من شأنها أن تظل مجهولة لولا تلك المقابلات. وفي هذا الفصل سوف نناقش طريقة جماعات المناقشة المركزة الكيفية بوصفها طريقة بحث وبوصفها مصدراً

للبيانات. وسوف نناقش الأساليب المتعددة التي تستعمل بها عبر التخصصات العلمية المختلفة في خطط بحثية محدودة بطريقة واحدة، أو خطط متعددة الطرق البحثية. كما نناقش سبب شعورنا بأنها تمثل خبرة عميقة ومتميزة. ونناقش إسهامها في إثراء معرفتنا الشاملة. زد على ذلك، أنه بينما تُعد جماعات المناقشة المركزة إحدى طرق المقابلة التي تشبه تماما المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الشفاهي التي تعمقنا في تناولها في الفصلين السابقين، إلا أن جماعات المناقشة المركزة تُعد ذات خصائص فريدة ومختلفة عن المقابلات المتعمقة. وكما سوف ترى، فإن مقابلات جماعات المناقشة المركزة تزودنا ببيانات لا يمكن مقارنتها بالمجموع الكلي للمقابلات الفردية المتعمقة أو مقابلات التاريخ الشفاهي. والآن سوف ننتقل إلى مناقشة عملية جمع البيانات بوصفها مجهوداً فريداً. ونتبع ذلك بمناقشة تصميم البحث والاتجاهات متعددة الطرق، ونناقش أخيرا تحليل البيانات وعرضها.

الفارق بين مقابلة جماعات المناقشة المركزة والمقابلة المتعمقة أثناء جمع البيانات: جماعات المناقشة المركزة كخبرة فريدة ومصدر متميز للبيانات

عند التفكير في سبب رغبة الباحث في استعمال مقابلات جماعات المناقشة المركزة كجزء من خطة البحث في مقابل المقابلات المتعمقة التي تدور بين فردين (الباحث والمبحوث)، لابد من بحث الفروق بين هاتين الطريقتين من المقابلات الكيفية. ومع أن من الفروق الواضحة كون جماعات المناقشة المركزة هي الطريقة الوحيدة من طرق المقابلة الكيفية التي يتم فيها إجراء المقابلة مع عدد من المبحوثين في وقتٍ واحد، فما هي أهمية هذا الفارق الفعلية فيما يتصل بأنواع الأسئلة البحثية التي تساعدنا جماعات المناقشة المركزة في الإجابة عليها وبالشكل الخاص للبيانات التي يتم توليدها من خلال جماعات المناقشة المركزة؟

تُعتبر مقابلات جماعات المناقشة المركزة مختلفة اختلافاً جوهريا عن المقابلات المتعمقة، لأن البيانات يتم توليدها في جماعة مُكونة من الباحث والمبحوثين. فهي عملية ديناميية قائمة على التفاعل بين أفرادٍ متعددين. ويمكن

النظر إلى هذه الدينامية بوصفها مُنتجة "لحدثٍ معين" لا يمكن تكراره. وبتعبير آخر نقول: إن هذا التفاعل وهذا الحوار اللذينِ يجريان داخلَ أي جماعة معينة لن يُعاد إنتاجهما داخل جماعةٍ أخرى حتى لو كان الباحث الذي يُجرى المقابلة هو نفسه. ويَرْجع ذلك إلى أنَّ المبحوثين- حتى لو كان لديهم آراء واتجاهات وخبرات حياتية متشابهة- ليسوا مُجرد أفراد يردون على القضايا التي يطرحها الباحث، بل يردون كذلك على بعضهم البعض ويتجاوبون مع القوة المحركة للجماعة ككل. وإن بإمكان نفس الباحث أن يُجري مقابلتين من مقابلات جماعات المناقشة المركزة تتناولان نفس الموضوع، ومع مبحوثين يتقاسمون خصائص مشتركة، ومع ذلك فإن هذه البيانات ستختلف لأنها أُنتجت داخلَ حوار مختلف. وبالمثل، فإن الحوار يشجع أنواعاً من التواصل التي لا يُحتمل أن تجري في مقابلة متعمقة (والتي تظل بعيدة بصورة تكاد تكون تامة عن متناول البحث المسحي). وتُعد أشكال التواصل المذكورة مصدراً مهمًا للبيانات كما يمكن أن تكون جزءًا مهمًا من عملية بناء المعرفة، خاصة في البحث الكيفي.

إن أشكال التواصل التي تجري في الحياة اليومية، من قبيل: النوادر، والدعابات والاستعمال الفضفاض للكلمات (التي تحتمل معاني كثيرة) قد تُخبرنا ***بالكثير****، إن لم يكن بما هو أكثر، عما "يعرفه" الناس. وبهذا المعنى "تصل جماعات المناقشة المركزة إلى ذلك الجزء الذي لا تستطيع الطرق الأخرى أن تصل إليه" –كاشفةً عن أبعادٍ من الفهم تظل في كثير من الأحيان عصيةً على أن تتوصل إليها طريقة المقابلة ذات الطابع التقليدي والقائمة على الحوار بين شخصين أو عن طريق الاستبيان* (Kitzinger, 1994, p.109).

وقد يُنظر لجماعات المناقشة المركزة كحدث يجري فيه حوار ثري، ولكن رغم أن هذا الحوار دينامي لا يمكن التنبؤ بمساره، فإنه لا يجري بصورة تلقائية أبداً، بل يتم ترتيبه دائماً من أجل تحقيق أهداف البحث. وإن من الأهمية ألا نخلط بين البناء الحواري لجماعات المناقشة المركزة والكلام الذي يجري بصورة تلقائية، وذلك لأن مقابلات جماعات المناقشة المركزة يتم بناؤها بمعرفة الباحث. وتتمثل السمة الجوهرية لجماعات المناقشة المركزة

أثناء جمع البيانات في أن دينامية الجماعة هي التي تبدأ في خلق القصة. وتبدأ القصة التي تقدمها هذه الجماعة بالسيطرة على إنتاج البيانات وتوجيه هذا الإنتاج. وتبعاً لذلك، فإن مقابلات الجماعات تُعتبر عظيمة الفائدة في تعيين وتمييز اللغة، والتعريفات، والمفاهيم التي يجد شُركاء البحث (المبحوثون) أنها ذات معنىً وهم يشقون طريقهم خلال ما يعايشونه من خبرات حياتهم اليومية.

يضمن العمل الجماعي أن تكون الأسبقية لما لدى المبحوثين من تدرُّج هرمي لأهمية الموضوعات، ولما يَخصهم من اللغة التي يتكلمون بها والمفاهيم التي يفكرون وفقاً لها، ولما يخصهم من أُطُر عقلية لفهم العالم. (Kitzinger, 1994, p.108).

وسيتضح من مناقشتنا لاحقا أن إنتاج هذا النوع من البيانات، يجعل جماعات المناقشة المركزة أداة شائعة يزداد اللجوء إليها في تطوير أسئلة المسوح الاجتماعية. ورغم ذلك، فإن هذا الجانب من العمل مع الجماعات قد يكون شديد الجاذبية للباحثين الذين يعملون انطلاقاً من المنظورات الفكرية ذات المضامين السياسية كالنزعة النسوية ونزعة ما بعد الحداثة. وفي هذا الاتجاه، يُبين فراي Frey وفونتانا Fontana (١٩٩١) أن المقابلات التي تجري مع الجماعات تخفف من بعض الهواجس التي تنتاب الباحثين الآخذين بما بعد الحداثة فيما يتصل بالوضع التدرجي القائم بين الباحث والمبحوث حتى في المقابلة المتعمقة. فالباحث -كما هو معهود- يحظى بامتياز أساساً بوصفه الطرف "صاحب السلطة". ولكن جماعات المناقشة المركزة تخلق البيانات المستمدة من الأصوات المتعددة، والتي تشترك معاً في خلق قصةٍ ما. (ص١٧٨).

في الوقت الذي نشير فيه إلى سياق جماعة المناقشة المركزة كحدث، فإن الدينامية التي تتولد داخل هذه الجماعة يُطلق عليها مصطلح **مفعول الجماعة**. (Carey, 1994; Morgan 1996 & Krueger, 1993) ويُمثل مفعول الجماعة مصدراً مهمًا وفريداً للبيانات، كما أنه يُعتبر السبب في كون البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة ليست مساوية للمجموع الكلي للبيانات المتحصلة من المقابلات الفردية.

إن ما يجعل النقاش الدائر في مقابلات جماعات المناقشة المركزة يفوق المجموع الكلي للمقابلات الفردية هو أن الأفراد المشاركين فيها يسألون بعضهم بعضاً كما أن كل واحد منهم يشرح موقفه للآخرين... ويُقدم مثل هذا التفاعل بيانات قيمة عن حجم الإجماع وعن مدى الاختلاف بين الأفراد المشاركين. (مورجان، ١٩٩٧، ص١٣٩).

عندما يقول أحد المبحوثين تعليقاً يبدو أنه يدلُّ على عدم موافقته على تعليقٍ قاله مبحوث آخر، فقد يدون الباحث ملحوظة بهذه الواقعة، مستخدماً إياها كعلامة يرجع إليها لاحقا (Meyers, 1998, p.96)، وذلك من أجل توضيحها، وتدقيقها، والاستزادة من بحثها. ومع أن الاتفاق والاختلاف يُعتبران جانبين مثيرين للانتباه من جوانب بيانات جماعات المناقشة المركزة، وذلك بجانب أنهما يقومان بدور المثيرات الكامنة داخل هذه الجماعة والمؤدية إلى إنتاج البيانات؛ مع ذلك فإن هذه البيانات ليست الأنواع الوحيدة من البيانات التي يحققها لنا مفعول الجماعة تحديدا. ذلك أن المبحوثين قد يقومون أيضا بتغيير آرائهم، أو بالاعتراض على ما سبق لهم أن كانوا يتبنونه من الاتجاهات والمعتقدات، أو يُعيدون التفكير في تصرفاتهم حينما يرون صُورتها في مرآة الجماعة الأكبر.

وتأخُذُ البيانات الفريدة في التشكُّل والتبلور عندما يختلف الأفراد المشاركون مع بعضهم، وعندما يشرحون مواقفهم، وعندما يسأل بعضهم بعضاً، وكثيرا ما يفعلون ذلك وهم يناقشون مُثلهم العليا الأصلية في ضوء أفكار جديدة ناجمة عن هذا الحوار. وكثيرا ما يُساعدنا هذا الشكل من البيانات على إيضاح – وكذلك مجادلة – ما لدينا من الافتراضات المُسلَّم بها والتي من الصعب علينا تمييزها، كما يصعب على السمك أن يميز الماء الذي يعيش فيه. ذلك أن من الأهداف الشائعة بوضوح لدى عُلماء الاجتماع خاصة هدف القيام بنزع **الصفة البادهة (الطبيعية)** عن المُسلمات البادهة عن البيئة الاجتماعية وذلك ببلورتها ومساءلتها. فحيث أن الثقافة تتحول إلى جلدٍ ثانٍ للكائنات الاجتماعية، فإن هذه العملية الخاصة بفهم الأفكار المعيارية والعادات الاجتماعية المعيارية تكون عملية على جانب كبير من التعقيد بالنسبة للباحث

ولشركاء البحث (المبحوثين). من هنا فإن هذا التحدي العام الذي يواجه العلوم الاجتماعية يمثل سبباً آخر لجعل جماعات المناقشة المركزة طريقة مفيدة في جمع البيانات، خاصةً عندما يكون الباحث مُشتغلاً -بصورة واضحة- بدراسة القضايا التي يُسلم بها شركاء البحث.

وقد وجدت فرانسز مونتل Frances Montell(١٩٩٩) أن جماعات المناقشة المركزة طريقة شديدة الفعالية في تفسير المُسلَمات الشائعة عن الجنس والسلوك الجنسي في دراستها عن النوع الاجتماعي، والسلوك الجنسي، ووسائل الاتصال الجماهيرية. إذ تَنسُب مونتل إلى دينامية الجماعة التي تنشأ داخل جماعات المناقشة المركزة أنها تقوم بتعزيز النقاش الحافل بالمعلومات والذي يكشف عن المعتقدات التي تؤمن بها بعض النساء إيمانا شديداً ويطرحها للجدل.

من الممكن لأي فكرة يعبر عنها فرد واحد في أي جماعة أن تثير ردَ فعلٍ من جانب الآخرين، كما أن المعلومات التي يتم إنتاجُها يكون من الأرجح أن تُصاغ داخل إطارٍ من المقولات العقلية والمفاهيم التي في أذهان الأفراد المشتركين في المقابلة وليست المقولات و الفهوم التي في ذهن الباحث الذي يُجرى المقابلة. ويستطيع شركاء البحث (المبحوثون) أن يُساعدوا بعضهم في اكتشاف ما تعنيهِ هذه القضايا بالنسبة لهم، كما يستطيع الباحث أن يدرس بعناية طريقة أولئك المبحوثين في تلقى القضايا التي قد تكون مُبهمة أو غامضة. وهذا أمر مهم في دراسة الجنس والنوع الاجتماعي، لأن هذه القضايا يتم إضفاء الصفة البادهة (الطبيعية) عليها إلى درجة أن يَصْعُب على المرء جداً أن يتعرف على أفكاره الشخصية التي سَبَقَ له أن آمن بها، ويصعب عليه أن يكون أكثر تسامحا مع ما يُسلم به الآخرون من افتراضات. ويُتيح اتساع مساحة الأدوار المتاحة للنساء في مقابلات جماعات المناقشة المركزة، وذلك بصرف النظر عن الفصل الصارم بين القائم بالمقابلة والظرف الذي تُجرى معه المقابلة؛ يُتيح اتساعُ الأدوار هذا للنساء أشكالاً من التفاعل يترجح أن تكشف عن الافتراضات التي يأخُذنها مأخذَ التسليم، وأن يضعنها موضع المساءلة. (Montell, 1999, p. 49).

بالإضافة إلى ما قامت به مونتل من تشجيعها لشريكات البحث (المبحوثات) على شرح ما يدور في أذهانهن من مسلمات، مع أخذها في الحسبان ما يتسم به موضوع البحث (وهو السلوك الجنسي) من طبيعة شخصية عموماً؛ استخدمت مونتل جماعات المناقشة المركزة كوسيلة لجعل هؤلاء المبحوثات أكثر تقبُّلا لمناقشة ذلك الجانب الذي يتصف بدرجة عالية من الطبيعة الشخصية والحظر المفروض عليه اجتماعيا. ومع أنه قد يبدو للوهلة الأولى أن المناخ السائد في الجماعة يَحُولَ بين الأفراد وبين مناقشة القضايا الشديدة الخصوصية؛ إلا أنه بمُجرد توفير البيئة الخالية من التوتر قد يشعر أفراد جماعة المناقشة المركزة بدرجة من الراحة النفسية أكثر مما يشعرون بهِ في المقابلة الثنائية بين باحث ومبحوث، وذلك لأن العيون لا تكون مُسلطة عليهم دائماً. وبمجرد أن يتحقق مستوىً ما من الراحة النفسية لأفراد جماعة المناقشة، فقد يشعرون فعلاً بدرجةٍ أقل من الضغط داخلَ هذه الجماعة. كذلك استخدمت مُونتل دينامية الجماعة للوُقوف على الأفكار والمُسلَّمات التي ترتكز عليها الميول والاتجاهات التي كانت المبحوثات تدرك أنهن يؤمنَّ بها.

لم أكن أريد منهن إلا أن يذكرن بصراحة تلك الأفكار التي تبدو لهن بديهية "يتم تبنيها دون تفكير" عادةً، وأن يُفصحن عن المعتقدات والمقولات العقلية التي ترتكز عليها اتجاهاتهن الواعية. وإنه لأمرٌ بالغ الصعوبة أن يتحدث الناس عن هذه الأنواع من الاتجاهات والمُسلمات في مقابلة فردية. ومن ناحية أخرى، وفي مقابلات الجماعات، تستطيع طرق استجابة المبحوثين لبعضهم وأساليبهم في التفاعل فيما بينهم؛ تستطيع توفير بيانات أكثر ثراء وأشد تعقيداً...(ص٤٧).

بالإضافة إلى أن دينامية الجماعة تقوم باستكشاف **الاتجاهات**، فإنها –وبنفس المقدار– تستطيع أن تفيد في تشجيع أعضاء الجماعة على أن يقدموا تفسيرات مفصلة **للسلوكيات** المعيارية تبدو في نظرهم عادية. شاهد ذلك أنه بملاحظتنا لما وردَ في الدراسة التي أجريت على موضوع صورة الجسد عند الأمريكيات السود – والتي عرضنا لها للمرة الأولى في الفصل الأول من هذا الكتاب – نقف على نموذج ممتاز لمقابلة الجماعة كطريقة للتوصل إلى

"وصف مكثف" للسلوكيات الروتينية المعتادة. فقد أتاح تفاعل أعضاء هذه الجماعة للفتيات الفرصة، لأن يقمن معاً بصياغة وصف تفصيلي للسلوكيات المعيارية التي تُعدُ في نظرهن عادية، كمسألة العناية بالشَعر، وإن كانت سلوكيات هامة في نظرنا من الناحية التحليلية.

الباحثة (التي تجري المقابلة) هل تناسب تسريحة الشعر هذه بعض الفتيات دون الأخريات؟

"ساشا": الحقيقة أن بعض الناس لا يبدون جميلات المظهر في أي من هاتين التسريحتين، رغم ذلك.

"دب": Deb إن تسريحة الشعر ""سيزر" تشبه تسريحة شعر الرجل.

الباحثة: فهمت.

"دب": إن كانت رأسُكِ تبدو مثل كُرة القدم، فلن تعطيك هذه التسريحة شكلاً جميلا.

الباحثة: هل تقضين وقتا طويلا في تسريح شعرك؟

"ميتشل بي": نعم.

"ساشا": أنا أدرك أنني أقضي وقتاً طويلاً في تسريح شعري.

"جين": فقط حينما يكون الشعر طويلا ومسترسلا، بحيث يمكن عمل شيء فيه...

"دب": ... حقاً...

"جين": في هذا الصباح ألقيت في شعري بعض بكرات الشعر (التي تُستعمل للف الشعر)، ودخلت إلى الحمام، ثم خرجتُ منه، واعتبرتُ يومي يوماً سعيداً.

الباحثة: ماذا يحدث عندما تقفين تحت دش الحمام؟

"ساشا": أضع غطاء الشعر البلاستيك الخاص بالحمام؟

الباحثة: ولماذا يتوجب عليك أن تضَعي الغطاء البلاستيك؟

"**جين**": لأنه ليس لنا شعر مثل شعركن جميعا وليس هذا بذنب، ولكن الأمر لا يعدو أننا لا نستطيع أن نُهيئ شعرنا في صورة مقبولة.. وعندما ندخل إلى الحمام، فإن الأمر يتوقف على...

الباحثة: (مُوجهة السؤال إلى "جين"): أخبريني بما يحدث عندما تقفين تحت الدش في الحمام.

"**جين**": عندما تحصلين من مصفف الشعر على تسريحة تجعل شعرك متموجاً لمدة طويلة(*)، وتدخلين إلى الحمام فإن شعرك يظل مسترسلاً في تموجه، ولكن إذا غسلت شعرك باستمرار، بحيث يكون مبتلاً كل يوم...

"**ساشا**": فسوف تصبحين صلعاء..

"**جين**": وعندما تحصلين يوم الاثنين من مصفف الشعر على تسريحة تجعل شعرك متموجاً لمدة طويلة(*)، فسوف يكون شعراً أجعد، أي يكون شعراً ذا تسريحة أفريقية، لذلك لا نستطيع الغطس في حوض الاستحمام.

الباحثة: ولماذا لا تريدين أن يكون شعرك ذا تسريحة إفريقية؟ لماذا لا ترغبين أن يكون شعرك أجعد؟

"**جين**": إن المسألة لا تتعلق بالرغبة في أن تكون تسريحتي إفريقية، فإنني لو كُنْتُ وُلدتُ بشعر أجعد، أو إن أراد صاحب المقام الرفيع (مصفف الشعر) أن يكون شعري بهذه التسريحة، فحينها سوف أفعل.

"**دب**": ... إنه يريد أن يُسَرّح شعري بهذِه التسريحة، ويبقيه مُتهدلاً مسترسلاً...

"**جين**": إن صاحب المقام الرفيع (الحلاق) يريد أن تكون تسريحة شعري قصيرة لأنني ظللت أُسَرحّهُ بهذا الشكل لفترة طويلة، ذلك هو الوضع الذي تسير عليه الأمور بالضبط.

"**دب**": إن تسريحات الشعر ذات الشكل الإفريقي لا تناسب الفتيات.

(*) التسريحة المعروفة "بالموجة الثابتة" (المترجم).

"ساشا": إن تسريحة شعر "راشينا" تسريحة إفريقية، ولكنها حالة استثنائية.

"دب": راشينا؟

"ساشا": نعم.

الباحثة: إذن فأنتن تقصدن أنكن لا تستطعن غسل شعوركن كل يوم.

"**جين**": لأنه لا يوجد مبرر لذلك.

"ساشا": إن الشعر يتقصَّف إذا تم غسله يومياً.

"**جين**": لا يوجد مُبرر لذلك أبداً. فلا يوجد مُبرر على الإطلاق لغسل شعري كل يوم. وأنا أذهب إلى مُصفف الشعر كل أسبوعين.

الباحثة: هل تذهبين إلى مُصفف الشعر؟

"**جين**": إنني أصفف شعري بتسريحة الموجة الدائمة كل ستة أسابيع.

"شاشا": إننى أذهب إلى بيتى وأستحم، وأغسل شعري مرة كل أسبوعين. وأصفف شعري بتسريحة الموجة الدائمة كل ثمانية أسابيع، ولكنني في الوقت الحالي أدَعُ شعري ينمو حتى شهر أغسطس، لأنني بسبيلي إلى قص شعري. وسوف أقوم بقص شعري عند مُصفف الشعر.

الباحثة: إنك قلت أنك تصففين شعرك بتسريحة الموجة الدائمة، فما معنى ذلك؟

"ساشا": توضع عليه مادة مُلينة ليظل منسابا.

"دب": ...إنك تستعملين مادةً ملينةً لجعل شعرك منسابا.

"**جين**": ... نعم، فالمادة الملينة تجعل شعرك مناسبا.

الباحثة: إنها تجعلُ شعرك منساباً فعلاً.

"ساشا": إنها مادة مُلينة ذات تركيب كيميائي.

الباحثة: عندما نتكلم عن تسريحة الموجة الدائمة فإننا نقول إنها تُجعِّد شعرك، ولكن تسريحتك الدائمة تجعل شعرك منساباً، هل هذا ما تقصدينه؟

"**جين**": أجل. فإنك إن سرَّحتِ شعرك تسريحة الموجة الدائمة فسيبقى مُتجعداً.

"**ساشا**": ... أو مُتَموجاً.

"**جين**": إذا سَرَّحنا شعرنا بتسريحة الموجة الدائمة فسوف يبقى مُنساباً.

الباحثة: فهمت. ولكن ما أهمية أن تجعلي شعرك منسابا؟

"**دب**": لأنه شعر أجعد. فلا تستطيعين أن تفعلي شيئاً حيال ذلك.

"**جين**": إنه ليس بالضرورة أمر مهم، فالمسألة هي صورتك فحسب. ولكن لا يتحتم عليك أن يكون شعرك منساباً. وأنا لا أميل إلى أن أتجول هنا وهناك وشعري منساب...

يمثل النص السابق المستخلص من سجل المقابلة قُصاصة موجزة للبيانات المستخرجة في هذا الموضوع وحده. وكما تستطيع أن ترى، فإن جو الجماعة يشجع على ذكر الأوصاف المفصلة للخبرات اليومية العادية.

ويلاحظ أن الدينامية التي تتولد داخل جماعةٍ ما تختلف كل الاختلاف عن الخبرة المتولدة عن المقابلة القائمة على الاتصال بين فردين. فالتفاعل يؤثر على جميع أعضاء الجماعة (أي على الباحث كما على المبحوثين، وهو الأمر الذي سوف نتكلم عنه باستفاضة عندما نناقش دور الوسيط الذي يدير الحوار في مقابلة جماعات المناقشة المركزة). وكثيراً ما يُغير شركاء البحث في جماعة المناقشة المركزة آراءهم بناءً على تأثُرهم بما يسود هذه الجماعة من اتجاهاتٍ وقيم – فهذا جُزء أساسي من هذه الدينامية، كما أنه جزء مهم من عملية جمع البيانات. وكما رأينا في فصل المقابلات المتعمقة، فإن ما يقوله شخص ما في سياق مقابلة تقوم على الاتصال بين فردين، إنما يتأثر فقط بشخصية الباحث وبعلاقة الألفة التي تتولّد بين هذا الباحث وذلك المبحوث بالذات.

وهكذا تقودنا المقارنات مع طُرق البحث الأخرى إلى نتيجة مؤداها أن القوة الحقيقية لجماعات المناقشة المركزة لا تكمن فقط في استكشاف ما لابُدَّ للأفراد أن يقولوه، وإنما تكْمُن في أنها تزودنا برؤىً ثاقبة للمصادر التي تنبع منها السلوكيات والدوافع المعقدة. (مورجان وكروجر، ١٩٩٣، نقلا عن مورجان، ١٩٩٦، ص١٣٩).

وفي حالة المقابلات التي تُجرى مع جماعات المناقشة المركزة، فإن ما يقوله أي مبحوث إنما يتحقق من خلال الجماعة، ومن ثمَّ ينعكس في عيون الآخرين في الجماعة وهم يواصلون الحوار. مثال ذلك، أنه في دراسة استكشافية عن المثليين من الرجال وصورة الجسد، قد يشرح الشاب جيسي Jesse سبب شعوره بالضغوط التي يتعين عليه أن يتعامل معها لكي يحظى بقيمةٍ في مجتمع المثليين، إلا أن تعليقه هذا تتردد أصداؤه في الحوار الجاري على ألسنة غيره من أعضاء الجماعة الذين يتجاوبون مع جُملته هذه و/أو يكونون متأثرين بها عندما يتحدثون عن خبراتهم الشخصية. ولهذه الأسباب **كلها**، فإن البيانات التي يتم إنتاجها داخل إحدى جماعات المناقشة المركزة تختلفُ عن بيانات المقابلة المتعمقة.

تتأثر دينامية الجماعة بالاختيارات الكثيرة لتصميم البحث، كما تؤثر على جمع البيانات وتحليلها. ويُعتبر دور الباحث في خلق دينامية الجماعة – من خلال مستوى الوساطة الذي يوفره في إدارة الحوار، وكذلك من خلال مستوى البنية الذي يفرضه – يُعتبر دوره هنا دوراً مهمّاً، وسوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد. كذلك يتم استحضار هذه الدينامية للانتفاع بها في أثناء مرحلة التحليل حين يُقرر الباحث تحديد المستوى الذي يتم التحليل وفقاً له، وحين يقوم الباحث بتفسير البيانات وبالكشف عن الأنماط التي تنبثق من داخل البيانات. وسوف يتم إبراز هذه المظاهر التي تتصف بها الجماعة في موضع لاحق من هذا الفصل. وسوف نناقش، أولاً، مرحلة تصميم البحث، وهي المرحلة التي يتم فيها تحديد الاختيارات المتصلة بإدارة الحوار وبنية المقابلة، والمتصلة أيضاً بغير ذلك من الاعتبارات الكثيرة. ومن خلال الفحص الدقيق للطريقة المتبعة في تصميم دراسةٍ لجماعة المناقشة المركزة سوف يتضح قدر أكبر من الجوانب الفريدة لهذه الطريقة.

تصميم دراسة لجماعة المناقشة المركزة: سؤال البحث

كما رأينا في الفصل الثاني، فإن عملية تصميم البحث، بما فيها من القرارات المتعلقة بطرق البحث، ينبغي أن تسترشد على الدوام بسؤال البحث. ذلك أن عملية تصميم البحث إنما تدور حول صياغة إجراءات البحث

(كروجر، ١٩٩٣، ص٤٣) المرتبطة بهدفك من البحث. وتتجلى أهمية التلاؤم بين سؤال البحث وتصميم طُرق البحث بأكبر قدر من الوضوح في مشروع بحثي يستعمل طريقة جماعات المناقشة المركزة بسبب ما تتسم به اختيارات التصميم الخاصة بجمع البيانات من تعددية فائقة. ويرى مورجان (١٩٩٦) أن من المفيد أن نُميز بين مسائل التصميم التي "على مستوى البحث" ومسائل التصميم التي على "مستوى الجماعة". ونحن نلفت نظرك إلى أنك وأنت تتمثل البحث الكيفي في ذهنك كعملية كلية وفقاً للطرق التي سبق أن شرحناها، فإن بعض الفروق الموجودة بين "مستوى المشروع" و "مستوى الجماعة" تُصبح فُروقاً مصطنعة عند التطبيق الفعلي. وقد تكون هذه الصفة الاصطناعية التي تظهر عند التطبيق مرتبطةً كذلك بالإطار النظري للدراسة. شاهد ذلك، أن دراسةً تستخدم اتجاهاً فكرياً قائما على "النظرية الموثقة" قد تمزج بعض هذه الاختيارات التصميمية ببعضها البعض عند التطبيق. فإذا اتفقنا على أن هذه الفئات النظرية لا تكون واضحةً كل الوضوح عند التطبيق دائماً، فإن النموذج الذي يقدمه مورجان يمكن أن يفيدك أعظم فائدة عندما تفكر في تصميم مشروعك القائم على طريقة جماعة المناقشة المركزة.

تتضمن الاعتبارات التي يتعين رعايتها **على مستوى المشروع**:

(١) الأطر متعددة الطرق البحثية،

(٢) انتقاء المجموعات (أي: اختيار العينات)،

(٣) تقنين إجراءات جمع البيانات.

ويعتبر اختيار العينات وتقنين الجمع قرارين مترابطين، لذلك فإننا سنناقشهما معاً فيما بعد. وعلى مستوى الجماعة، فإن أهم اعتبارات التصميم يجب أن ينصب على دور الباحث. وبالذات: ما هي درجة الوساطة (أي إدارة الحوار) التي سيوفرها الباحث فيما يتصل بالتحكم في دينامية الجماعة وتنظيم عملية تدفق الموضوعات. ويلاحظ أن قضايا إدارة الحوار تتعلق أساساً - كما سوف نرى - بقضايا ضبط التوازن التام بين "التحكم والتدفق" بهدف استخراج أفضل النتائج من هذه الجماعة، وهي النتائج التي تحقق أهداف البحث. ويُعد دور الباحث كوسيط يدير الحوار هو السمة المميزة لطريقة جماعات المناقشة

المركزة بالمقارنة مع غيرها من طرق المقابلة. وينبغي الانتفاع الكامل بكل هذه الأفكار الخاصة بتصميم البحث، سواء على مستوى المشروع أو على مستوى الجماعة، وذلك فيما يتصل بقضية البحث وبأهداف البحث.

التصميمات المتعددة الطرق:

الجمع بين البيانات الكيفية والكمية

من الممكن استعمال جماعات المناقشة المركزة كطريقة بحث مستقلة بنفسها أو كجزء من تصميم متعدد الطرق (للاطلاع على مناقشة كاملة للخطط أو التصميمات متعددة الطرق انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب). وفي أغلب الأحيان، تُستعمل جماعات المناقشة المركزة في الدراسات التي تعتمد على عدة طرق بحث (مورجان، ١٩٩٦، ص١٣٣). أما مسألة ما إذا كانت دراستك تستعمل جماعات المناقشة المركزة بمفردها أو مُجتمعةً مع طريقةٍ أخرى من طرق البحث، سواء أكانت طريقةً كيفيةً أو كمية؛ فإن هذا الأمر يتوقف على سؤال بحثك. وإنَّ الأسلوب الذي يصاغُ به سؤال البحث ليرتبط بنوع من الانسجام بين هذا السؤال وطريقة البحث. شاهد ذلك أنه توجد أسئلة بحث كثيرة يمكننا أن نطرحها فيما يتصل بصورة الجسد عند الرجال. وسوف يساعدنا الأسلوب الذي نصوغ بهِ قضية بحثنا على تحديد منهجية البحث الملائمة بما يتضمنه ذلك الأمر من احتمال أن تُستعمل جماعات المناقشة المركزة للمساعدة في الوصول إلى بيانات استكشافية، أو وصفية، أو تفسيرية. وترفع البيانات الاستكشافية مستوى وعي الباحث بالمسائل الأساسية في مجال أحد الموضوعات الجديدة. وتوفر البيانات الوصفية – والتي هي سمة مميزة للبيانات الكيفية – صوراً غنية بالتفاصيل للأفكار والسلوكيات. وأخيرا، تساعد البيانات التفسيرية على شرح العمليات الاجتماعية، إذ تُعطي الباحثين مفاتيح للوصول إلى معرفة سببِ وكيفيةِ معايشةِ الناس للوقائع والأحداث، وإلى كيفية الربط بين الخبرات المختلفة. فهلُمُّوا بنا نراجع بعضاً من أكثر خطط جماعات المناقشة المتعددة الطرق شيوعاً، مستعملين أمثلتنا البحثية الخاصة بصورة الجسد عند المثليين من الذكور، وبصورة الجسد عن النساء السود، كوسيلة

لإظهار مدى تناسب كل اختيار أو ملاءمته مع الأنواع المختلفة من قضايا البحث وأهدافه.

إن وضع مشروعاتٍ بحثية تستعمل كلاً من طريقة جماعات المناقشة المركزة وطريقة البحث المسحي إنما يعد من أشيع طرق البحث المستخدمة في ربط الأساليب والتقنيات الكيفية بالكمية في الخطط المتعددة الطرق (مورجان، ١٩٩٦، ص١٣٤). وإن من الأهمية أن نتنبّه إلى أن المنحى الكلي في بناء المعرفة يستلزم ألا يكون هدف استعمال هذه الطرق البحثية مقصوراً على الوصول إلى توليد قدر أكبر من البيانات، ولكنها تُستعمل لتبعث الروح في بعضها البعض، كما تُستعمل بأسلوبٍ نقدي (انعكاسى) من شأنه أن يخلق فهماً أكثر تعقيداً وتشابكاً للحقيقة الاجتماعية. وبالإمكان استخدام جماعات المناقشة المركزة والمُسُوح الاجتماعية مع طريقة أخرى من طرق البحث في الدراسات التي تستخدم ثلاثاً من طُرق البحث؛ ومع ذلك، فسوف نركز على الخطط القائمة على استخدام طريقتين من طرق البحث. وينبغي كذلك ملاحظة أن مقابلات جماعة المناقشة يمكنها أيضاً أن تقوم بدور بوصفها اختباراً قبلياً يهدف إلى التأكد من أن اللغة المستعملة في مَسْحٍ اجتماعي ما ملائمة لمجتمع البحث. (فراي وفونتانا، ١٩٩١، ص١٧٧).

ويوجز مورجان (١٩٩٦) الخطوط الرئيسية للأساليب الأربعة الأساسية لاستعمال طريقة جماعات المناقشة المركزة بالاشتراك مع البحث المسحي. وسوف نُسلط الضوء على الطريقة التي يمكن بها ربط هذه الطريقة بأساليب تُشجع التفاعل بين المُكونات الكيفية والمكونات الكمية في المشروع البحثي، وهو الأمر الذي يعده البعض جزءًا مهمًا من مستقبل البحث الاجتماعي بصفة عامة.

ويمكن الانتفاع بالبحث المسحي في توليد البيانات التي ستوجّه طريقة جماعات المناقشة المركزة فيما بَعدُ، ابتداءً من مرحلة اختيار العينات إلى مرحلة تحديد الموضوعات والأسئلة. وتُعتبر المسوح الاجتماعية طريقة فعالة في توليد مقادير كبيرة من البيانات "المسطحة" flat data التي تُستخرج من عدد كبير من المبحوثين. ومن الممكن تقسيم المبحوثين على أساس أي عددٍ

من الخصائص المميزة، من قبيل: العرق، والجنس، والطبقة الاجتماعية، والسن، والسلوك الجنسي، وذلك من خلال الأسئلة الديموجرافية (السكانية) التي توجد في بداية أى مسح اجتماعي. وبالإمكان أن يكون هذا النوع من المعلومات مفيداً للباحث الذي لم يُقرر بعدُ ما إذا كان سيستعمل جماعات مناقشة متجانسة أم جماعات مناقشة غير متجانسة (وكما سوف نوضح هذا الموضوع لاحقا، فإن هذه الجماعات هي – على التوالي – الجماعات ذات الأفراد المتشابهين أو ذات الأفراد المختلفين). وحين تستخدم المسوح الاجتماعية بهذه الصفة التمهيدية فإنها تُستعمل حينئذٍ بصورة أساسية لاستكشاف الموضوع الذي سوف يُجسَّد بعد ذلك من خلال طريقة جماعات المناقشة الكيفية. ويُعتبر هذا النوع من البيانات الاستكشافية ذات أهمية حاسمة لابد من توافرها حين لا يكون الباحث متأكداً من طبيعة القضايا الأساسية لمشروعه البحثي.

مثال ذلك، أنه إذا تقرر أن ندرس صورة الجسد عند المثليين من الذكور، وقررنا أن تكون طريقة جماعات المناقشة المركزة هي طريقتنا الأساسية، نظراً لفائدة هذه الجماعات في الحصول على البيانات الاستكشافية والبيانات الوصفية، ولفائدتها أيضاً في جعل المشاركين في البحث يشعرون بالراحة النفسية وهم يناقشون الموضوعات المحظورة؛ فقد نحتاج لاستعمال المسوح الاجتماعية كأسلوب تمهيدي لاكتشاف بعض الموضوعات الأساسية والأنماط التي يمكن أن نستخدمها لنُشكل بها موضوعاتنا وأسئلتنا.

ورغم أن هذا الأسلوب صحيح تماماً لربط هذه الطرق، فإنه ينبغي ملاحظة أنه يعاني نقطة ضعف رئيسية واضحة. ذلك أنه إن كنا في الواقع لا نعرف إلا القليل جداً عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور، وهو السبب الذي يلجئنا إلى استخدام طريقة جماعات المناقشة المركزة، إذنْ فكيف سنتصرف لخلق أسئلة البحث المفيدة؟ ومن واقع مراجعتنا للتراث العلمي المنشور فإننا سنقوم بصياغة طائفة من الأسئلة المُغلقة التي لا تترك للمبحوثين سوى اختيارات محدودة للإجابة. ومع أنه من المؤكد إمكانية استعمال هذه البيانات في توجيه عملية هيكلة جماعات المناقشة المركزة، فإن من المهم أن

نتنبه إلى أن البيانات المسحية إنما تعكس مفاهيمنا النظرية الشخصية – أي تعكس ما نتصور أنه قد يكون جُزءًا من المسائل الأساسية. وحيث إن مجمل الدراسة الواردة في مثالنا ذات طبيعة استكشافية، فقد تكون البيانات التي نستمدها من مُسوحنا الاجتماعية، والتي تُوجه ما نجريه حينئذ من مقابلات جماعية؛ قد تكون هذه البيانات قد شكلت مسائل البحث بأساليب تختلف عن الطريقة التي يميل إليها مبحوثونا أنفسهم في مناقشتها، وقد تكون هذه البيانات قد حرفت مدى الأهمية التي تتصف بها بعض المسائل فأبرزتها على حساب مسائل أخرى، وقد تغفل هذه البيانات عددا كبيرا مما لدينا من المسائل المهمة. وترتكز قيمة المسح الاجتماعي وحَسْبُ على الاستفادة القصوى من الأسئلة المطروحة، والتي يصعب قياسها خصوصاً في البحث الاستكشافي.

يتمثل واحدٌ من أشكال التحريف المختلفة والشائعة، والتي يتعرض لها هذا الجمع بين طرق متعددة؛ يتمثل في استعمال طريقة جماعات المناقشة المركزة بوصفها الطريقة التمهيدية أو الاستطلاعية، واستعمال المسوح الاجتماعية بوصفها الطريقة الأساسية والرئيسية. وفي هذه الحالة يستعمل الباحث البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة للمساعدة في صياغة أسئلة المسح الكمية. وكثيراً ما يستخدم باحثو السوق – الذين يريدون الاتساع في بياناتهم– هذا الإطار الموفِّر للتكاليف. كما أن هذا الإطار يكون مفيداً في البحث الاستكشافي حين لا يكون الباحث على علمٍ بكل المسائل والمصطلحات الأساسية، وذلك لأن بإمكان شركاء البحث (المبحوثين) أن يبتكروا المقولات الذهنية، وأن يختاروا ما يريدون التركيز عليه، وأن يشرحوا تصوراتهم أو ملاحظاتهم وخبراتهم. وتكون البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة عظيمة الفائدة عند صياغة أسئلة البحث، الذي ترتكز قيمته على قابلية هذه الأسئلة للتطبيق على حيوات المبحوثين. ويناقش نصار – مكميلان Nassar-McMillan و بوردرز Borders (٢٠٠٢) الاستعمال "الشديد الفعالية" لجماعات المناقشة المركزة الكيفية المقننة لتوليد وتنقيح الأسئلة المطلوبة "لاستبيان سلوك العمل التطوعي". وفي هذه الحالة، كان المستجيبون لهذا المسح مختلفين من حيث المستوى التعليمي، لكنهم كانوا يشتركون في كونهم

"متطوعين للخدمة المباشرة". وكانت جماعات المناقشة المركزة تستخدم للمساعدة في تحديد اللغة والمصطلحات المناسبة لمجتمع البحث. وقد أدت مقابلات جماعات المناقشة المركزة إلى إحداث تغييرات مهمة في أداة المسح، والتي أطلق عليها الباحثون اسم "مقياس ضبط الجودة" الإضافي.

في مقابلاتنا الاستطلاعية التي أجريناها مع المثليين من الذكور، أتيحت للمبحوثين الفرصة ليساعدوا في توجيه الحوار، وفي طرح أفكارهم، وشرح مقاصدهم، وإزالة صور سوء الفهم الشائعة عنهم، وبذلك يساعدون في تعليم الباحث نفسه. فقد ساعد المبحوثون الباحث – فى هذا المثال– على أن يفهم أن الثقافة الفرعية للمثليين ليست مقصورة على كونها مصدر ضغط على صورة الجسد عندهم، بل هي تعمل إلى جانب ذلك كمصدر مهم للشعور بالرضا والتقدير الإيجابي للنفس. ومن شأن البيانات التي جمعناها من هذه المقابلات أن تفيد أعظم الفائدة في توليد الأسئلة المسحية وثيقة الصلة بهذا الموضوع في المستقبل.

كليف: *أنا مدين لثقافة المثليين الفرعية، في توعيتي بأمور لم أكن في الواقع واعياً بها قبل ذلك، وأحد هذه الأمور هو الوزن الثقيل. وأمر آخر هو هذا السؤال العام عن الأعضاء التناسلية، وهو السؤال الذي يبالغ الناس في التأكيد عليه بصورة مفرطة. إذ أن من أهم الأمور المتعلقة بجسدي في نظري هو: قلبي وكيف يعمل، وذلك لأن الانفعالات ذات طابع جسدي، وقد عايشت هذا الشعور كما أنني لا أعرف، إن تلك الأماكن التي أقف فيها ليلةً كاملة ليست ... (يقصد ليست مخصصة للقاء رفيق – المترجم)، أو أنها لا تميل إلى ذلك. إنه لأمر شاق على النفس. لذلك فإنها مُهمَّة – فعلا – أي العلاقة الجسدية. (سكوت).*

توني: *لقد تغيرت تغيراً كبيرا فيما يتصل بطريقتي في ارتداء الملابس وفي تفكيري في نفسي قبل ذلك.... فقد كنت معتاداً أن أرتدي الملابس التي لا تبدو جذابة عليَّ على الإطلاق، بل كانت تبدو في صورة كريهة، فهي ألوان سوداء وقاتمة، أو ألوان براقة. ولكنني منذ أعلنت عن كوني مثلياً، ومنذ أن أصبحت أكثر ارتياحاً لنفسي لمست تغيراً في أنواع وألوان*

الملابس التي أصبحت أشتريها الآن، والتي لا تُعد ذات ألوان صارخة و تقول للناس: انظروا إليَّ فإنني أرتدى ثياباً أنيقة جداً. وأنا لا أزال مُهندماً هنداماً جيداً (ضحكٌ جماعي) إلا أنني لاحظت – بالقطع – تغيراً محسوسا، كما بتُّ أشعر بالمزيد من الرضا عن نفسي. (سكوت)

جسي: *أتصور أن قدراً كبيرا من هذا الموضوع له صلة بالثقة بالنفس، والتي هي نتيجة لإعلان المرء منا عن أنه من المثليين (تَوقُّف). لقد كنت أكره ساقي، لأنهما تبدوان غير متناسبتين في الحجم مع بقية جسدي، والذي يُعدُّ نحيفاً جداً، بينما لي ساقان تشبهان جذع الشجرة. وقد كنت معتاداً القيام بالتريض باستعمال الدراجة الهوائية – وكُنتُ أمارس هذه الرياضة مبتدئاً بأي ساقٍ أضعها على بدال الدراجة أولا (ضحك جماعي). إنني مُفرط في الإحساس بزيادة وزني. ولكن هذا الموضوع أصبح قليل الأهمية الآن، ولا أدري سبب ذلك. ولكن الشيء الوحيد الذي تغير هو أنني أعلنتُ للناس عن أنني من المثليين، كما أنني الآن أكثر ثقة بنفسي وبما هو غير ذلك.*

كما تتضح أهمية جمع البيانات الكيفية لجماعات المناقشة المركزة قبل صياغة أسئلة المسح الاجتماعي؛ تتضح فيما قمنا به من دراسة لجماعة مناقشة مركزة عن الفتيات السود وصورة الجسد عندهن. فقد كانت أكثر المسائل التي كان الباحث الرئيسي يعتبرها مهمة؛ كانت تبدو مسائل ثانوية في نظر هؤلاء الفتيات. فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الدراسة كانت عن صورة الجسد وعن اضطرابات الجسد، وهما الموضوعان اللذان سبق للباحث المذكور أن تناولهما بتعمق مع جماعات المبحوثين من الفتيات البيض، فقد تبين للباحث افتراض بدا معقولا مؤداه أن هؤلاء الفتيات السود يعتريهن خوف من أن يصبحن بدينات، وقد يرغبن في تجسيد المثل الأعلى للنحافة الذي تقدمه وسائل الاتصال، وذلك مثلما تبين من عينات الفتيات البيض عادة. ومع ذلك، فإن الوزن "الثقيل" لم يكن مصدراً أساسياً لقلق هؤلاء الفتيات السود بشأن أجسادهن.

الباحثة: بماذا تشعرين يا "كييت"؟ لقد زاد وزني الآن عشرة أرطال، فما هو شعورك الآن؟

"**كييت**": أشعر بالسعادة. أشعر أنني فوق قمة العالم.

الباحثة: صارحيني بالحقيقة ولا تحاولي إنكار الواقع.

"**كييت**": أبداً، أنا لا أكذب في الواقع. فليس لهذا الأمر أهمية عندي، رُبما أُضطر إلى شراء بعض الملابس والأشياء الجديدة، ولكن الأمر فيما عدا ذلك لا يعني لي شيئاً.

الباحثة (توجه السؤال للفتيات): إذا حدث – رغما عنكن – أن زاد وزنكن عشرة أرطال غدا، فماذا سيكون شعوركن؟

"**جوي**": سأكون سعيدة.

"**تاشا**": سوف أستمر في الشعور بهذه الزيادة فحسب، ولكنني أقصد، أنه من المحتمل أن أغير طريقتي في التفكير، ولكن إذا شعرت أنني مرتاحة نفسيا لهذه الزيادة فسوف أقتصر على التكيف معها، فلا يوجد ما يمكنني عمله إلا هذا.

لقد اهتزت مصداقية المُسلَّماتُ التي كانت تؤمن بها الباحثة بصورة مباشرة، على نحو ما يتضح من هذا النص المُستخلص، فقد ألقت سؤالاً بهدف الوصول إلى الإيضاح والتأكيد باستعمالها لعبارة: "صارحيني بالحقيقة"، وذلك كي تتأكد من أنها فهمت مشاعر أولئك المبحوثات التي تتعارض بوضوح مع أفكارها الشخصية.

إن الشاغل الرئيسي الذي يشغل بال الباحثين الكيفيين فيما يتصل بهذا الأسلوب في الجمع بين الطريقة الكيفية لجماعات المناقشة المركزة والبحث المسحي ذي الطابع الكمي هو أن استخدام المسوح الاجتماعية – بوصفها الطريقة الرئيسية لجمع البيانات – يضع البيانات الكمية في موقع الصدارة والاهتمام. ذلك أن البيانات الكمية –المتحصلة من أسلوب الجمع المذكور– تكون قد شُكلت أساساً بناءً على البيانات الكيفية في حالة ما إذا كانت الأسئلة مصوغة على النحو الذي لولاه لكانت هذه البيانات قد استبعدت أو تم التعبير عنها بشكل مختلف. ومع ذلك، فإن من المحتمل أنه عندما يتم تسجيل/أو عرض نتائج البحث، فسوف يتم التأكيد على البيانات الكمية للمسح، التي تعرض عادة في صورة إحصائيات. ويُخفق هذا الأسلوب في الجمع بين

الطريقتين المذكورتين في أن يُدخل في حُسبانه التفاعل بين هاتين الطريقتين والطبيعة الكلية لخطة البحث. ومن المحتمل أن ترد الإشارة إلى استخدام طريقة جماعات المناقشة المركزة بعد ذلك (في المقدمة أو في أحد ملاحق البحث) وألا يتوسع الباحث في معالجتها أبداً، الأمر الذي يعني إخفاء أهمية هذه البيانات الكيفية. وبالمثل، فإن البيانات التمهيدية التي تم الحصول عليها من جماعات المناقشة المركزة قد لا تتم مناقشتها على الإطلاق. ويبين مورجان (٢٠٠٢) أن طريقة جماعات المناقشة قد انتشر استخدامها في العلوم الاجتماعية عندما توظف إلى جانب طرق البحث الكمية في بحوث التقويم (ص١٤٥). وقد منح هذا الاتجاه مزيداً من المشروعية للباحثين، كما مكنهم من الوصول إلى تمويل بعض الأبحاث التي كان تمويلها مقصورا قبل ذلك على المشروعات الكمية. ومع ذلك، فإن هذه الأساليب في الجمع بين طريقتين من طرق البحث كانت قائمة على أساس تفضيل البيانات الكمية، مما جعل الباحثين يظلون محصورين -أساساً- داخل نطاق تقاليد الاتجاهات الكمية (ص١٤٥).

يضاف إلى ذلك أن هذا النوع الأشهر من الجمع بين طريقتي بحث يستعمل المُسوح الاجتماعية بوصفها طريقة البحث الأساسية، إلا أنه يستخدم طريقة جماعات المناقشة المركزة أثناء المرحلة الأخيرة لجمع البيانات بوصفها نوعاً من "المتابعة" (مورجان ١٩٩٦، ص١٣٥). ويتم اختيار هذه الخطة حتى يستطيع الباحثون استخدام البيانات الكيفية المستمدة من جماعات المناقشة المركزة في المساعدة على تفسير وتحليل نتائج مسحهم. وعندما تُطبق هذه الخطة على البحث بشكل ملائم، فإنّ بإمكانها أن تكون طريقة فعالة جداً للجمع بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية على نحوٍ كليّ متكامل -أي على نحوٍ يُعبر عن الأبعاد المختلفة لهذا البحث. مثال ذلك، أنه قد يقوم باحث بإجراء بحثٍ مسحي على مجموعتين من الطالبات الجامعيات من البيض والسود من أجل التعمق في دراسة الفروق في إدراكاتهن لصورة الجسد عندهن وفي الاضطرابات النفسية والجسدية المتعلقة بهذه الصورة. فمن شأن هذه البيانات أن تشير إلى أن الفتيات السود لهن صورٌ عن الجسد أكثر إيجابية كما أنهن

أقل تعرضا للإصابة باضطرابات جسمية، ومع ذلك، فإن هذا المسح لن يساعدنا على فهم لماذا يكون الأمر كذلك. ولكن بالقيام بمتابعة المبحوثات عن طريق إجراء مقابلات جماعات مناقشة كيفية، يكون بالإمكان شرح وإيضاح ما ورد في إجاباتهن المُغلقة من أنماط مضطردة ومظاهر للشذوذ والخروج عن القياس، مما يضيف إلى تلك البيانات الإحصائية بيانات وصفية حيَّة وتفسيرية لها. معنى هذا أن هذين الشكلين من البيانات "يتحدثان إلى بعضهما" (أي يتحاوران ويتعاونان) عند عرضهما معاً، وهو الأمر الحاسم الذي لابد منه في الممارسة البحثية ذات الطابع الكلي.

والأسلوب الأخير في الجمع بين طريقة جماعات المناقشة المركزة وطريقة البحث المسحي أن تستخدم جماعات المناقشة بوصفها طريقة البحث الرئيسية، وتُستعمل المسوح بنفس نهج المتابعة الذي بينّاه فيما سبق. وإن الأمر الذي يروق لنا في هذه الخطة الأقل شيوعاً هو أن البيانات الكيفية تعد هي الشكل الرئيسي للبيانات – وهو أمر نادر الوقوع – ولكنه عندما يحدث فإنه يمثل تغيراً مهمًا في التفكير في العلاقة بين البيانات الكيفية والبيانات الكمية. وقد يختار أحد الباحثين هذا النوع من الخطط عندما يريد أن يرى مدى انتشار اتجاهات مُعينة، أو سلوكيات، أو خبرات، أو موضوعات أساسية معينة. وقد يكون هذا النوع من الخطط جُزءًا من المشروع البحثي سبق التخطيط له قبل الشروع فيه، أو ربما يقرر الباحث أن يعود ويحاول الحصول على البيانات المسحية من المبحوثين بعد إجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة لأنه يريد الشرح والإيضاح، أو لأن بعض المسائل الخلافية تظهر بصورة غير متوقعة من داخل البيانات الموجودة في سجلات المقابلات. وعندما يعرض أحد الباحثين نتائج بحثه المستمدة من هذا النوع من المشروعات البحثية فقد تُستعمل البيانات الكمية –في الواقع– كوسيلة إرشادية تساعد على كشف الحقائق. وهذا معناه أن يتم عرض هذه البيانات الكمية كوسيلة لتسليط الضوء على الموضوعات الأساسية المتضمنة في البيانات الكيفية. ومع ظهور البرامج الكومبيوترية لتحليل البيانات الكيفية (وهي البرامج التي نناقشها لاحقا في الفصل الخاص بالتحليل والعرض) توفرت لنا

طرق أخرى لتحقيق نفس الهدف. وعلى ذلك فإن نُدرة استعمال منهجية البحث هذه قد لا تعكس القضايا الإبستمولوجية فقط، بل قد تكون مرتبطةً كذلك بوفرة الأساليب الأخرى لعرض البيانات الكيفية بجانب البيانات الكمية المماثلة الإضافية المعززة لها.

تصميمات البحوث الكيفية المتعددة الطرق

يمكن أن تُستخدم مقابلات جماعات المناقشة المركزة في تصميمات البحوث المتعددة الطرق إلى جانب طرق البحث الكيفية الأخرى. وتتعامل صُور التوليفات الممكن تكوينها من الجمع بين طرق البحث مع كافة الطرق الكيفية المتاحة. وسوف نناقش هنا موضوع المزج بين جماعات المناقشة المركزة والمقابلات المتعمقة، لأن هذا المزج هو أشد أنواع الجمع نمطيةً ووضوحاً (ومع ذلك نَحثُّكَ على إمعان النظر في التوليفات الخلاّقة الأخرى التي تتناسب مع ما يقضي به مشروعك البحثي). وبالنسبة للباحثين الذين يطرحون أسئلة ذات التزام كيفي يمكن توجيهها من خلال طرق البحث القائمة على المقابلة؛ بالنسبة لهؤلاء الباحثين تكون الفوائد المستمدة من الجمع بين جماعات المناقشة المركزة والمقابلات الفردية فوائد جمة وفيرة. وتوجد في مجال تصميم المشروعات البحثية إستراتيجيتان رئيسيتان هما:

(١) الأولى: وفيها تُستعمل جماعات المناقشة المركزة كشكل من أشكال متابعة المقابلات المتعمقة،

و(٢) الثانية: وفيها تُستعمل المقابلات الفردية كشكل من أشكال متابعة المقابلات التي تُجرى مع الجماعات.

وفي كِلتا الحالتين يكون من المهم أن ننظر إلى كل طريقة باعتبارها مرحلة داخل المشروع الكامل. وإذا فهمت هذه العملية بهذا الأسلوب الشامل يُمكن للبيانات الكيفية المُستمدة من إحدى هاتين الإستراتيجيتين أن تفيد كذلك عمليات جمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها.

وقد يصمم أحد الباحثين الكيفيين دراسةً ما مستعملاً هاتين الطريقتين لأن سؤال البحث يتطلب كلاً من التوسع والتعمُق (مورجان ١٩٩٦، ص١٣٤). فالمقابلات المتعمقة توفر عُمقاً أكبر مستمداً من إجابات المبحوثين

كل على حدة، بينما يكون بإمكان جماعات المناقشة المركزة أن تُعطي الباحثين مدى أوسع من الإجابات في فترة زمنية أقصر. ومع ذلك، فإننا نُحذرك من أن تأخذ هذه الأفكار كأحكامٍ عامة، وذلك لأن بإمكان مقابلات جماعات المناقشة المركزة أن تكون هي الأخرى غزيرة النتائج إلى حدٍ بعيد، وذلك كما رأينا في الأمثلة الواردة في هذا الفصل. وإن من الأمور المناسبة أن تُتبع المقابلات المتعمقة بمقابلات جماعات المناقشة المركزة لتتحقق من صحة بيانات المقابلات الفردية، ولتفحص مدى اختلاف الإجابات الفردية الموجودة داخل بيئة جماعةٍ معينة، ولتُعرِّض الأفراد المبحوثين لدينامية الجماعة كوسيلة لتعليمهم أو لتمكينهم، ولتدرج في مشروعك مجموعاتٍ بحثية أكبر قد لا يكون متيسراً إجراء مقابلات متعمقة مع كل فرد من أفرادها.

وثمة استراتيجية أوسع انتشارا في تصميم البحوث تستعمل جماعات المناقشة المركزة بوصفها طريقة البحث الأساسية ثم تستخدم المقابلات المكثفة كأداة لمتابعة بعض أو كل الإجابات التي وردت في مقابلات جماعات المناقشة. وتتيح منهجية البحث هذه للباحثين أن يتحصلوا على البيانات الجماعية الأولية التي توفِّر سردية جماعية شاملة، وأن يبحثوا بعد ذلك عن المزيد من البيانات المتعلقة بعناصر مُحدَّدة من عناصر تلك السردية. ويُتيح هذا التصميم للمبحوثين أن يتقاسموا خبراتهم في هذا الوسط الجماعي ثم يُتاح الوقت لكل فرد منهم لكي يتوسع في شرح خبراتهِ الشخصية، واتجاهاته ومعتقداته، بما في ذلك من ذِكرٍ لأي تأثيرٍ وقع عليه من جماعة المناقشة المركزة. يُضاف إلى ذلك أنه رغم أن مقابلة جماعات المناقشة تكون -بحكم التعريف- "مُركَّزة" على موضوع بعينهِ، فإن من المحتمل أن ترد في أثناء هذا الحوار مسائل خلافية أخرى كثيرة. وبقيام الباحث باتباع هذه المقابلات بمقابلاتٍ مكثفة، فإنه يكون قادراً على الرجوع والحصول على المزيد من البيانات، إذ يحتاجها لكي يجيب بشكل أفضلَ على سؤال البحث. وهذه هي الاستراتيجية التي استعملناها في دراستنا عن الفتيات السود وصورة الجسد. وقد قامت الباحثة الرئيسية بإجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة، وهي المقابلات التي وفرت اتساعاً وعمقاً للبيانات. ثم قامت بعد ذلك بإجراء

مقابلات متعمقة مع من رغبت من المبحوثات في جماعات المناقشة المركــزة في مواصلة الاشتراك في هذا البحث. وقد أتاح لها هذا الإجراء أن تستكــشف منظورات معينة وموضوعات أساسية معينة بدرجة أشد عُمقاً. ومع ذلك، فإن هذه المقابلات المتعمقة قد تأثرت –بقوة– بالبيانات التي سبق تجميعهــا أثنــاء المقابلات الأساسية لجماعات المناقشة. وهكذا تفاعلت هاتان الطريقتــان مــن أجل إنتاج بيانات أكثر ثراءً.

ويتوقف استعمالُ مشروعكَ لجماعات المناقشة المركزة كجــزءٍ مــن تصميم بحثي متعدد الطرق، أو استخدامها لجماعات المناقشة المركزة كــشكل مستقل بذاته؛ يتوقف ذلك بالكلية على أهداف بحثك وعلــى القيــود الماديــة الحاكمة عليه. وقد زودناك ببعض الأمثلة القياسية للطريقة التي قد تتخيَّل بهــا خُطةَ بحثٍ متعددة الطرق، ومع ذلك، فإن هذه الأمثلة إنما هي مُجَرد نمــاذج. ذلك أنه توجد تشكيلة من أساليب استخدام جماعات المناقشة المركــزة، وهــو الأمر الذي يُعد من مظاهر الجاذبية في هذه الطريقة. وبجانب تحديــد طــرق البحث التي ستُطبَّق، يوجد عدد كبير من الاختيارات التي يتوجــب المفاضــلة بينها عند استخدام جماعات المناقشة المركزة.

المعاينة (اختيار العينات) والتقنين

يصف مورجان عمليتي المعاينة (اختيار العينات) والتقنين بوصــفهما عنصرين من العناصر المهمة لتصميم جماعات المناقشة المركــزة (١٩٩٦، ص١٤٢). وتطرحُ عملية المعاينة (اختيار العينات) السؤال التالي:

- من هم الأفراد الذين يكونون جماعة نقاشك المركزة؟

يرتبط هذا السؤال ارتباطاً وثيقاً بهدف بحثك –أي مَنْ هم أفراد مجتمع البحث الذين تهتم بأن تكون على علمٍ بهم. ومع ذلك، فقد تؤثر وقائع أخــرى –لا سيطرة لك عليها– في اختيــار مبحوثيــك. مثــال ذلــك، أن تحديــد أيِّ الجماعات التي يمكنك أن تصل إليها، وموقعك الجغرافــي، وحــدود الوقــت المتاح لك؛ كل هذه الأمور يُؤثر على عملية ضم الأعــضاء إلــى جماعــات المناقشة وعلى اختيار العينات. وتُعد عملية ضم الأعضاء عملية مهمة لضمان استيفاء متطلبات خُطة بحثك. يقول مورجان (١٩٩٥) تتعلــق عمليــة ضــم

الأعضاء بالحصول على أفراد مشاركين (مبحوثين)، و تتعلق عملية اختيـار العينات بالوصول إلى المبحوثين "المناسبين"(ص٥١٩). وهو يذكر بالتحديد أن التهاون بشأن عملية ضم المبحوثين يعد المصدر الأهم للإخفاق فـي تطبيـق طريقة جماعة المناقشة المركزة (ص٥١٧). وبينما يؤكد اتجاهُنا الكلـي فـي عملية البحث على الصلات المتبادلة بين جميع مراحل المشروع البحثي، فـإن من الواضح كذلك أن إجراءات ضم الأعضاء وتكوين الجماعات تكـون ذات أهمية حاسمة في تحقيق النجاح. ويطـرح مورجـان (١٩٩٥) اسـتراتيجيات عديدة للتفادي المُسبق للوقوع في المآزق المحتملة لعمليـة ضـم الأعـضاء، وتتمثل هذه الاستراتيجيات في: قيام الباحث بضم أعضاء كثيرين، وبإرسـال خطابات لهؤلاء الأعضاء لتذكيرهم بمواعيد المقابلات، وبتوفير الحوافز لهـم (كإعطائهم شيئاً من المالِ مثلاً). فإذا تحركت خارج نطاق هذه الحقائق البنائية والتقنيات الخاصة بضم المبحوثين، فإنه ينبغي عليك أن تحاول تكوين عينـات تتألف من الأفراد الذين يمكنهم أن يقوموا – على أفضل الوجوه –بإلقاء الضوء على موضوع بحثك من خلال أفكارهم الشخصية وخبراتهم الحياتية.

من القرارات الرئيسية التي يواجهها الباحثون قرار تحديد ما إذا كانت جماعات النقاش ستكون **متباينة** في تكوينها أم **متجانسة**. وتتكون الجماعـات المتباينة التكوين من مبحوثين غير متشابهين. ومـع أن هـذه الأنـواع مـن الجماعات ليست شائعة نسبياً في البحوث الجامعية، إلا أن هـذه الجماعـات تكون مناسبة عندما يحتاج الباحث إلى تشكيلة من الإجابات المتنوعة وعنـدما يكون راغباً في التضحية بشيء من زيادة الفهم المتعمّق للكيفية التـي يتبعهـا قطاع معين من هذه الجماعات في معايشة الموضوع محل الدراسـة. مثـال ذلك، لنفترض أننا مهتمون بالكيفية التي يفكر بها أنواع مختلفـة كثيـرة مـن الناس في الصورة المثالية لجسد الأنثى التـي تعرضـها وسـائل الاتـصال الجماهيرية. فمن شأن جماعات المناقشة المتباينة التكوين أن تتحدث بصراحة في هذا النوع من الموضوعات البحثية. وتكون مثل هذه الجماعات متنوعة من حيث النوع الاجتماعي، والعرق، والتوجُّه الجنسي، والطبقة الاجتماعية، وربما من حيث العُمر أيضاً. لذلك فإن البيانات الناتجة لن تُمدنا بفهـمٍ عميـق لهـذا

النمط المثالي للجسد الأنثوي الذي تعرضه وسائل الاتصال الجماهيرية، ومع ذلك، فإن من شأن هذه البيانات أن تُمدنا برؤيةٍ ثاقبةٍ لمختلف أنواع التصورات والاتجاهات السائدة في ذلك المجتمع بوجهٍ عام. وسوف تكون أمثال تلك البيانات، والتي قد تكون مجرد مرحلة تمهيدية لجمع البيانات، سوف تكون ذات قيمة كبيرة في التفكير الشامل في البحث المستقبلي، المزمع إجراؤه، كما قد تُوحي بتطوير الأسئلة الخاصة بجماعات المناقشة المركزة التي قد تُشكل فيما بعد، أو غيرها من أشكال جمع البيانات، والتي تتراوح بين المقابلات المتعمقة والمسوح الاجتماعية الكمية.

يُفضّل الباحثون الكيفيون – بوجهٍ عام – اختيار جماعات المناقشة المركزة المتجانسة. وهى جماعات يتشابه أعضاؤها مع بعضهم البعض. وبناءً على سؤال البحث، قد يكون من المهم أن ينتمى جميع أعضاء الجماعة إلى نفس الجنس، أو العرق، أو التوجه الجنسى، أو الطبقة الاجتماعية، أو السن، أو الوظيفة، أو المستوى التعليمى، أو الحالة الصحية، أو فى خبرة حياتية معينة، أو فى توليفة ما من الاعتبارات المذكورة. وتكون الجماعات المتجانسة ملائمة عندما يحتاج الباحث للتوصل إلى فهمٍ عميقٍ للكيفية التي يشْعُر بها أعضاء جماعةٍ معينة بقضية معينة أو كيفية تفكيرهم فيها. مثال ذلك، أنه عندما كُنا بصدد دراسة الأساليب الفريدة لشعور المثليين الذكور بصورة الجسد، كان من المهم أن نستعمل الجماعات المتجانسة المكونة من أعضاء من المثليين الذكور – وهذا بلا ريب أمر جليٌّ تماما. وفي هذه الحالة لم نكن نشعر في مرحلة البحث الاستطلاعي بأن العرق الذي ينتمي إليه المبحوثون أمر ذو أهمية محورية، ولذلك كان المشاركون في بحثنا (الاستطلاعي) غير متشابهين عرقيا مع بعضهم البعض. وتتمتع الجماعات المتجانسة بميزةٍ مهمة ذاتية وأصيلة فيها تتمثل في أن هذه الجماعات تساعد بصورة نموذجية في توفير مستوى من الراحة النفسية داخل الجماعة يُعزز انسياب الحوار بين الباحث وأعضاء الجماعة وبين هؤلاء الأعضاء وبعضهم البعض. ذلك أن الأفراد يميليون للشعور بمزيدٍ من الراحة النفسية عند الكلام داخل جماعةٍ ما عندما تجمعهم أمور مشتركةٌ مع بقية الأعضاء من أول لحظةٍ يبدأون فيها الكلام.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً وأهمية في حالة مناقشة الموضوعات الحساسة كالحياة الجنسية مثلا، أو الاضطراب الجسدي، أو العنف، أو الاكتئاب، أو الإدمان، أو التعصب العنصري، وما إلى ذلك. وحيث إن دينامية الجماعة تُعد مُتممة لتطور عملية السرد، فإن ميزة تجانس الجماعة تكتسي أهمية لها دلالتها.

يُضاف إلى ذلك أن تركيبة الجماعة قد تؤثر في تحديد مَن هم الذين سيكونون أكثر أو أقل احتمالاً لأن يعبروا عن أنفسهم تعبيرا كاملاً. ويحدث هذا الأمر بطرق قابلة للتنبؤ بها إلى حد معقول. فأصوات الأقليات تميل لأن "تُكتَم" داخل جماعات تسيطر عليها الأكثرية (كيتزنجر، ١٩٩٤، ص١١٠). وتُنتج هذه العملية معرفة تحظى بأفضلية ناجمة عن موقع السيطرة. ويمكن القول – بعبارة أخرى – إن علاقات القوة المجتمعية المتفاوتة بسبب العِرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي، والتوجه الجنسي قد يتم تكرارها في جماعات المناقشة التي تضمُ أعضاء ذوي مكانات اجتماعية مختلفة. وهذا سبب آخر يفسر ميل بعض الباحثين إلى اختيار تجانس أفراد جماعة المناقشة المركزة، خاصةً منهم الباحثين النسويين وغيرهم من الباحثين الملتزمين بالوصول إلى أصوات الجماعات المهمشة التي من المعهود كتمانها داخل ثقافتنا.

إن من صُور تصميم المشروعات البحثية الصورة شائعة الاستعمال التي تُعظِّم مقدار المنافع المستفادة من تجانس أعضاء الجماعة في نفس الوقت الذي تُتيح فيه الفرصة للمقارنة بين الجماعات، والتي تسمى **التقسيم (إلى مجموعات فرعية Segmentation)**. ويحدث ذلك عندما تتكون كل جماعة من أعضاء متشابهين، إلا أن المجموعات المختلفة داخل الدراسة ككل تكون مختلفة عن بعضها البعض. معنى ذلك – بعبارة أخرى – أن التقسيم أسلوب لتصنيف أفراد مجتمع البحث بناءً على بعض السمات المعينة التي تريد (أيها الباحث) أن تستكشف الفروق الموجودة بينها في تلك السمات. وبالرجوع إلى الدراسة المفترضة عن تصورات الناس لما تنقله وسائل الاتصال من صورة مثالية لجسد الأنثى، لنفترض أننا كنا نريد أن نتمكن من المقارنة بين طريقة الرجال وطريقة النساء في التفكير في هذه القضية. هنا يكون بإمكاننا أن نكوّن

مجموعتين من النساء فقط ومجموعتين من الرجال فقط. ومن الممكن أن تكون هذه الدراسة أكثر تعقيداً لو كنا مهتمين بمسألة النوع الاجتماعي ومسألة الاختلافات العرقية. فقد تدلنا مراجعتنا للتراث المنشور حول الموضوع إلى أن اعتبار العرق – مثلا – يؤثر على تبني المجموعات النسائية (المشتركة في البحث) لهذه الصورة المثالية التي تنقلها وسائل الاتصال. وقد نقوم بعد ذلك بتكوين مجموعتين من كل من التركيبات التالية: الرجال البيض، والرجال السود، والنساء البيض، والنساء السود. وبناءً على ما إذا كنّا نتصور أن الطبقة الاجتماعية والسّن اعتباران وثيقا الصلة بموضوع البحث من عدمه، فإن بإمكاننا أن نفتش عن تأثير هذين العاملين عن طريق تكوين مجموعات يتشابه أعضاؤها مع بعضهم في هذين البعدين.

وإن عُنصراً كبيراً من عناصر الجاذبية في طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) ليتمثل في أنها توجِد نوعاً من **البُعد المقارن** في هذا البحث (مورجان ١٩٩٦، ص١٤٣). ومن شأن دراستنا لصورة الجسد عند المثليين من الذكور أن تقدم مستوىً آخر من المعرفة لو أننا أجرينا مقابلات جماعات مناقشة مركزة مع غيرهم من الذكور الطبيعيين. ذلك أن البُعد الذي يتصف به هذا البحث سوف يُزودنا بفهم أشمل للصلة القائمة بين صورة الجسد والهوية الجنسية (أو الميول الجنسية)، وأن يتيح لنا عقد مقارنات قوية. وبقدر ما تتصف به طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) في تصميم مشروعات البحث من إثارة، فإنها تتسبب كذلك في بذل جهد إضافيّ (حيث من المعهود في هذه الحالة أن يزداد عدد المجموعات ويزداد حجم تحليل البيانات ذات الطبيعة المركبة). ومن ثم يُصبح عامل الوقت وغيرُه من القيود المادية الأخرى حاسما في التأثير على جدوى هذا القرار. ذلك أن القرارات الخاصة باختيار العينات تؤثر على كلٍ من العدد الكلي للجماعات وعلى حجم كل جماعة منها. ومن الناحية المثالية ينبغي أن تتخذ القرارات الخاصة باختيار العينات في ضوء الهدف الذي يتوخاه البحث.

إن درجة استعمال **أسلوب تقنين** معين تُعد هي الأخرى قضية في غاية الأهمية عند تطوير بحث قائم على طريقة جماعة المناقشة المركزة. ذلك

أن التقنين يشير إلى "مدى استعمال نفس الأسئلة والإجراءات في كل جماعة" (مورجان، ١٩٩٦، ص١٤٢). وينبغي أن تقوم درجة المعايرة على نوع من التناسب المنطقي مع سؤال البحث. ويقوم باحثو السوق عادة بتعظيم الاستفادة من عملية التقنين نظراً لنوع المعلومات التي يبحثون عنها – فهم يريدون أن تظل كل جماعة على نفس المستوى الموحد، وأن تجيب على الأسئلة التي سبق صياغتُها. وتتمثل الميزة الرئيسية للتقنين – والتي تُعدُّ كذلك ميزة جذابة في نظر الباحثين الأكاديميين – في أنها تتيح للباحثين أن يعقدوا مقارنات "صحيحة" يُعتد بها بين كافة الجماعات التي تتناولها الدراسة. وتبدو هذه الميزة أوضح ما تكون عند التعامل مع العينات المقسمة التي تتسم بمبدأ القابلية للمقارنة كجزء من هدف البحث.

وبالعودة للتفكير في المثال الخاص بدراستنا عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور، رأينا كيف أن تطبيق طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) على إجراءاتنا الخاصة باختيار العينات من شأنه أن يضيف أبعاداً أخرى إلى بياناتنا. إذ يتيح لنا مثل هذا التصميم -خاصة- أن نُلقي ضوءاً على العلاقة بين الهوية الجنسية وصورة الجسد داخل جماعات المبحوثين من الذكور. ومن شأن ظهور أي اختلافات نمطية بين مجموعات المثليين من جهة ومجموعات الذكور الطبيعيين من جهة أخرى، أن تشكل إسهامات مهمة جداً في معرفتنا عن الهوية الجنسية وصورة الجسد عند الذكور. ومع ذلك، فإن وضوح الرؤية فيما يتصل بما بين مجموعتينا هاتين من الفروق، والقائمة على التوجه الجنسي وحده، يتطلب درجة عالية من القابلية للمقارنة بين مجموعة الطبيعيين ومجموعة المثليين. وبتعبير آخر نقول، إنه لكي نربط الفروق الموجودة بين هاتين المجموعتين بالتوجه الجنسي لأعضاء الجماعة – وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة للطريقة التي اتبعناها في صياغة هدف بحثنا – يتوجب أن تكون هاتان المجموعتان متماثلتين في كافة الاعتبارات الأخرى كما يتوجب أن تكون هاتان المجموعتان قد أُجريت معهما مُقابلات لها درجة عالية من القابلية للمقارنة. وقد يُشير الباحث ذو النزعة الكمية إلى هذا الأسلوب بوصفه نوعاً من الضبط الهادف للجمع بين المتغيرات، وهو ما يُمكن

– كذلك– تصوُرُهُ باعتبارِهِ أسلوباً يختزل الظروف المحيطة ويخفف من تأثيرها إلى أدنى حد. ورغم وجود المزايا الممكنة الناجمة عن التقنين الصارم، وبالذات حين تكون المقارنة بين الجماعات جُزءً من هدف البحث، فإنه يوجد كذلك قدر كبير من المزايا عند تطبيق **الأساليب البحثية المفتوحة** والأساليب القائمة على أساس **النظرية الموثقة** على مقابلة الجماعات، وهو الأمر الذي يترتب عليه إيثار التخفف من بعض الصرامة الموجودة في عملية التقنين.

فعلى حين يقوم التقنين بتعزيز القابلية للمقارنة، تتيح تصميمات البحث ذات الأسلوب المفتوح للمبحوثين مزيداً من الحرية في التحدث عن خبراتهم الخاصة ولاستعمال لغتهم الخاصة بأساليب لها مدلولها عندهم. وبالمثل، تتيح تصميمات الأسلوب المفتوح لدينامية الجماعة أن تتدفق، مُنتجة بذلك سردية فريدة لا تكمُن قوتها في المفاهيم التقليدية للقابلية للتعميم. ذلك أن الأساليب الأقل تقنينا تتيح للبيانات أن تنبثق من داخل التفاعل بين أعضاء الجماعة. زد على ذلك، أن الاتجاه القائم على تطبيق المزيد من قاعدة "تَعَلّمْ وأنتَ ماض في بحثك" "learn as-you-go" يُتيح للباحث أن يُطبق ما تعلّمه في مجموعةٍ ما علىِ المجموعة التالية. ومن ثمّ، فإن أيّ خطأٍ أو إغفال (بند من البنود) يقع في دليل المقابلة لن يؤثر على أي مجموعة تتناولها الدراسة. ويُعد ما تتمتع به الأساليب البحثية المفتوحة من جاذبية واسعة الانتشار؛ يُعد متطابقا من عدة وجوه مع الجاذبية التي يحظى بها البحث الكيفي على نطاق أوسع.

يهتم الباحثون الكيفيون بفهم الحياة الاجتماعية فهماً ينطلق من وجهة نظر هؤلاء الذين يعيشون تلك الحياة. وتُتيح مقابلات جماعات المناقشة المركزة – التي تتم داخل إطار تصميم مفتوح– للأفراد المشاركين أن يساعدوا في تشكيل الموضوع بأساليب لها مدلولها ومعناها عندهم. ذلك أن شُركاء البحث هؤلاء (المبحوثون) يتحولون إلى "مؤلفين مشاركين" للقصة المتولدة من هذا البحث. ويكون لدى الباحثين الفرصة للسماح للمفاهيم والموضوعات الأساسية المهمة أن تنبثق انبثاقاً مباشراً من موقف المقابلة. ويكون بوسعهم أن يستعملوا ما تعلّموه من إحدى المجموعات في دراسة المجموعات اللاحقة لها.

ذلك أن أيا من النظريات التي يصوغها الباحث فيما يتعلق بما تعده هذه الجماعة مهمًا في نظرها، إنما تتطور بصورة استقرائية من خلال جمع البيانات، ولا يقتصر أمر صياغتها على الباحث وحده، كما نجدها منعكسة بصورة واضحة من خلال دليل بحث مُحكم يمكن الانتفاع به بعد ذلك في إنتاج بيانات يترجّح أن تُعزز ما سبق تبنيه من نظريات.

وكثيرا ما يكون هذا الأسلوب في التفكير في العملية البحثية مغريا -على وجه الخصوص- للعلماء النسويين والعلماء الآخذين بمفهوم التعددية الثقافية وغيرهم من العلماء ذوي الدوافع السياسية الملتزمين بالوصول إلى الأصوات المقهورة، وذلك على نحو ما يبدو في دراستنا لصورة الجسد عند الفتيات السود. فقد أُجريت تلك المقابلات في إطار تصميم مفتوح من شأنه أن يتيح للمبحوثين فرصة المساعدة فى تشكيل النقاش باستعمال أساليب يعُدُّونها مهمة وذات مغزى في نظرِهم. زد على ذلك، أن تطبيق أسلوب بحثيٍّ قائم على النظرية الموثقة على كلٍ من عملية جمع البيانات وعملية تحليل البيانات أتاح للموضوعات الأساسية أن تنبثق بصورةٍ مباشرة من كلام هؤلاء الفتيات، إذ كُنَّ يَعتَمدن اعتماداً مباشراً على أفكارهن، ولُغتهنَّ وأساليبهن الشخصية في فهم سلوكياتهن واتجاهاتهن الخاصة. وقد كُنَّا نعمل - كذلك - في الدراسة المذكورة انطلاقاً من وجهة نظر نسوية، كما كُنا ملتزمين - وفقا لوجهة النظر هذه- بخلق المعرفة **بالتعاون** مع شريكات البحث (المبحوثات) **ومن أجلهن.**

وتوجد كذلك أساليب لوضع تصميم بحثك اعتمادا على اتجاهات بحثية تتفاوت في درجة تقنينها. ويُبين مورجان (١٩٩٣، ١٩٩٦) نوعين من التصميمات البحثية المختلطة. يتمثل أحد هذين الاختيارين في تطبيق "نموذج القمع" (١٩٩٦، ص١٤٣). وفي هذه الحالة تبدأ كل مقابلة لجماعة مناقشة مركزة بمستوىً عالٍ من التقنين (فتبدأ كل الجماعات بمجموعة محددة من الأسئلة). ثم يتم بعد ذلك تخفيف درجة الضبط المتبع مع هذه الجماعة بحيث يُتاح للموضوعات التالية فرصة أن تتولد بصورة طبيعية من واقع ما يتحدث به الأفراد تلقائيا (١٩٩٦، ص١٤٣). ويتمثل الاتجاه الثانى فى الانتفاع بهذه الجماعات الأولى ضمن الدراسة بوصفها مجموعات استطلاعية أي للاسترشاد

بما تولد من أفكار أثناء العمل معها، وذلك بتطبيق مستوى منخفض من التقنين في هذه الحالة (١٩٩٦، ص١٤٣). وتُستعمل البيانات التي تم جمعُها حينئذٍ في دليل بحثٍ ذي مُستوى عالٍ من التقنين لاستعماله مع الجماعات اللاحقة. ويُعتبر هذا النوع من التصميمات البحثية مشابها جداً لاستعمال جماعات المناقشة المركزة كوسيلة لتطوير البحث المسحي تتناسب في لغتها وأفكارها مع مجتمع البحث المستهدف.

دور الباحث في جماعات المناقشة المركزة: وسيط الحوار

للباحث في مقابلات جماعات المناقشة المركزة دور فائق الخصوصية وشديد الأهمية يختلف عن دور الباحث/ أو المُنصِت الذي يضطلع به الباحث في موقف المقابلة المتعمقة. ففي سياق جماعة المناقشة المركزة يقوم الباحث بدور **وسيط الحوار**. ويؤثر هذا الوسيط تأثيراً عظيماً في تدفق الحوار، ومن ثمَّ يؤثر في دينامية الجماعة وفي نهج السردية الجماعية. وقد تختلف أساليب الوساطة اختلافاً عظيماً جداً، وهو الأمر الذي يُعَد واحداً من مظاهر الجاذبية العامة التي تتصف بها طريقة جماعات المناقشة المركزة. وإنَّ بالإمكان تخطيط هذه الأساليب بطُرقٍ كثيرة من أجل الوفاء بالمتطلبات التي يقتضيها هدفٌ بحثي مُعين. ونلاحظ في الواقع –وعلى النقيض من التصورات الشائعة– أن جُزءًا من الدور المهم للوساطة يُنفذ فعلاً قبل أن تتلاقى جماعات المناقشة المركزة (مورجان، ٢٠٠٢).

ويلاحظ أن عملية اختيار الأفراد المشاركين (المبحوثين) لا يرتبط فقط باختيار العينات، بل يرتبط كذلك بعملية إدارة الحوار. ويَرجع ذلك إلى أن تبني أسلوب حر في المقابلة، يُتَاحُ فيه للمبحوثين أن يتكلموا على سجيتهم، لن يتسنى أن يكون اختيارا متاحا لتصميم البحث إلا إذا كان الأفراد المشاركون سيتحدثون باستفاضة. وبتعبيرٍ آخر نقول، إن المستويات المنخفضة من التدخل في إدارة الحوار والتحكم الذي يمارسه الباحث لا يمكن أن توجد إلا في الجماعات التي يتبادل أعضاؤها الحديث مع بعضهم البعض بحرية. لذلك، فإن كُنتَ تتوقع استعمالك لاتجاهٍ أقل تحكمًا وضبطاً في إدارة الحوار (وهو الموضوع الذي سوف نناقشه بالتفصيل قريباً)، إذن فإن من الأمور الحيوية

اختيار الأفراد المشاركين (المبحوثين) الذين يكونون مهتمين اهتماماً شديداً بموضوع البحث (مورجان، ٢٠٠٢، ص١٤٩). ومن الأمور المعهودة – وهو ما يتعين علينا جميعاً أن نواجهه- أننا كباحثين نكون بصفة عامة أكثر اهتماماً بمشروعنا البحثي من أي شخص آخر يمكن أن يَهتم بـه. وإذا اتفقنا على ذلك، فإن بمقدورنا أن نقطع شوطاً بعيداً في مجال خَلق تشكيلة متنوعة من الاختيارات الممكنة لتصميم البحث عن طريق اختيار الأفراد الذين يكونون هُم الآخرون مهتمين اهتماماً شخصياً بالموضوع الذي ندرسه.

ويُعد دليل المقابلة عُنصراً حاسماً آخر لنجاح جماعة المناقشة المركزة. ويستطيع دليل المقابلة – تبعا لأهداف البحث العامة ولتصميم البحث – أن يحوي صياغةً تفصيلية جداً في صورة قائمة تضمُم الموضوعات الرئيسية والفئات الفرعية للأسئلة المحدَّدة. في حين نصادف دليلاً آخر للمقابلة أقلَّ صرامة، وذلك إذا كان يَضمُّ فئة من الموضوعات العامة و/أو بعض الأسئلة المفتوحة. وتُعد الأسئلة المناسبة –وأعني بها الأسئلة المُصمَّمة لاستخراج نوع البيانات التي يسعى وراءها الباحث، تُعد أمراً جوهريا لنجاح جماعة المناقشة المركزة. وتبعا لذلك يقترح مورجان إجراء اختبارٍ قَبْلي للأسئلة (١٩٩٥، ص٥٢٠). وبإمكانك أن تُجري اختباراً قَبْليا للأسئلة باستعمالك للمقابلات الفردية أو الجماعية وفقا لما هو متاح لك من الوقت والموارد التي تستطيع تدبيرها لتحري صدق دليل المقابلة.

ربما يكون السؤال الافتتاحي أهم جُزء في دليل المقابلة، لأنه يساعد على تحديد الطابع العام للمقابلة بأكملها. فالسؤال الافتتاحي الجيد والمناسب يُحفز الأفراد المشاركين (المبحوثين) على الكلام، كما أنه يقودهم – في الظروف المثالية للمقابلة- إلى الدخول في اتجاهات أخرى تهمك وسبق لك أن فكرتَ فيها. وبتعبير آخر نقول، إن السؤال المكتوب بطريقة جيدة (وبالذات السؤال الافتتاحي، مع أن هذا الحُكم يصدُق كذلك على سائر الأسئلة التي ترد في خُطة بحثٍ ذات نهاية مفتوحة) لن يقتصر على قَدْح زناد المناقشة، بل سيوحي كذلك بالاتجاهات التي يتواصل فيها الحوار الجماعي. وعندما يحدث ذلك فقد يحصل الباحث على إجابات لكثير من أسئلة المقابلة بدون أن يحتاج

إلى طرحها أصلا. وسوف نتحدث عن هذا الموضوع بقدرٍ أكبر عندما نناقش مسألة مستوى اشتراك الوسيط الذي يدير الحوار، ولكن بالنسبة للوقت الراهن يهمنا الإشارة إلى أهمية السؤال الافتتاحي. ومع ذلك، قد تبدأ مقابلـــة جماعـــة المناقشة المركزة، ويبدأ بذلك دليل هذه المقابلة، بشيء آخر غير توجيه سؤال. وهذه إمكانية أخرى يتعين على الباحث أن يُدخلها في اعتباره قبل التقائه بهذه الجماعة.

وتقترح كيتزنجر (١٩٩٤) بَدء لقاء الجماعات بنـــوع مـــن التمـــارين كلعبة أوراق ملونة أو صورة أو بطاقات العبارات الموجزة(*). إذ أن مثل هذا النشاط يقوم بدورين معاً: فيكون بمثابة "نقطة مرجعية خارجية مُشتركة" كمـــا يكون بمثابة "لعبة جماعية" تعمل على تسخين الأفراد المشاركين و "تشيع دفئا في الجو"، كما تساعد على جعلهم يشعرون بالراحة النفسيَّة لوجودهم في هـــذه الجماعة (ص١٠٧). وقد استعملت كيتزنجر أنواعاً مختلفة من ألعاب الـــورق التي جرت العادة على أن تضم أفرادا مـــشاركين يجمعـــون الأوراق ســـابقة الإعداد في أكوام. وكانت هذه البطاقات تحمل صوراً، أو إعلانات، أو مكتوبٌ فيها آراء، أو حكايات عن أحداثٍ أو أفرادٍ، إلى آخر ذلك. ثم يقـــوم الأفـــراد المشاركون بوضع البطاقات في مجموعاتٍ على أساس مَدى توافقها أو عـــدم توافقها مع الموضوع الذي يتحدث عنه الباحث (ص١٠٧). مثال ذلك أنه قـــد تُقدَّم للمشاركين إعلاناتٌ ويُطلَبُ منهم أن يضعوها فـــي أكـــوام بنـــاءً علـــى اعتباراتٍ ما، كمدى كون الإعلان "مؤثرا" أو "نابياً" في نظـــرهم (ص١٠٧). ويمكن لهذا النوع من الألعاب خاصةً أن يكون مُجديا عندما تكـــون جماعـــة المناقشة المركزة مهتمة بموضوع عسير أو شائك. وقد وجدت كيتزنجـــر أن لعبة البطاقات المذكورة عظيمة النفع في بحثها عن الأثر الذي أحدثته الصور التي نشرتها وسائل الاتصال عن مرض الإيدز.

وقد وجدنا أن أسلوبا "بديلا" لافتتاح "مقابلة" جماعة المناقشة المـــذكرة فعال جداً في عملنا عن صورة الجسد عند المثليين من الـــذكور. وفـــي تلـــك

(*) Vignette.

الحالة، كانت الباحثة الرئيسية (هِس-بيبر) ترى أن استخدام شخص آخر ليقوم بإدارة الحوار في مقابلة جماعة المناقشة المركزة من شأنه أن يكون أكثر فائدة للبحث. ولما كانت هذه الجماعة استكشافية في طبيعتها، وكانت هذه البيانات تُستعمل في تلك الفترة للمساعدة في تشكيل بحث آخر كنا نقوم بالعمل فيه، فقد كان من المهم لهذه الجماعة أن تشعُر بالارتياح النفسي بقدر الإمكان. ويَصدُق هذا الكلام بصفةٍ خاصة وعلى الدوام عند التعامل مع الجماعات المُهمَّشة التي كثيرا ما تكون ضَحيةً لمكانتها الاجتماعية داخل جماعة مُعينة، والتي هي في هذه الحالة جماعة من جماعات الأقليات الجنسية. ولما كان الوسيط البديل موجوداً، وهو نفسُه مثْليٌّ يعيش في نفس المنطقة الجغرافية مثل المشاركين في بحثنا ومن نفس فئتهم العمرية، فقد استُخدِم ليقوم بدور الوسيط مع هذه الجماعة، كما أُعطى دليلاً للمقابلة مكوناً من ١٢ سؤالاً مفتوحاً. ومع ذلك فقد كان افتتاح الدليل -في واقع الأمر- نصاً مُقتبَساً عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور أُخذَ من كتاب نُشِر سنة ١٩٨٠. وقد بدأ هذا الوسيط مقابلة جماعة المناقشة بقراءة هذا النص المقتبس المكون من فقرة كاملة. ثم قدَّم نفسَهُ بعد ذلك وتجول في الحجرة داعيا كل فرد إلى أن يقدم نفسه. ثم أخذ بعد ذلك، -حسب دليل المقابلة – يَسأل عن ردود أفعال الأفراد على هذا النص المُقتبَس. لقد كان هذا الاستهلال فعّالا للغاية في بَدء حوارٍ متعمق لدرجة أن هذا الوسيط كاد ألاّ يحتاج إلى طرح أي سؤال من الأسئلة المتبقية في الدليل، فقد أمدَّه هذا الحوار بالإجابات المطلوبة جميعا. بعد هذا نبدأ في التحرك بالخروج من الحديث عن التحضير لدور الوسيط والانتقال إلى المسائل الخلافية لعملية الوساطة (إدارة الحوار) أثناء المقابلات الفعلية لجماعات المناقشة المركزة.

إن الأسلوب الذي يختاره الباحث لإدارة الحوار أثناء مرحلة جمع البيانات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرارات الخاصة بدرجة التقنين في إجراءات المقابلة. ففي مشروعٍ بحثيٍّ ذي درجة عالية من التقنين يترجح أن يحتفظ الباحث بمستوى عالٍ من **التحكم** في عملية إدارة الحوار، بينما يَحْدث في الخطط البحثية الأكثر تلقائية أن يُؤثِر الباحث التخفيف من هذا التحكم، ويختار أسلوباً في إدارة الحوار أكثر حريةً. ويميز مورجان (١٩٩٢، ١٩٩٦) مجالين

رئيسيين يمارس فيهما الباحث مستوىً ما من السيطرة على إدارة الحوار قد يتراوح بين التحكم الشديد والتدخل الطفيف جدا. فالوسيط هو الذي يُقرر المدى الذي سيبلُغهُ في التحكم في المسائل التي تُناقش. فهل سيتيح الوسيط للجماعة أن تنحرف بعيداً عن مسار البحث لتمضي في اتجاهها الخاص بها كلما تواصل الحوار، أم أنه سوف يكون حريصاً على التحكم في تدفق الموضوع ليتأكد من أن الأفراد المشاركين لا يزالون سائرين على الطريق المرسوم لهم وهم يجيبون على مجموعة الأسئلة التي سبق تحديدها، أو وهُم يُركزون نقاشهم على الموضوعات المحددة من قَبلُ؟ كما يقوم مدير الحوار بتوجيه دينامية الجماعة. ووفقاً لذلك، يستطيع هذا الوسيط أن يخلق حواراً أكثر إحكاماً وضبطاً يَحْظَى فيه جميع الأفراد المشاركين بفرصة الكلام فترات متساوية، أو يمكن له أن يسمح للمشاركين ولدينامية جماعتهم أن يقودوا الحوار. وتعني هذه الحالة الأخيرة أن بعض الأفراد (المبحوثين) قد يُهَيمنون على الحوار بينما لا يتحدث الآخرون إلا قليلاً جداً. وكما تستطيع أن ترى، فإننا عندما نتكلم عن دور الوسيط فإننا في الواقع نتكلم عن **البناء والتحكم**. كما تتمثل مسائل إدارة الحوار في علاقة الشد – والجذب التي لابد أن يسيطر عليها الباحثون الكيفيون الذين يستعملون طريقة جماعات المناقشة المركزة لتظلَّ واقعةً بين طرفي التقنين والضبط من ناحية والتدفق الحر من ناحية أخرى.

ومن المعهود في مجال أبحاث السوق أن يمارس من يدير الحوار مستوىً عالياً من التدخل من حيث طَرْح الأسئلة، والتحكم في الموضوعات، وفي توجيه دينامية الجماعة. فكثيرا ما يقوم الوسيط في هذا النوع من الأبحاث بالتحقق من أن كلَّ فردٍ مشارك يجيب على نفس مجموعة الأسئلة، ومن أن الحوار لا يَشرُد بعيداً عن الموضوع. ويعكس هذا المستوى العالي من تدخل مدير الحوار أهداف بحث السوق (مورجان، ١٩٩٦، ص١٤٥). كما أن القيام بإدارة الحوار لحساب العملاء الذين يدفعون نفقات البحث، قد يتسبب -كما ناقشنا هذا الموضوع من قبل- في جعل مدير الحوار يتفاعل تفاعلاً قوياً، ومن ثمَّ يمارس درجة عالية من التحكم. ووفقاً لما يذهب إليه بوتشتا Putchta وبوتر Potter(١٩٩)، فإنه نظراً لأن باحثي السوق يسعون عادة للحصول

على البيانات ذات المستوى العالي من التقنين، فإن الوسطاء الذين يقومون بإجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة يُؤدُّون مُهمة "إدارة التلقائية" (أي توجيهها والتحكُم فيها). ولمعالجة هذه المهمة الخاصة بَزَغت في أبحاث السوق ظاهرة جديدة وهي: أن مقابلات جماعات المناقشة المركزة أصبحت تعتمد في الغالب على "الأسئلة المحددة" (ص٣١٩). إذ يقوم الوسطاء، عن طريق تعقيد الأسئلة من خلال استعمالهم لعناصر مكونة من أسئلة إضافية؛ يقومون بالمساعدة في توجيه الإجابات التي يتلقونها. وهكذا يغلب أن يظل المشاركون مُركزين على الموضوع المطروح وأن يُجيبوا على الأسئلة بالأسلوب الذي يتوقعه الباحث، وذلك في حالة ما إذا كانت الأسئلة مُعقدة، ومُحَدَّدة، ولها إجابات ممكنة، أو ربما يجيبون على الاقتراحات المطروحة داخل السؤال نفسه. وبعد أن أوضحنا ذلك، يهمنا في الواقع أن ما يعنينا بدرجة أشدّ هو الكيفية التي يتبعها الباحثون الأكاديميون في معالجة مسائل إدارة الحوار.

من الممكن أن تختلف اتجاهات العلم الاجتماعي في مجال الوساطة (إدارة الحوار) في جماعات المناقشة المركزة اختلافاً كبيراً، إلا أنها تميل جميعها إلى التخفيف من درجة التحكُم في الحوار (مورجان، ١٩٩٦، ص١٤٥). ويُنظر أحياناً إلى اتجاهات الوساطة ذات المستوى العالي من المُرونة على أنها أكثر ملاءمة للمبادئ الرئيسية للبحث الكيفي، لأنها تمنح الأفراد المشاركين (المبحوثين) مساحة أكبر من التعبير يساهمون به في تشكيل الموضوع والحوار. ذلك أن المستويات المنخفضة من الوساطة تتيح للمبحوثين أن يسهموا بالقسط الأكبر من الكلام، طارحين بذلك توصيفات ثرية للحياة الاجتماعية وتفسيرات متعمقة للعمليات الاجتماعية. وعندما لا يتمسك الباحث بدليلٍ صارمٍ للمقابلة ويتيح -بدلاً من ذلك- للجماعة أن تتحكم في السرد، فقد تتحرك المقابلة في اتجاهاتٍ ربما لم يكن يتوقعها الباحث. وعندما يحدث ذلك فإن من الراجح أن يتوافر للباحث علمٌ بأمور لها أهميتها في نظر الجماعة المدروسة، ولم يكن يعرفها من قبلُ حتى يَسأل عنها. وبذلك تصل هذه الجماعة وبصورة عاجلة إلى التأكيد على أهمية المجالات التي تعدها مهمة في نظرها، كما يُتاح للباحث الفرصة لأن يتابع نقاش الجماعة الذي يجري في

اتجاهاتٍ جديدة ومُثيرة. وتكونُ البيانات الناتجة مرتكزة ارتكازاً مباشراً على خبرة هؤلاء المبحوثين، وبالصورة التي يَرَوْن بها هذه الخبرات. ويُضاف إلى ذلك أنه إذا كانت دينامية الجماعة نفسها جُزءًا مما تتم دراسته، فلابدَّ أن يُسمَحَ لها بالسير في طريقها بحرية. وإنَّ من شأنِ هذا الكلام أن يَصدُق، مثلاً، على دراسة تتناول كيف يقوم أعضاء الجماعات الاجتماعية المهيمنة وأعضاء الجماعات الاجتماعية من الأقليات بالتفاعل معاً في بيئةٍ جماعية معينة: أي مَنِ الذي يتكلم بحرية؟، ومن الذي يسيطر؟، ومن الذي يُكْتَم صوتُهُ ولا ينطق؟

ومن الفوائد الأخرى لاستعمال المستويات المنخفضة من التدخل في الحوار أن يرتفع احتمال قيام المبحوثين بتطوير وتشكيل المقولات والمفاهيم المستعملة في فهم خبراتهم. معنى ذلك بعبارة أخرى أنه إذا لم يفرض الباحث لغته على المبحوثين (وهو الأمر الذي يهدف إلى توجيه الإجابات)، فسوف يعمد أولئك المبحوثون إلى تعريف الباحث وغيره من أعضاء الجماعة باللغة والمفاهيم التي تُعَد ملائمة لجماعتهم. مثال ذلك، أنه في دراستنا لصورة الجسد عند الفتيات السود أن استعملت مديرة الحوار خطة مفتوحة ذات مستوىً منخفض من التحكم. وقد أتاح هذا الوضع للفتيات فرصة التركيز على المسائل التي لها أهمية في نظرهن، على خلاف المسائل التي كانت الباحثة تتصورها من قبلُ. ولا يقتصر أمرُ هذا الاتجاه على أنه يتيح للفتيات أن يتحكمن في تدفق الموضوعات فحسب، بل إنه يتيح لهن كذلك أن يستعملن اللغة التي لها معناها في نظرهن. معنى ذلك أن بيت القصيد ليس فقط ما يقال من الكلام، ولكن المهم بنفس القدر هو الطريقة التي يُقال بها هذا الكلام. وهذان الأمران يتأثران كلاهما بمقدار التحكم الذي يبذله الوسيط الذي يدير الحوار. مثال ذلك، أنه كانت تمر بالباحثة لحظات لا تفهمُ فيها مُصطلحاً كانت تستعملُهُ هؤلاء الفتيات. فكان كلُّ ما تقوله الباحثة هو: "أنا لا أعرف معنى ذلك المُصطلح" فتبادر الفتيات بتقديم شرح تفصيلي ثري لهذا المصطلح ولما يحمله من معنىً. فقد كن يقمن – بلغتهن– بتفصيل هذا المصطلح تفصيلاً دقيقاً. وكثيراً ما تستعمل الخطط المفتوحة في البحوث الاستكشافية؛ ومع ذلك، فإن كثيراً من الباحثين الكيفيين يرون أن الخطط الأقل تقنينا والتي تشجع المبحوثين على

المشاركة بأفكارهم، ومشاعرهم، وخبراتهم، ولغتهم تتوافق بشكل أوضح مع مشاريعهم البحثية الكيفية.

إن من شأن الجماعة المثالية أن تبدأ بسؤالٍ افتتاحي سبق تصميمه ليستحوذ على اهتمام المبحوثين، وذلك بقصد أن يقوموا هم أنفسهم باستكشاف سائر القضايا التي قد تصورها الوسيط تقريبا ... وبطبيعة الأمر سيقوم واحد من المبحوثين في هذه الجماعة المثالية، وبصورة تلقائية، بتوجيه اهتمام الآخرين إلى الموضوع الخاص بالسؤال الثاني.. ويعيش أي شخص مارس عملية إدارة الحوار تلك اللحظة السحرية، عندما تتجه الجماعة مباشرة صوب ما تريدهُ منها أن تتجه إليه، وبدون أي مساعدة منك ... وبمقدور الوسيط (مدير الحوار) أن يتحرك في اتجاه نهاية المقابلة، وذلك باستعماله لطلب مُغلف معروف، كأن يقول: "لقد كانت هذه المقابلة رائعة حقاً، وأود أن أختمها بأن يُلَخِّص كل واحدٍ منكم..." وليس على الوسيط في هذه الصورة المثالية للجماعة التي لا تتعرض إلا لمستوى منخفض من التحكم؛ ليس عليه إلا أن يَطْرَحَ السؤال الأول والسؤال الأخير. وفيما عدا ذلك، تتولى هذه الجماعة نفسها في مناقشاتها تغطية كل موضوع ورد في الدليل. (مورجان، ٢٠٠٢، ص١٤٨).

عندما يُتَاح للباحث أن يحظى بمبحوثين مهتمين بموضوع البحث اهتماماً شديداً وكونوا توليفة لجماعة مُؤثرة، فإن هذا الاتجاه البحثي يصبح واعدا ومبشراً بالنجاح. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا يُفسر سبب الأهمية البالغة لعملية اختيار المبحوثين وللسؤال الافتتاحي (أو التمرين الافتتاحي). زد على ذلك أن التوجيهات التي تُعطَى للجماعة تُعدُّ أمراً حيويا في الاتجاهات البحثية المفتوحة (مورجان، ٢٠٠٢، ص١٥٥). ذلك أن مُعظم المبحوثين لم يَسبق لهم أبداً أن كانوا موضوعات للبحث الاجتماعي. ونظراً لأن هذا الباحث - الذي قد ينظرُ إليه المبحوثون على أنه هو وحده "الخبير" - هو الذي اختارهم للمشاركة، فإن عليه أن يتحمل مسئولية تقديم الشرح الواضح لهم بأنه قَدْ جَمَع شملَ هذه الجماعة معاً لأنهم هم الخُبراء في هذا الموضوع، وأنه موجود معهم ليتعلم منهم. وأفضل طريقة لتحقيق هذا هو أن يتكلم المبحوثون بحرية وأن يغوص حديثهم إلى العمق بقدر الإمكان. وعلى ذلك يقتصر دور

الباحث على الاستماع الإيجابي. ويعتبر هذا النوع من التوجيه أساسيا عند استعمال خطة بحث مفتوحة. ومهما كان حظ الباحث من التوفيق والنجاح، فإنه بجانب قيامهِ بطرح السؤال الأول والسؤال الأخير، لن يتوجب عليه شيء إلا أن يقول للمبحوثين مثلاً:"هل يمكنكم أن تشرحوا لي هذا الأمر؟" أو يقول: "ماذا تقصدون بذلك"؟ من وقتٍ لآخر.

وتُعد دينامية الجماعة واحدة من أهم الملامح الفريدة لطريقة جماعات المناقشة المركزة. وبإدخال أهمية دينامية الجماعة في الحسبان، فإن دور الباحث كوسيط يؤثر على عملية البحث تأثيراً عميقاً. وعليه يتعين بذل عناية كبيرة عند التفكير في طريقة إدارة الحوار، والذي يشمل التفكير في بعض القضايا التي منها، مثلا، تحديد مستوى التحكم في المناقشة، وما هو مقدار التوجيه الذي سيستخدم، وإلى أي مدى سيُطلَبُ من المبحوثين أن يصوغوا قصتهم. وتُعَدُّ عملية إدارة الحوار في حدِ ذاتها مهارة تتطلب الوقت والصبر من جانب الباحث. وأفضل أسلوب لتعلُم كيف تكون وسيطاً بشكل فعال هو أن تمارس إدارة الحوار، فأنت بالممارسة ستزداد مهارة بمرور الوقت.

استعملت جوليا جونسون روتنبرج Julia Johnson Rothenberg وبيتر مكدرموت Peter McDormott، وهما من أساتذة التربية في كليات سيدج Sage؛ استعملا طريقة جماعات المناقشة المركزة في بحث موضوع التربية والمشاركة الوالدية في المدارس الحضرية (٢٠٠٢). وإليكَ ما قالته جوليا جونسون روتنبرج عن خطة البحث وعن عملية الوساطة (إدارة الحوار)، وذلك من حيث التطبيق والممارسة:

خلف الكواليس مع جوليا جونسون روتنبرج

قام بيترمكدرموت، كما قمتُ أنا، بقراءة مقالات ومراجعات متعددة منشورة بالمجلات العلمية وتتعلق بجماعات المناقشة المركزة بعد أن تشككنا في عَمَلنا الذي قمنا بهِ مع مبحوثين شاركونا بحثنا عن المُدرسين الأكفاء الذين يعملون في مدارس تقع في أحياء شديدة الفقر. وقد كنا نعلمُ أن لَدينا مشاعر جياشة تجاه مبحوثينا وتجاه عملهم. وقد بَدَا لنا أن استعمال طريقة جماعة

المناقشة المركزة في البحث سيسمح لنا أن نصف - بصورة أوفى وأتَمّ - تحيُّزاتنا الشخصية ومواقفنا الفكرية الموجودة في قصة بحثنا هذا.

وقد اتضح جانب آخر من هذا الاتجاه من خلال عملنا مع الوالدين. فقد كان هؤلاء المبحوثون أكثر صراحة مَعَنا عندما كُنا لا نكثر من وصفهم "كمبحوثين" أو "كموضوعات بحث" مزودين باستبيانات وأسئلة معدة سلفا. ولذلك حينما كان ينظر إليهم بوصفهم حُلفاءنا وأصدقاءنا، فإنهم كانوا يتقاسمون معنا خبراتهم بصورة أكثر صراحة وانفتاحاً.

ومن الواضح أن عيوب هذه الخطة كامنة فيها: حيث لم تكن تتوفر لنا تلك الاستبيانات المُصممة تصميما موضوعيا، فقد كانت المقاييس من نوع مقياس ليكرت(*) والأسئلة المعدة سلفا والتي تستفسر عن كل الموضوعات.

لقد كان أمراً ساراً للنفس إلى حدٍ بعيد أن يكون المرء مُدافعا عن الوالدين الذين لهم أبناء في المدارس الحضرية. وقد كنا نُؤمن إيماناً قوياً بالمساواة والعدل وتوفيرهما للأطفال في المدارس، كما كنا مغتبطين لمشاركة الوالدين في هذا الإيمان. كما كان يبدو عليهم الرضا بسبب ما نجريه من مناقشات معهم. وكُنا نرى أن هؤلاء الآباء أمَناء في مناقشاتهم، أيضاً، وذلك لأنهم كانوا صُرحاء في اختلافهم مع بعضهم وفي تأييدهم للبيانات التي يُقدمها

(*) مقياس ليكرت **Likert Scale**: أسلوب واسع الاستخدام لقياس الاتجاهات. حيث يعرض على المستجيبين عدد من البنود المصاغ بعضها صياغة إيجابية والبعض الآخر صياغة سلبية، والتي وجد أنها تميز - بأكبر قدر من الوضوح - بين وجهات النظر المتطرفة حول موضوع الدراسة. فعلى سبيل المثال، قد يتم مواجهة المستجيبين في دراسة حول الإدراك الشائع للعدالة الاجتماعية بعدد من العبارات مثل عبارة: توزيع الدخل في الولايات المتحدة يتسم بعدم العدالة؛ وعبارة: "لكل فرد في مجتمعنا فرصة متساوية للحصول على تعليم جيد". ويطلب من كل واحد منهم أن يقدر كل عبارة في ضوء موافقته أو عدم موافقته عليها. ومن المألوف أن يتم تسجيل الاستجابات على مقياس ثنائي القطبية مكون من خمس درجات فئوية (أوافق بشدة، أوافق، لا رأي لي، لا أوافق، لا أوافق بشدة). ويتم ترميزها ٢، ١، صفر، -١، -٢. ثم تجمع هذه الدرجات لكي تكون تقديرات مجمعة أو درجات اختبار أو قد يتم ربطها بمتغيرات أخرى أو تحليلها باستخدام التحليل العاملي، لكي تمثل مقياسا رقمياً أحادي البعد. للمزيد انظر، جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد٣، ص١٣٨٤٠ (المراجع)

بعضهم لبعض. ومن شواهد تلك الصراحة كلامهم عن كيف أن المدرسين لم يزوروا الحيَّ الذي يسكنون فيه في المدينة أبداً، وكيف أن أولئك المدرسين لم يشاركوا أبدا في أحداث المجتمع المحلي الذي يعيش فيه الآباء وأطفالهم. وعندما سألناهم عما إذا كان يُوجد أي استثناء لذلك الحكم العام، ذكر جميع أعضاء الجماعة اسم مُدَرسة بإحدى رياض الأطفال حضرت بعض مَعارِضهم المحلية وزارت بعض العائلات في بيوتهم.

ومع ذلك فقد كان يُساورنا هاجس يتصل بهذه المناقشاتٍ ومدى صدقها، إذ كنا على وَعي بأن الناس يميلون – إلى حدٍ ما– لحثٍ بعضهم بعضا على الشكوى بصفة خاصة. وحينما كنا نرغب في التدخل وفي طرح مزيد من الأسئلة المحددة، كانوا يُصرون على شكاواهم من المدارس والمدرسين. وربما كانت كل هذه الشكاوي صحيحة، إلا أنه بدا أن تأثيرات الجماعة على أعضائها كانت تفعل فعلها كذلك. لذلك أرى أننا كُنا في حاجة إلى مزيدٍ من الوقت نقضيه معهم، بحيث يتيسر لنا بعد فترة أن نرسخ أنماط التواصل و ديناميات الجماعة التي يتكرر حدوثها بمرور الوقت. وإني لأرى أن هذا هو الدور الأساسي للباحث مع جماعات المناقشة المركزة، وهو أن يقوم بتقييم هذه الديناميات وتحديد المواقع التي تحتاج إلى التحرّي والتحقق من مدى صحتها.

تحليل البيانات وعرضها

بمجرد أن يتم تجميع بيانات جماعات المناقشة المركزة وتدوينها، يكون الوقت قد حان لتحليلها وعرضها. ويتمثل أغرب جوانب هذه العملية – والخاص بمقابلات جماعات المناقشة المركزة – يتمثل في تعيين "وحدة التحليل" أي على أي مستوى يجرى التحليل: هل على المستوى الفردي أم على المستوى الجماعي؟ والإجابة المختصرة هي التحليل على كلا المستويين. ذلك لأن تحليل جماعة المناقشة المركزة، هو موضوع فريد ومثير، شأنه تماما شأن "لقاء الجماعة" نفسها، وعملية إدارة الحوار.

وبالإمكان تحليل سجلات مقابلات جماعات المناقشة المركزة -جزئيا- باعتبارها خليطاً من الإجابات الفردية. معنى ذلك بعبارة أخرى أن بالإمكان إجراء التحليل، بصورة جزئية، **على المستوى الفردي**. ويشير هذا التحليل إلى ما قاله كل عُضو من أعضاء الجماعة على حدة، كما أنه يُشبهُ الطريقة التي يتبعها المرءُ في تحليل أي سجل من سجلات تدوين المقابلات. والأمر الذي يجعل تحليل جماعات المناقشة المركزة عملاً فريداً هو أن هذا النص المدون يُمْكن تحليله - كذلك - **على مستوى الجماعة**. ومع أن القصص الفردية تمثل بنية هذا السجل، إلا أنه توجد كذلك "قصة جماعية" تظهر في النص المدون، وهي القصة التى تكون أكبر من مجموع أجزائها. ويعني هذا -بعبارة أخرى- أن دينامية الجماعة وتفاعل الجماعة يؤثران على البيانات ويُصبحان جزءًا من البيانات.

وعند التفكير في كيفية عرض بيانات جماعة المناقشة المركزة يتعين على المرء أن يأخذ في اعتباره الأمور التالية:

- ما هو سؤال البحث؟ ما هي المعلومات التي أحاول الوصول إليها؟
- على أيِّ مستوىً يجري التحليل (على مستوى الفرد، أم على مستوى الجماعة، أم كليهما معاً) وكيف يمكن عرض ذلك على أفضل صورة من صور الدقة؟

وبناءً على سؤال البحث ونوع التحليل المستخدم (أي هل هو تحليل أُجري باليد، أم بالاستعانة بالكومبيوتر) يتم اختيار نوع العرض الملائم. وبالنسبة للمناقشة المتعمقة للتحليل والتفسير يُرجَى مراجعة الفصل العاشر من هذا الكتاب، مع ملاحظة أن تحليل جماعة المناقشة المركزة يختلف نتيجة لوجود البيانات على مستوى الجماعة.

خاتمة

تُعدُّ جماعات المناقشة المركزة طريقة بحث قيمة ومُوَفرة للوقت لجمع البيانات الكيفية للمقابلة، والمُستمدة من مجموعة من المبحوثين في وقتٍ واحد. ويفيد إجراء مقابلات جماعة المناقشة المركزة - بشكل خاص- عند إجراء

البحوث الاستطلاعية حين لا يتوافر إلا القليل من المعلومات عن موضوع الدراسة، أو عندما يكون هذا الإجراء جزءًا من خطة بحث متعددة الطرق. هنا يُتيح إجراء مقابلات جماعة المناقشة المركزة للباحث الكيفي أن يكتشف السرديات (أو القصص) الفردية و السرديات (أو القصص) الجماعية التي تُعَدُّ الواحدة منها أكبر من مجموع أجزائها. وفي سياق مقابلات جماعة المناقشة المركزة يقوم الباحث بدور الوسيط (مدير الحوار) ويقرر درجة التوجيه والتحكم التي ستكون عليها المقابلة. وفي الوقت الذي تشكل هذه الجزئية نقطة قوة لهذه الطريقة، فإنها تتسبّب – كذلك – في كثير من التحديات عندما يحاول الباحثون أن يتحكموا في دينامية الجماعة ثم يفهموها بعد ذلك. ومن تلك المشكلات مدى تأثير أعضاء الجماعة على بعضهم البعض، وتأثير ذلك على البيانات التي سيتم الحصول عليها في النهاية. وكما هو الحال دائما، فإنه ينبغي استعمال هذه الطريقة عندما تخدم الأسئلة التوجيهية التي وضعها الباحث والتي تخدم أهداف بحثه.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- البعد المقارن **Comparative Dimension**

من الأمور التي تجعل التقسيم (إلى مجموعات فرعية) شديد الإغراء أنه يتيح وجود مستوى آخر من المعرفة عن طريق عقد المقارنات بين تلك المجموعات الفرعية التي تتشابه من جميع النواحي فيما عدا مجالات الاختلاف التي بني عليها التقسيم.

- نزع الصفة البادهة (الطبيعية) **Denaturalization**

عملية فهم الأفكار والعادات المعيارية عن طريق تحدي الفروض التي تؤخذ مأخذ المسلمات – كضرورة الماء للسمك– والتي يصعب على المرء تقليبها في ذهنه عادة.

- البيانات الاستطلاعية **Exploratory Data**

وهي البيانات الأولية التي تستخدم خلال مرحلة تصميم البحث. وهي في حالة جماعات المناقشة المركزة تكون تلك البيانات المستمدة من المسوح، ويتم الاسترشاد بها في وضع أسئلة المقابلات الجماعية.

- **Grounded Theory Approach** **أسلوب النظرية الموثقة**

يقصد به الأسلوب الذي يتيح للموضوعات الأساسية أن تبرز مباشرة من بين البيانات – وهم في حالة جماعات المناقشة المركزة: المبحوثون – وذلك باستخلاصها مباشرة من أفكارهم، ولغتهم، وأساليبهم في فهم أنماط سلوكهم واتجاهاتهم.

- **"The Group Effect"** **"مفعول الجماعة"**

هي الدينامية التي تتولد داخل الجماعة وتمارس تأثيراً على الأفراد وعلى استجاباتهم.

- **Group Level of Analysis** **التحليل على مستوى الجماعة**

يركز هذا النوع من التحليل على "السردية الجماعية" التي تتولد من المقابلة، والتي تكون أكبر من مجموع أجزائها (أي السرديات الفردية). معنى ذلك – بعبارة أخرى – أن دينامية الجماعة والتفاعل الذي يتم داخل تلك الجماعة من شأنه أن يؤثر على البيانات ويصبح جزءا من البيانات التي سيجري تحليلها.

- **Heterogeneous** **متباين (غير متجانس)**

هى صفة للجماعة التي تتكون من مبحوثين غير متشابهين. ويكون هذا النمط من الجماعات ملائماً عندما يريد الباحث الحصول على مدى واسع متنوع من الاستجابات، ويكون مستعداً – في الوقت نفسه – بالتضحية بالفهم المتعمق لكيفية إحساس شريحة معينة من مجتمع البحث بالموضوع محل الدراسة.

- **Homogenous** **متجانس**

هي الجماعة التي تتكون من مبحوثين متشابهين. ويكون هذا النمط من الجماعات ملائما عندما يريد الباحث التوصل إلى فهم متعمق لكيفية إحساس أفراد الجماعة أو كيفية تفكيرهم في أمر معين.

- **Individual Level of Analysis** **التحليل على مستوى الفرد**

تركيز التحليل على كل ما قاله كل فرد من أفراد جماعة المناقشة المركزة.

- وسيط (الحوار) (في جماعة المناقشة) **Moderator**

يتعين على الباحث أن يقوم بدور الوسيط (الذي يدير الحوار) في جماعة المناقشة المركزة. ومن شأن أدائه لهذا الدور أن يؤثر تأثيرا كبيرا على تدفق الحوار، ومن ثم على دينامية الجماعة وعلى طبيعة السردية الجماعية. والأمور التي تشغل بال وسيط الحوار – أساسا – هي تنظيم المقابلة ودرجة التحكم فيها. وتعد أساليب الوساطة ذات المرونة العالية في نظر البعض أكثر اتساقا والأسس الرئيسية للبحث الكيفي. وذلك لأن هذه الأساليب تفسح للمبحوثين (شركاء جماعة المناقشة) مجالا أكبر في تشكيل وتوجيه الموضوع والحوار. وتتيح الدرجات المنخفضة من التدخل في إدارة الحوار؛ تتيح للمبحوثين أن يتولوا النصيب الأكبر من الحديث، فيزودوا الباحث بوصف ثرى للحياة الاجتماعية والتفسيرات المتعمقة للعمليات الاجتماعية.

- الأسلوب المفتوح **Open-ended Approach**

في إطار هذا الأسلوب لا يفرض الباحث سوى مستوى منخفض من التنظيم على موقف المقابلة. ويختلف الأسلوب المفتوح عن الأسلوب المقنن في أن المفتوح يتيح للمبحوثين حرية أكبر للحديث عن خبراتهم الخاصة، وأن يستخدموا في التعبير عن ذلك لغتهم الخاصة على النحو الذي يكون ذا مغزى لهم.

- التقسيم (إلى مجموعات فرعية) **Segmentation**

أسلوب في تصميم البحث من شأنه أن يعظِّم من مزايا التجانس بين أفراد الجماعة في نفس الوقت الذي يتيح فيه إمكانية المقارنة بين فئات مجتمع البحث. ويتم هذا التقسيم عندما تكون الجماعة مكونة من أعضاء متشابهين، ولكن مختلف جماعات الدراسة – ككل – تكون مختلفة عن بعضها البعض من بعض النواحي. فيكون التقسيم هو الأسلوب المتبع لترتيب الجماعات وفقا لبعض السمات المعينة، عندما يريد الباحث اكتشاف أثر الفروق والاختلافات في سمات كالعرق أو النوع.

- التقنين **Standardization**

يعني أن يجيب كل مبحوث عن نفس مجموعة الأسئلة، بحيث لا يشرد الحوار بعيدا عن موضوع البحث.

- **Standardized Approach**   **الأسلوب المقنن**

يشير مصطلح التقنين إلى "مدى استخدام نفس الأسئلة ونفس الإجراءات في كل جماعة من جماعات البحث"، بما يتيح للباحث أن يعقد مقارنات "صحيحة" بين كافة الجماعات الداخلة في الدراسة.

- **Triangulation**   **استخدام ثلاث طرق بحث**

أي استخدام ثلاث طرق بحث في إجراء الدراسة.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- كيف تختلف البيانات المتحصلة من داخل جماعات المناقشة المركزة عن البيانات التي نحصل عليها من المقابلات المتعمقة؟

٢- من أي النواحي تختلف جماعات المناقشة المركزة التي تجري في بحوث السوق عن مقابلات جماعات المناقشة التي تجري في بحوث علم الاجتماع؟

٣- كيف يؤثر أفراد جماعة المناقشة على بعضهم البعض داخل مقابلات جماعات المناقشة المركزة؟ وكيف يؤثر هذا التفاعل على البيانات المتحصلة من جماعات المناقشة المركزة؟ وما هي "دينامية" الجماعة؟

٤- كيف يمكن أن تعمل بعض جماعات المناقشة على إضعاف بعض أفراد الجماعة؟ وكيف يمكن – من ناحية أخرى – استخدام جماعات المناقشة لتمكين أعضائها؟ وما هي الصلة بين تمكين المشاركين والتراث النظري الذي يوجه البحوث؟

٥- ما هو دور الباحث في جماعات المناقشة المركزة؟ وما هي مسائل ومشكلات التحكم التي قد تواجه الباحث، وكيف تتأثر تلك المسائل والمشكلات بالمعتقدات الإبستمولوجية وبأهداف البحث؟

٦- كيف يمكن الانتفاع بالدراسة المسحية في توجيه عملية تنظيم عمل جماعات المناقشة المركزة؟ وكيف يمكن المزج أو الربط بين جماعات المناقشة والدراسة المسحية؟

٧- استعرض جوانب القوة والضعف في تنفيذ جماعة المناقشة المركزة الأقل تقنيا؟

٨- كيف يمكن اختيار عينة واحدة لتكوين جماعة مناقشة؟ استعرض مزايا جماعات المناقشة المتجانسة بالمقارنة بجماعات المناقشة غير المتجانسة؟ واشرح عملية التقسيم (إلى مجموعات فرعية).

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- أساسيات تنفيذ جماعات المناقشة المركزة **Basics of Conducting Focus Groups**

http://www.mapnp.org/library/evaluation/focusgrop.htm.

يقدم هذا الموقع عرضا عاما شاملا لكيفية تكوين جماعة مناقشة مركزة، وللأسئلة التي يمكن توجيهها، وكيفية إدارة جلسة جماعة المناقشة، وما يتعين عمله بعد انتهاء الجلسة. كما يتضمن هذا الموقع رابطا بعدد من المواقع الأخرى المفيدة على الإنترنت والخاصة بجماعة المناقشة المركزة.

- جديد البحوث الاجتماعية في جامعة ساري **The University of Surrey Social Research Update**

http://www.soc.surrey.ac.uk/sru/SRU.19.html

يحوي هذا الموقع مقالا عن جماعات المناقشة المركزة من تأليف أنيتا جيبس، الذي نشر في مجلة **جديد البحوث الاجتماعية**، العدد ١٩. ويقدم المقال تعليقات حول تعريف جماعات المناقشة المركزة، وكيفية إدارة جلسة جماعة المناقشة، ومزايا جماعات المناقشة ونواحي ضعفها، وأخيرا المسائل الأخلاقية التي تطفو على السطح أثناء استخدام هذه الطريقة.

- **البحث الكيفي: جماعـات المناقـشة المركـزة بـالتليفون، وجماعـات المناقشة المركزة المباشـرة وجهـا لوجه.**
- **Qualitative Research: Telephone Focus-Groups, Face-to-Face Focus Groups**

http://www.mnav.com/qualitative_Research.html

يحوى هذا الموقع عدة روابط بمواقع أخرى تختص بالتعريف بكيفيـة إجراء الأنواع المختلفة من جماعات المناقشة المركزة، وكذلك بعض النصائح والاستراتيجيات التي يمكن الإفادة منها عند التعامل مع جماعـات المناقـشة، سواء تم ذلك في المواجهة مباشرة أو عن طريق التليفون. كما يعرفـك هـذا الموقع على بعض جماعات المناقـشة المركـزة عبـر شـبكة المعلومـات (الإنترنت). وتركز المقالات أساسا على استراتيجيات التسويق، وإن كان يمكن أن تتطرق إلى مجالات أخرى كذلك.

- **جماعات المناقشة المركزة**
- **Focus Groups**

http://imwww.hhi.de/USINACTS/Tutorial /focus.html.

يقدم هذا الموقع دروسا عن التعريف بجماعات المناقـشة المركـزة، وكيف يتم استخدامها ولأية أغراض، ومختلف مجالات الانتفاع بها، وأخيـرا مزاياها وعيوبها.

- **اسـتخدام جماعـات المناقـشة المركزة في التقويم**
- **Using Focus Groups for Evaluation**

http://ag.arizona.edu/fcr/fs/cyfar/focus.htm.

يتبع هذا الموقع جامعة أريزونا (الأمريكية)، ويحوي مقالا من تـأليف ماري مارشاك Mary Masrczak و ميج سـويل Meg Sewell. ويجيـب المقال عن التساؤلات عن ماهية جماعة المناقشة المركزة في الحقيقة، وما هي الأمور التي تستطيع جماعة المناقشة الكشف عنها وتلـك التـي لا تـستطيع، وأخيرا عن كيفية تكوين جماعة مناقشة مركزة. كما يتناول المقال كذلك مزايا هذه الطريقة وعيوبها.

* * *

References المراجع

- Betts, N., Baranowski, T., & Hoerr. S. (1996). Recommendations for planning and reporting focus groups research. *Society for Nutrition, Education*, 8(5), 279-281.
- Bristol, T., & Fern, E. (1996). Exploring the atmosphere created by focus group interviews: Comparing consumers' feelings across qualitative techniques. *Journal of the Market Research Society, 38*(2), 185-195.
- Brotherson, M. (1994). Interactive focus group interviewing: A qualitative research method in early intervention. *Topics in Early Childhood special Education, 14(1), 101-118.*
- Carey, M. (1994). Forms of interviewing. *Qualitative Health Reseach, 5* (4), 413-416.
- Costigan Lederman, L. (1990). Assessing educational effectiveness: The focus group interview as a technique for data collection. *Communication Education, 38*, 117-127.
- Frey, J. Fontana, A. (1991). The group interview in social research. *Social Science Journal, 28*(2), 175-188.
- Kitzinger, J. (1994). The methodology of focus groups: The importance of interaction between research participants. *Sociology of Health & Illness. 16*(1). 103-121.
- Krueger, R. (1994). *Focus groups: A practical guide for applied research* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Matoesian, G., & Coldren, J. (2002). Language and bodily conduct in focus group evaluations of legal policy. *Discourse & Society, 13*(4). 469-493.
- McDermott, D., & Rothenberg, J. (2000). Why urban parents resist involvement in their children's elementary education. *The Qualitative Report. 5* (3.4).
- Merton, R. K., & Kendall, P. L. (1946). The focused interview. *American Journal of Sociology, 51*, 541-557.
- Montell, F. (1999). Focus group interviews: A new feminist mehtod. *NWSA Journal, 11*(1), 44-70.
- Morgan, D. (2002). Focus group interviewing. In J. Gubrium & J. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 141-161). Thousand Oaks, CA:Sage.
- Morgan, D. (1996). Focus groups. *Annual Review of Sociology. 22.* 129-152.
- Morgan, D. (1995). Why things (sometimes) go wrong in focus groups. *Qualitative Health Research, 5*(4), 516-523.
- Morgan, D. (1993). Future directions for focus groups. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art.* Newbury Park, CA: Sage.
- Morgan, D., & Krueger, R. (1993). When to use focus groups and why. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art* (pp. 3-19). Newbury Park, CA: Sage.
- Myers, G. (1998). Displaying opinions: Topics and disagreement in focus groups. *Language in Society, 27*, 85-111.
- Nasssar-McMillan, S., & Borders, D. (2002). Use of focus groups in survey item development. *The Qualitative Report,* 7(1). 1-11.
- Puchta, C., & Potter, J. (1999). Asking elaborate questions: Focus groups and the management of spontaneity. *Journal of Sociolinguistics. 3(3), 314-335.*

الفصل السابع

البحث الإثنوجرافى

تأملات فى العمل الميدانى الذى أجرى فى جزر تروبرياند Trobriand Islands (غرب المحيط الهادى) فى أوائل القرن التاسع عشر:

بعد وقت قصير من استقرارى فى جزر أمَركانا تروبرياند، بدأت أقوم - بطريقة ما - بدور فى حياة القرية، وأتطلع لرؤية الأحداث المهمة أو التى تشكل أعياداً ومهرجانات هنا، وأن أهتم اهتماماً شخصياً بالشائعات وتطورات الأحداث فى هذه القرية، وأن أستيقظ كل صباح على يوم جديد، يبدو لى بنفس الطريقة التى يبدو بها - تقريباً - لأبناء الجزيرة. وكنت أخرج من تحت الناموسية لأجد من حولى حياة القرية وهى تبدأ فى الحركة، أو لأجد الناس يتقدمون بصورة جيدة فى يوم عملهم تبعاً لما تقتضيه هذه الساعة أو تبعاً لما يقتضيه الموسم أيضاً، وذلك لأنهم ينهضون من فُرُشهم و يبدأون أعمالهم فى وقت مبكر أو متأخر، حسب ما يمليه عليهم العمل. وبينما كنت أقوم بجولتى الصباحية فى دروب القرية، كان باستطاعتى أن أرى التفاصيل الدقيقة للحياة العائلية، كطرق التزين، والطبخ، وتناول الوجبات. وكان باستطاعتى أن أرى الاستعدادات والترتيبات الخاصة بعمل اليوم، فالناس يبدءون فى الذهاب لقضاء مصالحهم، وجماعات من الرجال أو النساء مشغولة ببعض الأعمال الصناعية اليدوية. وكنت أرى المشاجرات، والدعابات، والمشاهد العائلية، والأحداث التى تكون فى العادة أحداثاً تافهة، وتكون أحياناً أحداثاً خطيرة ولكنها ذات دلالة فى سائر الأحيان، وذلك انطلاقاً من الجو العام لحياتى اليومية، وانطلاقاً من الجو العام لحياتهم اليومية كذلك. ولابد من ذكر أن الأهالى كانوا يروننى باستمرار كل يوم، وأنهم كفوا عن الاهتمام بوجودى أو الفزع منى أو تنبيه بعضهم لبعض بوجودى، كما أننى توقفت عن أن أكون عنصر إزعاج فى هذه الحياة القبلية التى جئت لدراستها، والتى كنت أغيرها بطريقتى التى تخصنى وحدى... والواقع أنه نظراً لأنهم كانوا يعلمون أننى أرغب فى دس أنفى فى كل شيء... فإنهم انتهوا إلى اعتبارى جزءًا لا يتجزأ من حياتهم، أى شر أو

مصدر إزعاج لابد منه، لا يخفف من وطأته إلا ما أعطيه لهم من السجاير. (مالينوفسكى Malinowski: ١٩٢٢، صفحات ٧-٨).

كان برونيسلاو مالينوفسكى أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانيين من أصل بولندى، وقد قام بزيارات ميدانية عديدة عاش فيها بين سكان جزيرة تروبرياند من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٦، ثم كرر هذه الزيارات من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩١٨. وكان مالينوفسكى يريد أن يعيش بين الناس الذين يقوم بدراستهم. وكان يشعر أن العمل الميدانى لابد أن يبدأ "بأن يقطع المرء نفسه عن صُحبة غيره من البيض، وأن يبقى على اتصال وثيق بالأهالى قدر ما يستطيع، وهو الأمر الذى لا يمكن تحقيقه إلا بأن يُعسكر داخل قُراهم تماماً". (ص ٦)

يهدف **البحث الإثنوجرافى** إلى الوصول لفهم متعمق للطريقة التى يتبعها الأفراد المنتمون إلى **الثقافات المختلفة والثقافات الفرعية** فى إدراك معنى واقع حياتهم التى يعيشونها. فالمعنى الحرفى لكلمة **الإثنوجرافيا** هو "الكتابة عن الثقافة". ويقوم الإثنوجرافيون "بالمُضىِّ داخل" العوالم الاجتماعية للسكان الموجودين فى مجتمع بحثهم، بينما يوجد أولئك الإثنوجرافيون "خارج هذا المجتمع" حيث يقومون بملاحظة وتسجيل الحياة الاجتماعية المتواصلة لأفراد هذا المجتمع، وذلك عن طريق تقديمهم "وصفاً مكثفاً" (جيرتز Geertz، ١٩٧٣) لهذه البيئة الاجتماعية وللحياة اليومية للأفراد الذين يعيشون فى هذه الأماكن. فالإثنوجرافيون يقدمون صوراً تفصيلية لما فى ثقافة ما أو ثقافة فرعية ما، أو جماعة ما، من **ممارسات وعادات الحياة اليومية**. وكثيراً ما يقومون – أثناء ذلك – بجمع المنتجات والمصنوعات اليدوية وغيرها من المواد الثقافية. وهم يُسجلون ويحللون تلك التشكيلة المتنوعة من الأبنية الاجتماعية داخل مجتمعها باذلين اهتماماً بالحياة الدينية، والعائلية، والسياسية والاقتصادية. وتُعد هذه الطريقة "صريحة وشخصية"، كما أنها تتم عادة فى "**مجتمعاتها الطبيعية**"، أى فى تلك الأماكن التى يباشر فيها الأفراد حياتهم اليومية، وليس فى مكان سابق الإعداد يقوم الباحث بترتيبه أو إعداده فى موقع محدد. وتتطلب **الملاحظة بالمشاركة**، والتى هى أداة بحث أساسية لعلم الإثنوجرافيا ولتطبيقه؛ تتطلب من الباحث أن يعيش فى المجتمع الذى يقوم

بدراسته، أو يقوم بزيارات مكثفة وشاملة له، حيث يقوم بملاحظة الأنشطة التى يباشرها هؤلاء الأفراد الذين يدرس أحوالهم، كما يقوم بالمشاركة فيها.

وكثيراً ما يتم الربط بين الطريقة الإثنوجرافية وحقل علم **الأنثروبولوجيا**، وهو العلم الذى يُجرى فيه البحث على الثقافات الأجنبية من أجل الحصول على فهم لسكانه "المحليين" – أى فهم العادات الاجتماعية، والقيم، والمنتجات المختلفة المرتبطة بجماعة معينة وبثقافتها العامة الشاملة. ويعود تاريخ ممارسة علماء الاجتماع للإثنوجرافيا إلى أواخر القرن التاسع عشر، وتمتد جذوره داخل حركات الإصلاح الاجتماعى التى سعت للوقوف على أحوال الفقراء الحضريين من الطبقة الدنيا ولتقديم المساعدة لهم. (إمرسون Emerson، ٢٠٠١). وقد اشتملت الأبحاث الإثنوجرافية المبكرة – التى أجراها علماء الاجتماع – على تشكيلة من طرق البحث المختلطة، ابتداءً من البحث المسحى وانتهاءً بالملاحظات الميدانية وإجراء المقابلات المكثفة. وقد تأثرت البحوث الإثنوجرافية المبكرة بإحدى "حركات المسح الاجتماعى". ويظهر مثال لهذا النوع من البحوث الإثنوجرافية فى المؤلف الذى ضم دراسة تشارلز بوث Charles Booth عن الطبقة الدنيا فى لندن، وهو العمل الممتاز والمعنون: **حياة وعمل الناس فى لندن** (١٩٠٢). ويكتب الإثنوجرافى روبرت إمرسون الملاحظة التالية حول كتاب بوث:

قام بوث فى دراساته بالجمع بين البيانات الإحصائية، وطريقة المقابلة الشائعة الاستعمال، والملاحظة الميدانية المباشرة ليكنس قدراً هائلاً من الوصف التفصيلى و المُمنهج لحياة الفقراء فى لندن. وباستعمال بوث وزملائه لطريقة الملاحظة المباشرة، دخلوا أحياناً دخولاً مباشراً فى عالم أولئك الفقراء (إمرسون، ٢٠٠١، ص٩).

ويروى عالم الاجتماع إليّا أندرسون Elijah Anderson (١٩٧٦) – بعد مرور أكثر من نصف قرن على عمل بوث – خبراته عن قيامه بالعمل الميدانى فى أحد أحياء السود الفقراء فى حى ساوث سايد South Side بمدينة شيكاغو يسميها "منطقة جيليز" "Jelly's place". وقد كانت منطقة جيليز حانة ومخزناً للمشروبات الكحولية يرتاده الرجال السود من العمال والمتعطلين. كما يستعمل أندرسون تقنية الملاحظة بالمشاركة، ولكنه فى هذه

الحالة لا يذهب إلى جزيرة منعزلة فى غرب المحيط الهادى، ولكنه، شأنه شأن تشارلز بوث، ينجذب لمجتمع حضرى، هو مدينة أمريكية، وإلى جزء من الثقافة الفرعية الأمريكية لا تزال حياته وأنشطته محجوبة عن المشهد الثقافى العام – وهو جزيرة لثقافة فرعية داخل الثقافة المسيطرة لمدينة شيكاغو. وكان هدف أندرسون أن يكشف الغطاء عن الحياة الاجتماعية لمنطقة جيليز – أى أن يفهم التفاعلات التى تدور بين هؤلاء الذين قدموا إلى جيليز. وهو يصف أسلوبه فى الملاحظة بالمشاركة كما يلى:

قضيت أسابيعى القليلة الأولى فى منطقة جيليز فى الجانب الذى توجد فيه الحانة، قضيتها بين الزوار وغيرهم. وهذا الجانب... كان أسهل الأماكن التى يصل إليها الأفراد الجدد، حيث يستطيع الأغراب أن يتجمعوا فيه. كما كان مكاناً أمكننى أن أبدو فيه غير متطفل إلى حد ما، بل كنت فيه محل ترحيب بصورة ما. لقد كان هو المكان الذى بدأت فيه عملية التعرف على منطقة جيليز، والذى ظفرت فيه بترحيب مضطرد بتواجدى والتحدث مع الناس بصراحة. وهذا يعنى أساساً تمكنى من معرفة هؤلاء الناس، وأننى أصبحت مشاركاً – بصورة ما – فى علاقاتهم ببعضهم البعض، كما أننى أصبحت على دراية بالمفاهيم والتصورات الشائعة والمتداولة فى حياتهم اليومية، والتى يتبناها الناس ويأخذونها مأخذ التسليم، وبالقواعد الاجتماعية والتوقعات التى تدور فى أذهانهم بالنسبة لبعضهم (١٩٧٦، ١٩٩٦، ص١٣).

إن العمل الذى قام به أندرسون فى قلب مدينة شيكاغو له جذوره الموجودة فى التراث الفكرى للعمل الميدانى المعروف **بمدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع**،(*) والتى أسسها روبرت بارك Robert Park وإرنست بيرجس

(*) مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع: مدرسة ذات تقاليد بحثية اقترن اسمها بجامعة شيكاغو خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، استطاعت أن تهيمن على علم الاجتماع فى أمريكا الشمالية طوال تلك الفترة. وقد أسست أول قسم لعلم الاجتماع (فى عام ١٨٩٢ بواسطة ألبيون). وبتأسيسه بدأ نشر أول دورية علمية رئيسية فى علم الاجتماع (المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع منذ عام ١٨٩٥)؛ وإنشاء الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع (عام ١٩٠٥)؛ وألف أول كتاب جامعى مهم فى علم الاجتماع، كتبه روبرت بارك وإرنست بيرجس ونشراه بعنوان: مقدمة فى علم الاجتماع (عام ١٩٢١)، كذلك أسست أول قسم للدراسات العليا، ونشرت سلسلة مهمة من الدراسات البحثية.

Ernest W. Burgess. فقد تأثر كلا العالمين الاجتماعيين بالعمل الذى قدمه المصلحون الاجتماعيون فى أواخر القرن التاسع عشر، مثل جين آدامز Jane

---

وقد تأثرت تقاليد هذه المدرسة بشدة بالنزعة الفلسفية البراجماتية، والملاحظة المكتسبة بالخبرة المباشرة، وتحليل العمليات الاجتماعية الحضرية. ويرتبط اسم مدرسة شيكاغو عادة بتلك القضايا الثلاث.

القضية الأولى: وهى أكثرها شيوعاً، اقترن اسم مدرسة شيكاغو بإجراء الدراسات الميدانية الإمبريقية، فى مقابل بعض الاتجاهات الأخرى الأكثر ميلاً إلى التجريد والتنظير التى كانت تسم أنشطة غالبية علماء الاجتماع الأوائل فى أمريكا الشمالية وبخاصة الدراوينية الاجتماعية. وقد أثمرت تلك التوجيهات عدداً كبيراً من الدراسات التى أصبحت تعد الآن من كلاسيكيات الدراسات الإمبيريقية فى علم الاجتماع. وتعد هذه المجموعة مجرد أمثلة مشهورة مميزة لمدرسة شيكاغو، كما أثمرت تلك التوجيهات أيضاً ممارسة قدر كبير من التجريب على أدوات البحث. ومما يلفت النظر هنا تطوير أدوات مثل الملاحظة المشاركة ومنهج دراسة الحالة.

ومع ذلك فمن الخطأ أن نرى فى مدرسة شيكاغو مجرد معقل للمناهج الكمية، باعتبار أنها قادت الطريق فى استخدام المسوح الاجتماعية والبحوث الإحصائية للمجتمعات المحلية، ورسم الخرائط الكمية للمناطق الاجتماعية وإبداع سجلات الوقائع الخاصة بالمجتمعات المحلية. باختصار، استطاعت مدرسة شيكاغو أن تطور تقليداً راسخاً فى استخدام المناهج الكيفية أيضاً، وقد ارتبط ذلك باسم وليم أوجبرن على وجه الخصوص. فضلاً عن ذلك، فإن علم الاجتماع فى مدرسة شيكاغو لم يكن عدواً للتنظير. فقد لعب إيفرت هيوز، وهو أحد مؤسسى مدرسة شيكاغو ورائد علم اجتماع المهن فى الأربعينيات دوراً بارزاً فى تطوير نظرية صريحة وتطعيم مدرسة شيكاغو المتأخرة فى علم الاجتماع بها.

أما القضية المحورية الثانية فى بحوث مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع فتتعلق بدراسة المدينة. هنا، وفى واحدة من أسرع المدن نمواً فى أمريكا الشمالية فى بداية القرن العشرين، بكل ما صاحب ذلك من مشكلات الهجرة والجناح، والجريمة، والمشكلات الاجتماعية، أصبحت الدراسة السوسيولوجية للمدينة فرعاً مستقلاً من فروع علم الاجتماع. وتعود العديد من جذور علم الاجتماع الحضرى إلى تقاليد هذه المدرسة، سواء من الناحية الوصفية، حيث تم رسم خرائط لمناطق المدينة (رتبت فى سلسلة من المناطق الدائرية المتحدة المركز)، تبدأ من قلب المدينة، وتنتهى بالحزام الخارجى للمتنقلين يومياً، أو من الناحية النظرية فى ضوء محاولات تفسير ديناميات نمو المدينة وتغيرها.

وأما القضية الثالثة التى نبعت من مدرسة شيكاغو فتتمثل فى صيغة مميزة لعلم النفس الاجتماعى، مشتقة جزئياً من قسم الفلسفة الحليف، وبخاصة من كتابات جورج هربرت ميد. وقد ركز هذا التقليد على خلق وتنظيم الذات، وهو ما عرف فيما بعد عبر كتابات هربرت بلومر باسم التفاعلية الرمزية. راجع المزيد فى جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ص ١٣١٥-١٣١٨. (المراجع)

Addams التى أسست "دار هل" "Hull House"، وهى مؤسسة اجتماعية للإيواء، كما قاما بتعليم طلاب الإثنوجرافيا وبالإشراف على دراساتهم العليا ابتداء من سنة ١٩١٧ تقريباً وحتى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين (انظر آدامز، ١٩١٠؛ وديجان Deagan، ٢٠٠١) وكانا يحثان طلبتهما الذين يحضرون لنيل درجة الدكتوراه على الحصول على الروايات التى يحكيها مبحوثوهم باللغة التى يتحدثونها فى الحياة اليومية فى سياق معيشتهم فى "المناطق الطبيعية"(*) للمدينة. وكانت "المناطق الطبيعية" تعد من "المناطق المتحدة المراكز"(**). التى تتفرع من قلب المدينة، وتضم كل منطقة منها أفراداً ذوى خلفيات عرقية، وإثنية وطبقية مختلفة. وأخذ تلاميذ بارك وبيرجس يواصلون تقديم تشكيلة واسعة من البحوث الإثنوجرافية المهمة التى تعالج، وفى أحيان كثيرة جداً، "العالم الأدنى" لهذه المدينة، وما فيه من سكان لا يدرى بهم أحد، وما فيه من قضايا كقضية التشرد (أندرسون، ١٩٢٣)، والعصابات (تراشر Thrasher، ١٩٢٧)، وصالات المراقصة بمقابل(***) (كرسى Gressey، ١٩٣٢) والعلاقات العرقية (فرازير، ١٩٣٢)، وهذه نماذج قليلة من مثل هذه الدراسات. وقد زود بارك تلاميذه بالنصيحة التالية:

لقد كلفتم بالبحث والتنقيب فى المكتبة، لتجمعوا بذلك قدراً هائلاً من الملاحظات مع غطاء ليبرالى مع الوسخ (دليلاً على الإرهاق الشديد – المترجم) فقد كلفتم بأن تنقبوا عن المشكلات فى كل مكان تستطيعون أن تجدوا فيه أكداساً بالية من السجلات الروتينية القائمة على البيانات التافهة التى أعدها

(*) المنطقة الطبيعية Natural Area: مصطلح يستخدم فى الإيكولوجيا الحضرية للإشارة إلى منطقة مأهولة بسكان يشتركون فى تراث اجتماعى مشترك، أو فى المهن، أو المصالح أو أى سمات ثقافية مميزة أخرى" (انظر مؤلف هولى بعنوان: الإيكولوجيا البشرية، الصادر عام ١٩٧٠) فهى باختصار: مجتمع محلى متميز. للمزيد انظر جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٤٠٢-١٤٠٣ (المراجع).

(**) انظر تعريفاً بهذه النظرية فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ١٥١٦-١٥١٧.

(***) Taxi-dance Halls: والفتاة التى تعمل فيها تسمى taxi-dancer، وهى نواد ليلية أو كباريهات، تقوم فيها هؤلاء الفتيات بمراقصة الرجال (الرقص الإفرنجى) بمقابل مادى. (المراجع)

موظفون مُتعبون وملأ خاناتها مقدمو الالتماسات الكارهون من طالبى المعونات، وفاعلوا الخير المحبون للتملق، أو الموظفون الذين لا يكترثون بشيء. ويُسمى هذا التكليف: "وَسِّخ يديك بالبحث الواقعى"(*). إن هؤلاء الذين نصحوكم حكماء ومحترمون، والأسباب التى يبررون بها طلباتهم تلك عظيمة القيمة. إلا أن الأمر يستدعى ما هو أكثر من ذلك: ألا وهو الملاحظة المباشرة. فاذهبوا واجلسوا فى صالونات الفنادق الفاخرة، وعلى درجات سلالم مداخل الفنادق الرخيصة، اجلسوا فى شوارع حى جولدكوست الفاخرة، واجلسوا أيضاً فى الأحياء الفقيرة المتداعية، اجلسوا فى قاعات الأوبرا وفى حفلات البرامج الكوميدية الساخرة. باختصار، أيها السادة، اذهبوا ووسخوا موضع الجلوس من بنطلوناتكم بالتراب وأنتم تقومون بالبحث الواقعى. (مكنى McKinney، ١٩٦٦، ص ٧١).

يُعد مالينوفسكى، وبوث، وأندرسون جزءًا من هذا التراث الإثنوجرافى. وهم مشغولون بعالم الأنشطة و"الطقوس" "اليومية"، يفتشون فى أثناء ذلك عن أى شيء غير معتاد. فهم لا يوجدون فى هذه الأماكن كباحثين يجرون المقابلات، وإنما كملاحظين منهمكين فى القيام بالملاحظة وإجراء الحوار مع أولئك الموجودين فى هذا المجتمع. وهم يسجلون ملاحظاتهم وتفاعلاتهم فى **مذكرات ميدانية**، والتى هى عبارة عن أوصاف مدونة لخبراتهم اليومية فى الميدان، وأحياناً ما يكتبون ملاحظات سريعة على وجه السرعة، إلا أنهم – فى العادة – يكتبون مذكراتهم الميدانية فى صورتها الكاملة بعد فترة قصيرة من مغادرتهم الميدان. ويقوم الإثنوجرافيون كذلك بإجراء المقابلات مع الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث، كما يبدون اهتماماً بأى وثائق قد تزودهم برؤية دقيقة وثاقبة لحياة أعضاء مجتمع البحث.

ويختلف مفهوم **الميدان** تبعاً لنمط المشروع البحثى الذى تقوم بتنفيذه. فبالنسبة لعالم أنثروبولوجى يدرس ثقافة أجنبية – كما كان الحال مع مالينوفسكى – يكون الميدان موقعاً **ثقافياً**. وبالنسبة لأندرسون، وهو يدرس أحد الأحياء المحلية أو إحدى الحانات المحلية، تكون الحانة أو الحى فى هذه

(*) "Getting your hands dirty in real research".

الحالة هو "الميدان". وغالباً ما يعرف هذا النمط من البحث بوصفه "**إثنوجرافيا حضرية**". ومن الأمثلة الكلاسيكية الأخرى للإثنوجرافيا الحضرية تلك الدراسة التى قام بها ويليام فوت وايت William Foote Whyte (١٩٤٣) عن الحى المعروف باسـم كورنرفيـل Cornerville. وكورنرفيـل منطقـة يـسكنها الأمريكيون ذوى الأصول الإيطالية وتقع فى قلب مدينة بوسطون. وكان عالم الاجتماع ويليام فوت وايت يرغب فى فهم التفاعلات الاجتماعية التـى تقـع داخل هذا المجتمع المحلى. وقد كانت الصورة الشائعة عن الأماكن التى تشبه كورنرفيل توحى بالفوضى والارتياب لأبناء الثقافة المـسيطرة. وفـى أثنـاء الحرب العالمية الثانية خصوصاً، وكان ثمة شعور عام بأن سـاكنى الأحيـاء الإيطالية الفقيرة قد يكونون أشد ولاء وإخلاصـاً للفاشـية ولإيطاليـا مـنهم للديمقراطية وللولايات المتحـدة (Gubrium & Holstien, 1997, p. 20). ومن خلال معايشته للسكان المحليين،، استطاع وايت أن ينفذ إلى فهم طبيعـة الحياة فى هذا الحى الإيطالى انطلاقاً من وجهة نظر سكانه. فهيا بنا نمـضى إلى خلف الكواليس مع وايت وهو يتأمل "مجتمـع النواصـى" (١٩٤٣) بعـد انقضاء ١٢ سنة على نشر الطبعة الأولى من ذلك الكتاب. يتحدث وايت عـن ظروف بداية اهتمامه بإجراء دراسة كورنرفيل، وعن بعض التحديات المحددة التى أثارها هذا المشروع البحثى.

خلف الكواليس مع ويليام فوت وايت وهو يتأمل دراسته عن "مجتمع النواصى"

بدأتُ العمل وعندى فكرة غامضة عن رغبتى فى دراسة حى متخلف. وكانت مدينة إيسترن سيتى توفر لى بعض الاختيارات التى يمكن أن أنتقى من بينها. وخلال الأسابيع الأولى من عملى بجامعة هارفارد كنت أمضى جانبـاً من وقتى أتجول فى شوارع الأحياء المتخلفة فى إيسترن سيتى وأتحدث مـع العاملين فى المؤسسات الاجتماعية هناك عن هذه الأحياء...

وقد أقمت اختيارى للحى الذى سأدرسه على أسس غير علمية: وهى أن كورنرفيل تتناسب بصورة ممتازة مع الصورة التى فى ذهنى عن الحى المتخلف. فقد سبق لى أن كونت - بشكل ما - صورة لمبان مكونة من ثلاثة طوابق إلى خمسة طوابق متداعية تتجاور معاً فى تزاحم شديد. ولم تكن المبانى الخربة ذات النوافذ الخشبية الإطار والموجودة فى الأجزاء الأخرى من المدينة، لم تكن تبدو لى مبانٍ حقيقية...

فى ذلك الوقت كنت متحيراً تماماً فى حل مشكلة عثورى على مدخل أنفذ منه إلى عمق هذا الحى. فقد كان حى كورنرفيل أمامى مباشرة، ومع هذا فقد كان فى غاية البعد عني. كنت أستطيع أن أتجول بحرية فى شوارعه، بل إننى أوجدت لنفسى طريقاً إلى داخل بعض الشقق، ومع ذلك كنت لا أزال فرداً غريباً فى عالم مجهول تماماً بالنسبة لى... قُمت بالبحث والاستقصاء عن المنازل التى أقامتها المؤسسة الاجتماعية المحلية. وقد كانت هذه المنازل مفتوحة للجمهور... وعندما أعود إليها اليوم بذاكرتى يبدو لى أن منازل هذه المؤسسة لم تكن واحدة على الإطلاق لكى أبدأ منها دراستى تلك... ومع ذلك فإن البيوت التى شيدتها المؤسسة قد أثبتت أنها المكان المناسب لى فى ذلك الحين، وذلك لأننى فيها قابلت الطبيب. وقد تحدثت مع عدد من الأخصائيين الاجتماعيين عن خططى وآمالى فى التعرف على هؤلاء الناس، وفى دراسة هذا الحى. وقد أنصتوا لى بدرجات مختلفة من الاهتمام... وبدأت دراستى، بشكل ما، فى مساء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٣٧، وذلك عندما دعتنى الأخصائية الاجتماعية لمقابلة الطبيب. وقد أدخلتنا مكتبها ثم انصرفت حتى نستطيع أن نتحادث معاً. وقد انتظرنى الطبيب فى هدوء حتى أبدأ الكلام، وكان ينصت إلى وهو غارق فى أحد الكراسي. ووجدته رجلاً متوسط الطول ونحيف البنية إلى حد ما. وكان شعره ذا لون بنى فاتح، وهو لون مناقض تماماً للون شعر أغلب الإيطاليين من السواد المعروف عنه. وكان الشعر الموجود على صدغيه متفرقاً وكانت وجنتاه غائرتين. وعيناه ذات لون أزرق فاتح وبدا عليهما أنهما تمتلكان نظرة نفاذه... بدأت بسؤاله عما إذا كانت الأخصائية الاجتماعية قد أخبرته عما أحاول القيام به. فرد: "لا، فهى لم تخبرنى إلا بأنك تريد مقابلتى

وبأنه ينبغى على أن أقابلك". وهنا أخذت فى الاستفاضة والشرح... وظل الطبيب يستمع إلىّ حتى النهاية بدون ظهور أى تغير على تعبيرات وجهه، فلم يعد لدى وسيلة للتنبؤ برد فعله. وعندما انتهيت من كلامى سألنى قائلاً: "هل تريد أن ترى الحياة الراقية أم حياة الفئات الدنيا؟" فقلت له: "أريد أن أرى كل ما أستطيع رؤيته. أريد أن أحصل على صورة كاملة لهذا المجتمع الصغير بقدر الإمكان".

"حسناً، فى أى ليلة تريد أن ترى أى شيء، سوف أصحبك للتجول معاً. يمكننى أن أصحبك إلى الملاهى الحقيرة – أى ملاهى القمار – ويمكننى أن أصحبك للمرور على نواصى الشوارع. كل ما عليك هو أن تتذكر أنك صديقى. فهذا هو كل ما يحتاجون إلى معرفته. إننى أعرف هذه الأماكن، وإذا أخبرتهم بأنك صديقى، فلن يضايقك أحد منهم. ما عليك إلا أن تخبرنى بما تريد أن تراه، وسوف أرتب أنا كل الأمور" (وايت، ١٩٥٥، وكما ورد فى وايت، ١٩٩٦، ص ص ١١-٢١).

ممارسة البحث الإثنوجرافى

- متى تكون الإثنوجرافيا مناسبة للاستخدام كطريقة للبحث الاجتماعى؟

كما سبق أن ناقشناه فى الفصول السابقة، فإن **سؤال البحث** هو الذى يملى نوع طرق البحث التى يتبعها المرء. فإن كان سؤال بحثك يتطلب فهماً متعمقاً **للسياق** الاجتماعى، وبالذات **للثقافة** التى يمارس داخلها الأفراد مجموعة معينة من السلوكيات، فالإثنوجرافيا تكون – حينئذ – طريقة مهمة لبلوغ هذا الفهم من خلال القيام بالملاحظة المباشرة للسلوكيات ومن خلال التفاعل مع الآخرين فى موقع بحثك. ذلك أن طرق البحث الإثنوجرافية تتيح لك أن تفهم الواقع الاجتماعى انطلاقاً من وجهة نظر شركاء البحث (المبحوثين)، وهو الأمر الذى يفسر لماذا تظل الإثنوجرافيا ممارسة أساسية من ممارسات البحث الكيفى. إذ تظفر بالفرصة لاستكشاف تشكيلة الأنشطة التى ربما تظل غائبة عن وعى هؤلاء الذين يشاركون فى ممارستها فى هذا المجتمع. ويطرح الإثنوجرافيون أسئلة من النوع التالى:

- كيف يرى الأفراد عالمهم؟
- ما هى حكايتهم (رؤيتهم فى تطورها – المترجم)؟
- كيف يفهم أعضاء ثقافة معينة إحدى العادات الاجتماعية؟

أراد جوفمان Goffman أن يدرس العالم الاجتماعى لنزلاء إحدى المصحات العقلية. وهو، فى كتابه بعنوان "مستشفيات الأمراض العقلية" يؤكد لنا أهمية الوصول إلى فهم العوالم التى يعيش فيها مبحوثوه عن طريق انغماسه فى عالمهم.

كان هدفى المباشر من قيامى بالعمل الميدانى فى مستشفى سانت إليزابث أن أحاول الإحاطة بالعالم الاجتماعى لنزيل هذه المستشفى، وبالصورة التى يعايش بها هذا النزيل ذلك العالم... وقد تكوّن لدى اعتقاد فى هذا الوقت، ولا أزال أؤمن به، بأن أى جماعة من الأشخاص – كالسجناء، أو البدائيين، أو البحارة، أو المرضى – يطورون حياة تخصهم وحدهم بحيث تبدو فى نظرك حياة ذات معنى، ومعقولة وسوية بمجرد أن تتوثق صلتك بها، كما أننى اعتقدت ولا أزال أعتقد أن من الطرق الجيدة للتعرف على أى من هذه العوالم أن يسلم المرء نفسه – فى صحبة هؤلاء الأعضاء – للسلسلة اليومية الرتيبة للأحداث التافهة التى يتعرضون لها. (١٩٦١، ص ص ٩– ١٠ من المقدمة).

وكما لاحظنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، فإن اختيار مشكلة معينة للبحث أمر يرتبط بعدد من العوامل المختلفة. فقد تكون سيرة حياتك هى السبب الحاسم لرغبتك فى اكتشاف المزيد من المعلومات عن جماعة معينة أو عن مجتمع محلى معين. وربما تزودك نشأتك فى مدينة صغيرة أو فى حى من أحياء وسط المدينة، أو فى أسلوب حياة خاص بسكان الضواحى؛ قد تزودك هذه الأمور بمجموعة من الأفكار أو الاهتمامات الخاصة أو ببعض الغرائب المتعلقة بجوانب الحياة الاجتماعية. وقد يحدث أن يكون السبب الذى أثار فى ذهنك سؤال بحث معين هو خبرة شخصية، أو مهنية، أو أكاديمية، أو حتى حادثة لا تنسى، سواءً أكانت ذات طابع مأساوى أو ترفع الروح المعنوية. وقد حدث أن بيجى سوليفان Peggy Sullivan وكيرك إليفسون Kirk Elifson كانا يحضران قداساً فى إحدى الكنائس تقوم به جماعة

رهبانية تسمى "أصحاب القداسة الأحرار" Free Holliness. وكانت هذه الجماعة تنتمي إلى الكنيسة المسيحية الإحيائية(*) الموجودة فى مجتمع ولاية جورجيا والتى تستخدم الإمساك بالثعابين كجزء من احتفالها الديني. وقد عثر هذان الباحثان على السؤال الخاص ببحثهما بطريق الصدفة تقريباً:

إن ما بدأ كزيارة دافعها حب الاستطلاع آل أمره إلى أن صار مشروعاً بحثياً استغرق سنتين. فقد ذهب "كيرك" فى أول الأمر إلى هذه الكنيسة ومعه طلبة صف دراسي بالجامعة وعاد فيما بعد ومعه خريجون اشتركوا فى حلقة دراسية عن علم اجتماع الدين. وكانت "بيجي" واحدة من هؤلاء الخريجين. وصلنا وجلسنا فى آخر مقاعد الكنيسة قريباً من الباب الخلفى. كان ما نشعر به من حب الاستطلاع ممزوجاً بالقلق عندما كنا ننتظر أن يبدأ القداس... وفى البداية تصورنا أن وجوب قيامنا بمشروع بحثي مبنى على الملاحظة بالمشاركة وموجه إلى هذه الكنيسة أمر فيه شيء من المزاح وشيء من التحدى. وبعد عدة أيام من زيارة الطلاب المشاركين فى الحلقة الدراسية قررنا أن نتحرى، عما إذا كانت دراسة هذه الكنيسة ستكون ممكناً أم لا. فنحن، من الناحية العملية، لا نعلم شيئاً عن تلك العقيدة الدينية الإحيائية المنتشرة بالريف، كما أن معرفتنا بالأفراد الذين يمسكون الثعابين بأيديهم كانت أقل من لا شيء. ولم يكن لدينا أدنى فكرة عما إذا كنا سنلقى من هذه الكنيسة ترحيباً يكفى لقيامنا بدراستها أما لا. (سوليفان، وإليفسون، ١٩٩٦، ص ٣٤).

ثمة مجموعة من القيود الاقتصادية والقيود العملية التى تتحكم فيما إذا كنت ستقرر – أو لا تقرر – أن تقوم ببحث إثنوجرافى. ذلك أن البحث الإثنوجرافى يتطلب جهداً كثيراً كما يتطلب قدراً كبيراً من الوقت، والطاقة والموارد.

ويعتمد المنظور الإثنوجرافى على مجموعة من المسلمات الفلسفية أو الإبستمولوجية المتعلقة بطبيعة العالم الاجتماعى. ويعتمد العمل الإثنوجرافى، فى القدر الأعظم منه، على منظور **تأويلى** فى مقابل المنظور **الوضعى** لطبيعة

(*) Pentecostal Christian Church من الشيع البروتستانتية المتشددة فى أمور العبادة (المراجع).

الحقيقة الاجتماعية. وهدف هذا النوع من البحث هـو استكـشاف الظـواهر الاجتماعية ووصفها. ومع هذا، فإن ذلك لا يعنـي أن بعـض الإثـوجرافيين ينسلخون عن وضعيتهم كذلك عندما يستعملون الطرق الكمية للتوصل إلى فهم للمجتمع الذى يدرسونه. وقد يقوم بعض الإثنـوجرافيين إلـى جانـب ذلـك "بالاختبار الشامل" للفروض التى سبق لهم تبنيها فى هذا الميدان كذلك. ومـع هذا، فإن سؤال البحث الإثنوجرافى يكون - فى العادة - سـؤالاً توجيهيـاً لا يعبر عنه بلغة الفروض أو باستعمال مجموعة من القضايا. فكما ذكرنـا فـى الفصل الأول من هذا الكتاب، فإن النظرة الوضعية لمجتمع بحث معين إنمـا تبحث عن "الحقيقة" التى تنتظر أن يدركها الباحث طالما ظل ملتزماً بالتوجـه الوضعى، بحيث لا يسمح لاتجاهاته وقيمه الشخصية أن تتدخل فى عمله فـى هذا المجتمع. فجمع المعلومات طريق ذو اتجاه واحد أساساً - حيـث يطـرح الباحث الأسئلة ويقوم هؤلاء المبحوثون بالإجابة. فلا يوجد إلا قدر يسير مـن الأخذ والرد بين الباحث والمبحوث. وينظر **الاتجـاه التـأويلى** إلـى العـالم الاجتماعى على أنه مؤلف من تلك المعانى/ والقصص/ والروايات التى يقدمها الأفراد فيما يتصل بفهمهم لعالمهم الاجتماعى. إذ يوجد فى هذه الحالة تفاعـل دينامى بين الباحث والمبحوث. وقد توجد حقائق متعددة داخل نفس المجتمـع، وذلك بناءً على الرؤى التى تؤمن بها تلك التشكيلة المتنوعة من المقيمين فـى هذا المجتمع المعين. كما نجد إلى جانب ذلك طائفة من الإثنوجرافيين الـذين يتجاوزون - فى عملهم - نطاق الوصف والفهم. ذلك أن بعض العمل الميدانى الإثنوجرافى يتبنى موقفاً نشطاً سياسياً، ويضع لنفسه هدفاً يرمى إلى التغييـر الاجتماعى، كما يرمى إلى تمكين أبناء ذلك المجتمع الذى يدرسه. ويقدم ذلـك الموقف الإثنوجرافى المغالى فى الإيمان بالالتزام السياسى الاجتماعى منظوراً تأويلياً كما يتبنى فى الوقت نفسه **منظوراً نقـدياً**. وتهدف الإثنوجرافيا النقديـة إلى فهم الحياة الاجتماعية من أجل تغيير الطريقة التى يتبعها حائزو القوة فى تهميش أولئك المستضعفين الذين ليس لديهم إلا القليل من القوة (بيلى Bailey، ١٩٩٦، ص ٢٥). وقد درست كريستين سليتر Christine Sleeter (١٩٩٢) التعليم متعدد الثقافات سعياً وراء تغيير النظم المدرسية. "... لقد سعيت لفهـم

السبب الذى يجعل المدارس تخدم – على الدوام – أطفال الفئات المسيطرة فى المجتمع خدمة أفضل مما تقدمه لأطفال العائلات الفقيرة وعائلات الملـونين، وأفضل مما تقدمه للأطفال الذين أنجبتهم فتيات صـغيرات" (ص ٥٥). وقـد قامت ببحث إثنوجرافى نقدى لنظام مدرسى موجود بحى مـن أحيـاء وسـط المدينة بهدف الوصول إلى فهم الخفايا الداخلية للتعليم متعدد الثقافات، قاصـدة من ذلك الإسهام فى تطوير السياسة الاجتماعيـة المتعلقـة بـالتعليم متعـدد الثقافات:

يشير هذا الكتاب... إلى السبب فى أن وجود ذلك الخليط من العاملين بالمدارس يجب ان يعكس التنوع الكبير للخبرات الحياتية الذى مـن شـأنه أن يزود المدرسين بزاد وفير من المفاهيم عن معنى التنوع الثقـافى. ومـن ثـم يصبح تنويع هيئة التدريس قضية سياسة تعليمية، وهذا الكتـاب يعـالج هـذه القضية... (ص ٥٦)

هناك تشكيلة منوعة من الاتجاهات النسوية فى الإثنوجرافيـا، تبعـاً لمنظور المجال الذى يتخصصون فيه، ووفقاً للموقـف النظـرى والأهـداف السياسية لأى إثنوجرافى نسوى معين. والأمر الذى يجمع هذه الاتجاهات هـو نوع من الالتزام العميق بفهم القضايا والاهتمامات التى تـشغل بـال النـساء انطلاقاً من وجهة نظرهن، وبالاهتمام – بصفة خاصـة – بأنـشطة النـساء "وتصرفاتهن" فى مجتمع البحث. وقد اضطلع البحث الإثنـوجرافى النـسوى المبكر بإنجاز الكثير للكشف عن الجوانب "الخفية" لأدوار النساء فى مجتمعات البحث الإثنوجرافى. وقد ينظر إثنوجرافى نسوى معاصر إلى دراسة "وايـت" لحى كورنرفيل، ثم يتساءل: أين هن النساء اللاتى يعشن فى هذا المجتمع؟ وما هى حكايتهن؟ وفى الوقت الذى قام فيه "وايت" بإنجاز الكثير لإلقـاء الـضوء على الحياة فى ذلك المجتمع المحلى للإيطاليين انطلاقاً من وجهة نظر سـكانه من الرجال، فإننا لا نعلم إلا القليل عن حياة النساء اللاتى يسكُنَّ هذا الجيـب الإيطالى – الأمريكى.

أما العمل الذى قدمته باتى لاثر Patti Lather وكريس سمثيز Chris Smithies (١٩٩٧) فهو مثال مهم للبحث الإثنوجرافى النسوى الذى يفـسح

المجال للصوت المعبر عن مشاغل النساء وقضاياهن. فقد قامت لاثرو سمثيز بإجراء المقابلات، وبالمشاركة فى الحياة اليومية للنساء اللاتى التقتا بهن من خلال جماعات المتطوعين لدعم مرضى الإيدز فى ثلاث مدن بالولايات المتحدة. وقد درستا هذا الوباء عن طريق التركيز على الجماعات السكانية من النساء المصابات بالإيدز واللاتى ظل صوتهن مكتوماً، كما قدمتا أوصافاً متعمقة لخبرات النساء اللاتى يعشن وهن مصابات بالإيدز.

إن انتقاء موضوعات البحث التى لها أهمية شخصية وسياسية لدى الباحث تعنى أيضاً أن ينفتح المرء انفتاحاً كاملاً على طائفة متنوعة من العواطف والأحاسيس. وقد وجدت كارول بيلى Carol Bailey، والتى درست الإثنوجرافيا دراسة متخصصة، أن هذا الكلام ينطبق عليها عندما كانت تقوم بمشروع تقييمى.

خلف الكواليس مع كارول بيلى

العميل طفل عمره ست سنوات، وهو ذكر أبيض اللون شُخِّصت حالته المرضية بأنه مصاب بمرض إيه. دى. إتش. دى. ADHD(*)، وهو نوع من اضطراب المزاج المؤقت، كما شُخِّص بأنه متخلف فى نموه. ونظراً لكونه فى السنة الثانية برياض الأطفال، فإنه يحتاج لمعاون يوفره له برنامج علاج مدرسى بسبب ما تتصف به سلوكياته من ميل لتحطيم الأشياء وللعنف فى بعض الأحيان. وكان هذا العميل قد أودع مرتين فى مستشفى للعلاج النفسى. وهو يرفض الامتثال لأى قواعد فى المنزل، وتُصيبه يومياً نوبات غضب يبكى فيها؛ ويصرخ، ويضرب أخاه ويدمر الممتلكات. وكان قد تعرض لانتهاك جنسى وقع عليه من أحد جيرانه فى السنة الماضية. ووالدته تتعاطى المخدرات وتسمح لأصدقائها من الفتيان بالمعيشة معهم من وقت لآخر. وهو معرض للاحتمال الوشيك للإيداع فى إحدى دور الرعاية والعلاج. ويمثل

(*) واسمه بالكامل Attention Deficit Hyperactivity Disorder أى مرض قصور الانتباه والنشاط المفرط. (المترجم)

اشتراكه فى "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى"(*) الأمل الوحيد له للبقاء فى بيته.

وقد تم تحوير الوصف المذكور أعلاه لحماية هوية العميل، فإنه لا يوجد أى مبالغة فى أى تفصيل من التفاصيل الواردة فيه. كما أن هذا العميل لا يختلف عن الفتيان الآخرين الذين يتلقون خدمات "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى"، وهو برنامج مُكثف للتدخل العلاجى يتم تنفيذه بالبيت وموجه للصغار المصابين بأمراض عقلية حادة خدمة لهم ولعائلاتهم. وهذا البرنامج مصمم لتقليل حدة سلوكيات العميل غير اللائقة والوصول بها إلى المستويات المقبولة، ولتحقيق الاستقرار فى بيت العميل. وهدف هذا البرنامج هو حماية الصغار من إيداعهم فى إحدى دور الرعاية الداخلية أو فى مستشفى الطب العقلى، وذلك نظراً لنقص البدائل الأخرى الملائمة.

وأنا أقوم حالياً بتنفيذ برنامج لتقييم "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى" بناءً على طلب أصحاب البرنامج. ويُعد هذا التقييم نوعاً من تقييم التنفيذ أو قل: نوعاً من تقييم العوامل المؤثرة فى تكوين البرنامج المذكور، كما أنه يعد نوعاً من التقييم التجميعى أو التحصيلى (أى الذى يتناول جميع ما حققه البرنامج من ثمار ونتائج). ولبرنامج العلاج السريرى الافتراضى هيئة من الموظفين المدربين تدريباً جيداً، كما أن له دليل عمل يحوى القواعد والإجراءات التى تنظم تدخله فى علاج الحالات. وتتمثل مهمتى أثناء قيامى بتقييم التنفيذ فى التحقق مما إذا كان هذا الدليل متبعاً أم لا، وما إذا كان "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى" يحقق أهدافه أم لا. وأنا أستعمل البيانات الكيفية أساساً لتقييم التنفيذ. وحيث إن تقييم التنفيذ يمضى قُدُماً، كما أن نتائج الدراسة تُقدم للمسئولين عن إدارة البرنامج، فإنهم يجرون بعض التغييرات التى أقترحها فى تقريرى. ويستمر تقييم التنفيذ إلى أن تُصبح إدارة البرنامج راضية عن مستوى دقة برنامجى وعن مستوى جودة برنامجها.

(*) Virtual Residential Program برنامج رعاية وعلاج مكثف بنفس النظام المتبع فى المستشفيات، ولكنه ينفذ فى البيت بنفس دقة وتنظيم المؤسسة الطبية. (المراجع)

ومن شأن تقييم النتائج أن يلقى الضوء على وضع العملاء من حيث قيامهم بالواجبات أو المهام التى يُكلفون بها، أى: هل ظلوا متواجدين داخل البيت أم لا، وهل وضع الأداء والإنجاز هذا متماثل عند مجموعة متنوعة من العملاء أم لا. وتُستعمل البيانات الكمية - غالباً - فى قياس النتائج. وتُعتبر النتائج التى تحققت حتى الآن نتائج ممتازة. حيث لا يزال سبعة وسبعين فى المائة من الـ ٩٨ عميلاً الذين يرعاهم "برنامج العلاج السريرى" يؤدون ما عليهم داخل هذا المجتمع الصغير. كما لم يعثر على اختلافات لها دلالة إحصائية بين معدلات الأداء والإنجاز عند الجماعات المختلفة من حيث النوع الاجتماعى ومن حيث العِرق أو الإثنية.

ويرجع السبب فى تعقيد هذا النوع من التقييم إلى أن "برنامج العلاج السريرى الافتراضى" موجود فى ولايات أمريكية متعددة، كما أن هذا التقييم يتطلب تحليلاً لسجلات العملاء. ومع ذلك، فإن عمليات التقييم المعقدة تعد أمراً روتينياً عند الباحثين المعنيين بالتقييم والذين يرتكز عملهم على أساسٍ من أحد النماذج النظرية التأويلية. أما ما يجعل هذا التقييم - بالذات - تقييماً مُشكلاً فهو أنه من العسير على أن أقرأ سجلات العملاء هذه بدون أن تغلبنى الانفعالات الجياشة.

وعندما أقرأ التعليقات التى كتبها الأطباء المعالجون يفترض أن أستخرج منها بيانات للتحليل الكيفى. وينبغى علىَّ أن أراقب ما فى السجلات من أنماط سلوكية متكررة وأن أدون ملاحظات سريعة موجزة كلما طرأت على ذهنى فكرة. ومع ذلك، فإنى لا أفعل هذا، إذ أشعر باليأس، والعجز، والغضب.

إن الحياة التى يعيشها أعضاء أسر هؤلاء الصغار والأوصياء عليهم هى حياة مشوشة فى أغلب الأحيان. ويراودنى الشعور بالغضب لأننى أريد أن ألوم هؤلاء الكبار وأن أجعلهم يتحملون مسئوليتهم عن الألم الذى يُصيب أطفالهم. فقد كانت إحدى الأمهات تزيد من جرعتها المعتادة من المخدرات كلما أصبح سلوك ابنتها أكثر تهذيباً وملاءمة. فكيف لا أقول لها إنها هى المسئولة عن توقف طفلتها عن التقدم؟

ونظراً لأن البحث الكيفى يستلزم – عادة – بيانات يتم جمعها من أكثر من مصدر، فقد أجريت مقابلات غير رسمية مع مُوظفى "برنامج العلاج السريرى الافتراضى". وقد زودتنى هذه المقابلات بتفسير آخر لهذه البيانات. فالكبار أيضاً يعانون ويحتاجون للمساعدة. إذ أن بعض الوالدين أنفسهم مصابون بأمراض عقلية كما أنهم ضحايا لسوء المعاملة فى بيوتهم وضحايا للفقر. ولكن الأطباء يستخدمون منظوراً علاجياً يأخذ فى اعتباره الأوضاع العائلية ويقدم أنواعاً متعددة من العلاج فى نفس الوقت. معنى هذا أن الأطباء المعالجين ينظرون إلى الكبار والصغار باعتبارهم وحدة واحدة، وليسوا كجماعة يتم تحريضها ضد الجماعة الأخرى. وقد ساعدتنى هذه الرؤية التى ينظر بها الأطباء العاملون فى "برنامج العلاج السريرى الافتراضى" على توسيع نطاق نظرتى عندما عُدت مرة ثانية إلى بيانات هذا العميل.

وعندما كنت أقرأ، وأصنف، وأُحلل هذه البيانات مراراً وتكراراً، وأنا أبحث عن الروابط بين الإطار النظرى، والقيم الأساسية، والإجراءات المُتبعة فى "برنامج العلاج السريرى الافتراضى" تنبهت إلى أن أُلفتى لهذه البيانات قد خففت من رد فعلى العاطفى الصارخ. وكنت وقتها لا أزال أشعر بشيء من اليأس، إلا أننى كنت أشعر بالأمل كذلك، نظراً للتقدم المُدْهش الذى تحقق أثناء التدخل العلاجى بالنسبة لأغلب هؤلاء العملاء.

إن بعض من يمارسون البحث الكمى وحده يتهمون الباحث الكيفى بأنه يقوم بعمل لا هو بالموضوعى ولا هو بالمحايد من ناحية القيم. ومع أننى أستطيع أن أُجرى مناقشة عقلانية عن الموضوعية وعن الذاتية، وعن تآلف الذوات فإننى أجد نفسى أقل صبراً على هؤلاء الذين يقولون إن الباحثين الكيفيين ليسوا محايدين تجاه القيم. فلا ريب أننى لست محايدة تجاه القيم. وكيف لى أن أكون كذلك؟

إننى أريد "لبرنامج العلاج السريرى الافتراضى" أن يعمل بنجاح. وأريد لهؤلاء الصغار أن تكون لهم حياة تُشبه الحياة التى يعيشها الأطفال والمراهقون الذين لا يعانون من مثل هذه المشاكل الحادة. وفى كل مرة أتلقى فيها بيانات جديدة، أسارع بالذهاب إلى القسم الإدارى ليعرفنى إن كانت الحالة

قد تحسنت وأن هناك "نهاية سعيدة" لمشكلة هذا العميل. وأنا كذلك أتمنى حدوث "نهاية سعيدة" لفرق العلاج، وللمُشرفين، ولمدير "برنامج العلاج السريرى الافتراضى". إننى منبهرة بمدى الجهد الذى يبذلونه فى عملهم، وبمدى إخلاصهم فى أداء مهنتهم، وبمدى ما يتصفون به من عطف ورعاية. وإننى - والحق يُقال - لسعيدة بوجود أخبار طيبة أكثر من الأخبار السيئة التى ترد فى البيانات الموجزة الخاصة بنتائج العلاج.

إن اهتمامى بالعاملين فى "برنامج العلاج السريرى الافتراضى"، وبالعملاء، وبالأفراد الذين يبذلون الرعاية لهم لا يمنعنى من إجراء تقييم دقيق صارم. وأنا لا أُثنى على أمانتى، إنما أقول "الحقيقة" وحسب، وهى - والحق يقال - تتسم حتماً بأنها حقيقة متحيزة ومُركبة، وتم غربلتها من خلال نظرتى التحليلية. ذلك أن البحث التقويمى لا يكون صحيحاً، ولا ملتزماً بالأصول الأخلاقية إذا تم التلاعب فى البيانات، والتحليل، والتفسيرات، والتقارير بحيث تعكس الجوانب والاعتبارات التى يؤثرها الباحث. وأنا لا أزال أطرح أسئلة البحث التى قد تتطابق أجوبتها مع ما هو مطلوب من "برنامج العلاج السريرى الافتراضى" أن يقوم بتحسينه وتطويره. وأنا بمسلكى هذا أشارك فى هذه الجهود التى تبذلها مجموعة من المهنيين الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة، ويحتاج إلى خدماتها العملاء وعائلاتهم.

اختيار مجتمع البحث

كما رأينا فى الدراسة التى قامت بها كل من بيجى سوليفان وكيرك إليفسون والقائمة على الملاحظة بالمشاركة، والتى أجرتاها على إحدى الكنائس الإحيائية، فإن حُسن اطلاع المرء على ظروف مجتمع معين قد يدفعه - فى الواقع - إلى حُب استطلاع هذا المجتمع الذى يدفعه إلى أن يرغب فى بحثه. وفى أحوال أخرى قد يكون اختيار الباحث لسؤال بحث مُعين هو الذى يُحدد أى مواقع البحث تكون مقبولة وصالحة وأيها يكون غير مقبول، فإن من الأمور الأساسية أنك تختار موقع البحث الذى سيزودك بالمعلومات التى تحتاج

إليها لتعالج سؤال بحثك/أو أسئلة بحثك. وفى بعض الأحيان قد يكون من الضرورى أن تختار أكثر من موقع واحد للبحث.

وهناك ثمة عوامل متعددة قد تمثل قيوداً على فرصة اختيار موقع بحث معين أو يتيح مثل هذه الفرصة.

- هل بمقدورك أن تُجرى البحث فى هذا المجتمع؟
- إلى أى مدى يمكن اعتبار سهولة الدخول إلى ذلك المجتمع عاملاً مؤثراً؟

هناك بعض المواقع التى قد يظن المرء أن من العسير الدخول إليها، على حين قد تكون فى الواقع مفتوحة على مصراعيها أمام الباحث كنتيجة لشبكة العلاقات الخاصة التى تربط هذا الباحث بذلك المجتمع. وقد تظل مواقع أُخرى يظن المرء أن من السهل دخولها؛ قد تظل مُغلقة أمام الغُرباء عنها. ويتحدد كون الفرد "غريباً" فى نظر تلك الجماعة على طبيعة ذلك المجتمع نفسه. مثال ذلك أن بعض المواقع قد تحظر دخول أنماط معينة من الأفراد بناءً على أعمارهم، أو جنسهم، أو خلفيتهم العرقية/ أو الإثنية أو طبقتهم الاجتماعية. إن تيرى ويليامز Terry Williams عالم اجتماع أمريكى أسود يهتم بدراسة ثقافة تعاطى الكوكايين. وقد يظن معظم الباحثين بأن هذه الثقافة تستعصى تماماً على الوصول إليها. إلا أن عوامل معينة لعبت دوراً أساسياً فى مساعدة ويليامز على الظفر بالدخول إلى مجتمع "النوادى الليلية الساهرة"(*) بوصفها موقعاً لدراسته. وهو يقول فى هذا الصدد:

فى سنة ١٩٧٤، وبعد أن أمضيت عدة سنوات من الدراسة الجامعية فى علم الاجتماع فى جامعة سيتى City University فى نيويورك، التحقت بوظيفة مدرس فى كلية جون جاى John Jay للقضاء الجنائى. وقد اقتضت مهمتى الأولى أن أسافر يومياً بالقطار من الحرم الرئيسى للجامعة إلى مدينة ريكرز آيلاند Rikers Island للتدريس بالبرنامج التعليمى الذى تنظمه الكلية

(*) Afterhours clubs هى تلك النوادى الليلية التى تفتح أبوابها بعد انتهاء ساعات العمل فى المحلات التجارية (المترجم).

هناك لبعض المحتجزين. وبعد سنة من العمل فى هذا البرنامج الخاص كونت علاقة مودة مع العديد من هؤلاء النزلاء، والذين كان كثير منهم يقضون مدة العقوبة تنفيذاً لأحكام خفيفة نسبياً بالسجن. وعند الإفراج عن بعضهم دعانى ثلاثة منهم وعرضوا علىَّ أن يصحبونى معهم إلى المدينة. وكشفوا لى عن حياة الليل فى مدينة نيويورك كما لم أرها من قبل أبداً. وفى النوادى الخاصة الصغيرة المعروفة باسم "النوادى الليلية الساهرة" تم تقديمى لتشكيلة عجيبة من الناس من الموسيقيين، ومتعاطى المخدرات، وجماعات الروكرس(*) البانك، والمتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال فى الملابس والسلوك، وموظفى السكرتارية، والأطباء، والراقصين والراقصات، والمقامرين، والممثلين، ورجال الشرطة، والبغايا - حيث يتردد كل هؤلاء على هذا المكان ليتقاسموا أسلوب حياة قائماً على التمتع بتعاطى الكوكايين وعلى اللذة والإثارة الناجمتين عن قوة تفاعلهم مع بعضهم البعض. (ويليامز، ١٩٩٦، ص ٢٨)

فى بعض الأحيان يتوقف اختيار مجتمع معين للبحث على اعتبار يتعلق "بالمسائل العملية" كمسألة الاقتصاد مثلاً (ما مدى التكلفة المطلوبة لتجرى البحث فى هذا المجتمع؟) ومسألة القيود الزمنية (كم من الوقت يتعين عليك أن تقضيه فى هذا المجتمع؟ وهل يتعارض بحثك مع الواجبات والالتزامات الأخرى؟) والمخاطر التى يحتمل أن تصيبك بوصفك الباحث (فهل من الممكن مثلاً أن تتعرض لخطر الإصابة بضرر بدنى بسبب دخولك موقعاً تقع فيه أنشطة غير مشروعة؟). وتقدم روث كوين سميث Ruth Queen Smith مثالاً للكيفية التى أثرت بها واحدة من تلك المسائل العملية تأثيراً معاكساً على قدرتها على اختيار مجتمع كانت مهتمة به. فقد كانت تقوم بإعداد رسالتها للدكتوراه فى التربية، كما أنها فى الوقت الذى كانت راغبة فيه فى إجراء البحث فى مجتمع مُعين كان جدولها الدراسى يتعارض مع قدرتها

(*) Rockers هم فئة "مجاذيب" موسيقى وأغانى الروك. ويرتبط هذا الهوى بارتداء الملابس المصنوعة من الجلد وركوب الموتوسيكلات. (المراجع)

على إجراء الملاحظات الجوهرية التى كان يتعين عليها القيام بها فى ذلك المجتمع:

فى بادئ الأمر، فكرتُ فى ثلاثة مجتمعات ذات ثقافات مختلفة لإجراء هذه الدراسة الإثنوجرافية فى واحدة منها. وكان مجتمعان من هذه المجتمعات الثلاثة يضمان أناساً فقراء يعيشون فى بيئات متجانسة عرقياً. وكان هذان المجتمعان المحتملان لإجراء الدراسة تستلزمان منى أن أقوم بإجراء الملاحظات وإقامة بعض العلاقات داخل كل ثقافة منهما بين الساعة التاسعة صباحاً والساعة الثالثة بعد الظهر، لأن هذه الفترة هى التى كانت تتم فيها مُعظم التفاعلات الاجتماعية الثقافية فى هذين المجتمعين: وقد أيقظنى الواقع من غفلتى بسرعة. فقد كان كلا هذين المجتمعين المحتملين يتيحان فرصة مؤكدة يمكن أن تستوعب وجود نشاط باحث إثنوجرافى. ومع ذلك، وفى ظل ظروفى التى يحكُمنى فيها جدول الدراسة لبرنامج الدكتوراه، والذى يفرض على واجبات كثيرة أدركت أنه ليس من مصلحتى المُثلى أن أقوم بأى من هاتين الدراستين فى هذا الوقت. لذلك سلمت أمرى للواقع العملى. وقد أتاح لى هذا الاستسلام مساحة من التأمل استطعتُ أن اكتشف فيه مختلف جوانب عملية تحديد اختياراتى البحثية، والانتقاء من بينها، وترتيبى لها من حيث صلاحيتها للبحث. (Ruth Queen Smith, 1998, p. 91).

بمجرد أن يتم اختيار سؤال البحث والمجتمع الذى سيجرى فيه، تكون الخطوة التالية هى السعى إلى الدخول فى هذا المجتمع ووضع الأساس الوطيد للدور الذى سوف تقوم به كباحث إثنوجرافى فى هذا المجتمع.

الحصول على مدخل لمجتمع البحث وتقرير دورك فيه

تُعتبر الطريقة التى بها تظفر **بالدخول** فى مجتمع محلى ما أو فى موقع جماعة ما أمراً حاسماً فى تحديد نمط البيانات - هذا إن وجدت هذه البيانات - التى ستكون قادراً على جمعها، وفى تقرير مدى صعوبة أو سهولة التقدم فى عملك البحثى. وهنالك عدد هائل من أساليب الظفر بالدخول فى موقعك، إلا أن الأسلوب الشائع للبدء هو إقامة **صلة شخصية** بشخص ما سواءً

أكان يعرف أحد أعضاء هذا المجتمع الذى ترغب فى دراسته أم كان يستطيع أن يقوم بدور الاتصال ببعض الأعضاء الرئيسيين فى مجتمعك هذا. وقد تبدأ بالتفكير فى أفضل طريقة للقيام بهذا الاتصال. هل تكتب خطاباً للحصول على إذن بالدخول و/ أو تقوم بإجراء مكالمة تلفونية؟ وما هو نوع هذا الخطاب؟ وما هو مقدار ما تكشفه من معلومات عن دراستك؟ كما أن من الضرورى أن تفكر فى كيفية حصولك مستقبلاً على تصريح من "لجنة دراسة مبحوثين من البشر" (إن كان فى المجتمع الذى ستدرسه لجنة من هذا النوع)، وكذلك التصريح الذى تمنحه اللجنة الرسمية للفحص والمراجعة (IRB) إن كُنت تعمل داخل مجتمع منظم تنظيماً رسمياً دقيقاً. وغالباً ما تضم المجتمعات مسئولين معينين (حراس البوابة)(*) تُعتبر موافقتهم أمراً لابد منه من أجل الظفر بالدخول والحصول على القبول. وقد لا يكون هؤلاء المسئولون (الحراس) بالضرورة هم الأفراد الذين منحوك التصريح بدخول مجتمع البحث. فبينما يُعد التصريح الرسمى أمراً مهماً، فإن بعض الناس فى المجتمع قد ينظرون إلى صلتك بأحد كبار المسئولين على أنها تمثل تهديداً لهم. أما ما قد يكون أهم من ذلك فى الظفر بالدخول فهو الدعم الراجع إلى موافقة "حراس البوابة" غير الرسميين الذين يشغلون مواقع أو مناصب أساسية فى المجتمع، والذين يقرر تأثيرهم على الآخرين فى المجتمع مستوى دخولك (أى مستوى

(*) أى: Gatekeepers إشارة إلى مفهوم حراسة البوابة Gatekeeping الذى طوره علماء اجتماع التنظيم. ويضع البناء التدريجى للتنظيمات الرسمية بعض الأفراد أو الجماعات فى مواقع حساسة تمكنهم من أن يراقبوا الوصول إلى السلع أو الخدمات أو المعلومات. وهم بذلك يملكون قوة أكبر من سلطة موقعهم الرسمى. ودرس علماء الاجتماع هذه الظاهرة فى إطار ظروف عديدة. من ذلك ما أوضحه تيار دراسات الإدارة الحضرية من أن المديرين الحضريين – مثل العاملين فى التخطيط الحضرى وموظفى الإدارة المحلية – يلعبون دوراً حيوياً كحراس لمراقبة الحصول على الموارد الحضرية (الإسكان، والأرض، وتصاريح البناء... إلخ). وقد قدمنا دراسة تاريخية مفصلة لمفهوم حارس البوابة الذى صاغه كورت ليفين K. Levin فى عام ١٩٤٧، ثم دخول هذا المصطلح إلى بحوث الاتصال الجماهيرى على يد دافيد وايت D. White، وأخيراً بعض الدراسات الحديثة التى أفادت من هذا المفهوم وطورته. انظر محمد الجوهرى وزملاءه، علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ٥٣ وما بعدها. (المراجع)

تمكنك من إجراء بحثك). ذلك أن لدى "حراس البوابة" غير الرسميين القدرة على أن يضفوا على حضورك نوعاً من "الاهتمام" أو نوعاً من "الإهمال". وثمة عوامل متعددة تؤثر على قدرتك على الظفر بالدخول إلى مجتمع معين. وأول هذه العوامل هو درجة كون هذا الموقع موقعاً "**عاماً**" أو "**خاصاً**".

والمواقع العامة كالمقاهى أو الحانات أو محلات غسيل الملابس بالخدمة الذاتية لا تتسبب فى تعويق كبير لعملية الدخول. ولكن هناك كثير من المواقع الخاصة التى لدى أعضائها حرص قوى على حماية الحدود المحيطة بموقعهم للحفاظ على خصوصيتهم. فإلى أى مدى يكون لأعضاء الموقع مصلحة خاصة فى كتمان أمورهم عن الغُرباء؟ مثال ذلك تلك المواقع التى قد تمثل الأنشطة غير المشروعة جزءًا مما يجرى فيها. حينئذ يصبح الظفر بالدخول شبه مستحيل بالنسبة للباحث، كما أن الدخول إلى مثل هذه المواقع قد يسبب الأذى للباحث. وقد يكون الموقع – فعلاً – موقعاً عاماً تماماً، كأن يكون دورة مياه عامة فإنه يكون لدى الموجودين فيه دافع قوى للتكتم على أنشطتهم فيه.

فى مقابل ذلك يمكن أن تتاح للباحث اختيارات عديدة للظفر بالدخول لبعض المواقع الشديدة "الخصوصية". ويتمثل الاختيار الأول – بطبيعة الحال – فى أن تدخل فى هذا الموقع "متخفياً" (أى منتحلاً هوية أخرى) لكى تفوز بالدخول. وقد قام لود همفريز Laud Humphries (١٩٧٦) بدراسة أنشطة المثليين الذكور الذين كانوا يمارسون أنشطة جنسية "غير مشروعة" فى دورات المياه العمومية. وكان همفريز قادراً على الظفر بالدخول إلى هذا الموقع متخفياً عن طريق التظاهر بأنه أحد الذكور المثليين، ثم يقوم بوظيفة البصاص أو "الناضورجى"(*) الذى يحذر "**الموجودين بالداخل**" (المشاركين فى نشاط جنسى غير مشروع) من التهديد الذى يُمثله حضور **بعض الغرباء**،

(*) المصطلح المستخدم فى الأصل هو Watch queen أى "الأنثى الحارسة"، وهو فرد وضعه الجنسى غير طبيعى ويخالط عادة الجماعات ذات الممارسات الجنسية غير الطبيعية. والفرد الذى يتولى مهمة الحراسة والإنذار هو الذى يطلق عليه هذا الاسم الملغز. (المراجع)

كالشرطة مثلاً أو الأفراد الذين لا يرون هذا الموقع إلا كدورة مياه عمومية فقط. ويعلق همفريز قائلاً:

استطعت من خلال قيامي بدور البصاص أو الناضورجي، أن أتجول بحرية في دورة المياه العمومية كما يحلو لي، مُتنقلاً من نافذة إلى نافذة، كما استطعت ملاحظة كل ما كان يجري بدون إزعاج من أراقبهم، ودون أن يؤثر ذلك على العمل الذي يقومون به. وقد مكنني قيامي بدور الخُنثي الحارسة من جمع البيانات عن سلوك المشاركين في أفعال المثليين... (Laud Humphries, 1976, p. 104)

ومن الاستراتيجيات المهمة الأخرى للتمكن من الدخول إلى موقع ما، استراتيجية تقوم على توطيد العلاقات مع الشخصيات البارزة ذات التأثير، الذين يُصبحون إخباريين. وقد يكون بعض الإخباريين، في الواقع، هم حراس البوابة في هذا الموقع. ويلاحظ وايت (١٩٩٦) أهمية الطبيب الذي كان شخصية محورية في مجتمع كورنرفيل، والذي أقام معه علاقة صداقة بعد أن عرفته به الأخصائية الاجتماعية التي كانت تعمل في ذلك الحي:

سبق أن تحدثت مع عدد من الأخصائيين الاجتماعين عن خططي وآمالي في التعرف على هؤلاء الناس وفي دراسة هذا الحي... وقد أدركت المشرفة على عمل الفتيات في دار الرعاية الواقعة في "نورتونز ستريت" ما أنا بحاجة إليه. فبدأت حينئذ تحدثني عن الطبيب. فقالت إنه شخص ذكي جداً وموهوب كان له دور فعال إلى حد بعيد في هذه الدار في وقت سابق، فإنه توقف عن الاشتراك العملي فيه... فإذا رغبت، فسوف تحدد ميعاداً لي لأراه في هذه الدار مساء أحد الأيام... لقد انتهزت هذه الفرصة... وبشكل ما، بدأت دراستي... عندما استدعتني الأخصائية الاجتماعية إلى مكتبها للقاء الطبيب .(Whyte, 1996, p. 20)

من خلال اتصاله الأول بالطبيب وصداقته معه، استطاع "وايت" أن يكتشف طريقه إلى دخول عالم الحياة اليومية الجارية في هذا المجتمع الصغير المُحكم النسيج. وقد قام الطبيب – في واقع الأمر – بدور الإخباري:

قدمنى الطبيب إلى تشيتشى Chichi – التى تتولى إدارة هذا المكان – قائلاً: "صديقى بيل Bill"، ثم قدمنى بعد ذلك إلى أصدقاء تشيتشى وزبائنها. وقد لبثت مع الطبيب فترة من الوقت فى المطبخ، حيث يجلس رجال عديدون فى جماعات ويتكلمون مع بعضهم البعض، ثم أمضيت فترة أخرى من الوقت فى الغرفة الأخرى أراقب لعبة القمار(*)... وعندما ذهبت للمرحاض، انفجر الجميع فى حوار ثائر باللغة الإيطالية، فاضطر الطبيب إلى أن يؤكد لهم أننى لست من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية. وقال لى إنه أخبرهم بصراحة أننى صديق له، وأنهم وافقوا على أن تسير الأمور على هذا النحو (Whyte, 1996, p. 26).

وقد قام الطبيب – فى الواقع – بتزويد وايت بتفسيرات عميقة الدلالة للحياة الاجتماعية فى كورنرفيل:

... كان الطبيب – بدون أن يتلقى أى تدريب – ملاحظاً لماحاً سريع الفهم، بحيث لم يحتج الأمر إلا إلى قدر قليل من التنبيه لمساعدته على الكشف عن ديناميات التنظيم الاجتماعى فى كورنرفيل. وإن بعض التفسيرات التى قدمتها فى بحثى إنما تعود إليه أكثر مما تعود إلىّ، إلى حد أنه أصبح من المحال الآن تمييز تفسيراته عن تفسيراتى. (وايت، ١٩٩٦، ص ٢٨).

وفى حين أن "وايت" اعتمد على الطبيب فى التوصل إلى فهم عميق للحياة فى كورنرفيل، إلا أن الاعتماد المُفرط على أى إخبارى وحيد أو الارتباط المُفرط بإخبارى محدد فى مجتمع الدراسة قد يكون له – فى الوقت نفسه – عيوبه ومساوئه. ذلك أن رؤية الأحداث من خلال عينى إخبارى بعينه فقط قد تؤدى إلى جعل ملاحظات المرء متحيزة. فالطبيب له رؤية معينة لهذا المجمع، ومع أن ملاحظاته وتفسيراته قدمت لوايت مساعدة كبيرة فى فهم كورنرفيل، إلا أن أسلوباً معيناً للرؤية هو أسلوب آخر لعدم الرؤية أيضاً(**). فلو فُرض أنه كان للطبيب – مثلاً – أعداء فى هذا المجتمع، فإن من شأن ارتباط وايت الوثيق بالطبيب أن يؤدى إلى إبعاد بعض القطاعات المهمة فى

(*) Crap game إحدى لعبات القمار يستخدم فيها نردان (المترجم).
(**) One way of seeing is also another way of not seeing.

هذا المجتمع المحلى عن البحث الذى يقوم به وايت، أو كان يمكن أن يؤدى إلى منع وايت من البحث عن إخباريين آخرين لهم رؤى مختلفة عن رؤى الطبيب أو يختلف ارتباطهم بهذا المجتمع المحلى اختلافاً شديداً عن ارتباط الطبيب به. وقد كان وايت على وعى بهذه الأمور كما قام بالبحث فعلاً عن حلفاء آخرين فى هذا المجتمع المحلى:

بينما كُنتُ أعمل فى ظل صلتى الوثيقة بالطبيب أكثر من أى فرد آخر، فإننى كنتُ أبحث دائماً عن القائد فى أى جماعة كُنت أدرسُها. ذلك أننى لم أكن فى حاجة لرعايته وحده، بل كُنت – كذلك – فى حاجة إلى التحالف والتعاون الأكثر فعالية مع هذه الدراسة. وحيث إن هؤلاء القادة كانوا يتمتعون بهذا النوع من الوضع فى المجتمع المحلى الذى يمكنهم من ملاحظة ما يقع من الأمور على نحو أفضل كثيراً مما يستطيعه أتباعهم، وحيث كان أولئك القادة – بصفة عامة – أشد مهارة فى الملاحظة من هؤلاء الأتباع، فقد وجدت أن أمامى الكثير الذى يتعين علىّ أن أتعلمه من خلال تحالُفى معهم تحالفاً أشد فاعلية. (وايت ١٩٩٦، ص ٢٨).

فى بعض الأحيان يعتمد النجاح فى الدخول إلى مجتمع البحث على الصفات التى يتصف بها الباحث الميدانى نفسه: عمره، ونوعه الاجتماعى، وطبقته الاجتماعية، وخلفيته العرقية/ الإثنية. فقد تجعل بعض هذه الصفات الاجتماعية أفراد المجتمع ينظرون إليه كواحد من الأقارب، أو ينظرون إليه كواحد من الأغراب. ومن الأمور المثيرة للاهتمام أنه فى أى موقع معين قد تتم الأدوار التى يقوم بها الباحث بكل سلاسة، من خلال قيامه بكل من دور القريب ودور الغريب في الآن معاً. ويتوقف تحديد الأهمية التى تتسم بها بعض الصفات الاجتماعية على مدى توافق هذه الصفات مع تلك الصفات الموجودة فى مجتمع البحث. فمن المحتمل أن قدرة أندرسون على النجاح فى الدخول إلى حانة جليز Jelly's قد تعززت بسبب وضعه كرجل أمريكى أسود اللون. فهو يشارك هؤلاء الموجودين فى حانة جليز بعض الصفات الأساسية التى يتصفون هم بها (وهى أنه من نفس عرقهم ومن نفس نوعهم). وعلى الرغم من أنه كان بالإمكان النظر إلى أندرسون باعتباره غريباً، خاصة فيما

يتصل بتعليمه (فقد كان يحضر للدكتوراه فى جامعة شيكاغو)؛ فإنه استطاع أن يتخطى بعض العوائق الاجتماعية الخطيرة ليظفر بالنفاذ إلـى جـوف العـالم الخفى لرواد حانة جليز.

وقد نجح أندرسون فى مصادقة هيرمان، الذى كان مـن المتـرددين بانتظام على حانة جليز ومن أفراد الجماعة المهيمن. ويسأل هرمان أندرسون أن يُصبح "ابن عمه". وقد نجح أندرسون فى أن يقوم بدور "القريب المصطنع" مع هيرمان مما أتاح له أن يكتسب وضع القريب مع أصدقاء هيرمان وكـذلك مع العاملين معه. ويشعر هيرمان بالارتياح النفسى للرابطـة التـى تربطـه بأندرسون بوصفه "ابن عمه" التى أتاحت له تفسير سبب وجوده فى هذا الموقع للآخرين. وتمكن أندرسون – من خلال توجيهات هيرمان – من اقتحام "الحرم المقدس" لحانة جليز وأن يظفر بمعلومات قيّمة عن العالم الاجتماعى للسود من الطبقة العاملة فى منطقة ساوث سايد بمدينة شيكاغو.

ويشعر بعض الباحثين بأن نوعهم الاجتماعى يمكن أن يكـون عقبـة خطيرة تحول دون النجاح فى الدخول إلى مجتمع البحث، خاصة عندما يكون هذا الموقع – بالنسبة للباحثات النساء – خاضعاً لسيطرة الرجال. فقـد أرادت أرلين كابلين دانيلز Arlene Kaplin Daniels أن تدرس مجتمع العسكريين إلا أنها تعرضت لمتاعب جمة عندما اكتشفت أنهم يريـدون منهـا أن تلتـزم بالدور الأنثوى التقليدى، متوقعين منها أن تبدى طائفة من التـصرفات الدالـة على الطاعة والخضوع. وعندما كانت تجرى مقابلة مع بعض مـنهم كـانوا يمتنعون عن إجراء المقابلة ما لم تضع نفسها فى مكانة دنيا، كأن تعد نفـسها بمثابة "دمية جميلة"(*) تجلب الحظ السعيد لمن معها (Daniels, 1967, pp. 285-286). وهى تقول فى ذلك:

قمت بتطوير استراتيجيات للتقارب معهم ولاسترضائهم... فتعلمت أنه لابد أن أغير من أسلوبى معهم. وبمجرد وجودى فى الميدان، تخليـت عـن صورتى عند نفسى بصفتى مديرة لمشروع بحثى ورجعت إلى دور الطالبـة

(*) فى الأصل mascot أى تعويذة أو شيء جالب للحظ (المراجع).

والملاحظة المتواضعة... وكان الأمر الذى بدأت أتعلمه هو أنه لابد لى أن أدفع ثمن نجاح مشروعى البحثى فى صورة إظهارى لأنواع معينة من الخضوع والإذعان لفكرة المكانة العليا للرجل. فقد كان يُنظر إلى بعض التصرفات باعتبارها تصرفات غير لائقة، بل كانت تعتبر تصرفات مهينة إذا صدرت من النساء: كقبضة اليد الشديدة عند المصافحة، أو المواجهة المباشرة بالنظر فى عين المُخاطب، أو الظهور بمظهر رجال الأعمال من حيث النشاط المفرط، أو الأسلوب الجريء فى الدعابة والمزاح بين الأقران، فقد كانت هذه التصرفات جميعاً تصرفات تثير الخصومة الشقاق. (دانيلز، ١٩٦٧، ص ٢٧٣).

وقد تبينت الباحثات اللاتى يعملن فى مجتمعات ذات خبرات "تقليدية" عن النساء، أنه لكى يحققن التوازن فى هذه الأدوار وينجحن فى الدخول فلابد من جعل الآخرين ينظرون إليهن باعتبارهن لا يمثلن تهديداً للرجال فى هذا المجتمع. وقد يؤدى إظهار الباحثات لمزيد من "الصفات الأنثوية" – كالصفات التى ذكرتها أرلين كابلان دانيلز – أو اتخاذهن أدواراً خاصة فى مجتمع البحث كدور "الإبنة" مثلا؛ قد يؤدى ذلك فى الواقع إلى زيادة احتمال نجاح أولئك الباحثات فى الدخول إلى المجتمع الذى يتسم بالتقليدية ويسيطر عليه الرجال، ومن ثم يحصلن على ما يردن من معلومات (Myerhoff , 1978).

ما هو الدور الذى ستقوم به فى مجتمع البحث؟ قضايا للتأمل

ثمة درجات مختلفة لاشتراك الباحث فى حياة مجتمع البحث. وكثيراً ما يوجد نوع من التوتر بين الحاجة للاقتراب من هؤلاء الموجودين فى المجتمع مع الاحتفاظ بدور الباحث فى نفس الوقت، وهو الدور الذى يقتضى درجة من الانفصال. وقد يقتضى بحث ما توافر المزيد من الارتباط بين الباحث والمبحوثين، بينما قد يتطلب بحث آخر قدراً أقل من الارتباط أو لا يتطلب أى ارتباط إطلاقاً. ويُعد إيجاد نوع من التوازن بين هذين الموقفين – الارتباط والانفصال – أمراً حاسماً في أغلب مجتمعات البحث الميدانى. ونتيجة لذلك تتوزع درجات المشاركة التى تجرى فى موقع ما على امتداد

متصل تبدأ بدور **الملاحظ الخالص**، ثم **الملاحظ بصفته مشاركاً**، يليه **المشارك بوصفه مُلاحظاً** وينتهى "**بالمشارك مشاركة كاملة**" (Gold, 1958). ولا يوجد خط دقيق يفصل بين هذه الأدوار، فقد يقوم الباحث، فى واقع الأمر، بالتقدم فى بحثه من خلال كل دور من هذه الأدوار مع تقدم بحثه الميدانى، وذلك عن طريق تحركه صعوداً وهبوطاً على ذلك الخط المتصل بين الملاحظة الكاملة والمشاركة الكاملة، وهو الأمر الذى يتوقف على الظروف التى يواجهها عملياً فى مجتمع بحثه.

الملاحظ الخالص

يقتضى دور الملاحظ الخالص أن تظل هوية الباحث مستترة؛ فالباحث لا يتفاعل مع هؤلاء الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث، بل يقوم بإجراء الملاحظات عن مجتمع بحثه باستعمال بعض الوسائل التى منها استعمال كاميرا فيديو مخبأة أو بالاختفاء وراء مرآة ذات اتجاه واحد (والتى تسمح له برؤية الموجودين خلفها بدون أن يستطيعوا رؤيته) أو وراء ستارة حتى يتجنب أن يكتشفه أحد. ويُتيح دور **الملاحظ الخالص** للباحث أن يدرس موقعاً ما بدون التدخل فى عملياته اليومية، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تقليل التحيز (أو التفاعلية) الناجم عن وجود الباحث المتفاعل مع العلاقات الاجتماعية القائمة فى هذا الموقع، والذى قد يصل إلى حد تغيير طبيعة هذه العلاقات نفسها. ذلك أن من الممكن أن يُغير الموجودون فى موقع البحث تصرفهم إذا علموا بوجود الباحث معهم.

إن للقيام بدور الملاحظ الخالص عيوبه ومثالبه. فهو لا يتيح للباحث أن يوضح المعانى ويجيب على الأسئلة المتعلقة بالأمور التى لا تكون واضحة له بذاتها للوهلة الأولى.

- كيف نعلم أن فهمنا للملاحظة يشاركنا فيه هؤلاء الأفراد الذين نقوم ببحث أحوالهم؟

من الممكن أن يعمل المكان المادى نفسه – الذى نجرى فيه ملاحظاتنا – على الحد من مدى رؤيتنا لما يدور فيه. فعندما نستعمل كاميرا فيديو

لملاحظة موقع ميدانى مُعين، فإن مكان وضع هذه الكاميرا يؤدى فى حد ذاته إلى خلق زاوية رؤية معينة للنظر إلى موقع البحث، وقد يُحد من قدرتنا على ملاحظة الموقع بأكمله. كما أننا نُضيف تحيزنا الشخصى الخاص بنا عندما نلاحظ موقعاً ما، وذلك لأن ملاحظاتنا تتم "فلترتها" (أى: غربلتها وتصفيتها) من خلال وضعيتنا البحثية الخاصة بنا، أى عرقنا، وطبقتنا، ونوعنا الاجتماعى، وما يتصل بذلك. فكل واحد من هذه العوامل يمكنه أن يؤثر على ما نلاحظه وعلى تفسيراتنا لهذه الملاحظات. ويصدق هذا الكلام بصفة خاصة على حالة الباحث الذى لا يكون له أى معرفة مطلقاً بالعادات الاجتماعية والأمور الروتينية الخاصة بالحياة فى موقع معين.

فإذا وضعنا نصب أعيننا هذه الإيضاحات والتحفظات، ستكون الدراسات القائمة على الملاحظة مفيدة بصفة خاصة فى فهم المعانى التى تحملها تصرفات الناس فى الحياة اليومية. وقد كان إرفينج جوفمان Erving Goffman (١٩٦٧) ملاحظاً ذكياً لما يقع خلال تفاعلات الحياة اليومية التى تجرى بين الناس، وخاصة فى الأماكن العامة. وقد كان جوفمان مهتماً بالأدوار التى نقوم بأدائها مع بعضنا البعض لدعم واستمرار ما يجرى فى حياتنا اليومية من تفاعلات محدودة. وهو يقدم منظوراً مسرحياً لتحليل وفهم تفاعلات الحياة اليومية. فنحن فى حقيقة الأمر "نتظاهر بأداء دور ما" مع بعضنا البعض كى ندعم وجود واستمرار هذه الأنماط من التفاعلات. وقد كان جوفمان مهتماً بصفة خاصة بالطقوس الاجتماعية التى نؤديها لكى ننفذ تشكيلة متنوعة من التصرفات ذات الطابع العام، كالانتظار فى الطابور، أو ركوب مصعد مزدحم، أو حين نلتقى بأحد معارفنا صدفة. فإنك قد تلاحظ، مثلاً، أنه حينما تكون فى مصعد مزدحم فإن معظم الأفراد ينظرون إلى الأمام ويتفادون تلاقى الأعين عندما يكونون مقتربين اقتراباً شديداً من الآخرين، خاصة الغرباء منهم. فهذه هى إحدى الطرق التى يتمكن بها الأفراد من التواجد على مقربة شديدة بدنيا، ومع ذلك يتفادون الألفة مع الآخرين.

ويعد العمل الذى قدمه روبرت "سمر" Robert Sommer مثالاً آخر على دراسة التفاعلات اليومية. فقد كان "سمر" (١٩٦٩) مهتما بالكيفية التى

يتبعها الأفراد فى فهم وتصور "الفضاء الشخصى" لكل منهم. والفضاء الشخصى هو تلك المنطقة المحيطة ببدنك والتى ترسم لها حداً لا يُفترض للآخرين (والذين أسماهم "سمر" "الغزاة" أو "المعتدون") الموجودين حولك أن يعبروه. لدينا جميعاً حدودنا الشخصية فيما يتعلق بحدود الفضاء الشخصى لكل منا عندما نتعامل مع بعضنا البعض. وتتحدد طريقة رسمنا لتلك الحدود بنمط العلاقة التى تربطنا بهؤلاء الذين يدخلون فضاءنا الشخصى. والحق أنه يوجد علم يدرس الفضاء الشخصى يُطلق عليه مصطلح proxemics، أى دراسة كيف يستعمل الأفراد الفضاء. ويسهب "سمر" فى وصف سلسلة من الدراسات القائمة على إجراء الملاحظات، والتى تتناول غزو الفضاء الشخصى للطلبة الذين يجلسون للعمل على منضدة الدراسة فى إحدى المكتبات الجامعية. وقد لاحظ أنهم يجعلون علامات لتحديد "إقليمهم" أو "منطقتهم الخاصة" عن طريق وضعهم لعلامات – كالملابس أو الكتب – لتحديد نطاق الفضاء "الخاص بهم". وقد أراد أن يكتشف أى الاستراتيجيات يستعملها الطلبة للدفاع عن فضائهم، وما الذى يفعلونه عندما يدركون أن شخصاً ما (وهو فى هذه الحالة شخص منتسب للمشروع البحثى لسمر) ينتهك فضاءهم عن طرق جلوسه فى مكان شديد القرب منه. عندما يدرك الطلبة أن فضاءهم يُنتهك، فإنهم يُبدون ردود أفعال سريعة لذلك عن طريق إظهارهم لإشارات دفاعية متعددة، أو زحزحتهم لأجسامهم، أو حتى بالانتقال بعيداً وترك المكان. ويُعلق "سمر" على ذلك قائلاً: "إذا أخفقت هذه التصرفات أو تجاهلها هذا المتعدى، أو غيّر مكانه هو الآخر، فإن الضحية يلوذ بالفرار فى نهاية الأمر" (ص٣٥).

وقد توجد ردود أفعال مختلفة على "التعدى" على الفضاء الشخصى. وتهتم كايا Kaya و فيزان Feyzan (١٩٩٩) بملاحظة كيفية الحفاظ على الفضاء الشخصى ومنع التعدى عليه فى ظروف الزحام. فقد قامتا بملاحظة الأفراد الذين ينتظرون فى طابور أمام آلات صرف النقود ATM فى مدينة أنقرة، فى تركيا. وتلاحظان أنه فى ظروف الكثافة العالية (أى الزحام)، يقوم الأفراد بالتعدى على الفضاء الشخصى للآخرين على نحو أكثر تواتراً مما يفعلون فى ظروف الكثافة المنخفضة. كما لاحظتا وجود اختلافات بين

النوعين الاجتماعيين فى أسلوب التعدى على الفضاء الشخصى، حيث يكون الذكور أكثر ميلاً للتعدى على حدود الفضاءات الشخصية للنساء.

على أن أغلب البحوث الميدانية تتطلب ما هو أكثر من الملاحظة. فقد لا يتيسر للباحث الموجود فى الميدان أن يحتفظ بموقف "الملاحظ الخالص" . إذ يوجد فى الميدان من يقومون – من غير قصد منهم – بشد الباحث إلى مستوى من المشاركة أشد قوة وكثافة مما قد يشعر الباحث بالارتياح إليه، وذلك كما تعلق إيمرسون و بولنر قائلتين:

خلافاً للباحثين المعمليين الذين تسمح لهم المرايا ذات الاتجاه الواحد بالبعد عن المبحوثين والقيام بملاحظتهم دون حاجة إلى أى ارتباط بهم؛ على خلاف ذلك يعجز الباحثون الميدانيون – بحكم الضرورة – عن الجلوس فى الخلف ومراقبة التفاعلات الاجتماعية بدون اشتراك مطلقاً مع أطراف ذلك التفاعل. كما لا يستطيع الباحث الميدانى أن يُعلن بطريقة صريحة أن له وضعاً منفصلاً وأن يلزمهم بذلك: فقد يقوم الأعضاء المضيفون له بمقاومة تعريفه لمستوى (عدم) اشتراكه/أو (عدم) ارتباطه، بل قد يصل بهم الأمر إلى تجاهل تعريفه لدوره كباحث، أو محلل، أو ملاحظ (Emerson & Pollner, 2001, p. 241).

- كيف يستطيع الباحث أن يحافظ على المسافة بينه وبين المبحوثين فى موقع البحث حتى لا يتعرض دور الملاحظ للشبهة أو الالتباس؟

وكما تكلمنا عن أهمية "النجاح" فى الدخول إلى مجتمع البحث، نلاحظ أنه توجد أيضاً استراتيجيات قد يحتاج الباحث لاستعمالها كى يحافظ على دور فى الموقع يتيح له أكبر قدر من الملاحظة. وكما تذكر إيمرسون و بولنر (٢٠٠١)، فإن الباحثين الميدانيين قد يحتاجون إلى أن يكونوا على علم بكيفية "**إبقاء المسافة**" بينهم وبين الآخرين فى الميدان حتى يحافظوا على هويتهم البحثية (ص ٢٤١). وتنجم إحدى المخاطر التى تتهدد دور الملاحظ من جانب بعض أفراد مجتمع البحث الذين يجذبون الباحث جذباً للانخراط فى المزيد من لعب دور المشارك، أو من جانب أولئك الذين ينشغلون بالتفاعل مع الباحث بصفات غير صفته كباحث ميدانى (كصديق أو غريب مثلاً). (ص ٢٤٢).

وقد يكون الحرص على "البقاء على حدود الهامش" طريقة لمواجهة مثل هذا التهديد. ومع ذلك فإن هذه الإستراتيجية قد تأتى بنتيجة عكسية، فتؤدى إلى تنفير أفراد مجتمع البحث، خاصة إذا كانوا قد أبدوا رغبتهم فى الاندماج مع الباحث على النحو الذى يتصورونه، وأن هذه الرغبة قد رُفضت مرارا. وتسمى إحدى الإستراتيجيات الأخرى، والتى تتسم بأنها غير مباشرة بدرجة أكبر؛ تُسمى **استراتيجية البراعة والدهاء** finessing. وفيها يستعمل الباحث "اللباقة الدبلوماسية" و"الإجابات المراوغة". وتقدم إيمرسون و بولنر مثالاً مثيراً للاهتمام عن "الدبلوماسية" التى أبداها أحد الباحثين الميدانيين كان قد طُلب منه أن يفاضل بين جماعتين فى موقع البحث. فعندما سُئل أى الجماعتين على حق، وجد هذا الباحث الميدانى أن "رد السؤال بأن يلقيه هو على الفريقين المختلفين، أو الإشارة إلى مزايا كل جماعة أو تحويل هذا الخلاف بأكمله إلى دعابة"؛ وجد هذا الباحث الميدانى أن هذه التصرفات هى الطريقة المُثلى لمعالجة مثل هذه المواقف الصعبة. (ص ٢٥١).

وقد تدعو الحاجة إلى رفض أكثر صراحة فى بعض الأحيان من أجل الحفاظ على هوية الباحث وحمايته من التورط فى أنشطة لا يشعر بالارتياح لها. وقد تكون بعض هذه الأنشطة غير مشروعة، وقد تتخذ غيرها من الأنشطة شكل المفاتحات أو العروض الجنسية المرفوضة. وفى هذا الصدد قامت بنج تشونج هسيونج Ping Chung Hsiung (١٩٩٦) بإجراء بحث فى بعض المصانع التابعة (الصغيرة) فى تايوان. وهذه المصانع عبارة عن وحدات تشغيل تنتج منتجات على نطاق صغير والقوة العاملة فيها هى الأسرة أساساً. وقد أرادت أن تفهم كيف يُعامَل العمال – خاصة النساء منهم – من قبل رؤسائهم من الرجال. وبصفتها "ملاحظة حيادية" تمارس العمل فى أحد هذه المصانع، وجدت أنها تواجه مشكلات عديدة. وهى تشير إلى أنه رغم أن دورها كملاحظة موجودة على هامش التفاعل الذى يجرى فى موقع البحث، يمكن أن يتيح لها فرصة الاستماع للأفراد العاملين فى صالة المصنع، فإن وضعها كامرأة شابة متزوجة قد سبب لها بعض المشاكل أيضاً:

.. أرى أن تجاوبي مع دور الملاحظة المحايدة قد قام بوظيفتين. فعن طريق ما في هذا الدور من إعطاء الأولوية لأصوات وتفاعلات الأفراد الموجودين في مجتمع البحث، أتيح للوقائع أن تتجلى للعيان تدريجياً، وأتيح للأحداث أن تتخذ مجراها الطبيعي بصورة كاملة. كما أن هذا الموقف المحايد منعني من أن أفرض إيديولوجيتي النسوية على الآخرين. ومع ذلك، فإن جهودي لكي أكون محايدة قد اصطدمت ببعض الصعوبات. فقد كنت في بحثي الميداني هذا محاطة بأشكال مختلفة مما هو موجود في الحياة اليومية من الانحياز الجنسي للرجل ومعرضة لها أيضاً، وهي المعايير والممارسات اليومية التي توجه للنساء صراحة وبصورة تسبب لهن الضيق، أو تتستر في صور الانحياز للنوع (الرجل)، الذي لم يتوقف أبدا... ففي زياراتي للمصانع، كان العمال الذكور في صالة المصنع يحيونني بالصفير وببعض العبارات من قبيل: "يا لها من امرأة جميلة". وكان نوعي الاجتماعي (كامرأة) يتقدم على وضعي ومؤهلاتي الأكاديمية. من ذلك مثلاً أنه عندما كان من المفترض أن يساعدني أحد الرجال في دخول أحد المصانع، وجدته يحول جولتي في هذا المصنع إلى عملية تحرش جنسي. وقد بدأ بسؤالي عما يقوله الرجل الأمريكي ليفاتح امرأة في مسألة تحديد ميعاد للخروج معها ومرافقتها. لم يُفلح رد فعلي بعدم الاكتراث بسؤاله في إيقافه عند حده... وعندما رفضت دعوته للخروج والمرافقة، وجه إلى عبارات مهينة قائلاً: "فما هي التسلية الأخرى التي تتسلين بها في مساء يوم السبت عندما يكون زوجك غير موجود بالقرب منك" (ص١٣٠-١٣١).

ومع ذلك، ومع مراعاة ما يوجد بموقع البحث من ديناميات اجتماعية وإدخالها في الحسبان، فإن الباحثين سواءً تلقوا تشجيعاً من الغير ليقوموا بالمزيد من دور المشارك و/أو تحمسوا – من ناحيتهم – فاغتنموا الفرص المتاحة ليقوموا بنوع أوفي وأتم من المشاركة؛ أياً كان الأمر فإن الباحثين في كلا الحالين يحاولون غالباً أن يقيموا نوعاً من التوازن بين الألفة والمودة الشديدة من ناحية، والتحفظ وإبقاء أنفسهم على مسافة من المبحوثين من ناحية أخرى.

الملاحظ كمشارك

على امتداد متصل الملاحظة والمشاركة، وبالتحرك في اتجاه المزيد من خلق جو من الحميمية في موقع البحث، يوجد ذلك الدور الذى يقوم فيه **الملاحظ بدور المشارك**. ويتطلب هذا الدور من الباحث أن يكشف عن شخصيته في موقع البحث، إلا أن المدى الذى يبلغه الباحث في المشاركة الفعالة مع أعضاء مجتمع بحثه يُعد مدىً محدوداً. ويزودنا البحث الذى قامت به باميلا فيشمان Pamela Fishman عن التفاعل الاجتماعى بين الأزواج بمثال عن هذا النمط من كشف هوية الباحث أمام مبحوثيه. فقد كانت فيشمان (١٩٩٠) مهتمة بتحليل علاقات القوة فى المحاورات التى تجرى بين الأزواج فى خلوتهم داخل بيوتهم.

- كيف يتفاعل الزوجان مع بعضهما فى حياتهما اليومية؟
- كيف يتم إظهار القوة والسلطة وكيف يتم الاحتفاظ بهما فى ظل تلك العلاقة الحميمة؟

وقد قامت بدراسة مكثفة لمحاورات ثلاثة من الأزواج وافقوا على أن تسجل فيشمان محاوراتهم فى بيوتهم على أشرطة تسجيل. وهى تكتب التعليق التالى فيما يتصل بدورها هذا قائلة:

بقيت أجهزة التسجيل الصوتية موجودة فى الشقق لمدة تتراوح بين اربعة أيام واربعة عشر يوماً. وإنى لراضية لأن المادة المسجلة تمثل المحاورات الفعلية، ولأنه لم يوجد فيها تنبه زائد عن الحد لوجود هذه المسجلات، فقد بدت المادة المسجلة على الأشرطة طبيعية فى نظرى، فهى تشبه المحاورات التى تجرى بين زوجى وبينى. وقد وافق على رأيى هذا آخرون ممن قرءوا النصوص المكتوبة للحوارات المسجلة. كما ذكر الأفراد الستة (أى الثلاثة أزواج والثلاث زوجات) أنهم سرعان ما بدءوا فى تجاهل وجود أجهزة التسجيل. يُضاف إلى ذلك أنهم كانوا ميالين إلى الاعتذار عن المادة المسجلة، زاعمين أنها مادة تافهة ولا تثير الاهتمام، فهى لا تعدو أن تكون نفس الأمور العادية التى تقع فى الحياة اليومية. وأخيراً، قال لى زوجان أنهما نسيا جهاز التسجيل تماماً ليبدآ ممارسة الحب فى غرفة المعيشة بينما

كان جهاز التسجيل شغالاً. وقد كان هذا الجزء، ومعه جزءان آخـران، همـا الأجزاء الوحيدة التي مسحها شركاء البحث قبل أن يسلموني أشرطة التسجيل. (Pamela Fishman, 1990, p. 227).

ومع أن فيشمان كانت تقوم – فعلاً – بالاتصال بالأزواج المـشاركين في دراستها، فإن حضورها في موقع البحث لم يكـن منظـوراً، فإنـه كـان معلوماً. ومع أن الأزواج كانوا واعين بحضورها البحثي من خـلال إدخـال أجهزة التسجيل في حياتهم اليومية، وذلك في الغالب الأعم، فإن دور فيـشمان يظل في غاية الهامشية بالنسبة لمجتمع البحث المذكور.

المشارك كملاحظ

يساهم **المشارك كملاحظ** مساهمة كاملة في الأنشطة الجارية في موقع البحث، كما تكون شخصية الباحث معروفة لأعضاء المجتمع. وتوجد **درجات للمشاركة** في مجتمع البحث، ودرجات لمدى نظرة أعـضاء الجماعـة إلـى الباحث باعتباره واحداً من الأقارب (سماته قريبة من سمات أفرادها).

فوايت Whyte يجتهد في بلورة الدور الـذي يتخـذه فـي مجتمـع كورنرفيل. وفي بعض الأحيان يجد نفسه غير واضح فيمـا يتـصل بدرجـة مشاركته في حياة مجتمع البحث. فعلى حين يعلـم الـسكان المقيمـون فـي كورنرفيل أنه باحث يريد أن يتعرف على المزيد مما له صـلة بالحيـاة فـي كورنرفيل، إلا أن هذا الأمر تطلب من "وايت" ومن الـسكان المقيمـين فـي كورنرفيل بعض الوقت كي يتوصلوا إلى نوع مـن الموازنـة بـين هـذين الدورين:

في بادئ الأمر ركزت على تحقيق التكيف مع أبناء مجتمع كورنرفيل، إلا أنني اضطررت بعد مدة قليلة إلى مواجهة تساؤلات عن مدى مـا ينبغـي على عمله في مسألة الانغماس في حياة هذا الحي. فقد التقيت مصادفة بتلـك المشكلة أثناء إحدى الأمسيات وأنا أسير في الشارع مع بعض أفـراد عائلـة الدكتور نورتون. فعندما كنت أحاول الوصول إلى فحـوى الكـلام البـسيط المتداول بينهم انفلت لساني بمجموعة متتابعة من البذاءات وألفـاظ الـسباب.

فتوقف سيرنا للحظات، لأنهم توقفوا جميعاً وأخذوا ينظرون إلىّ فـي دهـشة. وهز الطبيب رأسه معترضاً وقال: "يابيل، ليس من المفترض أن تتكلم بهـذا الشكل. فهذا لا يتناسب مع صورتك". فحاولت أن أبين لهم أننى إنمـا كنـت أستعمل الألفاظ الشائعة فى نواصى الشوارع. ومع ذلك فقد أصر الطبيب على أننى مختلف عن سكان الحى، وعلى أنهم يريدون منى أن أكون علـى هـذه الصورة... لقد تعلمت أن هؤلاء الناس لم يكونوا يتوقعـون منـى أن أكـون مشابهاً لهم تمام المشابهة؛ فقد كانوا، فى الواقع، مهتمين بأن يجدونى مختلفـاً عنهم وكانوا سعداء بذلك، وهذا طالما كنت أهتم بهم عن حب لهـم ومـودة. (Whyte, p. 30)

المشارك الخالص

ينخرط **المشارك الخـالص** بصورة فعالة مع أعضاء مجتمع البحـث، ومع ذلك لا تكون شخصية هذا الباحث معلومة لشركاء البحث الموجودين فى هذا الموقع. فالباحث يشارك بطريقة مـستترة، وذلـك مـن خـلال إخفائـه لشخصيته بحيث يجد لديهم قبولاً بوصفه عضواً أصلياً (حقيقيـاً) فـى ذلـك المجتمع. شاهد ذلك أن جوديث رولينز Judith Rollins آثرت أن تتخفى من أجل دراسة معاناة خادمات المنازل. وهى تعلق على ذلك قائلة:

بدأت عملية البحث الميدانى بالعمل لمدة شهر واحد كخادمة منزلية... وقد آثرت أن أنغمس فى هذا الموقف حتى من قبل أن أصمم خطـة البحـث، وذلك حتى أستشعر بنفسى الخبرة ذاتها التى تشعر بها من تقوم بالخدمة فـى المنازل وأتعرف على طبيعة العلاقة التى تربطنى بصاحبة عمـل مـا مـن النساء... وقد حصلت على عروض بالعمل عن طريق نـشر إعلانـات فـى بعض الصحف التى توزع فى نطاق المدينة وصـحف تـوزع فـى نطـاق الضواحى (Rollins, 1985, p. 9).

يُثير بحث رولينز قضايا مهمة خاصة بمنهجية البحث ينبغى عليك أن تدخلها فى حسبانك عندما تستخدم طريقة الملاحظـة المـشاركة المـستترة. ويذهب هؤلاء الذين يؤيدون التخفى إلى اعتباره أمراً ضـرورياً، لأنـه قـد يستحيل فى أحوال كثيرة إنجاز البحث الميدانى إذا كشفت هوية الباحث. بـل

يصل الأمر بدوجلاس Douglas إلى أنه يرى أن للباحثين المستترين الأحقية فى القيام بهذا النوع من البحوث "من أجل تحقيق الهدف الأسمى للحقيقة العلمية" (Douglas, 1979, p. 17). ويذهب آخرون إلى أن العمل خفية يتيح للباحث فرصة دراسة السلوك الفردى أو الجمعى الذى قد يظل – لولا ذلك التخفى – غير معلوم. وغالباً ما يكون ذلك فى حالات دراسة بعض الفئات العليا أو الخاصة فى المجتمع، وهو الأمر الذى ينطبق على البحث الذى أجرى على جماعات الصفوة كالأطباء الجراحين مثلاً (Famrdat, 1998) أو على دراسة الجماعات التى يغلب على أنشطتها طابع السرية، كالتنظيمات الدينية مثلاً (Galanter, 1989). وترى رولينز أن الفيصل الدقيق لقرارها باستعمال الخداع فى ملاحظتها المشاركة فى بحث "خادمات المنازل ولمستخدماتهن من النساء" قد تحدد على أساس ما إذا كانت "المكاسب" تفوق "الخسائر" أم لا:

أصبح السؤال المباشر هو: هل ما يمكن أن أجنيه من وراء استخدام التخفى يستأهل هذه الخسارة؟ وقد انتهيت إلى أن الأمر كذلك بالفعل. إذ قررت أنه نظراً لأن هذه المهنة لها هذه الأهمية عند النساء ذوات الدخل المنخفض، ونظراً لأنه لم يجر عليها إلا قدر قليل جداً من البحوث رغم وجودها فى كافة أنحاء العالم، فإن الفهم الذى يمكننى أن أظفر به عن طريق وضعى لنفسى موضع خادمة منزلية، حتى لو تم ذلك بتلك الطريقة، يستحق هذا الثمن (١٩٨٧، ص ١٥).

وبجانب القضايا الأخلاقية المهمة المتعلقة بالخداع أو التستر فى البحث، والتى سبقت مناقشتها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، فإن الخداع فى عملية البحث يمكنه – أحياناً – أن يتعارض بالذات مع الفهم المتعمق الذى يرجو الباحث أن يظفر به. (Wax, 1971, p. 52, Baily, 1996, p. 15). فقد يحدث للباحث المتخفى أن يبدأ بالاعتقاد بأنه فى الواقع "واحد من الأهالى" (أى من أبناء مجتمع البحث). وهذا الاعتقاد فى حد ذاته قد يضع غشاوة على قدرة الباحث على فهم ذلك المجتمع الذى يوجد فيه. شاهد ذلك أن رولينز، أثناء قيامها ببحثها، لم تتظاهر بأنها خادمة منزلية إلا لمدة قصيرة جداً من الوقت فحسب: "يمكن القول إجمالاً، أننى اشتغلت خادمة عند عشرة من

المستخدمات: وبالنسبة لسبع منهن اشتغلت مدة أربعة أسابيع، بمعدل يوم واحد... في كل أسبوع، وقد طردتني واحدة من المستخدمات بعد اليوم الأول... وبالنسبة للاثنتين الباقيتين، اشتغلت ستة أشهر، بمعدل يوم واحد في الأسبوع". (ص ١٠)

وقد لا يكون هذا المدى الزمنى كافياً ولأن تظفر رولينز بفهم متعمق لظروف العمل اليومية لخادمات المنازل.

- إلى أى درجة تُعتبر تجربة رولينز كخادمة منزلية معادلة أو مماثلة للوقائع اليومية لحياة خادمات المنازل؟
- إلى أى مدى يكون تبنى دور "القريب" (أو ابن الجماعة المحلية) مانعاً/ أو متعارضاً مع الفهم الصحيح لمجتمع البحث؟

فقد أدى تظاهر رولينز بدور "القريبة" (بنت مجتمع البحث) إلى الحيلولة بينها وبين أن تطرح أسئلة قد تكشف حقيقتها. وتقول بيلى في ملاحظاتها: يتقبل معظم الناس من الباحثين أن يطرحوا أسئلة معينة، من قبيل ما يعدونه أسئلة حمقاء أو غبية، ولكنهم لا يسمحون بها لأبناء الجماعة المحلية (الأقارب)... كما أن دور الباحث يتيح للمرء أن يدخل أماكن قد تُعد – لولا كونه باحثاً – أماكن محرمة". (١٩٩٦، ص ١٥). يُضاف إلى ذلك تناقص قدرة الباحث على أن يدون بسهولة ملاحظاته الموجزة فى نفس لحظة وقوع الحدث"، بحيث لا تفلت منه الأفكار والملاحظات المتعلقة بما يحدث في الموقع. وقد يؤدى الانتظار – إلى أن يحين الوقت الملائم لكتابة هذه الملاحظات – إلى خسارة بعض المعلومات، ومن ثم إلى تقديم وصف غير دقيق للحوادث المهمة (ص ١٥). ويضاف إلى ذلك أنه بسبب انغماس رولينز انغماساً كاملاً فى هذا الموقع، وبسبب اضطلاعها الفعلى بالدور الخاص بالخادمة المنزلية، تكون رؤيتها لمخدومتها (ربة البيت) رؤية محدودة. فإلى أى مدى يمكن لرولينز أن تتخلص من دور الخادمة المنزلية في الموقع "وتخلعه" لكي تمعن التفكير فى التفاعل الاجتماعى بين الخادمات ومخدوماتهن، وذلك انطلاقاً من وجهة نظر المخدومة؟ فهذا السياق الذى فيه يتم فهم هذا

التفاعل الاجتماعى يفتقد تماماً - أو يكاد - الإحاطة برؤية السيدة المخدومة للأمر برمته.

تقع معظم البحوث الميدانية الإثنوجرافية على مسافات متفاوتة من متصل ذى قطبين هما: الملاحظ - والمشارك. وإن بإمكاننا أن ننظر إلى كل من هذين القطبين كطرفين تتشكل منهما أرجوحة ما. فعندما يصل أحد الطرفين إلى أعلى نقطة نكون بصدد ممارسة دور "الملاحظ"، بينما نقوم بدور "المشارك" عند وصول الطرف الآخر إلى أدنى نقطة. وعندما تكون هذه الأرجوحة غير متوازنة، فقد يكون معنى هذا أننا قد انتقلنا بدرجة مفرطة إلى هذا الجانب أو ذلك. وقد يفتقد موقف الباحث نفسه بعض توازنه هو فيجد نفسه مرة مرتفعاً فى الهواء (وهو يؤدى دور المشارك) بينما يجد نفسه مرة أخرى على الأرض (وهو يقوم بدور الملاحظ). ومن الممكن أن يصاب كل جانب من هذين بعدم الاستقرار، ولا تتحقق نقطة التوازن إلا إذا كان لكل من هذين الدورين ما يبرره. ومع ذلك، فقد تكمن هذه المتعة ويكمن هذا الفهم أحياناً فى التفاعل المستمر بين كل من هذين الدورين. فهذان الدوران لا يتسمان بالثبات فى موقع البحث، كما أن من المحتمل أن يتأرجح الباحث صعوداً وهبوطاً على امتداد هذا المتصل، تبعاً للموقف الاجتماعى الذى يمر به والمتطلبات التى تقتضيها مشكلة البحث.

وأياً ما كان الدور/ أو الأدوار التى تقوم بها فى الميدان، فإنه ينبغى عليك أن تتوقع كل ما هو غير متوقع. كما ينبغى عليك أن تتعرف أكثر على نفسك مثلما تتعرف على أحوال الآخرين، وهذا أحد الأمور التى تجعل البحث الإثنوجرافى خبرة غنية ومتفردة. وقد كانت ساره ماديسون Sarah Maddison تعرف كل ذلك فى مبدأ الأمر عندما تصدت لإجراء بحث ميدانى مع مجموعة من النسويات الشابات فى أستراليا. فهيا بنا ننضم إلى ماديسون خلف الكواليس.

خلف الكواليس مع ساره ماديسون

لقد أحببت السنة التى قضيتها فى بحث عن النسويات الشابات الناشطات فى الحركة النسائية الأسترالية. ففى أثناء سنة ٢٠٠١ أسعدنى الحظ بقضاء اثنى عشر شهراً كاملة قمت فيها بالملاحظة المشاركة مع مجموعتين مختلفتين جداً من الشابات فى مدينة سيدنى. وكانت المجموعتان كلتاهما تمثلان لى قدراً عظيماً من البهجة والسرور، إذ كنت أنتظر لقاءهن بكل أمل لنخرج معاً إلى الميدان. وكانت البيانات التى جمعتها أثناء هذا الوقت بيانات مثيرة للاهتمام ومدعاة للتأمل العميق. إلا أن الخبرة التى عايشتها مع هؤلاء الشابات المدهشات منحتنى كذلك فرصة للتفكير والتأمل فى بعض قضايا القوة والمودة الشديدة التى يمكن أن تظهر فى مثل هذا النوع من البحوث.

وكانت إحدى هاتين المجموعتين التى قمت بدراستها عبارة عن شبكة من الشابات اللاتى كن "والدات" (وهو المصطلح المفضل لديهن) يعملن فى أحد المراكز الصحية لخدمة المرأة فى ضاحية فقيرة من ضواحى سيدنى البعيدة نسبياً. وقد كنت أقضى يوماً فى الأسبوع مع "شبكة الشابات الوالدات"(*)، وكنا خلال هذا الوقت نقوم بتخطيط الحملات الصحية، وتصنيع المشغولات الفنية، والتحدث عن ممارسة الوالدية (أى ممارسة الأمومة)، وهى كلها أنشطة فى غاية الإمتاع. وقد ساهمت كذلك فى البرنامج التدريبى الذى كانت هؤلاء الشابات يقمن بإدارته؛ والذى يُعرف باسم برنامج: "الفرص والاختيارات" من خلال مشاركتى فى المساعدة على تنظيم دورة دراسية عن قضايا النوع الاجتماعى.

وكان أحد التمارين التى دُعيت هؤلاء الشابات للمشاركة فيها تمرين "لرسم صورة لامرأة نسوية" بالحجم الطبيعى على ورقة لبيع اللحوم. كانت النتيجة رائعة. وكما توقعت، قامت مجموعة برسم صورة لامرأة تتطابق مع الصور النمطية السلبية المعروفة التى تنشرها وسائل الاتصال عن النسوية.

(*) Young Women Who Are Parents Network (YWWAPN).

وقد اعترفت المجموعة الثانية - والتى عكس رسمها بعض هذه الصور النمطية، ولكنه كان أكثر تألقاً من نواحٍ أخرى - اعترفن بأنهن رسمننى أنا. وهى صورة لامرأة عارية، باستثناء ارتدائى لحذاء كبير طويل الرقبة، وظهورى بشعر منكوش ذى منظر مخيف(*)، وعلى جسمى أشكال من الوشم. وهى صورة تتنافى تماماً مع ما اعتدت أن أقدم نفسى به فى هذا المركز! وعندما سألتهن عن سبب رسمهن لى بهذا الشكل أجابت عضوات المجموعة بأنهن يرون أن نزعتى النسوية منحتنى الحرية، لأن أقول أى شيء أريد قوله ولأن أكون أى شيء أريد أن أكونه لأننى لا أخاف أحداً فى هذا العالم.

كان هذا الرسم رسماً صادماً لى، ولكنه كان يمتدحنى بطريقة غريبة. ومن المهم، أنه جعلنى أتفكر فى موقعى من حيوات هؤلاء الشابات وفيما نجم عنه من نقاط الضعف التى يمكن أن تعترى هذه العلاقة البحثية. وقد كونت لنفسى وعياً شديد اليقظة بنقاط الارتباط والتشابه بينى كباحثة وبين شريكات البحث، وذلك فى محاولتى صياغة العلاقة البحثية بيننا. لقد كانت توجد صور لها دلالتها من التطابق بين سيرة حياتى وسير حيوات الشابات اللاتى تتناولهن هذه الدراسة. وقد يتمثل الأمر الأشد وضوحاً فى كونى امرأة ذات نزعة نسوية ومعروفة بالنشاط الفعال فى الحركة النسائية. ولكن فى عملى مع "شبكة الشابات الوالدات" اكتسبت علاقاتى بهن - إلى جانب ذلك - طابعاً شخصياً من نوع ما. فقد كان مهماً عند هؤلاء الشابات أن يعلمن ما إذا كنت أما أم لا وما هى الظروف التى فى ظلها عايشت خبرة الأمومة. وقد أدت مشاركتى لهن فى كونى صرت أنا الأخرى أماً فى سن صغيرة إلى حد ما (٢٣ سنة) حينما ولدت طفلى الأول، وفى أننى أمضيت وقتاً وأنا أمٌ وحيدة؛ أدت هاتان السمتان المشتركتان معهن إلى زيادة إحساسهن بأننى إنسانة يمكنهن الثقة بها، حيث لم أكن غريبة تماماً عن حيواتهن وخبراتهن.

(*) أى dreadlocks، وهى ضفائر أو جدائل أو خصل من الشعر منكوشة من فروة الرأس. وهى تشيع لدى بعض الطوائف الدينية من السكان السود فى جامايكا، وذات أصول إفريقية. (المراجع)

إلا أننى كنت كذلك على وعى بأن بعض هؤلاء الفتيات كن ينظــرن إلىَّ كأننى شخصية يأملن أن يكن مثلها، وذلك فى ضوء أننى أنجبت قبــل أن أكمل المدرسة الثانوية، والتحقت بالجامعة وعندى طفلان صــغيران، وأننــى كنت وقتها عندما تعرفت إليهن مشتركة فى البحث الأكاديمى. وكانت نظرتهن إلىَّ تمثل مسئولية ضخمة، وهى مسئولية لابد لى أن أتحملها بمنتهى الجديــة. وبالنسبة لى كباحثة كانت أخلاقى تلزمنى بألا أخل بهذه الثقة التــى وضــعتها هؤلاء الشابات فىّ وألا أتلاعب بها، وأن أبقى واضحة صريحة فيما يتــصل بالحدود القائمة فى علاقاتنا ببعضنا.

إن بالإمكان أن تُمثل الملاحظة الإثنوجرافية القائمة علــى المــشاركة قدراً هائلاً من البهجة والسرور. فإذا كنت محظوظاً مثلــى ووجــدت نفــسك تدرس أحوال مجموعة من الناس تحبها وتحترمها وتتمتع بــصحبتها، حينئــذ يمكن "للعمل" الذى تقوم به أن يبدو أقرب شبهاً باللعب. إلا أن الخطــر الــذى يتعرض له الباحث إنما يكمن فى هذا الوضــع. ذلــك أن **تمتعــك بالبهجــة والسرور تمتعاً مفرطاً** قد يعنى نسيانك للسبب الذى جاء بك إلى هذا المكــان ولعلاقات القوة الداخلة فيه. لذلك لابد أن تعامــل تلــك العلاقــات الحميمــة العارضة التى هى جزء من طريقة البحث هذه بحــرص واحتــرام. ذلــك أن نسيان هذه القواعد يمكن أن يعنى إيذاء شركاء بحثك (مبحوثيك)، وبطــرق لا يمكنك أن تتخيلها أبداً. ومثل هذا الأمر – إن حدث – لن يكون مصدر بهجــة لأحد على الإطلاق.

مغادرة الميدان

إن بإمكان الدور الخاص الذى تقوم به فى مجتمع البحث – أى مــدى تشابكك وتداخلك فى الحياة اليومية التفصيلية لموقع البحث – بإمكانه أن يحدد مدى سهولة مغادرتك للموقع أو صعوبتها. ذلك أن بالإمكان أن يجرى إنهــاء أى مشروع بحثى ما لأسباب شتى مختلفة. فقد تُضطر، مثلاً، لمغادرة الميدان فجأة نظراً للقيود الزمنية أو لأسباب اقتصادية أو شخصية، وهى قيــود غيــر منظورة. وقد ترجع عوامل أخرى للمغادرة إلى بعض الأحداث غير الــسارة

التى تجرى فى الموقع، والتى تجعل من العسير عليك أن تواصل عملك. ومع ذلك، فإن الذى يحدث فى كثير من الأحيان هو أنك تصل إلى **نقطة تشبع** حيث لا تجد أى جديد فى الموقع، إلى حد أنه قد يصل بك الحال إلى الشعور بأنك إن لبثت أى مدة أكثر من ذلك فقد تبدأ بفقدان منظورك البحثى. شاهد ذلك أن دورين كوندو Dorinne Kondo، وهى باحثة يابانية أمريكية تتحدث اللغتين كانت تقوم بإجراء بحث ميدانى فى أحد مصانع الحلويات فى مدينة طوكيو. وهى مهتمة بالذات بالفكرة الخاصة بمعاملة صاحب العمل للعمال باعتبارهم "جزءًا من عائلته". فهل يشبه المصنع اليابانى العائلة فعلاً؟ وهل يعتبر العمال أنفسهم جزءًا من "عائلة واحدة"؟ وقد أمضت الباحثة قرابة ثلاث سنوات فى الميدان، وهى تصف مدى صعوبة مغادرتها النهائية للموقع فتقول: "ظللت أمدد من فترة بقائى فى المصنع، حتى صار أمراً مضحكاً، فقد بدأت النساء الكبيرات السن باستفزازى بالحديث عن والدىّ الذين "لابد أن تكون عنقاهما طويلتين للغاية". وهى تلاحظ مع ذلك أن حادثة واحدة هى التى كانت مؤشراً حقيقيا على وجوب رحيلها النهائى من الموقع:

أثناء حصة لتعلم طقوس شرب الشاى، قمت بأداء الطقس الأساسى لتحضير "الشاى الخفيف" بطريقة لا خطأ فيها، وبدون حاجة إلى تذكير ببعض الحركات أو إلى تصحيح لها. وقال لى معلمى بلهجة تنم عن القبول والاستحسان: "أتعرفين، إنك عندما بدأت التعلم لأول مرة، كنت فى غاية القلق. فقد كانت طريقتك فى الحركة، وطريقتك فى المشى غير ملائمة تماماً. أما الآن، فإنك تشبهين شبهاً تاماً أى "أوجوسان" "ojosan" (أى " فتاة رشيقة"). كان جزء من نفسى فى سرور لا حد له لأن حركاتى الغربية البالغة الارتباك قد حلت محلها أخيراً تلك الرشاقة الماهرة المنضبطة التى تجعل حفلة شرب الشاى جديرة بالمشاهدة لما تبدو عليه من التلقائية والجمال الأخاذ. إلا أننى سمعت صوتاً آخر بداخلى يصرخ محذراً بشدة قائلاً: "دعينى أهرب قبل أن أتغير تغيراً تاماً". ولم يمض بعد ذلك سوى أسابيع قليلة تركت الموقع بعدها (Dorinne Kondo, 2001, P. 199-200).

كذلك توجد درجات لمغادرة الميدان. فقد يرحل بعض الباحثين بطريقة فجائية، ممزقين بذلك كل الروابط التى تصلهم بمجتمع البحث. وقد يحدث هذا لأن الباحث و/أو المبحوثين قد داخلهم شعور بعدم الارتياح النفسى لتفاعلاتهم فى موقع البحث، أو لأن بعض الظروف الشخصية أو الاقتصادية اقتضت إنهاء المشروع البحثى مبكراً. شاهد ذلك أن روث هوروفيتز Ruth Horowitz أرادت أن تقوم ببحثٍ عن إحدى عصابات الشيكانو Chicano. إلا أن المبادرات الجنسية الصادرة من أعضاء هذه الجماعة - والتى كانت ترفضها الباحثة - جعلت من المستحيل أن تستمر فى هذا الميدان. وهى تعلق على ذلك قائلة: "نظراً لتزايد الضغوط علىّ للقيام باتخاذ دور عضو العصابة الذى لابد أن يخضع للاعتبارات الداخلية التى تحكم عملها، ولكننى رفضت قبول هوية جنسية (مستجيبة لهذه الدعوات) كان يمكنها أن تتيح لى الاستمرار كباحثة فى هذا الموقع". (Horowitz, 1986, p. 423).

وقد يحتفظ باحثون آخرون بروابط وثيقة مع مجتمع بحثهم، وذلك بزيارته والإبقاء على اتصالهم بالمبحوثين. وقد يصل الحال ببعض الباحثين إلى حد تكوين صداقات تستمر مدى الحياة. وتوجد بعض **استراتيجيات المغادرة** المهمة التى يمكن أن تستعملها فى رحيلك عن الميدان، كأن تتأكد من إعلام المبحوثين بأن إقامتك لا تعدو أن تكون مؤقتة، بل وتعطى الآخرين إحساساً بالجدول الزمنى لبحثك. ومن الأمور التى لا تنفك عن عملية البحث الميدانى تكوين الألفة المتبادلة بين الباحث والمبحوثين. فقد يصل الحال بهؤلاء الموجودين فى مجتمع البحث، مثلاً، إلى حد الاعتماد على الباحث فى الحصول على الدعم العاطفى والنصيحة. ومن هنا فإنه عندما يتم سحب ذلك كله ربما يتولد إحساس بالضياع والهجران لدى كل من الباحث والمبحوثين على السواء.

شاهد ذلك أن ماكسين باكا زين (٢٠٠١) أجرت بحثاً ميدانياً عن الحياة العائلية عند الشيكانو Chicano. فأقامت اتصالات أولية مع بعض العائلات من خلال ملاحظاتها القائمة على المشاركة فى برنامج تعليمى على مستوى المجتمع المحلى، وذلك عن طريق حضورها لورش العمل ومساهمتها

فى الأنشطة المقدمة للآباء والأمهات الذين لهم أبناء مقيدون بتلك البرامج التعليمية. وهى تلاحظ كيف تكون العلاقة بين الباحث والمبحوثين - أحياناً - غير متوازنة، وكيف أن أفراد مجتمع البحث الذين قد يصل بهم الحال أحياناً إلى الاعتماد على الباحث فى الحصول على الدعم الاجتماعى، والتحفيز، والصداقة؛ كيف أنهم يشعرون فى كثير من الأحيان بأنهم قد خذلوا عندما ينتهى المشروع. وقد حكت "باكا زين" القصة التالية التى تروى رحيلها عن الميدان:

فى أثناء المراحل الأخيرة للبحث، وهى مرحلة إنهاء العلاقات والإعداد لمغادرة الميدان، بدا لى واضحاً مدى اضطراب العلاقة البحثية (بين الباحث والمبحوثين). وقد حاولت - قبل ذلك - أن أكون أمينة مع العائلات التى كانت بمثابة الإخباريين الأساسيين بالنسبة لى عندما بدأت تكوين علاقاتى البحثية. فقد كنت صريحة فيما يتصل بمقدار الوقت الذى سوف أقضيه فى الميدان مثلاً. وبجانب ذلك، فإنهم يعلمون أننى قبلت العمل فى إحدى وظائف التدريس بالجامعة وأننى سوف أغادر هذا المجتمع المحلى فى نهاية الأمر. وعلى الرغم من ذلك، فقد آل أمر أحد الإخباريين إلى الاعتماد علىّ. أنا أعلم أن هذه هى المراحل النهائية للبحث، كما أننى شعرت بعدم الارتياح النفسى عندما سمعت هذا الإخبارىّ يقول فى أحد اجتماعات الآباء: "أتمنى ألا تتركنا. فلولا مساعدتها لما استطعت أن أترأس "مجلس الآباء". إنى لا أعرف كيف سأدبر أمورى عندما ترحل" (Maxine Baca Zinn , 2001, pp. 159-166).

كما كان من العسير على "باكا زين"، وهى عالمة شاكانية تدرس المجتمع المحلى للشيكانو، أن تترك هذا الموقع، خاصة عندما طلب منها بعض أفراده المقيمين أن تقوم بالتدريس فى كلية قريبة من أجل أنه - وكما يقول واحد من إخبارييها: "عندما يذهب أبناؤنا إلى الكلية، تتاح لهم الفرصة أن يتلقوا دروسهم التعليمية على يد أحد من قومهم". (ص ١٦٦). وتدخل "باكا زين" فى صراع مع مشاعرها المتعلقة بمقدار "ما يعطيه" الباحث لمجتمع بحث معين ومقدار ما "يأخذه منه" (أو حتى مقدار "استغلاله له" كما قد يقول

البعض). وهى تعلق على ذلك بأنه رغم أن لـديها رداً جـاهزاً علـى هـذا الإخبارى، فإنها لا تزال فى صراع داخلى بسبب هذه القضية "التى لها صـلة بظروف عملى والتزاماتى نحو هذا العمل وبالرد الذى يمكن أن يقبلـه هـذا الإخبارى. ومع ذلك، فإنه لم يكن عندى رد على نفسى عندما ووجهت بهـذا السؤال المزعج، وهو: هل كنت، مع ذلك، واحدة من هؤلاء الباحثين الذين لا يُرى الواحد منهم أبداً فى المجتمع المحلى بمجرد اكتمال الدراسة؟ لقد كـان – وما زال حتى الآن – سؤالاً مؤلماً حقاً... (ص ١٦٦)

أياً ما كانت أسباب مغادرتك، فإن مـن المهـم أن تـستعين بـبعض الاستراتيجيات لرحيلك عن الموقع. وقد يكون من المهـم أن تراجـع مـسألة مغادرتك للموقع مع الغير لتتعرف على ما يشعرون به وربما لترتب مع نفـر من المقيمين فيه بعض الوسائل لإظهار مغادرتك للموقع بأسلوب أكثر علانية، من قبيل إقامة حفلة، أو المشاركة فى احتفال طقسى معين.. إلى آخره، وكذلك لترتيب نمط متابعتك لخطتك – سواء أكانت هذه المتابعة عبارة عن خطـاب ترسله أو زيارة تعود فيها إلى مجتمع بحثك مرة أخرى.

جمع البيانات فى موقع البحث

إن من الأمور الحاسمة بالنسبة لك أن تحدد نمط البيانات التى تريد أن تجمعها فى الموقع وأن تحدد الطريقة المثلى للقيام بهذه المهمة. وسوف يـؤثر الدور الذى ستؤديه فى موقع البحث على تحديد نوعيات البيانات التى سـوف تكون قادراً – أو غير قادر – على جمعها. هل ستحصل على البيانـات مـن خلال الملاحظة و/أو المشاركة فحسب؟ وهل ستجمع البيانات باستخدام طرق أخرى، كإجراء المقابلات مع الموجودين بالموقع بطريقة رسمية وبطريقة غير رسمية معاً؟ وهل ستعتمد على ما هو متوفر من معلومات عن هذا الموقع مما جمعه غيرك (والتى منها مثلاً الدراسات البحثية، والوثائق)؟ فهذه – أيـضاً – اختيارات متاحة أمامك فى مجال جمع البيانات. وينبغى أن تكون أغلب هـذه القرارات مرتبطة بسؤالك الذى تطرحه فى بحثك ونابعة منه.

فإن كنت تجمع البيانات من خلال الملاحظة والمشاركة في أنشطة موقع البحث، يصبح من الأمور الحاسمة أن تجمع البيانات "**بصفة مستمرة**". إذ ينبغي أن يمضي جمع البيانات وتحليل البيانات معاً في وقت واحد. ويعني هذا بالنسبة للإثنوجرافي الموجود في الميدان أن تقوم بتدوين كامل لملاحظاتك وأفكارك (عملية جمع البيانات) وأن تقوم بمحاولة فهم حقيقة ما يجري (عملية تحليل البيانات). ويتم تنفيذ ذلك كل يوم بمجرد أن تغادر الميدان، أو أثناء وجودك في الميدان إن كان ذلك ممكناً. فإن لم تفعل ذلك، فمن السهل أن تنسى التفصيلات والأحداث المهمة. وقد يقودك تحليل ملاحظاتك الميدانية إلى طرح أسئلة جديدة، ومن ثم إجراء ملاحظات جديدة، وإلى القيام بتفاعلات جديدة في موقع البحث.

- كيف تلاحظ؟

إن من المهم أن تتذكر أنك لا تستطيع أن تلاحظ كل ما يجري من تفاعلات. لذلك من المهم أن تطرح على نفسك السؤال التالي:

- ما هو الجزء المعين أو الأجزاء المعينة التي تريد ملاحظتها في موقع البحث؟

توجد مستويات متعددة للملاحظات التي يمكن إجراؤها داخل موقع ما، كما أنه ليس بالإمكان الالتزام بها كلها في وقت واحد. وتتمثل بعض مستويات الملاحظة التي قد تحتاج إليها في بحثك فيما يلي:

- ما الذي يفعله الناس في مجتمع البحث؟
- ما هي أنشطتهم؟
- ما هي الملاحظات الحسية التي يمكن رصدها في الموقع (كوجود أصوات معينة أو روائح معينة مثلاً)؟
- ما الذي يُقال (تنبه جيداً للغة – دوّن بالتفصيل الشواهد الخاصة/ أو العبارات الخاصة التي تشعر أنها تحيط – على أفضل نحو – بما يجري حدوثه في الموقع)؟
- ما هي الأشياء المسكوت عنها؟ هل توجد أمورٌ أخرى تؤخذ مأخذ التسليم؟

فأحياناً يكون ما هو غير حاضر في نفس أهمية ما هو حاضر.

كيف تسجل ملاحظاتك؟

لا يتفق جميع الإثنوجرافيين على طريقة معينة تكون هي المُثلى لإنجاز هذه المهمة. ويركز هذا القسم من الكتاب على الطريقة التي يمكن بها أن تُسجل الملاحظات في صورة "**مذكرات ميدانية**"، إلا أنك قد تستعمل مُسجلاً صوتياً أو حتى مُسجل فيديو أو مُسجلاً رقمياً. والمذكرات الميدانية هي البيانات التي تجمعها من أجل الوصول إلى فهم مجتمع بحثك، وهي التي ستعتمد عليها عند الشروع في كتابة نتائج بحثك(*).

معالجة بيانات المذكرات الميدانية

أولاً وقبل كل شيء، فإنه لكي تيسر على نفسك عملية معالجة البيانات الموجودة في مذكراتك الميدانية، يكون من المهم أن تسجل تاريخ اليوم، وأي وقت من اليوم، والموقع، ورقم الصفحة لكل المذكرات الميدانية. ومن شأن هذا أن يساعد كذلك على تكوين أنماط مختلفة من المذكرات الميدانية أو تقسيم أو تصنيف مذكراتك في أقسام مختلفة. ومع ذلك، فسوف يحدث أحياناً أن تتداخل هذه الأقسام في بعضها في أي مذكرة ميدانية معينة. وقد اقترح باحثون كثيرون أنماطاً عديدة للمذكرات الميدانية التي يمكن أن تبتكرها لنفسك (انظر بصفة خاصة بيلي Bailey، ١٩٩٦، ص ٨٠).

ويمكن أن تتكون المذكرات "**الفورية**" (أي التي تُكتب في نفس لحظة وقوع الحدث) من بعض الكلمات أو العبارات الأساسية التي تساعدك على تذكر الأحداث أو الأفكار المهمة التي تجرى أثناء قيامك بإجراء ملاحظاتك. ومن الممكن كتابتها في مفكرة صغيرة مخصصة للكتابة السريعة. ويستعمل بعض الباحثين أية أنواع يجدونها من الورق، بما في ذلك ظهر علبة الكبريت أو مناديل المائدة لكي لا تتعطل ملاحظاتهم المتصلة في الميدان.

(*) سبق أن أنجز فريق العمل في هذا الكتاب ترجمة لكتاب يدور بأكمله عن موضوع المذكرات الميدانية، انظر: روبرت إيمرسون وزملاؤه، البحث الميداني الإثنوجرافي. كتابة المذكرات الميدانية، ترجمة هناء الجوهري، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠. (المراجع)

إن الوصف المكثف لمجتمع البحث هو كل ما يمكنك تذكره مما حدث بالضبط فى الموقع. فتأكد – كلما كان ذلك ممكناً – من تسجيل نفس الكلمات أو العبارات "الحية" التى ترد على لسان المبحوثين فعلاً، أو بأقرب ما تستطيع الوصول إليه من كلماتهم. وتأكد من أنك لم تنس تسجيل الملاحظات الحسية فى الموقع: ما الذى تشمه من الروائح؟ وماذا عن المرئيات المميزة؟ ومع أنك قد ترى أن بعض تفاصيل هذه الأنشطة والأحداث عادية جداً، فإن من الأهمية ألا تضيق نطاق توصيفاتك، بل كن منفتحاً على رؤية التشكيلة المتنوعة من الأحداث والتفاصيل التى فى الموقع. ويمكن تصنيف هذه المذكرات وما يتصل بها من أحداث وشخصيات بعد أن تغادر الموقع. ذلك أن بعض ما تظنه قليل الأهمية قد يكون، فى الواقع، أمراً حاسماً بمجرد أن تركب بعض هذه القطع الوصفية معاً على نحو معين.

مذكرات **تحليل البيانات**: تستطيع – بدرجة ما – أن تعتبر أن هذا النوع من المذكرات يربط بين المذكرات **الفورية والوصف المكثف** الذى كتبته تصف فيه تفاصيل موقع البحث. فهذه المذكرات هى تلك التى تقول: "ماذا يعنى هذا"؟ بالنسبة لك. وما هى الأمور التى تتوافق معاً؟ وما هى الأسئلة الجديدة التى تطرحها عليك هذه المذكرات؟ وما الذى تعلمته حتى تلك اللحظة، وما الذى يعنيه هذا فى هذه المرحلة؟ كما أن بالإمكان أن تحتوى هذه المذكرات على أعمق الهواجس والأفكار التى تعتمل داخل نفسك. فأطلق عنان نفسك "التحليلية" هنا من خلال عملية "العصف الذهنى". (انظر كذلك بيلى Bailey، ١٩٩٦، و لوفلاند و لوفلاند Lofland & Lofland، ١٩٨٤).

مذكرات الأمور الشخصية والتأملات: وهى تمثل لك مجالاً لاستكشاف وضعيتك الخاصة كباحث فى هذه العملية البحثية. ماذا تشعر به تجاه هذا الموقع؟ ما هى الأمور التى تشغل بالك؟ وإلى أى مدى يمكنك أن تنتقد دورك فى موقع البحث؟ هل كنت متقبلاً للأفكار الجديدة أم كنت غاضاً طرفك عن هذا اليوم لأن الأفراد الذين قابلتهم كانوا ينتقدونك؟ اكتب مشاعرك بالتفصيل تجاه أولئك الأفراد الذين تقوم ببحثهم. مثال ذلك: هل تختصر ملاحظاتك عن الشخص "س" لأنك – فى الحقيقة – لا تحبه فهو يذكرك بزميل الدراسة فى الكلية، الذى انتزع منك حبيبتك السابقة. وما هو الأمر الذى تهتم به؟ وما هى

مخاوفك؟ وما هى الأشياء العملية أو الإجرائية التى تحتاج إلى تذكير نفسك بها؟ هل تحتاج إلى تجهيزات أو إمدادات بحثية كأوراق الكومبيوتر أو بطاقات الفهارس؟ فرغم أن هذه الأشياء "العملية" تبدو فى الظاهر أشياء تافهة فإنها مهمة للاحتفاظ بمشروعك ماضياً فى طريقه قدماً (انظر بيلى، ١٩٩٦، ولوفلاند و لوفلاند، ١٩٨٤).

- المذكرات الخاصة بمراجعة ما تجمعه كل يوم والمذكرات الخاصة بالمراجعة الأكمل عند وصولك إلى منتصف مذكرات مشروعك البحثى.

قد تحتاج أيضاً إلى التفكير فى القيام بمراجعة مختصرة أو بوضع خلاصة للبيانات التى تجمعها على أساس يومى، وذلك عن طريق تقديمك لشيئين:

(١) خلاصة موجزة لما توصلت إليه و

(٢) تعليق قصير على ما تتصوره من معنى لهذا الذى وجدته حتى تلك اللحظة، وذلك عن طريق سؤالك لنفسك: "ما هى الدلالات الضمنية لما ورد فى (١) و (٢) – من خلاصة وتعليق – بالنسبة للطريقة التى سوف أتبعها فى سيرى فى اليوم القادم عند إجراء ملاحظاتى؟ وما الذى ينبغى علىَّ تناوله فيما بعد .. إلى آخره". وليس من المحتم أن تكون هذه المراجعة/ أو الوصف المختصر تعليقاً مسهباً، ذلك أن عدداً قليلاً من الفقرات سوف يكفى لتحقيق المطلوب. وفى منتصف اليوم تقريباً وأثناء قيامك بجمع المعلومات قد تكون قدمت وصفاً أكثر أهمية عن طريق مراجعتك لما يلى:

(١) لكل البيانات التى جُمعت منذ البداية وحتى هذه اللحظة فى منتصف اليوم.

(٢) وللتعليقات المهمة على معنى هذه البيانات فى تصورك، طارحاً نفس الأسئلة المذكورة.

ومن المهم أن تتذكر أنه لا توجد صيغة "كاملة" لكتابة المذكرات الميدانية، فالمذكرات الميدانية التى يكتبها كل باحث لها حياتها الخاصة بها. فقد يحب بعض منا أن يرسموا خطوطاً بيانية بصرية على نحو أكثر من غيرهم. ويحب بعض منا أن "يشخبطوا" كوسيلة للوصول إلى بعض أفكارهم.

وقد يقوم بعضٌ منا بقص ولصق جذاذات مختلفة داخل المذكرات الميدانية التى تحصلنا عليها فى ذلك اليوم. وربما أعطاك أحدهم مقالاً منشوراً فى صـــحيفة، أو كتيباً، أو حتى خطاباً أو بطاقة يريد أن تأخذها. فتذكر أن البحث الميــدانى يمكن أن يحتوى كذلك على الوثائق التى تجمعها فى الميدان، وأن هذه الوثائق لابد من تحليلها أيضاً.

تحليل مذكراتك الميدانية وغيرها من المواد: اللغز الإثنوجرافـــــى

هيا بنا نمضى داخل العملية البحثية وننظر كيف تكتب إحدى الباحثات مذكراتها الميدانية كتابة تفصيلية. ولاحظ كيف يتواكب الوصف مع التحليل فى هذه المذكرات. وقد كتبت هذه المذكرات الميدانية مساعدة بحث بيضاء اللـــون من أبناء الطبقة الوسطى تقوم بإجراء الملاحظات فى بيئة يغلب علـــى أهلهـــا اللون الأسود. وفيما يلى نص مستخلص من المذكرات الميدانية التى كُتبت بعد فترة قصيرة من ملاحظتها للأنشطة التى جرت فى مركز اجتماعى يقع فـــى حي وسط المدينة الذى تحيط به منطقة يغلب على أهلها اللون الأسود. وهـــى تقوم بدور المشارِكة الملاحِظة فى هذا الموقع. وقد كانت فى صحبة أســـتاذتها عند الذهاب إلى موقع البحث المذكور، والذى يُسمى سيتى فيل Cityville من أجل أن تحدد مكان المبحوثين السود المطلوبين لمشروع بحثى عـــن الهويـــة السوداء وصورة الجسد.

المذكرة الميدانية: رقم ١.

التاريخ: يوليو ١٩٩٥.

المكان: المركز الاجتماعى، سيتى فيل.

الحدث: يوم الأمهات – والبنات.

لقد كان أمراً مختلفاً جداً أن أقود السيارة فى حى سيتى فيل، وهو حى يمثل جزءًا من مدينة ستيى City لم أره من قبل تلك المـــرة أبـــداً. ذلـــك أن الفارق بين المكان الذى أعيش فيه وأذهب فيه للدراسة فارق مذهل. فـــالواقع أنهما يكادان يكونان عالمين منفصلين عن بعضهما.

كانت المدرسة الحكومية (الرسمية) مختفية وراء طريق جانبي بحيث أنك لا تستطيع أبداً أن تعرف أنها موجودة في هذا المكان. وكانت هذه المدرسة نفسها في غاية الاختلاف عن المدارس التي رأيتها في منطقتي. فقد كانت مدرسة ضخمة البناء إلا أنها قديمة جداً ولا يُعتنى بها كثيراً. وكنت أشعر بشيء من التوتر والقلق مما يمكننا أن نجده عندما دلفنا إلى المدرسة.

كان أول شيء أصابني بالدهشة هو مدى شعوري بأنني بيضاء اللون. فقد كنت أنا وأستاذتي الفردين الوحيدين من البيض فيما أرى، كما شعرت كأن كل إنسان كان ينظر إليَّ ويفكر في نفسه متسائلاً: "من هي هذه الفتاة البيضاء الغبية وماذا عساها تفعل هنا؟". وقد سبق لي أن قرأت مقالة ضمن مقررات الصف الدراسي لأستاذتي عنوانها "حقيبة الظهر الخفية" وكانت تتحدث فيها عن الوضع الممتاز الذي يتمتع به البيض وعن حقيقة أننا مهما ذهبنا نحن البيض إلى أي مكان، فإننا نراهن على أن أغلبية الناس حولنا سيكونون بيضاً كذلك. لذلك فقد كنت على وعيٍ - دائماً - بالشعور الذي لابد أن يشعر به المرء عندما يكون أسود اللون ويسير في مكان ليس فيه إلا البيض. إلا أن هذا الوعي السابق لم يكن مثل الوعي الذي وصلت إليه عندما سرت في مكان ليس فيه إلا السود. كانت المقاعد الدراسية مقلوبة، كما أنه عليَّ أن أعترف أنني أحب ذلك الوضع. لقد شعرت بقلق شديد وبأنني غير مرغوب فيها وشعرت كأنني محتاجة لأن أثبت أو ابرهن لهؤلاء الناس أنني مثلهم تماماً، وذلك حتى على الرغم من أني أعلم في أعماق نفسي أنني لست صادقة في هذا الزعم.

كما كان الأمر الثاني الذي صدمني هو المقدار الهائل من الشغب الذي كان يسود المكان. فقد كان الصغار يجرون في كل مكان، وكان الكبار يلقون أوامرهم صائحين هنا وهناك. ثم سرنا داخل مكان به موائد منصوبة، و به مجموعة من الأطفال يمارسون تمريناً روتينياً للرقص الإيقاعي مع مدربهم الرياضي. وكان ثمة عدد كبير من الأفراد يرتدون أحسن الثياب. وعندما جلست في هذا المكان علمت أنه لا يمكن أن يكون هذا اليوم يوماً عادياً في هذا المركز الاجتماعي. فبعد وقت قليل، اكتشفت أستاذتي، وأنا كذلك، أنه سيقدم في هذا المكان عرض ما. لقد كان هذا الأمر مفاجأة لي فعلاً. أما

المفاجأة الأكبر فقد تمثلت فى أن أستاذتى ستتحدث فى هذا الحفل إلى الأطفال والآباء. وهو أمر عظيم يستحق الملاحظة المبكرة التى تسبق الحدث.

عندما أصبحت أستاذتى مستعدة أخذت فى متابعة الأطفال وهم مستمرون فى أداء تمارين الرقص الإيقاعى. لقد كانوا أطفالاً ظرفاء فعلاً، تتراوح أعمارهم بين ٧ سنين و١٤ سنة، وكانوا ١٢ فتاة وصبياً واحداً. وكان مدربهم مستغرقاً تماماً فى تدريبهم. وكان فى غاية الشدة مع الأطفال كما كان يطالبهم بالانتباه والدقة، فإنه كان شديداً بطريقة فى منتهى العطف والاهتمام. وكان الأطفال كذلك فى غاية الجدية فى رقصهم الإيقاعى كما كانوا يبذلون جهداً كبيراً فى أداء تمريناتهم.

وبعد لحظة بدأ الآباء والأمهات يتدفقون على المكان، كما غادر المكان الأطفال الذين كانوا يقومون بتمرينات الرقص الإيقاعى. حصلت أستاذتى وأنا على كتيب أعطانا إياه أحد الأفراد المكلفين بإرشاد الضيوف واكتشفنا أننا فى "أمسية الأمهات والبنات". وكان اسم أستاذتى مكتوباً فى هذا الكتيب كمتحدثة، وفى بحر دقائق قليلة كانت تتأهب للصعود إلى المنصة.

جلسنا إلى إحدى الموائد مع أم، وأب، وأخت لإحدى المتدربات على الرقص الإيقاعى. كانت تتواجد بالمكان أسرٌ أخرى من بينها أسرة من البدناء. وكان من الموجودين أم وأب لإحدى المتدربات على الرقص الإيقاعى، والجدة وابنتاها، بل وبعض الأصدقاء كذلك. وكان الباقون أمهات أو أصدقاء وصديقات لباقى الفتيات. بل إنه كانت توجد إحدى الأمهات التى جاءت لتقف إلى جانب ابنها الذى كان أحد مرشدى الضيوف. كان مرشدو الضيوف جميعاً يرتدون أحسن الثياب، واضعين عليها بطاقات تحمل أسماءهم، وبدا عليهم أنهم جادون فى أداء عملهم.

وأخيراً ظهر بعض الأفراد البيض، وقتها لم أعد أشعر أنى ملفتة للنظر كما كنت أشعر من قبل. وكان منهم أم وأخت لفتاة مغنية، وهى الفتاة البيضاء الوحيدة التى رأيتها فى هذه المجموعة من الأطفال. إنه لأمر فى غاية الروعة! وكان الشخصان الأبيضان الآخران اللذان حضرا، كانا من المتحدثين أيضاً.

حسناً، لقد بدأ الحفل. تكلمت أستاذتى أولاً، وكانت تتحلى بشجاعة فائقة لأنك لا تستطيع أن تدفع لى مالاً لأقف فى مواجهة مثل هذه الجماعة. إلا أنها ألقت خطبة عظيمة، كما بدا على أغلب الأمهات أنهن كن مهتمات بالحديث تماماً. ثم تحدث المدير الجديد للمركز الاجتماعى عن مدى سعادته بتولى منصب المدير، وعن مدى ما أحدثه تنفيذ بعض البرامج الجديدة من نجاح أثار انتباهه. وبعد ذلك حضرت مجموعة من المغنين، كان منهم مغن رئيسى عمره ما بين ١٠ و ١٢ سنة، ومعه مجموعة من المرددين (الكورس) مكونة من ٨ فتيات وصبى أو صبيين. وقد غنوا أغنية "يجب أن تكون قوياً".

كان يبدو على الآباء جميعاً سيماء الفخر. وبعد ذلك صعدت واحدة من السيدات البيض لتتحدث عن سيارتها الكبيرة التى تسميها "عربة العائلة". وهى طبيبة تتجول بعربتها الكبيرة ومعها فريق من الأطباء المحترفين، وتقدم خدمات صحية مجانية لمن هم فى حاجة إليها. وقالت إنها ترغب فى تقديم سيارتها تلك للمركز، وتريد أن تتأكد من أن هذا المجتمع المحلى يحتاج إلى العربة فى سيتى فيل، وتريد أن تسأل عما إذا كان لديهم أسئلة يريدون طرحها. طُرحت عليها بعض الأسئلة القليلة، ثم عبرت عن تأييدها لما قالته أستاذتى. ثم حضرت الراقصات الإيقاعيات، وقد كن يتمتعن بكفاءات جسمية متماثلة، كما أنهن أدين دورهن الروتينى بإتقان بالغ. وكان مدربهن ينظر إليهن بفخر عظيم، وكذلك كان شأن آبائهن وأمهاتهن معهن. قالت الأم التى تجلس إلى مائدتى: "هذه هى صغيرتى" عندما ظهرت ابنتها ضمن العرض. وقد كانت هؤلاء الفتيات يبدين فخورات حقاً وسعيدات أيضاً. وفى نهاية العرض رأيت مدربهن يعانقهن مثنياً على حسن أدائهن. كانت رسالتهن عن المعرفة والنجاح وبذل المرء لأقصى جهده رسالة مفعمة بالقوة حقاً.

أخبرت امرأتان أستاذتى أنهما تريدان أن تتحدثا إليها، لذلك فإنها ذهبت مع الجدة. شعرت بشيء من القلق عليها لأننى كنت أظن أن الجدة قد تسأل أستاذتى عمن تلجأ إليه، ولكنها لم تفعل ذلك فى الواقع، فقد كانت تريد إجراء مقابلة معها بحضور بناتها الثلاث وحفيدتها. لقد بدا عليها الاهتمام

الشديد، كما أنها أخبرت أستاذتى أن الرجال السود والمجتمع الأسود أكثر تقبلاً للنساء البدينات.

لقد لاحظت، أنا نفسى، مثل هذا الفارق بين جميع النساء الموجودات فى هذا المكان بالمقارنة مع مكان آخر مليء بالنساء البيض. كان يوجد عدد قليل جداً من النساء الفائقات البدانة، إلا أنهن كن جميعاً مرتديات ثياباً حسنة، كما أنهن كن يثقن بأنفسهن، فقد كن يبدين سعيدات جميعاً، كما كان يبدو عليهن الاطمئنان وراحة البال. والحق أننى لم أر أبداً ذلك فى المجتمع الأبيض. فالمعتاد أنه عندما يكون الأفراد ذوى أحجام كبيرة فى مجتمع البيض فإنهم يتعاملون مع أنفسهم بطريقة مختلفة، فلا يبدو عليهم الثقة بالنفس ولا الاطمئنان وراحة البال. أنا أعلم أن هذا نوع من التعميم، فإنه يمثل ما لاحظته. إن هؤلاء النساء السود، سواءً أكن بدينات أم نحيفات، يشعرن بنفس الإحساس.

وأياً كانت تصرفات الفتيات الصغيرات، فقد كان يبدو عليهن، إن كن نحيفات، وكان من الطبيعى أن يكن بهذا الشكل. ولاحظت أن بعض الفتيات كن ذوات بنية جسمانية عادية ويبدو عليهن أنهن سعيدات ومطمئنات ومرتاحات البال. بل إن بعضهن ممن يمكن اعتبارهن بدينات فى المجتمع الأبيض كن يبدين فى نفس الحالة من السعادة وراحة البال.

لقد كان فى هذا المكان قدر هائل من الفخر والمحبة والاستنارة والقوة. وقد كان شعوراً غلاباً ومذهلاً أن تكون جزءًا من هذا الحدث، حتى لو كنت غريباً فى نظر الحاضرين. وإنى لأود أن يذهب كل من يبدون آراءهم فى السود ويطلقون عليهم أحكاماً عامة؛ أن يذهبوا إلى مركز اجتماعى كالمركز الموجود فى سيتى فيل ويمضوا فيه يوماً ليروا مقدار ما هم عليه من خطأ.

نهضت امرأة أخرى لتخطب، وكانت امرأة سوداء تصطحب معها أمها. وكان من الممتع أن تنصت إلى حديثها وهى تدعو الحاضرين إلى أن يؤمّنوا على دعائها، وأن ترى كم كانت استجابة الجمهور لها أعظم بكثير من استجابتهم لأستاذتى وللمتحدثة البيضاء الأخرى.

بعد ذلك غادرنا المكان، وبينما كنا نسأل عن بعض الإرشادات الخاصة بطريق العودة، عرضت علينا سيدة كانت بسبيلها لمغادرة المكان أن نركب فى عربتها لتوصلنا إلى محطة الترولى. لقد كانت فى غاية الكرم معنا، كما كانت ودودة حقاً. وهى تعيش فى سيتى فيل منذ أكثر من ٢٥ سنة وتدير عيادة لإسعاف مرضى الإدمان عن طريق الخط الساخن.

أثناء ركوبى الترولى عائدة لبيتى انقلب الوضع فعدت أنا الغالبية البيضاء مرة ثانية. ما أروعه من شعور غامر بالراحة النفسية أحسست به آنذاك.

تتم عملية تحليل البيانات الإثنوجرافية كنشاط متواصل مواكب لعملية جمع البيانات. فأنت تجمع البيانات، ثم تفكر فيها وتتأملها، ثم تجمع المزيد من البيانات وتعاود التفكير فيها وتأملها. وتسير عمليتا جمع البيانات وتحليلها فى صورة حلزون صاعد يتحرك باتجاه خلق المعنى. وقد ينتفع الإثنوجرافيون أيضاً بالتقنيات الكمية والتحليلات الإحصائية للمساعدة فى تحقيق هذا الهدف، وذلك رغم أن هذا النمط من التحليل يظل – عادة – فى مرتبة ثانوية بالنسبة للتحليل الكيفى.

اللغز الإثنوجرافى(*)

يمكننا النظر إلى التحليل الإثنوجرافى بوصفه "**عملية استقرائية**"، أعنى بذلك، عملية اكتشاف ما تعنيه البيانات التى تجمعها. ويُعَد الوصف هو

(*) المصطلح المستخدم puzzle ويقصد به تلك اللعبة المكونة من عدد كبير (قد يصل للمئات) من أجزاء صورة أكبر، يعرفها الصغار والكبار، ويفضلها الصغار خصوصاً. وتتمثل اللعبة فى تجميع أجزاء الصورة الصغيرة المتفاوتة الشكل والصور المرسومة عليها، ووضعها فى علاقاتها الصحيحة ببعضها البعض، بحيث تكوّن – فى نهاية اللعبة – شكل الصورة المنشودة. وبذلك ينحل اللغز وتكتمل المتعة.

والمؤلفة هنا تشبّه عمل الباحث الإثنوجرافى فى تحليل مادته الميدانية بعملية تجميع أجزاء اللغز إلى جانب بعضها البعض، أى تجميع جزئيات المعلومات والبيانات الميدانية إلى جانب بعضها بوضعها فى علاقاتها الصحيحة ببعضها البعض، لتتكون فى النهاية الصورة المنشودة للمجتمع – أو الموضوع – المدروس، وينحل اللغز. (المراجع)

حجر الأساس للتحليل الإثنوجرافى، كما تُعَد المذكرات الميدانية هى السجل الذى يحتوى على الملاحظات المتعمقة التى جمعتها من الميدان والتى تقدم لنا نافذة للإطلال منها على موقع البحث: البشر الذين يعيشون فيه، والملامح المادية للموقع، وما إلى ذلك. ويمكننا النظر إلى المذكرات الميدانية بوصفها أجزاء تتكون منها – فى النهاية – إحدى صور الألغاز المكونة من أجزاء صورة معينة. والهدف هو تجميع هذه الأجزاء معاً لتكوين صورة اللغز المكتملة (وهو ما يمثل التحليل) ثم إخبار القارئ بما تراه (وهو ما يمثل التفسير أو التأويل). فما هو مدى جودة تنظيمك (أى ترتيبك لأجزاء) هذه القصة التصويرية؟ يمكنك أن تبدأ فحسب بالقراءة التى تستعرض فيها ما جمعته وتطرح بعض الأسئلة التى تنبه الإحساس، كهذا السؤال على سبيل المثال:

- ما الذى يجرى فى هذا الموقع البحثى؟

يتمثل جزء من تحليلك فى ترتيب هذه القطع أو الأجزاء التصويرية لتشكل منها قصة. وتحليلك هذا (أى طريقتك فى ترتيب هذه الأجزاء فى صورة كاملة من صور الألغاز) هو الذى يقودك إلى التفسير (أى: ما الذى يعنيه هذا اللغز؟). وكما تعلم، فإنه يمكن أن توجد بدايات زائفة لحل أى لغز. فقد نحرك هذه الأجزاء جيئة وذهاباً، وقد نرغم – أحياناً – أجزاء صورة اللغز على التجمع معاً! وقد تظهر مشكلات معينة أثناء رحلتك التحليلية. وهذه بعض الأسئلة المنبهة للإحساس التى يمكن أن تطرحها على نفسك وأنت ماضٍ فى طريقك:

- هل أنتقل من الوصف إلى التحليل بسرعة أكثر من اللازم؟ فإن كان الأمر كذلك، فقد تكون الصورة غائمة غير واضحة ويكون تفسيرك فى غاية الضعف.
- هل أمضى وقتاً أطول من اللازم مستغرقاً فى الوصف فقط؟ فإن كان الأمر كذلك، فلعلك تصف جميع أجزاء اللغز بتفصيل دقيق، ولكنه لا يكون لديك دليل أو مفتاح لحل هذا اللغز أو فهم ما يعنيه.

يساعدنا التحليل على تركيب أجزاء صورة اللغز بشكل متناسب معاً. فالتحليل يتساءل: ما هى الأجزاء التى تتناسب معاً؟ وما هى الأجزاء التى لا تتناسب معاً؟ وعندما تتناسب أجزاء معينة من صورة اللغز معاً، نكون قد أمسكنا **بفكرة محورية أو أساسية**، وهو ما يزودنا بفكرة عن حقيقة هذا اللغز ويتيح لنا أن نمضى قدماً نحو هدفنا الخاص باستكمال الصورة. ولعلك تفكر فى "كتابة التعليقات أو الحواشى الجانبية" التى تتناول الحال التى يسير بها تحليلك. وتُعد "**التعليقات التحليلية**" أفكاراً تدونها لتساعدك على التفكير الشامل فى الطريقة التى تتبعها فى إنجاز عملك، وما يعنيه هذا العمل. وكما هو الحال مع المذكرات الميدانية، توجد تشكيلة متنوعة من التعليقات التى ينبغى أن تكتبها لتساعدك فى تحليلك، وسوف نقوم بتناول بعض هذه التقنيات فى الفصل الخاص بالتحليل والتفسير (الفصل العاشر من هذا الكتاب).

ينبغى لك أن تستعمل تشكيلة متنوعة من طرق التحليل لتجميع أجزاء الصورة معاً. مثال ذلك أنك تستطيع أن تضع رمزاً أو إشارة شفرية لكل قطعة تبعاً لحجمها (فتخصص فئات الرموز الدالة على الحجم الكبير، والحجم المتوسط، والحجم الصغير لكل واحدة من هذه القطع) ثم تضع (أى تصنف) جميع هذه القطع فى هذه الفئات الثلاث. **فالرموز** عبارة عن طرق تنظم بها بياناتك. ويمكن أن تكون الرموز نافعة كما يمكن أن تكون غير نافعة. ولتحقيق هذه المنفعة، فإنك تقوم فى أغلب الأحيان بمقارنة هذه القطع ببعضها. وإن بإمكاننا أن ننظر إلى هذه التقنية بوصفها توظيفاً لطريقة التحليل الإثنوجرافية المسماة "**طريقة المقارنة المستمرة**"، التى تشكل جزءًا من النظرية" الموثقة (انظر جلاسر وشتراوس، ١٩٦٧). وسوف نتحدث عن هذه الطريقة بمزيد من التفصيل فى الفصل العاشر من هذا الكتاب. والواقع أن هذه التقنية تتألف من النظر إلى مدى تماثل أو اختلاف القطع التى تتكون منها صورة اللغز. وتطرح هذه الطريقة أسئلة من النوع التالى:

- ما هذه القطعة؟
- ما الذى تعنيه؟
- هل توجد قطع أخرى تشبه هذه القطعة؟

- ما الذى يجعل القطعة "أ" مختلفة عن/ أو مشابهة للقطعة "ب"؟

يُقصد من مقارنة التحليل بعملية تجميع أجزاء صورة اللغز معاً، التخلص من تلك اللغة الاصطلاحية الخاصة التى يستخدمها الباحثون عند شرح كيفية تحليل وتفسير البيانات. فإذا وافقت على هذه المماثلة (بين التحليل وتجميع أجزاء صورة اللغز معاً) وطبقته على مشروعك البحثى، فقد ينبغى عليك أن تبدأ بمجرد مراجعة سائر مذكراتك الميدانية وغيرها من الوثائق المكتوبة وسجلات المقابلات. وينبغى أن تحاول الوصول إلى مرحلة الرضا عن بياناتك أو الاطمئنان إليها، أى إلى تلك اللحظة التى عندها تشعر أنك على دراية تامة بالبيانات التى جمعتها من قبل. كما ينبغى عليك أن تبدأ بوضع علامات تُميز بها سائر أجزاء النص أثناء استعراضك له، ولعلك قد تميل إلى كتابة المذكرات والتعليقات أو الحواشى الجانبية التى تتناول فيها ما يحدث وما تراه مهمًا من النقاط التى تُريد الرجوع إليها فيما بعد.

كما ينبغى عليك أن تفكر فى إدخال بياناتك فى أحد برمجيات الكومبيوتر، كبرنامج "هايبر ريسيرش" Hyper Research أو برنامج "إثنوجراف" Ethnograph ليساعدك فى هذه المهمة (وسوف نستأنف دراسة القضايا المتصلة ببرمجيات الكومبيوتر وتحليل البيانات فى الفصل العاشر من هذا الكتاب).

وفى "الاستعراض الأول" للبيانات التى جمعتها قد تبدأ فى رؤية وتمييز بعض الفئات الكبرى أو الرئيسية التى قد تتطابق أحياناً مع **الفئات التحليلية** (والتى كثيراً ما تسمى أيضاً "**الموضوعات الأساسية**"). ولعلك تحتاج للنظر فى الأمور التى "تتناسب مع بعضها" والأمور التى يبدو أنها لا تتناسب مع بعضها أبداً (وهذا النظر هو **المقارنة التحليلية**). فكر فى هذه العملية واكتب عن مدى تشابه تلك الفئات التحليلية ومدى اختلافها وسبب ذلك. وبمجرد أن تقع يدك على ما تشعر أنه موضوع أساسى محتمل أو فئة محتملة، ابحث عن المصادر المستقلة الأخرى التى قد تعزز هذه الفكرة كالوثائق أو سجلات المقابلات، بالإضافة إلى ملاحظاتك أنت. وتسمى هذه العملية استخدام أكثر من مصدر لتوثيق بياناتك. بل قد يصل بك الأمر إلى أن تجعل مبحوثيك

يطلعون على أفكارك فيقرءونها لترى ما إذا كـانوا يـستطيعون أن يعـززوا آراءك أو وجهات نظرك أم لا. تأكد من أنك كتبت حواشـى جانبيـة علـى موضوعاتك الأساسية المهمة. وإلى أى مدى يرتبط هذا الموضوع الأساسـى بالموضوعات الأخرى التى سبق لك أن عزلتها كذلك جانباً؟ وسوف يساعدك قيامك بهذا العمل على رؤية الصلات القائمة بين فئات التـصنيف المختلفـة. وشيئاً فـشيئاً سـوف تتبلـور ملامـح قـصتك (See Hammersley & Atkinson, 1995, p. 157).

التحليل العادى ومشكلات التفسير/ أو التأويل

بقيامك بتحليل ما، قد تجد نفسك وقد انصرف انتباهك إلى إستراتيجية معينة للتحليل. مثال ذلك أنك قد تركز فقط على تحصيل المزيد والمزيد مـن قطع صور الألغاز، إلا أنك لا تمضى وقتاً، أو لا تمضى وقتاً كافياً، تربط فيه هذه القطع معاً.

هنا قد تساعدك الحواشى الجانبية على أن تتوقف وتفكر فى الطريقـة التى ينبغى أن تتبعها فى تصنيف هذه القطع وتحديد فئاتها كطريقة تتجه بهـا نحو رسم صورة لما يجرى فى موقع البحث تتسم بطابع عام وشامل.

إنك سريع أكثر من اللازم فى تصنيف قطع الصورة التى لديك وفـى الربط بينها، ونتيجة لذلك تكون الصورة التى تتحصل عليها مـشوشة و/أو ناقصة.

هنا قد تحتاج للعودة إلى موقع البحث لتجمع مزيداً من البيانات التـى تحتاجها تحديداً، أو قد تستعرض المذكرات الميدانية التى ربمـا تكـون قـد طرحتها جانباً. وقد تكون فئات التصنيف التى استخدمتها غير محددة تحديـداً واضحاً. فراجع طريقتك فى ربط فئات تصنيفك أو موضوعاتك الأساسية مـن حيث اتساقها مع بعضها البعض. وغالباً ما تكون الحواشى المكتوبة عن هـذه المشكلة المحيرة مفيدة فى حلها.

إنك قد تقفز للوصول إلى تفسير بارع لهذه الصورة (والذى يدل على معناها) دون أن تتبلور فى ذهنك فكرة عما إذا كانـت صـورة اللغـز هـذه

واضحة، أم غير واضحة، أو قد لا يكون عندك فكرة عما هى العناصر التى تتكون منها تلك الصورة.

إنك قد لا تقدم التحليل الكافى لدعم تفسيرك. فقد تكون فى حاجة للجوء إلى إثراء مادتك بالتماس مصادر أخرى للمعلومات، وكذلك عن طريق مشاركة تفسيرك هذا مع الأفراد الموجودين فى موقع البحث (المبحوثين). وقد تحتاج إلى جمع مزيد من البيانات لتدعيم نتائج بحثك.

كنصيحة أخيرة نقول: من المهم أيضاً أن تتذكر أن عملية التحليل والتفسير تتحرك جيئة وذهاباً. وقد تتناسب قطع صورة اللغز مع بعضها أو لا تتناسب؛ بل لعلها – فى الواقع – تنتمى إلى لغز آخر. فإذا تحيرت فتذكر أن ما يوجهك – فى أكثر الأحيان – فى تركيبك لصورة اللغز هو تلك المجموعة من أسئلة البحث الاستطلاعية أو الإرشادية التى بدأت بها فى أول الأمر. ومع ذلك، فربما تجيب هذه القطع فى الواقع على سؤال آخر. وقد يتعين عليك أن تراجع الموضوعات التى طرحت عنها أسئلة فعلاً، ولكنك لم تتوصل إلى الإحاطة بها.

قضية عرض النتائج: فن الحكى

من المهم تذكر قضية عرض النتائج، انطلاقاً من تحديد المنظور الذى سوف تحكى منه هذه الحكاية؟ يصور لنا جون فان مانن John Van Maanen الإحساس القديم لعلم الإثنوجرافيا فى موقفه من المبحوثين، والذى ينجم عنه غالباً وجهة النظر القائلة بأنه ينبغى على المرء دائماً أن "يدع الإثنوجرافى يتحدث عن البيانات بطريقته الخاصة" مع الحد الأدنى من التعرض للتفسيرات الصادرة من المبحوثين. ويلاحظ على ذلك ما يلى:

مضى زمن – قد يقول البعض عنه أنه زمن الأحلام – عندما كان البحث الإثنوجرافى يقرأ باعتباره وصفاً ثقافياً مباشراً قائماً على الخبرة المباشرة التى عايشها مؤلف ما مع مجموعة من الناس غريبة (عن المؤلف وعن القارئ كليهما). وقد يكون هؤلاء الكتاب الذين قدموا بحوثاً إثنوجرافية قد ساورهم شك فيما علمته إياهم المغامرة بالنزول إلى الميدان، وفى الطريقة

التي يؤدي بها مجرد "التواجد في المكان" إلى إنتاج بحث إثنوجرافي، إلا أن عدداً قليلاً فقط من الشكوك قد طفا على السطح فيما قدموه من كتابات. ويبدو الأمر كما لو أن البحث الإثنوجرافي ينبثق تلقائياً، بدرجة أو بأخرى، من مجرد الإقامة في الميدان. فما على الباحث إلا أن يحدد نطاق ساعة ما من الناس، وأن يعيش معهم فترة من الوقت، وأن يدون مذكرات عما يقولون وعما يفعلون، ثم يعود لبيته ليكتب كل ذلك في صورته النهائية. وعلى أي حال، فقد كان البحث الإثنوجرافي يبدو شبيهاً بشكل من أشكال كتابات الرحالة يتسم بأنه شكل بهيج، ومسالم، وحافل بالمعلومات (Van Maanen, 1995, p. 1).

ويعلق فان مانن (١٩٩٥) بأنه رغم ما ذكره عن البحث الإثنوجرافي فقد تعرضت تلك المقدمة الأساسية المهمة عن البحث الإثنوجرافي – والتي تتحدث عن حق الباحث في عرض نتائج موضوع البحث – تعرضت هي نفسها للمراجعة والفحص الدقيق. ويقول في تعليقه: "لقد ظهر نوع من الدرس الإثنوجرافي للإثنوجرافيا" كثمرة للدراسات التي تناولت بعض نصوص التقارير البحثية الإثنوجرافية، وانبثق فهم جديد للميدان عمل – تدريجياً – على تغيير الطريقة التي نفكر بها في عرض نتائج الدراسات الثقافية عن مجتمعات ماضية أو معاصرة (Van Maanen, 1995, p. 17). ويلاحظ فان مانن أننا بصدد طائفة من الأسئلة الجديدة التي صارت تُطرح حالياً، مثل:

- ما هو الدور الذي يقوم به الباحث في عملية تفسير البيانات التي جمعها؟
- هل يجوز للباحث الكيفي أن يسمح لمشاعره أن تتدخل في عملية التفسير؟
- أي وجهة نظر هي التي يعبر عنها الإثنوجرافي فعلاً مستعيناً بما لديه من بيانات؟ (Van Maanen, 1995, pp. 16-17)

تتطلب أغلب البحوث الكيفية القيام بالملاحظة، كما تستلزم وجود قدر من المشاركة بين الباحث والمبحوثين. وتظل قوة الباحث ماثلة على امتداد مراحل عملية البحث – ابتداء من تحديد سؤال البحث/ أو أسئلة البحث ونوع طريقة البحث المستخدمة في تحليل البيانات وفي تفسير نتائج البحث. ويهتم

بعض نقّاد التحليل التقليدى للبحوث الكيفية بأسلوب عرض قصص حياة الأفراد المبحوثين، ويهتمون بصفة خاصة بالخبرات التى يعايشها المقهورون بسبب عرقهم، ونوعهم الاجتماعى، وعمرهم، وما إلى ذلك (انظر ولف Wolf، ١٩٩٦). وتتبع إيمرسون تاريخ انهيار النموذج الكولونيالى (الاستعمارى) للإثنوجرافيا – والقائم على الانفصال التام بين الباحث والمبحوثين – وتحوله إلى موقف نقدى (انعكاسى) كان من ثمرته تحطيم ذلك الفصل بين الباحث والمبحوثين. وفى ذلك تقول:

مع أفول النزعة الكولونيالية، أصبحت الأوضاع التى كانت تؤخذ مأخذ التسليم موضعاً للشك وفقدت ما كانت تتمتع به من يقين. إذ صار متعيناً على الباحثين أن يتحصلوا على موافقة صريحة ومباشرة من الأفراد المقرر دراستهم، وبدون اعتماد ضمنى أو صريح على القوة (السياسية) الكولونيالية... ونظراً لأن القدرة على إجراء العمل الميدانى والممارسة اليومية لهذا العمل أصبحا أكثر إشكالية مما كانا عليه، وأكثر اعتماداً على إقامة علاقات عمل فعالة مع عدد معين من الأفراد؛ نظراً لذلك كان من المحتم أن يتنامى الوعى الشخصى بالنفس والوعى الشخصى بأهمية العلاقات مع الآخرين (Emerson, 2001, p. 23).

اتخذت الكتابات الإثنوجرافية موقفاً أكثر نقدية لمظاهر الاختلال فى علاقات القوة وأكثر تصويراً لقضايا السلطة وعرض المادة المتضمنة فى تحليل وتفسير نتائج البحث. (See also Hesse – Biber & Leavy, 2004, pp. 409-425). وتميل الإثنوجرافيا المعاصرة نحو المزيد من "الإثنوجرافيا التأويلية"، وهى إثنوجرافيا تعترف بتعدد الوقائع وتنوع أبعادها. كما تؤمن أنه لا يوجد توافق تام بين فهم الباحث وخبرات "الآخر" (المبحوث). ويعلق دنزن Denzin على ذلك بالقول: "لا يمكن أبداً أن يوجد عرض دقيق نهائى لما يعنيه المبحوث ولما يقوله، فلا يوجد سوى نصوص (بحثية) مختلفة تتناول بالعرض خبرات مختلفة" (دنزن، ١٩٩٧، ونقلاً عن إيمرسون، ٢٠٠١، ص ٥٠). وترفض المذاهب الفكرية المابعد الحداثية و المابعد البنيوية فى الإثنوجرافيا – بشكل خاص – صحة تلك النظرة الإثنوجرافية التقليدية. إذ تؤكد هذه المذاهب الفكرية على أن الروايات التى تحويها الكتابات

الإثنوجرافية لا تعدو أن تكون حكايات رويت من خلال مجموعة معينة من الصفات المميزة للباحث فى مجال العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى وما إلى ذلك. ويعلق دنزن ولنكولن Lincoln قائلين:

أسهم مفكرو ما بعد البنيوية ومفكرو ما بعد الحداثة فى تطوير التصور القائل بأنه لا توجد نافذة شفافة لرؤية الحياة الداخلية أو الخفية لفرد ما. ذلك أن أى نظرة مدققة يتم ترشيحها (أى تصفيتها و فلترتها) من خلال عدسات اللغة، والنوع الاجتماعى، والطبقة الاجتماعية، والعرق، والانتماء الإثنى. فلا وجود للملاحظات الموضوعية، إذ لا يوجد إلا الملاحظات الخاضعة للاعتبارات الاجتماعية الموجودة فى عالم كل من الملاحِظ والمُلاحَظ وفيما بين هذين العالمين. (ص ١٩)

يرى بعض مفكرى ما بعد الحداثة أن الواقع نفسه يتحول إلى ما نراه فى العرض فقط. ويعلق جبريوم Gubrium و هولشتين (١٩٩٧) بالكلمات التالية على ما يعرف بانقلاب ما بعد الحداثة وما ترتب عليه من "مأزق عملية عرض النتائج":

الواقع أن هذا التحدى يصل إلى مستوى الأزمة، آخذاً معه البحث الكيفى بعيداً، متجاوزاً نطاق الأسئلة ذات الأساس الإمبيريقى التى تبحث عن "ماذا" و"كيف". فهذه الأزمة تتصل بالعرض نفسه، وذلك حال كون النزعة المتطرفة لما بعد الحداثة تقوم بإزاحة الواقع وإحلال العرض الذى يقدمه الباحث محله. ففى هذا السياق، يقوم السؤال الذى يبحث عن "كيف" بتغيير اتجاهه من التركيز على مادة الحياة الاجتماعية، وعملياتها، وتركيبها الداخلى، إلى بحث أساليب العرض التى يستعملها كل من المجتمع وعالم الاجتماع لنقل صورة الواقع الموضوعى (أو الذاتى). فالبحث الما بعد الحداثى يميل إلى تغيير اتجاهه بعيداً عن دراسة كيف يتفاعل أعضاء المجتمع لينتجوا حيواتهم وخبراتهم، وذلك حال كونه ملتفتاً بصورة أكبر تجاه ممارسات العرض والتصوير التى يستخدمها أولئك الباحثون الذين يزعمون أن لهم الحق فى تقديم ما هو "حقيقى". (ص ٧٦)

ويرى بعض مفكرى ما بعد الحداثـــة - كجـــان بودريـــار (١٩٨١، ١٩٨٨) - أن الحقيقة، فى الواقع، تتخذ صفة "ما فـــوق الواقـــع". إذ تـــصبح الحقيقة مجموعة من الصور الذهنية، والتى لا تختلف عن تلك الصور التـــى تنهال علينا بها وسائل الاتصال الإلكترونية، كالتليفزيون مـــثلاً، أو الألعـــاب الإلكترونية القائمة على محاكاة الواقع. ففيها أصبح الزمان والمكان مختلطـــين بلا نظام، وكذلك اختلطت أفكارنا المتعلقة بما يؤلف نظاماً مرتباً ترتيباً زمنيـــاً معيناً. ويعلق جبريوم وهولشتين على ذلك قائلين:

إن الحقيقة، أو قل إن الزمان والمكان الحديثين "يتم تـــصعيدهما" إلـــى الدرجة التى لا تتطابق فيها الأشياء مع النظام المرتبط عادة بما هـــو واقعـــى فعلاً. وحيث إن الزائف الذى يحاكى الواقع يحل محل الفعلى، تصبح العيانيـــة مجرد مسألة صور ذهنية. ويُطاح بالوجود تذروه الرياح فى مشروعات عديمة العقل فعلاً. وتختفى الموضوعات التى لها أساس فـــى هـــذه الحيـــاة، وتبلـــغ الدلالات من التسطح درجة يفقد معها العرض أى صـــلة محـــددة بالأشـــياء. ويُصبح الواقع ساحة هزلية من العلامات، وعلامـــات العلامـــات الأخـــرى، والعلامات الأخرى الدالة على غيرها من العلامات. (ص ٧٨)

قد لا يتفق كل الإثنوجرافيين مع وجهة النظر هذه، كما يوجد مـــنهم، من أمثال جبريوم وهولشتين (١٩٩٧)، من يمثلون الإثنوجرافيين الذين يدعون إلى اتخاذ موقف وسط عن طريق الاحتفاظ بصورة ما للواقـــع مـــع تطـــوير الاستراتيجيات اللازمة لإدخال الرؤى الأخرى للعالم الاجتماعى فى الحـــسبان (انظر، على سبيل المثال، جبريوم وهولشتين، ١٩٩٧) وهما يُعلقان قائلين:

لا يقتصر الأمر على أننا معارضون للتسليم التام بالنسبية المنفلتـــة أو الجامحة وللتوجه الأنانى للفلسفة الشكية لما بعد الحداثة، وإنما نحن لا نريد فى الوقت نفسه أن نتخلى عن الواقع، إذا جاز هذا التعبير. ففى نفس الوقت الـــذى لا ننبذ فيه ما بعد الحداثة نبذاً تاماً، فإننا نشارك فعلاً فى ... الالتزام بتوثيـــق الحياة الاجتماعية، كما نؤمن بإمكانية الوصف ذى الأساس الإمبيريقى لحياتنـــا اليومية، فهذا هو الواجب الذى يستلزم طول الصبر والذى يتوجب على البحث الكيفى أن يقوم به. وفى أعقاب ما بعد الحداثة، صار التحدى يكمن فى العناية

بهذه الأهداف فى ضوء المسائل الإبستمولوجية الجديدة والاعتبارات التحليلية الدقيقة. (Gubrium & Holstein, 1997, p. 99)

وتضم هذه الاستراتيجيات: التأمل النقدى الذاتى الذى يقوم به الباحث، بمعنى: إلى أى مدى تتدخل تحيزاتنا الشخصية فى عملية البحث بما يؤدى إلى بداية "إلغاء مركزية" الإثنوجرافى الكامنة فى ثنايا عملية عرض المادة الإثنوجرافية. والواقع أن بعض الباحثين قد قدموا عروضاً للمادة الميدانية وفقاً لمرجعية ما بعد الحداثة سميت "النصوص المضطربة" messy texts (ماركوس Marcus، ١٩٩٤). فهذه هى الطرق البارعة للوصول إلى أصوات المبحوثين من خلال التأمل النقدى فى طبيعة القوة داخل عملية البحث. ويقدم الكتاب الذى كتبته باتى لاذر وكريس سميثيز، وعنوانه "إزعاج الملائكة: نساء يعشن بمرض الإيدز"(*) (١٩٩٧)؛ يقدم لنا شاهداً جيداً لهذا النوع من أسلوب الكتابة النقدى. فقد أجرت لاذر و سميثيز مقابلات مع ٢٥ امرأة يعشن وهن مصابات بمرض الإيدز من سنة ١٩٩٢ حتى سنة ١٩٩٧. وقد قدمتا نصاً يدمج أصوات هؤلاء النساء فى نسيج متشابك فى نفس الوقت الذى يعزل فيه سلطة الباحث تماماً من خلال تقسيمه للنص إلى طبقتين أو راقين. فالطبقة العليا هى أصوات المستجيبات، والطبقة الأدنى تتكون من الحكايات الشخصية للباحثتين عن قيامهما ببحثهما، بجانب تأملاتهما فى مدى فهمهما للخبرات المعاشة لهؤلاء النساء، وهو الفهم الذى تم كذلك من خلال وضع حكاياتهن داخل سياق ثقافى أوسع نطاقاً. وتعلق لاذر (٢٠٠٠) على ذلك قائلة:

أردنا أن نبتكر "نصاً مضطرباً" (أى لا نظام فيه)... وذلك فى نفس الوقت الذى حرصنا فيه على أن ننجز مهمتنا بتقديم كتاب يؤدى المهمة التى أرادتها هؤلاء النساء... يبدأ الكتاب بمقدمتين: تقوم المقدمة الأولى بالتعريف بالكتاب وتقوم الثانية بالتعريف بهؤلاء النساء، والتى قام كثير منهن بكتابة مقدماتهن الشخصية التى يعرفن فيها بأنفسهن. ويتألف صلب الكتاب من مجموعة من الفصول القصيرة التى تحكى عن بيانات المقابلة التى تدور حول

(*) Patti Lather and Chris Smithies, Troubling the Angels: Women Living with HIV/AIDS (1997).

الموضوعات المتعلقة بالوقائع اليومية لمعايشة هذا المرض، وبالعلاقات والجهود المبذولة لفهم هذا المرض فى حيواتهن، ولفهم قضايا الموت والاحتضار، وفهم دور جماعات الدعم... وتتناثر داخل هذه الفصول القصيرة الخاصة ببيانات المقابلة كتابات متداخلة وتعليقات كتبها القائمون برعاية هؤلاء النساء... ويظهر فى الطبقة الأدنى من الكتاب نوع من التعليق على النصوص قمت فيه أنا وكريس – بوصفنا الباحثتين – بنسج حكاياتنا المتعلقة بإجرائنا لهذا البحث... وتتناثر فى جميع أجزاء الكتاب بعض الكتابات الشخصية لهؤلاء النساء... وأخيراً، ينتهى الكتاب بخاتمة يقف منها القارئ على أحدث المعلومات عن كل واحدة من هؤلاء النساء. (ص ٢٨٦).

يدعو "دنزن" إلى ما يسميه "المرحلة السابعة" seventh moment فى بناء المعرفة، التى تستعمل طرق "إثنوجرافيا الأداء" performance ethnography. و إثنوجرافيا الأداء تستخدم تشكيلة متنوعة من أساليب جمع البيانات للوصول إلى العدد الكبير من المعانى الموجودة داخل موقع البحث. وهو يؤكد على استعمالنا لجميع حواسنا: البصر، والسمع، والشم، واللمس من أجل الوصول – بالذات – إلى المعرفة الخاضعة (التى تم قمعها) لدى هؤلاء المقهورين (وهو ما يطلق عليه "الوصول إلى الإبستمولوجيات المحلية أو الأصلية". وفى الغالب الأعم سوف نتبين أن مثل هذا الاتجاه يعبر حدود التخصصات العلمية، جالباً معه تقنيات جمع البيانات المستمدة من الفنون (كالرقص، والموسيقى) والإنسانيات (كالشعر، والكتابة الإبداعية) (See Denzin, 1997; McCall, 2000).

* * *

خاتمة

تزود الطريقة الإثنوجرافية الباحث بنافذة ينظر منها ليصل إلى فهم العالم الاجتماعى انطلاقاً من الموقع الممتاز لأولئك الذين يعيشون معنا فى هذا العالم. وتقوم الكتابات الإثنوجرافية بتزويد القارئ بفهم متعمق لأحوال أولئك الأفراد الذين يقيمون فى مكان ما من أحد المواقع الطبيعية. وتُعد الملاحظة

بالمشاركة هى الوسيلة الأساسية لجمع البيانات، وذلك رغم وجود أشكال أخرى من البيانات التى يتم جمعها أيضاً من موقع البحث، كالوثائق مثلاً. وتُعد كتابة المذكرات الميدانية وتحليلها من الملامح المهمة لتلك الطريقة. ويتطلب تحليل البيانات من الباحث أن يكون متفتحاً على الاكتشاف ومهيئاً له، وذلك لأن تحليل البيانات وجمعها يسيران متواكبين فى الغالب الأعم. ويتطلب تفسير البيانات من الباحث حساسية فائقة لتشكيلة المعانى المتعددة فى موقع البحث، وتنبهاً للوقوف على وجهات النظر التى ينطلق منها كل معنى (فيما يتصل بالطبقة، والعرق، والنوع الاجتماعى، وما إلى ذلك). ومع أن طرق البحث الإثنوجرافية لا تصلح وحدها لصياغة أحكام عامة شاملة عن ظاهرة اجتماعية معينة، إلا أنها تزودنا بسياق مهم يساعدنا على فهم النتائج المستفادة من البحوث التى تجرى على نطاق واسع، كالمسوح الاجتماعية مثلاً. ويتبنى الإثنوجرافيون توجهات فكرية متعددة فيما يتعلق بفهم الواقع الاجتماعى، وذلك وفقاً لتخصص كل منهم و لتحيزاته وميوله النظرية. فنجد بعض الإثنوجرافيين أشد اهتماماً بالتغير الاجتماعى من البعض الآخر (أولئك هم المشتغلون بالإثنوجرافيا النقدية). بينما نلاحظ لدى طائفة أخرى منهم تركيزاً على دراسة الجماعات السكانية التى أغفلتها الإثنوجرافيا التقليدية، كالنساء مثلاً (وهؤلاء هم المشتغلون بالإثنوجرافيا النسوية). ومع ذلك، فإن ما يميز ويبرز سائر هذه الاتجاهات هو تأكيدها على أهمية التفسير – أى الوصول إلى المعنى المستمد من وجهة نظر أولئك الذين ندرسهم.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **ملاحظات للتحليل** — **Analysis Memos**

هى الأفكار التى تدونها لتساعدك فى التفكير فى كيفية مباشرتك لعملك، وفى المعانى التى تعنيها الأشياء.

- **مذكرات للتحليل** — **Analysis "Notes"**

تقوم هذه المذكرات بربط **المذكرات الفورية بالوصف المكثف.**

• الأنثروبولوجيا • Anthropology

فى هذا العلم يجرى البحث فى ثقافات أجنبية للتوصل إلى فهم السكان المحليين، أى فهم العادات الاجتماعية، والقيم، والمصنوعات الفنية الخاصة بجماعة معينة وبثقافتها كلها.

• فئات التصنيف • Codes

هى وسائل لتنظيم بياناتك عن طريق تصنيفها إلى فئات أو تمييزها بعلامات أو لافتات.

• الملاحظ الخالص (الملاحظ فقط دون مشاركة) • Complete Observer

تظل هوية الباحث مخفاة؛ ولا يتفاعل الباحث مع الأفراد الموجودين فى الموقع، ولكنه بدلاً من ذلك يقوم بملاحظة موقع البحث باستعمال معدات أو حيل معينة، مثل: كاميرا الفيديو المخفاة، أو ببقائه بعيداً عن الأنظار جالساً خلف مرآة ذات اتجاه واحد أو وراء ستارة حتى لا يكتشف وجوده أحد.

• المشارك كلية • Complete Participant

يتفاعل الباحث – بصورة فعالة – مع أعضاء موقع البحث، ومع ذلك، فإن هوية الباحث تكون مجهولة لشركاء البحث الموجودين فى الموقع.

• البحث المستتر • Covert Research

وفيه لا يعلن الباحث عن هويته، وذلك من أجل أن "يمر" كما لو كان عضواً حقيقياً من أعضاء ذلك الموقع.

• الإثنوجرافيا النقدية • Critical Ethnography

يسعى البحث الذى يجرى انطلاقاً من هذا المنظور الفكرى إلى فهم الحياة الاجتماعية من أجل تغيير الطريقة التى بها يقوم حائزو القوة بتهميش من هم أقل قوة.

• المنظور المسرحى • Dramaturgical Perspective

قام بتطوير هذا المنظور الفكرى إرفنج جوفمان (١٩٦٧)، أحد رواد التفاعلية الرمزية. ويهتم هذا المنظور بالأدوار التى يؤديها الأفراد للحفاظ على

التفاعلات الصغرى فى حياتهم اليومية. وخلاصة الأمر أنه – يجرى "تأدية" عرض (مسرحى) معين من أجل الاحتفاظ بهذه الأنماط من التفاعلات.

• البحث الإثنوجرافى • Ethnographic Research

يسعى هذا البحث للوصول إلى فهم متعمق للطريقة التى بها يفهم الأفراد المنتمون لثقافات وثقافات فرعية مختلفة واقع حياتهم التى يعيشونها. "ويتوغل" الإثنوجرافيون فى صميم العالم الاجتماعى لسكان موقع بحثهم، حيث "يتواجدون فى هذا المكان" ويلاحظون ويسجلون الحياة الاجتماعية الجارية لأعضائه عن طريق تقديم "وصف مكثف" (جيرتز Geertz، ١٩٧٣) لهذا السياق الاجتماعى ولأحوال الحياة اليومية للناس الذين يعيشون فى هذه العوالم، منفقين قدراً كبيراً من الوقت فى متابعة التفاصيل الدقيقة للأحداث، وللناس، وللأنشطة الموجودة داخل موقع البحث.

• استراتيجيات الخروج (المغادرة) • Exiting Strategies

وهى الخطط التى تتيح للباحث أن يترك الموقع بسهولة وبدون التسبب فى إيذاء الناس الموجودين فى موقع البحث.

• الميدان • Field

يختلف هذا المفهوم فى الإثنوجرافيا تبعاً لنوع المشروع البحثى الذى يتم تنفيذه. فبالنسبة لعالم أنثروبولوجى يدرس ثقافة أجنبية كمالينوفسكى Malinowski، يكون هذا الميدان موقعاً ثقافياً. وبالنسبة لأندرسون Anderson، وهو يدرس حانة محلية أو "حياً سكنياً صغيراً"، تصبح هذه "الحانة" أو هذا "الحى السكنى" هو الميدان. فالميدان، باختصار، هو الموقع الذى يدرسه باحث ما.

• المذكرات الميدانية • Field Notes

هى مادة مكتوبة تحكى عن الخبرات اليومية للباحث فى الميدان، يكتبها وهو لا يزال فى الميدان، سواءً كتبها بصورة فورية وموجزة أم بعد فترة قصيرة من مغادرته الميدان.

• حراس البوابة • Gatekeepers

حراس البوابة الرسميون هم الذين يمنحونك الإذن بدخول موقع البحث إذا كان لابد من الحصول على إذن رسمى (انظر كذلك حراس البوابة غيـــر الرسميين).

• العملية الاستقرائية • Inductive Process

هى عملية اكتشاف ما الذى تعنيه البيانات التى تجمعها.

• حراس البوابة غير الرسميين • Informal Gatekeepers

هم أفراد يشغلون مواقع حاكمة فى مجتمع البحث، كمـــا أن تـــأثيرهم على الآخرين فى ذلك المجتمع هو الذى يحدد مستوى دخولك. ولدى حـــراس البوابة غير الرسميين القدرة على إعطاء وجودك فى مجتمع البحث "دفعة إلى الأمام" أو إحباطه وتعويقه.

• الإخباريون • Informants

هؤلاء الإخباريون أفراد فـــى مجتمـــع الدراســـة يـــزودون الباحـــث بالمعلومات المهمة والنصائح الغالية.

• المنظور التأويلى • Interpretive Perspective

كثيراً ما يعمل الإثنوجرافيون انطلاقاً من التراث الفكرى للتأويل. وقد تطور هذا المنظور كاعتراض مباشر على الإبستمولوجيا الوضـــعية وعلـــى تفسير تلك الإبستمولوجيا وتطبيقها للموضوعية. وتقوم نظرية المعرفة التأويلية على تفسير التفاعلات والمعنى الاجتماعى الذى يعـــزوه النـــاس لتفـــاعلاتهم (نيلسن Nielsen، ١٩٩٠، ص ٧). ومن الناحية الإبستمولوجية يـــؤمن هـــذا المنظور بأن المعنى الاجتماعى يتخلق أثناء التفاعل وعن طريق مـــا يقدمـــه الأفراد من تفسيرات لهذه التفاعلات. ومعنى ذلك أن الفـــاعلين الاجتمـــاعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصور مختلفة فعلاً، منتجـــين بـــذلك معان مختلفة وتحليلات مختلفة. ويقتضى هذا النوع من البحث بناء العلاقـــات بين الباحث وشركاء البحث (المبحوثين) الذين يعتبرون أعواناً له فى عمليـــة البحث.

• Observer-as-Participant • الملاحظ كمشارك

يُطلب من الباحث هنا أن يكشف عن هويته فى موقع البحـث، إلا أن المدى الذى يبلغه الباحث فى الاشتراك الفعال مـع أعـضاء الموقـع يكـون محدوداً.

• On-the-Fly (Notes) • المذكرات الفورية

هى المذكرات التى يمكن أن تتألف من بعض الكلمـات أو العبـارات الأساسية (المفتاحية) لمساعدتك على تذكر الأحداث أو الأفكار المهمـة أثنـاء قيامك بإجراء الملاحظات. ويمكن النظر إلى هذه المذكرات باعتبارها نوعـاً من التدوين السريع الذى تقوم بتفصيله وتنقيحه بعد أن تغادر الميدان.

• Natural Settings • المواقع الطبيعية

هى الأماكن التى يباشر فيها الأفراد حياتهم اليومية، وليـست المعـدة سلفاً التى "يتم تجهيزها" بمعرفة الباحث فى بقعة محددة.

• Participant-as-Observer • المشارك كملاحظ

هنا يشارك الباحث مشاركة تامة فى الأنشطة الجارية فى موقع البحث وتكون هوية الباحث معروفة لأعضاء هذه الجماعة.

• Positivist Perspective • المنظور الوضعى

يسعى الباحث للوصول إلى "الحقيقة" التى تنتظر من يضع يده عليهـا بشرط واحد هو أن يظل الباحث موضوعياً، وذلك بألا يسمح لاتجاهاته وقيمه الشخصية أن تتدخل فى موقع البحث. ويعتبر جمع البيانـات هنـا، وبـصفة أساسية، طريقاً ذا اتجاه واحد، حيث يطرح الباحث الأسئلة ويقوم المبحوثـون بالإجابة على الأسئلة التى يطرحها الباحث.

• Proxemics • أنثروبولوجيا الفراغ

دراسة الطريقة التى يستخدم بها الأفراد الفراغ أو المكان.

- **Participant Observation** • الملاحظة المشاركة

هى أداة بحث أساسية للإثنوجرافيا ولتطبيقاتها، إذ يعيش الباحث فى الموقع الذى يدرسه أو يزوره زيارات مكثفة، فيقوم بملاحظة الأنشطة التى يزاولها أولئك الأفراد الذين يدرسهم، كما يشاركهم ممارسة هذه الأنشطة.

- **Saturation Point** • نقطة التشبع

هى تلك اللحظة من البحث التى عندها لا يوجد فى الموقع شيء جديد، والتى قد يصل الأمر بالباحث فيها إلى فقدانه لمنظوره أو توجهه البحثى لو أنه بقى فى موقع البحث أى مدة أخرى.

- **Theme** • الموضوع الأساسى

نصل إلى الموضوع الأساسى عندما تبدأ فئات التصنيف فى التلاقى والاجتماع معاً وفى إظهار نمط أكبر وأشمل من البيانات. وبعبارة أخرى يتبلور الموضوع الأساسى عندما تتناسب قطع معينة من صورة اللغز مع بعضها البعض، وهو أمر يزودنا بفكرة عن حقيقة هذا اللغز ويتيح لنا أن نمضى قدماً نحو تحقيق هدفنا باستكمال هذه الصورة.

- **"Thick Description"** • "الوصف المكثف"

صك هذا المصطلح جليفورد جيرتز Glifford Geertz (١٩٧٣) ويشير إلى كل ما تستطيع أن تتذكره من الأمور المتعلقة بما حدث فعلاً فى الموقع. وتكون هذه التوصيفات عبارة عن صور حية شديدة التفصيل، يعتمد الباحث فى جمعها على استخدامه لحواسه.

- **Triangulating Data** • البيانات المتحصلة بعدة طرق

البحث عن مصادر للبيانات متعددة ومستقلة عن بعضها من شأنها أن تدعم فكرة تجول بذهنك. ومن هذه المصادر مثلاً: استعمالك للوثائق/ أو المقابلات بجانب استفادتك من ملاحظاتك.

- **Urban Ethnography** • الإثنوجرافيا الحضرية

هى دراسة حى سكنى فى مدينة ما أو دراسة مدينة معينة بأكملها.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ناقش معنى مصطلح "الإثنوجرافيا"، ومتى يكون من الملائـم اسـتعمالها كطريقة فى البحث الاجتماعى.

٢- ما هى أهمية الأخذ بنموذج تأويلى (فى مقابل النموذج الوضـعى) عنـد القيام بالعمل الميدانى الإثنوجرافى؟

٣- فى البحث الميدانى الإثنوجرافى، يتولد فهم الباحث من أعـضاء الموقـع الاجتماعى الجارى بحثهم. فإلى أى مدى يمكن لهذه الحقيقة - وبناءً على ذلك - أن تقوم بدور عملى فى تمكين المبحوثين (كأن تقدم عوناً للجهـود الاجتماعية للناشطين)؟

٤- ما هى أهمية المذكرات الميدانية فى العمل الميدانى الإثنوجرافى؟

٥- إلى أى مدى يمكن أن تؤثر ظروف الدخول إلى موقع اجتماعى معين على جمع البيانات؟

٦- كيف يقوم دورك فى الموقع الاجتماعى بتحديد أنواع البيانات التى ستكون - أو التى لن تكون - قادراً على جمعها؟

٧- بافتراض أنك مهتم بدراسة إحدى الفرق الدينية، ناقش العوامل التى مـن شأنها أن تؤثر على طريقتك فى تنفيذ مشروعك البحثـى (نـاقش مـثلاً الاعتبارات الواردة فى هذا الفصل، وكذلك الاعتبارات الأخرى التى لـم يتعرض لها هذا الفصل). والأمر الأهم، أن تناقش العوامل التـى سـوف تؤثر على **سبب** قيامك بمشروعك البحثى وعلى **مكـان إجرائـه** وعلـى **طريقة تنفيذه.**

٨- عند قيام الباحث بدراسة أعضاء موقع اجتماعى معين، قـد يـتم دعوتـه للاشتراك فى طقوس أو عادات اجتماعية غير مألوفة له (وربما كـان لا يوافق عليها). ناقش كيف تؤثر هذه العوامل على مشروعك البحثى.

٩- رغم أنه من الأهمية للباحث أن يظفر بالدخول فى موقع اجتماعى ما مـن خلال أحد حراس البوابة (من أيِ نوع)، فإن المؤلفين ينبهون إلى أن مـن الأهمية ألا يعتمد الباحث اعتماداً مفرطاً على عضوٍ واحـد فـى موقـع البحث. فلماذا هذا؟

١٠- كيف تؤدى القيود المفروضة على نجاحك فى الدخول فى المواقع الخاصة بفئة معينة؛ كيف تؤدى إلى التأثير على مدى قدرتك - كباحث - على فهم أعضاء تلك الجماعة الذين ترغب فى دراستهم؟

١١- ناقش هذا الفصل الدور الذى ينبغى أن تقوم به - كباحث - أثناء تنفيذك عملية بحثك. فناقش العوامل التى تؤثر على الدور/ أو الهوية التى ينبغى أن تتخذها عند قيامك ببحثك. ما هو الدور الذى ستقوم به فى الموقع؟ كثيراً ما يوجد نوع من التوتر بين رغبتك فى الاقتراب من الأفراد الموجودين فى موقع البحث مع الحفاظ فى نفس الوقت على دورك كباحث، وهو الدور الذى يستلزم درجة ما من الانفصال. الأمر المهم هو أن تتوصل إلى تحقيق نوع من التوازن بين هذين الأمرين، وأن تدع **الظروف** المحيطة بمشروعك البحثى تحدد الدور/ أو الأدوار التى ستقوم بأدائها.

١٢- فى هذا الفصل، يعلق إيمرسون (٢٠٠١) قائلاً: "لا يستطيع الباحثون الميدانيون - بالضرورة - أن يتنحوا جانباً ثم يقوموا بمراقبة التفاعل الاجتماعى بدون أى مشاركة مطلقاً لأطراف هذا التفاعل. كما أنه ليس بوسع الباحث الميدانى أن يكتفى بإعلان موقف منعزل أو متباعد بمجرد إصداره أمراً بذلك" (ص ١٧). وعليه يتعين على الباحثين ألا يعزلوا أنفسهم تماماً عن الموقع الاجتماعى (كما لا يدمجوا أنفسهم تماماً فيه). هل توافق على هذا الحكم؟ ولماذا توافق؟ أو لماذا لا توافق؟ (فهل تتصور مثلاً أنه توجد حالة يكون من المفيد للباحث أن يندمج تماماً، أم يعزل نفسه عن الموقع الاجتماعى الذى يقوم بإجراء دراسته فيه؟

١٣- ناقش بعض الخيارات المتاحة للباحثين عندما يحاولون النجاح فى الدخول فى المواقع "الأكثر خصوصية".

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- **Participant Observation** **الملاحظة المشاركة**

http://www2.chass.ncsu.edu/garson/pa765/particip.htm

أولاً: يقدم هذا الموقع عرضاً لمقرر دراسي تقدمه جامعة نورث كارولينا لطلابها. ويحتوى على قائمة ببليوجرافية شاملة، و به وصلة مع مجلة تقدم معلومات عن الملاحظة المشاركة فضلاً عن عدد من الدراسات الميدانية.

http://wk.geocities.com/balibar_sanghera/qram partcipantobservation.htm/

ثانياً: يقدم هذا الموقع نظرة متعمقة إلى الملاحظة المشاركة من خلال استعراضه معلومات عن تاريخ ممارسة الملاحظة المشاركة، ودور الباحث، وكيفية تدوين المذكرات الميدانية بشكل صحيح، وتحليل المذكرات الميدانية.



References المراجع

- Addams, J. (1910). *Twenty years at Hull-House*. New York: Macmillan.
- Anderson, E. (1996). Jelly's place. In C.D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *The field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 12-20). Westport, CT: Prager.
- Anderson, E. (1976). *A place on the corner*. Chicago: University of Chicago Press.
- Anderson, N. (1923). *The hobo*. Chicago: University of Chicago Press.
- Baca Zinn, M. (2001). Insider field research in minority communities. In R. M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed., pp. 159-166). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Bailey, (2. A. (1996). *A guide to field research*. Thousand Oaks, CA.: Pine Forge Press.
- Baudrillard, J. (1988). *Cool memories*. New York: Verso.
- Baudrillard, J. (1981). *For a critique of the political economy of the sign*. St. Louis, MO: Telos.
- Booth, C. (1902). *Life and labour of the people of London*. London: Macmillan.
- Cressey, P. G. (1932). *The taxi-dance hall*. Chicago: University of Chicago Press.
- Daniels, A.K. (1967). The low-caste stranger in social research. In G. Sjoberg (Ed.), *Ethics, politics and social research* (pp. 267-296). Cambridge, MA: Schenkman.

- Deegan, M. j. (2001). The Chicago school of ethnography. In P Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland, & L. I.ofland (Eds.), *Handbook of ethnography* (pp. 11-25). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N. K., & Lincoln, Y. S. (2000). The discipline and platice of qualitative research. In N. K. Denzin & Y S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed., pp. 1-28). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Douglas, J. (1979). Living morality versus bureaucratic fiat. In C. B. Klockars & F. W O'Connor (Eds.), *Deviance and decency* (pp. 13-33). Beverly Hills, CA: Sage.
- Emerson, R. M. (Ed.) (2001). *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Emerson, R. M., & Pollner, M. (2001). Constructing participant/ observation relations. In R. M. Emerson (Ed:), *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed., pp. 239-259). Prospect Heights. IL: Waveland Press.
- Famradt, J. (1998). Studying up in educational anthropology In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflection* (pp. 67-78). London: Lawrence Erlbaum.
- Fishman, P (1990). Interaction: The Work women do. In J. McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods: Exemplary readings in the social sciences* (pp. 224—238). Boulder, CO: Westview.
- Frazier E. F (1932). *The negro family in Chicago*. Chicago: University of Chicago Press.
- Galanter, M. (1989). *Cults: Faith, healing, and coercion*. New York: Oxford University Press.
- Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures*. New York: Basic Books.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. L. (1967). *The discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Goffman, E. (1967). *Interaction ritual: Essays on face-to-face behavior* Chicago: Aldine.
- Goffman, E. (1961). *Asylums: Essays on the social situation of mental patients and other inmates*. Garden City, NY. Doubleday.
- Gold, R. L., (1958). Roles in sociological field observation. *Social Forces*, 36, 217-223.
- Gubrium, J. F., & Holstein, J. A. (1997). *The new language of qualitative method*. New York: Oxford University Press.
- Hammersley, M., & Atkinson, P. (1995). Documents. In *Ethnography: Principles in practice* (2nd ed., pp. 157—174). New York: Routledge.
- Hesse-Biber, S., & Leavy P. (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Horowitz, R. (1986, January). Remaining an outsider: Membership as a threat to research rapport. *Urban Life*, 14(4), 409-430.
- Hsiung, P. C. (1996). Between bosses and workers: The dilemma of a keen observer and a vocal feminist. In D. L. Wolf (Ed.), *Feminist dilemmas in fieldwork* (pp. 122—137). Boulder, CO: Westview.

- Humphries, L. (1976). Methods: The sociologist as voyeur. In. P Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 100-114). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Kaya, N., & Feyzan, E. (1999). Invasion of personal space under the condition of short-term crowding: A case study of an automatic teller machine. *Journal of Environmental Psychology*, 19, 183-189.
- Kondo, D. K. (2001). How the problem of "crafting selves' emerged. In R. M. Emerson (Ed.), *contemporary field research* (2nd ed., pp. 188-202). Prospect Heights, IL: Waveland.
- Lather, P. (2000). Drawing the line at angels: Working the ruins of feminist ethnography. In E. A. St. Pierre & W S. Pillow (Eds.), *Working the ruins: Feminist poststructural theory and methods in education* (pp. 284-311). New York: Routledge.
- Lather, P, & Smithies, C. (1997). *Troubling the angels: Women living* with HIV/AIDS. Boulder, CO: Westview.
- Lofland, J., & Lofland, L. (1984). *Analyzing social settings: A guide to qualitative observation and analysis* (2nd ed.). Belmont, CA: Wadsworth.
- Malinowski, B. (1922). *Argonauts of the Western Pacific*. Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Marcus, G. (1994). What comes (just) after "post"? In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 563-574). Thousand Oaks, CA: Sage.
- McCall, M. (2000). Performance erhnography: A brief history and some advice. In N. K. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.). (pp. 421-433). Thousand Oaks, CA: Sage.
- McKinney, J. C. (1966). *Constructive typology and social theory*. New York: Appleton-Century-Crofts.
- Myerhoff, B. (1978). *Number our days*. New York: Simon & Schuster.
- Rollins, J. (1985). *Between women: Domestics and their employers*. Philadelphia: Temple University Press.
- Sleeter, C. E. (1998). Activist or ethnographer? Researchers, teachers, and voice in ethnographies that critique. In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflections* (pp. 49-57). London: Lawrence Erlbaum.
- Sleeter, C. E. (1992). *Keepers of the American Dream*. London: Falmer Press.
- Smith, R. Q. (1998). Revisiting Juanita's Beauty Salon: An ethnographic study of an African-American beauty shop. In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflections* (pp. 79-85). London: Lawrence Erlbaum.
- Sommer, R. (1969). *Personal space: The behavioral basis of design*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Sullivan, P., & Elifson, K. (1996). In the field with snake handlers. In C. D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 33-38). Westport, CT: Praeger.
- Thrasher, F. M. (1927). *The gang*. Chicago: University of Chicago Press.

- Van Maanen, J. (1995). An end to innocence. The ethnography of ethnography. In J. Van Maanen (Eel.), *Representation in ethnography* (pp. 1-35). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Wax, R. (1971). *Doing fieldwork: Warnings and advice*. Chicago: University of Chicago Press.
- Whyte, W. F. (1996). On the evolution of street corner society. In A. Laureau and F. Schultz (Eds.), *Journey through ethnography: Realistic accounts of fieldwork* (pp. 9-74), Boulder, CO.: Westview Press. [Originally published as an "appendix" in W. F. Whyte's second edition of *Street corner society* (University of Chicago Press, 1955).]
- Whyte, W F. (1943). *Street corner society: The social structure of an Italian slum*. Chicago: University of Chicago Press.
- Williams, T. (1996). Exploring the cocaine culture. In C. D. Smith & W Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 27-32). Westport, CT: Praeger.
- Williams, T. (1989). *The cocaine kids*. New York: Addison-Wesley.
- Wolf, D. L. (Ed.). (1996). *Feminist dilemmas in field work*. Boulder, CO: Westview.

الفصل الثامن

تحليل المضمون

وطرق البحث غير التدخلية(*)

... يتعين على البحث الذى يقوم به العلم الاجتماعى أن يواجه بُعد النشاط الإنسانى الذى لا يمكن حصره فى شعور شخص المبحوث المعزول. وموجز القول إن على العلم الاجتماعى أن يبحث عن شيء يقع خارج نطاق عالم الأفراد المتفرقين.

ليندساى بريور Lindsay Prior (٢٠٠١، ص ٣١٨)

يتم تعريف النصوص، إذن، بوصفها التجلى العلاماتى أو السيميوطيقى للعمليات الاجتماعية المادية.

آر. إيديما R. Iedema (٢٠٠١، ص ١٨٧)

يعد تحليل المضمون واحداً من طرق البحث القليلة العدد جداً التى يمكن استخدامها كيفياً أو كمياً، مما يتيح الفرصة لظهور مجموعة كبيرة من الإمكانيات المنهجية. ونحن حتى هذه اللحظة كنا ولا نزال نستعرض طرق البحث الكيفية التى تعتمد على تحصيل البيانات مباشرة من الناس باستعمال مهارات إجراء المقابلات ومهارات إجراء الملاحظات. ولكن كيف يستطيع الباحثون الكيفيون أن يستخدموا المواد غير الحية كى يدرسوا العالم الاجتماعى؟ بمعنى كيف يمكن استخدام النصوص، بصورها المختلفة، كنقطة بدء لفهم العمليات الاجتماعية ولتوليد النظريات المتعلقة بالحياة الاجتماعية؟ وما هى مزايا استخدام البيانات غير الحية؟ هيا بنا نعد إلى مثالنا عن صورة

(*) ملحوظة للمؤلف: تم نقل أجزاء من هذا الفصل بتصرف من دراسة هس-بيبر، وليفى، بى. (٢٠٠٤) "الطرق اللاتدخلية، والبحث البصرى، والدراسات الثقافية". المنشورة فى كتاب هس-بيبر و بى. ليفى (محررتان) بعنوان: اتجاهات فى البحث الكيفى: مختارات فى النظرية والتطبيق. نيويورك، مطابع جامعة أكسفورد.

الجسد ونتفحص مدى إمكانية استخدام الباحث "للنصوص" كوسيلة لبحث هذا الموضوع؟

قد نكون مهتمين بدراسة قضايا صورة الجسد داخل مجتمع ذى بنية تدرجية هرمية كالمجتمع الأبوى (الذكورى) مثلاً. وبالتركيز على هذا الموضوع بصورة أشد تحديداً، سنجد أنفسنا مهتمين بالعلاقة بين الثقافة الشعبية الأمريكية وقضايا صورة الجسد القائمة وفقاً للنوع الاجتماعى والسائدة فى الولايات المتحدة. ومن شأن القيام باستعراض التراث العلمى المنشور حول الموضوع أن يكشف لنا عن أمور عديدة:

فنتبين – أولاً – أن الفتيات المراهقات والفتيات اللاتى فى سن التعليم الجامعى هن الجماعة السكانية الأعلى احتمالاً للمعاناة من اضطرابات تناول الطعام، ومن تناول الطعام بصورة غير منتظمة، ومن الصورة السلبية للجسد، ومن تدنى الشعور باحترام النفس المرتبط بالمظهر الخارجى.

ثانياً: تعد هذه المجموعة أشد المجموعات تأثراً، فيما يبدو، بما فى الثقافة الأمريكية من صور مثالية للجمال يتم توليفها وصياغتها فى وسائل الاتصال فيما يتعلق بما ينبغى أن تكون عليه اتجاهاتهن وسلوكياتهن.

ثالثاً: إن التعرض لوسائل الاتصال الجماهيرية واستيعاب رسائلها داخل النفوس يؤثران على اتجاهات الأفراد، ومن ثم يصبحان جزءًا من السياق الذى يرون أنفسهم من خلاله. وبإدخال ذلك فى الاعتبار، فإننا قد نُقرر دراسة الفتيات ووسائل الاتصال الجماهيرية. لذلك فإننا نميل إلى صياغة سؤال بحث من قبيل: ما هى العلاقة بين الصور التى تعرضها وسائل الاتصال والنماذج المثالية لجمال الأنثى؟

وكما سبق أن رأينا فى الفصول السابقة، فإن هذا النوع من الأسئلة البحثية يمكن تناوله من خلال مجموعة متنوعة من طرق البحث القائمة على المقابلات. وفى هذه الحالة سوف نحدد عينة الفتيات التى نقصدها ونسألهن عن استخدامهن لوسائل الاتصال، وعن النماذج المثالية لصورة الجسد عندهن، وعن القضايا المرتبطة بهذه الصورة، كما نسألهن عن تصوراتهن للعلاقة بين الثقافة الشعبية وما لديهن من صور شخصية للجسد. وقد يأتى أحد الأسئلة

على النحو التالى: بم تشعرين عندما تشاهدين صور الموديلات والممثلات؟ فهذا النوع من تصميم البحث يعطى الأولوية للطريقة التى يفكر بها الأفراد بصورة شخصية فى أجسادهن، والتى يتبعونها فى الشعور بهذه الأجساد فى علاقتها باستخدامهم لوسائل الاتصال، وتعكس المعرفة المتحصلة على هذا النحو خبرات أولئك الأفراد.

وهذه الطريقة مهمة، إلا أنها ليست سوى إحدى الطرق التى يستطيع الباحث الكيفى أن يستعملها فى دراسة هذا الموضوع. فقد يستعمل أحد الباحثين المهتمين بالوقوف على الكيفية التى يتم بها خلق الصور الثقافية وعرضها فى مجتمع معين طريقة تحليل المضمون. شاهد ذلك، أن الباحث الكيفى المهتم بموضوع: كيف تعكس الصور المبثوثة فى وسائل الاتصال وتصوغ صورة مثالية معينة لجمال الأنثى، وذلك بدلاً من أن يهتم بموضوع مدى استجابة النساء لتلك الصور؛ مثل هذا الباحث سوف يجد أن طريقة تحليل المضمون هى الأكثر نفعاً له. فهيا بنا نعد إلى مثالنا السابق وننظر فى الكيفية التى يمكن بها توظيف طريقة تحليل المضمون فى دراسته.

قد يرغب أحد الباحثين الكيفيين فى دراسة المجلات النسائية ليقوم بتفحص نقدى لصورة النساء فيها. وقد تتضمن بعض الأسئلة التوجيهية أسئلة من قبيل: ما هى أحجام أجساد النساء التى تعرضها هذه المجلات؟ وما هى الأوضاع الجسمية التى تُعرض فيها النساء؟ وما هو النص الذى يصاحب الصور البصرية؟ وخلافاً للباحث الذى يقوم بإجراء مقابلات متعمقة، يقوم الباحث فى هذا المشروع بدراسة كيف تخلق وسائل الاتصال الجماهيرية، وكيف تعكس، الصور المثالية لجسد الأنثى. فبؤرة البحث هنا تتركز على **الأشكال الثقافية** التى تبث فيها الصور المثالية للجمال، وعلى **العمليات الثقافية** التى تشكل هذه الصور المثالية وتصوغها. وعند استعمال هذا الأسلوب، فإن نقطة البدء بالنسبة للباحث لا تعود متمثلة فى الأفراد الذين يعيشون هم أنفسهم داخل سياق اجتماعى ما والذين سبق للصور المبثوثة فى وسائل الاتصال أن قامت "بطبعهم"، وهى تلك الصور التى تشكل جزءًا من عملية التنشئة الاجتماعية فى مجتمعهم. ويبين العلماء النقديون أن الأفراد يتم دمغهم من خلال ما فى ثقافتهم من علاقات بين القوة والمعرفة، وأن من اللازم

أن يستخدم الباحثون "النصوص" كنقطة ينطلقون منهــا للقيــام بالمزيــد مــن الفحص النقدى للقوة الاجتماعية (تايلور Taylor، ١٩٨٧).

دعنا نأخذ مثالاً على ذلك، لو فرض أن باحثاً فاتحــك فــى مناقــشة موضوع ما، وقدم لك تشكيلة متنوعة من صور الصبيان والفتيــات، فكيــف يمكن أن تباشر أداء هذه المهمة؟ وكيف يمكن أن تجيب على الأســئلة التــى تدور حول "الإيجابية فى مقابل السلبية"، وألوان الباستل فى مقابــل الألــوان الأساسية؟ وباعتبار أنك تعيش داخل ذلك السياق الذى تنتشر فيه هذه الــصور وأنك قد تعرضت – لهذا السبب – لصور مشابهة على امتداد فترة طويلة من الزمن، فإن من المعقول أن نفترض أن هذه الصور – نفسها – التــى يطلــب منك فى هذا الوقت أن تجيب عنها تقوم – هى أيضاً – بنقل تــصوراتك عــن الصبيان والفتيات، أو قل عن الذكورة والأنوثة. وقد يقوم أحد الباحثين الكيفيين الذين يتجاوزون نطاق الرؤية المتأثرة بوسائل الاتصال، والتى يتبناها الأفــراد الذين تمت صياغة رؤيتهم بالفعل من خلال المعايير المجتمعية؛ نقول: قد يقوم هذا الباحث باستخدام هذه المجلات ذاتها كنقطة بدء للبحث. ومن خلال قيــام الباحث بتفكيك الصور المنشورة فعلاً للصبيان والفتيات فى المجلات الشعبية، يتجه إلى التساؤل عن العملية التى أدت إلى ظهور هذه الــصور (وبفــضلها صارت مطابقة للمعايير) كما يتساءل عن مدى تمثيلها للنموذج السائد (أو مدى تعارضها معه فى بعض الأحيان). وكما تستطيع أن ترى، فإنه تبعــاً لطبيعــة سؤال البحث وأهداف الباحث، قد تكون طريقة تحليل المضمون أكثر ملاءمــة من إجراء المقابلات أو غيرها من الطرق القائمة على التفاعل المتبادل بــين الباحث والمبحوث.

وكما يوضح هذا المثال السابق عن مجلات الآباء والأمهــات، فــإن بالإمكان استخدام تحليل المضمون فى دراسة الاختلافات. فهيا بنا نعــد إلــى مثالنا عن المجلات النسائية وصورة الجسد، والذى ركز فقــط علــى طــرق تصوير الإناث. فبدلاً من الاقتصار على دراسة صور النساء، يستطيع الباحث – كذلك – أن يدرس **الاختلافات** فى الصور المثالية للجمال وطــرق تــصوير الجسد. مثال ذلك، ما هى الاختلافات الموجودة فى طريقة تــصوير الــذكور

والإناث من الموديلات والممثلين؟ وكيف تقوم هذه الصور التى تبثها وسائل الاتصال بالتأثير على الأفكار الثقافية المتعلقة بالذكورة والأنوثة (سواء من خلال تدعيمها أو خلقها خلقاً)؟

أجرى مالكين Malkin، و ورنيان Wornian، و كريزلر Chrisler (١٩٩٩) دراسة كيفية قائمة على تحليل مضمون أغلفة ٢١ مجلة من مجلات الرجال ومجلات النساء الشعبية. وقد بحثوا ما جملته ٦٩ من أغلفة المجلات النسائية و ٥٣ من أغلفة المجلات الرجالية. وقد أظهر بحثهم أن ٧٨% من أغلفة المجلات النسائية تضمنت رسائل متعددة تتعلق بالمظهر الجسدى بينما لم يوجد فى أغلفة المجلات الرجالية أمثال تلك الرسائل. بالإضافة إلى ذلك، احتوى ٢٥% من أغلفة المجلات النسائية على رسائل متعارضة تتعلق بوزن الجسم والتغذية. ولعل الأمر الأشد إفصاحاً أن وضع الرسائل المرتبطة بوزن الجسم فى أغلفة المجلات النسائية كان يشير إلى أن السعادة ترتبط بإنقاص الوزن، وهو الأمر الذى لم يشاهد فى أى من أغلفة المجلات الرجالية. شاهد ذلك، أن العناوين المتعلقة بإنقاص الوزن كانت موضوعة مباشرة بعد العناوين المتعلقة بتحسين نوعية حياة المرء، مما يخلق الانطباع بأن هذين الأمرين مرتبطان معاً. ومن شأن طريقة تحليل المضمون أن تدعم هذا النوع من البحث، لأنها تتيح إمكانية إجرائه بصورة كلية. ويتحقق ذلك بالبحث فى الصور المختلفة وكذلك البحث فى صلة هذه الصور بغيرها من الكلمات الأخرى و/أو الصور الأخرى. ويعنى ذلك أن هذه الطريقة تزودنا بمنظور فكرى أشمل مما نراه فى أى مجموعة من البيانات المستمدة من النصوص، والتى منها الصور. وأخيراً، فقد ظهرت صور النساء فى معظم المجلات الرجالية والنسائية. وكانت النساء اللاتى يظهرن على أغلفة كلا النوعين من المجلات فى غاية النحافة وتتطابق مع المعايير الثقافية للجسد المثالى للأنثى. ولهذا الوضع دلالات اجتماعية ضمنية كثيرة، كما أنه يثير أسئلة سوسيولوجية تتصل بالعلاقة بين النساء وأجسادهن داخل الثقافة الأمريكية.

إن الرسائل التى تبعث بها وسائل الاتصال فيما يتعلق بالمظهر الجسدى تختلف تماماً بالنسبة للرجال عن النساء. فقد وُجه إلى المظهر

الجسدى للنساء تركيز قوى جعله مساوياً للجمال، والحيوية الجنسية، والمكانة الاجتماعية، فى حين وجه قدر أقل من التركيز إلى المظهر الجسدى للرجال. (فريدمان Freedman، ١٩٨٦). ومن الممكن أن نرى هذه الرسائل – الموجهة تبعاً للنوع الاجتماعى – بوضوح فيما تنشره المجلات من فقرات وإعلانات... "بدلاً من أن تقتصر وسائل الاتصال الجماهيرية على تصوير ما فى مجتمعنا من صور مثالية لوزن الجسم وشكله، فإننا نراها تقوم – إلى حد ما – بفرض معايير مرتبطة بالنوع الاجتماعى، وهى المعايير التى تؤدى فى هذه الحالة إلى اختلافات بين الجنسين فى معدل تكرار بعض السلوكيات الحاسمة" (Anderson & DiDomenico, 1992, p. 286)

(Malkin, Wornian & Chrisler, 1999, p. 647)

وكما نستطيع أن نرى، فإن تحليل النصوص كان – فى هذه الحالة – عظيم الفائدة فى الإسهام بإثراء معرفتنا بالاختلافات القائمة على النوع الاجتماعى، والتى تتردد داخل الأشكال الثقافية التى تنقلها وسائل الاتصال. ومنها على وجه الخصوص تلك الاختلافات المتصلة بصورة الجسد وما يرتبط بها من ظواهر. وبالإضافة إلى ما قام به مالكين، وورنيان، وكريزلرمن كشف لحقيقة إحدى الظواهر الثقافية وشرح لتفاصيلها، فإنهم – بجانب ذلك – ولَّدوا من واقع البيانات التى جمعوها نظرية تدور حول دلالات هذه الاختلافات للنوع الاجتماغى. فهيا بنا نتأمل مثالاً آخر.

وكما أن تحليل المضمون يقدم لنا خيارات كثيرة، فإن بالإمكان كذلك أن تتم دراسة موضوع الاختلافات الناجمة عن النوع الاجتماعى وموضوع صورة الجسد باستعمال البيانات الموجودة فى وسائط أخرى. مثال ذلك، أن بإمكان الباحث الكيفى أن يقوم بدراسة دقيقة للمواد السمعية البصرية، كالسينما أو التليفزيون، لكى يتأمل أى عدد من القضايا كتلك التى تعرضها أنواع معينة من الأفلام أو البرامج التليفزيونية من تصورات لصورة الجسد عند الرجال وعند النساء وما يتصل بها من تفاعلات.

قام لوزن Lauzen و دوزييه Dozier (٢٠٠٢) بدراسة تحليل مضمون ١٠٤ برنامج أو عرض تليفزيونى بُثت على الهواء خلال عامى

١٩٩٩/٢٠٠٠. وقد قاما بدراسة هذه العروض من أجل فحص أعداد وأنماط التعليقات التى جرت على ألسنة الشخصيات الرجالية والنسائية، وتلك التى وجهت إليهم والمتعلقة بالمظهر الجسدى. يضاف إلى ذلك أنهما بحثا عما إذا كان للنوع الاجتماعى لكُتّاب هذه البرامج ثمة تأثير على مقدار وأنواع التعليقات التى تناولت مظهر الجسد. وتذهب نتائج بحثهم إلى أن الشخصيات النسائية تتلقى قدراً أكبر من التعليقات الخاصة بالمظهر الجسدى من كل من الشخصيات النسائية والرجالية، كما تذهب إلى أن طبيعة هذه التعليقات تختلف عن نوعية تلك التى وجهت إلى الرجال. كما وجدا أن توظيف الكاتبات فى كتابة هذه البرامج قد تسبب فى زيادة العدد الكلى لما جرى من تعليقات خاصة بالمظهر الجسدى.

إن الانشغال بالمظهر الجسدى قد يعكس محورية المظهر والجمال فى حياة جميع النساء بما فيهن الكاتبات. فالكاتبات يأتين بخبراتهن الحياتية فينقلنها إلى النصوص التى يقمن بتأليفها. فالنساء تتم تنشئتهن الاجتماعية على نحو يعطى أولوية للاهتمام بالمظهر الجسدى، لذلك فإن النساء يكتبن ما يعلمنه، فيقمن بإدماج أمور المظهر الجسدى كجانب مهم – بل ومحورى – من جوانب حياة الشخصيات النسائية والرجالية. ومن الأمور المتناقضة إلى حد ما، أنه على الرغم من أن حضور الكاتبات قد حطم الصورة النمطية الجامدة التى يقدمها سائر الكتاب من الرجال، فإن هذا الحضور قد تسبب كذلك فى زيادة معدل التعليقات التى قيلت عموماً، وخاصة ما دار منها حول الشخصيات النسائية (Lauzen & Dozier, 2002, p. 8)

ومع أننا لا نوافق، بالضرورة، على النتائج التى انتهى إليها الباحثان، إذ قد تكون هذه الظاهرة مرتبطة بالضغط المتزايد على النساء الكاتبات للإذعان للمثل المعيارية الجنسية الموجودة فى مجال خاضع لسيطرة الرجال؛ فإن هذه الدراسة تعد مثالاً واضحاً لتوليد النظرية التى تدور حول الاختلافات تبعاً للنوع الاجتماعى، وذلك باستخلاصها من البيانات السمعية البصرية التى عولجت بطريقة تحليل المضمون.

أما ديانا روز Diana Rose فهى باحثة تعيش فى المملكة المتحدة، وقد استخدمت طريقة تحليل مضمون المواد السمعية البصرية لدراسة صور "الجنون" كما عرضتها برامج التليفزيون البريطانى. وفى الفقرة التالية المخصصة "لما خلف الكواليس" تحدثنا "روز" كيف آل بها الأمر إلى دراسة هذا الموضوع وإلى أين أوصلها:

خلف الكواليس مع ديانا روز

أمضيت ١٢ سنة أعمل فى ميدان بحوث الصحة العقلية. وقبل ذلك سبق لى أن أجريت بحوثاً عن العلاقة بين اللغة والتعليم وعن موضوع النوع الاجتماعى. ولكن كانت ثمة فجوة بين هذين النمطين من البحوث. وسبب هذا يرجع إلى إصابتى "باضطراب عاطفى مزدوج"(*)، كما أننى أمضيت بعض الوقت وأنا معتلة الصحة إلى حد منعنى من العمل. وقد عشت تلك الفترة على المعونات التى تصرفها الدولة للمحتاجين بجانب معاش بسيط.

كان أول بحوثى فى مجال الصحة العقلية هو رسالتى للحصول على الدكتوراه التى بدأت دراستى للحصول عليها فى فترة متأخرة إلى حد بعيد من حياتى (إذ كنت حينذاك فى الأربعين من عمرى). وكان الموضوع الذى اخترته هو "صور الجنون التى يعرضها التليفزيون البريطانى". وكنت أرى أن هذا الموضوع موضوع "آمن"، أى أنه لن يتطلب منى أن أكشف عما أعانيه من مشكلات تتعلق بالصحة العقلية. فقد كنت واعية تمام الوعى بالوصمة التى يوصم بها المرضى العقليون. وبعد فترة أصبحت غير مرغوب فىّ فى الجامعة وانكشف أمرى تماماً. فقد عرف كل إنسان من أين كنت أستمد أفكارى. ولم أكن أعبأ بذلك فعلاً، فقد كان لدى التزام سياسى (أى مجتمعى عام – المراجع). فقد كان يوجد فى ذلك الوقت نقد كثير فى وسائل الاتصال لسياسة الرعاية الصحية فى المجتمع، وكنت راغبة فى كشف حقيقة مدى تحيز هذه السياسة. وبذلك فإننى لم أكن باحثة محايدة أبداً.

(*) Bipolar affective disorder.

فى السنة الأخيرة من دراساتى لتحضير الدكتوراه، عرضت على وظيفة فى مستشفى خيرى للصحة العقلية لكى أجرى بحوثى فيه. وكان ذلك بسبب سبق تعرضى لمشكلات صحية عقلية، فقد كانت الإصابة بمرض عقلى مؤهلاً لى للحصول على هذه الوظيفة (روز، ٢٠٠٠). فقررت أن أقبل الوظيفة بصدق وإخلاص، وأن أكون صريحة فيما يتصل بمرضى وما تلقيته من علاج له، وأن أنتفع بخبرتى بأنواع العلاج وبالخدمات فى إثراء عملى البحثى.

وقد أدى هذا بى إلى أن طورت إبستمولوجيا "للتمكين". ووفقاً لمفاهيم الفكر التنويرى، فإن المنتفعين بخدمات الصحة العقلية (ونحن لا نحب استعمال مصطلح "المريض") يكونون فى وضع مشابه لذلك الوضع الذى تعيش فيه النساء، والذى يصفه أصحاب نظرية المعرفة النسوية بأنه مجرد وضع أكثر سوءاً. إن افتقاد التفكير العقلى هو التعريف الذى يعرفنا به الأطباء العقليون والجمهور، فنحن فى نظرهم ليس لدينا قدرات عقلية، بل كل ما لدينا هو انفعالات جامحة لا سيطرة لنا عليها وحياة تسودها الفوضى. بل إنه مازال هناك أطباء أمراض عقلية يعتقدون أن المنتفعين بخدمات الصحة العقلية يحملون فى أدمغتهم أجزاء "ثقافية" "cultural" parts تالفة وأنهم لهذا السبب أقرب إلى الحالة الأصلية البسيطة للإنسان. لذلك تسعى إحدى إبستمولوجيات التمكين إلى قلب هذه المعتقدات رأساً على عقب.

وكما تسهم الحركة النسائية فى إثراء الدراسات والبحوث النسوية، فإن حركة المنتفع / والمنقذ user/survivor أسهمت فى إثراء تفكيرى الشخصى بنفس الطريقة تماماً. وقد تعرفت على هذه الحركة أول الأمر فى منتصف ثمانينيات (القرن الماضى) عندما كنت متعطلة عن العمل. لقد عملت هذه التجربة على إثراء مستوى الوعى عندى، وهى فى ذلك تشبه تماماً ما فعلته الحركة النسوية فى إثراء الدراسات النسوية. وقد آل بى الأمر إلى التأكد من أن الطريقة التى كنت أعالج بها وفقاً لنظام الصحة العقلية كانت طريقة جائرة. وأخيراً، قمت بتنظير نظام الصحة العقلية بوصفه يشكل أحد خطابات وممارسات الهيمنة مستلهمة فى ذلك كتابات فوكو Foucault عن الجنون.

فما هى دلالات ذلك بالنسبة لممارستى البحثية؟ أعتقد أن هذه الرؤية قادتنى إلى شكل من أشكال المشاركة فى العمل البحثى. وهناك طريقتان لتحقيق هذه المشاركة:

أولاً: عندما يشارك منتفعون آخرون (أى مرضى) فى بحثنا فإننا نكون قادرين على فهم أفكارهم لأننا كنا مثلهم، أى أننا نشاركهم خبراتهم. كما أننا، ومن وجهة نظر تتصل بمنهجية البحث، نحرص أشد الحرص على الفهم الدقيق لما يفكر فيه الأفراد والجماعات، إذ تكرر لجوؤنا – لمرات عديدة – إلى مراجعة محتويات بعض سجلات المقابلات أو محتويات مداولات جماعة من جماعات المناقشة المركزة. ويمثل هذا الأسلوب تطبيقاً جيداً للبحث الكيفى، كما تفيد أعظم الفائدة من احترامنا العميق لشركائنا فى البحث. وهذا الأمر لا وجود له فى الغالبية العظمى من بحوث الصحة العقلية، التى تمثل الاتجاه المسيطر.

والشكل الآخر من البحث القائم على المشاركة بين الباحث والمبحوث يتمثل فى اشتراك المنتفعين بالخدمات الصحية (المرضى) **كباحثين**. وهنا يتم تدريب الأفراد الذين لديهم خبرة بسيطة – أو ليس لديهم خبرة – على القيام بالبحث، وذلك جنباً إلى جنب الباحثين ذوى الخبرة. ويتولى هؤلاء المنتفعون بالخدمات تصميم أدلة المقابلة معتمدين على خبرتهم الشخصية. ثم يستخدمون هذه الأدلة فى إجراء المقابلات مع غيرهم من المنتفعين بالخدمات (المرضى). والفكرة العامة هنا هو أنه عندما يقوم بعض المرضى بإجراء المقابلات مع مرضى آخرين يكون الوضع أكثر صراحة وراحة، كما أن المعلومات المتحصلة عن هذا الطريق تختلف عن تلك التى يمكن للباحث المحترف أن يتحصل عليها.

إن طريقتى المفضلة لتحليل البيانات المستمدة من المشروعات البحثية الكيفية هى طريقة تحليل المضمون الكيفى. وتعد هذه الطريقة اختياراً منهجياً أكثر من كونها اختياراً استوحيته تجربتى كواحدة من المنتفعين بخدمات الصحة العقلية. ولا أعتقد أن من الممكن الوصول إلى مجموعة متكاملة من البيانات بدون وجود أفكار أو تصورات مسبقة. لا أعتقد أن ذلك ممكن أبداً.

ذلك أن وجود إطار تصنيفى - حتى وإن كان قائماً على الفحص الأولى للبيانات - يجعل الأفكار المسبقة للمرء واضحة صريحة. وفى البحوث التى قمت بها أو أشرفت على إجرائها تم تطوير كثير من فئات التصنيف التى استخدمناها وقمنا باستخلاصها من معرفتنا الشخصية بالمحنة، وبأنواع العلاج والخدمات التى تلقيناها.

قد يميل البعض إلى القول بأن إجراء البحث بهذه الطريقة يمثل نوعاً من التحيز، إلا أننى أتمنى أن ألتقى يوماً بباحث محترف فى مجال الصحة العقلية - وهو المجال الذى يغلب عليه الطابع الكمى - يقوم بإجراء بحث لا يكون عزيزاً على قلبه، أو يكون له فيه نفع شخصى.

إن اشتراك متلقى الخدمات (المرضى) فى البحث صار "موضة" واسعة الانتشار فى الملكة المتحدة فى وقتنا هذا. وأنا الآن مسئولة عن وحدة مكونة من خمسة باحثين كلهم من المنتفعين بخدمات الصحة العقلية حالياً أو ممن كانوا كذلك فيما قبل. كما أننى ملتزمة حالياً بتطوير التصورات المثالية التى استعرضتها هنا بإيجاز.

والآن وقد ألممنا بفكرة عن مدى إمكان استعمال طريقة تحليل المضمون بصورة عامة، وعن مدى إمكان استعمالها على نحو مختلف عن الطرق الأخرى فيما يتصل بمثالنا عن صورة الجسد، فهيا بنا نبحث بدرجة أعمق: ما هى طرق البحث غير التدخلية unobtrusive methods، وكيف تطورت، وكيف يمكن توظيفها.

الطرق غير التدخلية:
الاتجاهات الكمية والاتجاهات الكيفية

تطورت طرق البحث غير التدخلية انطلاقاً من الافتراض القائل بأن بإمكاننا أن نحيط علماً بمجتمعنا عن طريق تمحيص العناصر والمواد المادية التى يتم إنتاجها داخل هذه الثقافة. معنى ذلك بعبارة أخرى أن بوسعنا أن نحيط علماً بالحياة الاجتماعية، سواء تمثلت فى المعايير أو القيم أو التنشئة الاجتماعية أو التدرج الاجتماعى، وذلك عن طريق بحث الأشياء التى نصنعها

والتى تعكس العمليات الاجتماعية الكبرى كما تعكس نظرتنا للعالم. فالنصوص والموضوعات التى تنتجها جماعات الناس تحوى فى داخلها الأفكار الكبيرة التى لدى تلك الجماعات، سواءً كانت أفكاراً يتفقون عليها أم يختلفون حولها. وتعتمد الطرق الرئيسية الأخرى للبحث الكيفى على جمع البيانات من الأفراد والجماعات من خلال استعمال طرق المعرفة القائمة على التفاعل معهم وملاحظتهم. وهنا تختلف طرق البحث غير التدخلية من حيث إنها تستخدم النصوص كمنطلق لعمليات البحث. وبصفة خاصة يستعمل البحث غير التدخلى الأشكال غير الحية للبيانات والتى تصنف – عموماً – باعتبارها "نصوصاً" أو أشياء من صنع الإنسان (بالمعنى الواسع للمفهوم). وثمة فائدتان لاستخدام الأشكال غير الحية للبيانات:

(١) أولاهما أن تلك البيانات غير تفاعلية.

(٢) وثانيتهما أن هذه البيانات ذات وجود مستقل عن البحث.

(Reinharz, 1992, pp. 147-148)

ونظراً لأن هذه البيانات لا تتأثر من خلال تفاعل الباحث – على نحو ما يحدث فى المقابلات – ونظراً لأنها موجودة من قبل فى العالم بصرف النظر عن هذا البحث الجارى تنفيذه، فإن هذه البيانات تكون "طبيعية"، أو ذات وجود طبيعي. وتضفى هذه الصفة على البيانات مستوى متميزاً وفريداً من الأصالة والصدق، الذى يتأكد وجوده خلال العملية البحثية. فالباحثون لا يتطفلون على الحياة الاجتماعية عن طريق الملاحظة أو إجراء المقابلات بل يتناولون بالدراسة النصوص اللاتفاعلية الموجودة، وبهذا الشكل تصنف هذه العملية البحثية بأنها غير تدخلية. ومن الممكن دراسة شتى أنواع النصوص والمنتجات المادية، التى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الوثائق التاريخية، والصحف، والمجلات، والصور الفوتوغرافية، والكتب، واليوميات، والأعمال الأدبية، والموسيقى، والتليفزيون، ومواقع الإنترنت، وغيرها.

ومع أن طرق البحث غير التدخلية تضم طائفة واسعة الإمكانيات المنهجية، فإن طريقة تحليل المضمون – بمفهومها الكلى الشامل – تعد تاريخياً كبرى الطرق التى تندرج تحت هذا العنوان. وكان مصطلح **تحليل**

المضمون يشير – بصورة تقليدية – إلى دراسة النصوص المكتوبة. وكانت هذه الممارسة فى بدايتها ذات طابع كمى، حيث كان الباحثون يميلون إلى عد مرات وُرُود موضوع أو عبارة معينة يكونون مهتمين بها، كالمصطلحات المتعلقة بالنوع الاجتماعى أو المصطلحات العرقية فى صحيفة ما. وكان هؤلاء الباحثون القدامى يوصفون بأنهم من "عدادى الحبوب" "bean counters". والآن، لا يفكر كثير من الباحثين وفقاً للاتجاه الكيفى أو الكمى عندما يتطرقون إلى طريقة تحليل المضمون، إذ أن تحليل المضمون يدمج هذه المفاهيم معاً كما يمكن اعتباره طريقة مهجنة (أى تجمع صفات الطرق التى تولدت منها). وبهذا يمكن أن نتخيل أن تحليل المضمون بمثابة طريقة للتحليل ذات طبيعة مختلطة لا تنفك عنها، أو طريقة تشتمل دائماً على الإمكانيات الواعدة لكل من التطبيقات الكيفية والكمية معاً. ويشير باور Bauer (٢٠٠٠) إلى تحليل المضمون بوصفه "تقنية مهجنة" تمثل فى حقيقتها دائماً – حتى عندما تنفذ بصورة كمية – اتجاهاً مهجناً فى البحث. ويشرح باور هذا التصور على النحو التالى:

مع أن معظم تحليلات المضمون الكلاسيكية تصل إلى ذروتها فى صورة التوصيفات الرقمية لبعض ملامح النصوص المكتوبة، فإن الباحث كان يحرص على التفكير ملياً فى "الأنواع" و"الصفات" و"الفروق" الموجودة فى هذا النص قبل القيام بأى معالجة كمية له. وبهذه الطريقة يُقيم تحليل المضمون جسراً يصل النزعة الشكلية الإحصائية بالتحليل الكيفى لهذه المواد. وبالنسبة لما يشهده البحث الاجتماعى من فصل بين الكم/ والكيف، يمثل تحليل المضمون تقنية تقوم بدور الوسيط فى هذا الجدال العقيم الذى يدور حول مزايا كل طريقة من طرق البحث (ص ١٣٢).

ولكن بصرف النظر عن مدى تفكيرنا فى تحليل المضمون كطريقة هجين بطبيعتها، أو كطريقة تجمع بين القدرات الاستنباطية والقدرات الاستقرائية، فلا شك أنه باستخدام هذه الطريقة فى البحث استطاع العلماء الاجتماعيون أن يسهموا فى إثراء المعرفة بأساليب لها شأنها، تتصف بالكفاءة الإحصائية والمقدرة الوصفية.

وقد استطاع الباحثون الكميون – سواء اقتصروا على الممارسة الكمية وحدها أو جمعوا بينها وبين الممارسة الكيفية – أن يبينوا أهمية تحليل المضمون كطريقة للحصول على "بيانات محكمة" عن الظواهر الاجتماعية الكبرى. وقد ساهم هذا النوع من البحوث بقدر كبير فى إثراء المعرفة العلمية الاجتماعية، كما أثر على السياسة الاجتماعية بصورة مباشرة. وسوف نرى من خلال استعراض موجز لتاريخ طريقة تحليل المضمون، كيف يمكن أن تكون هذه الطريقة أداة فعالة لتعزيز التغير الاجتماعى على مستوى السياسة الاجتماعية.

كان تحليل المضمون الكمى جزءًا متمماً لعملية تكوين رصيدنا من المعرفة العلمية الاجتماعية، بما فيها المعرفة الموجهة لتحقيق العدالة الاجتماعية. وتتمثل قوة هذه الطريقة فى أنها تمكن الباحثين من دراسة الأنماط المتكررة والموضوعات الأساسية المتضمنة داخل الموضوعات التى تنتجها ثقافة معينة. إذ يستطيع الباحثون أن يحللوا البيانات الموجودة سلفاً لكى يكشفوا عن العمليات الاجتماعية الكبرى ويحلوا ألغازها. وتعتبر الممارسة الكمية لطريقة تحليل المضمون ممارسة مهمة، لأنها تمكن الباحثين من تقديم نتائج بحوثهم وعرضها على هيئة رسوم بيانية وجداول تسهل قراءتها، وغالباً ما تكون فى شكل رقمى. ولا يمكن الإقلال من شأن قوة هذا الشكل من البيانات عندما نحاول لفت الانتباه إلى الممارسات المنتظمة للظلم ولعدم المساواة الاجتماعية، وعندما نحاول تغيير السياسة العامة.

وفى ضوء ما قدمه تحليل المضمون الكمى من إثراء لمعرفتنا بالظلم الاجتماعى وعدم المساواة، فقد كان ولا يزال يُعد طريقة معيارية لتحليل دور النصوص التى تبثها وسائل الاتصال خلال عملية التنشئة الاجتماعية. من ذلك ما قام به جودن وجودن Gooden & Gooden (٢٠٠١) من دراسة موضوع صورة النوع من واقع دراسة ٨٣ من كتب الأطفال الشهيرة المنشورة خلال الفترة من سنة ١٩٩٥ حتى سنة ١٩٩٩. وقد أظهر بحثهما أن التصوير النمطى للجنس – خلال هذه السنوات الأربعة – كان أقل مما شهدته سبعينيات القرن العشرين. ومع ذلك، يظل التصوير النمطى للجنس سائداً فى

كتب الأطفال. ونظراً لأن كتب الأطفال مصدر له شأنه في التنشئة الاجتماعية، نجد هذا البحث يؤكد على أنه يتعين بذل المزيد من الجهد لجعل كتب الأطفال أكثر حيادية في تصويرها للنوع. فهذه الصور النمطية يمكن – في شكلها الحالي – أن تؤثر تأثيراً سلبياً على شعور الفتيات باحترام الذات وبالهوية الشخصية. زد على ذلك أن هذه النصوص تعزز الأدوار التقليدية للنوعين (للذكور والإناث). وقد تحد – لهذا السبب – من اختيارات الصبيان والفتيات للسلوكيات التي يعتقدون أنه مسموح بها لهم.

وأجرى مرسكين Mersikin (١٩٩٩) بحثاً قدم فيه تحليل مضمون كمي لمجلات المراهقين التي نُشرت من سنة ١٩٨٧ حتى سنة ١٩٩٧ لكي يتبين كيف تقدم الإعلانات موضوع العادات الصحية النسائية وموضوع الحيض بوسائل من شأنها أن تعمل على استدامة بعض الخرافات الثقافية أو هدمها. وكان مرسكين يريد بصفة خاصة أن يعرف المدى الذي بلغته الإعلانات في عرض، أو تقديم الحيض "كموضوع يجب الخشية منه وكأزمة صحية تدعو للشعور بالذنب وتدمر شعور المرأة باحترامها لنفسها" (ص ٩٤١). ويُظهر هذا البحث أن الخرافات القديمة المتعلقة بالنوع، والتي تصور أجساد النساء كشيء ملوث أو بغيض لا تزال حية ومقبولة في الإعلانات، وإن كانت تلك الأجساد تصور في الجانب الإيجابي بطرق أكثر تحرراً. وعلى الرغم من ذلك، فإن المعلنين لم يعيدوا تعريف الحيض كعملية جسدية إيجابية. زد على ذلك أن بحث مرسكين كشف عن أن الموديلات من الفتيات البيضاوات يحظين بالأفضلية في هذه الإعلانات، ومن ثم فإن الأمر يبدو وكأن النساء ذوات الأصول العرقية والإثنية الأخرى لسن مستهدفات من هذه الإعلانات. وترتكز قوة هذه الدراسة على استعمال الباحث للبيانات الكمية الخالصة.

وبالمثل يستخدم أسلوب تحليل المضمون التقليدي للمساعدة في صياغة السياسة الاجتماعية من خلال لفته الأنظار إلى بعض أشكال عدم المساواة المنظمة التي يجب أن تتغير. وشاهد ذلك أن توماس و تريبر Thomas and Treiber (٢٠٠٠) قاما بدراسة تحليل مضمون كمية لعدد ١٧٠٩ إعلاناً

أخذت من أربع مجلات، اثنتان منهما موجهتان للمستهلكات البيض، واثنتان موجهتان للمستهلكات السود، بقصد الوقوف على الصور النمطية القائمة على اعتبارات العرق، والنوع الاجتماعى، والمكانة الاجتماعية. وقد توصل بحثهما إلى أن وسائل الاتصال التى تتوسل بالصورة تعرض عدداً قليلاً من الصور النمطية للنوع والعرق. من ذلك أن المبحوثات البيضاوات يظهرن غالباً في مكانة اجتماعية أعلى من المكانة الاجتماعية التى تظهر فيها المبحوثات السود. ويرتب توماس و تريبر على ذلك ما يلى:

تظل الصور النمطية للعرق والنوع باقية كصور مبالغ فيها وشديدة التبسيط تستعمل لتسويق المنتجات. وقد بينا أن الإعلانات المنشورة فى هذه المجلات تستعمل هذه الصور السطحية عندما تستهدف توجيه المنتجات إلى النساء، وإلى الرجال، وإلى السودِ، وإلى البيض. ذلك أن استعمال الصور النمطية في إعلانات المجلات يؤكد لجمهورها من القراء أن الجماعات الأدنى منزلةً ينبغي أن تظل في مكانةٍ اجتماعية أدنى. وفي هذه الدراسة، وُجِدَ أن كلاً من النوع الاجتماعي والعرق يمثّلان مبدأين أساسيين قويين لتنظيم خبرة الحياة اليومية.

وتتمثل واحدةٌ من السمات المأساوية للصور النمطية التي تَبُثُّها وسائل الاتصال في قدرتها على توليد النبوءات ذاتية التحقيق(*)، وذلك على الرغم من

(*) النبوءة ذاتية التحقيق Self – Fulfilling Prophecy مفهوم أدخله روبرت ميرتون إلى ميدان علم الاجتماع (انظر كتابه: النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى الصادر عام ١٩٥٧)، يتفق مع النظرية الشهيرة المبكرة لصاحبها وليام إسحاق توماس والقائلة بأن الناس عندما يحددون المواقف على أنها حقيقة واقعة، يترتب على ذلك أن تصبح حقيقية فعلاً. ويعتبر ميرتون أن "النبوءة ذاتية التحقيق" تعد عملية أساسية ومهمة في المجتمع، مشيراً إلى أن البدء بتعريف موقف ما تعريفاً زائفاً يستدعى سلوكيات جديدة مترتبة على هذا التعريف، تحيل هذا التصور الزائف إلى أن يصبح حقيقة. فتلك السلوكيات تطيل أمد التصور الخاطئ.

للمزيد انظر: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، تحرير محمد الجوهرى، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ١٤٣٥ وما بعدها. (المراجع)

أن الصور النمطية في الإعلانات تقدم صورة غير صحيحة للعرق والنوع. (ص٣٧٠).

لاشك أن هذا البحث قد استمد قوةً من استخدامه لطريقة تحليلِ المضمون الكميِّ. فقد سهلت الرسوم البيانية الإحصائية الواضحة على الباحثين توليد نظرية مُقنعة فيما يتصل بالدلالات الاجتماعية لتنشئة الناس اجتماعياً من خلال الصور النمطية الضارة.

قام ويسوكي Wysocki وهاريسون Harrisson (١٩٩١) بدراسة تحليل مضمون لبعض المجلات الدورية بقصد الكشف عن أنماط تصويرها لمرض الإيدز. وقد أتاحت هذه الطريقة للباحثين أن يدرسا وسائل نقل المعلومات المتعلقة بالإيدز إلى الأطفال والمراهقين. وكثيرا ما يُستَعمل البحث الذي من هذا النوع كأداة لتغيير السياسة الاجتماعية، حيث تستخدم البيانات التي يتم التوصل إليها "كدليل" على عدم فاعلية السياسة العامة. وبهذهِ الطريقة يستطيع الباحثون الملتزمون بالعدالة الاجتماعية أن يناضلوا من أجل حقوق أولئك الذين قد يكونون مهمشين، أو محرومين من حقوقهم السياسية، أو واقعين تحت أي شكل من أشكال الظلم داخل المجتمع. وإنَّ بإمكان الطرق غير التدخلية – إلى جانب ما تقوم بهِ من كشف للأنماط المتكررة والموضوعات الأساسية– أن تساعد الباحثين على تقديم **وصف تفصيلي للعمليات الاجتماعية الكبرى وتفسيرها.**

ومن الناحية التاريخية كان الباحثون يمارسون طريقة تحليل المضمون على أساس كمِّي، إلا أنه قد توفر لنا الآن تُراثٌ من تحليل المضمون الكيفي، ومن البحوث التي تستخدم الأساليب المختلطة كذلك (أي التي تجمع بين التحليل الكمي والتحليل الكيفي للمضمون). ويتمثل الفارق الأساسي بين هذين الأسلوبين الكبيرين في تصميم البحث. فالاتجاهات الكمية في تحليل المضمون تتصف عموماً بأنها استنباطية وتتّبع نموذجا **خطياً** في تصميم البحث[*]. أما

(*) أي يقوم على عدد من الخطوات أو المراحل المتتابعة المحددة تحديداً دقيقا. (المراجع).

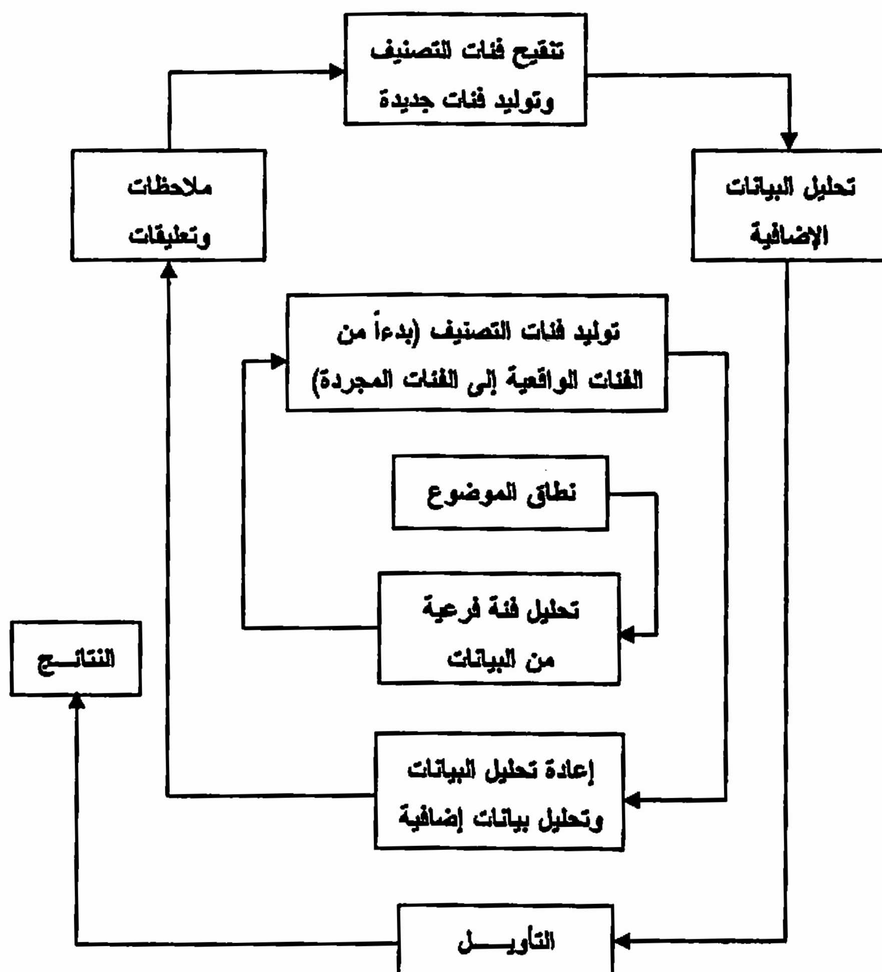
الاتجاهات الكيفية فى تحليل المضمون فتتبع ما نطلق عليه النموذج الحلزونى فى تصميم البحث.

دعنا نبدأ بالنموذج الأول. عند استعمال أحد التصميمات الخطية يكون في ذهن الباحث مجموعة من الخطوات المحددة سلفا ليتبعها في مسارٍ خطـي (أو رأسي) في كل مرحلة من مراحل البحث. أما التصميم الحلزوني – الذى يستخدمه الباحثون الكيفيون – فيُتيح للباحثين وبتعبير مجـازي، أن يغـوص داخل البيانات ويخرج منها أثناء متابعته العمل في البحث. ففي هذا النمـوذج يقوم الباحث بتوليد أنواع الفهم الجديدة، والتي تتصف بمستويات مختلفة مـن التحديد أو من الدقة والوضوح، وذلك أثناء كل مرحلة من مراحل المـشروع، وأن ينتفع بتلك المعلومات في الرجوع مرة ثانية (إلى المراحل السابقة) مـن أجل الحصول على مزيد من المعلومات. وهذا النموذج يُشكل أسلوبا "حلزونياً" في بناء المعرفة في حالة ما إذا كان المرء يريد أن يجسد هذه العمليـة فـي صورة مرئية. وتصف الخريطتان المعروضتان على الصحفتين التاليتين مسار أو تدفق المعلومات عبر مراحل عملية البحث في الدراسات الكمية والدراسات الكيفية، أي النماذج الخطية في مقابل النماذج الحلزونية. وتذكر أنه ليس مـن اللازم أن يتَبع المرءُ هذه الخطوات بالتمام والكمال، لأنَّ هـذا الرسـم يمثـل وصفا عاماً كل العمومية لهذين الاتجاهين، كما أن أي خطة بحث ينبغي لها أن تكون مناسبة بصفة خاصة لأهداف مشروعٍ بحثيٍ بعينه.

خريطة مسار عملية تحليل المضمون

النموذج الكيفى

(استقرائى)



الشكل رقم ١/٨: خريطة مسار عملية تحليل المضمون.

المصدر: بتصرف نقلا عن كتاب نيوندورف:

Neuendorf, K.A. (2001). The Content Analysis Guidebook. Thousand Oaks, CA: Sage.

خريطة مسار عملية تحليل المضمون
النموذج الكمي
(استنباطي)

١- سؤال البحث وفرضه



٢- صياغة المفاهيم

(ما هي المتغيرات المستعملة وكيفية تعريفها).

⇓

٣- العمليات الإجرائية

(وتستهدف الوصول إلى الصدق الداخلي والصدق الظاهري).

٣/أ- وحدة التحليل

٣/ب- القياس

- الفئات قد تكون شاملة
- أو متنافية (تستبعد بعضها بعضا)

أو

- محددة مسبقاً

⇓

٤- فئات التصنيف.

⇓

٥- اختيار العينات

(اختيار عينة عشوائية لفئة فرعية من المضمون).

⇓

٦- الثبات (المنهجي)

يمكن استعمال: فئتين للتصنيف (لتحقيق ثبات الفئات)

أو استعمال برنامج كومبيوترى للتحقق.

٧- إذا تم تقرير الثبات بطريقة يدوية (خطوة رقم٦) إذن قم بإجراء اختبار إحصائي.

⇓

٨- عمل الجداول وعرض النتائج

الشكل رقم ٢/٨: خريطة مسار عملية تحليل المضمون

المصدر: بتصرف نقلاً عن كتاب نيوندورف:

Neuendorf, K.A. (2001). The Content Analysis Guidebook. Thousand Oaks, CA: Sage.

في تحليل المضمون الكيفي يبدأ الباحث ببيانات في موضوع معين ليشرع في التساؤل عنها وتأملها انطلاقاً من موقفهِ الفكري الضمني ووجهة نظرهِ الإبستمولوجية. وبمجرد بدء هذه العملية يقوم الباحث بفحص علاقة هذا الموضوع كذلك بسؤال البحث. ولا يبدأ الباحث بفئات تصنيف مسبقة، وإنما يقوم بتوليد فئات التصنيف باستخراجها مباشرة من هذه البيانات. ومن الممكن أن تتراوح هذه الفئات ابتداءً من الفئات الواقعية (الحرْفية) وانتهاءً بالفئات المجردة. ونظراً لأن فئات التصنيف تنبثق من خلال البيانات فإن الباحث يعود أدراجه مرةً ثانية ليكرر تأمل البيانات باستخدام فئات التصنيف الجديدة. وينهمك كثير من الباحثين -كذلك- في كتابة الملاحظات والتعليقات على امتداد هذه العملية كوسيلة لتفسير البيانات وتأملها خلال متابعتهم للعملية البحثية. وهذا هو السبب في أننا نشير إلى الاتجاهات الاستقرائية بوصفها "عملية غوص داخل البيانات ثم خروج منها". ومن الممكن عرض المعرفة الناتجة عن هذه العملية بأساليب متعددة.

إن الأساليب الشديدة التنوع التي يمكن بها استعمال الطرق غير التدخلية لإنتاج أنواع مختلفة من البيانات - ذات القدرات الوصفية والتفسيرية- هي ما يميز تلك المجموعة من أدوات البحث وأشكالها المنهجية العامة. وعلى امتداد العقود الثلاثة الماضية قام الباحثون الكيفيون - من أصحاب رؤى إبستمولوجية وفكرية مختلفة- بتوسيع نطاق مفاهيم طرق البحث اللا تدخلية وتوسيع نطاق استخدامها على نحو بالغ التأثير. ويرتبط الاهتمام المتزايد بتلك المجموعة من الممارسات ارتباطاً مباشراً بنمو الدراسات الثقافية وبالنقد المابعد الحداثي لبنية المعرفة العلمية الاجتماعية.

التحليل الكيفي للنصوص وعلاقته بما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية

من الأمور المتعارف عليها، أن تحليل النص هو أكثر أشكال تحليل المضمون شيوعا وانتشارا. وتحليل النص هو أن يستخدم الباحث النصوص المكتوبة بوصفها الشكل الأساسي للبيانات (رغم أن الباحث قد يجمع بين

البيانات النصية والبيانات المرئية أو يربط طريقة تحليل النص بطريقة أخرى). وفي وقتنا الحاضر، يُستعمل مصطلح النص بمزيد من التوسُّع ليستوعب تلك الطائفة من الوسائط التي تظهر فيها النصوص الثقافية. وعلى امتداد العقود القليلة الماضية أدَّت المفاهيم العلمية الجديدة لطبيعة الحقيقة الاجتماعية ولطبيعة البحث الاجتماعي إلى زيادة تدقيق وتحسين طرق البحث غير التدخلية. ويمكن القول – على وجه الخصوص- أن الانتقادات التي وجهها مفكرو ما بعد الحداثة ومفكرو ما بعد البنيوية إلى البحث، قد أدت إلى التأثير على ممارسة طرق البحث غير التدخلية وذلك بتغيير المنظور الفكري الذي من خلاله يُمارس كثير من الباحثين طُرق بحثهم.

والأمر في حقيقته، أن ما بعد الحداثة تفترض أنه حدث انتقال من حقبة الحداثة إلى حقبة ما بعد الحداثة، وهي التي يُعرِّفها فريدريك جيمسون Frederic Jameson(١٩٨٤) بوصفها "المنطق الثقافي للرأسمالية الحديثة"، والذي يشكل الصورة السائدة للقوة الاجتماعية. وفي هذه الحقبة الجديدة أصبحنا في مواجهة أشكال وسائل الاتصال التي يتألف منها ما يشير إليه جان بودريار بأنه نوع من "ما فوق الواقع" hyperreality والذي أصبح فيه "الواقعي" the real و"الخيالي" the imaginary مُشوَّشين إلى حد غير مسبوق. ففي مثل هذا السياق، يُصبح من المهم أن نتفحص الجوانب المادية للثقافة، كالنصوص مثلا (بمعناها الواسع)، والتي يتم تطعيمها –من خلال عمليات إنتاجها ونشرها- بعلاقات القوة الخاصة على امتداد التاريخ. ولكن ما الذي يعنيه مفكرو ما بعد الحداثة والمفكرون النقديون من دراسة القوة التي ملئت بها الأشياء حتى تشربتها؟

كان ميشيل فوكو Michel Foucault في طليعة من أثروا على مفاهيم القوة. وقد صاغ فوكو (١٩٧٨) نظرية مفادها أن القوة والمعرفة مرتبطتان ارتباطاً لا انفكاك له، وهو الأمر الذي يخلق شبكة مُعقدة من علاقات القوة – والمعرفة. وموجز القول إن كتاب فوكو يبين أن المعرفة كلها محكومة ببيئتها لأنها يتم إنتاجها داخل مجال من علاقات القوة المتغيرة. لذا يجب على المفكرين أن يستنطقوا النصوص الثقافية لكي يكشفوا عما فيها من

آثار رؤية العالم السائدة والموجودة في طوايا هذه الأفكار المتكررة والموجودة كذلك في "الأمور المسكوت عنها" (وهي الرؤية التي هُمشت أو أُسقطت من النص، والتي وفقاً لتعبيرات أفري جوردون Avery Jordon "تسكن" دائما ما هو موجود في النص). وعلى وجه الخصوص، يقوم الباحثون من أتباع هذا التوجه بدراسة الممارسات الخطابية الكامنة داخل النص، والتي يُقصد بها الأساليب الخاصّة باستخدام اللغة داخل ثنايا النصوص. وقد اقترح فوكو طريقة بحث أركيولوجية(*) للكشف عن كيفية اتخاذ نص ما شكله الحالي (Prior, 1997). وتعتمد هذه التقنية الخاصة على تتبُّع خطوات عملية إنتاج النص وتداوله. ويُبين ستيوارت هول Stuart Hall (١٩٨١) أن الهيمنة إنما يتمُّ إعمالها بفعل النصوص الثقافية ومن خلالها. ويواصل هول عرض فكرته ليُبين أن النصوص الشعبية لديها هي الأخرى قدرة على "المعارضة"، وليبين كذلك أن الهيمنة يتمُّ مساءلتها، ومقاومتها، وتحديها داخل النصوص أيضا. فالنصوص لا تقتصر على تقديم صورة الواقع الاجتماعي، بل تُعد كذلك عنصرا فاعلا في تشكيل هذا الواقع (هول، ١٩٨١) أو تشكيل "ما فوق الواقع". ويؤكد بريور (١٩٩٧) أن بإمكاننا أن "تعرف العالم من خلال ما يتضمنه النص من نظمٍ تصورية" (ص٦٧).

ثمة اتجاها مماثلاً في الرؤية النقدية لعملية بناء المعرفة العلمية الاجتماعية، أسهم في التأثير على الطريقة التي يُفكر بها العلماء في موضوع الحقيقة الاجتماعية، ويتمثل هذا الاتجاه في تطور وظهور فكر ما بعد البنيوية. وقد كان جاك ديريدا Jacques Derrida (١٩٦٦) في موقع الصدارة من هذا التطور. وقد صك ديريدا مصطلح التفكيك، والذي يُعد طريقة للقيام بالنقد الداخلي للنصوص. وحاصل الأمر أن الاتجاه التفكيكي في تحليل النصوص يهدف إلى كشف ما هو مخفيٌّ أو مسكوت عنه داخل النص. (ولكنه، وبلغة جوردون "يسكن" النص). ويقوم التفكيك على فكرة أن معنى الكلمات إنما يظهر في العلاقة بين التماثل والاختلاف. ففي أي نص، يتم تأكيد بعض الأمور، كالحقيقة مثلاً، والمعنى، والتأليف/السلطة. ومع ذلك، فإنه يوجد على

(*) أي دراسة عمليات توليد المعرفة عبر مراحل تطورها (المراجع).

الدوام ثمة "شيء آخر" يتعارض مع ما هو مؤكَّد. وهذا الشيء "الآخر"– الذي تم إسقاطه أو إخفاؤه– يبدو (في الظاهر) غائباً عن النص، إلا أنه في الواقع موجود داخل طوايا هذا النص كمعنىً مختلف أو مؤجَّل. ومن خلال عملية التفكيك يتم الكشف عن هذه المعاني المختلفة والمؤجلة. وبهذا الشكل لا يكون هدف التفكيك مجرد العثور على "حقيقة" النص، بل الأصح تحديد الفروض والمسلمات الموجودة داخل هذا النص (كالمعنى، والحقيقة، والتأليف/السلطة) وتفترض لوسي إيريجارى Luce Irigary (١٩٨٥) أن التفكيك يمثل أحد وسائل "دفع الآلة الفكرية" (ص٧٨). وتبين هذه العملية – بصفةٍ أساسية – أن معنى أي نص لا يكون معنى واحدا أو محددا أبداً.

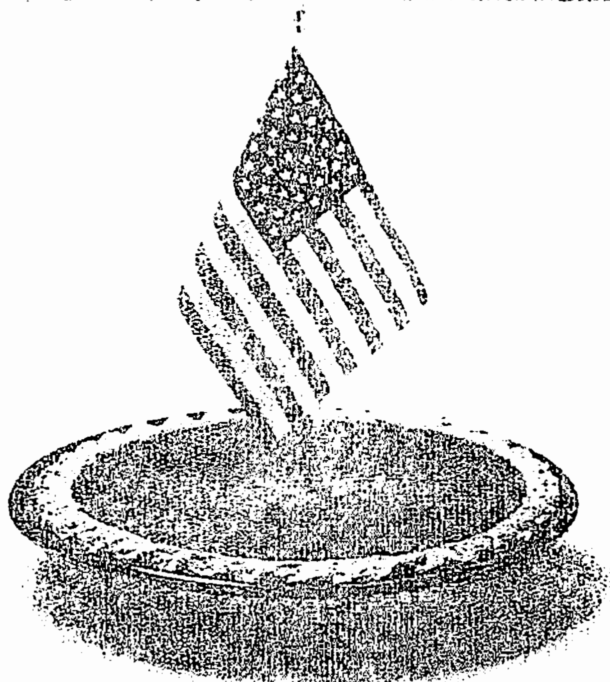
وإزاء النقد الما بعد الحداثي و المابعد البنيوي لبناء المعرفة، وهو النقد الذي أثر إيجابياً على نمو الدراسات الثقافية، نجد أن كثيراً من الباحثين الكيفيين الذين يستخدمون طريقة تحليل النص اليوم إنما يفعلون ذلك من أجل تقديم تحليلٍ نقديٍ للنص محل البحث (ينتقدُ صورة القوة). وقد سبق أن ناقشنا حالاً موضوع التفكيك، ونظرا لوجود اتجاهات أخرى كثيرة بإمكان الباحثين أن يأخذوا بها، فإننا سوف نناقش تحليل الخطاب و "القراءات السيميولوجية للنصوص.

ونتيجة لتأثر تحليل الخطاب بفلسفة ما بعد الحداثة وبالإثنوميثودولوجيا، وبعلم اللغة، أصبح يُعدُّ إستراتيجية يستخدمها الباحث المهتم بالكشف عن المعاني الاجتماعية الموجودة في ثنايا اللغة وفي أساليب الخطاب. وبتعبير آخر نقول: يهتم تحليل الخطاب بعملية التواصل. ويرى فوكو أن أنواع الخطاب هي الممارسات التي تتكون من الأفكار، والإيديولوجيات، والمدلولات referents (أي: الأشياء المشار إليها عبر الرموز) التي تُشكل – بصفة منتظمة – كلاً من الأشخاص والموضوعات المشار إليها في الحديث. ومن ثَم فإن أنواع الخطاب تُعدُّ مكونا من مكونات الواقع الاجتماعي. ويقوم كثير من الباحثين الكيفيين بتحليل الخطاب عند دراستهم للنصوص، قاصدين من ذلك الكشف عن الأفكار المخبوءة في طوايا اللغة المكتوبة. ويستطيع الباحثون أن يدرسوا كيف يتم إنتاج الخطاب السائد

وكيف يتم نشره، وما هي الموضوعات التي يستبعدها، وكيف يتم إخضاع بعض المعارف داخل هذا الخطاب، وما إلى ذلك. ويرتكز هذا النوع من البحوث إلى أصولٍ تتمثل في الفهم الما بعد الحداثي و الما بعد البنيوي الذي يذهب إلى أن اللغة تعكس القوة. زد على ذلك أن بنية المجتمع كامنة داخل ثنايا اللغة (والأشكال التعبيرية). ويستطيع الباحث الكيفي الذي يقوم بإجراء تحليل الخطاب الوارد في النصوص أن يتبع "النموذج الحلزوني" لبناء المعرفة فيغوص في أعماق النص ويخرج منه قاصداً من ذلك اكتساب فهم أعمق للإيديولوجيا المطوية داخل النص ولكيفية استخدام اللغة في خلق المعاني الاجتماعية.

وتُعد القراءات السيميولوجية للنصوص اتجاهاً آخر في التحليل. يذهب رولان بارت Roland Barthes(١٩٩٨) إلى أن التحليلات السيميولوجية لأشكال التعبير تعد جُزءًا لابدَّ منه للبحث الاجتماعي. ذلك أن التحليلات السيميولوجية تدرس طريقة بناء المعنى من خلال عملية تحليل الدلالة أو التعبير الضمني. وقد ابتكر بارت نظاماً ثلاثيّ الأجزاء للوصف التفصيلي للطريقة التي بها يتم تحويل الناس، والأماكن، والأزمنة، والأحداث (وهي الأشياء المدلول عليها the signified) إلى دوال Signifiers (وهي المفاهيم) التي يتمُّ غرسها –حينئذٍ– داخل حشدٍ من العلامات (أي التعبيرات) (هس–بيبر، وليفي، ٢٠٠٤). وتُعد هذه العمليةُ الثلاثية الأجزاء – من وجهة نظر المفكر السيميولوجي– هي الطريقة التي بها تُصبح الممارسات التأويلية ذات الطابع الثقافي ممارسات طبيعية، أي تتخذُ مظهر الحقيقة عندما يتم تشكيلها في الواقع تشكيلاً اجتماعياً مطابقاً لمعايير المجتمع وقيمه.

إن بإمكان الباحثين أن يُحللوا العلامات أو التعبيرات المُنتجة داخل مجتمع معين بقصد تفكيك عمليات بناء المعنى التي خلقت هذه العلامات. وتجري هذه العملية، عموماً، في إطار البيئة الاجتماعية المحيطة التي تنتج النص و تتداوله. ونعني بهذا الكلام أن الباحثين – إلى جانب قيامهم بتحليل النصوص المعزولة عن سياقها– يستطيعون تحليل كيف يتم بناء المعنى داخل نص مُعين من خلال وضع الكلمات بجانب الكلمات الأخرى، أو وضع الصور



شكل ٨/٣

بجانب الصور الأخرى، أو وضع الصور والكلمات معاً. ذلك أن المعنى لا يتم بناؤه من عنصر واحد فقط من عناصر النص وحده، بل كذلك من خلال الطريقة التي تنتظم بها عناصر النص في علاقتها ببعضها (خالقةً بذلك مُختلف المضامين أو المعاني). وموجز القول أن التحليلات السيميولوجية للنصوص تركز على كشف العمليات الاجتماعية لصنع المعنى. وبإدخالنا في الاعتبار أن المفكرين المابعد الحداثيين يتصورون وجود "أزمة في التعبير" ناجمة عن التدفق المتلاحق للصور والنصوص في داخل الثقافة الشائعة؛ فإن هذا النوع من البحوث تزداد شعبيته باضطراد، وبالذات بين هؤلاء المهتمين بدراسات وسائل الاتصال. فهيّا بنا ننظر في مثال للتحليل السيميولوجي للنصوص.

لو أننا ابتكرنا قراءةً سيميولوجية لغلاف مجلة تايم Time الموجود على الصفحة السابقة، فما الذي يمكن أن يُصوره هذا الغلاف؟ دعنا نبدأ بالصورة: إنها صورة فطيرة قرع عسلي مغروزٌ فيها العَلم الأمريكي. فهذه الصورة مؤلَّفة من صورتين (الفطيرة والعَلَم) كما أنها تخلق معنى معينا يربط بين هاتين الصورتين من خلال وضعهما بهذا الوضع. فهاتان الصورتان هما العلامتان (أي: التعبيران) ولكن ما هو المدلول الذي يُستدل عليه من دمج هاتين الصورتين لإنشاء صورة واحدة؟ وما هي الدوال Signifiers (أي المفاهيم) المتضمنة في هذه العلامة (أي هذه الصورة)؟ أمَّا العلم الأمريكي فيتّضمن مفهوم الوطنية، وبذلك يُشار به إلى الوطنية داخل فطيرة القرع العسلي. ولكن هذا لا يعدو أن يكون مجرد جزءًا من القصة. ذلك أن الوصول إلى فهم كامل يُوجب علينا أن نُمعن النظر في هذه الصورة مُرتبطة بالكلمات. فقد كان العنوان الوارد تحت هذه الصورة يقول: "عيد الشكر سنة ٢٠٠١: في الأسبوع القادم سوف تقوم العائلات الأمريكية بإعداد موائدها، وعَدِّ النعم التي لديها، كما ستكتشف إلى أي مدى تغيرت حياتها، وإلى أي مدىً لم تتغير؟ من الواضح أن هذه الصورة، ومعها تلك الكلمات (المذكورة بالعنوان)، مقصود منها إثارة المشاعر الوطنية في أول عيد شكر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فالكلمات والصور تعمل معاً لتخلُق معنى معينا- هو المدلول (الحادي عشر من سبتمبر) الذي يتم اختزاله داخل الدال (وهو هنا مفهوم الوطنية) الذي يتم تقديمُهُ في هذه الصورة التعبيرية (وهي صورة العلم المغروز في فطيرة القرع العسلي). ويرفض أحد الاتجاهات السيميولوجية في تحليل المضمون فكرة المعنى الطبيعي مُفضلاً على ذلك القيام باختبار كيف يتم بناء المعنى على أساس ثقافي. فإذا أخذنا نفس صورة العلم الأمريكي المغروز في فطيرة القرع العسلي، ونتصور أن هذه الصورة تم عملها سنة ١٩٩١، أي قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بعشر سنوات. ماذا لو أن نفس هذه الصورة كان مكتوباً بجانبها الكلمات التالية؟: "الناشط الأمريكي الوطني البارز يتساءل عن المعنى الحقيقي لعيد الشكر".

أما بالنسبة لتصورنا الافتراضي فيكون لنفس الصورة معنى مختلف، فقد رُكِّبت وعُرِضت لكي تحمل هذا المعنى المختلف. فبدلاً من أن تثير الشعور بالوطنية الطاغية في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، تهدف هذه الصورة المفترضة إلى استدعاء التأمل العميق في موضوع: كيف تأسست الولايات المتحدة، وفي موضوع الإبادة الجماعية (للهنود الحمر- المترجم)، وفي تساؤلٍ أكثر رقة وحساسية عن الوطنية.

يعمل ليندساي بريور أستاذاً لعلم الاجتماع بجامعة ويلز، في كارديف، وهو مؤلف لكُتُب متعددة، منها كتاب بعنوان "**استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي: إنتاجها، واستخدامها، وتداولها**". وقد كتب بريور كتابات مستفيضة عما يعنيه استعمال تحليل المضمون، وعما تعنيه دراسة الأشكال غير الحية للبيانات، وعن الركائز النظرية لمثل هذه الدراسة. وهو يعالج هذه القضايا في الفقرة التالية الخاصة بما خلف الكواليس.

خلف الكواليس مع ليندساي بريور

كُنتُ ولا أزال مفتوناً بالأساليب التي يتمُّ بها ترتيب الفراغات الموجودة داخل المباني، وهو ما يفسر سبب أنني أُدرج – دائما – تصميمات المستشفيات أو المشارح (جمع مشرحة – المترجم) وغير ذلك في دراساتي (بريور ١٩٨٩، ١٩٩٣). فالعناصر التي تتكون منها مقدمة المسرح وكواليسه، والمداخل والمخارج، والمناطق التي يُمكن للنساء فقط دخولها أو يُمكن للرجال تركها، والحُجُرات التي تُعدُّ للأطفال وتحدد أين يُمكنهم، أولا يمكنهم، أن يتعلموا أو يلعبوا أو يناموا.. كل هذه الأمور لها أهميتها القصوى. لذلك، فإنَّ دراسة ترتيب الفراغ المادي الذي فيه يعيش الناس ويعملون يُعد عندي أمراً أولياً هاماً يسبق أي دراسة إثنوجرافية، كما أنني أجد – على الدوام – أن مما يستحق الاهتمام أن أجد التصميم المعماري للمواقع الرئيسية التي يتقرر أن يتمَّ فيها مثل هذا العمل الإثنوجرافي. ويحدث هذا حتى على الرغم من أن المبنى سيُستعمل بطرق لم تخطر ببال من قاموا ببنائه وتشييده. والحق أن وجوه التشابه ووجوه الاختلاف التي يُمكن ملاحظتها بين طرق استخدام

موقع معين ومقاصد مُصمم هذا الموقع يمكنها في أغلب الأحيان أن تسلط الضوء على التغيرات الأساسية في رؤية الناس للأشياء عبر الزمن. فتصميمات المستشفيات – مثلا – تبين على وجه التأكيد أبرز التغيرات التي طرأت على مفهوم "المرض" والاعتلال على امتداد العقود. كذلك يمكن ملاحظة مثل هذه التغيرات في أدق التفاصيل، كتحديد مواضع النوافذ في جناح بأحد المستشفيات.

رغم أن الناس يفكرون من خلال الأشياء كما يفكرون من خلال الكلمات، فإن من الأهمية كذلك أن نلاحظ أن الناس يرتبون الأشياء عن طريق استعمال الكلمات وكذلك عن طريق استخدام مقولتي الزمان والمكان، وهو الأمر الذي يُفضي بنا إلى مصدر ضخم آخر من مصادر البيانات العلمية الاجتماعية: ألا وهو الوثائق. وإني لأجد على الدوام أن من الأمور المُحيرة لماذا يعمد الناس عادة –عندما يكونون بصدد إجراء بحث علمي اجتماعي– إلى استبعاد دراسة الوثائق، مفضلين عليها المقابلات الشخصية. ولعل لهذا الوضع صلة بقدامى علماء الأنثروبولوجيا الذين عملوا في مجتمعات كانت الوثائق المكتوبة فيها أمراً مُهملاً أو غير موجود. أنا لا أدري بالضبط. ومع ذلك، فإنه يكاد أن تتضمن كل دراسة للعالم الاجتماعي المعاصر وثائق من نوع ما. وفي البحوث التي أجريتها كانت الوثائق التي تهمّني أكثر من غيرها تتمثل في تلك المذكرات والتوصيفات التي يكتبها الأخصائيون الصحيون (أعضاء الفريق الطبي) عن الأفراد الذين يقومون برعايتهم. وأعني بذلك الأمور التي يكتب عنها الأطباء والممرضون عندما يلتقون "بالمرضى"، بمن فيهم أولئك المرضى الذين فارقوا الحياة. فكيف يشرح الأطباء الموت – مثلاً – بعبارات رسمية؟ إننا نعلم أنهم يكتبون ذلك على شهادة الوفاة، ولكن كيف يعرفون ماذا يكتبون في تلك الشهادة؟ وما هو نوع الأمور التي لا يمكنهم أن يكتبوها في تلك الشهادة؟ وعادة ما تؤدي أمثال تلك الأسئلة بالمرء إلى دراسة الأنواع الأخرى من الوثائق وهي الوثائق التوليدية، والتي منها على سبيل

المثال قوائم تصنيف الأمراض(*). وتعد مثل هذه القوائم وغيرها من التصنيفات "الشاملة" ذات قيمة لا تُقدَّرُ لأهميتها، وذلك لعدة أسباب:

وأول هذه الأسباب أنها تتغيرِ على فترات مُنتظمة، وبذلك يمكن للمرء أن يَتتبع التفكير الجاري فعلاً. مثال ذلك أن "الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية" –وهو نشرة تصدرها الجمعية الأمريكية للطب العقلي– يُوثّق طرق التفكير في الاضطرابات العقلية منذ سنة ١٩٥٢ وحتى يومنا هذا.

ثانيا: تشكل هذه الوثائق الشاملة الإطار الذي في نطاقه يتصرف الأفراد سواء في الشارع أو في المراكز الصحية. فإذا كان أحد الأمراض العقلية غير مذكورٍ في هذا الدليل فلا يمكن – في هذه الحالة – تشخيصُهُ، ولا يمكن إعطاؤه شهادة طبية، ولا يمكن علاجُه. فالأمراض العقلية تدرج ضمن هذا الدليل وترفع منه، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج تثير الاهتمام. وبنفس الطريقة توجدُ قائمة دولية (أي تصنيف دولي) للأمراض والحالات التي يمكن أن يموت الناس بسببها. فإذا كانت إحدى الحالات المرضية غير مدرجة في هذه القائمة، فإن الناسِ – في هذه الحالة – لا يمكن أن يعتبروا قد ماتوا بسببها. ولعلك ستكون سعيداً أن تسمع أن الكِبَر في السن والفقر غير مدرجين في هذه القائمة.

إذن، فالقضية التي تشغلُني هي: كيف يقوم الأفراد بعرض وترتيب أحوال العالم الذي يعيشون فيه في الوثائق، وكيف تستعمل هذه الوثائق، تبعاً لذلك، في التفاعل الاجتماعي. لذلك أجد نفسي تواقاً بصفة خاصة لملاحظة طريقة الأفراد في استخدام وفهمِ **القواعد** التي تتضمنها هذه الوثائقَ (بريور، ١٩٨٩). وكما سبق لي أن بينت فيٍ مكانٍ آخر (بريور، ٢٠٠٣)، فإن فكرة استخدام الوثائق وتداولها يُمكن أن تشكل موضوعاً أساسياً متكاملاً/أي محوراً

(*) هناك أدلة وقوائم عديدة لتصنيف الأمراض، منها ما هو ذو طابع عام، ومنها المحدود بحدود مجال أو نوع معين من الأمراض. من ذلك الدليل التشخيصى والإحصائى للأمراض العقلية DSMIII، الذى أصدره الاتحاد الأمريكى للطب النفسى عام ١٩٨٠، وقد تم تنقيح هذه النسخة مجدداً فى عام ١٩٨٥. كان الدليل الأصلى قد ظهل لأول مرة فى عام ١٩٥٢، ثم صدرت نسخة منقحة منه فى عام ١٩٦٨. ويحدد هذا الدليل التشخيصى معايير محددة لكل مرض بهدف تمكين الطبيب من التشخيص الدقيق لما يعرض له من حالات. راجع موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد ٢، ص ٧٢٢. (المراجع)

فكرياً كاملاً للبحث في حد ذاته. مع العلم بأن مثل هذا البحث يمكن أن يتم كله بدون اللجوء إلى إجراء مقابلة واحدة. ومع ذلك، وحتى لو كان المرء موجوداً في صميم التفاعل البشرى تماماً، فلا يوجد ثمة داع يلزم الباحث بالقيام بإجراءات تدخلية من قبيل إلقاء الأسئلة على المبحوثين. وبدلا من ذلك، يستطيع المرء –غالباً– أن يحصُل على بغيته من التسجيل المُحكم لهذه البيانات التي تتم بصورة طبيعية في ثنايا الأنشطة الروتينية، وذلك على نحو ما يحدث مثلا في الدراسات الخاصة بعملية اتخاذ القرار في مجال الصحة (Wood, Prior& Gray, 2003).

في بلفاست، وهي المدينة التي أجريت فيها جانبا كبيرا من دراستي للوفاة والأمراض العقلية، كانت توجد عبارة شاع استعمالها أثناء سنوات السبعينيات والثمانينيات، ألا وهي: "قل ما شئت، ولكن لا تقل شيئاً(*). فهذه النصيحة بألا يقول المرء شيئاً هي نصيحة بالتزام الحذر فلا يكشف عن تفاصيل أموره. وهي نصيحة بألا يكشف المرء الكثير عن هويته، أو عن آرائه في الأمور السياسية أو الدينية، أو يجْهر برأيه في أي شيء مُطلقاً مما قد تبتلعُهُ تلك الدوامة الناجمة عن الصراع الطائفي (بين الكاثوليك والبروتستانت) الذي كان يشكل خلفية الحياة اليومية في هذه المدينة. ويمكن القول – في سياق هذا الكتاب– إن هذا الحرص الشديد على ألا يقول المرء شيئاً، إنما هو تذكرة للباحث الاجتماعي بأن طرح الأسئلة على الأفراد قد لا يأتي دائماً بإجابات – أو على الأقل، قد لا يأتي بإجابات صادقة موثوق فيها. والأهم من ذلك، أن طَرْحَ الأسئلة قد يكون تذكرة للباحث بأنه حتى لو ظل الناس مُصرين على ألا يقولوا شيئاً، فثمَّةَ عالمٌ بأكمله من البيانات المتوفرة في كل مكان حولنا، تنتظر أن يجمعها الباحث ذو البصيرة الحادة والقدرة على الملاحظة المنظمة.

المراجع

* بريور.ل.(١٩٨٩). "التنظيم الاجتماعي للوفاة. الحوار الطبي والممارسات الاجتماعية في بلفاست". لندن ونيويورك، دار نشر مكميلان وسانت مارتين.
* بريور. ل. (١٩٩٣). "التنظيم الاجتماعي للمرض العقلي". لندن: سيدج.

(*) Whatever you say say nothing!.

* بريور.ل(٢٠٠٣). "استخدام الوثائق فى البحوث الاجتماعية". لندن: سيدج.
* وود ,Wood، و بريور، و جراي .Gray.J(٢٠٠٣) اتخاذ القرارات في عيادة لعلاج سرطان الجهاز التناسلي، مقال في كتاب "المخاطر الصحية والمجتمع"، ٥(٢) ص١٨٥-١٩٨.

البحوث البصرية: الصُور الفوتوغرافية، والصور، والبحوث البصرية التفاعلية(*)

بإمكان الباحثين الكيفيين أن يستخدموا أشكال التعبير البصرية باعتبارها نقطة بدء البحث العلمي الاجتماعي. وقد سبق أن ناقشنا استخدام الصور التي تنشرها وسائل الاتصال، كأغلفة المجلات أو الإعلانات مثلاً، فإن وسائل الاتصال ليست إلا مصدراً واحداً للصور المرئية. فبجانب الصور التي تنتجها وسائل الاتصال، يستطيع الباحثون دراسة الصور الفوتوغرافية. وإذا أردنا مزيداً من التفصيل، فإن الباحث يستطيع استخدام الصور الفوتوغرافية المتاحة سلفا وكذلك تلك التي يتم تصويرها لتتناسب مع هدف البحث (حيث يلتقطها الباحث نفسه أو يلتقطها شخصٌ ما يستأجره الباحث). وفي هذا القسم من الكتاب سنناقش هذه الأشكال المختلفة من البحوث البصرية وكيف يتوجب على الباحث أن يفهم الصور في علاقتها بإطارها الإبستمولوجي (المعرفي) لكي يصوغ مشروعاً بحثياً متماسكاً بصورة كلية.

عند اشتغالك بالصور الفوتوغرافية وغيرها من الصور المرئية، يتعين عليك أن تُمعن النظر في كيفية فهم - بالمعنى الواسع لكلمة فهم- هذه الصور التي تشتغل بها. ويُبين بروسر Prosser وشوارتز Shwartz(١٩٩٨) أن من الممكن فهم الصور الفوتوغرافية بطريقتين مختلفتين: (١) "كتسجيلات أو سجلات بصرية"، و (٢) "كيوميات بصرية". وهذا التمييز أمر مهم، كما أنه يرتبط أوثق الارتباط بموقفك الإبستمولوجي. فإن اخترت أن تعتبر الصور الفوتوغرافية بمثابة تسجيلات أو سجلات بصرية فقد خلعت عليها معنىً من

(*) انظر حول الموضوع المرجع التالى: جان بول كولين وكاترين دو كلييل، السينما الإثنوجرافية. سينما الغد، ترجمة غراء مهنا، مراجعة وتقديم علياء شكرى، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢. (المراجع)

معاني السلطة. فهذا يشبه العبارة القائلة: "إن الصورة تساوي ألف كلمة". فالتسجيل – بمعنى آخر– إنما هو تعبير عن جانبٍ معين من جوانب الواقع الاجتماعي .. فهو جانب من الواقع الاجتماعي تم الإمساك به وفهمه. وإن قررت أن تفهم الصور الفوتوغرافية على أنها يوميات بصرية، فأنت تعني ضمناً أن التصوير الفوتوغرافي عبارة عن وسيط أو أداة يستخدمها الفاعلون المرتبطون بهذه الصور، أولئك الذين **التقطوها** وأولئك الذين **يرونها** انطلاقاً من منظورات فكرية معينة. وفي إطار هذا الفهم يستخدم الباحث الصور الفوتوغرافية على نحو أشبه بالمذكرات التي يدونها في الميدان على عجل، والتي تنطبع بطابعِ الموقف الفكري للباحث داخل المشروع البحثي.

وليس حتماً أن يكون أيٌّ من هذين الاتجاهين اتجاها صائباً أو حتى اتجاهاً أفضل من غيره، بل يُضاف إلى ذلك أنهما سيتأثران بالالتزامات المعرفية والنظرية للباحث. شاهد ذلك، أن باحثاً يعمل انطلاقاً من إطار فكري متأثر بفلسفة ما بعد الوضعية ويدرس الصور التي نُشرت عن الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر قد يعتبر تلك الصور الفوتوغرافية بمثابة تسجيلات بصرية التقطت من أجل ذلك المشروع البحثى المعين. وهو بهذا الصنيع، يكون قادراً على أن يفهم هذه الصور بوصفها سجلات مادية لواحدٍ من أشد الأيام ظلمة في تاريخ العالم. ويمكن أن تُستعمل هذه الصور الفوتوغرافية "كأدوات لإنعاش الذاكرة". في ظل هذا الإطار الفكري المابعد الوضعي (هس–بيبر، وليفي، ٢٠٠٤، ص٣١٢). وكما هو معهود، فإن الباحثين الذين يعملون انطلاقاً من المنظورات الفكرية النقدية، كالفلسفة النسوية وفلسفة ما بعد الحداثة، يكون من الأرجح أن يَنظروا إلى هذه الصور الفوتوغرافية باعتبارها يوميات بصرية متأثرة برؤيتهم عن صنعها وعن سياق الرؤية.

مثال ذلك، أن باحثاً آخذاً بفلسفة ما بعد الحداثة ومُهتما بدراسة كيف تمَّ بناء المعاني المتصلة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر في الصحف الأمريكية قد يَنظر إلى الصور المنشورة في الصحف بوصفها يوميات بصرية. وفي هذه الحالة، يكون من شأن هذا الباحث أن يتعمق في بحث القوة

الاجتماعية المطوية داخل هذه الصور الفوتوغرافية، والدلالات التي تتكون من خلال وضع الصور الفوتوغرافية في أماكن معينة في كل صفحة على حدة وفي الصحيفة ككل، وذلك من خلال وجهة نظر الباحث نفسه وهو ينظر إلى هذه الصور الفوتوغرافية. ومن خلال موضَعَة هذه الصور بهذه الطرق، يستطيع الباحث أن يبدأ في إماطة اللثام عن الأفكار المتعلقة بكيفية تكوين الحادي عشر من سبتمبر، وكيفية بثها، وكيفية استهلاكها بطرق خلّقت ذاكرة جمعية أساسية لهذا الحدث المهم.

وبدلاً من استخدام الصور الفوتوغرافية المتوفرة سلفا، يستطيع الباحثون كذلك أن يقوموا بدور المصور الفوتوغرافي ويلتقطوا صوراً فوتوغرافية تقوم بعد ذلك بدور البيانات. وقد يقوم الباحثون المهتمون بدراسة التغيُّر الاجتماعي بعمل المصورين الفوتوغرافيين من أجل توثيق صور الأشكال المختلفة للتغير الاجتماعي ثم تفسيرها بعد ذلك. وقد يحدث ذلك، مثلاً، لدراسة التغيرات المصاحبة لعملية تحضر منطقة معينة، أو لدراسة مدى تأثير التغير الاجتماعي والاقتصادي على إحدى البيئات السكنية، أو أحد المراكز الثقافية، أو على أحد مواقع العمل.

إذا كُنتَ مهتما بمعرفة أو الكشف عن الطبيعة الدقيقة للتغير، ففي هذه الحالة يُمكن للصور الفوتوغرافية المُلتقطة على امتداد فترات زمنية منتظمة من نفس المكان بالتحديد؛ يمكنها أن تكون صُوراً كاشفة ودالة. فالتغيرات التي تحدُث في الأحياء الأحياء السكنية الحضرية، أو في تنسيق الموقع الطبيعي، أو في مُحتويات مكانٍ ما، كحالة إحدى الأشجار، أو حالة أحد الحوائط، أو حالة جسم إنسان ما "قبل" و "بعد" أحد التغيرات المهمة، يمكن أن تكون لها قوة وقيمة الشواهد أو قدرة على الإقناع بشرط أن يتم إثبات وقوعها أو الاستشهاد بها بأسلوبٍ ملائم، أو عندما يتم تدوينها بالتفصيل في ضوء اعتبارات الزمان والمكان والملابسات. (Loizos, 2000, p. 96).

كذلك يمكن إجراء البحث التاريخي عن طريق الجمع بين الصور الفوتوغرافية الموجودة سلفا والصور التي التقطها الباحث بقصد توثيق وتحليل التغيُّر.

ويُصبح التأمل النقدي (الانعكاسية) أمراً لابد منـه عنـد الاسـتعمال التقليدي لطريقة بحث غير تدخلية على النحو المذكور هنا. أولاً، لأن هذه حالة نادرة من الحالات التي يكون البحث فيها تدخليا ولكنه يكـون تفاعليـا. إذ أن الباحث يؤثر على الواقع الاجتماعي بحضوره وبالتقاطه للصور الفوتوغرافية. وبالإضافة إلى ما يطرأ على البحث البصري من تحوله من بحث لا تفـاعلي إلى بحث تفاعلي، فإن هذه البيانات يتم إنتاجها مباشرة، انطلاقاً مـن الموقـع المتميز الذي يحتله الباحث. وهنـا تأمـل جيـداً قـول بـول بـاير Paul Byer(١٩٦٤) الذي يؤكد فيه أن "الكاميرات لا تلتقط الصور [إنما البشر هـم الذين يفعلون ذلك]. على أن هذا القول لا يصدق إلا عندما يكون الباحث هـو الشخص الذي يلتقط هذه الصور. وهكذا تصبح ممارسة التأمل النقدي، والذي يعني التعمق في البحث مع كشف الباحث لموقعه داخل هذه العمليـة؛ تـصبح أمرا ذا أهمية حاسمة.

دعنا نعُد إلى المثال الخاص بالصور الفوتوغرافية لأحـداث الحـادي عشر من سبتمبر. ولنفترض أنك تريد أن تدرس عملية اسـتعادة أحـداث ١١ سبتمبر بعد وقوعها مباشرة و/أو عملية البحث عن الناجين. فإن إحدى طـرق القيام بهذا العمل أن تذهب إلى موقع مركز التجارة العالمي وإلى موقع مبنـى البنتاجون وتلتقط لهما صورا فوتوغرافية، والتي تكون في هذه الحالة بمثابـة البيانات التي ستعتمد عليها. بل إنه قد يصل بك الأمر إلى أن تعتبر ما التقطته من الصور الفوتوغرافية بمثابة مذكرات ميدانية بصرية. وتوجد طرق أخرى لاستخدام تحليل المضمون بأساليب تفاعليـة، ومنهـا مـثلا طريقـة تحليـل المضمون باستخدام الكومبيوتر، وهي الطريقة التي سنناقشها في قسم لاحـق بهذا الفصل. أما الآن، فهيا بنا نرجع إلى دراسة الصور المرئية بالفعل.

يستطيع الباحثون كذلك أن يجمعوا بين الأساليب الكيفيـة والأسـاليب الكمية في التحليل البصري بقصد استجلاء بعض القضايا الاجتماعية، من قبيل قضية "التفاوت" في العرض. ويمكن القيام بهذا العمل عـن طريـق تطبيـق طائفة من الرؤى النظرية وإتاحة الفرصة لكثير من الاتجاهات المنهجية.

وقد كان بدرسون Pederson (٢٠٠٢) مهتمـاً بالتغطيـة الـصحفية المصورة للأبطال الرياضيين والبطلات الرياضيات من طلبة الجامعات. وكان بدرسون، وهو يفهم وسائل الاتصال الجماهيري والرياضة بوصفهما اثنتين من

"أبرز النظم الاجتماعية وأشدها هيمنة" (٣٠٤)؛ كان بدرسون يريد أن يقارن تغطية الصحافة للألعاب الرياضية الرجالية والنسائية للتعرف على مدَى إظهار الذكورية المهيمنة في التغطية الصحافية للألعاب الرياضية. وقد درس بدرسون ٨٢٧ صورة فوتوغرافية أُخذَتْ من ٦٠٢ صحيفة اختيرت عشوائياً، كما فحص مقدار ونمط الصور الفوتوغرافية المُقدَّمة لتغطية أخبار الأبطال والبطلات الرياضيين. واستعملَت هذه الدراسة نوعاً من التحليل الوصفي لهذه الصور الفوتوغرافية من أجل التأكُّد من بعض المعلومات، والتي منها مثلا: ما إذا كانت هذه الصور الفوتوغرافية تمثل لقطاتٍ ساكنة (للأبطال بعيداً عن الملاعب) أم لقطاتٍ حركية (أثناء اللعب)، وهو الأمر الشديد الأهمية في دراسة النوع الاجتماعي و أسلوب العرض في وسائل الاتصال. وقد انتهى بدرسون إلى اكتشاف وجود تفاوت وعدم مساواة في التغطية الصحفية للألعاب الرياضية وفقا لبعد النوع الاجتماعي، كما يذهب إلى أن التغطية بالصور الفوتوغرافية تُعيد تأكيد الذكورية المهيمنة. وهكذا أتاح استعمال طرق البحث غير التدخلية لبدرسون أن يطرح سؤالاً علميا اجتماعيا وأن يُجيب عليه، وهو السؤال المتعلق بعدم المساواة الاجتماعية، وهو الأمر الذي ما كان يمكن الوصول إليه دون استخدام هذه الطرق.

فهذا مثال واضح لكيفية استعمال الصورِ المنشورة في وسائل الاتصال الجماهيري كمنطلق للبحث. إلا أنه بمجرد أن تقرر ما الذي تريد دراسته وما هي البيانات التي سوف تستخدمها، يُصبح تصميم البحث أمراً حاسماً لتنفيذ الدراسات البصرية. وتتركز القضية الأساسية – فيما يتعلق بتصميم البحث – على عملية التحليل. فلنفترض أنك قررت دراسة الصور التي تنقلها وسائل الاتصال الجماهيري للجمال الأنثوي، وأنك اخترت عينة من مجلات الأزياء/أو مجلات الموضة. فما هي وحدة التحليل في بحثك؟ جرت العادة أن تكون الصور والإعلانات الفردية هي وحدة التحليل الخاصة بهذا البحث. ولكن كيف سيتم تصنيف هذه البيانات البصرية؟ توجد استراتيجيات كثيرة يستطيع الباحثون الكيفيون استعمالها في تصنيف البيانات البصرية. فكما رأينا في مثال بدرسون كانت فئات التصنيف التي يمكن استخدامها هي "اللقطات الساكنة"، و"اللقطات الحركية". وبالمثل، يستطيع الباحثون وضع فئات لتصنيف الصفات المتعلقة بالنوع الاجتماعي، والعرق، وغيرها من الخصائص الاجتماعية.

ويمكن إجراء هذه العملية انطلاقاً من اتجاه يأخُذُ بمفاهيم النظرية الموثقة، التي فيها تنبثق فئات التصنيف من باطن التحليل، أو - بدلاً من ذلك - يمكن استعمال فئات التصنيف المستقرة في ذهن الباحث سلفا.

ونقدم فيما يلي تمرينا يهدف إلى إطلاعك على عملية إجراء تحليل مضمون بصرى، وذلك على الرغم من أن بالإمكان كذلك تحويره ليناسب تحليل المضمون السمعي البصري. كما يمكن تعديل هذا التمرين ليتناسب مع مجموعات معينة من المهارات، أو يمكن تكييفه بحيث يكون جزءا من خطة بحث استطلاعي أو تمهيدي.

تمرين على تصنيف الإعلانات

نقترح العمل في هذا التمرين في فرق، كل فرقة من شخصين، لإضافة بُعد الثبات لعملية البحث. وليقم كل فردين بتصنيف ١٠ إعلانات (حيث يمكنّ استخدام أي عدد من استراتيجيات اختيار العينات). وينبغي على كلا الباحثين أن يتفقا على الشخصية أو الشخصيات الأساسية في الإعلان، ثم يقوم كل واحد منهما، مُستقلاً عن الآخر، بتصنيف الخصائص التالية: نوع (ذكر أو أنثى) الشخصية أو الشخصيات الأساسية، وأساس المصداقية، والموقع/ أو المكان، وفئة المُنتَج، والآراء المطروحة لصالح هذا المُنتَج. وفيما يلي تفصيلات فئات التصنيف المنقولة بتصرف عن ماك آرثر McArthur ورسكو Resko (١٩٧٥). وهذا التمرين يمكن تحويره وتنفيذه بمعرفة مجموعات أو بواسطة أفراد.

- **الشخصية الأساسية**: يقصد بالشخصيات الأساسية الأفراد الذين يقومون بدور رئيسي في الإعلان، كما يتضح من عَرضها في صورة بَصَرية بارزة. فإن وُجد في الإعلان أكثر من شخصين من البالغين فاختر منهم من يبدون محوريين بالنسبة للإعلان (حيث تنجذب إليه عَيْنُ الناظر). فإن لم يكن واضحاً من هما الشخصان الأشدّ محورية، يمكنك أن تنتقي شخصيات أساسية من كلا الجنسين أو من المجموعة العرقية المُمثلة. فإن لم يكن موجوداً سوَى شخصيتين فقط من البالغين، فإنه ينبغي إدراج كليهما ضمن إحدى فئاتَ التصنيف.
- **أساس المصداقية**: عند تحديد منٍ تكون الشخصية الأساسية يتعين عليك أن تتدبر الطريقة التي يجب أن تبرر بها قرارك هذا. وعادة ما يندرج أساس مصداقية الشخصية الأساسية تحت ثلاث فئات كبرى: (١) مُستخدم المُنتَج، و(٢) الحُجَّة، و(٣) الآخر. وتكون الشخصية الأساسية مستخدِمة

للمُنتَج إذا كان قد تَمَّ تصويرها باعتبارها المستخدم الأساسي للمنتج أو للخدمة المُعلِن عنها. وتكون الشخصية الأساسية حُجَّةً عندما يتمُّ وصفها باعتبار أن لَديْها المعلومات المتعلقة بالمنتج المُعلَنْ عنه. وتكون الشخصية الأساسية فرداً آخر إذا كان قد جرى إقناعُها من قبَل شخصية محورية أخرى لكي تستخدم هذا المنتج. مَعنى ذلك، عندما يتم تقديم الشخصية الأساسية كزبون محتمل.

- **الدور**: ينبغي تصنيف الشخصيات الأساسية تبعاً للأدوار الرئيسية التي تُقدم فيها، كدور المدرس، أو العامل، أو أحد الوالدين، أو أحد الزوجين، أو الطفل، أو ما إلى ذلك.
- **الموقع/أو المكان**: ينبغي تصنيف الشخصيات الأساسية وفقاً للمكان الذي توجد فيه، كالمنزل، أو مقر العمل، أو الدُكان، أو في الهواء الطلق، أو في مكانٍ لقضاء العُطلات، أو المدرسة، أو في حفلة موسيقية، إلى آخره.
- **نمط المُنتج**: ينبغي تصنيف المنتج ضمن الفئة التي تكون أنسب له وأقرب إليه (كأن تكون فئة منتجات التجميل، أو المُنتجات الغذائية، أو المنتجات المنزلية، أو منتجات وسائل النقل، أو المنتجات التكنولوجية، إلى آخره).
- **براهين الإقناع: (قد تكون بعض هذه البراهين أقرب صلة بالإعلانات السمعية البصرية، لذلك عليك أن تقوم بتكييفها وفقاً لذلك)**. ينبغي تصنيف البرهان المؤيد للمنتج. وقد يكون هذا البرهان المقدَّم مستندا إلى دليلٍ واقعي أو دليل علمي يهدف إلي حث المستهلكين على استخدام هذا المنتج لما فيه من فوائد "مُجرَّبة" أو مزايا يتفوق بها على غيره. كما قد يقوم البرهان على آراء تتكون من شهادات شخصية تحُث المستهلكين على استخدام هذا المنتج. وفي بعض الحالات قد لا توجد أي براهين لتأييد المُنتج، كما أن الإعلان لا يُقدم أي دعاوَىَ تؤكد صدقه فيما يتصل بجودة المُنتج. وفي هذه الحالة تقتصر الشخصية الأساسية في الإعلان على عرض هذا المُنتج أو خلْق جَوٍّ حَولَهُ.

القلب يدق ٧٢ مرة فى الدقيقة

أي: ١٠٠,٠٠٠ مرة في اليوم

أي: ٣٥ مليون مرة فى السنة

Kashi

Heart to Heart

من القلب إلى القلب

إن خفقان قلبك لهو معجزة دائمة. وهذا هو السبب الذي جعلنا نصنع "من القلب للقلب" الذي يحتوي على عناصر مفيدة لصحة القلب أكثر مما هو موجود في أي طعام مكون من الحبوب. يحتوي على المزيد من الفوائد للشرايين السليمة، والمزيد مما يقي من ارتفاع الضغط، ومما يخفض الكولستيرول. إن كل ملعقة من هذا الطعام المحمص المكون من دقيق الشوفان والمحلي بالعسل موجودة هنا لتقول: إن الحياة جميلة.

المزيد من أجل قلبك

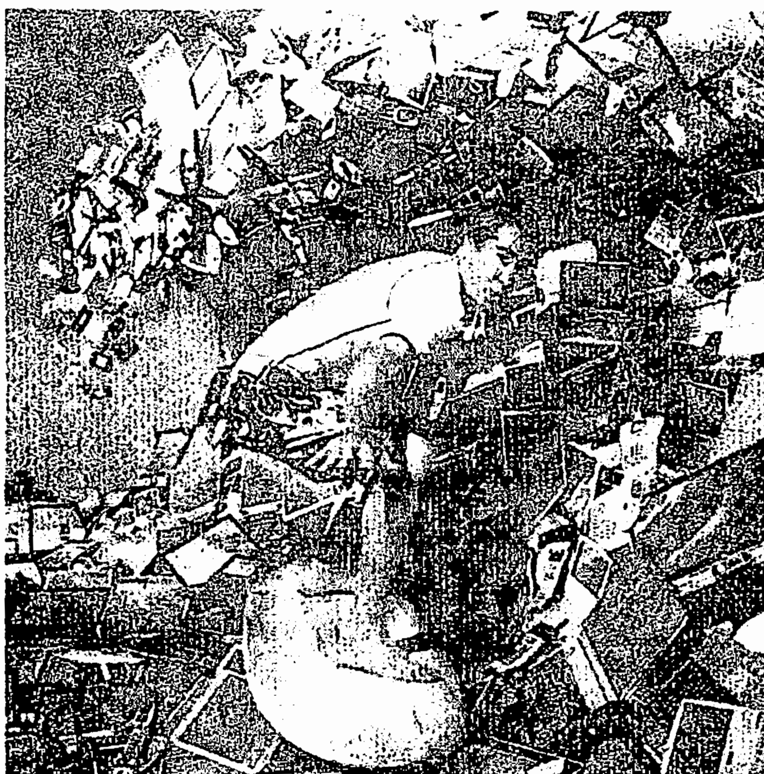
شكل (٨/٤)

وبدلاً من التمرين المذكور أعلاه والذي يتسم بمزيدٍ من التعمق، حاول أن تحلل إعلانات المجلات التالية، والتي أُخذت من مجموعةٍ مـــن المجـــلات

المُوَجَّهة إلى مجموعات سُكانية مختلفة. حاول تحليلهـا مستخدماً التمرين المذكور أعلاه. ثم قم بمحاولة تحليلها انطلاقاً من منظورات فكرية مختلفة. جَرب تطبيق اتجاه تفكيكي، ثم قم بقراءة هذه النصوص إنطلاقاً من منظور فكري سيميولوجي لتعرف: ما هي الدلالات التي يعمل هذا الأسلوب في العرض على خلقها عن طريق غرس المفاهيم المستخلصة (كالجَمال مثلاً) في هذه العلامات؟ وكيف يقوم المفكر النسوي بتأويل هذه الإعلانات؟ وهل يؤدي استعمالك "لعدسات" مختلفة إلى رؤية هذه الإعلانات وفهمها على نحو مختلف؟



شكل (٨/٥)



شكل (٦/٨)

التحليل السمعي البصري:
العمل مع "الميادين المُركّبة"

هناك" كثير من الباحثين من مختلف التخصصات الذين يستخدمون المادة السمعية البصرية باعتبارها البيانات التي يعالجونها. فإن كان الباحث مهتما بدراسة السينما أو التليفزيون فإنه يستطيع أن يقوم بتحليل مضمون للمادة السمعية البصرية. ورغم أن البيانات السمعية البصرية يمكن بحثها كما تُبحث غيرها من الأشكال السرْدية، فإنها تمثل شكلاً فريدا، ولهذا السبب فإنه يتعين إعمال مجموعة معينة من الاعتبارات. فما يجعل البيانات السمعية البصرية متميزة عن أنواع النصوص التي سبق أن ناقشناها هو أنها تتكون من **عناصر مركبة**، تشمل عناصر بصرية، وعناصر صوتية، وأخرى حوارية. ويشير "روز" Rose(٢٠٠٠) إلى المادة السمعية البصرية باعتبارها "ميداناً

مُركباً" بسبب تميُّز مكوناتها، وإن كانت مكونات مترابطة. زدْ على ذلـك أن هذه البيانات متحركة.

وعند تصميم البحث باستعمال البيانـات الـسمعية البـصرية تظهـر اعتبارات معينة. فالقضايا المتصلة باختيار العينات تكون متسقة (أي تجـري على نفس المنوال) عند القيام بتحليلِ مضمونٍ باستعمال أي نوع من المـادة. فهناك بعض الأمور التي يتعين أخذها في الاعتبار، مثل المجال الذي تختـار منه العينات، ومقدار العينات المختارة، ومَدَى عشوائية اختيار العينات. مثـال ذلك، لنفترض أننا مهتمون بالتغطية الإخبارية التليفزيونية للهجمات الإرهابيـة في الحادي عشر من سبتمبر. هنـا يتعـين علينـا أن نقـرر أيَّ الـشبكات التليفزيونية التي سوف نختار منها العينات. ثم علينا أن نقرر ما الذي سـوف نختاره كعينات. وقد نستعمل أسلوب التغطية الشاملة للمادة التي أذيعت خـلال إطار زمني معين، كأسبوعين مَثَلاً. أو يمكننا استعمال التغطية للمـادة التـي أذيعت خلال ساعات مُحَدَّدة من اليوم على امتداد عددٍ مُختـارٍ مـنَ الأيـام. ويمكننا كذلك أن نختار برامج إخبارية معينة، تكون هي بياناتنا التـي نعتمـد عليها في دراستنا. وفيما عدا قضايا اختيار العينات، قد يتوجب علينا أن نقرر ما هي وحدة التحليل وماذا سيكون الأسلوب المتبع في تصنيف المادة. ذلك أن عملية التصنيف تُعد واحدةً من أهم القرارات عند استخدام البيانات المتحركة.

وكما سلفت الإشارة في الفصلين الأول والثاني يعمد البـاحثون فـي إطار عملية تصميم البحث إلى صياغة سؤال للبحث، وهو السؤال الذي يكون مرتبطاً بهدف البحث. وفي حالة تحليل المضمون للمادة الـسمعية البـصرية، يقوم الباحثون كذلك بصياغة تعريفٍ لنوع التعبير الذي يريدون دراسته. وبعد صياغتهم لتعريف إجرائي، يتوجب على الباحثين أن يقرروا وحـدة التحليـل وخطة التصنيف، وهي الأمور التي تتسم بقدر من التعقيد بسبب ما تتسمُ بـهِ البيانات السمعية البصرية من طبيعة مركبة متعددة الأبعاد. فهيا بنا نتأمل أحد الأمثلة.

كـان راماسـوبرامانيان Ramasubramanian و أوليفـر Oliver (٢٠٠٣) يريدان دراسة صورة العُنف الجنسي في الأفلام الهندية. وقد اختارا

هذا الموضوع لأن مُعَدَّل العنف الجنسي الذكوري المُوَجَّه للنساء يرتفع في الثقافات التي يُهيمن عليها الذكور، بما فيها الهند. فالتحرش الجنسي العلني ضد النساء، والذي يُشار إليه بمصطلح "استفزاز حواء"، أمر شائع في المدن الهندية. وقد كشف استعراض التراث البحثي المنشور -كذلك- عن وجود عاملين مهمين مسئولين عن ذلك هما:

(١) أنه توجد علاقة بين ما تعرضه وسائل الاتصال من موضوعات عن العنف الجنسي والاعتداء الذي يحدث في الحياة الواقعية و "أساطير الاغتصاب"، وهي الأساطير التي تُضفي شرعية ثقافية على الانتهاك الجنسي للنساء.

(٢) أظهرت البحوث السابقة التي أجريت على الأفلام الهندية أنه كان يتمُّ الربط -دائماً- بين العنف والسلوك الجنسي، وأن العنف الجنسي كان يُنظر إليه كأمر عادي مقبول، بل كان يُصَوَّر أحياناً كأمر "متوقع" في العلاقات الغرامية.

وهكذا قرر راماسوبرامانيان وأوليفر أن يُحللا مضمون الأفلام الهندية حول موضوع العنف والسلوك الجنسي، ومن ثَم قاما بتحليل صور السلوك الجنسي في الأفلام. وقد بدءا أولاً ببلورة تعريف لنوع التعبير الذي كانا يبحثان عنه. فقاما بمشاهدة عدد من الأفلام كاملة بحثا عن المشاهد الجنسية الموجودة فيها. وعَرَّفا المشهد الجنسي على النحو التالي: "هو المشهد الذي يمارس فيه اثنان أو أكثر من شخصيات الفيلم أنشطة كممارسة الجنس، أو التقبيل، أو المعانقة، أو المداعبة الجنسية، أو عرض الاتصال الجنسي، أو التعري، أو الاشتراك في حديث جنسي، أو الاستحمام بطريقة مثيرة للشهوة، أو ارتداء ملابس مثيرة أو كاشفة لتفاصيل الجسد، أو أن تُعرض هذه الشخصيات كموضوع جنسي للتحديق فيه" (٢٠٠٣، ص٣٣٠).

بعد أن انتهيا من صياغة التعريف الإجرائي لنوع المشهد الذي يبحثان عنه، كانت الخطوة التالية أن يحددا وحدة التحليل. وكانت وحدات التحليل التي حدداها هي الشخصيات والمشاهد الفيلمية. وتم تصنيف الشخصيات التي تكلمت وشاركت في المشاهد الجنسية. وكانت طريقة التصنيف هنا وفقا للنوع

(ذكر/أنثى) ولنمط الدور الذي تلعبه الشخصية. وبعد ذلك، تم تصنيف سمات الشخصيات، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد مشاهدة الفيلم كاملا. وقد تم تعريف المشهد بأنه "فعل متواصل يتم في مكان واحد باعتباره موقفاً واحداً أو وحدة من وحدات الحوار في الفيلم" (٢٠٠٣، ص٣٣٠). ثم زيدت المشاهد الجنسية تفصيلاً إلى فئتين هما: (١) المشاهد الجنسية التي يتمُّ فيها الفعل الجنسي برضاء الطرفين، و (٢) المشاهد الجنسية المتسمة بالعنف. وكانت طريقة تصنيف المشاهد تتكون من قائمة بالمتغيرات التي اعتبرها الباحثان ذات صلة بهذا الموضوع. وكانت فئات التصنيف تشمل : النوع الاجتماعي، ودور الشخصية (في الفيلم)، ووجود العنف الجنسي، ومدى حدة العُنف الجنسي (ابتداءً من الدرجة المعتدلة وانتهاءً بالدرجة الحادة، بما في ذلك البدء بدرجة التحرش وينتهي بدرجة الاغتصاب)، والجُناة الرئيسيين والضحايا الرئيسيات ومدى هزلية/ أو جدية المشهد.

وقد أوضحت نتائج بحثهما أن عدداً لا يُستهان به من المشاهد الجنسية في الأفلام الهندية تحتوي على عُنف جنسي بصرف النظر عن الجمهور المُستهدف من عرض الفيلم (بمن فيهم من يعدون أطفالاً دون سن الثانية عشرة). يُضاف إلى ذلك أنه تكاد الإناث أن يكنَّ وَحدَهن ضحايا العُنف الجنسي الصادر من الرجال. أما الأمر الأشد إزعاجاً، فهو أن الطريقة التي يُصوَّرُ بها العنف الجنسي تجعل منه أمرا طبيعيا وعاديا. إذ لا يمارس العنف الجنسي "الفتيان الأشرار" فقط، بل يمارسه كذلك أولئك الذين يتم تصويرهم باعتبارهم أبطال الفيلم. فالعنف الجنسي يُعرض بوصفهِ علامة على الذكورة.

ومع أننا استعرضنا الطريقة التي بها قام هذا المشروع المُحدد ببلورة تعريفٍ لأنواع التعبير قيد البحث، ثم قام بتحديد وحدة التحليل، وصَمَّم خطة لتصنيفِ المادة، فإنه توجد طرق أخرى لتحديد وحدة التحليل وإستراتيجية التصنيف.

ومع أن طريقة استعمال تغيُّر المشهد طريقةٌ شائعة بين دارسي الأفلام السينمائية وبرامج التليفزيون، فإن طريقة تغيير لقطة الكاميرا تُعَدُّ اختياراً آخر. يضاف إلى ذلك أن بإمكان المرء أن يحدد وحدات التحليل اعتمادا على

نظام ذي إطار زمني معين. وقد يكون ذلك مناسباً في مثالنا عن دراسة التغطية الإخبارية لأحداث ١١ سبتمبر. وهنا قد تختار وحدة التحليل كل خمس دقائق من فترة التغطية مثلاً. ويساعد على تحديد "وحدة التحليل" الملائمة نوعية البيانات السمعية البصرية المُستخدمة (أي الأفلام، ونشرات الأخبار، وما إلى ذلك) وكذلك الارتباط بأهداف البحث.

أما فيما يتصل بعملية التصنيف فيمكن استعمال استراتيجيات مختلفة للقيام بها، وذلك اعتماداً على مدى ما ستؤول إليه الدراسة من حيث كونها دراسة استنباطية أم دراسة استقرائية. ومن المفيد هنا أن نفكر في الأسلوب الاستقرائي والأسلوب الاستنباطي بوصفهما قطبين على طرفي مُتصل واحد، وليسا بديلين يتعين اختيار أحدهما دون الآخر. ومن الممكن صياغة فئات التصنيف، كالفئات المستعملة في هذه الدراسة عن الأفلام الهندية، وذلك قبل البدء بتحليل البيانات. وفي هذا الاتجاه الاستنباطي يكون أمام الباحث -قبل أن يبدأ بحثه- مجموعة من طرق التصنيف التي يبحث عنها ليختار من بينها. وعند استعمال هذا النوع من الاستراتيجية، يكون من المفيد مساهمة باحثين آخرين في صياغة قائمة فئات التصنيف هذه. يُضاف إلى ذلك أن من الممكن تعزيز الصدق والثبات عن طريق قيام مصنفين متعددين بتصنيف نفس البيانات، وهو ما حدث في الدراسة الخاصة بالأفلام الهندية، حيث قام شخصان - كل على حدة - بتصنيف مجموعة البيانات، ثم جلسا معاً ليناقشا نقاط الاختلاف والتضارب بينهما، حتى وصلا إلى إجماع. فإذا استعملت قائمة فئات تصنيف جاهزة، فإننا نقترح إضافة فئة مثل "آخر/و آخرون" أو "متنوع" في حالة ما إذا وُجدت معلومات إضافية ذات صلة في البيانات التي لم تأخذها في الحُسبان قبل تحليل البيانات. وتتوقف الفائدة المرجوة من هذا التصنيف الإضافي على مدى خدمته لأهداف البحث. ومن الاعتبارات الأخرى التي تحدد ذلك مدى رغبتك في أن تكون قادراً على تكرار هذه الدراسة والوصول إلى مستوى التعميم. وكذلك يستطيع الباحثون أن يدمجوا الاستراتيجية الاستنباطية بالاستراتيجية الاستقرائية. مثال ذلك، أن الباحث يستطيع أن يُحدد بعض فئات التصنيف قبل القيام بالتحليل - ثم يقوم - وأثناء اشتغاله بالتحليل، بتعديل هذه الفئات. وقد يتضمن هذا الإجراء حذف أو استبعاد بعض فئات التصنيف التي لم يَعُد يراها مناسبة، والإبقاء على الفئات التصنيفية القائمة على

لغة البياناتِ قيد البحث، وإضافة فئات جديدة لتصنيف المعلومات التي لم يكُن معروفاً قبلَ ذلك أنها موجودة، أو القيام بأي توليفة من فئات التصنيف المشار إليها.

وعلى الجانب الاستقرائي من هذا المتصل يستطيع الباحثون أن يبتكروا فئات تصنيفية أثناء قيامهم بتحليل وتفسير البيانات. ويُمكن القيام بذلك بالاستعانة بالنظرية الموثقة، أو باستعمال ما يُشبهها من النموذج الحلزوني الذي يتضمن الغوص داخل البيانات ثم الخروج منها، والذي شرحناه في موضع سابق من هذا الفصل. وفي هذه الحالة تنبثق أو تتبلور فئات التصنيف بصورة مباشرة من واقع البيانات. وبهذا الشكل، يقوم الباحث بتحليل جُزء من البياناتِ ويصوغ فئات التصنيف المبنية على ما هو موجود في البيانات، مستعملاً في أغلب الأحيان لغة النص نفسه كفئات للتصنيف. وباستعمال الباحث لبعض الفئات المناسبة، يعود أدراجه بين تفاصيل البيانات، ثم يراجع بعد ذلك جُزءًا آخر من تلك البيانات ليرى ما إذا كانت هذه الفئات التصنيفية "صالحة تماما" وتضيف شيئاً جديدا في حدود ما تتيحه البيانات. وقد يبدأ الباحث بفئات تصنيفية حرفية شديدة التحديد، وفي أثناء هذه العملية يُطَور فئات تصنيف أوسع نطاقاً، أو "فئات كبرى" تقع في نطاقها الفئات الفرعية. ومن الممكن أن نسلك الطريق المعاكس –وإن كان ذلك أقل احتمالا– حيث تبدأ بفئات التصنيف الكبرى ذات القاعدة العريضة، وعندما تعود إلى البيانات تتأملها، فمن الممكن أن تُنقح فئاتك التصنيفية، وأن تضيف الجديد من الفئات الأشد تحديداً.

إنِ اختيار استراتيجية التصنيف– خاصة في حالة تعقُّد العمل مع ميدان مُركَب ومتعدد الأبعاد –سوف يتوقف على طبيعة أهداف البحث وعلى الصياغة النظرية لموضوعه. فالمكونات المنهجية والمعرفية (الإبستمولوجية) لمشروع البحث يبغي أن تكون متناسبة مع بعضها ومترابطة بأقصى ما يمكن من الإحكام.

وهناك قضية أخيرة يتعين أخذها في الاعتبار أثناء مراحل التصنيف، والتحليل، والتفسير، وعرض النتائج، ألا وهي: قضية الترجمة. فجميع أنواع البحوث الكيفية تقدم قدراً هائلاً من البيانات، مثلها في ذلك مثل "الوصف المكثف" الشائع في البحوث الإثنوجرافية، وكذلك مئات بل آلاف الصفحات

التي يتم إنتاجها باستعمال مختلف طُرق المقابلات. فهذهِ البيانات تتعرض بعد ذلك لعملية اختزال بمُقتضاها تُختَصَرُ المقادير الضخمة من البيانات، بحيث يمكن لهذه البيانات أن تحكي قصةً ما أو تُبين جانبا معينا من جوانب الحياة الاجتماعية. كذلك يتطلب تحليل مضمون المواد السمعية البصرية إجراء عملية اختصار. مثال ذلك أن الباحث لا يقوم فعلاً بإعادة تقديم كل ما تمت دراسته من عروض التليفزيون والأفلام بتمامها، فالمرء لا يحتاج للبحث لمجُرد أن يقدم هذه المادة بنفس الوضع التي هي عليه. والفارق الأساسي بين اختصار البيانات السمعية البصرية وغيرها من أشكال البيانات الكيفية، هو أن عملية ترجمة المواد السمعية البصرية تصبح لازمة عند انتقالنا من وسيط إلى وسيط آخر (روز، ٢٠٠٠). ففي الأمثلة الأخرى التي سبق أن عرضنا لها تكون البيانات الأصلية في صورة نصوص، وكذلك تكون المعرفة الناتجة عنها في صورة نصوص مكتوبة. أما في حالة البيانات السمعية البصرية فإننا ننتقل من الصور المتحركة، والصوت، والكلمات إلى الكلمات المكتوبة فقط. وبهذا الشكل نقوم – بالإضافة إلى اختزالنا أو تبسيطنا للمقدار الضخم من البيانات السمعية البصرية– نقوم كذلك بترجمتها، كما لو كنا نُترجمها إلى لغةٍ أخرى. لذلك ينبغي على الباحثين أن يكونوا على دراية بهذا الأمر وهم يُعملون عُقُولَهم في تقديم أفضل تفسير وأفضل طريقة لعرض نتائجهم. وهذا سبب آخر يبين الأهمية البالغة لتوضيح استراتيجيات التصنيف.

تحليل المضمون باستخدام الكومبيوتر

هل هو طريقة غير تدخلية، وكيف يمكن القيام بهِ بما يتفق مع الأخلاق؟

يتمثل أحَدُ التطورات الحديثة في تحليل المضمون في استعمال البيانات القائمة على الكومبيوتر. ولمَّا كان هذا النوع من البيانات شبيهاً بالبيانات السمعية البَصَرية، فإنهِ يبدو في صورة ميدان مُركَّب متعدد الأبعاد (وإن كان هذا لا يحدث في سائرِ الأحوال). فالبيانات القائمة على الكومبيوتر تكون من نوعية شديدة التفرد، كما أنها تثير مجموعة خاصة بها من القضايا الخلافية،

لأنها تقوم – في نفس الوقت – بدَفعِ ممارسة البحث الكيفي في اتجاهاتٍ جديدة أثناء إثارتها للأسئلة القديمة العهد المتصلة بالأخلاقيات.

ونلاحظ أولاً أنه يُمكن لتحليل المضمون باستخدام الكومبيوتر أن يكون طريقة غير تدَخلية، ولكنه ليس كذلك فقط بالضرورة، إذ من الممكن أن يكون طريقة تدخلية أيضا. وحتى عندما تكون هذه الممارسة غير تدخلية، قد تثـور بعض الهواجس الأخلاقية التي لا نجد لها وجـودا عنـد اسـتخدام الأشـكال الأخرى من تحليل النصوص. فكثيراً ما يتمُّ الحصول على بيانات الكومبيوتر من مختلف مواقعِ الإنترنت، ومن صفحاتِ الرسـائل المفتوحـة message boards، ومن غرَف الدردشة. فهيا بنا نُلقِي نظرة على مواقع شبكة الإنترنت وعلى صفحات الرسائل أولاً.

وتُعتبر مواقع شبكة الإنترنت وصفحات الرسـائل المفتوحـة (حيـث يستطيع الأفراد أن يرسلوا رسائل تكون مُتاحة لأي إنسان يدخل هذا الموقع)؛ تعتبران من أشكال البيانات المستمدة من الكومبيوتر. وقد تكون مواقع الشبكة عبارة عن ميادين مُركبًة تضم من بين ما تضم الرسوم البيانية والكلمات، كما ينبغي تصنيفها على هذا الأساس. أما صفحات الرسائل فتقـوم أساسـا علـى النصوص، كما هو الحال بالنسبة لأي رسائل. فإن كنا مهتمين بالذهاب إلـى إحدى صفحات الرسائل المفتوحة لدراسة ردود أفعال الناس على قضية مارتا ستيوارت Martha Stewart وما كان فيها من قرار المُحلفين وحُكم القاضي، فإن بإمكاننا ببساطة أن ندخل إلى أحد المواقع ونطبع المادة التـي يتـضمنها. وعندئذٍ يكون بالإمكان تحليل هذه البيانات النصية (أي المكتوبة) باستعمال مـا سبق مناقشته في هذا الكتاب من التوجهات الفكرية المختلفة. ويُعَدُّ هذا النـوع من البحث بحثا غير تدخلي، كما أن المعلومات الموضوعة علـى صـفحات الرسائل الموجودة على مواقع الشبكة قد وَضَعها أفرادٌ يعلمون أن من الممكن أن يطلِّع عليها أي إنسان، كما أن من الممكن لأي أحد أن يستعملها. فهيا بنـا نلقى نظرة على أحد الأمثلة الخاصة باستعمال هذا النوع من البيانات.

اهتم هارمون Harmon و بورنجر Boeringer(١٩٩٧) بـالتعرف على المحتوى (أو المضمون) الجنسي على الإنترنت. فأشكال الصُور الإباحية

الموجودة على الشبكة تُعتبر اشكالاً جديدة نسبياً. ولهذا قررا القيام بتحليل مضمون هذه المواقع كنوع من البحث الاستكشافي. وبعد استعراضٍ أولي لمواقع الإنترنت قررا اختيار ٢٠٠ "رسالة" Postings من أحد مواقع الشبكة تكون ذات محتوى جنسي مكشوف. وتشير الرسائل إلى المعلومات (أي التعليقات وما إليها) الموضوعة على هذا الموقع. وقد قرر الباحثان أنَّ أربعة من الرسائل غير قابلة للاستخدام، ومن هنا انتهيا إلى عينة قوامها ١٩٦ رسالة جُمعت على امتداد فترة أسبوعين. ثم قاما باستخدام إحدى طرق التحليل التفصيلي لهذه الرسائل سطراً سطراً مستخدمين في ذلك فئات تصنيف تم تطويرها باستخلاصها مباشرة من هذا النص. وعمدا في تحليلهما هذا إلى تخصيص فئة تصنيفية لكل سطر من سطور النص مثل: "ممارسة الجنس مع الأطفال" وغير ذلك من أنواع الانحرافات "الفتشية"(*). وعندما فرغا من عملية التصنيف ذُهلا من وجود التعبيرات الغريبة التي ليست محل اتفاق عام والموجودة بكثرة في هذه الرسائل.

وقد بلغت عملية البحث ونتائجه من الإزعاج حداً جعل أحد الباحثين يسعى للحصول على نوع من "الإذن المهني" من أحد المستشارين الجامعيين، الأمر الذي يبين أن الباحثين الذين يستعملون طريقة تحليل المضمون معرضون لمواجهة بعض المآزق الانفعالية التي يواجهها الباحثون الميدانيون وغيرهم من الباحثين الكيفيين. مثال ذلك، أن باحثاً لتحليل المضمون يدرُس تصوير بعض الأحداث المأساوية، كأحداث ١١ سبتمبر مثلا، قد يعاني مشكلات انفعالية أو سيكولوجية تعزّى –عادة– إلى ممارسة الطرق التفاعلية، كالإثنوجرافيا. لذا ينبغي أن يتنبه الباحثون لهذه الأمر وهم يختارون موضوعات بحوثهم.

وتُعد الدراسة التي قام بها هارمون و بورنجر مثالاً ممتازاً لاستعمال تحليل المضمون الكيفي كطريقة لتناول البيانات في أحد الميادين الجديدة. ويُعد

(*) fetishes: وهي هنا تشير إلى معنى خاص هو الانحرافات الجنسية التي تتمثل في تركيز الشهوة الجنسية على عضو من الجسد، أو على شيء له صلة به، كالملابس، والجوارب، والأحذية، إلى آخره. (المراجع)

الشكل الكومبيوتري للبيانات، في الواقع، جُزءاً مما يتم دراسته. ذلك أنه يمثل طريقة بحث تستعمل البيانات القائمة على الكومبيوتر بأسلوب يتوافق مع مبادئ البحث غير التدخلي. ومع ذلك، توجد أشكالٌ أخرى للبيانات القائمة على الكومبيوتر والتي قد تتجاوز هذه القواعد، مما يثير عدداً كبيراً من الاعتبارات الأخلاقية.

ويستطيع الباحثون الكيفيون أن يدرسوا التفاعل الجاري فعلا باستعمالهم لغُرف الدردشة كموقع للحصول على البيانات الاجتماعية. والأمر المثير للاهتمام فيما يتصل ببيانات غرف الدردشة هو أنه رغم أنها تُعتبر "حوارا" إلى الحد الذي يجعل الأفراد المتعددين يكتبون ردود أفعالهم فيها بأسلوب سلس متدفق، فإنها مع ذلك لا تماثل الحديث المباشر وجها لوجه. فالناس يكتبون بطريقة مختلفة عما اعتادوا أن يتكلموا به (بما في ذلك أنهم يكتبون على نحوٍ أبطأ من الكلام). وبالمثل، لا يستطيع الأفراد في غرف الدردشة أن يروا بعضهم بعضاً، كما أنهم يستخدمون هويات مُجهّلة ناجمة عن هذه التكنولوجيا. فمن المعهود هنا أنك لا تعرف فى الواقع – إلى من تتحدث في غرفة الدردشة (من حيث نوعهم الاجتماعي، وسنهم، وما إلى ذلك). وبمقدور الباحثين الذين يستعملون البيانات المُستمدة من المناقشات التي تدور في غرف الدردشة أن يقوموا بعملهم بأسلوبين: إما كملاحظين أو كمشاركين (وهو الأقرب شبهاً بما يحدُثُ في البحث الإثنوجرافي). فهيًا بينا نلقي نظرة على الأسلوب الأول في البداية.

بإمكان الباحث أن يلاحظ مناقشات غرف الدردشة ويقوم بتحليل الخطاب (مان Mann و ستيورات Stewart، ٢٠٠٠). وتظهر بيانات غرف الدردشة كنص مكتوب سطراً سطراً، وذلك على الرغم من أن البيانات تتكون في صورة حوار دائر بين طرفين بوساطة الكومبيوتر. وفي هذا النوع من البحوث يقوم الباحثون بدور "البصاص أو مُختلس الرؤية" “Voyeur” إلى التفاعل (مان و ستيورات، ٢٠٠٠). فالباحث يمكنه أن يُخفي وجوده عن المتحاورين، وسوف يمضي الحوار بصرف النظر عن البحث، وبذلك يكون الباحث مُحافظاً على مبادئ البحث غير التدخلي. ومع ذلك، فإن هذا النوع من البحث القائم على اختلاس الرؤية يثير بعض القضايا الأخلاقية فعلاً. من تلك

القضايا: ما هي الدلالات المترتبة على متابعة حوارات بغرض البحث؟ وهل من الصواب بالنسبة للأفراد الذين يشاركون في مناقشات غرف الدردشة أن تُستَعمل تلك المعلومات بدون الحصول على موافقة صريحة منهم؟ وهل من الممكن الحصول على الموافقة الصريحة في حالة دراسة إحدى غرف الدردشة في حين يَدْخُلُ الأفراد هذه الغرفة ويخرجون منها بشكل روتيني؟ وبالمثل، إذا كان بمقدور المشاركين في غرف الدردشة أن يتخذوا لأنفسهم هويات زائفة، فكيف للباحث أن يعرف ما إذا كان يوجد فيهم أفراد قُصَّر (لم يبلغوا سن الرشد) أم لا؟ تلك بعض القضايا التي يتوجب على المرء أن يُمعن النظر فيها عند التفكير في هذا النوع من البحوث.

ويمكن للباحثين كذلك أن يكشفوا عن شخصياتهم، وبهذا الشكل يمكنهم أن يشاركوا – إلى حد ما – في نقاش غُرف الدردشة. وفي المقابل يُمكن للباحثين أن يشاركوا في نقاش غُرف الدردشة، وهنا تُصبح هذه المشاركة جُزءاً من النص الذي سيستعملونه كبيانات لهم، وذلك بدون أن يكشفوا هم عن شخصياتهم. وفي هذه الحالة لا يبقى البحث بحثاً غير تَدَخليٍّ، إذ بات الباحث يؤثّر تأثيراً مباشرا على تطور هذه البيانات. ويثير هذا التصرف قضايا تتعلق بالأخلاقيات، والسرية، والإفصاح، وتأثير الباحث على نتيجة البحث، وهي القضايا التي يتوجب إمعان النظر فيها بدقة بالغة.

ونظراً لأن التكنولوجيا القائمة على شبكة الإنترنت آخذة في التزايد، فمن المرجع أن تظهر البيانات المستمدة من الكومبيوتر في أشكالٍ وتنويعات أكثر عدداً مما هي عليه. وعليه يبقى تحديد مَدَى إمكان دراسة البيانات الأحدث بطريقة غير تدخلية تكون – في نفس الوقت – ملتزمة بالأخلاقيات؛ يبقى في حاجة إلى مزيد من النظر. إذا اتفقنا على ذلك فإن اتباع المبادئ الأساسية للبحث الملتزم بالأخلاقيات – على نحو ما بينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب – سوف يساعد الباحثين الكيفيين على شق طريقهم والتقدم في هذه المجالات الجديدة، من خلال طرح عدد كبير من الأسئلة العلمية الاجتماعية والإجابة عليها.

* * *

خاتمة

نرجو أن يكون هذا الفصل قد زودك بقدر من المعرفة عن جانب من الطرق الكثيرة التي يستطيع بواسطتها الباحثون الكيفيون القيام بدراسة النصوص كمنطلقٍ للبحث أو كجزءٍ من خطةٍ بحث متعدد الطرق. والميزة الرئيسية للعمل بالبيانات غير الحيةً هو أنها تُتيح لنا أن نتجاوز نطاق الإحساسات التي يشعر بها الأفراد تجاه الموضوع، وهي الإحساسات التي -رغم أهميتها الشديدة - لا تشكل المُنطلَق الوحيد لبناء المعرفة. فعن طريق استنطاق النصوص انطلاقاً من تشكيلة متنوعة من المواقف المعرفية (الإبستمولوجية) والنظرية يستمر العلماء الاجتماعيون في طرح المزيد من أسئلة البحث وفي تقديم رؤى جديدة بشأن الحقيقة الاجتماعية والواقع الاجتماعي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **تحليل المضمون** — **Content Analysis**

هو التحليل المنظم للنصوص.

- **البحث التفاعلي** — **Interactive Research**

عندما يؤثر الباحث على الحقيقة الاجتماعية بسبب حضوره (كأن يلتقط صوراً، مثلاً)، ومن ثَمَّ تقدم البيانات انطلاقاً من الموقع المتميز الذي يحتلُه الباحث مباشرة.

- **النموذج الخطي** — **Linear Model**

هو طريقة لتصميم البحث يكون فيها لدى الباحث مجموعة محددة سلفا من الخطوات التي تلتزم مساراً رأسياً تتتابع خلاله كل خطوة من خطوات عملية البحث.

- **كتابة الحواشي والملاحظات** — **Memo Writing**

طريقة يستعملها الباحث الذي يتبع النموذج الحلزوني في تصميم البحث كأسلوب لتأويل البيانات والتفكر فيها أثناء مُضيهِ قُدُماً في خطوات البحث.

• النموذج الحلزوني • Spiral Model

هو طريقة من طرق تصميم البحوث التي تتيح للباحث – لو استعملنا لغة المجاز – أن يغوص داخلَ البيانات ويخرج منها وهو ماضٍ في عمله لتنفيذ خطوات البحث. وفي هذا النموذج يقوم الباحث بتوليد رؤى ومفاهيم جديدة ذات مستويات مختلفة من التحديد والخصوصية، وذلك أثناء كل مرحلة من مراحل المشروع. كما يقوم الباحث في هذه الطريقة باستخدام هذه المعلومات في الرجوع مرة ثانية إلى البيانات والحصول على المزيد من المعلومات.

• الترجمة • Translation

هذه هي العملية التي يتم فيها اختصار الكم الكبير من البيانات النَّصية (المُسجَّلة على هيئة كتابات). وفي حالة تحليل النصوص البصرية أو النصوص السمعية البصرية، يشير مصطلح الترجمة إلى تدوين البيانات الموجودة في أحد هذين الوَسَيطين (الوسيط البصري أو وسيط الصور المتحركة) في هيئة كلمات، كما لو كنا نترجم هذه البيانات من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- كيف أثر نمو الدراسات الثقافية وما بعد الحداثة في استعمال طريقة تحليل المضمون؟ ما هي أوجه الالتقاء بين هذه الأنواع من التراث النظري وهذه الطريقة المنهجية، وخاصَّةً فيما يتصل بطبيعة المعرفة وبنائها؟

٢- ما هو الأمر الفريد في الاشتغال بالبيانات غير الحية؟ وكيف تؤثِّر هذه البيانات على أسئلة البحث وعلى المعرفة الناتجة عنها؟

٣- ما معنى القول بأن تحليل المضمون يُعَد "تقنية مُهجَّنة"؟ كيف يمكن ربط الاتجاهات الكيفية بالاتجاهات الكمية في مجال تحليل المضمون؟ وما هي مزايا هذا الربط؟

٤- اشرح الفرق بين الاتجاه الخطي (الكمي) والاتجاه الحلزوني (الكيفي) في تحليل المضمون.

٥- ما هي القضايا الخاصة التي تثور عند استعمال البيانات البصرية والبيانات السمعية البصرية؟ اشرح عملية "الترجمة" التي تحدث عندئذ. وما هي الاستراتيجيات المختلفة الخاصّة بمعالجة هذا النوع من البيانات؟

٦- ناقش الممارسات حديثة الظهور في مجال طرق البحث غير التدخلية؟ وما هي القضايا الأخلاقية التي تثيرها تلك الاتجاهات الجديدة؟.

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- مركز الدراسات الثقافية **Cultural Studies Central**

http://www.culturalstudies.net/

يوفر هذا الموقع فرصة التعلم التفاعلي، فبوسعك المشاركة في مناقشات إلكترونية (عبر النت). ويقدم هذا الموقع وصلات لمشروعات الشبكة الثقافية، ووصلات أخرى عديدة متصلة بهذا الميدان. ونعتقد أن هذا الموقع يتيح للمشاهد طائفة واسعة من الاختيارات.

- مجموعة الدراسات الثقافية **Cultural Studies Study Group**

http://members.tripod.com/~warlight/

يبدو أن هذا الموقع مملوك لجهة خاصة ولكنه يقدم مناقشات، ومقالات، ووصلات لمختلف أنواع الدراسات الثقافية، كالدراسات الثقافية عن الشباب، والاتصال الجماهيرى، والثقافة الجماهيرية (الشائعة).

- قسم الدراسات النقدية والثقافية بـ NCA **The Critical and Culrural Studies Division of NCA**

http://www.vcsum.org/CCS/

يبدو هذا الموقع مناسبا ومفيدا لمن يبحثون عن معلومات عن الدراسات الثقافية. وتنشر هذه المؤسسة نشرة دورية، كما ينظم اجتماعات ومؤتمرات عن هذا الميدان. كما يتضمن الموقع عدداً من الوصلات المرتبطة بالموضوع.

- الدراسات الثقافية المعرفية **Cognitive Cultural Studies**

http://cogweb.ucla.edu/

يصدر هذا الموقع عن جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، ويقدم للمشاهد

مواعيد عقد المؤتمرات، والندوات، والأوراق البحثية المرتبطة بالميدان. كما يحوي الموقع قوائم ببليوجرافية شاملة، بما في ذلك وصلات للمزيد من المعلومات.

* * *

Reference المراجع

- Barthes, R. (1998). Myth today. In S. Sontag (Ed.), *A Barthes reader* (pp.93-149). New York:Hill and Wang.
- Bauer, M. (2000). Classical content analysis: A review. In M. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 131-151). London: Sage.
- Byers, P. (1964). Still photography in the systematic recording and analysis of behavioral data. *Human Organization, 23, 78-84.*
- Derrida, J. (1966). The decentering event and social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing the difference* (pp. 278-282). Chicago: University of Chicago Press.
- Foucault, M. (1978). *The history of sexuality: An introduction, volume 1.* New York: Vintage Books.
- Gooden, A. M., & Gooden, M. A. (2001). Gender representation in notable children's picutre books: 1995-1999. *Sex Roles: A Journal of Research, 13, 89.*
- Hall, S. (1981). Notes on deconstructing "the Popular." In J. Storey (Ed.), *Cultural studies & the study of populr culture. Athens:* University of Georgia Press.
- Harmon, D., & Boeringer, S. B. (1997). A content analysis of Internet-accessible written pornographic depictions. *Electronic Journal of Sociology, 3* (1). Retrieved from http://wwwsociology.org/content/v01003.001/boeringer.html.
- Hesse-Biber, S., & Leavy, P. (2004). (Eds.) *Approaches to qualitative research:A reader on theory and practice.* New York: Oxford University Press.
- Iedema, R. (2001). Analysing film and television: A social semiotic account of *Hospital: An Unhealthy Business:* In T. van Leeuwen & C. Jewitt (Eds.) *Handbook of visual analysis* (pp. 183-204). London: Sage.
- Irigaray, L. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In . Porter & C. Burke (Trans.), *This sex which is not one* (pp. 68-85). Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Jameson, F. (1984). Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism. *New Left Review, 146, 59-92.*
- Lauzen, M. M., & Dozier, D.M. (2002). You look mahvelous: An examination of gender and appearance comments in the 1999-2000 prime-time season. *Sex Roles: A Journal of Research 9, 429-438.*
- Loizos, P. (2000). Video, film and photographs as research documents. In M. W.Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image, and sound* (pp. 93-107). London: Sage.
- Malkin, A. R., Wornian, K., & Chrisler, J.C. (1999). Women and weight: Gendered messages on magazine covers. *Sex Roles: A Journal of Research, 40*(7-8), 647-656.

- Mann, C., & Stewart, F. (2000). Chapter 4: Introducing online methods. In *Internet communication and qualitative research: A handbook for researching online* (pp. 65-98). London: Sage.
- McArthur, L.Z., & Resko, B. G. (1975). The portrayal of men and women in American television commercials. *The Journal of Social Psychology, 97,* 209-220.
- Merskin, D. (1999). Adolescence, Advertising And the ideology of menstruation. *Sex Roles: A Journal of Research, 40* (11), 941-957.
- Pedersen, P. M. (2002). Examining equity in newspaper photographs. *International Review for the Sociology of Sport. 37* (3-4),303-318.
- Prior, L. (2004). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In S. Hesse-Biber& P.Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 317-333). New Yok: Oxford University Press.
- Prior, L. (1997). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In D. Silverman (Ed.), *Qualitative research: Theory, method and practice (pp. 63-79).*
- Prosser, J. & Schwartz, D. (1998). Photographs within the sociological research process. In J. Prosser (Ed.), *Image-based research: A sourcebook for qualitative researchers* (pp. 115-130). London: Falmer Press.
- Ramasubramanian, S., & Oliver, M. B. (2003). Portrrayals of sexual violence in popular Hindi films, 1997-99. *Sex Roles: A Journal of Research, 10, 327-336.*
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research.* New York: Oxford University Press.
- Rose, D. (2000). Analysis of moving images. In M. W. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 246-262). London: Sage.
- Taylor, C. (1987). Interpretation and the sciences of man. In P. Rabinow & M. W. Sullivan (Eds.), *Interpretive social sciences. A second look* (pp. 33-81). London University of California press.
- Thomas, M. E., & Treiber, L. A. (2000). Race, gender, and status: A content analysis of print advertisements in four populr magazines. *Sociological Spectrum, 20,* 357-371.
- Wysocki, D. S., & Harrison R. (1991). AIDS and the media: A look at how periodiclas influence children and teenagers in their knowledge of AIDS. *Health Education Journal, 22, 20-23.*

الفصل التاسع

البحث القائم على طرقٍ مختلطة

يمثل النص المستخلص التالي تقريراً قدّمه أحد مراسلي الأخبار في إذاعة الـ بي.بي.سي(*) عن الجهود التي بذلها سكان قرية تايلاندية لإعادة بناء مجتمعهم في أعقاب واحدةٍ من أسوأ الكوارث الطبيعية التي أصابت جنوب آسيا.

عند النظرة الأولى، قد يعتبر أهالي جزيرة خلانج براسانج Khlang Prasang الصغيرة أنفسهم سعداء الحظ.

فهذه الجزيرة، كأغلب جُزر ساحل تايلاند الغربي أصابها إعصار التسونامي الآسيوي المدمِّر، إلا أنه لم يَمُت أحدٌ من أبناء هذا المجتمع المحلي البالغ عددهم أربعمائة.

بيد أن التسونامي هذا غيَّر حياة عدد من الناس أكثر من عدد من كانوا في ذلك الوقت يتفجعون على أحبائهم الراحلين. فبعيدا عن المنتجعات الشهيرة والشواطئ المخصصة للسيّاح، تواجه حاليا مئات من المجتمعات المحلية الصغيرة مثل خلانج براسانج تحدياً طويل الأمد وعسيراً لإعادة البناء.

قبل هذه الكارثة، كان لشعب خلانج براسانج مصدران للدخل هما: صيد السمك والسياحة.

أما الآن فهم يكافحون لتحصيل المال من مصدر آخر غير هذين المصدرين.

يقول دونجيت هافاه Donjit Hafah : "إننا نخشى أن يطوينا النسيان، كما أن كل المساعدات مآلها الذهاب إلى جزيرة "في في" Phi Phi وغيرها من المناطق التي أصيبت بقدر أكبر من التدمير".

بعد مُضي أسبوعين على إعصار التسونامي، لايزال أهالي خلانج براسانج يعانون من الصدمة العصبية الناجمة عن تجربتهم هذه.

(*) BBC: هيئة الإذاعة البريطانية (المترجم)

يقول ساماري كونلونج Samari Koonlong: "لا أزال عاجزاً عن النوم. فأنا لا أزال أتخيل مجيء إعصار تسونامي آخر. ذلك أن الأمواج وأوضاع المد والجزر لا تزال غير عادية، كما أنني في غاية الفزع".

ويقول مآد أونبوتر Maad Oonbutr: "قضيتُ الليلة البارحة ولا شغل لي إلا مراقبة الأمواج. كنت ساعتها أفكر في الأطفال الذين كانوا يجرون في اتجاه البحر عندما أتى هذا التسونامي، وكيف أنهم كانوا على وشك الغرق...": (McGowan, 2005).

في يوم ٢٦ ديسمبر سنة ٢٠٠٤ ضرب إعصار تسونامي ضخم جنوب آسيا. لقد كان إحدى كبريات الكوارث الطبيعية في التاريخ المُدوَّن. وفي أعقابه انطلقت جهود الإغاثة الخاصة والعامة من جميع أنحاء العالم لمعاونة الناجين وللمساعدة في إعادة بناء البني التحتية التي تَشتدُّ الحاجةُ إليها أكثر من غيرها. وتُحذِّر التقارير الصحفية من الصدمة السيكولوجية الحادة التي أعقبت الكارثة، والتي انتشرت بين الناجين. ويُحذر أحد التقارير المُذاعة من سي.إن. إن CNN من النتائج التي تعقب التسونامي وتتصف بصفات الصدمة النفسية، وخاصةً ما يُصيبُ منها صغار السنِّ من الناجين.

ويقول الدكتور مايكل واسرمان Michael Wasserman، وهو طبيب أطفال يعمل في مستشفى مؤسسة أوكسنر الخيرية في مدينة نيو أورليانز بولاية لويزيانا: "إن النتائج السيكولوجية مَهولة.. إن الأطفال يفهمون معنى النظام في الكون. ولأسباب لا يستطيع أي إنسانٍ أن يسيطر عليها، تقوم أنت بانتزاع هذا الفهم وطرحه بعيداً. فقد تَمَّرتَ عالَمَهمْ" (سي. إن . إن، ٢٠٠٥).

وليس من الواضح لنا كيف يقوم الناجون بالتغلب على الأوضاع التي أعقبت هذا الحادث المدمر. فبينما تقدم التقارير التي تَبُثُّها وسائل الاتصال معلومات مقتضبة على هيئة نوادر وحكايات، فإن الأمر يحتاج إلى المزيد من المعلومات للمساعدة إلى جانب جهود الإغاثة. فالعلماء الاجتماعيون يُمكنهم أن يُزودوا هيئات التمويل وهيئات الإغاثة بفَهم أكمل لمدى ما أحدثته هذه المأساة من تأثيرات ضارة بالاقتصاد وبالأشخاص على مستوى القرية وعلى مستوى

الأمة، كما يمكنهم أن يقدروا على نحو دقيق طبيعة الخبرات المُعاشة لهؤلاء الذين تأثرت حياتهم بهذه الكارثة تأثراً حاداً. وسوف تُزودنا أسئلة البحث التالية ببعض البيانات المهمة عن هذه الجهود:

- كم عدد الأفراد الذين ماتوا كنتيجة مباشرة لهذه الكارثة؟ وما هي القرى التي أضيرت؟ وما هو مدى تدمير الممتلكات؟ ومَنْ هم الناجون (وفقاً لخصائصهم السكانية كالسِّن، والجنس، والطبقة، إلى آخره)؟
- كيف يقوم الناجون بتدبير أمور حياتهم يوما بيوم؟ وما هي خبراتهم المعاشَة؟ وما هي احتياجاتهم وهمومهم الخاصة؟

البحث ذو الطرق المختلطة

قد يكون أسلوب البحث ذي الطرق المختلطة مُنطلقاً جيدا نبدأ به دراستنا. وتُعد الطرق المختلطة أحد التصاميم البحثية لجمع البيانات و/أو تحليل البيانات. وعادةً ما يشير هذا المصطلح إلى استعمال كل من الطرق الكيفية والطرق الكمية في دراسةٍ واحدة، أو بصورة متعاقبة في دراستين أو أكثر. ويكمُنُ وراء تطبيق هذه التصميم البحثي منطقٌ هام مفادهُ أنّ "الكل أكبرُ من مجموع أجزائهِ" (Greene & Caracelle, 1997b, p.13). ويشير جرين و كاراسلي في نفس الكتاب إلى أن إجراء "حوار" بين مختلف طرق البحث ونماذجها الفكرية التي تمثلها تعزز الوصول إلى نتائج شاملة و عميقة ومنطقية بدرجة تفوق ما يمكن أن يحققه منفردا أي نموذج فكري (سواء كان تأويليا أم مُنتميا لما بعد الوضعية) (ص١٠، وانظر كذلك جرين، وبنجامين Benjamen وجوديير Goodyear، ٢٠٠١). ويشير الدليل الجديد لطرق البحث المختلطة الذي وضعه تشكري وتدلي (Tashakkori & Teddlie, Handbook of Mixed-Methods, 2003) إلى خطط البحث ذات الطرق المختلطة باعتبارها "الحركة المنهجية الثالثة" (٢٠٠٣، ص١٠ من المقدمة). وهذا يعني ضمناً أن على الباحث، والذي يكون في العادة مُدرّباً على استعمال طريقة بحثٍ واحدةٍ فقط أو يكون له من الخبرة في إحدى الطرق ما يفوق خبرتَه في غيرها من الطرق؛ عليه أن يتجاوز الحدود التي تيسر له فيها اتباع

طريقته، وأن يفكر خارج نطاق روتينيات طريقته التي اعتاد ممارستها كل يوم. وبهذا المعنى، فإن من المحتمل أن يؤدي قيام الباحث بتطبيق الطرق المختلطة إلى حد تخلي ذلك الباحث عما كان لديه قبلا من ممارسات تتعلق بفلسفته وبمنهجيته في البحث وبطرق البحث التي يستعملها.

يتيح الجمع بين طريقتي بحثٍ مختلفتين عمل مشروع بحثٍ **تعاوني**، بمُقتضاه تمكن إحدى الطريقتين الطريقة الأخرى من أن تكون أكثر فعالية، وبمُقتضاه تقوم كلتا الطريقتين مجتمعتين بتقديم فهمٍ أكمل لمُشكلة البحث (Greene & Caracelli, 1997a) وانظر مؤلف Sieber ١٩٧٣، للاطلاع على نموذج مبكر للتعاون الموجود في مزج طرق البحث الخاصة "بالعمل الميداني" وتلك الخاصة "بالبحث المسحي". كما يمكن للخطط ذات الطرق المختلطة أن تساعدنا على الوصول إلى المعرفة الخاضعة والمُستضعَفة، وعلى إسماعنا أصوات أولئك الذين تجاهلت البحوث العلمية النظر في آرائهم وأفكارهم، وذلك بهدف تقديم "نوع من التعددية في الاهتمامات، والأصوات، والمنظورات الفكرية" (جرين و كاراسلي، ١٩٩٧/ ب، ص١٤). ومن شأن الجمع بين عدة طرق أن يساعد البحث - في كثير من الأحيان - في معالجة المشكلات الفائقة التعقد والتي تحتوي على طبقات مختلفة من الفهم قد تتطلب هي الأخرى مستويات مختلفة من الأساليب التحليلية.

إن اختيار طريقة بحث معينة أمر شديد الارتباط بمُشكلة البحث. فبعض الطرق تكون أكثر فعالية في الوصول إلى فهم أنماط معينة من الأسئلة وإلى الوقوف على أبعادٍ مُحددة لواحدٍ من أسئلة البحث. وتفيد **طرق البحث الكيفية** في التعرف على "الخبرات المُعَاشة" للفرد، وذلك عن طريق طرح أسئلة كهذا السؤال: "إلى أي مدىً يعتبر الناجون من كارثة التسونامي أن الصدمة النفسية التي كابدوها ستكون صدمةً طويلة الأمد؟". وتحتاج الطرق الكيفية لجمع البيانات إلى خطة تحليلية تتعامل -غالباً- مع بيانات النصوص بحثاً عن المعنى، ولكنها "ليست" مفيدة بالذات فى الوقوف على "الصورة الإجمالية أو الكلية". أما طرق البحث الكمية - كالمسوح الاجتماعية مثلا -فتجيب على أسئلةٍ من قبيل: "ما مقدار"؟ و "ما هو مُعدل حدوث كذا؟" كما

تتيح الطرق الكمية للباحث أن يختبر الفروض وأن يستخلص التعميمات من البيانات. غير أن استخدام طريقة بحثٍ مختلطة عُرضةٌ لأن يخضع -كما سنبين فيما بعد - لبعض "القيود العملية" (Brannen, 1992, p. 17) تتعلق بتكلفة إجراء مثل هذا البحث، وبتدريب الباحثين، والمتصلة كذلك بنوع التمويل المتاح للقيام بتنفيذ هذا النمط من خطط البحث.

عند اختيارنا لخطة بحثنا لدراسة كارثة التسونامي يتعين أن نبدأ بطرح السؤال/ أو الأسئلة الخاصة ببحثنا هذا، من قبيل: "كم عدد الذين ماتوا كنتيجة مباشرة لهذهِ الكارثة؟ وما هي القُرى التي أُضيرَتْ؟ و ما هو مدى الدمار الذي وقع؟ ومن هم الناجون (وفقاً لخصائصهم السكانية (كالسِّن، والجنس، والطبقة، إلى آخره)؟ فهذه المجموعة من الأسئلة تبحث عن بعض البيانات الرقمية، مثل: "ما هو عدد كذا؟ و"ما مدى انتشار كذا"؟. والطريقة الكمية **كالمسح السكاني** للجوانب الاجتماعية والاقتصادية للسكان، وكذلك مقارنة هذه الأرقام السكانية بآخر الإحصاءات القومية والإقليمية وبيانات السكان؛ كل ذلك سوف يوفر سياقاً يتمُّ داخله تقدير مدى هذه الكارثة على مستوى القرية وعلى مستوى الأمة. وتزود هذه الطريقةُ الباحث "بصورة إجمالية" تكون بمثابة الخلفية لرؤية الخبرات التي عاشها الناجون. وثمة مجموعة أخرى من الأسئلة عن: "كيف يقوم الناس في المناطق المُضارة بتدبير أمور حياتهم يوماً بيوم؟ وما هي الخبرات التي عاشوها؟ ومن أجل توجيه هذه المجموعة من الأسئلة، فقد ترى ضرورة البدء **بدراسة استكشافية** لعينة من القرى التي أُضيرت بهذهِ الكارثة. فهذه الأسئلة تسعى إلى التعرف على القضايا المتعلقة **بالتفسير أو التأويل**. وهنا سوف تحتاج إلى الإصغاء إلى حكايات هؤلاء الأفراد الذين عايشوا هذه الكارثة مباشرة، فتصغي إلى اتجاهاتهم، ومشاعرهم، وهمومهم. وقد تدخل في حسابك استعمال طائفة متنوعة من الطرق التفسيرية كطريقة المقابلات المتعمقة، أو جماعات المناقشة المركزة، وكذلك طريقة الملاحظة بالمشاركة، وهي الملاحظات التي يتم جمعُها من قطاع مُستعرض من الأفراد المختارين من القرى الأساسية التي دمرها إعصار التسونامي. وتتيح هذه الأساليب في جمع البيانات الوصول إلى

فهم أكمل لما أحدثتهُ هذه الكارثة من أثرٍ على حياة الأفراد، بما في ذلك التعرف على قدرة هؤلاء الناس على معالجة مشكلة فقدانهم لأقاربهم وأصدقائهم، ومواجهة الخسارة الاقتصادية والتدمير الذي لحق بممتلكاتهم ومعيشتهم. ومن شأن هذا النوع من طرق البحث أن يمكن الباحث من أن يتعرف بعمق على الاحتياجات الخاصة والهموم التي تشغَلُ الأفراد الناجين وأن يفهم الفروق الدقيقة في حكاياتهم التي يحكونها عن نجاتهم، وفي طبيعة مشاغلهم وهمومهم، وذلك على المدى القريب وعلى المدى البعيد كليهما. ولب الموضوع أننا نقوم باستعمال خطة ذات طرق بحثٍ مختلطة، عن طريق الجمع بين البيانات الكيفية والبيانات الكمية معاً عندَ محاولة الإجابة على أسئلة بحثنا. فهيا بنا نزداد تعمقاً في دراسة لماذا وكيف ينبغي لنا أن نمضي قُدُما باستعمال هذا النمط من التصميم البحثي.

- ما هي مبررات استخدام تصميم ذي طرق بحث مختلطة؟

يناقش جرين و كاراسلي وجراهام Graham(١٩٨٩) خمسة أسباب محددة يمكن أن تدفع الباحثين إلى استخدام أحد الأساليب القائمة على استعمال الطرق المختلطة.

السبب الأول – وربما الأهم – هو مبدأ **تعدد الطرق**(*). وهذه الاستراتيجية تتضمن استعمال أكثر من طريقةِ بحثٍ لدراسة نفس سؤال البحث. وفيها يسعى الباحث للوصول إلى "نقطة التقاء" النتائج المتحصلة باستخدام الطرق المتعددة ليعزز من مصداقية هذه النتائج. ونلاحظ هنا على هامش هذه النقطة إنه من المهم مراعاة أننا حين نستعمل مصطلح التعدد في هذا السياق ليعني استعمال "طرق مختلفة" (أي تعدد الطرق)، إلا أن المصطلح قد آل بهِ الأمر إلى أن يعني "استعمال" رؤى نظرية مختلفة" (أي تعدد الرؤى النظرية)، كما يَعني هذا المصطلح استعمال المصادر المختلفة للبيانات التي تستخدم نفس الطريقة كما تستخدم طرقا مختلفة (أي تعدُد البيانات) (Denzin, 1978).

(*) المصطلح الأصلي Triangulation يعني حرفيا استخدام ثلاث طرق بحث مختلفة، ولكنه بات اليوم يعني تعدد طرق البحث المستخدمة. (المراجع).

وتطبيقاً لهذا الأسلوب نقول: إننا في حالة هذا المشروع البحثي لدراسة كارثة التسونامي، قد نختار أن نُجري بحثاً سيكولوجيا كمياً من نوع البحوث التي تُجرى "بالورقة والقلم" من أجل التحقق من سلامة أحوال هؤلاء الذين نُجري معهم مقابلاتنا، هذا في نفس الوقت الذي نجري فيه مقابلة متعمقة أكثر شمولاً. فهذهِ المقاييس السيكولوجية – والتي هي مقاييس ذات طابع كمي أوضح– من شأنها أن تخدم كاختبارٍ لصدق نتائج البحث السيكولوجي المُتعمِّق التي جمعناها من مقابلاتنا المكثفة.

ويتمثل السبب الثاني لاستعمال خطة قائمة على طُرق بحثٍ مختلطة في اعتبارها **خطة تكميلية**، والتي بُمقتضاها يسعى الباحث لاكتسابَ فهمٍ أكمل لمشكلة البحث و/أو لتوضيح نتيجة معينة من نتائج البحث. ذلك أن طرق البحث المختلطة تُستخدم من أجل **مساندة** وتعزيز فهم الباحث لمشكلة البحث فهما شاملا. وقد يوجد مثال على ذلك حين يستخدم أحدُ الباحثين دراسةً كيفية لكارثة التسونامي لكي يتحقق من الخبرات المعيشية والمشاعر الدفينة لدى الناجين من الكارثة، وذلك في نفس الوقت الذي يضطلع فيه الجزء الكمي من البحث بإجراء دراسة مسحية لتحديد كيف يشعر القرويون المتأثرون بهذا الحادث بفعالية جهود الإغاثة ولمعرفة اتجاهاتهم وقيمهم العامة فيما يتصل بالسياسات الاجتماعية المتَّبعَة في المساعدة على إعادة بناء قراهم.

ويتمثل العامل الثالث في **التطوير**، إذ "تُساعدُ النتائج المُستَمدة من تطبيق طريقة بحثٍ ما على تطوير الطريقة الأخرى أو زيادة كفاءتها" (جرين وآخرون، ١٩٨٩، ص٢٩٥). وفي مثالنا عن دراسة التسونامي، سيكون الباحث قادراً على استعمال نتائج البحث المتحصلة من الدراسة الكيفية الاستكشافية في تطوير استبيانٍ مَسحي للدراسة الكمية.

ومن الأسباب الأخرى التي تُذكر بخصوص تبرير استعمال طرق البحث المختلطة عامل **المبادرة**، حيث تقود نتائج دراسة معينة إلى إثارة المزيد من الأسئلة، أو تكشف عن وجود بعض التناقضات، التي يقتضي الأمر إيضاحها. وحينئذٍ يتم إطلاق دراسة جديدة لتُضيفَ رؤىً جديدة لفهم الظاهرة قيْدَ الفحص والدراسة (جرين وآخرون، ١٩٨٩، ص٢٦٠). وفي مثالنا عن

دراسة كارثة التسونامي، قد يتبيَّن لنا وجود قدر من التناقض بين بعض نتائج البحث الكيفي فيما يتصل برؤية الرجال والنساء الكوارث الطبيعية، وقد تختلف الاتجاهات المتعلقة بتدبير الأمور عقِبَ الكارثة تبعاً للنوع الاجتماعي والمنشأ القومي لهؤلاء الناجين. وقد تؤدي هذه النتائج المتفاوتة -فعلا- إلى تفسير لنتائج البحث يتفاوت بدوره بناءً على الجنس والقومية. والواقع أن مثل هذه النتائج قد تساعد على إطلاق بحث جديد تماما.

ويفضي بنا هذا الوضع إلى سبب خامس يبرر إجراء البحث ذي الطرق المختلطة هو ما نسميه "التوسع". ويتم اللجوء إلى التوسع "بغرض توسيع عناصر الدراسة ونطاقها" (جرين وآخرون، ١٩٨٠، ص٢٥٩). فقد يريد الباحث أن يقارن الاختلافات تبعا للنوع الاجتماعي والموجودة فيما يقوم به الرجال والنساء من معالجات للمشكلات التي يواجهونها أثناء مختلف أنواع الكوارث. لذلك، وعلى سبيل المثال، قد يقرر أحد الباحثين أن يوسع نطاق الدراسة لتشتمل على مُقابلات يجريها مع الناجين من الهجوم الإرهابي في ٩/١١، قاصداً من ذلك دراسة أوجه الشبه و الاختلاف في أساليب معالجة المشاكل تبعا للنوع الاجتماعي والقومية من ناحية وتبعا لنوع الكارثة من ناحية أخرى. ففي هذه الحالة لا يكون هدف الباحث أن يزيد من صدق دراسته بل أن يُوَسع نطاق الدراسة لتستوعب طائفة أكبر وأوسع من **الأغراض**.

هل ثمة حروب بين النماذج الفكرية؟

إن لأسئلة البحث جذورها الراسخة في كل من الفهم الكيفي والفهم الكمي لطبيعة العالم الاجتماعي (لنكولن وجوبا، ٢٠٠٠). كما أن خَلط طرق البحث يقتضي **خلط النماذج الفلسفية**. فالنموذج هو أحد طرق المعرفة، فهو نافذتنا التي نرى منها العالم الاجتماعي. ولهذا يعمل التصميم ذو طرق البحث المختلطة على مزج الفروض والمسلَّمات الفلسفية الكيفية والكمية معاً، خاصة عندما تكون هذه المُسلمات ذات صلة بالقضايا المتعلقة بطبيعة الفرد والمجتمع وبُمشكلة "الموضوعية والذاتية". وكثيراً ما يؤثر الموقف الفكري للباحث على قراراته المتعلقة بكيفية استعماله **لإحدى الطرق المختلطة**، أي: إنْ كان

يستعملها أم لا ومتى يستعملها، وعلى قراراته المتعلقة بالأسباب التي تبرر له استعمالها. وغالباً ما تكون طرق البحث الكمية مرتكزة إلى أصول متجذرة في أحد النماذج الوضعية الذي يتبنى مُسلّمات معينة فيما يتصل بطبيعة العالم الاجتماعي – والتي تُسلّم بأنه توجَدُ حقيقةٌ اجتماعيةٌ واحدة "موجودة بالخارج" تنتظر اكتشافها من خلال التزام الباحث بالموضوعية، بحيث لا يسمح للمشاعر، والقيم، والاتجاهات أن تتدخل في عملية البحث. (للاطلاع على مناقشة أوفَى لهذه القضايا انظر تَشَكّري Tashakkori وتِدلي Teddlie، ١٩٩٨). أما طريقة البحث الكيفية فتصوغ نموذجاً تأويلياً يؤمن بوجود حقائق متعددة فيما يتصل بالعالم الاجتماعي؛ فجمع المعارف هنا يكون عملاً متحيِّزاً دائماً، كما يتم حثُّ الباحث على أن يكون على نفس مستوى المبحوث ضِمن الجَهْد المبذول لرفع مستوى "البناء المشترك للمعنى". وقد يجد الباحث الشديد التمسك بالوضعية أو ما بعد الوضعية أن من العسير عليه أن يخلط طرق البحث معاً، وهو الأمر الذي يقتضي ضمناً أن يتجاوَز اتجاهه ليدخُلَ في نطاق اتجاهٍ بحثي كيفي.

ويعرَف هؤلاء الباحثون الذي يجدون أنه من العسير أو من المُحال أن يَعْبُروا هذه الحدود الفلسفية والمنهجية، يُعرَفون باسم "الصَّفائيين" (دعاة الوضوح والصفاء)(*) الذين يَرَوْن أن هاتين الطريقتين مُستقلتان ويستحيل الجمع بينهما فلسفيا. أما هؤلاء المعروفون باسم "البراجماتيين" فغالباً ما يؤمنون باستعمال خطة ذات طرقٍ مختلطة إن كانت ستُحَسن من مستوى فَهْمِهم لمشكلة بحثهم، مع قِلةِ الانشغال بالركائز الفلسفية لأي منظور فكري بحثيٍّ من هذين المنظورين. ويلاحظ تشكّري وتدلي (١٩٩٨) أنَّ البراجماتيين:

... يرون أن سؤال البحث أهم من طريقة البحث أو رؤية العالم التي يُفترَض أنها تشكلُ أساس طريقة البحث. ويُفضل معظم الباحثين الأكفاء معالجة أسئلة بحثهم بأيِّ أداة بحث متاحة مستخدمين العقيدة البراجماتية التي تؤمن: المهم الأداة التي "تحقق نتيجة مؤثرة" (ص٢١).

(*) نسبة مجازية إلى الصفائية أو المذهب الصفائي Purism الذي يدعو إلى العودة إلى الأشكال الواضحة الصافية في اللغة وفي فن الرسم (المراجع).

وكثيرا ما نجد ميلا لوصف هذه الاختلافات بعبارات من قبيل: "حروب النماذج الفكرية" Paradigm wars (انظر تَشكري وتدلي، ١٩٩٨، ٢٠٠٥)، إلا أن كثيراً من الباحثين الذين يؤيدون واحداً من هذين الموقفين الفكريين المتطرفين، لا ينظرون إليهما باعتبارهما نوعاً من الثنائية، بل باعتبارهما واقعين على امتداد خط مُتصل (أحد طرفيه أصولي صفائي، والطرف الآخر براجماتي) ولكن توجد على امتداده مجالات توافقٍ والتقاء بين هذين المنظورين الفكريين.

وقد أشار جوبا Guba (١٩٨٥) مُنذ وقت مُبكر إلى تَعذُّر التوافق بين هذين النموذجين الفكريين. وهو يُعلق على ذلك قائلاً: "إننا نتعامل مع فرضية أساسية من نوع "إما/أو"، حيث يتوجب على المرء أن يلتزم بالولاء لنموذجٍ فكري واحد منهما، إما هذا أو ذاك" (جوبا، ١٩٨٥، ص٨٠، نقلا عن بايمان Byman، ١٩٨٨، ص ص ١٠٧-١٠٨). مثال ذلك، أن بعض الباحثين قد يستعمل كلتا الطريقتين، إلا أنه يحرص على أن يظلا دراستين مستقلتين (انظر بالذات مورس Morse، ٢٠٠٣). وقد يؤيد باحثون آخرون استعمال كلتا الطريقتين، لكنهم **يؤثرون** منظوراً فكريا فلسفيا منهما على الآخر عندما يصلون إلى مرحلة تأويل نتائج بحوثهم. والحق أنّ بإمكان المرء أنْ يتخيل مجموعة من "المواقف الفكرية من النماذج" التي تتضافر معا عندما يستعمل الباحث اتجاها قائما على طرق البحث المختلطة في البحث الاجتماعي. بل إن الرؤية القائمة على النموذج الفكري للباحث قد تتغير على امتداد مَسار أي مشروعٍ بحثيٍّ مُعَين. ولو أنني كنت وضعيَّ المذهب بحكم تنشئتي العلمية، وكنت مع ذلك مُنفتحاً لتقبُّل الطرق المتعددة، فقد أبدأ بخطة متعددة الطُرق وأكون منفتحاً لتقبل الأساليب الكيفية، وأنا أوثِرُ مع ذلك نتائج بحثي الكمية على النتائج الكيفية إذا كانت (هذه الأخيرة) متعارضة مع نتائج بحثي الكمية. أو في حالة ما إذا كنتُ وضعيا براجماتيا: قد أكون منفتحاً للاستعانة باتجاه التأويلات المتعددة الموجودة في بياناتي القائمة على الطرق المختلطة، وذلك أثناء تطلعي للوصول إلى تأويلٍ أكثر دقة لنتائج بحثي الكمية. والحقُ أنني -حينئذ- "أتخلّىَ عن قدرٍ يسيرٍ من الوضعية" لأظفر بفهم أكثر عمقا وتأكيدا لبياناتي. وقد يكون التغير الذي يحدث في وجهة نظر أي باحث، قد يكون في الغالب تغيراً تدريجياً متصاعدا وليس تغيراً حاداً أو عنيفاً، إلا أنه بمرور الوقت، سوف يتبين وجود انقلاب واضح ودقيق في تفكير هذا الباحث وفي

ممارسته للبحث الاجتماعي. وقد يحدث هذا التغير كذلك في مراحل مختلفة داخل عملية البحث (كمرحلة صياغة المشكلة/ أو مرحلة جمع البيانات/ أو مرحلة تحليل البيانات/ أو مرحلة تفسير أو تأويل البيانات).

خطط البحث ذات الطرق المختلطة

يقدم دافيد مورجان David Morgan (١٩٩٨) بعض الاستراتيجيات العملية لتصميم خطة دراسة ذات طرق مختلطة. وهو يقترح أربع **خطط بحث ذات طرق مختلطة** تقوم على التتابع (أي الترتيب الزمني)، كما تقوم على الأهمية النسبية (أي درجة الأولوية) الخاصة بكل طريقة. وفي تصميمك لخطة مشروعك، يكون عليك أن تتخذ عددا من القرارات المتصلة بتصميم خطتك الخاصة ذات الطرق المختلطة. وبإمكانك القيام بذلك عن طريق سؤالك لنفسك السؤالين التاليين:

- ما هي طريقة البحث الأساسية وما هي طريقة البحث الثانوية (أي التكميلية)؟.
- ما هي الطريقة التي تأتي أولاً وما هي الطريقة التي تأتي ثانياً؟

يلاحظ مورجان (١٩٩٨) أن الكيفية التي يُجيب الباحث بها على هذين السؤالين تُقدم لنا أربع خطط بحث ممكنة ذات طرق مختلطة. ومع ذلك، فمن المهم ملاحظة أن هناك عددا كبيراً آخر من الخطط ذات الطرق المختلطة، والتي تجمع بين الطرق الكيفية والطرق الكمية ذات المعايير المختلفة. إذ تقوم بعض

الجدول ٩/١: الجمع بين الكيفي والكمي
تصميم رقم (١): تصميم أو خطة كيفية ثانوية تعقُبها **خطة كمية أساسية**.
تصميم رقم (٢): تصميم أو خطة كمية ثانوية تعقبها **خطة كيفية أساسية**.
تصميم رقم (٣): تصميم أو **خطة كمية أساسية** تعقبها خطة كيفية ثانوية.
تصميم رقم (٤): **خطة كيفية أساسية** تعقُبها خطة كمية ثانوية.
المصدر: منقول بتصرف من دافيد مورجان (١٩٩٨)

الخطط ذات الطرق المختلطة بالجمع بين الطرق بصورة متزامنة، أي في نفس الوقت، إلا أنها تحتفظ بالتمييز بين الأوّلى/والثانوي (انظر كريزول ٢٠٠٣). وهذا التمييز – بين الأساسي والثانوي- الذي يقترحه مورجان لا يأخذ في اعتباره إلا بُعد التعاقب (أي الترتيب الزمني) أي بالدراسة التي تتم بَعْدَ الدراسة الأخرى. إلا أن غيره من الباحثين الذين يستعملون طرق البحث المختلطة ويُجرون دراساتهم بصورة متزامنة (في نفس الوقت)، كثيرا ما يضعون كلتا الطريقتين على قَدَم المساواة بدون التمييز بين الطريقة الأساسية والطريقة الثانوية (كريزول، وفترز Fetters، وإيفانكوفا Ivankova، ٢٠٠٤، ٢٠٠٣، ١٩٩٩). بل إن ثمة آخرين يرون أن بعض قضايا إحدى الطريقتين (الكيفية أو الكمية) تكون متضمنة في الطريقة الأخرى، مع إعطاء الطريقة المتضمنة دَرَجَةً أدنى من الأهمية. وقد يصل الأمر بهذهِ الطريقة الأخيرة (المتضمنة) إلى أن تُجيب على سؤال بحثٍ مختلف (عن السؤال الأصلي للبحث)، إلا أن كلتا الطريقتين تُستعملان لتحليل هذه البيانات (كريزول وآخرون، ٢٠٠٣، ص٢٢٩). كما أن بالإمكان المزج بين دراستين كيفيتين ودراستين كميتين. ويشير تدلي وتشكري إلى هذا النمط من الخطط باعتبارها خططاً "متعددة الطرق".

ونحن نقدم تنميط دافيد مورجان (١٩٩٨) لعملية خلط طرق البحث مع التنبُّه للمحاذير المذكورة آنفاً. وبإمكاننا أن نرى من خلال الجدول ٩/١ الاحتمالات الأربعة الممكنة لتصاميم البحث.

الخطط ذات الطرق المختلطة، مع أمثلةٍ لها

يتضمن التصميم أو الخطة الأولى (والمكونة من خطة كيفية ثانوية تعقُبُها خطة كمية أساسية) تتضمن القيام بتنفيذ العُنصر الكيفي لمشروع البحث أوّلاً، إلا أننا نحتفظ بهِ باعتباره عنصراً ثانوياً بالنسبة لأهداف المشروع. والطريقة الكمية هي الطريقة الأساسية، إلا أنها تستخدم كنوع من المتابعة للدراسة الكيفية. ويوفر استعمال خطة كيفيةٍ قبل الخطة الكمية للباحث الذي ليست له دراية واسعة بموضوع البحث؛ يوفر له الفرصة لأن يُولّد بعض

الأفكار/ أو الفروض التي قد تتناسب – بصورة أخصّ– مع الجزء الكمّي من المشروع. ويوجد مثال إيضاحي لهذا الشكل من خطط الدراسة ذات الطرق المختلطة في مشروع بحثي أجراه كوتنر Kutner، و ستاينر Steiner، وكوربت Corbett، و يانجن Jahnigen و بارتون Barton (١٩٩٩) على مَرضَى في مرحلة الاحتضار.

فقد كان هؤلاء الباحثون **مهتمين** بفهم الخبرات المعاشة لهؤلاء الراقدين في مرحلة الاحتضار. ففي هذه المرحلة من المرض، غالباً ما يكون المقصود "بالرعاية" بذل اهتمام أكبر بعقل المريض وجسده واحتياجاته الروحية، مع اهتمام أقلّ بالتدخلات الطبية. إذْ أن من المهم أن نفهم الخبرات المعاشة للمرضى المحتضرين، وأن ننقُل مثل هذه الاحتياجات مباشرةً لهؤلاء الذين يقومون على رعايتهم، خاصّةً أطباءهم. كما كان لدى أولئك الباحثين رغبة في أن يتمكنوا من تعميم نتائج دراستهم على المجموعة السكانية الأوسع نطاقاً من المرضى في مرحلة الاحتضار.

يبدأ تصميم البحث بدراسةٍ قائمةٍ على المقابلات الاستكشافية الكيفية (وهذا هو الجزء الكيفي الثانوي) لعددٍ ٢٢ من المرضى في مرحلة الاحتضار، باستعمال المقابلات ذات النهاية المفتوحة بغرض الوصول إلى فهم الهموم التي تشغل المرضى المحتضرين. وتُمكن المعلومات الكيفية – التي تجمع من هذه المقابلات – الباحثين من ابتكار مجموعة من الأسئلة ذات النهايات المغلقة وذات النهايات المفتوحة، ومجموعة من المقاييس التي لا تقوم على "سيناريوهات" افتراضية وإنما تقوم مُباشرةً على خبرات جماعة المرضى المحتضرين. وبتعبير آخر نقول، إن الجُزء المسحي من هذه الدراسة (أي الجزء الكمي الأساسي) كان "مرتكزاً" على الخبرات المباشرة لمجموعة من المرضى في حالة الاحتضار. وكانت الدراسة الكمية هي الدراسة الأساسية، وكانت تتألف من مسحٍ مقنن لعدد ٥٦ من المرضى المحتضرين. وكان الهدف من المسح هو تقدير مدى ارتباط السمات الشخصية للمريض بالفجوة الموجودة بين المريض وتوقعات الأطباء بالنسبة لرعاية المرضى في حالة الاحتضار. وقد خلص الباحثون إلى أن بالإمكان أن يكون لدى الأطباء والمرضى – في

كثير من الأحيان – قيمٌ مختلفة فيما يتصل بمعنى الاحتضار. فعلى حين يركز الأطباء على الجوانب "الطبية" للمرض، فإنه في أحيانٍ كثيرة لا تحظى احتياجات المرضى المتعلقة بالأمور الاجتماعية والشخصية إلا بقدر ضئيل من العناية، كما أنها تفوق في أهميتها المسائل الطبية المرتبطة بها. والحق أن الأمرَ الذي تُظهره البيانات الكيفية هو أن المرضى المحتضرين لديهم معلومات قيمة عن العناية الخاصة والتدخلات التي يحتاجون إليها من أجل أن يشعروا بالقدرة على السيطرة على أمور حياتهم اليومية، إلا أن الأطباء كثيراً ما يغفلون عن استخلاص هذه المعلومات القيمة منهم.

وفي التصميم أو الخطة الثانية – حيث يأتي الكمي الثانوي متبوعاً بالكيفي الأساسي – فتُستخدم الدراسة الكيفية بصورة ثانوية، وتكون الدراسة الكيفية هي الدراسة الأساسية. وفي هذه الحالة، تُستعمل الدراسة الكمية لتمييز جماعاتٍ بحثية معينة أو قضايا معينة التي تحتاج إلى مزيد من الاستكشاف المتعمق. والمثال على هذا النمط من البحث دراسة أُجريَت على اتجاهات الأطباء الممارسين العموميين عند مناقشتهم لقضية التدخين مع مرضاهم. كان المؤلفون يريدون أن يميزوا مجموعةٍ من الأطباء الممارسين العمومين الذين يتبنون تشكيلة متنوعة من الاتجاهات المختلفة. وقد قامت الدراسة الكمية (الثانوية)، والمعتمدة على أحد المسوح المختصرة للاتجاهات لدى ٣٢٧ من الأطباء الممارسين العموميين؛ قامت بمساعدة الباحثين على تحديد مجموعة متنوعة الاتجاهات من المُستجيبين الذين أمكنهم بالفعل أن يجروا معهم مقابلات كيفية، وهو ما ضمن لهم الوصول إلى فهم متعمق للقضايا المتعلقة بالتدخين لدى أنماط مختلفة من الأطباء الممارسين العموميين (Coleman, Williams & Wilson, 1996).

ويشير مورجان (١٩٩٨) إلى أن التصميم أو الخطة الثالثة ذات النهج الكمّي الأساسي والمتبوع بالنهج الكيفي الثانوي، يتم تصميمها بحيث تكون الدراسة الكمية هي النمط الأساسي للبحث، مع جَعْل الدراسة الكيفية هي الدراسة الثانوية. وكثيرا ما يُستعمل هذا النمط من التصميم حينما تُوجَد حاجة لتوفير إيضاحٍ/ أو تفصيلٍ وتدقيق لنتائج البحث المستمدة مما انتهت إليه

الدراسة الكمية. إذ أن الدراسة الكيفية تساعد على فهم بعض الأمور التي منها مثلاً: النتائج السلبية، بجانب ما يُسَمَّى بالنتائج "الغريبة" أو "النائية" outliers (أي النتائج التي تبدو غير متناسبة مع الفرض الإجمالي للدراسة أو مع توجهها النظري العام). والحق أن البيانات الكيفية يمكن استعمالها لتكملة البيانات الكمية حتى تساعد الباحث الكمي في "إنقاذ" بياناته عن طريق فهمه "للنتائج الخاطئة" الموجودة في بياناتـهِ المَسْحِية (Weinholtz, Kacer & Rocklin, 1995).

ونجد نموذجا لهذه الخطة في مشروع بحث عن اندماج العائلات المهاجرة في المجتمع السويدي (Bjeren, 2004). والبيانات الأساسية لهذه الدراسة مستمدة من مَسحين اجتماعيين كميين (أي أن البيانات الكمية فيهما هي البيانات الأساسية) كان هدفهما جمع معلومات عن بعض المهاجرين الوافدين إلى السويد من المولودين في تلك البلاد، وذلك من واقع البيانات المتاحة (وهي دراسة سابقة واسعة النطاق عن الرعاية التي يتلقاها المهاجرون الوافدون) ومن مسحٍ كميٍّ واسع النطاق لعدد ٣٤٠٨ من البالغين (من المولودين داخل السويد ومن المولودين خارجها) عن الحياة العملية والحياة العائلية لهؤلاء الأفراد. وقد كان الباحثون يريدون أن يقارنوا الظروف الاقتصادية والاجتماعية لشباب المهاجرين الوافدين من بولندا وتركيا بالظروف المماثلة لنظرائهم من المولودين داخل السويد. وقد استُخدمت الدراسة الكيفية (الثانوية) كطريقة مساعدة لتوضيح بعض القضايا المتصلة "بديناميات العائلة" وبالعلاقات المجتمعية بين "جاليات" المهاجرين الأتراك والمهاجرين البولنديين. يُضافُ إلى ذلك أنه أُجريت عينة مناسبة من المقابلات، كما رُصدت بعض الملاحظات الرسمية وغير الرسمية مع شباب المهاجرين الوافدين ومع بعض والديهم. ويلاحظ المؤلفون أن هذه الدراسة الكيفية:

... تشير إلى وجود تناقضات، وإلى مجالات ينبغي إعطاؤها مزيداً من الاهتمام، وإلى العواقب التي قد تترتب على عدم الاستجابة للمسوح الاجتماعية. وفي الاتجاه المقابل، دلّ تحليل بيانات المسح على أن بعض النتائج المستمدة من الدراسات المكثفة تبدو ذات مصداقية محدودة، وربما

يعكس هذا التحليل نوعية القيود التي تحيط بإجراء مثل هذه الدراسات أو تعكس القضايا الأشد عُمقاً والمتصلة بالاختلافات بين ما يُظهره الناس من صورٍ لأنفسهم وبين ما يشعرون به فعلاً. (Bjeren, 2004, p.6).

إن إحدى النتائج البحثية المهمة التي بَدا أن البيانات المسحية تفتقدُها، تتمثل في فَهم أهمية الدين في حياة المهاجرين الوافدين. إذ يلاحظ المؤلفون أن السويد مجتمع علْماني لا يولي أهميةً كبيرة "للمشاعر الدينية التي قد يُنظرُ إليها باعتبارها من أشكال النكوص إلى الأزمنة البعيدة (Bjeren, 2004, p.7). ومن الأمور المثيرة للاهتمام أن نلاحظ هنا أن الدراسة الكمية أجراها علماء سكان في حين أجرى الدراسة الكيفية علماء أنثروبولوجيا. وهذا يثير السؤال عن التأهيل العلمي المطلوب للاشتراك في تنفيذ خطة ذات طرق مختلطة، مع العلم بأن أسلوب الطرق المختلطة يتطلب كذلك اشتراك باحثين من فروع متعددة من العلوم. وقد يثير هذا الوضع –كذلك– قضايا تتعلق بالتواصل بين الباحثين الذي لا يتشاركون في نفس المنظورات الفلسفية والتوجهات المتعلقة بطرق البحث.

في التصميم أو الخطة الرابعة للبحث – أي الخطة ذات البيانات الأساسية الكيفية والمتبوعة بدراسة كمية – تكون الدراسة الكيفية هي أساس البحث تتبعها دراسة ثانوية ذات طابع كمي. وتُستخدم هذه الدراسة الكمية في اختبار النتائج المتحصلة من دراسة عدة مجموعات مختلفة، وذلك بهدف التحقق مما إذا كانت النتائج الكيفية يمكن أن تنسحب إلى بعض المجموعات الأخرى أم لا (مورجان، ١٩٩٨، ص٣٧٠). وتهتم الدراسة متعددة الطرق التي قام بها جيويا وتوماس (Gioia and Thomas 1996) بالكيفية التي يُميز بها المسئولون عن إدارة الجامعات القضايا المهمة التي تؤثر على الجامعات التي تتعرض "لتغير استراتيجي". وهي نموذج للتصميم أو الخطة الرابعة والأخيرة، من الخطط المختلطة الطرق، التي تناولناها في هذا الفصل. فالباحثان استخدما طريقة كيفية – وهي دراسة حالة واحدة لفريق إداري بإحدى الجامعات – للتوصل إلى فهم الخبرات المعاشة لرجال الإدارة العليا في التعليم العالي. وتُمكن دراسة الحالة الكيفية الباحثين من تمييز "الصورة"

و"الهوية" كمحورين أساسيين لهما أهمية خاصة في مساعدة المسئولين الإداريين على تمييز وتحديد التغييرات الاستراتيجية التي ستحتاج إليها الجامعات وهي في خضم التعرُّض لتغييرات تنظيمية حادة. إذ تدور في أذهان المسئولين الإداريين بالجامعات فكرةٌ مُؤداها أن تبني صورة مرغوبة للجامعات يرتبط أوثق الارتباط بطريقة النظر إلى مؤسساتهم في المستقبل. وقد كان لهذين العاملين أهميتهما كذلك في فهم الطريقة التي يصنف بها كبار المسئولين قضايا الجامعة: فإماً أن تكون قضايا استراتيجية (وهي القضايا التي من شأنها دفع الجامعات للأمام) وإمَّا أن تكون قضايا "سياسية" (وهي القضايا التي تكون في الغالب قضايا ذات طبيعة داخلية ومُعززة "للوضع القائم"). وقد تمت صياغة النتائج الكيفية في ضوء مجموعة من الفروض المتعلقة بالعلاقات بين الهوية، والصورة، والتأويلات (أي: الاستراتيجي في مقابل السياسي). ثم اختُبِرت هذه الفروض في مسح كميّ لعينة من ٦١١ من كبار المسئولين الإداريين الجامعيين تم اختيارهم من ٣٧٢ كلية وجامعة عبر الولايات المتحدة. وفي هذه الخطة البحثية ذات الطرق المختلطة، تصبح البيانات الكيفية عنصراً حاسماً في فهم مشكلة البحث، كما تقوم الدراسة الكمية بمساعدة الباحثين في "الاختبار النهائي" للنتائج المُستخلصة من الدراسة الكيفية بحيث يمكن تعميم نتائجها لتشمل مجموعة أكبر من المسئولين الإداريين بالجامعات. ومُجمل القول إن نتائج المسح أكدت أهمية العلاقة بين الصورة والهوية في أذهان كبار المسئولين الإداريين، كما أن بالإمكان أن تصبح هذه النتائج عَدَسة مهمة من خلالها يستطيع المسئولون الإداريون رؤية التأويلات التي تمكنهم من بلورة القضايا الرئيسية التي ينبغي عليهم العناية بها في مناخ من التغيير الاستراتيجي.

مشكلات وآفاق الخطط ذات الطرق المختلطة

برزت - حديثاً - مجموعة من القضايا المتصلة بعملية المزج بين طرق البحث المختلفة. فبعض الباحثين لا يتضح لهم ماذا يفعلون عندما تكون النتائج المستمدة من كل طريقةٍ غير متفقة مع نتائج الطرق الأخرى، أو عندما

لا تلقى الدراسة الكيفية قبولاً أو اعترافاً. وفي هذا الصدد تذهب بـرانن (Brannen, 1992,p.27) إلى أنه قد يحدث – حتى في الدراسات التي يكون العنصر الكيفي فيها أساسيا– أن تتفوق النتائج الكمية في قوتها وتتسلط على النتائج الكيفية. ونجدها (١٩٩٢) تستشهد بدراسة أجريت عن خدم المنازل (Cragg & Dawson, 1981) وتلاحظ أن المكوِّن الكيفي في هذه الدراسة لم يلقَ مدحاً وإطراءً بسبب مافيه من أفكارٍ نظرية عميقة، وإنما بسبب كبر حجم العينة الكيفية!

يتسبب القيام بهذا النوع من البحث في تحمُّل تكاليف اقتصادية، إذا أخذنا في الاعتبار مقدار الوقت والطاقة المطلوبين لاستيفاء أي مشروع. يُضاف إلى ذلك قضية ما إذا كانت البحوث التي يقوم بها باحثون أفراد يمكن أن تتوفر لها مجموعة المهارات المطلوبة لخلط الطرق أم لا (برانن، ١٩٩٢، ص٢٠). ويلاحظ زلر Zeller (١٩٩٣) أن "... لدى معظم الباحثين نوعاً من الولاء لطريقة بحثه. فالباحثون يكونون مرتاحين نفسيا للعمل داخل نطاق خبرتهم المنهجية، وقد يراودهم شعور بالضعف تجاه العمل خارج هذا النطاق" (ص ١١٠). والواقع أنه قد تجرى بعض هذه الدراسات – المختلطة الطرق – على يد فريقي بحث مختلفين قد تتكامل أو لا تتكامل نتائجهم البحثية. وكذلك مُستهلكو هذا النوع من البحوث قد يكونون على علمٍ بطرق البحث التي يستعملها كلا الفريقين أو لا يكونون على علمٍ بذلك، ولهذا السبب فإن من المهم أن يأخذ الباحث الوقت الكافي لتقديم المفاهيم التي قد تكون غريبة على الأفراد الذين لا تتوفر لهم الدراية بنموذجٍ فكريٍ مُعين. وبإدخالنا في الحُسبان أن هذه الدراسات تتخذ موقفاً ملتبساً من النموذجين الفكريين المختلفين والطريقتين البحثيتين المختلفتين، فإنه توجد تلك القضية الأخرى والمتمثلة في أن مثل هذا البحث سوف يضطر إلى دخول معمعة النشر في المجلات العلمية الأكاديمية، والتي قد يكون الكثير منها مُعادياً لخلط طرق البحث (برانن، ١٩٩٢).

مع ظهور البرامج الجاهزة لتحليل البيانات الكيفية بمساعدة الكومبيوتر، والمعروفة باسم CAQDAS(*) (See Fielding & Lee, 1998; and Hesse-Biber & Maietta, 2005) أخذت بعض المسارات الجديدة في التحليل تطمس الحدود الفاصلة بين الطرق الكيفية والطرق الكمية. فقد أصبح الآن بوسع الباحث أن يعالج بياناته الكيفية، والتي منها مثلاً المادة المدونة في سجلات المقابلات والتي هي بيانات نصية (أي: مكتوبة) ليبتكر من هذه البيانات "متغيرات"، وهي عملية تعرف باسم "تكميم البيانات" (أي تحويل البيانات الكيفية إلى كمية – المراجع). وتقوم برامج الكومبيوتر الجاهزة والخاصة ببرامج التحليل الكيفي؛ تقوم بمساعدة الباحث في خلق بيانات "المتغير" القائمة على (فئات تصنيف) المادة الكيفية، ومن ثم جعل تلك المعلومات صالحة لإجراء التحليل الإحصائي عليها. كما تتيح بعض البرامج الجاهزة الكيفية الأخرى للباحث أن يستجلب – بصورة مباشرة – بيانات كمية، كالبيانات التي جمعت من مَسحٍ ما مثلاً، ليضعها في برامجه الكومبيوترية، الأمر الذي يتيح للباحث أن يعمل – في نفس الوقت– مع قاعدة بيانات كيفية وقاعدة بيانات كمية. ونظراً لأن برامج تحليل البيانات الكيفية تواصل تقدمها نحو التكميم (اكتساب الطابع الكمي)، فإنه توجد تقنيات برمجية تتيح للباحث أن يُولد نظرياته عن المادة الكيفية وأن يختبرها. وتستخدم بعضُ البرامج الذكاء الاصطناعي – أي نُظُم الخبرة القائمة على المعرفة. والآن يستطيع البرنامج المسمَّى "مختبر الفرض" Hypothesis tester – والذى هو أحد تطبيقات برامج "البحث الفائق" HyperRESEARCH – أن يمكننا من وضع المقدمات أو الفروض التي من نوع "إن كان كذا/ فالنتيجة كذا" "if/then". ويُعزز "برنامج البحث الفائق" استعمال "قواعد الإنتاج" لمساعدة الباحثين في توليد وخلق العلاقات بين قطاعات النص التي تم تصنيفها فعلا، وفي صياغة واختبار الفروض المتعلقة بطبيعة هذه العلاقات (هس-بيبر، و دوبوي Dupuis، ١٩٩٥). والبرنامج المسمى "إثنو" ETHNO (Heise, 1991;

(*) CAQDAS=Computer-Assisted qualitative data analysis software.

(Heise & Lewis, 1988 عبارة عن أحد البرامج الجاهزة التي تصوغ "تحليلاً لبنية الحَدَث" يقوم باختبار توقيت أحداث مُعَينة وبتحليل التتابع الزمني المنطقي للعلاقات بين الأحداث، وذلك بناءً على السرديات السببية الموجودة داخل البيانات.

عملية التكميم: أي تحويل فئات التصنيف (الكيفية) إلى متغيرات (كمية): مثال على ذلك

تعد فئات التصنيف الكيفية بمثابة "لافتات" تُعطى لقطاعات البيانات النصية، والمستخرجة من النص الذي يحوي مادة إحدى المقابلات أو غيرها من البيانات السردية (كالمجلات، والصحف، إلى آخره) التي يمكن تحويلها إلى أرقام. وبذلك التحويل تصبح المادة التي كانت كيفية من قبل بيانات كمية (أي: "متغيراً") تساعد على تطبيق تقنيات التحليل الإحصائية. وهذه هي التقنية التي تُسمى "التكميم". (كان ماليز Milesو هيوبرمان Huberman، ١٩٩٤، أول الباحثين الذين استخدموا هذا المصطلح، وانظر كذلك ساندلوسكي Sandelowski، ٢٠٠٠، ص ٢٥٣). ونجد المثال التطبيقي لهذه التقنية في التحليل الذي قامت بهِ هس- بيير وكارتر Carter(٢٠٠٠) لعدد ٥٥ فتاة مضى على تخرجهن من الجامعة سنتان ممن أُجريت معهن مقابلات تناولت موضوع أنماط تناولهن للطعام والاهتمامات المتصلة بصورة الجسد لديهن (انظر هس-بيير، ١٩٩٦). فالمؤلفتان مهتمتان باستكشاف هذه البيانات بغرض فهم السؤال التالي:

- هل توجد علاقة بين ما يبديه أفراد العائلة والأصدقاء من ملاحظات ناقدة وظهور أعراض الاضطراب في تناول الطعام بين الفتيات؟

تكشف البيانات الكيفية عن أنه، في الوقت الذي يكون فيه بعض أفراد الأسرة والأقران مؤيدين لبدانة الفتاة ولصورة الجسد هذه، فإن بعضهم ينتقدون ذلك تماماً. وفيما يلي نصٍ مُستخلص من عدد من المقابلات التي أجرتها هس- بيير (١٩٩٦، نقلاً عن هس- بيير وكارتر، ٢٠٠٤). ففي النص المستخلص الأول، يمكننا أن نلاحظ كيف كانت والدة جوانا مؤيدة لصورة جسد ابنتها:

جوانا: إن كل ما تريده أمي هو أكون سعيدة. فبإمكاني أن أزن ٥٠٠ رطلاً طالما أنا سعيدة. فقد كان تركيزها دائماً منصباً على صحتي، أكثر منه على مظهري. لذلك كانت تعليقاتها -دائماً- أكثر نزوعاً لذلك الدعم الإيجابي. ومن النادر جداً أن أتذكر فعلاً أنها وجهت لي ما يمكن أن يكون تعليقات سلبية علي مظهري. فالغالب علي موقفها أنه موقف تشجيعي. إن أمي تُحب أن تقول كلاماً كهذا: "إن لك وجهاً جميلاً، إن لك يدين جميلتين". فهي تحب أن تركز على ما أتفرد به من صفات.

وفي الجانب المقابل، تحكي جوان وبيكي حكايات عن مدى انتقاد أسرهم لبدانتهما ولصورة جسديهما:

جوان: يميل أشقائي وشقيقاتي إلى أن يدوروا حولي ويحدثون أصواتاً مُزعجة بغيضة.. ويميل والدي لأن يقول: "عليك أن تُخفضي وزنك". وأنا اتمنى أن أحاول ذلك، كما أتمنى أن أنجح في هذه المحاولة.

بيكي: يُحب أشقائي أن يشيروا إلى أمي، وهي تحبُ أن تقول لي: "إن شقيقك روب يرى أنك أصبحت بدينة"، ثم تردف قائلة: "ربما ينبغي عليك أن تكفي عن الإفراط في تناول الطعام". وقد علّق أبي على وزن جسمي كثيراً. ولم تكن تعليقاته سَيئَة أبداً. بل كانت إيجابية دائما. فهو يميل لأن يقول: "إنك تبدين في حالة طيبة، لقد تخلصت من بعض الوزن". وكان يعلق دائماً على الفتيات الحسناوات. وبذلك علمتُ أنه يهتم بأن أبدو في شكل طيب أيضاً. وكنت أرغب في أن يفهم أنني أستطيع أن أكون جميلة كسائر الفتيات اللاتي كان يمتدحهن. فكنت أرغب أن يكون فخوراً بي لهذا السبب، كما كُنتُ أعلم أنه كذلك فعلاً.

ومع ذلك، فسرعان ما أصبح من العسير علي هاتين الباحثتين، بعد قيامهما بإجراء ٥٥ مُقابلة، أن يوجدا علاقات واضحةً تربط بين هذه البيانات. فالواقع أن استعمال التحليل الكيفي للإجابة على سؤالٍ كميّ أصبح عسيراً بسبب ازدياد أعداد المقابلات. وكما ذكرنا قبل ذلك، فإن البيانات الكيفية تصلح للوصول إلى فهم الخبرات، إلا أن القضية هنا تتعلق بالسببية: "هل توجد علاقة بين "س" (الانتقاد) و "ص" (اضطرابات تناول الطعام)"؟. ففي هذه

المسألة يصبح "الانتقاد" هو المتغير المستقل (أي السبب) وتُصبح "اضطرابات تناول الطعام" هي المتغير التابع (أي النتيجة).

وتتيح لنا عملية التكميم أن نتناول البيانات الكيفية بصورة أكثر كمية عن طريق قيامنا بتحويل بياناتنا الكيفية (أي فئات التصنيف المستخدمة) إلى بيانات كمية (أي متغيرات). فيها بنا نرى كيف تتم هذه العملية.

عملية الربط بين الكيفي والكمي (تكميم الكيف بالكم)

الخطوة الأولى: تصنيف النص

قامت كل من هس- بيبر وكارتر (٢٠٠٤)، في سعيهما لتمييز الأنماط المحورية في هذه المقابلات الخمسة والخمسين؛ قامتا بتصنيف هذه الأنماط باستعمال حزمة البرامج الجاهزة المعروفة باسم "البحث الفائق" HyperRESEARCH الخاصة بتحليل البيانات الكيفية (هس - بيبر، ودوبوي، و كيندر Kinder، ١٩٩١). مثال ذلك، أن حديث جوان عن عائلتها والذي تقول فيه: "يُحبُّ والدي أن يقول: "لابد أن تُخفضي وزنك" قد أُعطيَ تصنيفا كيفياً هو: "الانتقادات الوالدية – أو انتقادات الأقران- أو الأشقاء " (بي. بي. إس. سي)(*). (انظر تحليل البيانات في الفصل العاشر، وذلك للوقوف على مزيد من الوصف التفصيلي لعملية التصنيف الكيفي). وقد نُفذت تقنية تصنيف مشابهة لخلق فئات تصنيف "لاضطرابات تناول الطعام" وهكذا.

الخطوة الثانية: تحويل فئات التصنيف إلى متغيرات (أي تحويل الكيفي إلى كمي)

في هذه المرحلة حُولت فئات التصنيف الكيفية إلى متغيرات كمية. وقد لاحظت الباحثتان أن ١٦ مقابلة من المقابلات أوضحت أن أحد الوالدين أو أحد الأقران أو أحد الأشقاء كان ينتقد عادات تناول الطعام لدى المبحوثات وينتقد صورة أجسادهن، قد أُعطيت فئة التصنيف PPSC (الخاص بالانتقادات الصادرة من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء). وهنا قام برنامج كومبيوتري

(*) PPSC= Parents- or- Peers-or-Siblings Criticals.

للتحليل الكيفي بتحول "المتغير" المذكور (بي. بي. إس. سي) عن طريق إعطاء هذه المقابلات الستة عشر القيمة "نعم" وإعطاء الـ٣٩ مقابلة الأخرى القيمة "لا". وقد نُفذ نفس الإجراء بقصد الحصول على متغيرات أخرى مثل: "اضطرابات تناول الطعام" (EATDIS) ولتحديد متغيراتٍ لها قيمة "نعم" ومتغيرات لها قيمة "لا" (انظر هس- بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص٨٩، وذلك لوقوف على المزيد من التفاصيل).

الخطوة الثالثة: نقل فئات التصنيف المكمَّمَةَ إلى حزمة برامج إحصائية جاهزة للتحليل الكمي

تم بعد ذلك نقل فئات التصنيف المكمَّمة (والتي حُوِّلت الآن إلى متغيرات) إلى حزمة برامج جاهزة إحصائية سعيا إلى الحصول على مختصراتٍ كمية للعلاقات المحورية التي تم التعرف عليها في سؤال البحث. ويمكننا أن نرى طرفاً من النتائج التي توصلت إليها هذه العملية في الجدول ٢/٩.

فالجدول ٢/٩ يُظهر، بصفة خاصَّة، وجود علاقة قوية بين بي بي إس سي (أي الانتقادات الصادرة من الأُسرة والأقران) وما هو مُسجل من أعراض اضطرابات تناول الطعام (EATDIS): كعرض الشره المرضى، وعَرَض فقدان الشهية. والواقع أن الباحثتين واصلتا العمل لتدقيق هذه العلاقة عن طريق البحث في المتغيرات المكممة (الكيفية التي حولت إلى كمية) الأخرى التي تصوَّرنا أنها رُبما تكونُ مرتبطة بهذه النتيجة، ولزيادة تأكيد هذه النتيجة عن طريق البحث عن عوامل أخرى قد تضعف أو تدعم وجود علاقة بين الانتقاد وظهور أعراض اضطرابات الأكل. ومما يثير الانتباه، أن الباحثتين اكتشفتا أنه حين يكون أحد الوالدين بدينا وينتقد جسم ابنته، فإن كلماته تكون أضعف تأثيرا مما لو كان غير بدين.

جدول ٢/٩: العلاقة بين الإصابة بأحد اضطرابات الأكل (EATDIS) والنشأة مع آباء وأمهات وأقران وأشقاء "منتقدين" لجسد الفتاة وعاداتها في الأكل (PPSC)

الانتقادات الصادرة من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء (PPSC)

		لا	نعم	
اضطرابات تناول الطعام EATDIS	نعم	١٢,٨ (٥)	٥٦,٣ (٩)	
	لا	٨٧,٢ (٣٤)	٤٣,٨ (٧)	
		١٠٠% (٣٩)	١٠٠% (١٦)	ن=٥٥

جدول مأخوذ من هس – بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص٨٩.

مكنت عمليةُ التكميم الباحثتين من الإيضاح التام للظروف التي في ظلها تكون العلاقة الأصلية بين الانتقاد واضطرابات الأكل أقوى وأشد (عندما تكون الأم غير بدينة) أو أضعف (عندما تكون الأم بدينة). وتلاحظ المؤلفتان أنه يوجد:

تفاعل بين بي بي سي إس (أي الانتقادات الصادرة من الوالدين، والأقران، والأشقاء) وكون أحد الوالدين بدينا (أو غير بدين)، عند تقرير مدى احتمال إصابة الفتاة التي تتم مقابلتها بأحد اضطرابات الأكل. وبصورة أكثر تحديداً وجدنا أن الانتقادات لا يكون لها أهمية في الواقع إلا في سياق الأسرة التي يكون فيها الوالدان غير بدينين. ومُوجز القول، يبدو أن انتقاد أحد والدي الفتاة لابنته وهو بدين، يكون قليل التأثير على إصابة ابنته بأحد اضطرابات الأكل، بينما يكون لدى الابنة ذات الوالدين النحيفين احتمال قوي للإصابة بالشره المرضى أو بفقدان الشهية للطعام. (هس – بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص٨٩).

استخدام المتغيرات الكمية في تحسين مستوى التحليل الكيفي مباشرة:

تكييف البيانات (تحويلها من الكمي إلى الكيفي)

كيف يتسنى للباحث استخدام المعلومات الكمية بصورة مباشرة في التحليل الكيفي لبياناته؟ هذا هو الوضع الذي تجري فيه معالجة النتائج المأخوذة من البيانات الكمية بإدخالها مباشرة في تحليل كيفي. ويُستعمل مصطلح "التكييف" Qualitizing للإشارة إلى عملية تحويل البيانات الكمية إلى بيانات كيفية (انظر تَشكُّري وتدلي، ١٩٩٨، وهما اللذان صكًا هذا المصطلح للمرة الأولى، وانظر كذلك ساندلوسكي، ٢٠٠٠، ص ص ٢٥٣-٢٥٤). ويقوم "تكييف" البيانات الكمية برفع مستوى فهم الباحث للبيانات الكمية عن طريق وضعها في سياق كيفي، خالقاً بذلك نوعاً مُهجَّناً من التحليل. كما أن البيانات الكمية تزود الباحثين بمجموعة من المتغيرات التي بها يُصنِّفون بياناتهم الكيفية إلى فئات كمية ليرفعوا مستوى قابلية نتائجهم للتعميم. فقد يرغب الباحث الذي يحول بياناته إلى كيفية في رفع مستوى فهمه للمتغيرات الكمية عن طريق إدخال هذه المتغيرات في سياقٍ كيفي.

وقد اشتملت الدراسة التي قامت بها هس-بيبر (١٩٩٦) عن صورة الجسد عند النساء واضطرابات الأكل على كل من البيانات الكيفية والكمية معا. إذ قامت الباحثة بإجراء مقابلات مع عينة من الشابات اللائي مَضَى على تخرجهن في الجامعة سنتان، أعقبتها بأن كلفت مبحوثاتها بأن يقمن بأنفسهن بملء بيانات استبيان يتعلق بميول النساء تجاه الأكل، كما يتضمن طائفة من المقاييس الكمية لاضطرابات الأكل. وقد تمت مُضاهاة المقابلات والاستبيانات بالنسبة لكل مبحوثه على حدة، ممن تناولتهن في دراستها. وقد ابتكرت هس-بيبر نوعاً من "تنميط الأكل" (أي: مقياساً من مقاييس الأكل) بناءً على البيانات الكمية التي تحصلت عليها. ووفرت لها البيانات الكيفية المستمدة من المقابلات المكثفة نوعاً من "التأكيد والتدعيم" الأكثر تفصيلاً لدلالة مقياس الأكل المذكور الذي ابتكرته هس-بيبر. يضاف إلى ذلك أن هذا المقياس الكمي قد زودها بفئات كمية لاستعمالها في تمييز مُفردات عينتها الكيفية وفي رفع مستوى

إمكانية تعميم نتائج بحثها الخاصة بأنماط الأكل لدى النساء. وقد استعملت هس - بيبر النتائج المستمدة من الدراسة الكمية للوصول إلى بعض الاستنتاجات المتعلقة بالبيانات الكيفية.

خطوات عملية التكييف (تحويل الكمي لكيفي)

الخطوة الأولى: جمع البيانات: كيف ستجمع بياناتك الكمية؟ هل سيتم ذلك بالتوازي مع البيانات الكيفية الرئيسية (في نفس الدراسة، وفي الوقت رقم١)؟ أم في دراستين مختلفتين (في الوقت رقم ١ والوقت رقم٢)؟ وما هي البيانات التي سوف تجمعُها أولاً؟ وهل ينبغي أن تجمع كل نوع من البيانات على حدة بامتداد (باستعمال خطة طولية ذات طرق بحث مختلطة، في الوقت رقم ١، وفي الوقت رقم ٢، والوقت رقم٣، وهكذا)؟ وقد عمدت هس-بيبر (١٩٩٦) إلى جمع نوعي البيانات كليهما في نفس الدراسة عن طريق إجراء مقابلات متعمقة تتناول اضطرابات الأكل لَدَى خريجات الجامعة (QUAL وهي الدراسة التي كانت البيانات الكيفية فيها هي البيانات الرئيسية) بجانب قيامها بإجراء استبيان مقنن عن ميولهن تجاه الطعام (QUANT وهو يمثل الدراسة التي تكون البيانات الكمية فيها هي البيانات الرئيسية) حيث كانت تُسلمُهن هذا الاستبيان لاستيفائه بعد إجراء المقابلة المتعمقة مباشرة.

وترى هس-بيبر (١٩٩٦) أن كلا نوعي البيانات كان يُعدُّ رئيسيا بالنسبة لبحثها (أي كيفي رئيسي وكمي رئيسي). وقد بنت خطتها في التحليل على أساس مُشكلة بحثها. ومع ذلك، فإن ما فعلته إنما هو مجرد طريقة واحدة من بين طرقٍ كثيرة بها يمكنك الجمع بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية، كما أنها تُثير القضية الخاصة بكيفية قيامك بتحقيق التكامل التام بين نوعي البيانات كليهما في خطتك الخاصة بالتحليل. وإن القضايا الخاصة بهذا التكامل تتغلغل إلى لب المقصود من "تكييف" بياناتك الكمية (أي تحويلها إلى كيفية).

الخطوة الثانية: حدد نمط ومستوى دمج البيانات الكمية: إن "التكييف" (تحويل الكمي إلى كيفي) يتضمن إدخال المتغيرات الكمية في تفاعل معَ البيانات الكيفية، كما يتم تنفيذه - في العادة - عندما يرغب الباحث في استعمال طرق

متعددة لدراسة بياناته، أو عندما يرغب في توضيح مفاهيم معينة في دراسته، وذلك عن طريق طرحهِ لهذين السؤالين التاليين على نفسه:

- هل تُريد أن تستعمل البيانات الكمية لتضفي على بياناتك الكيفية مزيـــدا من الوضوح والتحديد؟
- هل تريد أن تستعمل البيانات الكيفية لتضفي على بياناتك الكمية مزيـــدا من الوضوح والتحديد؟

فهذان السؤالان يُفسران الطرق المختلفة للتحويل إلى كيفي. إذ يتعـــين على السؤال الأول أن ينصب على استعمال المتغيرات الكمية داخـــل دراســـة كيفية لتبُث/ أو توفر نوعاً من الفهم الأعمق لمعنى فئات التصنيف الكيفية. فهيا بنا نعُدْ إلى دراسة هس- بيبر (١٩٩٦). فقد قامت بجمـــع الـــدرجات التـــى حصلت عليها المستجيبات في الاختبار الخاص باتجاهات الأكـــل (EAT)(*) وفي قائمة اضطرابات الأكل (EDI)(**) لتصوغ متغيراً ثنائياً كمياً تُـــسميه اضطرابات الأكل وله فئتان "نعم" و "لا". فقد كانت تريد أن تفهم مدى توافـــق هذا المتغير الكمي مع مقياسٍ مُشابهٍ اســـتمدته مـــن بياناتهـــا الكيفيـــة عـــن اضطرابات الأكل، وهو فئة استقرائية أسمتها فئة اضطرابات الأكل(***). فأين يوجد الاتفاق؟ وأين يوجد الاختلاف (الناجم عن تعـــدد الطـــرق المـــستخدمة لإثبات هذا المفهوم)؟ (وقد يساعدها هذا التصرف على توضيح معنـــى فئتهـــا التصنيفية الأخيرة الخاصة باضطرابات الأكل). فالهدف هو المـــساعدة فـــى إضفاء معنى أوضح على فئاتها التصنيفية الكيفية.

ويتضمن السؤال الثانى "معنى" المتغير الكمى الموجود فى سياقٍ مـــا. فما معنى أن تحصل إحدى المبحوثات على درجة عاليـــة فـــى المتغيـــر ED الخاص باضطرابات الأكل؟ وقد نستعمل هذا المتغير لتصنيف المبحوثات بناءً على عددٍ من فئات التصنيف الكيفية الخاصة بصورة الجسد من أجل اكتـــساب فهمٍ أعمقَ للسياق الذي تتحدث فيه المبحوثات عن مشاغلهن المتعلقة بأجسادهن باستعمال الفئات الموجودة في المتغير الخاص باضطرابات الأكل. و بادماجنا

(*) Eating Attitude Test.

(**) Eating Disorders Inventory.

(***) EATDIS=Eating Disorders.

لمتغيرنا الكمي هذا في بياناتنا وفئاتنا التصنيفية الكيفية يصبح بوسعنا تحقيق المزيد من وضوح المعنى على المستوى المحدود/ أو المايكرو وعلى المستوى الكبير/أو الماكرو.

من المزايا المهمة لاستعمال **خطة للتحليل** قائمة على البيانات المختلطة أنها تمكن الباحث من إدراك العلاقات المعقدة في بياناته الكيفية. ذلك أن القدرة على تحويل البيانات الكيفية إلى كمية ودمج البيانات الكمية في التحليل الكيفي توفر نوافذ تحليلية مختلفة لاكتشاف الأنماط المتكررة داخل البيانات الكيفية والخروج من هذه الأنماط بأرقام دقيقة يمكن إخضاعها للمعالجة بالأساليب والطرق الإحصائية. كما أنها توفر سياقاً لفهم المتغيرات المستخرجة بطريقة كمية. ومع ذلك، فإن استعمال هذه الأساليب التكميمية/ التكييفية لتغيير شكل البيانات وتحليلها يتسبب في إثارة طائفة من القضايا التي تنجم عن تَخطِّي الحد الفاصل بين **عالم التحليل الكيفي وعالم التحليل الكمي.**

شاهد ذلك أنه توجد قضايا نظرية (كالقضايا الإبستمولوجية/ والقضايا المتعلقة بطرق البحث)، كما توجد قضايا ذات طابع أكثر عملية (كقضية كيفية اختيار تحليل إحصائي مناسب للمتغيرات الكيفية(*)، وكيفية تفسير نتائج البحث)؛ هذه القضايا جميعا بتعيين إدخالها في الحسبان عندما يطبق الباحث هذه التقنيات الجديدة. ذلك أن تغيير شكل فئات التصنيف الكيفية والتعامل معها أو معالجتها باعتبارها "متغيرات" يمثل انتهاكا لبعض مُسلمات القياس المهمة المتعلقة بكيفية جمع المتغيرات الكمية (كالقضايا الإحصائية المتعلقة باختيار العينة العشوائية مثلاً) خاصة عندما تتعارض بيانات الباحث مع الأشكال القياسية للسؤال، وذلك كما هو الحال في المقابلات ذات النهاية المفتوحة، وفي الكثير غيرها من أشكال البحث الكيفي. فنجد مثلا في الدراسة التي عرضنا لها من قبل عن اضطرابات الأكل، هس- بيبر وكارتر (٢٠٠٤) تلاحظان أنه في الوقت الذي ناقشت فيه كثيرات من الفتيات اللاتي جرت مقابلتهن مدى انتقاد والديهن وأقرانهن وأشقائهن لصورة أجسادهن – الأمر الذى دفع الباحثتين إلى تحويل هذه "الفئة التصنيفية" إلى "متغير" أسمَتاه بي بي إس سي PPSC(أي:

(*) أي المتغيرات التي تمت بلورتها من البيانات الكيفية بعد تحويلها إلى كمية (المراجع).

الانتقاد الصادر من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء) – فإنه لم يتم سؤال كل الفتيات اللاتي جرت مقابلتهن عن هذه القضية بأسلوب قياسي موحد، على النحو الذي يجري العمل به في أي مسح كمي. كما أن الباحثتين لم تبذلا جهداً لإبراز هذه القضية الخاصة في كل مقابلة فردية. لذلك، فإن الخطأ في القياس يُشكل همّاً حقيقيا وشغلا شاغلاً عند أي إنسانٍ يتبع الطريق الذي نقترحُهُ في هذا الفصل.

وتوجد وجهات نظرٍ مضادة لهذه الانتقادات. أولاً، قد يذهب الكثيرون إلى أن الفتيات اللاتي تجري مُقابلتُهنَّ يَملن إلى تضخيم تلك الأمور في حياتهن. ومن ثَمَّ تكونُ الباحثة في غنىً عن القلق الزائد من مسألة عدم توجيهها انتباه كل فتاة تُقابلها إلى كل "فئة تصنيفية" على حدة (هس-بيبر وكارتر، ٢٠٠٤). كما يوجد القلق الآخر فيما يتصل بكيفية تحليل هذا النوع من البيانات. فهل ينبغي استعمال الأساليب الإحصائية المعيارية، والتي منها مثلا المقاييس الإحصائية السائدة لقياس مقدار الارتباط بين متغيرين، كمقياسِ مربع كاي/أو كاي تربيع، أو غيره من الأساليب الإحصائية الأكثر تعقيداً، كالتحليل اللوغاريتمي الخطي؟

يتعين معالجة كل قضية من هذه القضايا بالرجوع إلى الأهداف الأساسية لمشروع البحث ذي الطرق المختلطة، وبالرجوع كذلك إلى ما يقوم به الباحث من تأملٍ نقدي ذاتي لموقفه الإبستمولوجي. فالذي يُعَدُّ قيدا أو قصوراً عند باحث يُعد فرصةً مواتيةً عند آخر، وذلك اعتماداً على أهداف الباحث ووجهة نظره الإبستمولوجية. فقد يتخوف الباحث الوضعي من فكرة تحويل فئات التصنيف (الكيفية) إلى متغيرات (كمية)، كما أنه -بالتأكيد- سوف يعد هذا التحويل بمثابة انتهاك جسيم لمعايير القياس الوضعية. وفي مقابل ذلك، قد يكون الباحث الكيفي الذي تلقى – إلى جانب دراسته الكيفية- تدريباً كميا، قد يكون مُنفتحاً على أشكال التحليل الوضعية، حيث يستعمل المتغيرات المُكممة (الكيفية التي حولت إلى كمية) كأداة استرشادية مهمة يمكن أن تكشف له عن العلاقات المحتملة التي من الممكن استكشافها بصورة أوفى في بعض الدراسات المتميزة المستوى والمستمدة من كلا الاتجاهين الكيفي والكمي معا. والواقع أن مثل هذا التحليل يمكنه رفع مستوى الركائز العلمية الوضعية للبحث عن طريق تكرار الدراسات، كما يمكنه في الدراسة

المكررة أن يتأكد من أن "فئات التصنيف التي وَجدَ الباحث أنها هي الأهم في الدراسة السابقة قد طُرحت على كل الأفراد الذين أُجريت معهم المقابلات. يُضاف إلى ذلك أننا عن طريق استخلاص المتغيرات (الكمية) من مادة دراستنا الكيفية، نقوم بالتحديد الدقيق لفئات التصنيف المهمة التي يمكن -مثلا- إعادة صياغتها كبنود في بحث مسحي قائم على الاختيارات المُحددة، أو دمجُها في دراسات كيفية تستعمل أسلوباً في المقابلة أكثر توجيها للمبحوثين وأكثر تركيزاً على الاختيارات المحددة.

وينبغي أن يُنظر إلى التكميم (تحويل الكيفي إلى كمى) أو التكييف (تحويل الكمي إلى كيفي) باعتبار كل منهما "وسيلة لصياغة أساليب مُتاحة تُضيف قوة وحساسية إلى الحُكم الفردي عندما يحاول المرء أن يستكشف ويصف النماذج النمطية الموجودة في مجموعةٍ ما من الملاحظات" وينستين Weinstein و تامور Tamur ١٩٧٨، نقلا عن مايلز و هوبرمان ١٩٩٤، ص٤١).

* * *

خاتمة

تمثل خطط البحث ذات الطرق المختلطة فرصة واعدة للباحث الذي يريد أن يعالج المشكلات المعقدة التي لها مستويات متعددة -فردياً وكذلك اجتماعيا - إذ يمكنها أن ترفع مستوى المعلومات المجموعة، كما يمكنها أن تقوم بتعزيز صدق كلٍ من المشروعات البحثية الكيفية والمشروعات البحثية الكمية على السواء. وثمةَ فكرة تذهب إلى أن استعمال كلا الأسلوبين يتيح للباحث أن يستخرج الأفضل في كلتا الطريقتين (بزيادة صدق دراسةٍ معينة من خلال استعمال طرقٍ متعددة للبحث، مثلاً)، وذلك في نفس الوقت الذي يقوم فيه بالتعويض عن نقاط الضعف في الطريقة الأخرى. والفكرة – وكما أشرنا من قبل– هي أن "الكلُ أكبر من مجموع أجزائه". إذا اتفقنا على ذلك، فلابد من القول بأن ثمة طائفة من التنبيهات – ابتداءً من التنبيهات النظرية وانتهاءً بالتنبيهات العملية – التي يتعين على المرء أن يُدخلها في حسبانهِ عند استعمال خطط بحثٍ ذات طرق مختلطة. ذلك أن الطرق المختلطة تطمس الخط القائم

بين النماذج الفكرية للبحث، كما أنه ليس واضحاً مدى وُجوب اهتمام الباحثين بهذه الخطط. كما أنه يُوجد هؤلاء "البراجماتيون" الذين يَدعون إلى استعمال أي طرق تفيد عمليا، مع قلة الالتفات أحياناً لقضايا الإبستمولوجيا وقضايا المنهج. بينما يرى آخرون – ممن يسمون "الصفائيين" أو دعاة النقاء المنجي والنظري – أن مثل هذا التجاوز للحدود الفاصلة بين النماذج يمثل انتهاكاً لصميم أسس الفكر العلمي. ويتخذ كثيرون غيرهم مواقف وسط بين هاتين النظرتين تقع على خط متصل ممتد ومتدرج، يوجد على كل طرف منه واحد من هذين الموقفين وتتدرج على امتداده شتى الآراء والمواقف من هذه المسألة.

إن الطرق المختلطة ليست ترياقا، أي ليست نوعا من الدواء السحري الذي يَصبُه المرء على المشروع البحثي ليجعله يعمل بكفاءة وينجح. فالطرق المختلطة إنما هي أساليب للوصول إلى بناء المعرفة. وما زاد عن ذلك فليس بالضرورة أن يكون أفضل؛ إذ قد لا يكون الكُلّ/أو المجموع أكبر من أجزائه. والواقع، وكما يتضح من المقابلة التي أجريناها ونذكرها في فقرة "خلف الكواليس" (في موضع لاحق من هذا الفصل) تحذرنا جانيس مورس Janice Morse – وهي باحثة كيفية رائدة – من الاعتقاد بأن الطرق المختلطة تمثل بديلا عن التفكير النظري الواضح والدقيق وعن التحليلات الثاقبة المتعمقة. وهي تثير – مُجدداً – تلك القضايا المهمة التي عالجناها من قبل في هذا الفصل والتي يتعين أن تكون ذات صلة بتكلفة تنفيذ مشروع بحثيٍ مُختلط وبالتدريب المطلوب للقيام بهذا العمل.

ومن هذه القضايا مثلاً قضية إلى أي مدىً يُمكن لباحث معين أن يكون متمكنا من كلتا الطريقتين؟ وهل يكونُ الأمر ضاراً أكثر مما يكون نافعاً حينما لا يكون الباحثون مُدربين تدريباً كافياً على كلتا الطريقتين؟ يُضاف إلى ذلك، أن "مورس" تثير قضايا ناجمة عن التوقعات التي تنتظرها الجهات الممولة من الباحث، وعن الضغط الذي قد يشعر به بعض الباحثين حتى يُنفذ خطة ما من خطط البحث المختلطة الطرق بناءً على توصية/ أو تكليف الجهة الممولة، وقد تكون هذه الخطة مستقلة عن مشكلة البحث (انظر برانن Brannen، ١٩٩٢،

ص٢٠)! ولعل الكلمة الصائبة التي ذكرتها مورس في مقابلتها هي كلمة "الهراء/أو التخاريف" للإشارة إلى رأي من يتصورون أن أي طريقة – بمفردها – تحتوي على كل الأجوبة المطلوبة على مشكلات البحث. أما الأمر الذي لم تكن مورس حاسمة فيه فهو أهمية ألاَّ يفقد الباحث رؤيته للإسهام الذي تُواصل الطرق الكيفية تقديمه – وهي في صورتها النقية الخالصة – لفهمنا لطبيعة الواقع الاجتماعي (انظر كذلك مورس، ١٩٩٦) والحق أن مداومة الانتباه لجوهر هذا الرأي تمثل ما هو مطلوبٌ منا حتى نتفادي أن نضل طريقنا ونحن نسعَى لبناء المعرفة.

خلف الكواليس مع جانيس مورس

خلف الكواليس مع جانيس مورس، وهي إحدى الرائدات في ميدان البحوث الكيفية في أمريكا الشمالية. فقد أنشأت "المعهد الدولي للمناهج الكيفية، بجامعة ألبرتا، كندا، في ١٩٩٨(http://www.ualberta.ca/~iiqm/). ونقتصر هنا على تقديم نص مُستخلصٍ صغير من المقابلة الكاملة التي سبق أن أجراها عالم الاجتماع المكسيكي سيزار سيسنيروس Cesar Cisneros في حلقتين نشرتا في يناير ومايو ٢٠٠٤.

الطرق المختلطة و "الدافع النظري"

سيسنيروس: ما هي رؤيتك لمسيرة تطور الطرق المتعددة؟ وكيف سيتعامل الباحثون الكيفيون مع هذا التنوع والاختلاف؟

مورس: أرى أنها بسبيلها للوقوع في فوضى رهيبة، إلا أنها سوف تُرتب أمورها تماماً في نهاية الأمر.

سيسنيروس: ما هو نوع "الفوضى الرهيبة" التي تتحدثين عنها؟

مورس: أرى أن الناس تفتقر إلى المهارات التحليلية اللازمة لمعالجة البيانات الكيفية والبيانات الكمية كلتيهما. ولا أظن أنه قد بذلت جهود كافية في مجال التطوير النظري"، بل ولا أظن أن هناك عدداً كافياً من الناس يرغبون – مُجرد رغبة – في إحداث التطور النظري، وهم قانعون تماما بما يقدمونه من

توصيفات(*). فأنا أتصور أن الضغط لتطبيق الطرق المختلطة، من أجل الحصول على تمويل للبحث، أصبح الآن يُهيمن أو يطغى على أهداف البحث الكيفي. وأظن أن جهات التمويل التي تقول إنها تُمول البحوث الكيفية، إنما تقصد بالفعل أنها تمول الطرق المختلطة. ومع ذلك فإن هذا الوضع هو الذي يضع البحوث الكيفية في موقعٍ مُتدنٍ.

سيسنيروس: ما هي الدلالات الإمبيريقية لاستعمال الطرق المختلطة؟ أعني أن كل واحدٍ منا، وهو يواجه تَعَقُدَ العالم الواقعي سيجد نفسه – بالتأكيد – أشد حاجةً إلى الطرق المختلطة والمتعددة.

مورس: لا أظن أنه يتوجب علينا جميعاً أن نستسلم لهذه الضغوط. فأنا أرى أنني يجب أن أستعمل الطرق المتعددة إذا كانت خطة البحث تقتضي ذلك، وليس لمجرد إرضاء الجهات الممولة.

سيسنيروس: هل نفعل ذلك لأننا بحاجة إلى هذا النوع من البحوث متعدد الطرق لننتج المعرفة؟

مورس: كلام فارغ.. هُراء... فالمعرفة الأساسية تتحصل أيضاً من القيام بالبحوث الكيفية وحدها.

سيسنيروس: ولكن هل يحتاج البحث الكيفي للطرق المتعددة؟

مورس: لا، إنه لا يحتاج للطرق المتعددة، والصواب أن نقول إن الجهات الممولة تشترط استخدام طرق البحث المتعددة، وأن بعض القضايا المطروحة في البحوث قد تتطلب استخدام الطرق المتعددة.

* * *

(*) تقصد تقارير البحوث التي تقتصر على الوصف دون التحليل (المراجع).

تعريف بالمصطلحات

• الاكتمال • **Complementarity**

من أسباب استعمال خطة ذات طرقٍ مختلطة مطلب تحقيق **الاكتمال** الذي عن طريقه يسعى الباحث لاكتساب فهمٍ أتمَّ لمُشكلة البحث و/أو لتوضيح نتيجة معينة من نتائجه.

• المتزامن (أو المصاحب) • **Concurrent**

يحدث التزامن أو المصاحبة عندما تستعمل طريقتان في نفس الوقت، ولكن مع الحفاظ على التمييز بين الطريقة الرئيسية والطريقة الثانوية.

• تعدد البيانات • **Data Triangulation**

يحدث ذلك عند الاعتماد على مصادر مختلفة للبيانات بتطبيق نفس الطريقة أو بتطبيق الطرق الأخرى.

• التطوير/ أو الإظهار • **Development**

ويَحْدُث عندما تساعد النتائج المستمدة من إحدى الطرق في تطوير الطريقة الأخرى أو تدعيمها وزيادة كفاءتها.

• المساواة (بين الطرق) • **Equal Footing**

ويحدث عندما توضع كلتا الطريقتين **على قدم المساواة** بدون التمييز بين طريقة أساسية وطريقة ثانوية.

• التوسع • **Expansion**

يحدث اللجوء إلى التوسع بغرض "توسيع مجال الدراسة ومداها". وقد يشمل تفسير سبب استعمال الطرق المختلطة.

• الوسيلة الاسترشادية • **Heuristic Device**

قد يكون الباحث الكيفي الذي تَلَقى – كذلك – تدريباً كمياً، مُنفتحاً على التحليلات الوضعية ومتقبلا لها، حيث يستعمل المتغيرات المكممة (المحولة من كيفي إلى كمي) كأداة أو وسيلة استرشادية مهمة تكشف عن العلاقات المحتملة التي يمكن استكشافها بصورة أوفى وأتم في الدراسات الأكثر تميزا وإحكاما والمأخوذة من كلا الاتجاهين الكيفي والكمي.

• **Initiation** • **الإثارة أو الحفز**

يتمثل أحد أسباب استعمال الطرق المختلطة في عملية الإثارة أو الحفز، وذلك حين تتسبب نتائج دراسةٍ بحثيةٍ معينة في إثارة التساؤلات، أو عندما تحتوي على تناقضات تتطلب التوضيح.

• **Methods Triangulation** • **تعدد طرق البحث**

هو استعمال طرق البحث المختلفة المتعددة.

• **Mixing of Philosophical Paradigms** • **مزج النماذج الفلسفية**

تقوم خطة البحث ذات الطرق المختلطة بمزج الفروض والأسس الفلسفية الكيفية والكمية، وخاصةً ما كان منها متصلا بالقضايا المعنية بطبيعة الفرد والمجتمع، من قبيل مشكلة: "الموضوعية والذاتية".

• **Nested** • **المُدْمَج/أو المتضمن**

يحدث ذلك عندما يتم "دمج" أو تضمين طريقة بحث (كيفية أو كمية) في الأخرى مع إعطاء الطريقة المدمجة درجة أدنى من حيث الأولوية. وقد يصل الأمر إلى استخدام الطريقة المدمجة في الإجابة عن سؤالٍ بحثي آخر، وذلك على الرغم من أن كلتا الطريقتين تستخدمان في تحليل البيانات.

• **Paradigmatic Standpoints** • **المواقف الفكرية النظرية**

قد يصل الأمر بالموقف الفكري النظري للباحث (أي المتصل بمسلماتهِ الإبستمولوجية والفلسفية) إلى أن يتغير على امتداد مسار أي مشروعٍ بحثي معين.

• **Quantizing Process** • **عملية التكميم (تحويل الكيفي إلى كمي)**

تُتيح لنا عملية التكميم أن ننظر إلى البيانات الكيفية بصورة أكثر اتصافاً بالطابع الكمي، وذلك عن طريق تحويل بياناتنا الكيفية (أي: فئات التصنيف) إلى بيانات كمية (أي: متغيرات).

• **Sequential (Time-Ordering) Studies** • **الدراسات المتعاقبة (في ترتيبها الزمني)**

وذلك عندما تجري الدراسات واحدة بعد الأخرى.

• التعاوني/أو التبادلي • Synergistic

يتيح الجمع بين طريقتي بحثٍ مختلفتين إنشاء مشروع بحثي تعاوني، حيث تُمكنُ إحدى الطريقتين الطريقة الأخرى من أن تكون أكثر فعالية، كما تقومان معاً بتقديم فهمٍ أوفى وأتمَّ لمشكلة البحث (جرين، و كارسلي، ١٩٩٧، وانظر سيبر Sieber، ١٩٧٥، للاطلاع على مثال مبكر للتعاون الذي يمزجُ بين طريقة "البحث الميداني" وطريقة "البحث المسحي").

• استعمال طرق متعددة للبحث • Triangulation

تشتمل هذه الاستراتيجية على استعمال أكثر من طريقة بحثٍ لدراسة نفس مُشكلة البحث. حيث يسعى الباحث للوصول إلى "نقطة التقاء" لنتائج البحث، حتى يرفع من مستوى مصداقية هذه النتائج.

• استعمال منظورات فكرية متعددة • Theoretical Triangulation

وقد آل الأمر بهذا المصطلح إلى أن يعني استعمال رؤىً نظريةً مختلفةً في دراسة واحدة.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- استعرض بعض المبررات التي تفسر لماذا قد يعمد الباحث إلى استخدام الاتجاه القائم على طرق البحث المختلطة؟

٢- كيف يتسنى لطرق البحث أن "تتحدث مع بعضها البعض"؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

• معجم مصطلحات ومفاهيم الطرق المختلطة • Glossary of Mixed-Methods Terms/Concepts

http://www.fiu.edu/~bridges/glossary.htm

يعد هذا الموقع مصدرا للوقوف على المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبحوث التي تستخدم مزيجا من طرق البحث. ويتبنى هذا الموقع

المصطلحات الواردة في كتاب تشكُرى و تيدلى: المدخل إلى الطرق المختلطة في البحوث الاجتماعية والسلوكية (٢٠٠٣).

• **Research Design and Mixed Method Approach A Hands-On Experience** • **تصميم البحوث وأسلوب الطرق المختلفة: خبرات الممارسة الفعلية**

http://www.socialresearchmethods.net/tutorial/sydenstricker/bolsa.html

يفيد هذا الموقع في التعرف على استخدام طرق البحث المختلطة كمـــا تمارس فعلا في البحوث.

• **Employing Multiple Methods** • **استخدام الطرق المختلفة**

http://writing.colostate.edu/references/research/observe/pop4b.cfm

يقدم هذا الموقع دليلا للكتابة باستخدام طرق البحث المختلطة.

* * *

References المراجع

- CNN. (2005, 10 January). *Treating children's emotional wounds.* Retrieved from http://www.cnn.com/2005/WORLD/asiapef/01/05/tsunami.children.cope/
- Bjeren, G. (2004, November 25-27). *Combining social survey and ethnography integration research:An example.* Paper presented at the 2nd conference of the EAPS Working Group on International Migration in Europe, Rome, Italy.
- Brannen, J. (1992). Combining qualitative and quantitative approaches: An overview. In J. Brannen (Ed.), *Mixing methods: Qualitative and quantitative research* (pp. 3-36). Aldershot, UK: Avebury Press.
- Byman, A. (1988). *Quantity and quality in social research.* London: Unwin and Hyman.
- Cisneros-Puebla, C.A. (2004, September). "Let's do more theoretical work...": Janice Morse in conversation with Cèsar A. Cisneros-Puebla [96 paragraphs]. *Forum Qualitative sozial-forschung/Forum: Qualitative social research* [On-line Journal], 5(3), Art. 33. Available at: http://www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-04/04-3.33.e.htm
- Coleman, T., Williams, M. & Wilson, A. (1996). Sampling for qualitative research using quantitative methods: Measuring GP's attitudes towards discussing smoking with patients. *Family Practice, 13,* 526-530.
- Cragg, A., Dawson, T. (1981, May). Qualitative research among homeworkers. Research Paper No. 21. London: Department of Employment.
- Creswell, J. W. (2003). *Research design: Qualitative and quantitative approaches* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA:Sage.
- Creswell, J. W. (1999). Mixed-method research: Introduction and application. In G.J. Cizek (Ed.), *Handbook of educational policy* (pp. 455-472). San Diego, CA: Academic Press.

- Creswell, J. W., Fetters, M.D., & Ivankova, N. V. (2004, January/February). Designing a mixed methods study in primary care. *Annals of Family Medicine, 2* (1), 7-12.
- Denzin, N. K. (1978). *The research act: A theoretical introduction to sociological methods.* New York: McGraw-Hill.
- Fielding, N. G., & Lee, R. M. (1998). *Computer analysis and qualitative research.* London: Sage.
- Gioia, D. A. & Thomas, J.B. (1996). Identity, image, and issue interpretation: Sensemaking during strategic change in academia. *Administrative Science Quarterly, 41,* 370-403.
- Greene, J. C., Benjamin, L, & Goodyear, L. (2001). The merits of mixing methods in evalution. *Evaluation, 7(1), 25-44.*
- *Greene, J. C., & Caracelli, V. J.* (Eds.). (1997a). *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms (New Directions for Evaluation # 47). San Francisco: Jossey-Bass.*
- Greene, J.C., & Caracelli, V.J. (1997b). Defining and describing the paradigm issues in mixed-method evaluation. In J. C. Greene & V.J. Caracelli (Eds.), *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms (New Directions for Evaluation # 74)* (pp. 5-17). San Francisco: Jossey-Bass.
- Greene, J.C., Caracelli, V.J., & Graham, W.F. (1989). Toward a conceptual framework for mixed-method evaluation designs. *Educational Evaluation and Policy Analysis, 11,* 255-274.
- Guba, E.G. (1985). The context of emergent paradigm research. In Y.S. Lincoln (Ed.), *Organizational theory and inquiry* (pp. 79-104). Newbury Park, CA: Sage.
- Guba, E. G., & Lincoln, Y.S. (1994). Competing paradigms in qualitative research. In N. K. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 105-117). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Heise, D. (1991). Event structure analysis: A qualitative model of quantitative research. In N. Fielding & R. Lee (Eds.), *Using computers in qualitative research* (pp. 136-463). Lonson; Sage.
- Heise, D., & Lewis, E. (1988). *Introduction to ETHINO.* Raleigh, NC: National Collegiate Software Clearinghouse.
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? The cult of thinness and the commercialization of identity.* New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. & Carter, G. L. (2004). Linking qualitative and quantitative analysis: The example of family socialization and eating disorders. In G. L. Carter (Ed.), *Empirical approaches to sociology: A collection of classic and contemporary readings* (4th ed., pp. 83-97). Boston: Pearson/Allyn & Bacon.
- Hesse-Biber, S., & Dupuis, P. (1995). Hypothesis testing automation for computer-aided qualitative data analysis. In U. Kelle (Ed.), *Computer-aided qualitative data analysis: Theory, methods and practice.* London: Sage.
- Hesse-Biber, S., Dupuis, P., & Kinder, T.S. (1991). HyperRESEARCH: A computer program for the analysis of qualitative data with an emphasis on hypothesis testing and multimedia analysis. *Qualitative Sociology, 14(4), 289-306.*
- Hesse-Biber, S., & Maietta, R.C. (2005). *When methods meets technology: A critical examination of qualitative software evolution.* Thousand Oaks, CA: Sage.

- Johnson, B., & Christensen. L. (2000). *Educational research: Quantitative and qualitative approaches*. Boston: Allyn and Bacon.
- Kutner, J. S., Steiner, J. F., Corbett, K. K., Jahnigen, D. W., & Barton, P. L. (1999). Information needs in terminal illness. *Social Science & Medicine, 48, 1341-1352.*
- Li, S., Marquart, J.M., & Zercher, C. (2000). Conceptual issues and analytic strategies in mixed-method studies of preschool inclusion. *Journal of Early Intervention, 23-116-132.*
- Lincoln, Y.S., & Guba, E. G. (2000). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In N.K. Denzin & Y.S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed., pp. 163-188). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Lincoln, Y.S.& Guba, E.G. (1985) *Naturalistic inquiry.* Beverly Hills, CA: Sage.
- McGowan, K. (2005, 10 January). Thai village struggles to rebuild. *CNN.* Rtrieved from http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/1/hi/world/asia-pacific/4160753 *.stm*
- Miles, M. B., & Huberman, A. M . (1994). *Qualitative data analysis* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA:Sage.
- Morgan, D. (1998). Practical strategies for combining qualitative and quantitative methods: Applications to health research. *Qualitative Health Research, 8, 362-376.*
- Morse, J. (2003). Principles of mixed methods and multimethod research design. In A. Tashkkori & C. Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 189-208). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morse, J. (1996). Is qualitative research complete? *Qualitative Health Research,* 6, 3-5.
- Sandelowski, M. (2000). Combining qualitative and quantitative sampling, data collection and analysis techniques in mixed-methods studies. *Research in Nursing and Health, 23,* 246-255.
- Sieber, S. D. (1973). The integration of field work and survey methods. *American Journal of Sociology, 78*(6), 1335-1359.
- Tashakkori, A., & Teddlie. C. (Eds.). (2003). *Handbook of mixed methods in social and behavioral research.* Thousand Oaks, CA: Sage.
- Tashakkori, A., & Teddlie, C. (1998). *Mixed methodology: Combining qualitative and quantitative approaches.* Thousand Oaks, CA: Sage.
- Teddlie, C., & Tashakkori. A. (2003). Major issues and controversies in the use of mixed methods in the social and behavioral sciences. In A. Tashakkori and C. Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 3-50). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weinholtz, D., Kacer, B., & Rocklin, T. (1995). Salvaging qualitative research with qualitative data. *Qualitative Health Research, 5, 388-397.*
- Weinstein, E. A., & Tamur, J.M. (1978). Meanings, purposes, and structural resources in social interaction. In J. G. Manis & B. N. Meltzer (Eds.), *Symbolic interaction* (3rd. ed., pp. 138-140). Boston: Allyn & Bacon.
- Zeller, R. A. (1993). Combining qualitative and quantitative techniques to develop culturally sensitive measures. In D. G. Ostrow & R. C. Kessler (Eds.), *Methodological issues in AIDS behavioral research*(pp.95-116). New York: Plenum Press.

القسم الثالث

التحليل والعرض

الفصل العاشر

تحليل وتفسير البيانات الكيفية(*)

في الفقرة التالية، يُميز الإثنوجرافي مايكل آجار Michael Agar بين التحليل والتفسير:

في الإثنوجرافيا.. تتعلَّم شيئاً ما ("تجمع بعض المعلومات")، ثم تحاول أن تستخرج منها معنىً (التحليل)، ثم تعود لتنظر ما إذا كان هذا التفسير معقولاً أو مفهوما في ضوء الخبرة الجديدة ("تجمع مزيداً من البيانات") ثم تنقح تفسيرك أي ("تقوم بمزيد من التحليل") وهكذا باستمرار. فالعملية جَدلية، وليست خطية. (١٩٨٠، ص٩).

إن عملية تحويل بياناتك إلى ما يُطلق عليه هاري ولكوت Harry Wolcott مصطلح "البيانات المفهومة" (١٩٩٤، ص١) تستدعي إمعان النظر في كيفية إجابتك على الأسئلة التالية (هس – بيبروليفي، ٢٠٠٤، ص٤٠٩):

- كيف تعرف ما إذا كُنتَ ركزتَ على المحاور الرئيسية (أو التيمات الرئيسية) التي تحتوي عليها المادة المُسجَّلة للمقابلات التي قمتَ بها، أو التي يحتوي عليها تقريرك الميداني الإثنوجرافي؟
- هل لفئات التحليل التي جمعتَها معنىً؟
- ما هو نمط التحليل الذي ينبغي عليك أن تتبناه؟
- هل ينبغي عليك القيام بدراسة وصفية أم تقوم بالمغامرة خارج نطاق النتائج الوصفية باستعمالك لتفسيرك الشخصي؟
- ما هو مقدار التفسير؟

(*) ملحوظة المؤلف: بعض أجزاء هذا الفصل منقولة بتصرف من مقالة بعنوان "تحليل، وتفسير، وكتابة البيانات الكيفية" والواردة في كتاب شارلين ناجي و هس – بيير وباتريشيا ليفي (مُحررات) (٢٠٠٤) بعنوان: "اتجاهات في البحث الكيفي، مختارات في النظرية والتطبيق"، نيويورك، مطابع جامعة أكسفورد.

خطوات تحليل وتفسير البيانات الكيفية

في الوقت الذي نُزودك فيه ببعض "الخطوات" التي تُدخلها في حُسبانك وأنت ماضٍ في تحليلك، ينبغي ألا تتصور أن التحليل الكيفي يسير بطريقة تُشبه الطرق الواردة في كتب الطهي. إذ لا توجد طريقة صحيحة واحدة للقيام بالتحليل. فقد لاحظ سي. رايت ميلز C.Wright Mills منذ وقتٍ مبكر، أن التحليل الكيفي إنما هو في النهاية "مهارة عقلية". (ميلز، ١٩٥٩، نقلا عن تش Tesch، ١٩٩٠، ص٩٦). وكما تُعلِّق ريناتا تش (١٩٩٠) فإن "التحليل الكيفي من المُمكن – بل وينبغي – أن يمارس بأسلوب فني، بل حتى بأسلوب "سلس"، إلا أنه يستلزم قدراً كبيراً من المعرفة المنهجية والكفاءة الفكرية" (ص٩٧). ويرى نورمان دنزين (٢٠٠٠) أنه يوجد "فن للتفسير".

ويمكن أن يوصف هذا الفن بأنه انتقال من الميدان إلى النص إلى القارئ. وتتيح ممارسة هذا الفن للباحث الميداني بوصفه بنَّاءً بارعاً ... أن يُترجم ما حصله من معلومات في صورة عَمَلٍ نصّي (مكتوب) ينقل هذا الفهم (فهمه للمعلومات) إلى القارئ. (ص٣١٣).

وبإدخال هذه التنبيهات في الاعتبار، سوف نعمد إلى تفكيك عملية تحليل البيانات وتفسيرها باعتبارها سلسلة من الخطوات، مُبتدئين بخطوة – تحضير البيانات (الخطوة رقم ١).

الخطوة رقم ١: مرحلة تحضير البيانات

من المهم أن تفكر في **ما هي** البيانات التي سوف تُحللها، وفيما إذا كانت – أو لم تكن – ستزوِدُكَ بفهم لمشكلة بحثك. فلو أنك كنت تقوم بإجراء مقابلات أو جماعات مناقشة مركزة– مثلا– فقد يتعين عليك أن تقوم باستنساخ بياناتك؛ بنقلها من صورة إلى أخرى. وقد تحتاج إلى إدخال وتخزين هذه البيانات في إحدى أنواع قواعد البيانات. ويمكنك أن تتحصل على نسخ مطبوعة مما أدخلته في قاعدة بياناتك وتبدأ في القراءة الدقيقة لها من أولها لآخرها، وقد تقوم أثناء ذلك بتصحيح أي خطأ يحدث في أي بند من بنود البيانات.

تدوين بياناتك

إن عملية التدوين ليست عملية سلبية، فطريقة جمعنا لبياناتنا تكون ذات أهمية حاسمة للتحليل والتفسير. فإن كُنتَ تقوم بإجراء مقابلة أو عقد جلسة جماعة مناقشة مركزة – مثلاً – فإن طريقتك في جمع البيانات سوف تثير عددا من القضايا المحورية، نذكر منها:

- هل ستسجل جلسة المقابلة التي تقوم بها بالفيديو أم على أشرطة التسجيل الصوتي، أم ماذا ستفعل؟
- هل ستدون كامل بيانات الجلسة؟ أم أنك ستقتصر على تلخيص الفقرات الأساسية أو تدوين بعض الاقتباسات الأساسية؟ وهل ستحصر اختيارك في تلك الفقرات التي ترى أنها بمثابة قضايا بحثية أساسية، أم ماذا ستفعل؟
- هل ستدون كل أنواع البيانات التي تجمعها (فتشتمل على كل البيانات اللفظية بما في ذلك: الضحك، وحالات التوقف عن الكلام، والانفعالات كالحُزن أو الغضب، وتشتمل كذلك على البيانات غير اللفظية كالإشارات بالأيدي، ونحوها)؟
- من الذي سيقوم بتدوين بياناتك؟
- ما هو القطع المستخدم في التدوين وشكله؟ وكيف ستُمثِّل – في النص المدون– صوت مبحوث ما، أو معلومات غير لفظية، وما إلى ذلك؟

وغالبا ما تكون طريقة الباحث في إجابته على هذه الأسئلة خاضعة لسؤال بحثِهِ وكذلك لنوع الإطار النظري الذي يؤمن به فيما يتصل بالمقابلة باعتبارها عمليةً من عمليات بناء المعنى. فقد يستغنى باحث وضعي – في الواقع – عن بعض هذه الأسئلة، ناظراً إلى عملية التدوين باعتبارها شكلاً بسيطاً من نقل اللغة "الشفاهية" إلى اللغة "المكتوبة"، وهو أمر يكاد يكون بمقدور أي إنسانٍ القيامُ به إذا كان يستطيع الإصغاء إلى شريط التسجيل ولديه مهارات جيدة في الكتابة على الآلة، مثلاً. وفي هذه الحالة يُنْظَرُ إلى ما هو مدون باعتبار أنه هو "الحقيقة" كما يعتقد أن كل مدونة تحتوي على تطابق تام دقيق بين ما قيل شفاهة والكلمة المكتوبة على الآلة.

وقد لا يرى هؤلاء الذين تَغلّب عليهم وجهة النظر التأويلية أن عملية التدوين تكون بمثل هذه الشفافية والوضوح (انظر ميشلر Mishler، ١٩٩١). والواقع أنهم يميلون للتأكيد على أهمية وجهة نظر الباحث وتأثيره على عملية التدوين نفسها. أما هؤلاء الباحثون الذين يغلبُ عليهم الإطار النظري الخاص بتحليل الخطاب أو الإطار الفكري اللغوي فسيكونون منتبهين كل الانتباه لنقص الشفافية في عملية التدوين، وذلك من خلال إدراكهم لأهمية المستويات المتعددة للمعنى والموجودة في عملية التدوين التي تشملُ أموراً مثل: لحظات التوقف عن الكلام، والأسلوب الذي يقالُ به شيء ما، وكذلك الإشارات غير المنطوقة التي تبدر من المبحوث للدلالة على أمور أخرى وراءها.

يعي الباحثون النسويون، مثل مارجوري ديفول Marjorie Devault (٢٠٠٤) كل الوعي أهمية الإصغاء إلى البيانات عند القيام بتدوين المقابلات التي أجريت، خاصة مع تلك الجماعات التي حجب المجتمع المهيمن حياتها اليومية وأسدل عليها ستارا من التجاهل. وتُعلِّق ديفول على أهمية الإصغاء لتلك اللحظات التي تتخلل المقابلة وتكون المبحوثة فيها مترددة أو تقول للباحثة: "إنك تفهمين ما أقصده، أليس كذلك؟": وهي ترى أن تلك اللحظات هي عين اللحظات التي يكون فيها الباحث قادراً على كشف ما تخفيه المبحوثات من معانٍ، وهنّ المبحوثات اللائي غشاهُنَّ الخطاب المسيطر بحُجب غطّت على حياتهن ولغتهن. وهي توصي بالانتفاع بالحكمة التالية التي اكتسبتها أثناء قيامها بإجراء مقابلات مع النساء تتناول الأنشطة اليومية التي يزاولنها في بيوتهن، خاصة العمل الذي يقمنَ به لتغذية عائلاتهن:

كثيراً ما تكون الكلمات المتاحة غير مناسبة، لذلك تتعلم النساء أن "يُتَرْجِمن" عندما يتكلمن عن خبراتهن. ونظراً لأنهن يتصرفن بهذا الشكل، فإن جانبا من حيواتهن "يختفي" لأنه لا يكون متضمنا في لغة هذا الوصف. ولاستعادة هذه الأجزاء من حيوات النساء، يتوجب على الباحثين أن يُطَوروا طُرقاً للإصغاء لما حَول الكلمات ولما وراءها. وأنا استعمل لفظ "الإصغاء".. بمعنى واسع، وذلك للإشارة إلى ما نقوم به أثناء إجراء المقابلة، وللإشارة كذلك إلى الساعات التي نقضيها بعد ذلك ونحن نصغي إلى أشرطة التسجيل أو

ونحن ندرس السجلات المدونة، بل إني أستعمل هذا اللفظ بمعنى أشد اتساعاً للإشارة إلى الأساليب التي نتبعها عند تفسير ما يرد على ألسنة المبحوثات من كلمات يصفن بها حيواتهن... وكلما كانت المقابلات تمضي في طريقها قُدُماً، كلما زاد افتتاني ببعض ما في حديث مبحوثاتي من صفات وملامح مُميزة. فقد كن يتكلمن بطريقة ملموسة تماما عن التفاصيل العادية للحياة اليومية، إلا أنهن كُن في كثير من الأحيان يقلن أموراً بطرقٍ تبدو غير كاملة بشكل غريب.... فقد كن يفترضن أنني مُلمَّة بأنواعٍ معينة من المعارف (فيقُلن مثلا: "مثل كذا، وأنت تعرفين، والباب الخاص في صحف يوم الخميس"، وهي إشارة ضمنية لحقيقة أن كثيراً من الصحف في الولايات المتحدة التي تَصدُرُ في طبعات يوم الخميس تتضمن وصفات غذائية ومقالات ونصائح عن الطعام ونظام الحمية)... لقد بدأتُ أعطي المزيد والمزيد من الانتباه للطرق التي تُقَالُ بها الأمور (ديفول، ٢٠٠٤، ص ص ٢٣٣- ٢٣٤).

تُلاحظ ديفول أن الكلمات المترددة، مثل: "أنت تعرفين، أليس كذلك؟" قد تُطرحُ – في الواقع – فلا تُذكر في أثناء نقل الباحث لبياناته من صورة لأخرى، ولكن هذه الكلمات هي –في حقيقة الأمر– عَيْنُ اللحظات التي تكون فيها مجموعة الكلمات "المعتادة" لدى هؤلاء النساء غير كافية، وعين اللحظات التي تحاول فيها إحدى المبحوثات أن تتكلم، عن خبرتها وتجد اللغة قاصرةً عن ذلك (ص٢٣٥). وتُعلق ديفول على كتاباتها التي دونت فيها المقابلات التي أجرتها مع النساء عن موضوع تغذية عائلاتهن، تُعلِّق على هذه الكتابات بأنها "... مليئة بالإشارات الخاصة بقول النساء "إنك تعرفين أليس كذلك؟"، وذلك ضمن جُملٍ كهذهِ الجمل: "إنني شديدة الحرص على تغذيتها، كما تعلمين، بنوعٍ ما من طعام الإفطار". فهذه العبارة تبدو كأنها ملمح عابر في كلامهن، إلا أنها قد لا تكون فارغةً من المعنى تماما كما تبدو في ظاهرها. والواقع أنني أعلم فعلاً ما تعنيه هذه العبارة. فأنا لم أستعمل هذه العبارات بصفة منتظمة في تحليلاتي، إلا أنني أتصوَّرُ الآن أن بإمكاني استعمالها. وبدراستي الآن لهذه النصوص المدونة أدركَ أن هذه الكلمات تُقال كثيراً في المواقع التي ترد فيها عقب النطق بالوصلات في كلامنا أثناء المقابلات. ففي كثيرٍ من

الحالات، تبدو عبارة "أنت تعلمين أليس كذلك"؟ أنها تعني أموراً مثل "حَسَناً، إن هذه الجزئية أو النقطة التالية سيكون فيها شيء من الخداع. وأنا لا أستطيع أن أحكيها بصورة صريحة، ولكن ساعديني على الخروج من هذا المأزق قليلاً، وقابليني في منتصف الطريق وستدركين ما أعنيه" (ص٢٥٥).

إن عملية تدوين بيانات البحث ونقلها من صورة لأخرى إنما هي عملٌ تفاعليٌ، كما أنه يُشرك القارئ في عملية الإصغاء، والتحليل، والتأويل. فالتدوين ليس عملاً سلبيا، بل إنه يُزود الباحث بفرصة ثمينة لأن يشتبك مع مادته البحثية بصورة مباشرة ابتداءً من جَمْع البيانات. كما أنه يضمن أن يكون الباحث مُتنبها، منذ وقتٍ مبكر، إلى تأثيره على عملية جمع البيانات وإلى أن لديه فرصةً للاتصال بهذه البيانات بأسلوب موثق وأكيد من شأنه أن يهيئ الفرصة لإمكانية تحسين مستوى الثقة في الأساليب التي استخدمها في جمع البيانات وفي صدق تلك الأساليب.

وعند هذا الحد، إن لم تكن قُمتَ بعملك على النحو المذكور حتى الآن، فقد تكونُ في حاجة لتنظيم مذكراتك الميدانية ومقابلاتك وفق نظامٍ زمنيٍّ على أساس: **التاريخ باليوم، والساعة، والمكان.** استوثق من أنك رقَّمت صفحات عملك المكتوب. وقد تحتاج كذلك إلى التفكير فيما إذا كنت محتاجاً لاستعمال أحد برامج الكومبيوتر الجاهزة للمساعدة في التحليل، وذلك لأن بعض البرامج قد تستلزم منك أن تُدخل بياناتك في شكل معين، كأن تكون في صورة فقرات مثلاً، بينما لا تستلزم غيرها منك أن تقوم بهذا العمل.

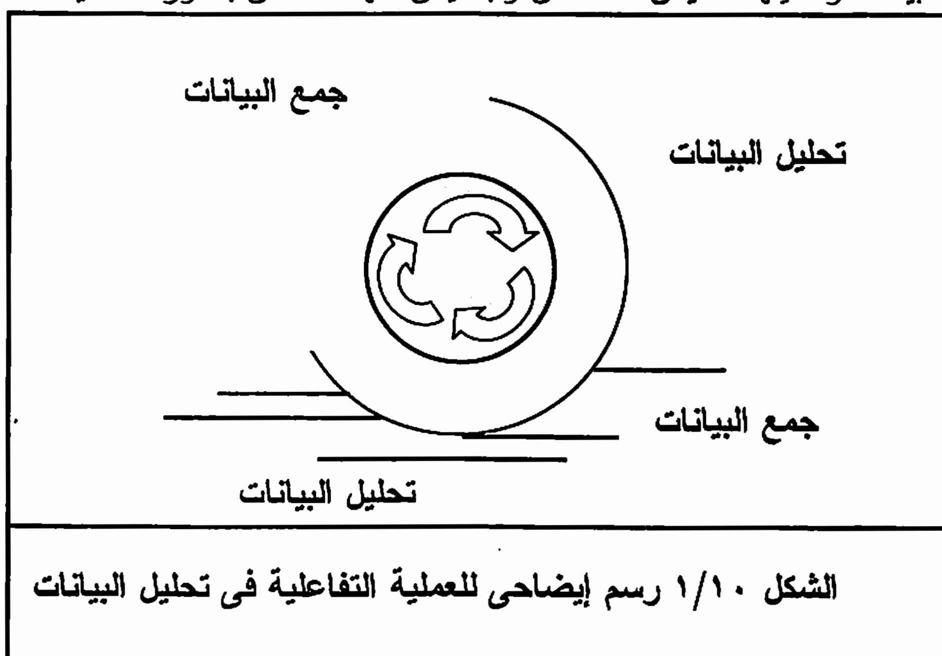
الخطوتان رقم ٢ ورقم ٣:

مرحلة استكشاف البيانات ومرحلة اختزال البيانات

تعمل هاتان المرحلتان متعاونتين معاً يداً بيد. ففي مرحلة الاستكشاف تقومُ بقراءة بياناتك النصية (المكتوبة) و/أو بياناتك البصرية أو السمعية وتفكر فيها. وأثناء عملية التفكير في بياناتك، قد تبدأ في تجويد نصك المكتوب عن طريق تسليطك الضوء على ما تشعرُ أنه مهم. وقد تُدونُ هذه الأفكار في صورة حاشية أو تعليق. ونود أن نؤكد أهمية **الوصف** أثناء هذه المرحلة. فقد

تبدا بكتابة موجز لما جَمعتَهُ من بيانات حتى هذه اللحظة . دوّن (في صورة حواشٍ) أي أفكار ترد في ذهنك وأنت تقرأ مذكرات الميدانية، ومقابلاتك، وما إلى ذلك. ما هي الأمور التي تتوافق مع بعضها؟ وما هي الأمور الإشكالية؟ ينبغي أن تفكر في استعمال بعض وسائل الإيضاح البصرية - كالرسوم البيانية- لتساعدك في تقليب النظر في أفكارك. ما هي أكثر الاقتباسات إيحاءً في بياناتك؟ أوجز هذه الشواهد وأعط كذلك بعض الأمثلة لما تقصدهُ منها. فكل هذه الأساليب الخاصة "بالتجول الأول خلال البيانات" ينهمك في استعمالها الباحثون الذين يريدون أن يحصلوا على صورة أدق لبياناتهم من أجل بناء النظرية، ولكي يصبحوا قادرين على استخلاص بعض النتائج.

كما أنك قد تبدأ **بتصنيف** بياناتك. وبالإمكان أن تبدأ عملية التصنيف بمجرد أن تبدأ فى جمع بعض البيانات، فلا تنتظر حتى يتم جمع كل بياناتك. فإن بإمكان قدر قليل من جمع البيانات وتحليلها أن يكشف عن بعض الأنماط المهمة، على نحو ما سنراه فى النص المستخلص من إحدى المقابلات التى أجريت مع فتاة بالغة سوداء تتناول القضايا الخاصة بصورة الجسد. فجمع البيانات وتحليلها عمليتان متداخلتان وتبادليتان؛ فهما تعملان بصورة تفاعلية.



الشكل ١٠/١ رسم إيضاحى للعملية التفاعلية فى تحليل البيانات

التصنيف والتحليل:
الاتجاه القائم على النظرية الموثقة

إن عملية التصنيف والتحليل التى نصفها فيما بعد قائمة على نموذج ملتزم باتجاه النظرية الموثقة فى تحليل البيانات الكيفية. ويزودنا عمل كاثى تشارماز Kathy Charmaz – الذى استخدمت فيه النظرية الموثقة – باستراتيجية مهمة لاستخلاص المعنى من البيانات الكيفية (تشارماز، ٢٠٠٤). والنظرية الموثقة شكل من أشكال التحليل كان جلاسر Glaser وشتراوس Strauss (١٩٦٧) أول من طوره. ويبدأ هذا المنظور الفكرى فى التحليل بالتعامل الموسع مع البيانات، وينتهى بنظرية يتم توليدها من واقع هذه البيانات، أو يتم توثيقها وتأكيدها على أساس هذه البيانات. و تستقطر تشارماز أفكار النظرية الموثقة فى مجموعة موجزة من التعليمات التحليلية المفصلة خطوة بخطوة. وهى تصحب القارئ خلال عملية جمع البيانات، وعملية التحليل، وكتابة الحواشى والتعليقات. وتعمل كافة أجزاء عملية التحليل هذه بصورة تفاعلية فتؤثر كل منها على الأخرى. فالمرء وهو يجمع البيانات، يقوم بتحليلها. تقول تشارماز: "يبدأ المرء هذه العملية بوضع "تصنيف مفتوح". ويتكون نظام التصنيف هذا من القراءة الحرفية للبيانات سطراً سطراً. فيبدأ بالتصنيف الدقيق لكل سطر، ولكل جملة، ولكل فقرة. وترى تشارماز (٢٠٠٤) أنك قد تطرح الأسئلة التالية أثناء قيامك بهذه العملية للمساعدة فيما تقوم به من تصنيف.

- "ما الذى يحدث؟"
- "ما الذى يفعله الناس؟"
- "ما الذى يقوله هذا الشخص؟"
- "ما هى الأسس والمسلمات التى تستند إليها هذه الأفعال وهذه الأقوال؟"
- كيف يعمل البناء والسياق على دعم، أو تأكيد، أو تعويق، أو تغيير هذه الأقوال والأفعال؟" (تشارماز، ٢٠٠٤، ص ٥٠٧)

وبمضي هذه العملية قدماً قد يبدأ الباحث فى رؤية فئات تصنيفية أكثر تطوراً وتبلوراً وتركيزاً على المضمون من خلال عملية كتابة الحواشى والتعليقات.

كتابة الحواشى والتعليقات

بكتابة الحواشى والتعليقات يستطيع المرء أن يرفع مستوى فئة التصنيف إلى مستوى الفئة. وتقوم فكرة الاستعانة بالنظرية الموثقة على القراءة الدقيقة لكل البيانات، وأن تكتشف ما فيها من الفئات والمفاهيم الرئيسية، وأن تكتشف فى النهاية خواص هذه الفئات والعلاقات القائمة بينها. وتعد كتابة الحواشى والتعليقات جزءاً متمماً من أجزاء عملية استخدام النظرية الموثقة، كما تساعد الباحث فى تجويد وتدقيق أفكاره المتعلقة ببياناته وفئاته التصنيفية. والوضع الأمثل أن تجرى كتابة الحواشى والتعليقات فى كافة المراحل أثناء عملية التحليل. كما أن من الممكن للقراءة الشاملة وتصنيف الحواشى أن تساعد الباحث فى خلق التكامل بين أفكاره، بل قد يصل بها الأمر إلى أن تقوم باستحداث أفكار وعلاقات جديدة داخل البيانات.

ويمثل اتجاه النظرية الموثقة واحدة فقط من استراتيجيات التحليل الكثيرة (كالتحليل السردى وتحليل الخطاب مثلاً) التى قد يستعملها المرء فى تحليل البيانات الكيفية. إذ لا توجد طريقة صائبة أو طريقة مخطئة فى تركيب البيانات، وكثيراً ما يحدث أن يقفز الباحث جيئة وذهاباً بين جمع البيانات، وتحليلها، وكتابة الحواشى والتعليقات. وقد اقترحنا نحن كذلك بعض استراتيجيات التحليل الخاصة فى نهاية كل طريقة بحث عرضنا لها فى كتابنا هذا. ومع ذلك، فإن اتجاه النظرية الموثقة يعد أسلوباً شائع الاستعمال يتسع ليستوعب العديد من اتجاهات طرق البحث، ابتداءً من تحليل المقابلات والمذكرات الميدانية وانتهاء بتحليل البيانات غير التدخلية.

يعتبر التصنيف جزءًا محورياً من اتجاه النظرية الموثقة، كما يتضمن استخراج المعنى من البيانات غير الرقمية، كالنصوص المكتوبة، ووسائل الاتصال المتعددة، كالوسائل السمعية والبصرية. ولو فرض أننا نصف كيف تنفذ عملية التصنيف بالفعل، كأن تنفذ مثلاً فى المواد النصية (المكتوبة) كالمقابلات، فستبدو شيئاً من هذا القبيل. تتألف عملية التصنيف – فى العادة –

من تمييز "القطع" أو "القطاعات" الموجودة فى بياناتك النصية (التى هى فى هذه الحالة نصوص ما أجريته من مقابلات) وإعطاء كل واحدة من هذه (القطع/ أو القطاعات) عنواناً (أى: فئة تصنيفية). والتصنيف هو استراتيجية التحليل التى يستعملها كثير من الباحثين الكيفيين لتساعدهم فى تحديد مواقع الموضوعات الأساسية، والأنماط، والأفكار، والمفاهيم الأساسية التى قد تنطوى عليها بياناتهم. ويمثل تحليل البيانات الكيفية تحدياً واضحاً للباحث الكيفى. ولعل أفضل طريقة لمباشرة العمل فى هذا الموضوع أن يُقال أنه يوجد العديد من الأشكال المختلفة للتحليل، والتى لها أهداف مختلفة كثيرة، وفقاً لما تقرره مشكلة البحث المحددة تحديداً دقيقاً.

مثال لعملية التصنيف

هيا بنا نعود إلى مثالنا الإيضاحى عن صورة الجسد.

فقد جمعت هس-بيبر (١٩٩٦) مقابلات وملاحظات بالمشاركة فى بحثها عن: كيف ترى المراهقات الأمريكيات السود صورة الجسد عندهن (هس - بيبر، وهولنج، وليفى، لفجوى Lovejoy، ٢٠٠٤). ولم يكن لديها أى "فروض" محددة كانت تريد أن تختبرها من واقع هذه البيانات، بل كانت مهتمة باكتشاف الآتى:

- كيف ترى المراهقات الأمريكيات السود صورة الجسد لديهن؟

أمضت الباحثة ساعات كثيرة تلاحظ المراهقات الأمريكيات السود وتقابلهن فى عديد من المراكز الاجتماعية المحلية بإحدى المدن الداخلية فى شمال شرق الولايات المتحدة. وتحصلت على ساعات من المقابلات والملاحظات التى أجرتها على المراهقات الأمريكيات السود وسجلت مذكرات ميدانية عن الأمور الجارية فى كل مركز اجتماعى على حدة لمدة سنوات. وينبغى لجمع البيانات وتحليل البيانات أن يمضيا فى طريقهما معاً - فبمجرد أن تبدأ فى جمع أول مجموعة صغيرة من البيانات من الميدان، يكون من المهم أن تبدأ فى محاولة فهمها. وفى قيامك بمثل هذه الدراسة، قد تبدأ عملية التحليل **بالقراءة الاستيعابية** حتى تكون على دراية بالبيانات التى تجمع بعد كل زيارة للمركز الاجتماعى. وأثناء قراءتك لهذه البيانات قد تهتم **بوضع الملاحظات** أو **تسليط الضوء على** أى أمر ترى أن له صلة بتصورك الخاص

بكيفية رؤية المراهقات الأمريكيات السود لهوياتهن وكيف يرين صورة الجسد لديهن. والواقع أن وضع الملاحظات على النص المكتوب معناه أن تحدد أماكن تلك **الأجزاء** من **البيانات** التى تعتقد أنها مهمة. وهذا يمكنك من أن تعطى اسماً أو فئة **تصنيفية** لكل قطاع من هذه القطاعات. وقد تحتوى بعض **قطاعات النص** على أكثر من فئة واحدة. ويتصف أسلوبك فى التصنيف بأنه **ذو نهاية مفتوحة** و"كلي". وهدفك من ذلك هو الحصول على فهم عميق وصحيح لمشكلة البحث. ذلك أنه ليس لديك مجموعة جاهزة من فئات التصنيف. وسوف يكون أسلوبك فى التحليل أسلوباً استقرائياً أساساً، كما سيتطلب منك أن تغوص داخل النص باحثاً عن الموضوعات الأساسية، أو المفاهيم أو أبعاد المفاهيم التى سوف تنبثق من خلال البيانات. ومن المرغوب فيه أن تبحث – بصفة خاصة – عن الطرق الشائعة أو الأنماط المعتادة للسلوك التى بها يتوافق الأفراد (وهم هنا المراهقات الأمريكيات السود) مع صورة الجسد لديهن ومع هوياتهن.

- كيف تصنف البيانات؟

عندما نتكلم عن التحليل فلعلك تشعر بأن المناقشة تمضى قدماً فى ضوء مصطلحات تعتبر – إلى حد ما – مصطلحات فنية إجرائية، وأنت على حق فى ذلك. فعادة ما يبدأ التحليل بالبحث عن **فئات تصنيف وصفية** داخل البيانات التى جمعها الباحث، وينتهى بالأمل فى توليد مجموعة من **المفاهيم** (أى الفئات) الأساسية التى تكون من الناحية التحليلية وثيقة الصلة بموضوع الهوية وصورة الجسد عند الفتيات الأمريكيات السود.

نص مستخلص من مقابلة مع مراهقة أمريكية سوداء، مع بعض فئات التصنيف المبدئية

(انظر هس– بيبر، وآخرون، ٢٠٠٤).

النص المستخلص	فئة التصنيف المبدئى
• *لا أرى أن على المرأة النموذجية أن .....*	المرأة النموذجية
• *وكأى أمر شخصى، أرى أن المرأة النموذجية لها شخصيتها وسمتها المميز، إن الأمر يتعلق بكيفية التصرف ....*	أهمية الشخصية

• *منظرى لا يزعجنى، إنما هى شخصيتى فحسب ....*	المظهر الخارجى أمر ثانوى
• *شخصيتى، أتمنى أن تكون لى شخصية جيدة ....*	أهمية الشخصية
• *وأن يكون لدى أفراد يحبوننى، فإن لم يحبونى لشخصيتى، أو بسبب مظهرى فقط،*	أهمية الشخصية
فلابد أنه ينقصهم شيء ما	افتقاد ملاحظة الشخصية
• *آه لو كنت تملك هذا الشعور [تقدير الذات]*	تقدير الذات
• *فكثيراً ما لا تبالى برأى الناس فيك ....*	لا تبال بما يقوله الآخرون
• *إننى يا هذا لأتباهى بتقديرى لذاتى، ......*	أتباهى بنفسى
• *ولست كمن يقول "يا خيبتى" فأنا أجلس منتصبة الظهر تماماً، وهذا يظهر تقديرى لنفسى تماماً ....*	تجلس منتصبة الظهر
• *إننى أنثى وسوف أرتدى للمدرسة الملابس التى تدل على الحماقة ....*	ترتدى ما تريد ارتداءه
• *إننى أضع فى أذنى هذه الأقراط الضخمة،*	تضع أقراطاً ضخمة
•*وهذا يظهر تقديرى لنفسى، فأنا لا أبالى بما تقوله عنى ....*	هى لا تبالى بما يقوله الآخرون
• *أوه، حسناً، هذا ما أراه، أنا لا أبالى بشيء، فأنا لا أتطابق مع أى شيء ولا مع أى طريقة ....*	تقدير الذات الداخلى: الشخص نفسه
• *فأنا نفسى، لماذا لا أستطيع أن أتصرف وفقاً لذلك؟ ....*	تقدير الذات الداخلى:
• *ولماذا لا أستطيع أن أرتدى ملابسى بهذا الشكل؟ ....*	ترتدى ما تريد

وكما يمكنك أن ترى من المثال المذكور أعلاه عن التصنيف، فإن بعض الفئات التصنيفية الواردة فى القائمة فئات منقولة حرفياً، فهذه الكلمات تظهر أيضاً داخل النص، كما أنها تكون فى العادة فئات وصفية. والفئات الأخرى الواردة فى القائمة تتسم بمزيد من الطابع التفسيرى (ومنها مثلاً فئة

التصنيف الخاصة بتقدير الذات الداخلى). وهذه الفئات التصنيفية ليست مرتبطة ارتباطاً شديداً بالنص نفسه، إلا أنها تبدأ بالانطلاق من أفكار الباحث المتصلة باستنباط التفسير. ويعتمد نمط التصنيف هذا على "**التصنيف الأشد تركيزاً**". ويتيح التصنيف الأكثر تركيزاً للباحث بناء المفاهيم وتوضيحها. ففى التصنيف المركز يختبر الباحث كل البيانات الموجودة فى فئة ما، ويقارن كل جزئية من البيانات التى يدلى بها المبحوث بكل جزئية أخرى، وينتهى بصياغة تعريف عملى واضح لكل مفهوم، ثم يُطلق عليه فى هذه الحالة اسماً معيناً. ويصير هذا الاسم هو فئة التصنيف (تشارماز، ١٩٨٣، ص ١١٧). ويقتضى التصنيف المركز من الباحث أن يطور مجموعة من **الفئات التحليلية** ولا يقتصر على إعطاء البيانات عناوين تبعاً لموضوعاتها. ويصبح تعديل وتطوير فئات التصنيف أمراً مهمًا من أجل بلورة فئات تصنيفية أكثر تجريداً بهدف توليد بنى نظرية كلية. وعلى ذلك فإننا نقوم فى المثال السابق، مثلاً، بتمييز الفئة المسماة "**التقدير الداخلى للذات**". إلا أننا نستطيع كذلك أن نرى فئات تصنيفية أخرى قد تساعدنا فى توضيح معنى هذا المفهوم انطلاقاً من وجهة نظر المبحوث.

الانتقال من "فئات التصنيف المبدئية" إلى "فئات التصنيف المركزة"	
• *فئة التصنيف المبدئى (أى فئة التصنيف الحرفى)*	يتطور ليصبح فئة التصنيف التحليلية (المركزة).
• *لا تبال بما يقوله الآخرون*	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.
• *التباهى بالنفس*	هوية متخمة برؤية النفس، الإيمان بالقدرات الشخصية.
• *الجلوس منتصبة الظهر*	هوية متخمة برؤية النفس، الافتخار بالذات.
• *ترتدى ما تريد ارتداءه*	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.
• *ارتداء أو وضع الأقراط الضخمة*	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.

أثناء تقدمك فى عملية التصنيف سيكون لديك فرصة للتوسع فى الطرق المختلفة التى يستعملها المبحوثون فى حديثهم عن "التقدير الداخلى للذات" باعتباره "عملية". ولكى تنتقل من مستوى التحليل الأمبل إلى الطابع الحرفى إلى مستوى التحليل النظرى أو المفاهيمى، يمكنك أن تضع علامات تبرز ما تراه طرقاً مختلفة أو متشابهة يستعملها المبحوث فى حديثه عن فكرة "التقدير الداخلى للذات". والواقع أن بإمكانك أن تبدأ بوضع الحواشى والتعليقات المتصلة بهذه الفكرة (انظر الحاشية الخاصة بالتقدير الداخلى للذات فيما بعد). وبمداومتك على تحليل المزيد والمزيد من المقابلات وكتابة الحواشى والتعليقات المتصلة بما هو موجود فى بياناتك، فإنك قد تستخرج أبعاداً تحليلية متعددة أو فئات تصنيفية فرعية لمفهوم "التقدير الداخلى للذات" (كالفئة الفرعية المعنونة: "يتجاهل ما هو خارجى عنه").

وبقيام الباحث بكتابة الحواشى والتعليقات على فكرة "التقدير الداخلى للذات"، يتشجع على تنظير معنى هذا المفهوم وتنظير طرق ارتباطه بالعوامل الأخرى. والواقع أن فئة التصنيف "التقدير الداخلى للذات" قد وجد أنها مرتبطة بفئة التصنيف المسماة: "يجب تخفيف الضغوط الثقافية"، وفئة التصنيف المسماة "النزعة العرقية". وقد تبين الباحثون الذين أجروا هذه الدراسة (انظر هس – بيبر وآخرون، ٢٠٠٤) أنه غالباً ما تحمى المراهقات الأمريكيات السود أنفسهن من الضغوط الثقافية التى تفرضها عليهن المعايير الغربية البيضاء فى الجمال، وذلك عن طريق تبنيهن لموقف يميل "للتقدير الداخلى للذات". وقد اتضح أن عملية "التقدير الداخلى للذات" تمثل استراتيجية مبكرة للتغلب على المشكلات يتعلمها الأطفال الصغار داخل مجتمعاتهم المحلية ليتغلبوا على التفرقة العنصرية الواقعة عليهم من المجتمع الكبير (هس – بيبر وآخرون، ٢٠٠٤). فهيا بنا نذهب إلى "خلف الكواليس" ونبحث حاشية كتبت لهذا المشروع.

حاشية على موضوع التقدير الداخلى للذات

"هو نمط مثير للاهتمام وله دلالته من أنماط الاستجابة التى ظهرت فى المقابلات، وقد أدرجناه تحت فئة التصنيف "التقدير الداخلى للذات".

وتصف هذه الفئة التصنيفية توجها معيناً تقوم فيه النفس بتقييم نفسها وفقاً لمجموعة من المعايير الداخلية الخاصة وليس وفقاً للأحكام (الخارجية) للآخرين. ومن المعروف أن هذا النمط من الاستجابة ظهر مرتبطاً بالمسائل المتعلقة بما إذا كانت المبحوثة منزعجة من وزنها أو مظهرها أو تشعر بضغط عليها يأتيها من أقرانها أو من وسائل الاتصال لتبدو أو تتصرف بشكل معين. وكما هو معهود، فقد ردت المبحوثات على هذا النوع من الأسئلة بنوع من الإصرار على أنهن لا يعبأن برأى الآخرين فيهن **(تتجاهل ما هو خارجى عنها)**، أو الإصرار على أنهن غير مشغولات إلا بمدى شعورهن بالرضا عن أنفسهن **(تصغى للداخل)**، أو بالجمع بين هذين الاعتبارين **(تتجاهل ما هو خارجى عنها، وتصغى للداخل)**. مثال ذلك قول واحدة منهن: (أنا لا أعبأ بما يقوله الآخرون، طالما أبدو فى عينى بصورة طيبة، فلا أهمية لما يقوله الناس). وقد ذكرت تسع عشرة مبحوثة عبارات يمكن وصفها باعتبارها كاشفة عن التوجه الخاص "**بالتقدير الداخلى للذات**".

وغالباً ما تحتوى هذه العبارات على التأكيد على أن المبحوثات تحب الشكل الذى يبدين فيه أو يشعرن بالرضا عن أنفسهن، كما تتضمن التأكيد على أنهن لا يرغبن فى التغيير من أجل إرضاء الآخرين. وقالت بعض المبحوثات إنهن تعلمن هذا الاتجاه/ أو هذه النزعة من أمهاتهن/ أو آبائهن. وقالت إحدى المبحوثات إنها تعلمت هذا الاتجاه من الممثل بيل كوسبى، وهو نموذجها فى التمثيل، حيث قالت: "كنت أتابع هذا العرض التليفزيونى الذى قال فيه لابنته إنها ينبغى ألا تقلق لما يقوله الصبيان لها. وكل ما عليها هو ألا يزعجها إلا رؤيتها لنفسها".

ومن الأمور التى لها دلالتها، أن هذه الاستراتيجية أو هذا الاتجاه يحمى هؤلاء الفتيات من أحكام الآخرين، كما أنه قد يجعلهن أقل تأثراً بالمعايير الغربية البيضاء للجمال وبالنزوع إلى فقدان أنفسهن وهن يبذلن كل الجهد لإرضاء الرجال وشد انتباههم. والواقع أن عدة مبحوثات قلن إنهن لا يشعرن بأنهن مضطرات لإرضاء الرجال (فيما يتصل بلون البشرة، وحجم الجسد، وغير ذلك من جوانب المظهر) لأنه من الأهم فى نظرهن أن يشعرن

بالرضا عن أنفسهن. ولم يتضح من هذه المقابلات مدى استناد هذه الاستراتيجية على نوع ما من الإنكار الدفاعى أم على التقبل الحقيقى للنفس وعلى النضج. فقد يكون هذا الاتجاه استراتيجية للتغلب على المشكلات تم تطويرها فى المجتمع الأسود كرد فعل على العنصرية وعلى الحط من قدر السود فى المجتمع. فعلى سبيل المثال، عندما سُئلت إحداهن عما يعنيه فى نظرها أن تكون أنثى سوداء، قالت إن هذا معناه "أن أكون جادة فيما أفعله، كما أنك تعرفين أنه لا يمكن – فى الواقع – أن أنزعج لما يفكر فيه الآخرون". كما أن هذه الاستراتيجية قد تتطور كرد فعل على ما تصفه كثيرات من هؤلاء الفتيات من استفزاز بغيض دائماً يتعرضن له من جانب أقرانهن (انظر الفئة التصنيفية: "تأثير الأقران المتعلق بالمظهر والوزن"). وقد تم التوصل إلى عدة فئات تصنيفية فرعية للاستعانة بها فى المزيد من تأمل المعنى الإجمالى لمفهم التقدير الداخلى للذات.

فئات تصنيف فرعية للتقدير الداخلى للذات

- **التقدير الداخلى للذات: تتجاهل ما هو خارجى عنها**- حيث تُشير المبحوثة إلى أنها لا تعبأ أو لا تنزعج من أحكام الآخرين بشأنها. فهى لا ترغب فى التغيير من أجل إرضاء الآخرين.
- **التقدير الداخلى للذات: تصغى إلى الداخل**- حيث تشير المبحوثة إلى أن ما يهمها هو: كيف تشعر بنفسها أو بما هو فى داخلها. وغالباً ما تؤكد المبحوثة أن الأمر المهم هو أنها تهوى/ أو تحب/ أو تشعر أنها راضية عن نفسها.
- **التقدير الداخلى للذات: تتجاهل الخارج وتصغى للداخل**- حيث تشير المبحوثة إلى أنها لا تعبأ بتصورات الآخرين عنها لأنها تشعر بالرضا عن نفسها، أو أن الأمر المهم عندها هو – فقط – صورتها عند نفسها. (مج لفجوى Meg Lovejoy) (انظر هس – بيبر وآخرون، ٢٠٠٤).

التصنيف وكتابة الحواشى: عملية دينامية

تتألف عملية التصنيف الكيفية من دوائر تبدأ بوضع فئات التصنيف، فكتابة الحواشى والتعليقات، ثم العودة إلى التصنيف، وذلك على نحو ما نلاحظ فى الشكل ٢/١٠.

عملية التصنيف

عند تصنيف البيانات، يقوم الباحث ببعض الأمور التالية:

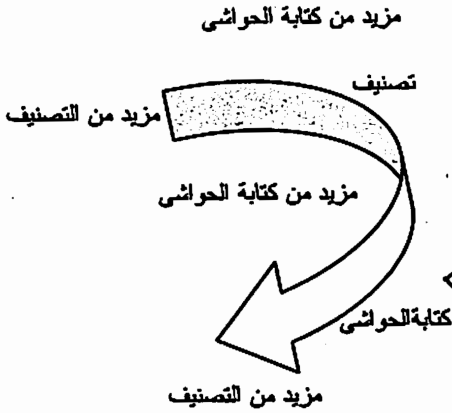
١- تسمية مختلف قطاعات النص.

٢- تركيز البيانات في قطاعات قابلة للتحليل.

٣- فرز ما هو متشابه من قطاعات النص المصنفة.

٤- مقارنة ومضاهاة القطاعات المصنفة، بحثاً عن الأنماط المتكررة.

٥- الهدف هو توليد المفاهيم التحليلية.



فن كتابة الحاشية

١- الحواشي الوصفية: أوجز بياناتك.

٢- الاقتباس: إدراج الاقتباسات المحورية.

٣- الحواشى التحليلية: الأفكار المكتوبة عن تحليلك وعن تفسيرك لبياناتك.

٤- الوصول إلى فهم العمليات عن طريق طرح أسئلة من قبيل: ما الذى يجرى هنا؟ إلى أى مدى تترابط هذه الفئات التصنيفية؟ وما هى الفئات التى لا رابطة بينها؟ وما هو معنى كل ذلك إجمالا؟

٥- تذكر: الحواشى عبارة عن مسارات داخل بياناتك، وهى خطوة وسيطة بين التصنيف وتفسيرك/ أو كتابتك النهائية عن البيانات.

الشكل (٢/١٠) التصنيف وكتابة الحواشي: عملية دينامية.

الخطوة رقم ٤: التفسير/ أو التأويل

من المهم ملاحظة أن التحليل والتفسير ليسا بالضرورة مرحلتين متميزتين عن بعضهما فى عمليات البحث الكيفى، وذلك كما رأينا فى حالة

التحليل القائم على النظرية الموثقة. فالعملية أكثر سيولة من ذلك بكثير، وذلك لأن الباحث غالباً ما يشتغل – في نفس الوقت – بعملية جمع البيانات، وتحليل البيانات، وتفسير نتائج البحث. وتعتبر كتابة الحواشي والتعليقات – كما رأينا في الكلام عن النظرية الموثقة – رابطة مهمة بين التحليل والتفسير. فمع أولى الملاحظات التي يسجلها الباحث في الميدان أو مع المقابلات المبكرة التي يجريها، سوف تتيح الكتابة المبكرة للحواشي والتعليقات أن ينظر الباحث أي الأفكار تبدو مقبولة وأي الأفكار يتعين مراجعتها. ويورد دافيد كارب David Karp التعليق التالي عن الكتابة المبكرة للحواشي:

سوف تسمع الناس – في البداية بصورة خاصة – يقولون أشياء لم تخطر على بالك أبداً. فابحث بعناية عن الاتجاهات الكبرى التي لم يحدث لك أبداً أن سرت فيها. وينبغي أن يكون معدل كتابة الحواشي القصيرة معدلاً كبيراً خصوصاً في بداية عملك. وإني لأؤيد الحواشي المتعلقة "بالأفكار" أو "المفاهيم"، والتي تطرح – للمرة الأولى – فكرة حديثة الظهور. ومن المعهود أن مثل هذه الحواشي تملأ ما بين صفحتين إلى ثلاث صفحات. (اتصال شخصي، بكارب، سبتمبر، ٢٠٠٤).

وقد لاحظ كارب (في هذا الاتصال الشخصي نفسه) أنه بعد تأملك للأفكار الموجودة في الحواشي وتصنيفك للمقابلات – أي عندما ترى أنك قادر على "الإمساك بموضوع أساسي ما" – فهذا هو وقت بداية ما يسميه "حاشية البيانات":

وأقصد بحاشية البيانات تلك الحاشية التي تدمج الموضوع (الأساسي) بالبيانات وبأي كتابات سابقة متاحة تتناسب مع ذلك الموضوع. وأقصد بحاشية البيانات شيئاً يبدأ بأن يتخذ شكلاً قريباً من ورقة البحث. وراع دائماً في كتابتك لأي حاشية بيانات أن تحشد من الأفكار المتعلقة بنقطة معينة عدداً أكبر مما سوف تستعمله فعلاً في كتابة ورقة بحث. فإذا توصلت إلى وضع فكرة كبرى، وشعرت أن لديك عشر قطع جيدة من البيانات المناسبة لهذه الفكرة، فميز كل هذه البيانات لكي تفحصها وتستعملها فيما بعد. كذلك، تأكد من أنك قمت بتمييز

الكلمات التى قالها أفراد والتى لا تتطابق مع النمط العام (اتصال شخصى مع كارب، سبتمبر ٢٠٠٤).

وبقيام الباحث بالاشتغال بالبيانات الكيفية، سواءً أكانت هذه البيانات جمعت من الملاحظات المستمدة من العمل الميدانى أو من إجراء المقابلات المكثفة، نلمس بوضوح أن مهمة الباحث هى الارتباط الوثيق بهذه البيانات – فهى تعنى جمع البيانات من أفراد أو من مجموعات من الأفراد. وفى أثناء انتقالنا من مشكلات جمع البيانات وتصنيف البيانات إلى قضايا التفسير والتدوين النهائى لنتائج البحث، تبدأ فى الظهور أسئلة أخرى تتعلق بتفسير البيانات الكيفية. وفى الصميم من عملية التساؤل هذه تقع قضايا القوة والتحكم فى عملية التفسير.

وكما ذكرنا فى فصول عديدة، فإن بعض الباحثين الكيفيين يتبعون نموذجاً "علمياً" فى البحث، مستعملين إجراءات بحثية نمطية وفقاً للأسس المتبعة فى العلوم الطبيعية ومتبعين المعتقدات التى تقوم عليها الفلسفة الوضعية. وفى ظل هذا الإطار الفكرى يلزم الباحث أن يكون "موضوعياً"، بمعنى أنه لا يسمح لقيمه أن تتدخل فى عملية البحث. ووفقاً لهذا النموذج من البحث يظل الباحث "موضوعياً" من أجل أن يظفر بفهم "حقيقى" للواقع. وذلك كما لو كان "الواقع" أو الصورة "الحقيقية" ستظهر بمجرد التزام الباحث بالإخلاص للعقيدة العلمية "للموضوعية".

ومع ذلك، فإن قدراً كبيراً من البحوث الكيفية يتعامل مع الملاحظة وإجراء المقابلات، وهاتان طريقتان تتطلبان تفاعلاً مستمراً بين الباحث والمبحوث. لذلك فإن الباحث يستطيع أن يؤثر في عملية البحث فى مراحل متعددة على امتداد مسار البحث – ابتداءً من اختيار مشروع البحث/ أو مشكلته، ومروراً بنمط خطة البحث، وانتهاءً بتحليل النتائج وتفسيرها. وتوجد "**ديناميات قوة**" مهمة داخل العلاقة القائمة بين الباحث الذى يجرى المقابلة والمبحوث الذى تتم مقابلته، وهى الديناميات التى يمكنها التأثير على تفسير نتائج البحث، وهى نقطة تناولناها بالمعالجة الشاملة فى مناقشتنا لمقابلات التاريخ الشفاهى. وفى الفصل الخاص بإجراء المقابلات المتعمقة لاحظنا أن

بإمكان بعض الصفات الاجتماعية للباحث وللمبحوث أن تؤثر على قضايا القوة والسلطة فى عملية البحث. وقد رأينا كذلك فى الفصل الخاص بالبحث الإثنوجرافى كيف أن بإمكان هذه الصفات أن توجه مسار مشروع البحث بأكمله، ابتداء من الظفر بالدخول إلى الموقع، ومروراً بالعلاقات الاجتماعية الموجودة فى مجتمع البحث، وانتهاء بالطريقة التى يتبعها المرء فى مغادرة موقع البحث.

والآن نلتفت إلى طريقة مهمة أخرى يمكن بها لخصائص الباحث الاجتماعية أن تؤثر على البحث من خلال النظر إلى قضايا التفسير. وإن من القضايا المحورية التى يتعين التعمق فى دراستها فى هذه المناقشة التى تتناول تفسير النتائج قضية: مدى تأثير الفروق في القوة بين الباحث والمبحوث على نتائج البحث وعلى تقدير الباحث لما تعنيه هذه النتائج (أى على عملية التفسير).

- ما هى القوة التى يملكها الباحث فى تحديد من هم الذين سوف يُسمع صوتهم فى تفسير نتاج البحث؟

إن لهذا السؤال أهمية محورية فى عمل كاثرين بورلاند Kátherine Borland (١٩٩١). فهى تستكشف مجال الصراعات التفسيرية فى السرد الشفاهى الذى أجرته مع جدتها، بياتريس هانسون. فقد طلبت من جدتها أن تحكى قصة الرحلة إلى مناطق بانجور، و مين، و فيرجروندز، والتى تصحب فيها والدها إلى حلبة السباق، وهو حدث ظل يتكرر على امتداد ٤٢ سنة مضت. وتهتم بورلاند بفهم المستويات المختلفة "لصناعة المعنى" التى تحدث فى رواية وفى تفسير السرديات الشفاهية. وهى تعترف بأنه توجد مستويات متعددة لتفسير السرديات. "فالحكاية السردية التى من المستوى الأول" – أى الحكاية التى ترويها جدتها – تنقل الطريقة الخاصة التى تكوِّن بها جدتها معنى الحدث. ومع ذلك، يوجد مستوى ثان للمعنى الخاص بهذه السردية. وهو المعنى الذى تنشئه / أو تركبه الباحثة، وهو معنى السردية الذى تم "فلترته" من خلال خبرة الباحثة وتجربتها. وتقوم بورلاند بتفسير القصة التى تحكيها جدتها، ولكنها وهى تصغى لهذا السرد، تقوم بإعادة تشكيله عن طريق فلترة

قصة جدتها من خلال ما عندها فى حياتها الخاصة من خبرات داخلية وخبرات خارجية. وهى تفعل ذلك وفى ذهنها توقعات أقرانها من الباحثين الذين توجه إليهم ملاحظتها التى تقول فيها: "يجب علينا أن نظهر درجة من الكفاءة العلمية" (بورلاند، ١٩٩١، ص ٧٣). وتستخدم بورلاند "عدسة" نظرية (أى: رؤية فكرية) قائمة على أساس النوع الاجتماعى لتفسر قصة جدتها باعتبارها رواية نسوية. ومع ذلك، فإن جدتها لا توافق على تفسيرها. وفى تناول الباحثة بورلاند لهذه القضايا المتصلة بالسلطة أو ملكية القصة نجدها تثير قضايا تتصل بمن له السلطة فى تفسير الروايات السردية.

وإجابة هذا السؤال – عند بورلاند – تكمن فى نمط من التصرف المتوازن الدقيق. فبورلاند تُفصح لجدتها عن تفسيرها، وتبدأ بذلك عملية تبادل الأفكار والتفسيرات. ومن الواضح أنه ينبْغى ألا تظل أى قصة "مفتقرة إلى التواصل". وبعبارة أخرى نقول: ينبغى لوجهة نظر الراوى أن تكون حاضرة داخل التفسير. ورغم أنه ليس بالإمكان حل كل الخلافات فى الرؤى، فإن من المهم أن يتعرض الباحث للتحدى/ أو الاعتراض الناجم عن وجهة نظر الراوى. ذلك أن تبادل وجهات النظر هو الذى يمكنه تزويدنا بطرق جديدة لفهم بياناتنا.

ويلخص الشكل (٣/١٠) ما سبق أن تكلمنا عنه بخصوص المراحل "الأربع" لعملية تحليل البيانات وتفسيرها. ونستطيع أن نلاحظ أنه كلما انتقلنا من خطوة لأخرى فإننا نبدأ فى اختصار بياناتنا وتصغير حجمها. فالتصنيف يساعد فى اختصارنا لبياناتنا، وكتابة الحواشى والتعليقات تساعدنا فى التفكير فى: كيف ننظم بياناتنا داخل فئات وأنماط مفهومة.

الشكل (١٠/٣) خطوات تحليل البيانات وتفسيرها: نموذج إيضاحى.

صدق التفسير وثباته

الآن وقد فسرت بياناتك الكيفية، هل تعلم أن تفسيرك لها يتسم بالصدق والثبات؟ وعند التفكير فى صدق نتائج البحث، يمكنك أن تضع تفسيراتك فى مواجهة الدعاوى المعرفية المنافسة وتنظر إلى أى مدى تصمد نتائج بحثك أمامها. كما ينبغي أن تُقدم أدلة قوية لأى دعاوى معرفية تستمدها من بياناتك.

اسأل نفسك:

- ما هى العوامل التى تجعل نتائج البحث تبدو معقولة فى نظرك؟

وبجانب ذلك، نقترح أن تأخذ بما قدمه كفيل Kvale (١٩٩٦) من نموذج ذى ثلاثة أجزاء خاص بالحكم على صدق البيانات الكيفية: الصدق كبراعة مهنية والصدق التواصلى، والصدق البراجماتى. وقد سبق مناقشة هذه الأبعاد فى الفصل الثانى من هذا الكتاب بالتفصيل، إلا أنه فى هذه المرحلة من البحث نقترح اتباع الخطوات التالية أو الإجابة عن الأسئلة التالية (مستمدة من كفيل):

- هل تروى حكاية مقنعة؟
- حاول بلورة رؤى نظرية تكون مستمدة من تفسيرك للبيانات.
- هل وصلت إلى بياناتك بالتزامك بالأمانة، أى هل تحققت من صحة الإجراءات التى اتبعتها؟
- ابحث عن الحالات السلبية (أى التى لا تؤيد نتائجك).
- اجعل تفسيراتك متاحة للمناقشة (بالموافقة والخلاف) بين من لهم الحق فى المناقشة (كالعلماء الآخرين فى مجتمع العلوم الاجتماعية).
- إلى أى مدى تؤثر نتائج بحثك على هؤلاء الذين ساهموا فيه، وإلى أى مدى تؤثر نتائجك على السياق الاجتماعى الأوسع الذى أجرى فيه البحث؟

وما أن تستوفى القيام بكل فقرات هذه القائمة من أساليب المراجعة والتدقيق، وتتجاوب نتائج البحث معك، فإن عنصر الصدق يكون قد نال حقه الواجب من التفكير وإمعان النظر. وكما رأينا فى الفصل الثانى من هذا

الكتاب، فإن عنصر الثبات يختلف فى البحث الكيفى عنه فى البحث الكمى، لأن البحث الكمى يكون من السهل تكراره. فإن أدخلت هذا الاعتبار فى حسبانك، وأنت تعالج عنصرى الصدق والثبات، فاسأل نفسك هذين السؤالين:

- هل يوجد "اتساق داخلى" (نيومان Neuman، ٢٠٠٣)؟ وهل تضيف البيانات جديداً؟

وعندما يكون لبياناتك معنى مقنع، وعندما تكون طرق بحثك مناسبة لمشكلة البحث/ أو سؤاله، وعندما تكون خطواتك الإجرائية قد نفذت بأسلوب سليم منهجياً، يمكنك أن تتقدم منتقلاً من مرحلة التفسير إلى مرحلة الكتابة النهائية لنتائج بحثك.

برامج الكومبيوتر واستخدامها فى تحليل البيانات الكيفية

نظراً لأن الباحثين يجمعون – خلال بحثهم – صفحات كثيرة العدد من النصوص، فقد يحتاجون إلى برنامج كومبيوتر لتحليل تلك البيانات. ومع ذلك فقد تثور بعض المسائل الخلافية المهمة – المتعلقة بالتحليل والتفسير – عند استعمال مثل هذه الأداة التحليلية (هس – بيبر، وليفى، ٢٠٠٤، ص ٤١٠):

- هل ينبغى للباحث أن يستعمل أحد برامج الكومبيوتر الجاهزة أساساً؟ والأهم هو أنه: أليس الغالب على التحليل أنه ذو طابع فنى؟
- هل ستتدخل برامج الكومبيوتر الجاهزة فى العملية الإبداعية للتحليل؟
- هل سيؤدى استخدام الباحث لبرامج الكومبيوتر الجاهزة إلى أخذه بعيداً عن بياناته؟

وعندما يبدأ الباحثون عملية تحويل بيانات بحوثهم إلى منتج نهائى، فإنهم قد يجدون أن تحليلهم عمل بالغ التعقيد تطغى عليه أكداس متراكمة من البيانات البحثية التى تتكون من البيانات المكتوبة التى لم تحلل والتى كثيراً ما يبلغ عددها آلاف الصفحات المكتوبة. ويعلق مايلز Miles و هيوبرمان Huberman على ذلك قائلين:

من المشكلات المزمنة للبحث الكيفى أنه يؤدي – بصورة رئيسية – عن طريق استعمال الكلمات، وليس الأرقام. والكلمات أكبر حجماً من الأرقام

كما أنه يغلب عليها احتمال تعدد المعاني. وهذا الوضع يزيد من صعوبة معالجتها والاشتغال بها. والأسوأ من ذلك، أن معظم الكلمات تكون عديمة المعنى ما لم ينظر القارئ خلفاً و أماماً إلى بعض الكلمات الأخرى... أما الأرقام، في مقابل ذلك، فتكون - في العادة - أقل غموضاً كما أنه من المحتمل معالجتها بجهد ونفقات أقل. لذلك لا نعجب كثيراً عندما نجد الباحثين يفضلون الاشتغال بالأرقام وحدها، أو ترجمة الكلمات التي يجمعونها إلى أرقام بقدر ما يمكنهم من السرعة... [ومع ذلك] فإن تحويل الكلمات إلى أرقام، وما يعقبه من طرح الكلمات بعيداً من شأنه أن يصيب الباحث بكل أنواع الإزعاج... فالتركيز على الأرقام وحدها يحول انتباهنا من الجوهر إلى الأرقام الحسابية، وبهذا الشكل فإنه يطيح بعيداً بالمفهوم الكيفي برمته، وقد يكون من الأفضل أن يبدأ المرء بحثه بالأرقام في المقام الأول. (١٩٨٤، ص ٥٤٦)

إن بإمكان الباحث أن يحسن مستوى تحليله لبحثه إذا استعمل حزم البرامج الكومبيوترية. وكما يلاحظ فيلدنج Fielding ولي Lee (١٩٩٨)، فإن عمل الباحثين على امتداد العقدين الماضيين يتم تحويل هيئته عن طريق برامج الكومبيوتر الجاهزة. ويمكننا تصنيف برامج الكومبيوتر الجاهزة إلى نوعين رئيسيين. يتألف الأول منهما من برامج ذات طبيعة عامة أو شاملة لم تصمم خصيصاً للبحث الكيفي. ويندرج تحت هذه الفئة ثلاثة أنواع فرعية: "فبرامج معالجة الكلمات" Word processors تساعد الباحث في كتابة وتنظيم المذكرات الميدانية والمقابلات، كما تساعده في تطوير مخطط تنظيمي لهذه البيانات. وتستطيع "برامج استرجاع النصوص" Text retrievers القيام - على وجه السرعة - بعمل تصنيف شامل لطائفة من البيانات بغية العثور على "نمط خاص" داخلها أو العثور على "خيط" يربط مجموعة من السمات المميزة لتلك البيانات لتمكن الباحث من وضع يده على بعض الموضوعات الأساسية أو الموضوعات العامة الموجودة داخل هذا القدر الكبير من البيانات. ويعتبر النوع الأخير من البرامج ذات الطبيعة العامة أو الشاملة "برامج إدارة قواعد النصوص" textbase" managers". وهي عبارة عن نظم قواعد

بيانات ضخمة تسهل استرجاع المعلومات شبه المصنفة، والتى تم إدخالها فى صورة "تسجيلات" records (جمع "تسجيلة") و"حقول" fields.

والنوع الثانى هو تلك البرامج الجاهزة المصممة خصيصاً لتحليل البيانات الكيفية. وتضم حزم البرامج هذه أربعة أنواع فرعية هى: (١) "برامج التصنيف والاسترجاع"، و(٢) "برامج بناء النظرية القائمة على فئات التصنيف"، و(٣) "برامج بناء شبكات المفاهيم"، و(٤) "برامج تخطيط النصوص". وتتيح البرامج المسماة برامج التصنيف والاسترجاع تخصيص فئات تصنيفية لقطاعات معينة من النص. وتسهل استرجاع الفئات التصنيفية باستعمال دوال بحث بوليانية Boolean معقدة (كأن تستعمل مثلاً دالة "و"، "أو"، "لا" لفلترة بياناتك). وتتيح برامج بناء النظرية القائمة على فئات التصنيف للباحث أن يحلل العلاقات المنتظمة بين هذه البيانات، وهذه الفئات التصنيفية. وتوفر بعض البرامج اتجاهاً منظومياً قائماً على عدد من القواعد يدخل فى الحسبان اختبار بعض الفروض الموجودة فى البيانات. وتتيح برامج بناء شبكات المفاهيم وبرامج تخطيط النصوص للباحثين أن يستخلصوا بعض الروابط الموجودة بين الفئات التصنيفية فى بياناتهم، ويرى الباحثون أن هذه الخدمة البحثية إنما هى بمثابة دعم "إضافى" بجانب برامجهم الخاصة ببناء النظرية القائمة على الفئات التصنيفية. ويشير مايلز و هيوبرمان إلى الاستعمالات التالية لبرامج الكومبيوتر الجاهزة فى تحليل البيانات الكيفية.

استعمالات برامج الكومبيوتر الجاهزة فى الدراسات الكيفية

كتابة المذكرات فى الميدان

التدوين النهائى للمذكرات الميدانية أو نسخها.

التحرير: تصحيح المذكرات الميدانية، أو بسطها والتوسع فيها، أو مراجعتها.

التصنيف: وضع كلمات أساسية / أو مفتاحية، أو بطاقات تعريف tags على قطاعات النص، لتيسير استرجاعها مستقبلاً.

التخزين: الحفاظ على النص داخل قاعدة بيانات منظمة.

البحث والاسترجاع: تحديد مواضع قطاعات النص ذات الصلة ببعضها البعض وجعلها متاحة للفحص والاختبار.

"ربط" البيانات ببعضها: ربط قطاعات البيانات ذات الصلة ببعضها البعض، مكونين بذلك فئات، أو عناقيد، أو شبكات من المعلومات.

كتابة الحواشى والتعليقات: كتابة التعليقات التأملية على بعض جوانب هذه البيانات كأساس للتحليل الأعمق فيما بعد.

تحليل المضمون: حساب مرات تكرار، وتعاقب، ومواضع بعض الكلمات والعبارات.

عرض البيانات: وضع البيانات المنتقاة أو المختصرة فى شكل مركز ومنظم، كشكل المصفوفة أو الشبكة، وذلك لتحضيرها للفحص فيما بعد.

استخراج النتائج والتحقق من صحتها: مساعدة المحلل فى تفسير البيانات المعروضة وفى اختبار النتائج أو تأكيدها.

بناء النظرية: تطوير أو بلورة تفسيرات منهجية للنتائج تتسم بكونها متماسكة من ناحية المفاهيم. كما تشمل هذه النقطة عملية اختبار الفروض.

تحديد الرسوم البيانية: إنشاء الرسوم البيانية أو التخطيطية التى تصور النتائج أو النظريات.

إعداد التقارير المرحلية أو النهائية.

(**المصدر:** مايلز، و هيوبرمان، ١٩٨٤، ص ٤٤).

ويلاحظ فيلدنج و لى Lee (١٩٩٨) أن تطور ميدان البرامج الجاهزة الكيفية قد ازداد بمرور الوقت، وأنه يوجد الآن جمهور قومى ودولى متنام وكثيف من مستخدمى هذه البرامج. ويتسبب الاستعمال المتزايد لبرامج الكومبيوتر كأدوات فى التحليل الكيفى فى إثارة عدد من الهواجس المتعلقة بطرق البحث وبالجوانب النظرية والتى تتصل كلها بتحليل وتفسير البيانات الكيفية. وتناقش شارلين هس – بيير (١٩٩٥) خمساً من المخاوف التى كثيراً ما يبديها النقاد فى مناقشة استعمال برامج الكومبيوتر. وأول هذه المخاوف أن برامج الكومبيوتر سوف تفصل الباحث الكيفى عن هذه العملية الإبداعية (فى التحليل والتفسير). وتشير هس – بيير إلى أن بعض المحللين يشبه ممارسة البحث الكيفى بممارسة "العمل الفنى". فكما أن الفنان يفضل فرشاة أو قلماً أو

ورقاً من نوع معين، فكذلك يفعل بعض الباحثين الكيفيين. ومـن هنـا ينظـر البعض إلى استعمال تكنولوجيا الكومبيوتر باعتبارها أمراً لا يتوافق مع الفن.

ويوجد تخوف قوى من أن استعمال برامج الكومبيوتر الجاهزة سوف يحول الباحث إلى "كائن بشرى لا يمارس التفكير ولا يعرف المشاعر". ومـن المخاوف الأخرى التى تناقشها هس – بيبر أن الخط الفاصـل بـين التحليـل الكمى والتحليل الكيفى سوف ينطمس بسبب فرض منطق البحث المسحى على البحث الكيفى وبسبب التضحية بالتحليل المتعمق لعينة أكبر.

وتنجم مثل هذه المخاوف من كون برامج الكومبيوتر الجاهزة أصبحت تتيح للباحث التصنيف السهل والاسترجاع السهل لأعداد كبيرة من الوثـائق. فحجم البيانات التى أصبح من الممكن أن تتجمع اليوم فى بعـض الدراسـات الكيفية يمكن مقارنته بحجم بيانات البحث الكمى. من هنا يساور البعض خوف من أن البحث الكيفى سوف يتم اختزاله إلى بحث كمى.

وتشتمل قضايا أخرى نوقشت فى هذا المجال على قضية الخوف مـن احتمال أن يؤدى استعمال الكومبيوتر إلى فرض تعريف خـاص لأى ميـدان معين من ميادين الدراسة. ذلك أن أبنية برامج الكومبيوتر تضع شروطاً على الطريقة التى ينبغى على مشروع البحث أن يتبعها فى مسيرته. ويتسبب ذلـك فى إثارة مخاوف بعض النقاد من أن برامج الكومبيوتر الجاهزة سوف تحـدد أنماط الأسئلة المطروحة كما ستقرر خططاً محددة لتحليل البيانات.

ومن المخاوف الأخرى أن الباحثين سوف يكونون – حينئذ – ملزمين بأن يكونوا أكثر تحملاً لمسئولية تحليلهم. ذلك أن برامج الكومبيوتر الخاصـة بتحليل البيانات الكيفية تقتضى من الباحثين أن يكونوا أكثر صراحة ووضوحاً فى الإجراءات وفى العمليات التحليلية التى يقومـون بهـا لعـرض بيانـاتهم وتفسيراتهم. وسوف تؤدى مطالبة الباحثين الكيفيين بأن يكونوا أكثر وضـوحاً وصراحة فيما يتصل بطرق البحث لديهم وكذلك مطالبتهم بأن يقبلوا تعـريض تفسيراتهم لاختبارات الصدق والثبات؛ كل ذلك سوف يؤدي ولا شك إلى إثارة بعض المناقشات والموضوعات الخلافية: فهل ينبغـى أن توجـد اختبـارات

صارمة للصدق والثبات فى البيانات الكيفية؟ كما تناقش هس – بيبر مسألة الخوف من فقدان السرية بسبب استعمال البيانات المعالجة بالوسائط المتعددة.

ما هى برامج الكومبيوتر الموجودة،

وما هو البرنامج الذى ينبغى على المرء أن يختاره؟

وتقترح هس – بيبر و كروفتس Crofts (فى كتاب لهما تحت الطبع) المجموعة التالية من الأسئلة التأملية لتتفكر فيها وأنت تنتقى أحد برامج الكومبيوتر الكيفية الجاهزة. وهذه القائمة مستمدة جزئياً من المعرفة الدقيقة التى تحتوى عليها مؤلفات ريناتا تش Renata Tesch (١٩٩٠) و إيبان وايتزمان Eban Weitzman وماثيو مايلز Mathew Miles (١٩٩٥)، وجون وايتزمان John Weitzman (٢٠٠٠) وجون كريزول John Creswell وراى مايتا Ray Maietta (٢٠٠٣) عن استعمال برامج الكومبيوتر وتطوير برامج كومبيوتر صممت خصيصاً لهذا الغرض.

ويرتكز المنظور الفكرى الذى تتبناه هس – بيبر و كروفتس على المنظور الفكرى الخاص بمستخدم هذه البرامج. إذ أن من المهم للمستخدم أن يحدد أولوية الأسئلة التى تعد الأوثق اتصالاً بجدول أعماله البحثية.

١– "ما هو نوع نظام الكومبيوتر الذى تفضل العمل به أو تشعر أنك ترتاح عندما تعمل به أكثر من غيره؟ وهل يدعم هذا البرنامج نظامك فى التشغيل؟ وهل تريد رفع مستوى نظامك أو ربما تشترى جهاز كومبيوتر جديد لتستوفى متطلبات برنامج محدد؟ وهل يروق لك شكل الواجهة أو السطح البينى لأحد البرامج وما تشعر به نحوه؟ وما الذى يثيره فيك هذا البرنامج على المستوى النفسى العميق؟"

٢– "هل يتجاوب شكل هذا البرنامج وشعورك نحوه مع أسلوبك الخاص فى البحث؟ وما هو أسلوبك فى التحليل؟ وكيف تخطط لإجراء تحليلك، وكيف يمكن أن يكون للكومبيوتر مكانه المناسب فى هذا الأسلوب؟ وكيف يتسنى لكل برنامج أن يدعم تحليلك (أو يعوقه)؟ وكيف يتحقق ذلك فعلاً؟ مثال ذلك، هل تخطط لتصنيف معظم بياناتك – ما هو نمط التصنيف

الذى تريد القيام به؟ وما هى الطريقة التى بها تفضل استرجاع بياناتك، وما مدى أهمية أن تكون قادراً على البحث فى النص الكامل الذى استخلصت منه هذه البيانات، ما مدى أهمية ذلك فى نظرك؟ وهل أنت شخص بصرى؟ هل تحب أن ترى العلاقات والمفاهيم المختارة معروضة فى أحد أنواع الرسوم البيانية أو الشبكات؟ وهل تتوقع "تكميم" أى قدر معين من بياناتك؟"

٣- "ما هو مشروع البحث - أو ما هى مجموعة المشاريع البحثية - التى تتوقع استعمالك لبرنامج كومبيوتر فيها؟ مثال ذلك ما هو نمط البيانات التى يتكون منها مشروعك - أهى بيانات نصية، أم موجودة فى وسائط متعددة؟"

٤-" إلى أى مدى تريد أن يساعدك برنامج الكومبيوتر؟ وما هى المهام التى تريد ميكنتها؟ وما هى المهام المحددة التى تريد معالجتها بالكومبيوتر؟ وربما تكون غير محتاج لكل المزايا المقترنة بهذه البرامج. فما هى توقعاتك عما سيكون هذا البرنامج قادراً عليه فى مساعدتك فى عملك؟ وهل توقعاتك هذه عملية؟"

٥- "ما هى الموارد المتاحة لك لتحقيق ذلك؟ ما هى البرامج التى يمكن لجهاز الكومبيوتر الخاص بى أن يدعمها؟ وما هى البرامج التى أستطيع أن أتحمل تكلفتها؟ ما هى الموارد المتاحة لك (المتمثلة فى الوقت، والموظفين، والجوانب المادية) اللازمة لتعلم استعمال هذا البرنامج؟"

٦- "ما هى تصوراتك السابقة عن هذه البرامج؟ وإلى أى مدى أثرت آراء المستخدمين الآخرين، أو تسويق المنتج، أو مصادر المعلومات الأخرى المتصلة ببرامج الكومبيوتر الخاصة بتحليل البيانات الكيفية؛ إلى أى مدى أثرت هذه الأمور على اختياراتك؟ وهل تعتبر فروضك المتصلة بالبرامج دقيقة؟ وما الذى تزداد رغبتك فى تعلمه / أو معرفته عن برامج معينة؟"

٧- "ما هى الأسئلة / أو الهواجس التى من بين ما عددناه سابقاً هنا هى الأهم فى نظرك؟ وكيف تود ترتيب أولويات العوامل - من حيث أهميتها لديك - عند التفكير فى شراء برنامج كومبيوتر؟ وما هى الأسئلة التى ترى

أنها أهملت فى العرض السابق؟" (هس – بيبر و كروفتس، من مؤلف لهما تحت الطبع).

إن إمعان التفكير فى هذه الأنماط من مشاغل مستخدمى برامج الكومبيوتر **قبل** محاولة اختيار برنامج لتحليل البيانات الكيفية يضع أولئك المستخدمين فى الوضع الذى يجعلهم يقومون بتقييم نقدى، **يقدمونه لأنفسهم**، يقدرون فيه مدى احتمال تكامل كل برنامج مع برامجهم البحثية الخاصة بهم. وعن طريق قيام المستخدم بتجربة نسخ العروض المجانية لهذه البرامج واستكشاف مزايا كل برنامج، وكذلك عن طريق النظر فى تجارب الزملاء فى استخدام هذه البرامج؛ عن هذا الطريق يستطيع الباحث أن يقدر مدى احتمال أن تكون هذه البرامج مفيدة له. ويساعد استعراض القائمة التى أوردناها وفحصها بدقة؛ يساعد على رفع مستوى تمكين المستخدم وزيادة قدرته على الإفادة من هذه البرامج. وإن من المهم كذلك الإشارة إلى أنه ليس بإمكان أى أداة تكنولوجية – ومهما كانت مزاياها – أن "تنجز" وحدها ما تريده من تحليل. (هس – بيبر، و كروفتس، من عمل لهما تحت الطبع).

إن أجهزة الكومبيوتر تعدنا بإحداث ثورة فى الطريقة التى يتبعها الباحثون فى تحليلهم، إلا أنها تقدم – كذلك – مجموعة من المحاذير التى يتعين أن ينتبه إليها التحليل الكيفى. فالباحث الذى يستخدم هذه البرامج ينبغى عليه أن يقدر ما فيها من جوانب القوة وجوانب الضعف، بالإضافة إلى تقديره للدلالات التى ينطوى عليها استعمال برامج الكومبيوتر الجاهزة فى تحليل البيانات الكيفية. ونحن نوصى بأن تجرب استعمال هذه البرامج عندما تتاح الفرصة لذلك، وترى إلى أى مدى يمكن أن تفيدك هذه البرامج. ومن مواقع الشبكة موقع مفيد لاستنزال (تحميل) نسخ إيضاحية مجانية للمنتجات التجارية والبرامج المجانية، ويعرف باسم CAQDAS(*) (برامج تحليل البيانات الكيفية بالكومبيوتر)، وهو متاح على:

http://caqdas.soc.surrey.ac.uk/. ويشتمل هذا الموقع على معلومات عظيمة القيمة عن طريقة اختيار حزم برامج الكومبيوتر، ومعلومات ورش

(*) CAQDAS = Computer Assisted Qualitative Data Analysis Software.

عمل عن كيفية الاستخدام العملى لتلك البرامج، وتشكيلة متنوعة من المصادر لمعرفة المزيد عن كيفية استخدام برامج التحليل الكيفى بالكومبيوتر.

التفسير والتدوين النهائى للبيانات الكيفية: حكايات واقعية وحكايات غير واقعية

- كيف يستطيع الباحث أن يقدم صورة دقيقة عمن يدرسهم؟

تعقد كارول بيلى Carol Bailey (١٩٩٦) مقارنة بين نمطين للتدوين النهائى لمشروع البحث، الأول عبارة عن "حكاية واقعية" والآخر عبارة عن "حكاية غير واقعية". وفى كتابة الحكاية "الواقعية" يقوم المؤلف بالكتابة فى نطاق أحد أجناس الكتابة التقليدية الذى يتخذ غالباً شكل إحدى المواد العلمية التى تكتب للنشر فى مجلة علمية، كأن تكون ورقة علمية أو تقريراً بحثياً أو رسالة فى حجم الكتاب. ومن المفترض أن تمثيل أصوات المبحوثين يكون انعكاساً "حقيقياً" لوجهة نظرهم. فالباحث يركب عناصر قصة واقعية بوصفها الصوت غير المجسد للسلطة. ويعد هذا الاتجاه فى الكتابة اتجاهاً "رسمياً" يتبع معايير الكتابة التقليدية - التى قد يراها المرء فى كتاب مدرسى يلتزم المواصفات القياسية - عند التدوين النهائى لنتائج البحث. فالأمر الذى نتحدث عنه هنا هو عبارة عن "نموذج نظرى" للكتابة تقوم أسسه الإبستمولوجية فى جوهرها على أساس التسليم بأن ثمة "حقيقة" موجودة فى مكان ما تنتظر أن يكتشفها الباحث. وتشرح بيلى أسلوب كتابة "الحكاية الواقعية" بمزيد من التفصيل فيما يلي:

أولاً: *تتناول الكتابة الأعضاء الموجودين فى مجتمع البحث، أما التفاصيل المتصلة بالمؤلف فتكون غائبة عن جملة النص. ذلك أن هذا النص يُكتب كما لو أن أى إنسان كان موجوداً فى الموقع كان سيعيش نفس الخبرات، ولذلك، فإن السمات الشخصية للمؤلف، بل حتى وجوده، تكون غير ذات صلة بهذه الحكاية.*

ثانياً: *تحتوى الحكايات الواقعية على تفاصيل ملموسة لما وقع من أمور، وعن معدل تكرارها، وما هو نظام حدوثها وتتابعها، ومن الذين يقومون*

بها. وليس الهدف هو تسجيل كل شيء حدث، بل هو تمييز الأنشطة والأنماط المعهودة للسلوك فى هذا الموقع.

***ثالثاً:** تقوم الحكايات الواقعية بتقديم وجهات نظر أفراد مجتمع البحث. فيقوم المؤلف بتضمين الحكاية الواقعية الأقوال والعبارات المقتبسة، والتفسيرات الصادرة من أولئك الأفراد، والملخصات المستمدة من المقابلات غير الرسمية، وما يرويه أفراد المجتمع من حكايات ويقدمونه من تفسيرات للأحداث.*

***وأخيرا:** تحتوى الحكايات الواقعية على تفسيرات تبين طبيعة مجتمع البحث. فالبحث الميدانى تتم كتابته كما لو كان القارئ يفهم معنى مجتمع البحث فى تلك الآونة من منظور أفراد مجتمع البحث أنفسهم.* (بيلى، ١٩٩٦، ص ١٠٦)

إن النزعة ما بعد الحداثية فى الكتابة تمضى فى اتجاه مضاد "للنموذج الوضعى" فى كتابة البحث، كما تسعى لتجاوز الحدود الفاصلة بين ما يُعد "حقيقياً" وما يُعد "غير حقيقى"، مما يجعلها تفرض على الباحثين – فى كثير من الأحيان – أن يناضلوا من أجل الوصول إلى الطريقة التى بها يدونون نتائج بحثهم تدويناً نهائياً دقيقاً. ويذهب هذا المنظور الفكرى إلى أن قوة الباحث وسلطته تكونان ماثلتين دائماً فى ثنايا عملية البحث، كما أنهما تؤثران على طريقة صياغة الحكاية. ففى الواقع، توجد "أزمة فى عرض النتائج" أطلقها الباحثون ما بعد الحداثيين وغيرت – بالفعل – الطرق التى اختارها بعض الباحثين لتقديم نتائج بحوثهم. فالنزعة ما بعد الحداثية فى الكتابة ترى أن كافة نتائج البحث إنما يتم نقلها من خلال القيم الشخصية للباحث، ومن خلال أسلوبه، ومنظوره الأخلاقى (شابيرو Shapiro، ١٩٨٥-١٩٨٦، منشور فى ريتشاردسون Richardson، ١٩٩٥، ص ١٩٩).

ويتحدث ريتشاردسون (١٩٩٥) عن بعض أساليب الكتابة التى تسعى لأن تُدخل فى حسبانها ديناميات القوة الموجودة فى علاقة الباحث بالمبحوث، وذلك لإسماع القراء أصوات المبحوثين، ومن أجل خلق فضاء يتسع لرواية عدد كبير من الحكايات، والتى تُعتبر كل حكاية منها على حدة، فى أفضل

الظروف، مصدراً لتزويدنا بفهم جزئى فقط لطبيعة العالم الاجتماعى محل الدراسة. ومن الأهداف المهمة لهذا النمط في الكتابة أن يتم – بالذات – إدخال أصوات هؤلاء المقهورين فى الحسبان كى تسمع وأن يتم كذلك توفير فضاء للباحث ليمعن التفكير فى دوره الخاص ضمن عملية البحث. وقد ظهرت أجناس غير تقليدية ومختلفة فى أسلوب الكتابة كثمرة من ثمار إمعان النظر فى نزعة ما بعد الحداثة. إذ يرى لوريل ريتشادرسون (١٩٩٥، ص ٢٠٠) أن الشكل السردى فى الكتابة نمط مفيد – بالذات – فى "تفسير النتائج وعرضها". فالشكل السردى "يعكس الخبرة الإنسانية العامة للزمان ويربط الماضى بالحاضر والمستقبل" (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢١٨). ويستطيع أحد أشكال السرد أن يجعل "الأفراد، والثقافات، والمجتمعات، والعصور التاريخية مفهومة ككيانات كلية"، وذلك لأنه يتيح للناس أن يروا أنفسهم كجزء من منظومة أكبر (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢٠٠). وبهذه الطريقة يدعم هذا السرد الحوار، فهو: "يميط اللثام عن المشكلات الشخصية باعتبارها قضايا عامة، وبذلك يسهم فى صنع هوية جمعية والتوصل إلى حلول جمعية" (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢١٦).

ويرى نورمان دنزن أن ثمة "مرحلة" جديدة من مراحل الكتابة آخذة فى الظهور فى حقبة ما بعد الحداثة. فنجد الباحثين يحولون نتائج بحوثهم الإثنوجرافية إلى أساليب "أدائية" مختلفة يستعيرونها من فنون الأدب والإنسانيات، فيخلقون بذلك جنساً أدبياً فى الكتابة لا يختلف عن ذلك الجنس الأدبى الخاص بالأداء المسرحى (دنزن، ٢٠٠٠). إن الكتابة التجريبية والكتابة التقليدية لا تمثلان بديلين منفصلين يتعين الاختيار بينهما. فقد يقرر الباحث أن ينتقل إلى نموذج تجريبى فى بعض أجزاء بحثه فى نفس الوقت الذى يكون فيه محافظاً على نموذج أكثر تقليدية فى جوانب أخرى من كتابته. وبإمكاننا أن ننظر إلى التحليل، والتفسير، والتدوين النهائى للبحث باعتبارها عملية متكررة أو مستمرة. إذ بالإمكان أن يحدث الانتقال من نموذج تقليدى فى الكتابة إلى نموذج تجريبى فى مراحل مختلفة أثناء عملية البحث. وقد يتطلب التحول إلى نموذج أكثر تجريبية أن ينفق المرء وقتاً ليعيد فيه تنظيم وتجهيز مهاراته

البحثية والكتابية. وقد يتوجب على بعض الباحثين الذين يعملون داخل نطاق جنس أدبى أكثر تجريبية؛ قد يتوجب عليهم أن يدخلوا فى جدال مع بعض ناشرى المجلات والكتب العلمية ولا يؤمنون بهذا الشكل من أشكال الكتابة العلمية (وذلك على الرغم من أن كثيراً من المؤلفات المكتوبة بالأسلوب التجريبى تنشرها بالفعل بعض دور نشر المجلات العلمية الأساسية ودور النشر العادية). كما أن الباحث الذى يكتب ورقة بحث فى مقرر تعليمى ما أو يكتب فكرة أطروحة جامعية قد يجد أن أستاذه أو المشرف على رسالته مشدود إلى أحد أساليب الكتابة التى يغلب عليها الطابع التقليدى الشائع (انظر بيلى، ١٩٩٦، ص ١٠٨).

وقد أدت النزعة ما بعد الحداثية فى الكتابة بصورة عامة إلى تشجيع كثير من الباحثين – حتى هؤلاء الذين يلتزمون بأحد أشكال الكتابة التقليدية – على الكتابة بأسلوب يتسم بالمزيد من الطابع التأملى النقدى. وتطرح الكتابة التأملية أسئلة من قبيل: كيف سأقدم نفسى فى عملية البحث هذه؟ وإلى أى مدى تدخلت تحيزاتى، وقيمى، ووجهات نظرى الشخصية فى انتقائى للأسئلة التى أطرحها؟ وفى تحديد البيانات التى أجمعها وأحللها؟ وفى تحديد ما ألاحظه وما لا ألاحظه؟ وما هو مقدار ما عرضته من رؤيتى وآرائى أنا؟ وما معنى أننى لم أدع الآخرين يعبرون عن أنفسهم؟ فالكتابة بأسلوب تأملى نقدى تعنى أن يكون لديك إدراك جيد لتأثير وضعيتك الخاصة على البحث الذى تجريه.

وأياً ما كانت طريقة الكتابة التى وقع عليها اختيارك، فمن المهم ألا يغيب عنك أبداً أنك راوٍ مسئول عن حكاية قصة شخص آخر. فأنت فى حاجة إلى العثور على طريقة لفهم مقادير ضخمة من البيانات الكيفية بأسلوب يكون متوافقاً مع هذه البيانات التى جمعتها وساعدت فى إيجادها. فهيا بنا ننضم إلى دافيد كارب فى مشهد أخير من مشاهد ما وراء الكواليس.

خلف الكواليس مع دافيد كارب

بوسعك الآن أن تتخيل ملفاً ضخماً سميكاً يبدو شبيهاً بهذا [يُظهر المؤلف ملفاً مكوناً من عدة مئات من الصفحات]. وأنا الآن أكتب عن

الالتزامات، وعليه فأنا الآن بصدد كتابة فصل عن الالتزامات. وهذا ملف يحتوى على كل البيانات المستمدة من عملى الحالى عن الالتزامات. حسناً، إننى أود أن أقدم مثل هذا العمل. كما أن من الممكن – حينئذ – أن أقضى ما يقرب من شهر وأنا جالس أقرأ هذه الصفحات الطوال. ولو أننى فتحت هذا الملف تماماً، فسوف ترى أننى أدون ملاحظاتى على كل الصفحات تقريباً، أسجل فيها تعليقاتى على المادة. وسبب اهتمامى بتدوين تلك الملاحظات أننى أجرى حواراً مع هذه المادة. كما أننى أحاول أن أحيط نفسى بهذه المادة... أحاول أن أعيش معها، وأن أكون معها لمدة تقرب من شهر كما ترى. فأنا أعنى بذلك أن السؤال الملح الذى يشغلنى وأنا أدون ملاحظاتى على كل هذه الصفحات التى بلغت المئات من المادة العلمية هو: "ما هو نوع القصة التى يمكننى أن أحكيها مستخلصاً إياها من هذه البيانات؟"، وما هى أوجه الانتظام أو التماثل التى أراها فى هذه المادة؟

فأنت ترى أن كل ما نكتبه إنما هو، فى الحقيقة، قصة نحكيها. فنحن نحاول أن نحكى قصة مقنعة، لكنها لابد أن تكون محكومة بما تجمع لديك من بيانات. وأعنى بذلك أنه لا يمكنك أن تحكى أى قصة (من وحى الخيال). ثم إن السبب الذى يجعلنى أقضى شهراً وأنا أقرأ كل هذه المادة وأتحاور بهذا الشكل مع هذه البيانات، هو محاولة أن أشق طريقى الذى يقودنى إلى الوقوف على الأشكال الأساسية، والأبعاد الأساسية لقصة مشوقة، قصة حقيقية، عن خبرة معاناة الإصابة بالاكتئاب.

إننى أقوم بأمور كأن أنشئ فهرستاً لكتاب ما. فبعد أن أقرأ كل هذا الكم من المادة، بعد أن فرغت من وضع ملاحظاتى على الهوامش، فإننى أخلق – بالمعنى الحرفى للكلمة – الشيء المساوى لفهرست أحد الكتب. وبهذا الشكل، قد أتمكن من العثور على ما بين ٢٥-٣٠ فئة وتحديد الصفحات التى أجد فيها البيانات المتعلقة بكل فئة من هذه الفئات. والأمر الذى تحاول القيام به وأنت تجوس خلال هذا الكم الهائل من المادة هو أن تصل إلى الوضوح، وتستمر فى التماس هذا الوضوح، أعنى وضوح رؤية ما هو موجود فعلاً. وعند مرحلة ما تتوقف وتقول لنفسك: "هذه هى ما أتصور أنها قصة معقولة

تتسق مع هذه البيانات، قصة تحكى عن خبرة العيش مع الاكتئاب". وحينئذ أنشئ نوعاً من السيناريو، أى أنشئ نوعاً من الرؤية العامة لما قد ينتهى إليه هذا الفصل. وأخيراً، وفى هذه اللحظة، أبدأ فى القيام بالكتابة.

وهذا أمرٌ مختلف تماماً، وذلك لأنك تتعلم من خلال عملية الكتابة. فقد يكون لديك سيناريو حول ما سوف يؤول إليه هذا العمل، ولكن بمجرد أن تباشر الكتابة وتبدأ فعلاً فى استعمال هذه البيانات فى رواية القصة، فسوف تكتشف أن هذه القصة ربما يؤول بها الأمر إلى صورة مختلفة قليلاً عن السيناريو الذى كان فى ذهنك، أو أنها لم تتجح تماماً بالطريقة التى كنت تتصورها عنها فى بداية الأمر. كما أننى أؤمن فى الواقع بما يقوله هوى بيكر Howie Becker فى كتابه عن الكتابة: وهو أن الكتابة ليست هى عملية تدوين ما تتصوره، إنما هى عملية تعريفك بما فى ذهنك فعلاً. لذلك، فإننى أرى أن فعل الكتابة الحقيقى هو الذى يعرفنى بما يتعين علىَّ كتابته. وكما ترى، فإن ما أحاول عمله هو إعطاء صورة عن العمل الكيفى الذى تم إنجازه، حيث يتوجب عليك – دائماً – أن تحرص على الاقتراب قدر ما تستطيع من البيانات الخاصة بالقضايا التى ترى أنها مهمة. ويبدأ الأمر بأن تنشئ دليلاً للمقابلة، وبعد ذلك تضع ملاحظاتك بشكل وافٍ على أولى المقابلات التى أجريتها، وهكذا باستمرار. بل إنه أثناء نسخى لهذه المقابلات، وقد قمت فعلاً بنسخ كل هذه المقابلات، أجد أنه تنتابنى مشاعر مختلطة تجاه هذا الأمر. إلا أنه توجد ثمة قيمة "حقيقية" فى أن تقوم بنسخ هذه المقابلات بنفسك. فهذا العمل ما هو إلا طريقة مختلفة للاقتراب الوثيق من البيانات.

أن الأساس الجوهرى لكل ذلك هو أن تبقى قريباً، هل تفهمنى؟ وهو ما يعنى تدوين الحواشى والملاحظات فى كل وقت. وقد تكون الحاشية عبارة عن جملة واحدة. وأحياناً ما ترى أنه خطرت لك فكرة، وعندما تشرع فى كتابتها تجد أنها استغرقت منك خمس صفحات، أو تجدها استغرقت فقرة واحدة فى بعض الأحيان، أو تقدم أحياناً على عمل تقييم أوسع نطاقاً تسائل فيه نفسك: ما الذى فى ذهنى الآن فيما يخص هذه النقطة؟". هيا بى أكتب حاشية عن أحد الموضوعات الأساسية. إننى أرى أن موطن القوة الأعظم للتحليل

الكيفى هو أن كلاً من عملية جمع البيانات وعملية تحليل البيانات تسيران معاً جنباً إلى جنب. وإذا لم تداوم على بذل الجهد فى تحليل هذه المادة، ابتداءً من لحظة البداية تماماً... أو إذا اكتفيت بجمع بياناتك وانتظرت حتى النهاية لتقوم بالتحليل، فإنك تسيء استعمال القوة العظيمة لهذه الطريقة. بل إن هذا الكلام يسرى على كل مراحل هذا العمل العلمى المحكم، وسيبقى عليك أن تبلغ المرحلة التى يتعين عليك فيها أن تدون دفاتر بياناتك الميدانية – أو هذه على الأقل الطريقة التى أعمل بها – وأن تداوم على معالجتها بصورة مكثفة. وفى الوقت الذى تصل فيه إلى هذه المرحلة، ستصبح قادراً – حقاً – على فهم ما فى هذه المقابلات.

الخاتمة

ونحن نختم هذا الفصل، نود أن نزودك بقائمة ينبغى عليك مراجعتها عندما تبدأ فى القيام بمشروع بحثك. وليست قائمة الأسئلة هذه قائمة شاملة تحيط بكل شيء، بل المراد منها إلقاء الضوء على بعض العوامل المهمة التى ينبغى عليك أن تدخلها فى حسبانك كى تستطيع الوصول إلى فهم صائب لتقييمك الشخصى لمشروع بحثك فى مجمله.

وهذه هى قائمة الفحص الخاصة بالتقييم والمحتوية على الأسئلة التى ينبغى عليك أن تطرحها على نفسك وأنت تضع اللمسات الأخيرة على مشروع بحثك. وبإمكانك أن تعتبر هذه الأسئلة بمثابة مجموعة من الإرشادات لتقييم مشروع بحثك.

- **السؤال الشامل للبحث**

هنا نتساءل: هل صيغ سؤال بحثى صياغة واضحة؟ وهل هذا السؤال بالغ الاتساع؟ أم بالغ الضيق؟

- **قضايا المصداقية**

هنا نتساءل: لماذا ينبغى على أى إنسان أن "يشترى" (يتقبل ويصدق) قصتك؟ وأن يثق بقصتك؟ وما هى بعض المعايير الخاصة بتقدير صدق دراستك البحثية؟ وهل يقر المبحوثون بخبراتهم الشخصية الواردة فى تحليلك

وتفسيرك للبيانات؟ ولماذا يقرون أو لماذا لا يقرون؟ هل تتبع أسلوباً محدداً لفحص عملك؟ هل يستطيع القارئ أن يتتبع الخطوات التحليلية التي تقدمها كدليل على المصداقية؟

- **دلالة عملك وجدواه**

هنا تتساءل: ما هي دلالة بحثك؟ وإلى أي مدى يرتبط بحثك بالدراسات البحثية الأخرى؟ إلى أي مدى يمكن تطبيق بحثك على تخصصك العلمي الذي تنتمي إليه، وعلى التخصصات العلمية الأخرى؟ ما هي بعض دلالات مشروعك البحثي وأهميته للسياسة الاجتماعية؟

- **جمع البيانات**

هنا تتساءل: هل تتناسب هذه البيانات - التي تم جمعها - مع سؤال البحث؟

- **طريقة البحث**

هنا تتساءل: هل تعد طريقة البحث (بيّن بالتفصيل طريقة/ أو طرق البحث التي تستعملها للإجابة على سؤال بحثك) هل هي متوافقة مع الغرض (أي: مع سؤال البحث)؟ ما مدى ما يتصف به بيانك لاستراتيجياتك في جمع البيانات من شمولية وجودة؟

- **العينة**

كيف تم اختيار المبحوثين؟ وهل يعتبر هؤلاء المبحوثون اختياراً صحيحاً يعتد به لهذا البحث؟

- **الأخلاقيات**

هنا تتساءل: كيف تتم معالجة قضايا المبحوثين من البشر؟

- **التحليل**

هنا تتساءل: كيف توصلت إلى نتائج بحثك الخاصة؟ هل ورد ذكر استراتيجيات التحليل الخاصة؟ هل نفذت فعلاً ما قلت إنك سوف تقوم به؟ هل اتجاهات تحليل البيانات متوافقة مع سؤال بحثك؟

- **التفسير**

هنا تتساءل: هل بإمكان القراء أن يصلوا إلى معنى ما (أي صورة كلية شاملة) لما تدل عليه بياناتك، وذلك باستمدادها من نتائج بحثك المكتوبة؟

وهل نتائج بحثك موضوعة فى سياق التراث العلمى المنشور عن هذا الموضوع؟

وتتساءل: هل تتناسب الشواهد مع بياناتى؟ وهل تُعد بياناتى متوائمة مع الموضوع؟

النتائج / التوصيات

هنا تتساءل: هل تعكس النتائج ما انتهى إليه بحثك من حقائق؟ هل قدمت بعض التوصيات الخاصة بالبحث فى هذا المجال فى المستقبل؟ هل ترى أنك مسئول إلى حد ما عما تراه من بعض أوجه القصور فى بحثك؟

إن تحليل البيانات الكيفية وتفسيرها يسيران كعملية تكرارية – تنتقل من إحداهما إلى الأخرى والعكس – هذا مع الحرص على ألا تنسى التعبير المجازى الوارد فى الفصل السابع من هذا الكتاب عن تجميع أجزاء الصورة اللغز، والمجاز الحلزونى الذى ناقشناه فى الفصل الأخير. ذلك أن بإمكان قطعة صغيرة من البيانات أن تقطع معك شوطاً طويلاً فى تجميع المعنى، كما أن على المرء ألا يقع تحت إغراء القيام بجمع مقدار كبير للغاية من البيانات فى نفس الوقت الذى يكون فيه عاجزاً عن تأمل هذه البيانات واحدة واحدة. فالمطلوب هو وجود روح إبداعية مع مجموعة من مهارات التحليل والتفسير. وتعتبر عملية التصنيف وكتابة الحواشى تقنيتين قويتين ينبغى عليك استعمالهما فى عملية فهم وتفسير بياناتك. وربما تلاقى بعض البدايات الزائفة، كما قد تعيش لحظات اكتشاف وتوليد للأفكار النظرية فى تحليل وتفسير بياناتك. فهذا النمط من العمل ليس "للجبناء". فهو كثيراً ما يتطلب تنبهاً للتفاصيل وصموداً فى مواجهة الفوضى، كما يتطلب "موهبة خاصة" فى الصبر على اللبس والغموض. ويقتضى منك التدوين النهائى للبحث أن تكون كثير التأمل والتفكير فى وضعيتك – أى فى مجموعة السمات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بك والتى سخرت جهودك فى سبيل إدخالها فى تحليلك وتفسيرك لبياناتك. إنها رحلة تستحق القيام بها، وذلك لأن هذه الرحلة تُفضى إلى فهمنا وإدراكنا للواقع المُعاش لهؤلاء الذين نقوم ببحث أحوالهم.

* * *

• **Analytical Categories** • **فئات التحليل**

تتطلب عملية التصنيف المركز أن يطور الباحث مجموعة من الفئات التحليلية بدلاً من الاكتفاء بوضع عناوين البيانات وفقاً لنوع الموضوع.

• **Analytical Codes** • **فئات التصنيف التحليلية**

لا تكون فئات التصنيف التحليلية شديدة الارتباط بالنص فى حد ذاته، إلا أنها تبدأ فى الاعتماد على رؤى الباحث المتعلقة باستخراج أو استنباط التفسير.

• **Analytical Dimensions** • **الأبعاد التحليلية**

كلما زاد عدد المقابلات التى تقوم بتحليلها، زادت فرصة أن تظفر بالوصول إلى أبعاد تحليلية عديدة لمفهوم معين.

• **Coding** • **التصنيف**

يتكون التصنيف عادة من تمييز "قطع" أو "قطاعات" فى بياناتك النصية وإعطاء كل قطعة – أو كل قطاع – عنواناً (أي: كود أو فئة تصنيف). والتصنيف هو الاستراتيجية التحليلية التى يستعملها كثير من الباحثين الكيفيين كى تساعدهم على تحديد مواقع الموضوعات الأساسية، والأنماط، والأفكار، والمفاهيم التى قد تكون موجودة فى ثنايا بياناتهم.

• **Descriptive Codes** • **فئات الوصف**

عادة ما يبدأ التحليل بالبحث عن فئات الوصف الموجودة فى ثنايا البيانات، وهو الأمر الذى يزرع الأمل فى توليد مجموعة من المفاهيم الأساسية (أى: الفئات الأساسية) التى تكون ذات طابع تحليلى أقوى وأوضح.

• **Focused Coding** • **التصنيف المركز**

من شأن استخدام أسلوب التصنيف المركز أن يسهل بناء المفاهيم وتوضيحها. ففى التصنيف المركز يقوم الباحث بفحص كل البيانات الداخلة فى فئة ما ويقارن كل جزئية من هذه البيانات بكل جزئية أخرى، وفى النهاية يقوم بوضع تعريف وافٍ بالغرض لكل مفهوم، وبعد ذلك يتم إطلاق اسم عليه.

• فئات التصنيف الحرفية • Literal Codes

تظهر هذه الكلمات كذلك فى ثنايا النص نفسه ومن ثم يقوم الباحث باستخدامها كفئات تصنيف. وعادة ما تكون فئات وصفية.

• ديناميات القوة • Power Dynamics

تنطوى العلاقة بين الباحث والمبحوث على ديناميات قوة مهمة يمكنها أن تؤثر على تفسير نتائج البحث. وقد أشرنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب عن إجراء المقابلات المتعمقة إلى أن بمقدور سمات اجتماعية معينة بين الباحث والمبحوث أن تؤثر على قضية القوة وقضية السلطة (التحكم) فى عملية البحث.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ناقش مزايا وعيوب استعمال أدوات التحليل التى تعتمد على الكومبيوتر.

٢- كيف يمكن القيام بعملية التصنيف بأفضل صورة عند تحليل البيانات؛ وهل توجد أى عيوب فى استعمال التصنيف؛ وهل يوجد وضع/ أو حالة تكثر فيها فئات التصنيف بشكل مفرط، وهل بالإمكان أن يثير هذا الوضع مشكلات معينة؟

٣- ما هو الفضل الذى يدين به الباحث للمبحوثين أثناء مرحلة التحليل، وهل ينبغى أن يكون للمبحوثين رأى فى الطريقة التى يتم بها تمثيلهم؟

٤- كيف تؤثر العلاقة بين الباحث والمبحوث على عملية التفسير؟

٥- اشرح اتجاهات النظرية الموثقة فى تحليل البيانات. ما معنى أن تكون هذه العملية استقرائية؟

٦- ما هى العلاقة بين التحليل، والتفسير، وكتابة تقرير البحث؟

٧- كيف يتحقق الباحث الكيفى من صدق نتائج بحثه؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- **Computer – Assisted Qualitative Data Analysis Software**
- **برامج تحليل البيانات الكيفية بالكومبيوتر**

http://caqdas.soc.surrey.ac.uk/training.htm

يقدم هذا الموقع ورش عمل ودورات تدريبية (وكذلك معلومات عامة) عن برامج التحليل باستخدام الكومبيوتر بالتطبيق على تحليل البيانات الكيفيـــة. وهو موقع عظيم الأهمية لأولئك المهتمين بالتعرف على التحليـــل باســتخدام الكومبيوتر.

* * *

References المراجع

- Agar, M. (1980). *The professional stranger: An informal introduction to ethnography*. New York: Academic Press.
- Bailey, C. A. (1996). *A guide to field research*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Borland, K. (1991). That's not what I said': Interpretive conflict in oral narrative research. In S. Berger Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's worlds: The feminist practice of oral history*. New York: Routledge.
- Charmaz, K. (1983). The grounded theory method: An explication and interpretation. In R. M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: A collection of readings* (pp. 109-126). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Charmaz, K. (2004). Grounded theory. In S. Hesse-Biber & P. Leavy (Eds.), *Approaches. to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 496-521). New York: Oxford University Press.
- Creswell, J. W, & Maietta, R. C. (2003). Qualitative research. In D. C. Miller & N: J. Salkind (Eds.), *Handbook of design & social measurement*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N., (2000). The practices and politics of interpretation. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Devault, M. (2004). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. In S. Hesse-Biber & M. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research*. New York: Oxford University Press.
- Fielding, N., & Lee, R. (1998). Introduction: Computer analysis and qualitative research. In *Computer Analysis and Qualitative Research*. London: Sage.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. L. (1967). *the discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Harrington, W (Ed.). (1997) A writer's essay: Seeking the extraordinary in the ordinary. In *Intimate journalism* (pp. xvii-xlvi). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? the cult of thinness and the commercialization of identity*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. (1995). Unleashing Frankenstein's monster: The use of computers in qualitative research. *Studies in Qualitative Methodology* (Volume 5). Westport, CT: JAI Press.
- Hesse-Biber, S., & Crofts, C. (forthcoming). Computer-aided software for qualitative data analysis: An historical overview and contemporary perspectives. In S. N. Hesse-Biber & R. Maietta (Eds.), *When methods meets technology*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Hesse-Biber, S. N., Howling, S. A., Leavy, P, & Lovejoy, M. (2004). Racial identity and the development of body image issues among African American adolescent girls. *The Qualitative Report,* 9(1),49-79.
- Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Kvale, S. (1996). *InterViews. An introduction to qualitative research interviewing*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miles, M. B., & Huherman, A. M. (1984). *Qualitative data analysis: An expanded sourcebook* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miles, M. B., & Weitzman, E. A. (1996). The state of qualitative data analysis software: What do we need? *Current Sociology,* 44,3(2),206-224.
- Mills, C. W (1959). *The sociological imagination*. New York: Oxford University Press.
- Mishler, E. G. (1991). Representing discourse: The rhetoric of transcription. *Journal of Narrative and Life History,* (1), 255-280.
- Neuman, L. (2003). Social research methods: Qualitative and quantitative approaches (3rd ed.). Boston: Allyn & Bacon.
- Quinn Patron, M. (2002). *Qualitative research & evaluation methods* (3rd ed.). London: Sage.
- Richardson, L. (1998). Writing: A method of inquiry. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Collecting and interpreting qualitative materials* (pp. 345-371). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Richardson, L. (1995). Narrative and sociology. In J. Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 198-221). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Robson, C. (2002). *Real world research* (2nd ed.). Oxford: Blackwell.
- Shapiro, M. (1985-1986). Metaphor in the philosophy of the social sciences. *Cultural Critique,* 2, 191-194.
- Tesch, R. (1990). *Qualitative research: Analysis types and software tools.* London: Falmer Press.
- Weitzman, E. A. (2000). Software and qualitative research. In N. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed. pp. 803-820). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weitzman, E., & Miles, M. (1995). *Computer programs for qualitative data analysis: A software sourcebook.* London: Sage.
- Wolcott, H. (2001). *Writing up qualitative research* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Wolcott, H. (1994). *Transforming qualitative data: Description, analysis and interpretation.* Thousand Oaks, CA: Sage.

الفصل الحادى عشر

الرابطة البحثية

التركيز المستمر وبناء المعرفة

يتسم البحث الكيفى بتفرده من حيث المحتوى، والمجال الذى يركز عليه، وكذلك من حيث الشكل. وقد بدأنا هذا الكتاب ببيان أن البحث الكيفى عملية **كلية متكاملة** تقوم صراحة بدمج الإبستمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحث معاً من أجل تطوير اتجاهات متفردة فى دراسة العالم الاجتماعى. ويمكن النظر إلى العلاقة بين الإبستمولوجيا والنظرية وطريقة البحث باعتبارها "رابطة"، أعنى رابطة بحثية. وكما سبق أن بينا فإننا نعنى بالعملية الكلية أن البحث – بدءاً من مرحلة اختيار الموضوع وحتى العرض النهائى لنتائج البحث – يحتوى على سلسلة من الاختيارات المترابطة فيما بينها والتى تؤثر كلها فى بعضها البعض. من هنا تحظى فكرة الرابطة البحثية بالمحل الأول من اهتمام الباحث الكيفى، كما أن الطريقة التى بها تطرح الرؤى أو المواقف الفكرية والإبستمولوجية – بحيث تكون ذات صلة بعملية البحث – تؤثر تأثيراً عميقاً على عملية بناء المعرفة، والتى تتضمن انتقاء أدوات البحث أو طرقه الملائمة واستخدامها. وعندما ننظر إلى البحث باعتباره عملية كلية يصبح بوسعنا توجيه الاهتمام إلى طائفة من العوامل التى تؤثر على عملية بناء المعرفة، بما فيها:

- اهتماماتنا الخاصة فيما يتعلق بموضوع البحث.
- الفروض الخاصة بما يمكن معرفته حول الموضوع وبمن يمكن أن يكون عارفاً به.
- الاعتبارات الأخلاقية.
- أنواع أسئلة البحث التى نريد أن نطرحها ولمن توجه هذه الأسئلة.
- الأدوات المتاحة لجمع البيانات.
- الاعتبارات العملية، كالوقت، والمال، والمسار المهنى، والسلامة البدنية، والحالة الانفعالية المواتية.

وليست طرق البحث إلا جانباً واحداً من جوانب المجهود البحثى. إذ يتحتم أن يتضافر سؤال البحث وطريقة البحث معاً على الدوام وأن يكون بينهما "تلاؤم محكم". ومن بين الاختيارات العديدة المتاحة للباحثين الكيفيين، ابتداءً من المنظورات الفكرية ومروراً بطرق البحث وانتهاءً بأساليب وأشكال عرض المادة، تتطلب عملية البحث الكيفى – فى الواقع – الإبداع، ولهذا ينظر إليها باعتبارها حرفة تحتاج إلى براعة. وقد قمنا من خلال التعبير المجازى الخاص "بالرقص مع البيانات" dancing with data (بمعنى التحاور والتناغم معها) والتعبير المجازى الخاص "بالاتجاهات الحلزونية" فى البحث؛ قمنا بتوضيح العملية التى بها يقوم الباحثون الكيفيون ببناء المعرفة وتوليد النظرية من خلال عملية يصلون بها إلى التعرف على هذه البيانات، والغوص فيها والخروج منها، والانهماك فى الممارسة الاستقرائية والتأملية فى أحيان كثيرة. ولعله من المناسب أن نعود الآن إلى المثال الذى بدأنا به هذا الكتاب.

بعض الأساليب الكيفية في دراسة أحد الأوبئة: خلق المعرفة الحيوية

تَخيَّلْ وباءً يكتسح الكرة الأرضية، إلا أن هذا الوباء لا يُشبِه أي وباء عُرِف من قبل. وللمرض الذي يسبب هذا الوباء عواقب مدمرة للجسم، كما أنه، وخلافاً لكثير من الأمراض الأخرى، يتضمن مرحلة تسمى عادة مرحلة "الميت الحي". ومن المُحزِن أنه لا يوجد دواء للشفاء من هذا المرض المُوهِن للجسم، كما أن معدل الوفيات في تزايد إلى الحد الذي يجعل بعض الجماعات السكانية تفقد أعداداً لا يُستهان بها من الأفراد. فبدون الشفاء منه، يكون المستقبل المُرتَقَب مستقبلاً مُظلِما. ولكن بعيداً تماماً عما لهذا المرض من خطورة في سرعة انتشاره بالعدوى وفي ارتفاع معدلات الوفيات المرتبطة به؛ يوجد ما يجعله –بالفعل– مختلفاً عن الأمراض الأخرى، وهو ما يتمُّ ربطُهُ بِهِ من معانٍ اجتماعية ووصمة تلحق من يصاب به، وهي الأمور التي تختلف عَبْرَ الثقافات. إذ تُوجَد –علاوة على المضاعَفات الاجتماعية للمرض– مجموعة من الملابسات الاجتماعية ذات الطبيعة التربوية والصحية

والاقتصادية، التي لا يتم ربطها بالأوبئة الأخرى -كالسرطان مثلاً- والتي تُلازم في كثير من الأحيان هذا المرض الطويل الأمد. زد على ذلك، وكما هو الحال مع مرض السرطان، أن يصل الأمر إلى أن البنى العائلية تتأثر وتتبدل بسبب هذا المرض، حيث تنعكس الأدوار حينما يقع الشباب فريسة للمرض، وحين يتوجب على كبار السن وعلى الأطفال أحياناً أن يضطلعوا بعبء رعاية هذا الشاب الذي يُعاني الموت. كما أن هذا الوضع ليس سوى الجزء الظاهر من قمة جبل الجليد، أما ما دون ذلك فهو الأعظم والأخطر. ولا شك أنه ليس علينا أن "نتخيل" مثل هذا الوباء، فإن لدينا مثيلا له وهو : فيروس نقص المناعة البشري/ أو الإيدز، والذي لا توجد جماعة بمنجاةٍ منه. ولكن من وجهة نظر البحث العلمي، تخيَّلْ مدى ما يمكن أن تصل إليه معرفتنا من قصور لو أننا اعتمدنا فقط على طرق البحث الكمِّية في بناء المعرفة بهذا المرض.

فالبحث الكمي بمقدورهِ أن يدلنا على معدلات الإصابة بالمرض ومعدلات انتشاره، وبالمجموعات السكانية الأرجح احتمالاً لأن تنخرِط في "سُلوكٍ خطِر" كبعض الممارسات الجنسية أو تعاطي المخدرات. بل إن بمقدور البحث الكمي أن يدلنا على أنواع السلوكيات الخطيرة التي يرتفع احتمال انخراط القطاعات المختلفة من السكان فيها. ولا حاجة بنا فعلا إلى أن نتخيل مدى قصور معرفتنا بالإيدز لو أننا اعتمدنا فقط على البحث الكمي، فقد حَدَثَ ذلك منا على امتداد أكثر من عشر سنوات، وكنتيجة لذلك حصلنا على إجابات لأسئلةٍ مهمة. فقد ساعد البحث الكمي على الإجابة على الأسئلة البحثية التي منها مثلاً: من هو الفرد الذي يُعتبَر الأشد تعرضا لخطر الإصابة، وما هي السلوكيات الخطيرة التي يشارك الأفراد في ممارستها؟

ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه المعلومات المهمة، فإن البحث الكمي لا يستطيع أن يقدم إجابات على بعض الأسئلة من قبيل: لماذا ينخرط بعض الناس في ممارسات جنسية خطيرة، وإلى أيّ مدىً يؤثر السياق الاجتماعي، والبيئة، والتعليم على الناس من الناحية الجنسية، وكيف تسهم الهوية الجنسية للفرد في تشكيل السلوك الجنسي، وما هي طبيعة الخبرة الخاصة التي يمر بها

الفرد عند إجراء اختبار الإصابة بالمرض ويتأكد له أنه مصاب فعلاً بالإيدز، وما هي الخبرات المعيشية للمصاب بالإيدز، وما هي الصورة التي يتخذها السلوك الجنسي عندما يؤكد التشخيص وجود المرض، وما هي الخبرة الخاصة بالوصمة الاجتماعية المتعلقة بالإصابة بفيروس نقص المناعة، وما هي الخِبرة الخاصة التي يعايشها من يقدم الرعاية الصحية لأحد الأحِبَّة من المصابين بالإيدز، بما تتضمنه هذه الخِبرة من أي شكل من أشكال إعادة بناء الأسرة، وانقلاب الأدوار، والعُسْر المالي، وما إلى ذلك؟

هذه كلها مُجَرد جُزء من الأسئلة والقضايا التي لا يمكن معالجتها من خلالها وسائل البحث الكمية، ولكنها الأسئلة التي يُطْرحها ويُجيب عليها الباحثون الكيفيون في مختلف الميادين، بما فيها علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا والرعاية الصحية، والتربية، ودراسات النوع الاجتماعي. فالمعرفة التي تُثمِرها هذه الجهود المتعددة التخصصات تقوم بتقديم إضافة هائلة لمعرفتنا بالإيدز وللطريقة التي بها نستطيع استحداث طرق جديدة للوقاية الفعَّالة، والخدمات الفعالة، والتدخل المؤثر والإصلاح الاجتماعي. فهيا بنا نلقي نظرة على جُزءٍ من البحث الذي قدمه الباحثون الكيفيون – المنتمون إلى تخصصات متعددة ومتعاونة – لكي نحصل على صورة أفضل لمدى أهمية ما يسهم به البحث الكيفي في إثراء معرفتنا. ودعنا نلقي –بصفةٍ خاصة– نظرة على مدى قدرة الباحثين الكيفيين على "النفاذ إلى" فهم الانخراط في ممارسة جنسية محفوفة بالمخاطر، وفهم خِبرة تقديم الرعاية الصحية، باستعمالهم طرقاً لولاها لظل هذا الفهم عصيا على الإدراك.

فقد أجرى دانيل وايت Daniel Wight وباتريك وست Patrick West(١٩٩٩) دراسة للمقارنة بين كفاءة البحث المسْحِي في مقابل كفاءة المقابلات المتعمقة في دراسة للسلوك الجنسي للذكور العاديين ومفاهيم هؤلاء الذكور عن الجنس. ونظراً لأن وايت و وست من المتخصصين في علم الاجتماع الطبي، فقد كانا مشغولينِ بالطريقة المُثلىَ التي بها نستطيع جَمع المعلومات عن السلوك الجنسي فِي ظل ظروف انتشار مرض الإيدز. وقد اشتملت دراستهما على ٥٨ رجلاً من ذوي الممارسات الجنسية الطبيعية في

جلاسجو. وفي نهاية إحدى السنوات تم إجراء مسح اجتماعي عليهم، وفي نهاية السنة التالية أجريت معهم مقابلات متعمقة. وقد وصل وايت و وست إلى نتيجة مفادها أن البيانات المستمدة من المقابلة المتعمقة (الكيفية) قد وفرت قدراً من الصدق أكبر مما وفره البحث المسَحي (الكمي). وتوضح هذه النتيجة التي وصلا إليها قضيتين مهمتين:

القضية الأولى أنه يوجد، على المستوى المادي، قدرٌ كبير من المعرفة التي يمكننا تحصيلها – عن طريق البحث الكيفي– عن بعض الموضوعات المهمة، كموضوع السلوك الجنسى عند البشر وموضوع السلوك المحفوف بالخطر. كما تزودنا هذه المعلومات بمستوىً من العمق والوصف التفصيلي الذي يُعدُّ أمراً حيوياً لتوسيع قاعدة معرفتنا. **والقضية الثانية**، أن مسألة الصدق تجعلنا نعود للتفكير في القضايا التي تحدثنا عنها في الفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب. ففي الوقت الذى يَغلب فيه استعمال البحث الكمي الذي يُجْرَى على أساس الفلسفة الوضعية باعتباره مَعلَماً ومؤشراً للعمل "العلمي"، فضلا عن اتخاذه نموذجا عند وضع تعريفات الصدق، نتبين اليوم –مع ذلك– أن هناك قَدْراً كبيراً من البحوث التي تَدُل على أن بمقدور البحث الكيفي الذي يُجْرَى بطريقةٍ جيدة أن يزودنا بنتائج أكثر صدقا من النتائج التي تأتي بها البحوث الكميةُ المناظرة.

ويَستعمل الباحثون الكيفيون في فروع العلم المختلفة المقابلات المتعمقة باعتبارها طريقتهم البحثية الأساسية، وذلك في توليد المعرفة المتصلة بمرض الإيدز. فقد قام مارك دافيز Mark Davis (٢٠٠٢) بدراسة مهمة تمزج البحث الصحي والبحث التربوي معاً. وكانت دراسته تهدف إلى التعرف على حكايات التبرير التي يقصها المثليون من الرجال الذين يمارسون سلوكا جنسيا محفوفاً بالمخاطر. ولهذا قام دافيز بإجراء ١٦ مقابلة متعمقة مع ١٦ من الرجال المثليين، وكان بعضهم مصابا بالإيدز والبعض الآخر غير مصاب به. قامت هذه المقابلات "باستكشاف الطرق التي بها كان يتم فهم وتفسير مخاطر الإيدز، وشرح السياق الاجتماعي (دافيز، ٢٠٠٢، ص٢٨٧). فهذا النوع من

البحث يُعَد مكملاً لفهمنا للسلوك الجنسي وما ينطوي عليه من مخاطر، وللطريقة التي بها نساعد على حماية الناس من الإصابة بهذا المرض.

ومن أجل خلق تعليمٍ وقائي فعال، وبرامج للتدخل، ورسائل صحية ثقافية تتجاوب مع ظروف الأشخاص المعرضين للخطر، يكون من الأمور الحيوية أن نفهم – على وجه الحقيقة – عملية اتخاذ القرار عند هؤلاء الأفراد. وهذا الفهم يجعل البحث الكيفي أمراً جوهريا لابد منه. ففي الوقت الذي يدلنا فيه الباحثون الكميون على الجماعات التي يزداد احتمال انخراطها في سلوكيات جنسية معينة، فإنه ليس بوسع هذه الطرق الكمية أن تطلعنا على أسباب ذلك. ولاشك أن الطرق الكمية في بناء المعرفة لا تستطيع أن تجيب على أشدِ الأسئلة الاجتماعية إلحاحاً في وقتنا هذا، خاصة تلك الأسئلة من قبيل: لماذا يستمر الأفراد في الانخراط في سلوكٍ جنسي محفوف بالمخاطر؟ وما الذي يدفعهم لذلك؟ وما هي الضغوط التي يواجهونها؟ وكيف يشرح الأفراد السياقات التي يتخذون فيها قراراتهم الجنسية وكيف يبررونها؟ وكما حاولنا توضيحه على امتداد هذا الكتاب، فإن البحث الكيفي ليس مُجرد زيادة تُضافُ إلى البحث الكمي، بل الأصح أنه يساعدنا على طَرْح تشكيلة متنوعة من أسئلة البحث ومن الإجابة عليها، مُضيفاً بذلك إضافة هائلة إلى رصيدنا من المعرفة عن أي موضوع من الموضوعات.

عند التفكير في تاريخ البحث في مرض نقص المناعة البشري/ أو الإيدز، يتضح لنا السبب في أن قاعدتنا المعرفية عنه كانت محدودة جداً، وهو أن معظم البحوث عنه كانت تجري بمعرفة علماء الطب الحيوي، وكان القليل من هذه البحوث هو الذي يتم بمعرفة العلماء الاجتماعيين وحدهم. ومن الأمور الأساسية التي أسهمت بها بحوث علوم: الأنثروبولوجيا، والنفس، والاجتماع في اطلاعنا على هذه القضية وإرشادنا إلى الطريقة التي نستحدث بها البرامج الوقائية الفعالة، وذلك من خلال الكشف عن أمر أساسي وهو أن الاتصال بين طرفي العلاقة الجنسية يُعد عنصراً حاسماً من عناصر الممارسات الجنسية المحفوفة بالمخاطر.

ولتوضيح هذه النقطة نقول: إن أغلب برامج التعليم كانت قائمة دائماً على افتراض أن طرفي العلاقة الجنسية إنما هما فردان يتصرفان على نحو رشيد و يتحدثان بحرية وصراحة عن قضاياهما ومشاغلهما، وما إلى ذلك. هذا على الرغم من أن البحوث التي تؤكد صحة ذلك بحوث قليلة العدد. مثال ذلك أن الأدوار القائمة على النوع الاجتماعي تؤثر على التواصل بين الأفراد في مجال العلاقات الحميمة بطرق مختلفة كثيرة على النحو الذي قد يعوّق مثل هذا الاتصال "الصريح والعقلاني"، وهو ذلك النوع من الاتصال الذي نتخيلُهُ عند وضعنا للبرامج الوقائية. وقد أضاف الباحثون الكيفيون من شتى العلوم الاجتماعية، والصحة، والتعليم قدراً هائلاً من المعرفة إلى فهمنا للسياق الذي فيه يتواصل الأفراد مع شركائهم في العلاقة الحميمة وفيه يتخذون القرارات الشخصية الخاصة بهما. وهذه المعرفة لم يكن يتيسر الوصول إليها بدون استعمال طرق البحث الكيفية. يُضاف إلى ذلك أن الباحثين من مختلف التخصصات العلمية قد قاموا بالفحص الدقيق للطريقة التي تتبعها الجماعات المُعَرضة لهذه المخاطر بالذات في التفكير في مسألة السلوك الجنسي وفي تعريفنا بسلوكياتهم.

وفي هذا المسار، التقى فريق من الباحثين من تخصصات علمية مختلفة – بمن فيهم متخصصين في علم الاجتماع، وعلم النفس، والصحة – التقوا لدراسة العلاقة بين أدوار النوع الاجتماعي والقابلية للتعرض للإصابة بمرض نقص المناعة البشرى بين بعض ذكور وإناث (من جماعات "الغجر") في كل من بلغاريا والمجر. فهذه الجماعة هي أكبر أقلية عرقية في وسط وشرق أوروبا، كما أنها تتسم ببعض السلوكيات الجنسية التي تنطوي على خطورة كبيرة. ومع ذلك، فإنه قبل أن يقرر كيلي Kelly وآخرون (٢٠٠٤) أن يستعملوا طريقة المقابلات المتعمقة في دراسة هذه الجماعة، لم يكن معروفاً إلا القليل عن السياق الثقافي والاجتماعي الذي كان يُمارس فيه السلوك الجنسي. ولكن بعد إجراء ٤٢ مقابلة متعمقة اكتشف الباحثون قدراً كبيرا من المعرفة عن المعايير الجنسية داخل هذه الجماعة. مثال ذلك، أن الخيانة التي تصدر من الرجال أمر شائع، على حين اتضح أن النساء لا يكُنّ نشيطات

جنسيا إلا مع أزواجهن. فهذا النوع من المعلومات – وكثير مثله من معلومات "الوصف المُكثف" التي تُبين كيف يفكر الرجال والنساء في هذه المعايير وكيف يتعاملون معها...إلخ – نقول: هذا النوع من المعلومات يُعَدُّ حيوياً لبلورة البرامج التعليمية الفعالة المُوجَّهةَ لهذه المجموعة السكانية المعرضة للخطر. يُضاف إلى ذلك، أن هذه الدراسة تُعدُّ مثالاً نموذجياً للطريقة التي بها تتخطى الطرق الكيفية الحدود الفاصلة بين التخصصات العلمية وتُيسِّر طرح أسئلة البحث المتعددة التخصصات وأسئلة البحث المتداخلة التخصصات.

كما أن البحث الكيفي يستطيع أن يضيف أفكاراً عميقة جديدة ومهمة إلى أسئلة البحث القديمة التي لم تكن تعالَجْ قبل ذلك إلا بالطرق الكمية فقط. فعلى امتداد فترة طويلة من الزمن دلَّ البحث على أن الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال (وخاصة الجنس المحفوف بمخاطر كبيرة) والأفراد الذين يتعاطون المخدرات (وخاصة باستعمال إبر الحقن) يكونون معرضين لخطر العدوى بفيروس نقص المناعة البشرى. ولكن ماذا عن الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال ويتعاطون المخدرات في نفس الآن معا؟ في هذه الحالة، تُعزَى معدلات انتقال عدوى المرض إلى الممارسات الجنسية، ومع ذلك، فإن العلاقة بين الممارسات الجنسية وتعاطي المخدرات لم تحظَ بالقَدْر المناسب من الفحص الدقيق (Clatts & Sotheran, 2000, p. 169).

ولفهم العلاقة المعقدة بين الممارسات ذات الخطورة بين الرجال الذين يشتركون في كل من الجنس المثلي وتعاطي المخدرات، ولفهم طبيعة هذه الممارسات قام كلاتس و سوذران بإجراء بحث إثنوجرافي يتعلق بالصحة العامة لدى هذه المجموعة السكانية. وتُعتبر هذه المجموعة بالذات عَصية على الوصول إليها لتحقيق أهداف التدخل نظراً لأنه لا يُعْـرَفُ إلا القليل عن هويتهم وعن محال إقامتهم (٢٠٠٠، ص١٧١). كانت الطريقة الأساسية التي استخدمها كلاتس و سوذران هي طريقة الملاحظة بالمشاركة حتى يتمكنا من الحصول على معرفة مباشرة عن الممارسات والمعتقدات الخاصة بهذه المجموعة، وعن سلوكياتهم، وعن الأسس المنطقية لتلك السلوكيات. وقد كان استعمال الملاحظة بالمشاركة كطريقة لفهم السلوكيات الخطيرة مُكملاً لعملية

"فك الاشتباك" (أي: إزالة الالتباس والتعقيد) بين العوامل المختلفة المسئولة عن التعرض لعدوى الإصابة بالأمراض التي تنتقل بالممارسة الجنسية(*). وهـذا الهدف البحثي، والذي يتفق مع ظروف هذه المجموعة المراد دراستها يقدم لنا مثالاً واضحا عن متى تكون الطرق الكيفية ضرورية لملء فجوةٍ في المعرفة الراهنة. لذلك كان البحث الإثنوجرافي هو الطريقة التي يمكن أن تعالجَ هـذه المشكلة البحثية على أفضل الوجوه.

إن البحث الإثنوجرالي ليس طريقة مفردة (أي مقـصورة علـى أداة بحثٍ واحدة)، بل هو مجموعة من الأدوات البحثية الموجَّهة لدراسة الظـواهر الاجتماعية داخلَ البيئات الطبيعية التي تُوجَدُ فيها، وذلك من خلال التفاعل مع المبحوثين باستعمال لُغاتهم داخل بيئاتهم. وعلى المـستوى النظـري العـام، يختلف هذا التراث البحثي "الطبيعي" عن النماذج التجريبيـة المـستعملة فـي البحث المعملي و العيادي والتي تفترض، مثلاً، أن جميع التـأثيرات البيئيـة "معروفة" ومن الممكن تثبيتها لكي يتسنى "عزل" التأثيرات التي يتوصل إليهـا الباحث عن طريق الاستدلال العقلي، أو عزل تـأثير الاهتمامـات النظريـة للباحث. وعلىٍ العكس من ذلك، يقوم البحث الإثنوجرافي "بالطرح الإشـكالي" للتأثيرات التي تحدثها البيئة المادية والاجتماعية في الأفراد المبحوثين، ومن ثمَّ يولي أهمية منهجية لملاحظة المجموعة السكانية التي يدرسها وهـي داخـل بيئتها الطبيعية. وهذا التوجُّه المنهجي مُستمد مـن المُـسلَّمة التـي تقـول إن الظواهر السلوكية مترابطة بطرقٍ معقدة يمكن اختزالها دائماً إلـى مجموعـة بسيطة من العلاقات القابلة للعزل عند إجـراء التجـارب عليهـا. (كلاتـس وسوذران، ٢٠٠٠، ص١٧٠).

من الواضح – إذن – بناءً على هذه المقارنة بين التجـارب الكميـة والبحث الإثنوجرافي الكيفي أن البحث الكيفي ضروري لدراسـة كثيـر مـن الظواهر الاجتماعية. وقد كان البحث الإثنوجرافي أمراً محوريا لابُدَّ منه فـي تأسيس معرفة لها معناها في حالة هذا المشروع البحثي المتداخل التخصصات

(*) STD = Sexually Transmitted Diseases.

تدلنا على ما يلي: ما هي الممارسات، والأفكار، والمشاعر، والمبررات التـــي تدفع إلى تعاطي المخدرات بين الرجال الذين ينخرطون - إلى جانب ذلـــك - في ممارسة الجنسية المثلية، وما هي العلاقة بين هذه الممارسات وبين القابلية للإصابة بفيروس نقص المناعة (الإيدز).

وهكذا زوَّدَنا البحث الإثنوجرافي الذي أجراه كلاتس و سوذران بقدرٍ كبير من المعلومات المهمة والتي لم تكن معروفة من قبل عن هذه المجموعةَ السكانية. وهذا النوع من المعلومات التي جَمَعَاها يشهد لقوة البحـــث الكيفـــي. مثال ذلك، أن بحثهما الإثنوجرافي أتاح لهما أن ينتبها إلى تمييزاتٍ مهمة بـــين فئات عامة من السلوك يشيع بين الناس الاعتقاد بأنها فئة واحدة مـــن فئـــات السلوك. وقد ختم كلاتس وتسوذران دراستهما ببيان مدى أهمية البيانات الكيفية الوصفية عند التفكير في استحداث أشكال ناجحة فعالة من الوقاية، والخدمات، والتدخل المُوجَّهة إلى مجموعات سكانية معينة (٢٠٠٠، ص١٧٨).

في نفس الوقت الذي ساعَدَنا فيـــه البحـــث الكيفـــي علـــى الإحاطـــة بمعلومات جديدة عن الجماعات السكانية التي أصيبت إصـــابة شـــديدة بهـــذا الوباء، لعب البحث الكيفي دورا حيوياً في تحصيل المعرفة عن الأفراد الـــذين لا تقع أعيننا عليهم و الذين أثر عليهم الإيدز، وأعنى بذلك مُقَـــدِّمي الرِعايـــة لأولئك المرضى. فهذا المرض شديد التفرد في كونهِ يؤثر علـــى كـــلٍ مـــن العلاقات الشخصية والنظم الاجتماعية بطرقٍ عميقة التأثير. ومما يندرج ضمن التأثير الشخصي والاجتماعي للإيدز تلك المجموعةٍ من المعاني الاجتماعيـــة والثقافية المرتبطة بهذا المرضٍ، فهو مرض ذو مُكون اجتماعي، وهو الوصمة المرتبطة بهذا المرض والتي تُعَدُّ من وجهة نظر العلوم الاجتماعيـــة مُـــشكلة تماثل مُشكلة المرض نفسه. كما أن هذا الوباء يكشف عن موقف متفرد لتقديم الرعاية للمصابين به. ففي الوقت الذي يكون فيه المرضى في حاجـــة دائمـــة للرعاية عند الإصابة بأي مرض طويل الأمد، فإن هذا المرض وما يتفرد بـــه من سمات اجتماعية وبدنية خاصة يكشف عن حالة فَذَّة مـــن تقـــديم الرعايـــة يتعين علينا استكشافها.

فبالنسبة لمن يباشرون العمل في هذا المجال، وبَعْـــدَ إدخـــال المـــدى العُمري لهؤلاء الأفراد الذي يعانون من المرض بمعدلات أكثر من غيـــرهم؛

بإدخال ذلك في الحسبان تكشف لنا العلاقة الخاصة بتقديم الرعاية – في أحيان كثيرة– عن نوعٍ من انقلاب الأدوار الاجتماعية. إذ نجد في حالة الإصابة بمرض الإيدز أنه في كثير من الأحيان يقوم بدور تقديم الرعاية للشخص المصاب والداه الكبيرا السن أو أبناؤه صغار السن (D'Cruz, 2004, p.414). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن القول إن تقديم الرعاية لفرد مصابٍ بالإيدز أثقل وطأةً من تقديم الرعاية للمصابين بأمراضٍ أخرى بسبب:

(١) طول الفترة الزمنية التي يعيشها "الميت الحي".

(٢) ولأنَّ هذا المرض يستهدف أساساً شباب المراهقين ممن يكونون مُنتجين اقتصاديا ونشطين جنسياً،

و(٣) بسبب المعاني الثقافية المرتبطة بهذا المرض (أي بسبب الوصمة المرتبطة بالإصابة بهذا المرض) (دكروز، ٢٠٠٤، ص٤١٤).

فإذا أدخلنا في اعتبارنا تلك الصفة المتفردة التي يتصف بها تقديم الرعاية لشخصٍ مصابٍ بهذا المرض، وعدد التخصصات العلمية المعنية بهذا المرض وبتأثيره الاجتماعي، وتأثيره النظامي (المؤسسي)، بجانب تأثيره على العلاقات بين الأفراد، فإنه يكون من العجيب أنَّ ما أجرى من فحوص إمبيريقية لهذا الجانب من جوانب المرض قليل جداً.

لهذا قررت برميلا دكروز Premilla D'Cruz، والتي تعمل في مجال السلوك التنظيمي بخلفية من العلوم الاجتماعية؛ قررت أن تقوم بمشروع بحثي كيفي عن خِبرة الأسرة بتقديم الرعاية للمصابين بمرض نقص المناعة أو الإيدز في الهند، حيث تصل الإصابة بالإيدز إلى معدلات وبائية (دكروز، ٢٠٠٤، ٤١٤). وقد قامت دكروز بإجراء مقابلات متعمقة (في جلسات متعددة) وأجرت ملاحظات إثنوجرافية مع ١٩ من أعضاء الأسر ممن كانوا يقدمون الرعاية أو ممن كانوا يتلقونها. وحصلت كروز على مبحوثيها من خلال العينة العمدية، والتي ناقشناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وقد أثرت أهمية الأخلاقيات المُتَبَعة في العملية البحثية تأثيراً حقيقيا وبطرق مباشرة في البحث الذي قامت به دكروز، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار الوصمة الاجتماعية المرتبطة بالإيدز والقضايا المتصلة بالسرية العلاجية والخصوصية التي واجهتها خلال عملية اختيارها للمبحوثين المشاركين. وبفضل التزامها

بمبادئها الأخلاقية، وذلك عن طريق استعمالها للموافقة الصريحة عن علم وبنائها للألفة، استطاعت إنجاز هذا المشروع الذي كان بمثابة تحد حقيقي. فقد استعملت دكروز اتجاها فينومينولوجيا لأنها كانت مَعْنِيةً بفَهم "الخبرة" الشخصية والمعاني الذاتية والتفسيرات أو التأويلات الفردية. وعندما كانت تجري المقابلات داخل بيت المبحوث كانت تقوم كذلك بتسجيل الملاحظات الإثنوجرافية لكي تفهم "سياق الموقف" الذي يتمُّ فيه تقديم الرعاية (دكروز، ٢٠٠٤،ص٤١٥). ومن خلال قيامها بالجَمْع بين المقابلة المتعمقة، وإجراء الملاحظات، واستعمال أحد الاتجاهات الظاهراتية (الفينومينولوجية)، حصلت دكروز على قدر كبير من البيانات الكيفية التي صنفتها وفقاً لموضوعاتها الأساسية بعد قيامها بعملية من عمليات "الغوص في أعماق البيانات"، على النحو الذي عرضنا له في الفصل العاشر من هذا الكتاب. والنتيجة هي نجاحها في الوصول إلى فهم أكبر كثيراً لعملية تقديم الرعاية لشخص مصاب بفيروس نقص المناعة أو الإيدز وللطرق المختلفة التي بمقتضاها يَخبُرُ الناس دور مُقدم الرعاية مع إدخال السياق الاجتماعي لهذا المرض في الحُسبان. ويمكن الاستفادة بهذا البحث في مواصلة تطوير المشاريع البحثية المهمة عن هذا الموضوع وعن الموضوعات المتصلة به.

خاتمة: الرؤية الكيفية لبناء المعرفة

إن ما يمكننا أن نتبينه بوضوح من المثال الخاص بالبحث الذي يتناول فيروس نقص المناعة البشرى أو الإيدز هو أن البحث الكيفي يمثل اتجاها مهما في بناء المعرفة. وهو مثال ممتاز للطريقة التي بها قام باحثون من مختلف التخصصات: الأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والرعاية الصحية، والتربية؛ حيث قام أولئك الباحثون بابتداع طرقٍ لاستعمال الاتجاهات الكيفية في بناء المعرفة بغرض إلقاء الضوء على مُختلف الجوانب الخفية لأزمة الإصابة بمرض الإيدز. وقد أتاحت هذه الاتجاهات للباحثين أن يضعوا أيديهم على المعارف المقهورة أو الخاضعة التي استمدوها من الجماعات المهمشة في كل من الولايات المتحدة وخارجها، كما أتاحت لهم أن يُجْروا بحوثهم انطلاقاً من رؤىً أو منظورات إبستمولوجية وفكرية متعددة حتى تتلاءم مع أهدافهم. وتُظهرُ المقارنة بين البحث الكمي والبحث الكيفي أنه بدون

البحث الكيفي فإنه يوجد الكثير الذي لا يمكننا أن نحيط به عن هذه الظاهرة الاجتماعية، أو عن أي ظاهرة اجتماعية أخرى.

لقد ركّز هذا الكتاب على الاتجاه الكيفي في بناء المعرفة، أو على النموذج التأويلي الكيفي. وقد قمنا، بصفة خاصة، بالفحص الدقيق للعلاقة بين الإبستمولوجيا، والنظرية، ومنهجية البحث، وطريقة البحث -أو ما أسميناه الرابطة البحثية- في عملية بناء المعرفة. وإن ما تعلمناه من خلال هذا الكتاب، والذي برهنا عليه باستعراض المثال الذي ختمنا به الكتاب والمتعلق بالبحث في مجال مرض فيروس نقص المناعة/ أو الإيدز عبرَ التخصصات العلمية المتعددة؛ ما تعلّمناه هنا هو أن الاتجاهات الكيفية في بناء المعرفة تُعَد جزءاً مهما في خلق المعرفة الجديدة، والتي تُوسِّع من نطاق المعرفة القديمة أو تفندها، كما تُعدُّ جزءاً مهما من إيضاح وتفسير الرؤى والتوجهات النظرية التي لم تكن جلية قبل ذلك. وبجانب التفسير السببي الذي يُميز البحث الكمي ويعبر عنه عادة، يوفر البحث الكيفي بيانات وصفية حية استكشافية وإيضاحية، كما أنه كثيراً ما يُستَعمل لتوليد النظرية.

وقد ركز هذا الكتاب على كُلٍ من طرق البحث الكيفية التقليدية وخطط البحث ذات الطرق المختلطة التي تجمع بين كلٍ من النموذج الفكري الكيفي والنموذجي الفكري الكمي. ويُعَد حقل الطرق الكيفية حقلاً دائم التغير نظراً لأن التوجهات النظرية الجديدة، والتي منها مثلاً ذلك التحول نحو ما بعد الحداثة ونحو النزعات واسعة النطاق التي تتجه لبناء مجتمع تتم عَولمته ورقمنته بصورة متزايدة؛ نقول: يُعد حقل الطرق الكيفية حقلاً دائم التغير نظراً لأن هذه التوجهات النظرية الجديدة تطالب الباحثين أن يطرحوا أسئلة جديدة قد لا تطرحُها طرق البحث التقليدية على نحو ملائم. فطرق البحث ليست كيانات ساكنة ثابتة – وذلك كما سبق أن بينا – إنما هى تتسم "بالمرونة والقابلية الشديدة للتغير".

وتوجد في وقتنا هذا **طرقٌ كيفية بازغة** (مستحدثة وقوية) قيدَ التأسيس تنتشر بين سائر التخصصات العلمية، وقد حاولنا الإشارة إلى بعضها في ثنايا كتابنا هذا. ونحن نسمى هذه الطرق "بازغة" emergent لأنها طرق جديدة أو صور مهجنة من تقنيات كيفية ثبتت صحتها بالتجربة. فتخيَّل مدى ما يُمكن لبعض هذه الطرق أن تقدمه لتواصل الإسهام في إثراء معرفتنا عن مرض

الإيدز وعن غيره من القضايا الاجتماعية المهمة. مثال ذلك، أن في كتابنا القادم بعنوان "الطرق البازغة في البحث الاجتماعي: النظريات، والطرق ومناهج البحث(*). نتكلم عن طريقة تُسمى: "بحثُ المذكرات اليومية" التي استحدثها هايرز Hyers، وسويم Swim، وماليت Mallet(٢٠٠٥).

وبموجب هذه الطريقة يحتفظ المشاركون في البحث (المبحوثون) بمذكرة يومية يُسجلون فيها أفكارهم، ومشاعرهم وملاحظاتهم عن موضوع معين. فتخيَّل مدى ما يمكن لهذه الطريقة أن تسهم به في فهمنا لرعاية طفلٍ أو شخص يعاني الموت لإصابته بالإيدز، أو فهمنا لخبرة المعيشة مع شخص مصاب بهذا المرض أو مثيله والتعامل مع ما يحدث كل يوم من التمييز في المعاملة (من محاباة أو تحامل). وهذه الطريقة مجرد واحدةٍ من الطرق الكيفية الكثيرة البازغة التي ستواصل توسيع نطاق قاعدتنا المعرفيّة. وتواصل هذه الطرق تطورها لكي تعالج المخاوف، والأسئلة، والقضايا التي كشفت عنها المواقف النظرية والإبستمولوجية الجديدة. وبهذا الأسلوب يتأكد لنا بوضوح أن البحث الكيفي عملية كلية شاملة، ليس فقط في الممارسة العملية، وإنما كذلك من حيث تطورها، إذ يتم استحداث المزيد من الطرق لكي تقوم بعملها في إطار النظريات الجديدة.

* * *

References المراجع

- Clatts, M., & Sotheran, J. (2000). Challenges in research on drug and sexual risk practices of men who have sex with men: Applications of ethnography in HIV epidemiology and prevention. *AIDS and Behavior, 4(2),* 169-180.
- Davis, M. (2002). HIV prevention rationalities and serostatus in the risk narratives of gay men. *Sexualities,* 5(3), 281-299.
- D'Cruz, P.(2004). The family context of care in HIV/AIDS: A study from Mumbai, India. *The Qualitative Report,* 9(3), 413-434.
- Hyers, L. L., Swim, J.K.& Mallett, R.M. (forthcoming). The personal is political: Using daily diaries to examine everyday gender-related experiences. In S. N Hesse-Biber & P. Leavy (eds.): *Emergent methods in social research.* Sage.
- Kelly, J. A., Amirkhanian, Y.A, Kabakchieva, E., Csepe, P., Seal, D.W., Antonova, R., et al. (2004). Gender roles and HIV sexual risk vulnerability of Roma (Gypsies) men and women in Bulgaria and Hungary: An ethnographic study. *AIDS CARE, 16(2),* 231-246.

(*) Emergent Methods in Sociol Research: Theories, Methods and Methodologies.

- Wight, D., & West, P. (1999). Poor recall, misunderstandings and embarrassment: Interpreting discrepancies in young men's reported heterosexual behavior. *Gulture, Health & Sexuality, 1*(1), 55-78.

تعريف بمؤلفتى الكتاب

شارلين هس – بيبر

أستاذ علم الاجتماع بكلية بوسطن فى تشيس نت هل، ماساشوستس. نشرت أعمالاً كثيرة عن تأثير العوامل الاجتماعية الثقافية عن صورة الجسد عند المرأة. ومن بينها كتابها "هل أصبحت نحيفة بما فيه الكفاية؟ عبادة النحافة و تسليع الهوية" (١٩٩٦) وهو العمل الذى اختارته مجلة "تشويس" كأفضل كتاب أكاديمى لعام ١٩٩٦. وشاركت فى تحرير كتاب "الاتجاهات النسوية فى النظرية ومنهج البحث: مدخل متعدد التخصصات" (١٩٩٩)، وكذلك كتاب "اتجاهات فى البحث الكيفى: مدخل فى النظرية والممارسة (٢٠٠٤). كما شاركت فى تأليف كتاب "دليل البحوث النسوية"، وشاركت فى تحرير كتاب "الطرق البازغة فى البحث الاجتماعى" (وكلاهما تحت الطبع عن دار نشر سيدج). وهى محررة كتاب "مدخل إلى البحوث النسوية" (تحت الطبع عن دار سيدج أيضاً)، كما شاركت فى تطوير برنامج "البحث الفائق" HyperResearch، وهو برنامج كمبيوتر لتحليل البيانات الميدانية الكيفية.

باتريشيا ليفى

أستاذ مساعد علم الاجتماع وعلم الإجرام فى كلية ستونهيل فى إيستون، ماساشوستس. وقد نشرت عدة أعمال فى مجالات: النظرية النسوية والنظرية النقدية، والذاكرة الجمعية، والثقافة الجماهيرية، وطرق البحث الكيفية والنسوية. كما شاركت فى تأليف كتاب "دليل البحوث النسوية"، وشاركت فى تحرير كتاب "الطرق البازغة فى البحوث الاجتماعية" (وكلاهما تحت الطبع عن دار نشر سيدج).

* * *

تعريف بمؤلفى فقرات "خلف الكواليس"

- **كارول بيلى:** أستاذ مساعد علم الاجتماع وبرنامج دراسات المرأة فى معهد فيرجينيا الفنى العالى وجامعة ولاية فرجينيا. تهتم بحوثها بمجالات السلوك المنحرف ودراسات النوع (الاجتماعى).
- **كارولين إليس:** أستاذ علوم الاتصال وعلم الاجتماع بقسم الاتصال فى جامعة جنوب فلوريدا. وقد اشتركت مع آرثر بوخنر فى تحرير كتاب "وجهة النظر الإثنوجرافية: الإثنوجرافيا الذاتية، والأدب، وعلم الجمال" (٢٠٠٢) كما اشتركت مع ألتاميرا فى تحرير مجموعة كتب عن "البدائل الإثنوجرافية". ووضعت كتاباً بعنوان "المفاوضات النهائية: قصة الحب، والفقد، والمرض المزمن" (١٩٩٥). وتشمل اهتماماتها الحالية دراسة المرض والألم والتقدم فى العمر.
- **دانا جاك:** حصلت على درجة الدكتوراه فى التربية من جامعة هارفارد ١٩٨٥، وبعد أن كانت قد حصلت على درجة الماجستير فى الخدمة الاجتماعية من جامعة واشنطن فى عام ١٩٧٢. ومارست مهنة الإرشاد النفسى. ألفت كتاب "وراء القناع: التدمير والإبداع فى العدوان النسائى" (١٩٩٩)، وكتاب "تسكين النفس" (١٩٩٣). كما شاركت فى تأليف كتاب "الرؤى الأخلاقية والقرارات المهنية: القيم المتغيرة لدى جماعة من المحاميات والمحامين" (١٩٨٩) مع راند جاك. كما نشرت وكتبت كثيراً فى ميدان منهج البحث والنوع.
- **دافيد كارب:** حصل على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك فى عام ١٩٧١. من مؤلفاته كتاب "عبء التعاطف" (٢٠٠٢)، "حديث عن الحزن: الاكتئاب، والانعزالية، ومعنى المرض" (١٩٩٧)، "الهوية الحضرية: علم اجتماع الحياة الحضرية" (١٩٩٤)، "سوسيولوجيا الحياة اليومية" (١٩٩٣)، "خبرات دورة الحياة: علم النفس الاجتماعى للشيخوخة" (١٩٩٣)، وأخيراً: "حرفة البحث: مقدمة فى طرق البحث الاجتماعى" (١٩٩٢). يعمل كارب حالياً أستاذاً لعلم الاجتماع بكلية بوسطن.

- **ساره ماديسون**: حصلت على درجة الدكتوراه فى نظم الحكم والعلاقات الدولية من جامعة سيدنى (أستراليا) فى عام ٢٠٠٤. شاركت فى تأليف كتاب "الحديث عن الحركية السياسية: المعرفة العملية والتوتر الخلاق فى حياة الحركات الاجتماعية" (تحت الطبع)، بالاشتراك مع شبان سكالمر. تتركز اهتماماتها البحثية الحالية فى نظرية الحركات الاجتماعية، ودراسات النوع (الاجتماعى)، والسياسة العامة. تعمل الآن مدرساً لعلم السياسة وللسياسة العامة الأسترالية بمعهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة نيوساوث ويلز.
- **ليندساى بريور**: أستاذ علم الاجتماع بجامعة ويلز، فى كارديف. تولى مسئولية إدارة برنامج بحوث المخاطر والصحة فى كلية الطب بجامعة ويلز، وذلك خلال الفترة من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٢. من مؤلفاته: "الوثائق فى البحوث الاجتماعية: إنتاجها، واستخدامها، وتبادلها" (٢٠٠٢)، "التنظيم الاجتماعى للصحة العقلية" (١٩٩٣)، و"التنظيم الاجتماعى للموت" (١٩٨٩). يعمل حالياً فى عدد من المشروعات البحثية المتصلة بقضايا الصحة. ومن تلك المشروعات بحوث عن: تقدير المخاطر فى علم الوراثة، ووصف العقاقير المضادة للاكتئاب فى مرحلة الرعاية الأولية، اتجاهات العامة نحو مصل الأنفلونزا، تقويم العامة لإصابات المخ الموجعة، اتجاهات العامة نحو متلازمة التعب المزمن، وأخيراً كيف يتعرف مقدمو الرعاية الطبية على أعراض الألزهايمر لدى المرضى بمتلازمة الاكتئاب.
- **ديانا روز**: باحث رئيسى فى فريق متابعة المستخدمين بمركز سانسبورى للصحة العقلية فى لندن. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن، ونشرت وكتبت كثيراً عن طرق البحث الكيفى، واللغويات الاجتماعية، وبحوث التليفزيون، والصحة العقلية.
- **جوليا جونسون روتنبرج**: أستاذ التربية بكليات سيدج فى الولايات المتحدة. تتركز مجالات تدريسها وبحوثها فى دراسة وممارسة عمليات إعداد المعلم، ودراسة الفئات المختلفة من التلاميذ. وإلى جانب عمل د.

روتنبرج فى الولايات المتحدة، قامت بالتدريس فى جامعة كيب تاون (فى جنوب إفريقيا)، وفى جامعة ليسوتو (فى مملكة ليسوتو). كما عملت أستاذاً زائراً بالمعهد الهولندى للدراسات المتقدمة فى هولندا، حيث اشتركت مع زملائها بجامعة ليدن فى دراسة بعض قضايا تعليم الفئات المتنوعة ثقافياً.

- **بارى ثورن:** أستاذ علم الاجتماع ودراسات المرأة بجامعة كاليفورنيا، بركلى، حيث تولت هناك – أيضاً – إدارة مركز بحوث الأسر العاملة. كان قد سبق لها تولى التدريس بجامعة جنوب كاليفورنيا وجامعة ولاية ميتشجان. ألفت كتاب: "لعبة النوع (الاجتماعى): البنات والأولاد فى المدرسة" (١٩٩٣). كما شاركت فى تحرير كتاب "علم الاجتماع النسوى: تواريخ حياة حركة اجتماعية" (١٩٩٧)، وكتاب "إعادة النظر فى الأسرة: بعض الأسئلة النسوية" (١٩٩٢) وكتاب "اللغة، والنوع الاجتماعى، والمجتمع" (١٩٨٣). تعمل حالياً فى إعداد دراسة إثنوجرافية للطفولة فى منطقة متفاوتة الدخول ومتنوعة عرقياً فى أوكلاند، كاليفورنيا.

المترجم فى سطور

أ.د. هناء الجوهرى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، والخبيرة الدولية فى التنمية الاجتماعية.

اهتمت منذ بداية عملها الأكاديمى بدراسة أشكال الحياة والعمل الجديدة، فدرست "ظاهرة الأعمال الإضافية غير الرسمية بين موظفى الحكومة والقطاع العام" (١٩٨٩) و"أثر المتغيرات الاجتماعية والثقافية فى تشكيل نوعية الحياة فى المجتمع المصرى" (١٩٩٤). كما اهتمت بحياة ومشكلات سكان العشوائيات فى مدينة القاهرة، وحياة فقراء المدينة، وظواهر الحرمان الاجتماعى...إلخ. ورافق ذلك كله اهتمام متصل بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمشكلات البيئية، وأخرجت كتاباً عن "التنمية الحضرية" (٢٠٠٦) وكتاباً عن "ثقافة التحايل. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى" (٢٠٠٤)، ويحوى تقرير البحث الذى أجرته فى إطار مشروع "التراث والتغير" الكبير الذى نفذه مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة. هذا فضلاً عن دراسات "الشباب والإنترنت" (٢٠٠٠)، و"مجتمع الماكدونالدز" (٢٠٠٥) وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لحصره هنا.

ولكن نخص بالذكر اضطلاعها بترجمة "موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية" (٢٠٠٩)، وكتاب "البحث الميدانى الإثنوجرافى فى العلوم الاجتماعية" (٢٠١٠). وتشارك حالياً فى ترجمة الطبعة الثانية من "موسوعة العلوم الاجتماعية" (تحت الطبع – ٢٠١١). وجميع هذه الأعمال عن المركز القومى للترجمة بالقاهرة.

المراجع فى سطور

أ.د. محمد الجوهرى

- أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة.
- عميد كلية الآداب، جامعة القاهرة ورئيس جامعة حلوان الأسبق.
- أشرف وشارك فى عدد كبير من البحوث والندوات العلمية والمؤتمرات الدولية والعربية فى ميادين: علم الاجتماع، دراسات التراث الشعبى، التنمية الاجتماعية، الدراسات الثقافية.
- مثل مصر، على امتداد أربعة عشر عاماً، فى المؤتمر العام لليونسكو بباريس.
- رأس "المجلس الدولى لدراسة التحولات الاجتماعية" التابع لليونسكو (١٩٩٥-١٩٩٧).
- ألف ونشر ١٢١ بحثاً ودراسة.
- ترجم وشارك فى ترجمة ٣٨ عملاً.
- أشرف على ٥٥ رسالة دكتوراه، و٥٢ رسالة ماجستير.

التصحيح اللغوى: أيمن صابر
الإشراف الفنـــى: حسن كامل

يقدم هذا الكتاب أشمل وأوفى نص عربى يتناول البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية بطرائقها المختلفة، المألوف منها: كالملاحظة، والمقابلة، والبحث الإثنوجرافى، وتحليل المضمون، وجماعات المناقشة المركزة. كما يولى اهتماما خاصا لطرائق البحث الكيفى المستحدثة: كالتاريخ الشفاهى، وطرائق البحث غير التدخلية، كتلك التى تجرى على المادة الغزيرة المتجددة المتاحة فى مواقع الإنترنت، وفى قاعات المناقشة، والفيسبوك، واليوتيوب، وغيرها. وأخيرا طرائق البحوث البصرية، والبحوث التى تستخدم خليطا من الطرائق.

ويعتمد عرض مادة الكتاب على نماذج واقعية متعمقة، وممارسات ميدانية حقيقية. كما يولى الكتاب اهتماما فائقا للقضايا الأخلاقية المرتبطة بممارسة البحوث الكيفية، وهو مبحث غير مطروق فى كتب البحث العربية، وينتهى كل فصل من فصوله بتعريف بأهم المصطلحات، وأسئلة للمناقشة، واستعراض لأهم مواقع الإنترنت المتصلة بموضوع الفصل، وقائمة المراجع.

تصميم الغلاف: نسرين كشك